

إسحاق ماشراش

أَنْبَكَتْهُ

(عائشة)

ترجمة: وليد تمقاده

قبل قراءة الرواية

جميع من يقرؤون باللغة الأم، على ما أتوقع، يعرفون الكاتب الكبير إسحاق ماشباش. بل تعلموا القراءة بها من خلال كتاباته الروائية والشعرية. وقد تداولنا، ونحن شباب، مجموعته الشعرية "السحب" تستقر على الأرض" وحفظنا بعض ما فيها. وقد روى لنا الكاتب معتقداً أنه، وهو يُنشِّد شيئاً منها على المحتفين به في دمشق عام 1969، نسي فجأة الأبيات التالية فما كان من أخيها وصديقنا حسن طامزوق إلا أن أسعفه فأكملها عنه.

كان لقاؤنا بالكاتب في زيارته إلى دمشق في ربيع ذاك العام حافزاً لنا بعدما تعرّفنا شخصيته عن كثب على متابعته كتاباته التي ر بما غطّت على كتابات غيره، وهذا ما يحدث في أي أدب وبأي لغة، حتى نتاجاته المتأخرة: خان جري، وعائشة، والشرق والغرب، ورداد...

لـ أريد الدخول في تفصيلات عن أدبه فهناك دراسات عنه من أشخاص متخصصين في أدبه، غير أني لا بد أن أنوّه بريادته للرواية الفنية الشركسيّة. وألحُ على "الفنية" بالمفهوم الغربي للرواية لأنَّ غيره قد يكون سبّقه إلى كتابة الرواية. وأنوّه أيضاً بما يسمى في العربية بـ "تطويع اللغة" الشركسيّة لتكون لغةً رواية، لا لغة حكايات فحسب، وليس هذا بالسهل. ويعرف قراء الرواية العربية أن هذين الأمرين: الفنية والتطويع، عيْل فيهما عشرات الروائيين العرب، وعلى مدى عقود من السنين، حتَّى استوت الرواية العربية على ما هي عليه اليوم.

وإسحاق ماشباش كاتب محترف بمعنى الكلمة، ولذا بقي أن أشير إلى بعض ما هو خاص به وبالرواية: سيلاحظ القارئ أسلوباً متميزاً في إدارة الحوار بين أكثر من شخصين في وقت واحد؛ وهذا ما يحتاج إلى علامات تنقيط خاصة، ولاسيما الخطوط التي تعني انتقال الحوار من شخص إلى آخر. ويطلب هذا

الأسلوب الذي آثره المحافظة عليه رغم صعوبته في البداية على سبيل الأمانة لـ "براءة الاختراع" إن صح التعبير، انتباهاً ومتابعة من القارئ. وسيتوقف القارئ أيضاً محظياً أمام تغيير أسماء بعض الشخصيات، وعلى سبيل المثال اسم عائشة الذي يرد في السرد الروائي باسمها الأصلي "عائشة"، وفي الحوار بين الشخصيات باسمها "المُفرِس" أيسبيه ، وباسمها الكامل الرسمي: شارلوت – إليزابيت أيسبيه أحياناً. وكذا اسم حبيبها الكامل: بليز – ماري دو إيدري شفاليه، الذي يختصر أحياناً على لسان عائشة إلى "دو إيدري"...

وبحسب التقاليد الفرنسية يجب نطق الأسماء المركبة كاملاً في المواقف الرسمية مثل أسمى الأخرين: ماري – أنجليك، وكلودين – ألكسندرین، مع وضع الإشارة "—" بين جزأيه الاسم. في حين أنه يكتفى بالجزء الأول منه في الحديث بين الأخرين.

وأخيراً كل الشكر لمن كان لهم الفضل في رؤية هذا العمل وسابقه "خان جري" للنور. وأخص الشقيقين فاروق وحسن طامزوق، والأستاذ مدوح قوموق... ومن يتجشم مشقة قراءتها. المترجم

مقدمة الكاتب

أمواج البحر الخفيفة تحمل الحصى إلى الشاطئ موشوشةً، وصبيةُ الثامنة الرشيقه تسترق السمع إليها، وتسأل أمها:

- نحن أديعة، فلماذا يسمينا صياد السمك العجوز "شراكسة"؟

- لأن العجوز "ممت" تركيٌّ يا ابنتي.

- وماذا إن كان تركيًّا؟! - دارت عينا الفتاة السوداوان الصافيتان في محجريهما - وهل سيسيرُ هو إن ناديته بغير اسمه؟!

- لا أدرى ياعائشة. لاتشغلني بالك بما يصدع رأسك!

- وهل في سؤال المرء عما لا يعرفه ما يصدع؟! وما معنى "شركسي"؟ أهوا حسن أم رديء؟

- اسأل أبيك "الخترم"؛ يقال إنه يعني في التركية: قاطع الرؤوس.

- ليس حسناً إذن... - تنهدت عائشة ثم أردفت على نحو مفاجئ: - لا تقبلوا أن ينادينا "ممت" التركي بهذا اللقب، وأنا لن أقبل.

- حسناً يا ابنتي، حسناً - ابتسمت الأم في وجه ابنتها بعين راضية ولكنها صوّبت بلهفة ما يعني "قاطع الرؤوس": - يختلف معنى هذا الاسم حسب من ينطق به: الأديعة مهاربون لا يهابون شيئاً؛ هذا ما يقصده الأتراك. وليسوا وحدهم في هذا الفهم: العرب والروس والإنكليز والفرنسيون، وغيرهم، من لا يعرفهم، ينادوننا بهذا. - لا بأس إن كان الأمر هكذا - وافقت عائشة الصغيرة أمها ولم تتوان عن السؤال عما تزيد معرفته: - وهل يعني في لغات الأقوام التي ذكرتها المعنى نفسه؟

- وكيف نعرف ونحن نجهل لغاتهم؟! أظن أنهم يقلدون الترك في ما يسموننا به دون أن يعرفوا المعنى. كفى يا عائشة! لنمضِ! العربية تنتظرك، وحدّثك قلقة علينا.

ثُحّدثُ عائشة نفسها وهي تلملم الحصى التي يقذفها البحر إلى شاطئه:

- لو لم يكن الأتراك يحسبون حساب شجاعة الأديغة لما سُمّونا بهذا الاسم؛

أليس كذلك يا أمي؟

- رعا.

- وهل الأتراك بعيدون عننا؟

- يقال إن بلادهم على مسيرة يومين بالبحر.

- وهل بنات الأتراك جميلات؟

مزحت الأم مع ابنتها التي لا تسعها الدنيا:

- رجالهم وسيموون، ولكن ليس في الدنيا أجمل ولا أوعى منك في نظري.

لنمش يا صغيرتي! كفاك أستلةً، اتركي شيئاً للغد!

- لنمش إن كنت ترين هذا - ثم اتخذت طريقها أمام أمها ذات الوجه الأبيض

الصافي، وتوقفت لحظة وسألت بشيء من الخبث وهي لا تدرى لماذا تميّز

الفرنسيين من غيرهم:

- وهل من يسمون بالفرنسيين يعيشون في تركيا؟

- يا حسرتي؛ لا أدرى يا ثرثاري الصغيرة، لماذا الآن، وقد بدأت بالترك، تنتهي

بالفرنسيين؟!

- ومن أين أعرف؟! انطلقت عائشة تقفز على قدم، ثم تُبعِّها بالأخرى،

مصالحةً بينهما، مثيرةً العبار المترافق على أزهار الصيف المتبعة.

كانت وساوس أمها "جِنَّاتٍ" تُعِجلُ في سيرها، فتمخر قائمتها الرشيقه الملواء
بخصرها الممشوق، وتجعلها تبتهل إلى الله "يا إلهي انظر إلينا بعين الرضا، واحسنا
وقدّ في عمرنا لنشهد فرحة ابنتنا التي لا تتسع لها الدنيا المنيرة، واجعل السعد
"قسيمها!"

الكتاب الأول

I

الأخوان فيريول من أغنى سكان باريس. أكبرهما شارل، والأصغر أوغستين. الكونت شارل دو فيريول لا يزال عازباً وإن تجاوز الأربعين. يعيش حياته العابثة في باريس ولندن وفيينا ومدريد وجنيف دون أن يسهو عن مهامه ذات الطابع الدولي. ولسن قليلاً النساء اللواتي خلب ألباجن بعاظره الوسيم ولسانه المعسول، ولا الأسرُ التي كانت تعيش في وئام فمزق شملها. ومن يختبئ عن ناظرها ومن يُحمن حوله لا يُحصى. ولسن قليلاً أيضاً من سمعن به ويتمنى تعرُّفه.

وقد تكون هذه العيشة اللاهية هي ما جعل الناس يقولون "باريس؛ يا باريس!" لأوغستين، الأخ الأصغر لشارل دو فيريول، أسرة. وزوجته ماري - أنجلييك غيرين دو تانسين تنتهي إلى إحدى أغنى الأسر. وهي أسرة مقرية من البلاط الملكي. ويعيش لديها في البيت أخوها بيير وأختها كلودين - ألكسندرine. وأما أوغستين فهو خازن في منطقة "دوفين"، والرئيس المختتم ليرمان "ميسكا". وابنها بون دو فيل وأرجنتال. وقد تلقيا تربية وتعلماً ممتازين. ولهما معرفة ممتازة بالشعر والدراما والمسرح والفن. وفي منزل آل فيريول يجتمع كل مساء كثيرون من المثقفين. وكاردينال فنسا دو فيري يحب هذه الأسرة ويتردد عليها كثيراً، وأورليان الدوق، وبورنوفيل برينسي، واللورد بولينغبروك وزوجته المركبة دو ماري - كلير، والفيلسوف فولتير، والفنانة لوكوفير، والسيداتان دو ديفان ودو

بارامبير، وعضو المنظمة المالطية بليز – ماري دو إدي شفاليه،¹ والمركيز كالاندرين، وآخرون هم أصدقاء للأسرة. ولكن يندع الحديث عن هؤلاء إلى ما بعد.

البيت الأبيض الفسيح الواقع على شارع نيف – سان – أوغستين والذي لا يقيم فيه الآن إلا أربعة تلتمع فيه شموع لا حصر لها. ولا يسمع هسيس الشموع الأخوان فيريول والأختان غيرين دو تانسيين.

– تحقق لي ما تمنيته طوال سنين – يرفع شارل دو فيريول كأس الشمبانيا – أمسيكوا خواصر أقداحكم كما تمسك المرأة من خصرها، ودعونا نقرعها، وهنئوني: غداً سأكون على طريق القسطنطينية – إستانبول. يرسلني ملك فرنسا الوضيء لدفع الرابع عشر في مهمة²، تعرفون أنتم الشرق، كيف هو الشرق. البنات السُّنْفُر، الخصور الهيفاء، السيقان المتينة، الثغور الحامية...

¹ يعود أصل التسمية إلى جزيرة مالطة التي انسحب إليها من كانوا يسمون منظمة استضافة الحجاج المسيحيين في القدس والتي تأسست عام 1080 تقريباً، بعدما طردتهم العثمانيون من جزيرة رودس. وسيأتي المؤلف أيضاً على بعض المعلومات عنها. ويرد ذكرهم في كتاب الاعتبار لأسامي بن منقذ معاصر صلاح الدين الأيوبي باسم "فرسان المعبد" المترجم.

² المشهور في كتب التاريخ أن ملوك آل بوربون الذين سقطت الملكية في عهد آخرهم لويس السادس عشر مع الثورة الفرنسية يحملون اسم "لويس". الواقع أن لكل من الاسمين أصلاً وتطوراً، أحدهما "لودفيغ" من أصل جرماني، و"لويس" مُفرنس من أصل لاتيني، ولهم المعنى نفسه : المجيد، الشهير. أما سبب وصف الملك بالمضيء أو المنير فهو أن لويس الرابع عشر لُقب بـ "ملك الشمس" لاهتمامه بالأدب والفن، وهو من بنى قصر فيرساي. المترجم.

- كان الأفضل لك من كل ما يتطرق هناك يا شارل أن تؤسس أسرة - قال أوغستين لأخيه الأكبر وكأنه يمازحه.
- أما مامي ما يكفي من الوقت لهذا؛ أما أنت فلا أعرف... - أجاب شارل الكهل أخاه، وأضاف بسرعة: - وما يُدريك أنت بما تعنيه لذة الحرية للرجل؟! يا لَبُؤس الرجل الذي لا يعرف غير امرأة واحدة، ويَا لَعَارِه!
- اسمعوا ماذا يقول! - نظرت ماري - أنجيليك إلى زوجها الذي يكبرها عدة سنوات، وابتسمت، ثم أعادت الكرة إلى ملعب أخي زوجها: - وما يُدريك إن كان أخوك لم يختبر إلا لذة امرأة واحدة؟ لا هُن زوجي بكلامك هذا أيها الكونت - اختتمت كلامها بهذه المداعبة.
- إن كان كلامك حقاً أيتها الكونتيسة فقد سررتني، غيرت نظرتي إلى أخي. صبوا المزيد من الشمبانيا! - وسأل الكونت شارل أخت زوجة أخيه وهو يقع كأسها: - أتصدقين يا كلودين - ألكسندرین كلام أختك؟
- ولماذا لا أصدقها؟! - حدقت كلودين - ألكسندرین بعينيها الخضراوين الباردين اللتين ألهبتهما الشمبانيا في عيني الكونت - لا أرى في كلامها ما يعيب.
- أنا راضٍ عنك يا كلودين، راض - ونحضر شارل واحتسى الكأس في جرعة واحدة، وهمس في صوت مُنتشٍ يُسْرُ القلب - هذا ما يجسّبني في النساء... لولا أني مسافر إلى تركيا لغازتك يا كلودين، كنت اختتك زوجة رداً على كلام أخي الكونت أوغستين - أنطوان.
- لهذا فقط؟ - أجاب كلودين - ألكسندرین وهي تنظر إلى أختها من طرف عينها.

- وماذا إذن؟ - لم يفهم شارل دو فيريول في البداية ما ألمح له به، ثم اتبه إلى نفسه شاعرًا بأنكم يهمّشونه: - لا، لا، لا تهاجموني منستقين فيما بينكم. سأفعل هذا حين أعود من تركيا فحسب وقد أنجزت أمور فرنسا.

- نساء الشرق السمراءات، والشفاه المحتقة، والقدود الهيفاء؟ - ضحكت ماري - أنجليليك.

- بعدهن يا مدام، بعدهن سأتزوج من أختك كلودين - ألكسندرин؛ ألن تكتمل عمرًا وعقلًا إلى حينها؟

- أصبحت ما ستُصبحه يا كونت - قال أوغستين أنطوان الذي كان صامتاً إلى الآن وهو يبتسم - لا أعرف إن كانت ستقبل بك. ليس عشاقها قليلين. يقال إن الدوق فيليب أورليان، ودوبوا¹، والكاردينال من يحومون حولها.

- هكذا إذن! - صرخ مبعوث فرنسا مصدقاً ما قيل له - لا أعرف إن كانت ستقبل بي ولكن المستحيل هو أن تتزوج من أورليان الطائش²، أو العجوز دوبوا، لا تدعيمهم يخدعوك! أمامي غداً طريق طويل؛ لذا عليّ أن أستريح... - قال شارل دو فيريول هذا ونحض، ولكن كان في ذهنه شيء آخر: الآن اقترب موعد لقائه باثنين من محظياته، كلاً على حدة.

¹ هو الوزير الأول في عصر الرواية، وعدو لدود لشارل دو فيريول كما سنرى. المترجم.

² هو حفيد لويس الثالث عشر وابن أخت الرابع عشر، والوصي على الخامس عشر الذي تبوا الحكم طفلاً، شخصية متعددة الجوانب من أدب وحرب... غير أن شهرته تقوم على نشر الحب المتحرر والفسق. المترجم.

II

إستانبول عام 1698

العالَم هنا مختلفٌ عما في باريس: ليس الناس، ولا الملابس، ولا اللغة، ولا الشوارع، ولا الأسواق، ولا البيوت فحسب؛ فكل قوم لهم لغتهم التي يحيون بها، ولباسهم الذي خصّوا به أنفسهم، وزبّهم الذي سيختارونه عن تفكير، مضيقين إليه وحاذفين منه. والطعام كذلك. ولكن، وإن كانوا اعتادوا على ما عندهم، وأضحى عمامَ قوّهم، فإن ما لا يتناسب معه يسقط منه. والبيوت والشوارع والطرقات في كل مكان ولكنها لا تتشابه. والبلدان تختلف بظاهرها وأساليب عيشها، وتختلف في أسواقها وروائحها، وما يصدر منها من أصوات.

ليست شوارع باريس ولا أسواقها خالية من البشر، ولا من البيع والشراء. ولا أهلها عراة حفاة جائعون، غير أن الكونت شارل دو فيريول، ولو أن الشرق بالنسبة إليه حكاية، يخفي شيئاً في نفسه منذ أيام: "أين هن البناء السُّمر، والخصور النواحل، والسيقان المتينة، والشفاه الملتهبة؟ لا أرى فيها إلا رجالاً يعتمرون الطراييش الحمراء. ما الفائدة من أن تنظر إلى ذوات الجلاليب السوداء الطويلة والحجب الضافية؟ يا أيتها القسّطنطينية، يا قسّطنطينية ما أسرع ما ارتدت زِيَّ الأتراك! ولكن أيمكن أن تغير مظهرها إن حولت أيا صوفيا إلى جامع، وأضفت المآذن إلى جوانبها؟"

قبل أيام، فيما هو يتعرّف إستانبول، رأى أيا صوفيا التي كانت كنيسة، ورسم إشارة الصليب ناسياً أن المسلمين حولوها إلى جامع، فتذكرة أن تركياً نهره وهو ينادي به "الكافر".

- يا معلم انزع من رأسك مثل هذه الهموم التي لا فائدة منها - قال له الترجمان فخري الرجل النحيف الأشقر ذو العينين الصافيتين المائلتين إلى السواد

— البلاد التي جئت إليها هي تركيا، والمدينة التي تقطنها هي إسطنبول. أقرب إليك ما لا تعرفه، ولا أعلمك. سترى الكثير هنا. إسطنبول تفرق طبقاتٍ طبقاتٍ كما القرون تتواли.

— حقاً، حقاً — وافق شارل دو فيريول وهو ينظر إلى عيني رفيقه الخبشتين، متظاهراً بأنه يسأل: متى ستحقق لي ما تحدثنا فيه قبل أيام، متندحاً إيه — تعرف جيداً معنى لقب "معلم الصنعة" الذي تناديني به. وأعرف أنك تحمل قومك على أن يحترموني. ولكنني لست جاهلاً تماماً بتاريخ الترك. وقد أرسلني ملوكنا لودفيغ الرابع عشر للتحضير لمعاهدة سلام "كارلوفيتش" التي تصدع رأسي¹. بعد هزائمها. وأمورنا تسير على ما يرام، وأستطيع حمل مندوبي الإنكليز والإسبان والروس على إطاعتي. وسنغري الإسبان خلال أسبوعين تقريباً أن يحضروا إلى ما نريد. ولذا لا أحزان عندي ولا منغصات. وليس من مهامي حل مشكلات إسطنبول. ولذا لا نصدع رأسينا، كما تقول، بما لم تستطع القرون حلّه — ضحك شارل ووجهناه الممتلئان ترجمان — وإن كنت تعرف ما هو أفضل مما سبق فلنتكلم في ما كنا اتفقنا عليه!

— لم أنس يا معلم — أجاب فخري وكأنه كان ينتظر هذا الطلب — إن كنت تريده هذا، وكان عندك المال والوقت، فأنا رهن إشارتك.

¹ معاهدة وقعتها الدولة العثمانية في كارلوفيتش بكردوسيا عام 1699، تخلّت بموجبها عن بحر آزوف¹ لروسيا، وعن مطاحنها في ترانسيلفانيا. والحق أن بحر آزوف بحر شركسي ويعني اسمه، كما يدل شكله، البحر ذا الفم الضيق. المترجم.

- أنا جاهز في أي وقت. لا تهتم بموضوع المال - احمرت وجهنا شارل، وارجف طرف شفته اليسرى - إن كنت قادراً على ترتيب الأمور فهذا المساء مناسب تماماً. أنا حاضر قلباً وقالباً.

عاش فخري المترجم أكثر من مرة في فرنسا وفي أماكن أخرى من أوروبا. ويعرف أن الأديعة يعيشون في الضفة اليمنى للبحر الأسود. ليس "يعرف" فحسب، بل خالطهم مراراً سراً وعلانية. وليس كلامه بلغتهم أضعف من كلامه بالفرنسية. ويعرف شيئاً من عاداتهم وأنماط معيشتهم. ولا يحتاج إلى من يدلّه على مواقف السفن في "طوابسه" و"أنابه"، وعلى تجمعات السكان القرية من هنا. وحين يأتي فصل الخريف ثم الشتاء فتسوء الطرقات كان يتوقف عن عبور الماء، فيعمل مترجمًا ووسيطاً لأمثال شارل دو فيريول من يأتون من خارج البلاد، ولا يتبعون من المغامرات الجنسية التي لا نهاية لها. أما هو فلم تكن لديه أسرة ولا يمكنه التفكير في الزواج. وإذا عدت بضع سنوات إلى الوراء فهو يحتفظ بسرّ ما فعلوا به في جوار "طوابسه"؟

- ليس أمراً لا تدبر له - ابتسם فخري متظاهراً بأن المهمة التي التزم بها ليست عسيرة. ومع أنه كان يخشى من افضاح عاهته فقد امتدح نفسه في سره: "ونحن كنا يوماً ما رجالاً، لا تسلّم ذات غطاء رأس من شرّنا". ثم يحسد الرجل الجالس أمامه، الممتلىء بالعنفوان، ويضيف بدافع الحقد: "وأنت لا تعرف ما سيحل بك وما قد يؤذونك به" - قل لي أيّ صنف من النساء تريده؟ رومية أم إيطالية أم زنجية؟

- ما أكثر ثرثرك! - حسم شارل دو فيريول الأمر متلاعباً بجاجبيه الأصفرین رافعاً خافضاً:

- مللت من هؤلاء منذ زمن بعيد — هات نوعاً آخر من النساء! حقاً لا

ينجذب الأتراك الذين أنا في ضيافتهم نساء؟

- وهل من المعقول ألا ينجذبوا؟! ما أكثر الحسنات عندنا، ولكن...

- كفى، كفى! لا تأخذك اللهفة عليهن! إحدى بناتكم — قاطع الموفد
الفرنسي فخري دون أن تُمْسِّكُ به جاذِّب أم هازل — لا أدرى إن كانت بِكِراً أم
ثِيَّباً كُنْتُ التقيت بها في باريس هذا الربع.

- وماذا إذن؟ — تلهُّف فخري مخفياً انفعاله.

- وماذا ستكون؟! — كانت كسلى في الفراش — أصلاح شارل الموقف بسرعة
مازحاً — حين تأتي إلى باريس سأوفر لك امرأة فرنسية كالنار تقضي معها
ليلتك.

- لن أدعها تشكوك — تصنع فخري الرجولة ولكن صوته انخفض مع العبارة.

- حسن إن كنت فحلاً هكذا، ولكن لا تخطئ فتطلب بِكِراً. أتعرف كم يجب
أن يكون عمر المرأة الخيرة في الفراش؟ ثلاثون، أربعون عاماً. اسمع يا فخري لا
تدعنا ننسى موضوعنا! حضير الفتاة الشركسيّة التي حدثني عنها. لا تتراجع
حتى لو طلبوا فيها صندوقاً من الذهب! أنا لا أُبخل على من تتعنّى. — احمرت
وجنتا شارل دو فيريول، ولمعت عيناه الصفراوان — كما يقولون: "باريس،
باريس، هيء يا باريس!" أريد أن يقول واحد مثلي: "إستانبول، هيء يا
إستانبول"

- أنا واثق منك في هذا الأمر يا معلم — امتدح فخري جليسه كاتماً انفعاله مع
أنه استاء من كلامه، وسأل محاولاً إخفاء امتعاضه — ومن أي عمر تريد الفتاة
الشركسيّة؟ خمسة عشر؟ عشرون؟ ثلاثون؟

- كلما كانت شابة كانت أفضل - ارتفع الصوت الحلو لشارل، ناسيًا ما كان صرح به في شأن عمر الفتاة. ثم سأله عما يستغربه: - أسألك جادًا: ألم يمس أي رجل تلك الفتيات الشركسيات؟ هل هنّ مريم العذراء التي سمعت بها؟ عجيب، عجيب! بناتنا في فرنسا يبدأ ممارسة الجنس في سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة. إن كان كلامك حقاً فسبباً بينات الشراكسة ثم نرّج على النساء الناضجات حتى سن الأربعين مختبرين دفأهنّ. ولكن يجب أن يكنّ بيضاوات دون شُفَّة، ضامرات الخصور، صلبات السوق، دافتات الشفاه!

- ما من فتاة شركسية غير جميلة يا معلم - قال بنبرة الواقع، ثم أضاف بصوت عالي: - هؤلاء يرحب فيهن كل الناس، وأثاّنهم مرتفعة.

- كم مرة قلت لك إنه لا شيء يعترضني في هذا - صارح شارل فخري الذي لا تفارق سيره المال لسانه - آن لك أن تنسى موضوع السعر! - ولم يستطع إلا أن يسأل المترجم لأنّه أحس بأنه أهانه: - أريد أن أسألك: ألا تعني بمنجرتك؟ يُعْيَّل إلى أن صوتك يعلو وينخفض.

- بما أنك أجبت على سؤالك بنفسك فلا أستطيع أن أضيف شيئاً. ولكن ما العمل؟ ليست مهنة المترجم سهلة. وأنت لا تجهل هذا. لا نهدأ، نحن وأنتم، طوال النهار. كل ما تقولونه - إن تخاصمتم أو تصالحتم، وإن تقاضيتم أو تصافيتم، - أترجمه دون أن يسقط منه شيء. وأحياناً أكرر الكلام مرتين وثلاثة. ويحدث أن تثيروا غضبي. لست أنت، ليت الآخرين كانوا مثلك، أتكلّم على الإسبان اللجوجيين.

- نعم، نعم. أيها المترجم، ليس اليوم فحسب أعرف المترجمين. وليس قليلة المشكلات والخلافات الدولية الأوربية التي حلّت بها. مهنة السفارة مهنة صعبة. ولكن إن كنت تحب مهنتك، و تستهين براحتك و صحتك، و تعمل مع الآخرين

مقنعاً إياهم بنباهتك فلا عدو ولا مبغض يستعصي على الصلح. نعم يا فخري، وأنت ليس ما تقاسيه سهلاً. ومع ذلك فلأني أكلفك برغباتي القليلة سأقدر لك هذه الخدمات، وسأقدم لك ما يسرك.

- شكرأ يا معلم على أنك تفهمت موقفني.

- وهل أستحق الشكر على كلامي ! ولكن سأقول لك شيئاً آخر: - التمعت عينا شارل المخضلان الصفراون كشاب مكتنز مورّد الوجه تحقق له ما يشاء - ملكتنا المنير وعدني إن حقت هدفي، ورجعت إلى بلادي أن يكلفني بمهمة السفير الدائم في تركيا؛ فإن لم تتوان يا فخري ونفذت ما أطلب منك فسينفعك عملك ولن تندم. يا إستانبول، إستانبول، يا عاصمة شرقي، أشعريني بمحسنك وحلاوتك، حتى لو لم تستطعي أن تُنسيني لذات قلبي في باريس. أفرحني ولو مرة واحدة بنسائك السمر ذوات الوجوه البيضاء والشفاه الدافئة!

ساير فخري أفراح شارل، وهز رأسه مع كلماته، ومع ذلك فإنه يسخر من بيتس له ظاهراً، ناسياً فقدانه هو لفحولته "انظر إلى هذا البغي كم هو سعيد!... وما أبأس البلاد التي يمثلها"

III

ما تزال رعشة الفتاة التي جاؤوا بها لشارل من دار الحرير في مخيلته.
لا ينسى كيف افترع الفتاة الشركسيّة الشابة التي كانت تدافع عن شرفها
فتتوسل إليه، دون أن يستوعب لذتها، ولا كيف صحا من نشوته. كلما فكر
في الفتاة الضئيلة التي ضاعت تحت وطأة جسده الثقيل في الفراش فأغمي
عليها، وأعادها إلى وعيها بمشقة، قائلاً في نفسه: كنت أشتري بما دفعت من
أجلك الكثير من النساء، لم تدعوني أستمتع بحلاوتك ونعمتك. ومهما لام
نفسه فإنه يفرح بنجاته بفضل الرشوة التي دفعها إلى كبيرة البغایا في دار الحرام.
من أجل ألا يطلع المترجم فخري على هذه الأمور كان قد اتفق مع كبيرة دار
البغاء ذات العينين الواسعتين التي صدقت معه فحفظ لها الجميل لأن من تدفع
له كل هذا المال لابد أن يصبح أصمّ أعمى. "آه يا للحسرة، كانت تلك المرأة
ذات الردفين الممتلئين هي من يجب أن أدفع من أجلها. تجاوزتُ من سُمْتُعْنِي
ولحقت بالصبية الشركسيّة التي لم تنضج بعد فكسفتني. أستحق ما حدث لي!
لا، لا، لن أهجر نساء الشراكسة من أجل هذه الحادثة. هؤلاء فيهن الحرارة
التي تشتهيها ولا تنضب. تلك الصبية الشركسيّة تسليبني شفاتها الملتهبات
ونحدها المدوران الصلبان الدافئان المدوء إلى الآن. لست جاهلاً بحلاوة المرأة
الشركسيّة فلماذا لا أحقق حلمي فيها؟! كان عليّ أن أكتفي بالمرأة البيضاء
ذات العيون السوداء التي جاؤوني بها، وأتجاهل الصبية الشركسيّة، مثل تلك
المرأة هي من تُذوّبك..."

لم يكن شارل دو فيريول يقضي ليلة في إسطنبول لا يحصل فيها على المرأة التي
يشتهيها رغم ما يوجهه إلى نفسه من عتاب. وكلما انغمس في شبقه الذي لا
نهاية له أتشبعه فاستراح. ولكن لم تكن هذه الشهوات تمنعه من أن يساهم في

كل مناسبة بفطنته ورأيه السديد. وبالإضافة إلى ما سبق كانت فيه فضيلة أخرى: لم تكن أي مهمة صعبة أو سهلة تنسيه النساء. ولا يزال بقلبه وبروحه في دور البغاء التي لم يتعرفها بعد.

ورغم أن شارل دو فيريول يتكلم بلغته الفرنسية الأنيقة في الاجتماعات التي تمهد لتوقيع معاهدة السلام فإنه متلهف إلى الساعة التي ستنتهي فيها تلك الاجتماعات. إنه لا ينسى تلك المرأة الشركسيّة التي احتفظ بها ليلة واثنتين ليروي منها شبقه. "نظن أن نساءنا الفرنسيات ممتازات للفراش، بل حُلِقُن له، ولكن لا تعلو أي امرأة في العالم على المرأة الشركسيّة في هذا المجال. لو تمكننا من أن أدمّن امرأة شركسيّة في سرير ملوكنا لما نسي معروفي إلى الأبد... والدوق أورليان الوصي لا تنقصه الخبرة بالنساء، بل سيسلّبها منك حتى لو لم تعطه إياها..."

يشتهي شارل دو فيريول الاستراحة على شاطئ البوسفور في أيام الازدحام لابساً طريوشة التركي الأحمر. وها هما الآن: الكونت شارل دو فيريول والمترجم فخري يستمتعان بالهواء النقي البارد في أحد مشارب الشاي. وأمام الموفد الفرنسي زجاجة من نبيذ "بورغوند" الأحمر الذي يفضله. وفخري تحرّقه كأس الشاي الذي لا يقل حمرة عن النبيذ، مع ذلك يحتسي منها ويعيدها إلى مكانها. وصبي المشرب الفخور بطروشة لا يتبعه إلى ما أمام شارل من المشروب إلا وهو يصبه له من الشاي.

- يا فخري؛ ألا تترك مرة هذا الشاي الذي ينفع البطون، وترفع معك كأساً مما أشرب.

- لا، لا، - احتمى فخري براحتيه الرقيقتين الممدودتين كأنه أُجر على احتساء النبيذ، وابتعد عن الطاولة، - هذا حرام، بل أتوسل إلى الله الذي يبتهل

إليه الجميع ولا يحتاج هو إلى أحد، أن يغفر لي جلوسي إلى طاولة عليها الشراب.

- يا لَمَرِيم العذراء، - أدار فخري رأسه حين بدأ شارل دو فيريول الكلام بصوت عالٍ، - يا لَبْؤُس المسلمين! يحرمون أنفسهم مما يمْتَعُون به، ويرثون على ما يُهلكُهم. لا تؤاخذني يا فخري! - فلَكَ النبيذ رباط لسان شارل المحرر الوجنتين - هذه الدنيا تقولون إنها عارية فتحمرون أنفسكم مما يُسعدكم. تلقبوننا بحملة الصليب ولكننا نمْتَعُ أنفسنا بالحياة الوحيدة لنا على الأرض، والتي أنعم الله بها علينا. يفتح الله لنا كل أبواب السعادة مغلقاً أمامنا أبواب الجريمة والكذب وكل الموبقات الأخرى. أنتم الترك، لستم وحدكم، بل معكم كل المسلمين، تحبسون نساءكم في البيوت وتكتسونهن بحيث لا تبدو لنا وجوههن، ولا أجسادهن بل حتى سُوفُهن. ولكنكم مراقوون؛ فإذا كان ماسبق حراماً؛ أليس يعهن حراماً كذلك؟! وهذا هو المقهى الذي نحن فيه حالٍ من أي امرأة! أما كان حسناً لو أن امرأة كانت تأتينا بما نأكل وما نشرب؟

كان فخري الذي لا يعبأ بعتاب الموفد الفرنسي مهموماً بأمر آخر: "أهْجُنا كما تشاء، واسخر منا، ومرِّق الدين على هواك، ولكن لا تنس الوعد الذي وعدتني به! هل أُذْكُره يا ثُرى؟ هذا ممكّن، غير أن من الصعب أن تحصل على كلام ثقةٍ من شخص منتشرٍ. غداً، غداً لنؤجل إلى الغد. يا ربِّي أيمكّن أن يحيث بوعده؟ إن فعل بي هذا فلن أسمح له أن يطأ ثانية أرض إستانبول..."

نقد شارل فخري يوم انتهت محادثات السلام مبلغاً لم يكن يتوقعه، حتى لو كان فخري أتم شارل دو فيريول بما لا يستحق أن يقال فيه، إذ دفع له ضعف ما دفع له في الأشهر السابقة كلها، وأضاف أجراً شهر آخر.

- أَلَّا نتراض يا صديقي القديم؟ - سأله بصوت لا يحمل نكهة من البرودة.

- وكيف لا أرضي؟ حتى لو لم تُضف تلك العلاوة. - قال فخري، وأضاف بينه وبين نفسه "ولو دفعت أكثر لما افتقرت بسببي، ما كانت تلك الزيادة شيئاً بالقياس إلى ما تنفق على المؤسسات".

- حلال عليك، كسبته بالحلال. ما أكثر ما نفق أكبر من هذا المبلغ دون أن نعرف كيف. وأنا راض عن نفسي إذ تحقق ما كلفني به ملكي مع إطراء عليّ. ما أنجزته يساوي بلاً بحالها. بعد أن أعود هنا ثلاثة أيام تقريباً - ضحك شارل من أعماق قلبه - سأعود إلى فرنسا. وبيدو لي أني أترك قلبي في إسطنبول، في البوسفور، مهما كنت اشتقت إلى "باريس، يا باريس!". تعال يا صديقي العزيز! أتريدني أن أعود إلى من يتظرونني في باريس صفر اليدين؟ مهما كانت المدية صغيرة أم كبيرة فالنساء يحببنها؛ فلماذا لا تعرف أنت هذا؟ أنا عندي ماري - أنجليك، مرأة ل庸، زوجة أخ كسول لا تقبل أن تدخل البيت دون أن تحمل إليها شيئاً. حتى لو اقتصر الأمر على أختها كلودين - ألكسندرин لا أعرف ما يرضيها.

- أهي جيلة. - أسرع فخري دون أن يعرف لماذا يسأل هذا السؤال.

- لا يقف الأمر عند هذا الحد، من الصعب دائماً إرضاء الفتاة في مقتبل عمرها. وإن أردت أخبرتك بعمرها: تجاوزت الآن الثالثة عشرة. إن جئت إلى باريس يوماً ما قدّمتك إليها.

- وماذا أفعل في باريس، لا عمل لي ولا... كما يقال.

- وما يُدرِيك، لا تشهد على ما لا تعرفه!

فيما كانا يمran بعد الظهر بسوق العبيد توقف الكونت شارل دو فيريول فجأة كمن فقد شيئاًً

- دعنا ندخل السوق قليلاً!

- وماذا ستفعل في سوق تفوح منه رائحة كريهة؟ ألم ندخل إليه قبل أيام؟
- هذا كان قبل أيام، والآن يوم آخر - دخل شارل السوق دون أن يعبأ
برفيقه، وتوجه إلى حيث تباع السبايا.

وفيما هو يمر بمجموعة السبايا اللواتي يتظاهرن الشارين، استوقفته فتاة في حدود
الناسعة من عمرها.

أول ما لفت انتباه شارل دو فيريول هو عنق الفتاة السببية الطويل الجميل.
وانتبه إلى طول ساقيها. والعينان الحزيتان المائلتان إلى الطول اللتان تنظران من
تحت حاجبيهن رفيعين متقابلين، وأهداب طويلة، كأنهما تقولان: وأنت ماذا
تختئ لي؟ والرأس المتطاول المنتصب يناسب الكتفين القويتين المدورتين اللتين
تحملانه. وهي متميزة من حولها بمحظتها ونظرتها وجلستها وتماسك قوامها.
- اطلب من هذه الوقوف! - قال شارل دو فيريول للبائع، مقرراً ما حدثه به
قلبه نحو الصبية: - بكم تبيعها؟

- ثمن هذه ليس كثمان الآخريات، غالٍ - قال العجوز ذو الواجب السوداء
الكثيفة معتداً بنفسه، يمص دخان غليونه الفارغ دون استعجال.
- أسأل عن هذه، لا عن الآخريات!

- أجب على قدر السؤال - قال فخري مواطنه العجوز المتين البنية، ودون أن
يدري رفع سعر الصبية الأسيرة وهو يظن نفسه يُسدي معرفةً لرفيقه. - أنت لا
تعرف من يتحدث إليك؛ إنه آتٍ من فرنسا موFDAً من سلطانهم، لا شعره
بالاستخفاف به، أجبه بما يسأل!

- ولماذا أعماله باحتقار - أجاب التركي وهو يدس التبغ في غليونه - أنا لا
أحتاج إلى من يحدثني، أحتاج إلى من يشتري بضاعتي. أقول لكم ماذا هذه
الصبية غالية - لأن حديث العجوز التركي وطعنه - هذه ليست تركية ولا

روما ولا ألبانية ولا سيبيرية؛ أنتما تريانها: شركسية، سليلة أمراء. ليسوا قليلين الناس الذين هلكوا في سبيل أسرِها. إن أراد حقاً شراءها فليدفع ألفاً وخمسة لييرة، ولن أتنازل عن فلس واحد. لولا الاضطرار لما بعثها حتى بالفين. ما إن أخرج شارل دو فيريول النقود حتى حدثته امرأة سوداء مكتنزة النهددين بلغة فرنسية صافية:

– لماذا عشقت هذه الصبية ذات الساقين الدقيقتين التي لَمَا ينهُ صدرُها، وأمنت القادم من فرنسا؟! كان الأفضل لك أن تشتريني أنا، كنتُ استرحتُ، وكنتَ استمتعت بي!

– إن انتظري حتى زيارتي القادمة إلى تركيا – منح شارل دو فيريول معها – فأنت المخطوطة عند الله!

– سأنتظرك إلى ذلك الحين إن تعهدت لي ألا تحرم... – كان جوابها على رأس لسانها.

حين مدد يده إلى الصبية التي لا يعرف بعد اسمها كي يصحبها إلى خارج السوق ضربت الصبية يده فأجفلته، ومع ذلك فقد منح معها:

– ما أسرع ما مددت يدك عليّ يا صبية، ولكن لا أعرف ما يخبئ لنا المستقبل.

IV

قال الكونت شارل دو فيريول الواقف على ميناء مارسيليا ممتليء الصدر بجواء البحر لفخري المترجم:

- هذه هي فرنسا يا صديقي العزيز، انظر إليها، تنعم بجوائهما، استريح فيها! اختلس النظر إلى القادمات ذوات الأثواب الطويلة. لن أدعك تعود إلى تركيا دون أن تستمتع بواحدة منهن. كيف كنت سأتفاهم مع هذه الصبية لو لم تأت معى؟ أتذكرة؟ لأجل هذا قلت لك: لا تشهد على ما لم تر!

- أسمعت يا معلم أن لا حظوة للإنسان؟ - لم يتأخر فخري في الجواب - وأنا لما كنت أراعي حق الصحبة لم أدعك تسافر وحدك مع الصبية العجماء، تركت كل أعمالي وصحتك.

- لا تندم على معرفتك، أنا لا أحيث بوعدي، أبق معنا ريثما تتعلم الصبية الشركسيه بضع كلمات فرنسية، ثم تعود إلى ديارك مسروراً بما أرضيك به. ولكن أظن أن أمورنا ستمشي باتجاه آخر يا فخري: ليس مستبعداً أن أعود فأرافقك في طريقك إلى تركيا إن نظر إلى مولاي الملك بعين الرضا.

- والصبية؟

- وأنا فكرت في هذا. سأتركها في رعاية أخي أوغستين وزوجته ماري-أنجيليك. وستساعدها أختها كلودين - ألكسندرین. إن كنت غنياً، وأنت تعرف هذا أحسن مني - فلا مستحيل. وفي حال الضرورة سأشئها وأعلّمها مقابل أجرا في مدرسة الدير حتى يستوي عوّدها. ولكن هل تعرف فيم فكرت الآن؟ ما اسم الصبية الشركسيه الذي يلوي اللسان؟ ما الاسم الذي تطلقه على نفسها؟

- آيشا.

- نعم، لن أدخلها بيت آل فيريول حاملة هذا الاسم التركي الذي يدعو كل من يسمعه إلى السخرية.

مضى شهراً على عائشة وهي تسمع الفرن西ة التي يتفاهم بها شارل فيريول وفخري. ومع أنها لا تزال غريبة عليها فقد بدأت أذنها تعتادان على الأحرف المختلفة. وكانت حفظت في ذهناها بعض الكلمات قصيرة تعرف معناها ولكنها كانت تتنزع عن نطقها مهما رجوها. ومع أن شفتيها اللمياوين المزمومتين كانتا جاهزتين لتنطقا "بونجور" و"ميرسي" فقد كانت تستقبح هذه الأصوات وتحلّس كقطة منفوشة الوبر.

لا تنسى عائشة ما علموها في شرق مدينة مرسيليا. وما حاجتها إلى الملابس التي كسوها بها؟! القميص والخذاء والقبعة. وأحسن ما فعلته هو أنها، عندما فكروا في أن ينزعوا عن رأسها القبعة المذهبة التي خاطتها لها أمها "جنت" قبل أن يطرق بابها اللصوص الأتراك ويرموا بها هجوماً عليهم وانتزعتها منهم "وهل يعيها أنها كانت تجعّدت؟" ها قد رجعت كما كانت. بل كانت إحدى الصبايا السبايا حاولت انتزاعها مني!... أنت لا تعرفون قيمتها؛ إنها تذكار من أمي! وأبي كان قد فصلها لأجلِي من جلد الماعز، وزناري الرفيع جعلتموني أتركه...". وما كانت عائشة أقسمت ألا تبكي أو تشكو مهما لاقت من عذاب، فإنما رغم أن قلبها الصغير كاد يتداعى أمام الحزن، وجدت في نفسها القوة، كما حدث قبل أيام، فتجلدت أمام الدموع.

لم تكن عائشة عابئة بالرجلين اللذين تعرف أنهما يتكلمان في موضوعها. ما في رأسها التحيف الصغير، وما يُهتم بها شيء آخر: "لماذا يأخذني إلى منزله هذا الرجل الطافح الوجه، الحامل اسم شارل دو فيريول، وما أُعجبه من اسمه؟، قاطعاً البحر والبر؟! ماذا ينوى بحقي؟ لأنه لا أولاد عنده؟ لا أدرى كيف

سأصبح ابنته وقد ولدي أبواي اللذان قضيا قبل أوائلهما؟! لماذا لم يُعديني إلى ديارنا لو كان إنساناً صالحاً؟! أليس لي أهل إن كان والداي فارقاً الحياة؟ والحق أني لا أعرف إن كانوا توفيا... وهذا التركي صاحب اللسان الأدبي، يواسيني، يُثني على من اشتراكي بداعي الشفقة علىّ، ولكنه ليس رجلاً طيباً. - تنهدت عائشة وواعظت نفسها متوجاهلة أحزناها: - في أسوأ الأحوال، لا بأس بمؤلاء، أحسن من غيرهم. يُطعمونني، يكسونني، يبتسمون لي. لا يغضبون علىّ مهما قلت لهم أو أساءت التصرف معهم. ذاك الجرم الذي عبر بي الجسر من بلادي - لعنه الله - هو الرجل الشرير"

لم تكن هواجس فخري قليلة: من جهة: كسب ود شارل دو فيريول وإرضاؤه، وتلبية طلباته المفاجئة، ومن جهة أخرى بؤسه الشخصي وما داخله من مشكلة الصبية: "حقاً إن كنت غنياً فلا شيء يستعصي عليك. يريد أن يغير اسم الصبية التركي الذي لا يعجبه وهو قادر على ذلك. ليس هذا اسم تركياً بل اسم شركسي! أنسىت كيف كنت ترتاد دور الحرير متغنياً بأسماء البنات الشركسيات؟! لماذا يلحق العيب بنفسه منفقاً على اليتيمة الصغيرة كل هذا المال؟ أيكون ينوي شيئاً بحاجة؟"

- ألا يمكن أن تنطق هذا الاسم التركي بالفرنسية؟ - سأله فخري شارل دو فيريول وقد أثارت أفكاره أشجان قلبه، شاعراً بشيء من العضاضة في "الاسم التركي" الذي يعيشه به صاحبه، مخفياً انفعاله.

- لا، لن أناديها بـ "آيسيليه" وقد فرغت من ابتكار اسمها بالفرنسية، فاسمع: "شارلوت - إليزابيت" أسمعت؟ أهناك أجمل من هذا الاسم؟ هذا هو إذن، انتهى الأمر! هذا الاسم الجميل هو ما سأسميها به حين نصل إلى المجمع الكاثوليكي الكبير في مدينة "ليون".

حين سَمِّيَّا عائشة باسم "شارلوت إليزابيث" في المجمع الكاثوليكي ونادوها
أضافت إليه بصوتها الطفولي الحاد الحانق وسط استغراب الجميع اسمها
الأديعي: "عائشة".

العربة التي تجرها أربعة أحصنة وأمامها حارسان، ووراءها كذلك، تنهب الأرض مربحة وسط ألوان الخريف المتنوعة. منذ وقت طويل تجاوز ركاب العربية مارسيليا وأفينيون وفالانس، والقرى الأصغر منها والجماعات الأخرى القريبة منها وكثيراً من الحصون. مدينة ليون الواقعة عند نقطة التقاء نهرى الرون والسين حيث بدأ شارل دين عائشة الصبية المسلمة غير الحضرة لتصبح كاثوليكية، ومنحها اسماً فرنسيّاً، صارت وراء جبل سافون وقمه المتبااعدة. وصارت مدينة ميلين قرية، ومن الجهة الأخرى لم يبق إلى باريس إلا القليل. الشمس مشرقة، والنهار حار، والخيول تشرخ.

- أقول لك يا فخري — نفِد صير شارل دو فيريول — أنت حامل عليّ بسبب اسم الصبية ولكن أتعجب: لماذا أنت تحيل جمال هذه الطبيعة إلى الأسى؟!
 - ليس الأمر كما تظن! كل شيء جميل وعلى ما يرام.
 - لا بأس إذن! إن كان الأمر هكذا فاسأل شارلوت إيزابيلت آيسبيه إن كانت فرنساناً جميلة أعجبتها — ما إن سمعت اسمها حتى انتصب رأسها، ونظر إليها الكونت شارل باسماً — نعم يا آيسبيه، لن أنسى اسمك الجميل.
 وأجابت على سؤال فخري بسرعة:
 - عندنا أحلى!

- وهذه الناحية ليست قبيحة — قدّم فخري مالم تقله عائشة على ما قالته، وترجمه لشارل دو فيريول.

- حسناً، حسناً، لا تقل لها شيئاً. كلّ يرى ببلاده أجمل وأسرّ للنفس. لم تقل ما لا يقال — "اشترت، دون أن أدرى، صبيةًّا فطنة يمكن أن تكون مستقبلاً امرأة جميلة" نعم يا آيسبيه أنت صافية السريرة. ذكية. أعيد التفكير فأجد اسمك

الشرکسي جميلاً. ستعتادين علينا هكذا شيئاً فشيئاً. — "فيما بعد سترى ما يحدث..." — أضاف بيته وبين نفسه.

— أتساءل ماذا يقول معلمك؟ — لأول مرة ارتسمت شبه ضحكة على وجه عائشة وهم في وسط العادة.

— الكونت يُثني عليك!

— نعم؟! — استغربت عائشة ما سمعت — أرأى مني أو سمع ما يمتدحني لأجله؟

— تكلّما، تكلّما! — نظر شارل دو فيريول نظرة رضا إلى فخري معتقداً أنّهما يذكّرانه بالخير. وابتسم ثانية لعائشة: — اذكّري بالخير! هذه الصبية لم تفهم بعد المعروض الذي أسدّيته إليها، ولا ما سأسدّيه لاحقاً. احلك لها من أنا، وماذا أملك في بلادي، وما قيمتي فيها، وما أنا قادر عليه هنا. لا تنشغلا بي، أنا نعسان قليلاً.

تحقق لفخري ما يتمناه تماماً: منذ أن رأها كان يريد أن يعرف قصة أسرّها، ولكن لم يكن يجد الفرصة المناسبة. وفي الباخرة التي كانت تترنح مع الريح ظلّ يؤجّل السؤال من يوم إلى آخر ولم يجد فرصة للراحة. وهذا المكان لا يناسب، فكيف تتحدث فيما يشغل بالك وأنت تجلس وجهًاً لوجه مع غيرك، وسرًا؟ وفي مثل هذا المكان لا تعرف متى ستتجد نفسك في ازدحام.

وماذا يهمُّ فخري المترجم من أمر عائشة؟ ما أكثر السبايا اللواتي توسط لبيعهن في السوق دون أن يظهر أمره. ولكن قد يكون في اهتمامه بها دون غيرها سرّ يحتفظ به. أهي التي يشكّ في أمرها أم هي صبية أخرى؟ أيمكن أن يفيد بسؤاله الآن من تسبب في ضررها سابقاً؟ كان يجب أن يعرف هذا وهي في السوق.

نظر فخري إلى شارل دو فيريول المتعب الذي يصدر من شفتيه شخير ناعم، ثم خاطب نفسه غاضباً عليها وهو ينظر بطرف عينه إلى عائشة "ما كان شأن

بهذه الصبية الشركسيّة المتکبرة، وبهذا الكونت، مدّاح نفسه الذي يشخر؟!
علاقتي أنا بذلك الرجل نصف التركي، نصف الشركسي، عصام الذي سبب لي
عاهتي، صرفوا نظري عنه في السنوات القليلة الماضية زاعمين أنه مات، غير أنّي
أظنهم وضعوا في يدي طرف خيطه الآن".

- أهذا العجوز المدمن على التدخين، الذي باعك لنا، هو من حملك عبر
النهر؟ - لم يملك فخري إلا أن يسأل الصبية بنوع من الاستعطاف والثقة.
- لا - ردت عائشة على السؤال بسؤال مدركة أن سؤاله يخفي سراً: - ما
الأمر؟

- لأنّه باعك وكأنّه يساوم على السعر.
- باعني لأنّهم طلبوا منه ذلك.

- ومن الذي دفعهم لبيعك؟ - استعجل فخري عما ذي قبل.
- ذاك الذي اختبأ حين رأكم.
- وما اسمه؟

- لا أعرف، هو مثلك من يعرفون الشركسيّة والتركية.
- أيّكون عصام المجرم الذي لا يحب الناس أن يسمعوا سيرته - ابتسّم فخري
مخفيًا انفعاله الذي غير لونه: - وكيف يشبهني؟ أنا أعرف الفرنسيّة أيضًا.
مرة أخرى تفهّم فخري أنّ الدنيا مرّيبة من السؤال والجواب، والكذب
والصدق، والسر والعلن، والمفاجأة. وحياته هو على هذه البسيطة، وترتيبه
لأموره وسلوكه عليها، جزء من متناقضاتها. الشمس تشرق وتغيب، والليل
الذي يستريح فيه الإنسان وينجّي فيه رذائله، ويتبعه النهار الذي يغسلها ويرى
نفسه فيه. وهذه حال فصول السنة الأربع المختلفة المتناقضة، والمتکاملة
المقابلة. صحو حيًّا، وماطر حيًّا، وبعد الخصب جدب، والممحل يمنع

الأقارب من التواصل، والهدايا من التبادل. وأُسّر تتفكك. وما قولك في السرقة والقتل وأن تجد في البؤس سعادة؟!

لم يكن فخري هذه الساعة في موقف يسمح بأن يحيط عن الأسئلة المتفككة المترابطة التي غزت فكره، وأن يقيس صغيرها إلى كبيرها ويخللها. وفي السنة التي ظن نفسه نسي مصيبيه فيها رمى نفسه بنفسه في ما يجعل له العار. لا يستطيع إطفاء نار الرغبة في الانتقام، فيحترق في داخله "ما الفائدة في أن تجمع الثروة؟ إنما تأتي وتغيب، مثُلُّها مثُلُّ الندى كما يقول الشراكسة. العار الذي أحقوه بي هو ما لا يُمحى إلا أن يولد الإنسان من جديد. لو أنهم أمهلوني حتى أؤسس أسرة لكنت رضيت بما قُسم لي فرحاً بأولادي. لو استعدت شرف رجولتي، وعرفت أن صبية صغيرة مثل عائشة ستصبح من نصيبي لفضلتها على أموال الدنيا التي يتقاتل الناس عليها. والآن من أنا؟ أركض دون ساقين، أطير بلا جناحين، أبتسם في وجوه النساء مخفياً عنهن عاهتي، وحين يتطاولن عليّ أتظاهر بالتعالي عليهم".

- ماذا؟ هل قلتما شيئاً؟ - أفاق شارل دو فيريول من غفوته، وفرك عينيه، ولم يكتم عييه:

- أظنني أصممت آذانكم بشخيري؟

ضحكـت عائشة ما لمحـ به إليها، ولكنـها أصلـحت تصرـفـها بـمـرـحة حلـوة:

- وكـيف يـصـمـنـا شـخـيرـكـ النـاعـمـ!

- هـكـذا يا عـائـشـةـ؟ - كـانـ الكـونـتـ مـرـتـاحـاـ لـما سـمعـ - هـاهـي طـرـيقـتـيـ فـيـ النـوـمـ، أـنـعـسـنـاـ شـخـيرـكـ النـاعـمـ... - بـدـأـ حـدـيـثـاـ قـائـلاـ "نـسـائـيـ" ثـمـ سـكـتـ - يـقـلـنـ لـيـ هـذـاـ كـثـيرـاـ... وـأـنـتـ كـانـ الـأـفـضـلـ لـوـ نـعـسـتـ قـلـيـلاـ يـاـ شـارـلـوـتـ إـلـيـزـاـبـيـتـ أـيـسـيـهـ، لـيـسـ بـيـنـنـاـ غـرـيـبـ. أـمـاـ سـمـيـتـ اـبـنـيـ الصـغـيـرـةـ اـسـمـاـ جـيـلاـ يـاـ فـخـريـ؟

- ما دعاني إلى أن أقول إن شخريك لطيف يا شارل دو فيريول - نطقـت عائشة اسمه كما لو كانا صديقين منذ الـقدم، وحددت سبب مدحـه لها - والـدي أيضاً كان له شـخـير حـلو كالـذـي عـنـدـك... - وـتـمـالـكـتـ نـفـسـهـاـ وـقـدـ خـافـتـ أـنـ تـنـفـجـرـ بـكـاءـ.

- هـكـذاـ؟ - نـظـرـ الـكـوـنـتـ مـرـةـ أـخـرـىـ إـلـيـهـاـ بـعـيـنـ الرـضـاـ، وـسـأـلـهـاـ دـوـنـ أـنـ يـعـرـفـ لـمـاـ قـفـزـ هـذـاـ السـؤـالـ الـآنـ إـلـىـ ذـهـنـهـ: - أـيـمـكـ أـنـ يـكـونـ وـالـدـكـ يـاـ أـيـسـيـهـ أـكـبـرـ مـنـيـ؟

- لـمـ يـكـنـ أـكـبـرـ! - حـسـمـتـ عـائـشـةـ، ثـمـ أـضـافـتـ بـصـوـتـ أـكـثـرـ اـرـتـيـاحـاًـ: - كـانـ لـهـ شـوـارـبـ وـلـحـيـةـ جـمـيـلـةـ، وـكـانـواـ يـنـادـوـنـهـ بـ "ـالـحـترـمـ بـولـتـ".

- قـلـتـ "ـبـولـتـ"ـ؟ - سـأـلـ الـكـوـنـتـ نـادـمـاًـ عـلـىـ السـؤـالـ الـذـيـ لـمـ يـكـنـ فـيـ مـحـلـهـ، ثـمـ اـمـتـدـحـ الـاسـمـ الـذـيـ لـاـ يـعـنـيـ لـهـ شـيـئـاًـ: - هـذـاـ اـسـمـ جـمـيـلـ!

- وـأـمـيـ كـانـ اـسـمـهـاـ "ـجـنـاتـ"ـ لـمـ تـمـالـكـ عـائـشـةـ نـفـسـهـاـ وـبـكـتـ.

- نـعـمـ، نـعـمـ، يـاـ اـبـنـيـ!ـ ماـ أـصـعـبـ تـحـمـلـ الـمـأسـاةـ!ـ اـبـكـيـ، اـبـكـيـ يـاـ أـيـسـيـهـ، نـفـسـيـ عـنـ كـرـبـكـ...ـ لـاـ شـيـءـ يـتـورـعـ عـنـهـ الـمـجـرـمـونـ قـطـاعـ الـطـرـقـ.ـ أـلـيـسـ صـحـيـحـاًـ يـاـ فـخـرـيـ؟ـ أـنـاـ لـاـ أـصـحـبـكـ إـلـىـ فـرـنـسـاـ مـنـ أـجـلـ أـنـ أـنـسـيـكـ أـمـكـ وـأـبـكـ.ـ اـحـتـفـظـيـ بـذـكـرـاهـماـ فـيـ قـلـبـكـ،ـ لـاـ تـنـسـيـهـماـ!ـ أـنـاـ أـفـرـحـ مـنـ جـدـيدـ لـأـنـيـ اـشـتـرـيـتـكـ قـبـلـ أـنـ تـشـتـرـيـكـ إـحـدـيـ دـورـ الـبـغـاءـ.ـ قـلـبـ شـارـلـ دـوـ فيـرـيـوـلـ الـآنـ الـمـوـضـوـعـ بـمـهـارـةـ:ـ وـاـسـمـ أـمـكـ جـيـلـ جـدـاًـ وـسـأـقـولـ لـكـ السـبـبـ:ـ نـحـنـ -ـ الـفـرـنـسـيـنـ -ـ عـنـدـنـاـ اـسـمـ جـيـلـ مـنـ جـنـسـهـ هـوـ جـانـيـتـ؛ـ أـلـيـسـ كـذـلـكـ يـاـ فـخـرـيـ؟ـ وـدـونـ أـنـ يـهـتـمـ شـارـلـ دـوـ فـوـرـيـوـلـ بـمـاـ قـالـهـ وـبـمـاـ سـأـلـ عـنـهـ اـنـتـقـلـ إـلـىـ الـمـوـضـوـعـ الـذـيـ يـرـيـدـهـ:ـ اـسـمـعـاـ،ـ لـمـ يـقـ الـكـثـيرـ عـلـىـ مـوـعـدـ الـعـشـاءـ،ـ وـلـاـ كـانـ الـمـطـعـمـ الـذـيـ نـتـنـاـوـلـ فـيـهـ،ـ مـلـكـنـاـ وـأـنـاـ،ـ

الطعام أحياناً في "ميلين" قريباً من هنا فستنزل هناك ونتعشى ونقضي ليتنا للراحة فيه. ثم سنهتف غداً "باريس، باريس، هيـه بـارـيس" حين توقفت العربة بضيـيجـها أمام مطعم مـيلـين استـقـبـلـهـم أربـعـةـ أـشـخـاـصـ بـزـيـ مـوـحـدـ:

ـ لا تستعجلـي يا أـيـسيـيـه ـ قال شـارـلـ دـوـ فيـرـيـوـلـ لـعـائـشـةـ قـبـلـ أـنـ يـفـتـحـ الـبـابـ لهم ـ حين يـمـدـ منـ يـسـتـقـبـلـنـاـ يـدـهـ إـلـيـكـ لـيـصـافـحـكـ مـدـيـ أـنـتـ أـيـضـاـ يـدـكـ، وـاسـحـيـ لـهـ أـنـ يـقـوـدـكـ. هـذـهـ عـادـتـنـاـ نـحـنـ تـجـاهـ النـسـاءـ فـيـ فـرـنـسـاـ.

استـمـعـتـ عـائـشـةـ إـلـىـ ماـ تـرـجـمـ لـهـ، وـاـكـتـفـتـ بـالـبـتـسـامـ، وـلـمـ تـتـمـلـلـ كـمـاـ فـعـلـتـ أـمـسـ وـأـوـلـ مـنـ أـمـسـ، وـفـيـ الـأـيـامـ السـابـقـةـ الـأـخـرـىـ: مـدـتـ يـدـهـاـ كـمـاـ تـفـعـلـ سـلـيـلـةـ أـسـرـةـ أـمـرـاءـ، وـانـسـلـتـ مـنـ الـعـرـبـةـ.

رـعـاـ لـأـنـهـ مـرـحـةـ فـيـ هـذـاـ الـيـوـمـ، حـتـيـلـ إـلـيـهاـ أـنـ الـمـطـعـمـ ـ الـفـنـدـقـ الـذـيـ دـخـلـتـهـ يـخـتـلـفـ حـقـاـًـ عـنـ غـيـرـهـ مـنـ الـمـطـاعـمـ، وـهـيـ الـتـيـ مـضـىـ عـلـيـهـاـ فـيـ الـطـرـيـقـ إـلـىـ بـارـيسـ بـضـعـةـ أـيـامـ.

وـعـلـىـ عـادـةـ الـمـطـاعـمـ الـمـتـازـةـ، جـهـزـ الـمـائـدـةـ، بـسـرـعـةـ فـائـقـةـ، عـدـدـ مـنـ حـمـلـةـ الـطـعـامـ، وـآخـرـونـ مـنـ حـمـلـةـ الـمـشـرـوـبـاتـ. وـبـفـوـاكـهـ مـتـنـوـعـةـ، وـهـمـ يـرـدـدـونـ "مـاـذـاـ تـرـيـدـونـ مـنـ طـعـامـ؟ـ، ثـمـ وـقـفـ عـلـىـ رـأـسـ كـلـيـنـ شـاغـلـيـ الـطاـوـلـةـ الـمـسـتـدـيرـةـ أـحـدـ النـدـلـ.

ـ سـتـكـونـ مـائـدـةـ عـشـائـنـاـ الـيـوـمـ مـائـدـةـ مـلـكـيـةـ. ـ قال شـارـلـ دـوـ فيـرـيـوـلـ مـعـتـدـاـ بـنـفـسـهـ لـأـنـهـ يـعـرـفـ مـاـ يـرـيدـ. ـ إـيـتوـنـاـ بـمـاـ يـكـفـيـنـاـ نـحـنـ الـثـلـاثـةـ، وـأـكـثـرـ. وـلـاـ كـانـ مـتـرـجـمـنـاـ تـرـكـيـاـ مـسـلـمـاـ لـاـ يـشـرـبـ فـهـاـتـوـاـ لـهـ مـنـ الـكـوـمـسـ¹.

¹ شـرـابـ يـتـتـخـذـ مـنـ حـلـيـبـ الـخـيـلـ الـمـخـمـرـ. المـتـرـجـمـ.

- لا أشرب منه أيضاً - حسم فخري موضوع الشراب وأدلى بدلوه في المائدة الملكية - ولا تأتوا بأي شيء صنع من لحم الحنзير، فهذه الصبية...
- مهلاً، مهلاً - استعجل شارل دو فيريول حين سمع بسيرة الصبية - أبعد إسلامك عن هذه الصبية، ديني دينها! وأنت أيها النادل هات لي أفضل ما عندك من نبيذ "بورغوند". إنه الشراب المفضل ملوكنا.
- ما الخلاف المستعصي بينكم؟ - سألت عائشة وقد أحسست بأن ثمة إشكالاً بينهما.
- لا مشكلة بيننا، أخبرته أني لا أشرب الخمر... - تجاهل فخري ما سألت عنه.
- أصلح الكونت شارل دو فيريول الموقف مبتسمًا ملترجمه:

 - فخري لا يأكل اللحم الأبيض.
 - وأنا لا آكل!

- ماذا إذن - سأل الكونت شارل دو فيريول الذي ينقضون "مائته الملكية" عائشة مغلياً عليها اسمها الفرنسي - ستاكلين؟
- أنا؟ - خرج من فمها أول أكلة أديغية جاء على رأس لسانها: - شيس وباستا!
- وما هذه الأكلة؟ - لم يفهم شارل دو فيريول الاسم الذي لم تلتقطه أذناه.
- ابتسם فخري وأفهم الكونت ما تريده الصبية:
- "الشيس باستا" أكلة شركسية: الشيس يصنعونه من حساء الدجاج، وبالباستا من طحين الذرة. الشراكسة يُعِدّون من لحوم البقر والغنم والدجاج والديك الرومي وطحين القمح والذرة واللحم والبيض والقرع والشمندر

والملفووف والفليفلة والبصل مأكولات كثيرة. أليس كذلك يا أيسبيه؟ رويت لمضيفنا أصناف مأكولاتكم وتتنوعها.

- نعم، حقاً! – ابتسمت عائشة بعينيها الحوراويين الصافيتين في وجه شارل دو فيريول، مسرورة لما سمعته.

- لا أعرف الكثير من المطبخ الشركسي – لام الكونت نفسه محتفظاً ب بشاشة وجهه – ولكن إن كنت تعرف كيف يُطبخ ما ذكرت فستصل غداً إلى المنزل الذي سيحضر فيه في باريس. ولذلك لنصل أنا وأنت يا شارلوت إليزابيت أيسبيه ، قبل أن نمد أيدينا إلى ما أتونا به.

- يا فخري! – صرخت دون أن تفهم لماذا جفلت، وإن أحسست أن في كلام الكونت شيئاً غير مقبول.

- وهو سيصلني إلى ريه، ونحن إلى رينا – قالت عائشة، وكأن شيئاً لم يحدث، حين هم الكونت برسم إشارة الصليب:

- كما يصلي فخري إلى ريه سأفعل أيضاً، ثم سأرسم صليب ريه.

- إنه ليس ربي وحدي يا شارلوت إليزابيت أيسبيه – نصح شارل دو فيريول عائشة دون أن يفصح عما لم يعجبه. – هو ريه أيضاً، لا بأس أن تتصرفي كما تفعلين الآن إلى أن تؤمني تماماً بالدين الذي اعتنقته في كنيسة سان – جان الكبيرة. لا إكراه في أمور الإله، ما تقبلينه بقلبك وروحك هو دينك.

أصغت عائشة إلى قضايا الإله التي تكلم فيها شارل دو فيريول، ثم سألت – دون أن تقصد تغيير موضوع الحديث – وقد تذكرت ما كان أبوها يقول، عما يُقلّقها:

- أطعّمت الحيوان والساسة؟

- نُطعمهم الآن — قال الكونت، ثم قال في نفسه: "انظر إلى أين ذهب ذهنها!... شاركيني في ما أفعل بدلاً من أن تكتمي بما وبحم".
- ليس إطعامنا مشكلة، الخيول والساقة هي من تتعب طوال النهار — ثم رسمت إشارة الصليب دون أن تستطيع أن تميز إن كانت راغبة في ما تفعل أم لا. وأضافت إليها "بسم الله" ومدت يدها إلى الطعام.
- آمين! — أضاف شارل دو فيريول لنفسه ما لم تنطق به عائشة. وتناول فخري الخبر غير مرتاح، لا إلى طريقة دعاء عائشة، ولا إلى "آمين" شارل فيريول.

طلب شارل دو فيريول تبديل أطباقه أكثر من مرة ناسياً أن "المسلمين" أفسدا عليه مائدة الملكية. يحتسي النبيذ، ويراقب الشمالة في الكأس، ويبدل صدار الطعام الأبيض، ويسمح من حين لآخر شفافية الحمراوين الغليظتين. ويضع في صحن عائشة أكثر التفاحات نُضجاً، ويسأله إن كانت تزيد طبقاً آخر.

- لا يزال فخري الذي انتهى من طعامه باكراً جالساً كحبطبة مدبة معروسة في الأرض. ومن يُنْخَبِ المائدة حقاً هو الكونت ذو الوجه المتورد "لو كان مكان هذين المسلمين امرأتان فاجرتان بحيدان التصرف لما فضلت عليهما شيئاً. هذه أرض فرنسا!... وهذه العنيدة الصغيرة التي لا يعجبها شيء لا أعرف كيف ستتعامل معنا، غير أنها ستصبح جميلة في غضون ثلاثة أو أربع سنوات..."
- هذا ما يحدث لك إن لم يشاركك المائدة من يوافقك — يرفع شارل دو فيريول كأساً لنفسه — هات أيها النادل كأساً أخرى من "البورغوند"!
- تُفِرطُ في الشراب أيها الكونت — اعترضت شارلوت إليزابيت أيسبيه حين سمعت اسم "البورغوند".

– هكذا؟! – إن كان رأيك هكذا يا شارلوت إليزابيت أيسبيه فسأتوقف –
وأكمل بعد قليل وهو يزبح من أمامه الكأس التي لم يكملها: – أراك مللت منا
يا أيسبيه. اطلب يا فخري من الخدم أن يجهزوا لأيسبيه فراشها، ثم عُد إليّ.
سنسرن بعد قليلاً.

وقالت أيسبيه بالفرنسية مرتاحه لانصرافها، موعدة بإياء من رأسها:
– ميرسي!

نهض الكونت فرحاً بأول كلمة فرنسية تنطقها أيسبيه، وأحاب مع إيماءة الرأس:
– وأنت أيضاً شكرأ لك يا شارلوت إليزابيت أيسبيه. تصبحين على خير. – وما
إن غادر فخري وعائشة الغرفة حتى صاح إلى الخادم جذلاً: – جدد المائدة
أيها النادل، واستدع هاتين المرأةين!

VI

بعد الظهر ظهرت من بعيد أبنية عالية تداعب حر الماء. وزادت الأحصنة التي عرفت أن مشوارها قارب على الانتهاء من سرعتها. وعجلات العربية تترافق مع المرتفعات والمنحدرات. ويتناشر في الهواء الحار الثقيل وقُعُّ قوائم الأحصنة الأصم.

ويحوم عقاب فوق السماء الخالية من أي سحابة. والمواشي التي غرّها حر الصيف تحتمي بظلل الأشجار تطرد الذباب بأذياها. والراعي الصغير يسلّي نفسه. يعزف على المزمار للكلب المرقط الصغير الممتع أمامه. وفي البرية حصادو الحشيش وجامعاته. وأحياناً يقفز من الحقل سرب من عصافير الزروع. ولكنها لا تمضي بعيداً فتهوي. وحيث يستريح الثوران بقرب مجاري الماء يلعب أطفال جامعات القمح لعبة الاستخفاء.

- يلعبون "الطميمة"... - تنهدت عائشة وهي تحدث نفسها - ونحن كنا نلعبها على منحدرنا.

و قبل أن يفرغ فخري من ترجمة أشواق عائشة و ذكرياتها بادر شارل دو فيريول وكأنه فهم كلامها - بديهي أن الأطفال يحبون اللعب، لهذا يصفونهم بالمرح. وكل أمامه ما كتب الله له. أنا في النسب كونت، وفي المهنة موقد الملك. و فخري مترجم ومسلم حقيقي. وأنت يا شارلوت إليزابيت أيسبيه لست من طبقة العامة التي ينتمي إليها الأطفال الذين غبطتهم، يسري في عروقك دم أميري. ولكن بما أن الله كتب لنا أن نصبح من أسرة واحدة فأنت الآن كونتيسة، من أغنى البيوتات الفرنسية.

- ولكن ألم تشتريني؟ - قاطعت عائشة الكونت دون أن تقصد مجافاته. - أشفقت عليك لأنهم يبيعونك فالشتريتك!

- ورفيقاتي كنَّ معرضات للبيع أيضاً. - لم تترجح عائشة عن السؤال الذي كان يشغل بالها.

- إن كنت تتذكرين كانت تلك المرأة السوداء ذات الصدر الضخم، والتي كانت تسخر منك، معرضة أيضاً للبيع. بل كانت تتسلل - أجاب شارل دو فيريول بشيء من الهزل كما اعتاد أن يخاطب النساء الكثيرات اللواتي اختبرهن - ولكن ليست هي من اشتريتها بل أنت لأنك رُقت لي، لهذا مستحيل؟!

جرحت كلمات شارل دو فيريول الأخيرة قلب فخري. ونظر إلى الصبية التي تزداد كل يوم أدبأً وعلماً بعين راضية معرباً بنظره عن موافقته لها في رأيها. ومساء أمس حين أنجز ترتيبات نومها وقال لها "تصبحين على خير" أجابته "وأنتما لا تنسيا أنكم على طريق"، تذكر فخري هذا الموقف قال في نفسه "وأنا كان لي يد في كارثتها؟؛ فسأل نفسه "يا رب أ تكون لاحظت شيئاً مما أتوجس منه؟"

- اشتريتني لأنك تملك المال - أجبت عائشة الكونت دون أن تفهم سؤاله - وأنا لو كان عندي مال لافتديت نفسي، وكلفتهم أن يعيديوني إلى وطني.

- قوة المال يا شارلوت إليزابيت أيسبيه - ضحك شارل دو فيريول بوجهه الطافح - أظنك فهمتها الآن. لولا المال من أين لي العربية التي يحرسها أربعة فرسان؟!

- كنت أظنهما لسلطانكم!

- ما من أمر لا يتدخل فيه أوامر سلطاناً وأفعاله يا شارلوت إليزابيت أيسبيه. ولكن المال والملك فوق الجميع. أليس صحيحاً يا فخري؟

- صحيح أيها الكونت، صحيح - وافق فخري الكونت باسماً على مبدأ "غمٍّ لصاحب العربية التي تركها" - وعبر عن رأيه في الموضوع الذي كان يشغل باله في الأشهر الأخيرة: - ولكن هناك أشياء كثيرة لا يشتريها المال: الرجولة، والشرف، والحب والصحة والرحمة - سرد بضعة أقوال مرتاحاً إلى أنه تسبب في أن ينسى الكونت وعائشة الجفوة التي نشأت بينهما. ولكنه ندم على إدراج "الحب" بينها.

- أوقفتك على كلمة واحدة فقط مما سررت - ضحك مرة أخرى شارل دو فيريول المسرور في داخله، وكتفاه ترتجان مع خديه المتوردين - ما الرجولة وما الشرف؟ أتصارع بطنك الفارغ نافخاً صدرك برجولتك؟! والمال هو الذي لا يسمح لجذر الشرف بالاهتزاز. قل إن كنت تعرف غير هذا يا فخري، أما أنا فلا أعرف. وملكتناوضيء - أنتم ما شأنكم به، ثم ماذا يوصلكم إليه - يعمى بصره عنده أحياناً. والحب؟ "باريس، باريس، هيه يا باريس!" وأضيف إلى جوارها إستانبول، أعني من سرد أخبارها... لماذا يا فخري نشر غسيلنا أمام الصبية؟!

- والرحمة؟ - سأله فخري محدثه حتى يستفيض شارل دو فيريول في الإجابة عن الأسئلة التي يجدها.

- هذا شيء آخر يا فخري. لم يخلق الله إنساناً عديم الرحمة. وأنا لم أستطع مغادرة سوق السبابايا وحدي. وها أنت ترى ما فعلت لأجل هذه الصبية. ولكن لا شك أن الدنيا ستؤول يوماً إلى المال العديم الرحمة. ونحن نتجه إلى هذا المصير، بل نجري إليه. - صرخ الكونت وكأنه وجده ليرة كان فقدها - انظري يا شارلوت إليزابيت فيريول: هذه البراري المتلاصقة كلها التي لا يحيط

بها البصر ملکٌ لآل فيريول! نحن على استعداد لأن نزود باريس بكاملها، بما فيها فيرساي وتريانون، بالخبز والخضرة والفواكه.

تنهدت الآن أيضاً عائشة التي كانت تنهب البراري بعينيها:

- ونحن كانت أراضينا على ساحل البحر!

- ما الذي امتعضت منه أيسيه؟ - سأله شارل دو فيريول.

- ترى كل شيء جميلاً، يعجبها كل شيء - كتم فخري، كما في يوم سابق، الذكريات الحزينة التي طفت على سطح ذاكرة عائشة.

وطأذا لا يعجبها؟ انظري إلى يسارك يا أيسيه، هذا هو قصر فرساي، وتريانون. هناك يعيش ملوكنا الشمس لودفيغ الرابع عشر. سأصحبك إلى هناك، وسأريك إيه. وسأعنيك على ملوكنا الوصي. وحين نرتقي الربوة، وندع يميناً ريف الإلزيم سنطل على بيت باريس البيضاء. وقبلها سنعبر نهر السين على الجسر الحجري الطويل. ثم سنعبر السين نفسه في المدينة ثلاثة مرات، ونوجه إلى شارع القديس "نيف - سان - أوغسطين". وأخيراً ستتصف العربية على المدخل الفسيح لقصر آل فيريول.

لم يكن ما تراه عائشة يدع لها الفرصة لتنفس، ولا تملك أمام ما ترقيه من جسور عالية، وما تراه من أبنية بيضاء شامخة، وارتجاج العربات الرائحة والغادية، وصريح عجلاتها، إلا أن تغمض عينيها، فتعيدها أصوات الباعة المتعالية إلى وعيها. وهكذا أسرع الركب إلى شارع نيف - سان - أوغسطين، وما هي إلا أن وجدوا أنفسهم يتوجلون أمام قصر آل فيريول.

حين فتح البوابون باب العربية نزل شارل دو فيريول بكل أناة، ومد يده إلى عائشة محياً إياها بإيماءة خفيفة من الرأس، سلمته يدها وكأنها ليست تلك التي ضربته على يده في سوق النخاسة بإسطنبول، ونزلت. ولم تفكري أن تفلت

يد الكونت وهي تنظر إلى المستقبلين، بل كانت تزداد تمسكاً به. والتفتت قلقة على فخري، فلما رأته اطمأن قلبه.

كانت الكونتيسة ماري - أنجلييك وأختها كلودين - ألكسندرین واقفتين على أعلى الدرج الحجري العالي. ووقف البوابون والبوابات فرادي على اليمين واليسار. وكان لاروش طبيب آل فيريول يقف أعلى من الخدم بقليل. ومن لم يكن شارل دو فيريول يراه بين المستقبلين هما أخوه الأصغر الكونت أوغستين-أنطوان وأخوه زوجته بيير. أفلت ابن أخيه أوغستين، بون دو فيل ذو الأعوام الخمسة يده من يد خالته كلودين - ألكسندرین ونزل من الدرج الحجري الذي اعتاد عليه. ودون أن يركض إلى عمه وقف إلى جانب عائشة وصافحها وكأنه يعرفها منذ بداية عمره.

- هذه الصبية التي جئتكم بها اسمها شارلوت إليزابيت أيسيه - قال الكونت شارل دو فيريول بصوت واثق مددٍ - اشتريتها من سوق النخاسة بإستانبول. وهي من الشراكسة الذين يعيشون شرق البحر الأسود. يتيمة الأب والأم. وما إن دخلتُ بها فرنسا حتى اعتنقت الكاثوليكية في مجمع سان - جان الكاثوليكي في ليون. وطلبته تسميتها "شارلوت إليزابيت أيسيه". وصاحبنا الآخر هو فخري، تركي يعرف اللغتين الفرنسية والشراكسة. وسيظل مترجمنا إلى أن تعتاد علينا شارلوت إليزابيت أيسيه. ستربيها، ونصنع منها ما نريد. ثم نعاملها كما يأمرنا الله. نقول لها: على الرحب والسعّة، ول يكن قدومها خيراً. لم تكن عائشة الفتاة الأديغية تبدي نفوراً من آل فيريول وإن لم تعتد عليهم. ولم تنقرّهم من نفسها أيضاً. لم تتخال عن الخوف والريبة والتوجس والتحسّس من كثير من الأمور، ولكنها اقتنعت بأن عليها الرضوخ لما جرى لها لأنها بدأت تشعر بأنها فقدت كل شيء، وأنها تعيسة الحظ.

كانت، حين تأوي إلى غرفتها النظيفة المجهزة بأحسن أثاث، تصاب بالذعر أحياناً ناسيةً أين هي الآن، فتخفي رأسها تحت الغطاء وتقضى ليلتها في البكاء. وحين تصيبها مثل هذه النوبة نهاراً فماؤها ماري - أنجليك. ليس لأنها تحبها أكثر من غيرها، ولكن لأنها تعرف أنها ستجد هناك دائماً الصبي بون دو فيل الذي تعلق بها وتعلق به. ثم إنها كانت تفهم كلام هذا الصبي أكثر من كلام غيره.

ولم يكن سلوك كلودين - ألكسندرین المعتمدة بشبابها شيئاً معها. غير أنها كثيراً ما كانت تقضي وقتها في الفراش تقرأ، أو تغيب خارج البيت، فلم يتع لها أن تصبح سعيدة لها.

طوال حياة عائشة في بيت أهلها لم تر إلا كتاباً واحداً. وهو الكتاب الوحيد الذي كانت تقرأ فيه جدتها "شابه" بصوت مسموع. والاسم الذي يطلقه أبوها وأمهما على الكتاب هو "القرآن الغالي". وحين تسأل جدتها: "وماذا في هذا الكتاب؟" تجيبها "فيه كثير من الأمور الحسنة يا حبيبتي الصغيرة، ومن أجل أن تفهم ما فيه يجب أن تتعلمي لغة الله" - وربما كان هذا هو السبب في ميلها إلى كلودين بقليها. وهناك سبب آخر: إذا كانت الجدة لا تسمح لعائشة أن تمس كتابها فإن كلودين لا تمنعها من ملامسة كتبها. "ولكن في كتب كلودين صوراً فاحشة" حين رأت عائشة في أحد الكتب صور رجال ونساء عاريات رمت بالكتاب إليها في فراشها وهربت من غرفتها. كثُبُر بون دو فيل أفضل من كتب كلودين: ما من حيوانات أو طيور أو أشجار وجبال إلا فيها. وبين دو فيل الصغير يقرأ في هذه الكتب كما يشرب الماء. وهو يقول لها "أنت أيضاً أقرئي لي! ولكن كيف تقرأ وهي أمينة؟!"

بدأ، ليس أهل شارل دو فيريول فحسب، بل كل معارفه، يلاحظون أن الكونت منذ رجع من إسطنبول إلى باريس تخلق بكثير من الأخلاق والعادات الحسنة الجديدة، وقللت النساء اللواتي يعاشرهن، وأصبح يعود إلى البيت في وقت أبكر من ذي قبل.

أما فخري فكان يتأمل كل ما فيه لأنه سيترك الصبية عائشة وسط أناس أغرب في باريس. لا يثق بشارل دو فيريول لأنه يعرفه أكثر مما يعرفه أي إنسان آخر. يراقبه من بعيد، ويختبره. فيقول لنفسه أحياناً حين تخطر له الفعلة المشينة التي يمكن أن يفعلها الكونت "ليتنى استطعت أن أخلص هذه الصبية من الكونت المحتال، قبل أن يتخذ منها لعبة، فأعیدها إلى أهلها؛ كنت كسبت ثواب الله. حتى ماري - أنجليك التي لها زوج وأولاد ممتازون تغادر كل مساء في العربة الفخمة، في أبهى زينة وأفضل لباس، ويعيدونها في أنصاف الليلي. وكلودين - ألكسندرин أختها، ذات العينين التجلاويين، والتي تفوح منها دائمًا رائحة الشراب، ولا تعرف هي نفسها عدد عشاقها وأسماءهم، تغيب أكثر الليلات عن البيت. وأما ذلك الموفد إلى إسطنبول، مداخن نفسه، الذي لا يكل ولا يمل فيغيب عن أنظار أهله أحياناً، ولكن ماذا سيدير عنه غداً فلا أحد، حتى إلههم الكاثوليكي، يعرف. يجب البحث عن حلٍ ما وإلا لطّخوا الصبية البريئة بالعار الأبدي. أنا لا أشتفيها حتى لو كنت كفءاً للنساء، ولم يخطر لي البتة مثل هذا.

- كيف تمشي أمورك يا فخري؟ - سأله شارل دو فيريول فخري في مساء رجع فيه باكراً.

- إن أردت الحق - وضحك فخري ضحكة من خارج قلبه - أعتقد أن آل فيريول لم يعودوا بحاجة إلى.

- ماذا تقول؟ - لم يعرف الكونت كيف يقول كلام فخري.

- تركني الصغير بون دو فيل بلا عمل، لا يسمح لي أن تقع عيني على عائشة.
- فهمت الآن قصدك... - وتنهد شارل دو فيريول عالمة على أن هناك شيئاً ما لا يعجبه. - وأنا راقبتهما قبل أيام. لا يجوز الاستمرار في لغتهما الخلط من الفرنسية والشركسيّة. يجب أن تتعلم شارلوت إليزابيث أيسبيه لغة فرنسيّة صافّة. ولا يمكن اكتساب تلك اللغة الصافّة دون معرفة القراءة والكتابّة، بالإضافة إلى أنها يجب أن تتعلم العادات والتقاليد وأساليب التعبير والتعامل، حتى طريقة الضحك مع الناس على الطريقة الفرنسية. وأنا عندي أفكار جيدة بهذا الشأن: بعد بضعة أعوام سأصحابها إلى أمسيات ملوكنا المنير، ويراها الناس هناك، وأجعلهم يغبطونني عليها. وقد فاتحت ملوكنا في هذا الموضوع ووافقتني. ونحن الآن نستعرض أحسن الأديرة التي يمكن أن تتعلم فيها.

- يسرني أيها الكونت أن تهتم بأمر تربية أيسبيه - قال فخري وهو يطفئ بصعوبة النار التي اشتعلت في قلبه - غير أنك لن تستطيع تحويل الصبيّة الشركسيّة إلى فرنسيّة حقيقية.

- مالك لا تفق فيّ البتة يا صديقي العزيز؟! - تجاهل شارل دو فيريول الإهانة التي ألحّقها به، غير أنه لم يملّك أن سأّل: - وماذا تظن هذا؟

- أقول هذا، لا تؤاخذني أيها الكونت، لأنّ نظرتي إلى الصبيّة الشركسيّة اليتيمة غير نظرتك أنت.

احمرّ شارل دو فيريول:

- لم أفهم! - الآن احتد الكونت تماماً - لماذا يجب أن تنظر إلى الصبيّة التي فحصتها بعيني واخترّتها واحتّتها، فصارت لي وجّهت بها إلى فرنسا، بعينك أنت؟!

- الفتاة التي اشتريتها وصارت لك يا معلم - خاطب فخري جليسه بلقب الدلال "المعلم" الذي لم يستعمله منذ دخل إلى فرنسا - ليس في عيني ما يعيّب ولا ما يجعلك ترتّب فيـ لم ينطر لي مثل هذا البتة. وإن كنت لا تعرف فسأقول لك الحق: حتى لو كنت أرّغب فيها ما أمكنني أن أفكّر فيها.

- أعرف ذلك - حسم شارل دو فيريول النقاش، ولكن ما لبث صوته أن انكسر فقد كشف عاهة فخري. وبعد لأيِّ اختتم الموضوع: - لم أقل لك شيئاً ولم تقل لي. إن كنت تتذكرة لم أتحدث معك في هذا الأمر صراحة لأنّه لا يُخاض مثل هذا الحديث! ولكن أرجو أن تصارحني بسبب تغيير نظرتك إلى شارلوت إليزابيث أيسبيه إن لم يكن عندك مانع.

- ليس في الأمر سُرٌّ، لأنّي أشفق عليها - وكتم فخري ما سببته عائشة له من إهانة قبل أيام.

- حسّن يا فخري أن تشفق على أيسبيه هكذا. وأنا لولا إشفافي عليها ما اشتريتها. ولكن أكّرر لك: لا تُخطئ ولا تشهد على ما تجهّل. سأريك يوماً ما شارلوت إليزابيث أيسبيه فاتنة تخلب الألباب. وهذا التطور يحدث في باريس أو في إسطنبول. لا تستغرب كلامي فمهمتي في تركيا شهد لي فيها الملك اليوم. واختارني من بين ستة مرشحين. ورفعنا لهذه المهمة الشمبانيا وتحدثنا في أمور كثيرة. وإن انتظرتني فسنسافر معاً لأنّ ترتيباتي ستستغرق عدة أشهر. وبانتظار هذا الموعد سنحل أمور تعليم أيسبيه في الدّير كما اتفقنا.

- وماذا أفعل في باريس طوال هذه المدة أيها الكونت؟ - كما أن شواغلي في إسطنبول ليست قليلة...

- إن كان رأيك هكذا ففي أي يوم تزيد السفر؟

- غداً.

VII

العين لا ترى إن لم يجُر القلب معها. ولهذا لا تشعر بجمال الدنيا: الخلو يغدو مرّاً، وما ليس فيه ملح مالحاً.

بعد الفطور لا تغادر عائشة غرفتها، حبست نفسها. تجلس ساهمةً، مسندة خديها المائلتين إلى الطول بيديها الرقيقتين، لا تحول نظرها عن الجدار المزيّن بكتابات ونقوش دون أن تشعر بضوء الشمس الذي يقتحم النافذتين. دخل بون دو فيل الصغير إلى الغرفة أكثر من مرة ورثت على كتفيها وهزها ولكنها لم تستجب له. ولا هي مهتمة بالكتاب الجديد الذي اشتروه لها.

حين دخل بون دو فيل آخر مرة قال لعائشة بلغته الخلط من الفرنسية والشركسيّة، وهو يشدّها:

– تعالى، ماما، گل!

– لا أريد – أجبت عائشة بالفرنسية، وأكملت بقدر ما تستطيع بالفرنسية:
– كم مرة طلبت منك ألا نتحدث بالأديغية!

ولما لم تستجب له عائشة انسّل بون دو فيل مصطنعاً البكاء. أما الكونتيّسة ماري – أنجيليك فقد شكت إلى الدكتور لاروش دون أن تذهب إلى عائشة وتتفقدّها:

– لا أعرف ماذا حدث لشارلوت إليزابيت أيسبيه، لا تفارق الغرفة ولا تأكل. كأنها متوعكة.

– ليس في الأمر مرضٌ أيتها الكونتيّسة، اطمئني.
ماذا إذن؟ أيكون السبب أني قلت لها: كفّي أنت وبون دو فيل عن استعمال لغتك الشركسيّة؟

- رِيمَ، لِيْسَ مُسْتَبْعِدًاً، وَلَكِنْ لِيْسَ هَذَا أَيْضًاً - ابْتَسَمَ لَارُوشَ بِخَبْثٍ وَأَنْفَهَ الرَّفِيعَ يَتَقَدَّمُ وَجْهَهُ.

- مَاذَا إِذْن؟ - تَغَيَّرَ لَوْنُ الْكُوْنِيْسَةِ - أَلَّاَنَّ الْمُتَرَجِّمَ الْتُرْكِيَّ جَاءَنَا بِالْفَتَاهَةِ الْخَرْسَاءِ وَعَادَ هُوَ أَدْرَاجَهِ إِلَى إِسْتَانْبُول؟ - رِيمَ، وَلَكِنْ لَا أَظُنُّ ذَلِكَ.

- لَا تَدْعُنِي أَنْفَجَرَ فِي وَجْهِكَ! - جَحْضَتْ عَيْنَاهَا مَارِيَ - أَنْجِيلِيْكَ الشَّرِسْتَانَ: - أَهْنَاكَ مَا لَا تَسْتَطِعُ الْبَوْحَ بِهِ؟

ابْتَسَمَ لَارُوشَ الَّذِي لَمْ يَتَأْثِرْ بِصِيَاحِ مَارِيَ - أَنْجِيلِيْكَ، وَلَمْ يَخْتَلِجْ لَهُ وَجْهُهُ "مِنْ أَيْنَ لَكَ أَنْ تَعْرِفَ مَا يَدُورُ فِي قَلْبِ الْمَرْأَةِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي وَقَعَتْ فِي بَلَادِ غَيْرِ بِلَادِهَا وَأَنْتِ لَا تَمْلِكِينَ قَلْبًا نَسَائِيًّا رَقِيقًا؟" كَنْتُ أَظُنُّ أَنَّ قَلْبَكَ سَيِّلِينَ مَتَى صَرَّتِ أَمَّا وَلَكِنْ إِنْ لَمْ تَرْقِيَ مَعَ الْوَلَدِ الثَّانِي الَّذِي فِي رَحْمِكَ فَلَا أَرَى شَيْئًا مِنْهُ إِلَّا. يَا أُوْغُسْتِينَ - أَنْطَوَانَ الْطَّيِّبَ مِنْ حَسْنِ حَظِّكَ أَنْكَ لَا تَعْيِشُ يَوْمِيًّا مَعَ امْرَأَتِكَ. لَا تَرَاهَا هِيَ وَأَخْتَهَا إِلَّا كُلَّ بَضْعَةِ أَشْهُرٍ. وَأَخْوَكَ الْأَكْبَرُ الَّذِي اشْتَرَى الصَّبِيَّةِ الشَّرِكَسِيَّةِ لِيْسَ أَحْسَنَ مِنْهُمَا. بُونَ دُوَّ فِيْلَ الصَّغِيرُ هُوَ أَحْسَنُ الْجَمِيعِ.

- لَا، لَا يَا كُونِيْسَةَ - صَرَخَ لَارُوشَ مِنْ بَيْنِ أَفْكَارِهِ. - اصْبِرِيَّ، وَاحْرَصِيَّ عَلَى سَلَامَتِكَ، لَا دَاعِيٌّ لِأَنْ تَقْلُقِيْ وَتُقْنِيْ نَفْسَكَ حَزَنًاً. لَا يَزَالُ دَفَعَ الْأَمْ وَحَنَانُهَا فِي قَلْبِ الْيَتِيمَةِ أَيْسِيَّهِ، وَمِنْ جَهَةِ أُخْرَى تَحْنُ إِلَى رَائِحَةِ النِّسَاءِ أَكْثَرَ مَا تَشَتَّاقُ إِلَى رَائِحَةِ الرِّجَالِ، غَيْرَ أَنَّهَا لَا تَسْتَطِعُ مَصَارِحَتِكَ؛ تَنْتَظِرُكَ!

- هَكَذَا؟! - ضَحَّكَتْ الْآنَ عَيْنَاهَا مَارِيَ - أَنْجِيلِيْكَ الْخَضْرَاوَانَ مِنْ تَحْتِ حَاجِبِيْهَا الْجَمِيلِيْنَ. - ظَنِّنْتُ أَنَّكَ سَتَفْضِيَ إِلَيْيَّ بِمَا لَا يَلِيقُ لِأَنْ صَبَّا يَا الْيَوْمِ لَا يُمْكِنُ الثَّقَةُ فِيهِنَّ فَأَرْعَبَتِنِي. وَجَعَلَنِي أَشَكُّ فِي التُّرْكِيَّ الْمُتَهَدِّلِ الْحَاجِبِيْنَ فَاتَّهَمَتْهُ ظَلْمًاً. وَرِيمَ كَانَ هَذَا هُوَ السَّبِبُ فِي أَنَّهَا كَانَتْ تَحَاوُلُ التَّقْرِبِ إِلَيْيَّ بِحَجَّةِ بُونَ دُوَّ

فيلي. وهذا كان رأي أوغستين – أنطوان في آخر زيارة له، ولكنني لم أستمع إليه قائلًا: وما يُدرِيك أنت بالنساء، فجرحت شعوره.

– من الصعب أن تحكمي على الكونت أوغستين – أنطوان، بمثل هذا الحكم – تملّى لاروش الذي لا تستطيع الفصل بين جده وهزله ماري – أنجيليك التي لا يخفى حملها وانتهت بيون دو فيل: – ومثل هذا الصبي النبیه صار بينكمما، وهذا أنتما تنتظران غیره.

– حقاً لاروش، حقاً. – توردت وجنتا ماري – أنجيليك مسروقة لما يقال لها، – من هذه الناحية أوغستين لا يكمل، يحبهم دائمًا، لا أعرف كيف تكون مشاعره نحو في البعيد ولكن – تأملت بطنها في لحظة استراحة، واختتمت:

– لو أثنا رُزقنا بالفتاة التي نتأملها لكننا راضيين أحدهنا عن الآخر.

– ليس في يدكما شيء ولو لم ترزقا بصبية. وهذا عندكما شارلوت إليزابيث أيسبيه. لا أعرف ما ستكون عليه طبيعتها، ولكنها ستصبح امرأة جميلة ينخاطفها الرجال في احتفالات الملك.

امتنعت ماري – أنجيليك التي تسمع بسيرة المرأة الجميلة أمامها، واحمررت، ولم تتمالك نفسها، ولا شفع لها الجنين الذي في رحمها:

– لو تحقق لنا – أوغستين وأنا – ما نتمناه كان أفضل. وأن يكون في جيبيك كوبيك ذهبي¹ خير من أن تراه أمامك. مالك أيسبيه معروف. أتدرى ما أستغريه يا لاروش؟ وأصارحك لأنك صديق أسرتنا. أ يكون الكونت في شيخوخته يبني شرًا بالصبية الشركسيّة؟ كان الأفضل مما فعل أن يؤسس أسرة. انظر لها هنّ فنيات رائعت مثل كلودين – ألكسندرین جاهزات للزواج. لا،

¹ pistole عملة ذهبية إسبانية أو أوربية. المنهل.

ليس الأمر أني أطمع في تزويج سلفي من أختي. يا مريم العذراء لا تقبلني مني إن طلبت أن تتزوج اختان من أخوين. ولكنها، ليس لأنها أختي، كلودين فاتاة جميلة، حلوة المعشر، متعلمة، تلقت تربية ممتازة. وهي تعيش مثلثي بما يتناسب وسمعة أسرتها الأم "غيرين دو تانسين". زينة لكل أمسيات باريس على تنوعها. ومتمنية من غيرها. تعرفك عليهم وتحرجك منهم. ولكن من لا يعرف مستقبلها هي الصبية الشركسيية، ليس لأنني أفارنها بأختي، ولكن...

- صحيح، صحيح، يا كونتيسة. - "لو جالستها إلى الصباح لما ارتوت من امتداح أختها" قال لاروش في نفسه ووافق الكونتيسة ماري - أنجيليك دو فيريول، ثم غير الموضوع: - ولكن، كما قلنا، تحتاج شارلو特 إليزابيث أيسبيه إلى امرأة من أسرتكم تدعم روحها وترقق قلبها. ولا أقول هذا لأنني أرى موضوعها ملحاً، بل لأنك سأليني، أجييك واضعاً عمرها في الاعتبار.

- شكرأً لاروش. ألم نكن نحن أيضاً صبايا يوماً من الأيام؟! ألم نحن في الظروف نفسها؟ وأنا فكرت في الموضوع. ومع ذلك فالمرأة تخطر لها أفكار كثيرة. ولأنني سمعت أن البنات في سن العاشرة يُغermen بالشأن الذي تعرفه فالتركي المسلح الأجانب وهي... ومن اشتراها، وأنت تعرف، - ليغفر الله لي - لا يرعى حرمة أحد، خطرت لي هواجس مخيفة: أيمكن أن يكونوا فعلاً بما شيئاً؟ حسناً إن كان هذارأيي - لم تستطع ماري - أنجيليك إلا أن تقدم نفسها على كل شيء - ورأيك؛ أمن أجل أن أقول كلاماً لطيفاً لأحد يجب أن أدفع ثمنه. لن أقصر من ناحيتي في شيء ولو من أجل ولدي. و كلودين أيضاً لن تشترى شيئاً ولن تتسلو، سأطلب منها مثل ما أطلب من نفسي. وأوغستين - أنطوان سيزورنا قريباً؛ سأطلب منه مخاطبة أخيه. وهل نعرف من سيخاطبه؟ منذ عدة أيام لم

تقع عيني عليه. وربما انقطعت أيسيه عن الطعام لاشتياقها إليه... الحق لا ثقة لي بخواص الثلاثة.

- شارل دو فيريول غائب عن المدينة. - قال لاروش كي يقاطع حديث الكونتيسة الفارغ.

- وأين هو؟

- يتبع إجراءات شارلوت إليزابيث أيسيه.

- ولماذا؟ أسيصحبها إلى إستانبول؟

- لا، يريد إلهاق شارلوت إليزابيث أيسيه بأحد الأديرة الملكية لتعلم وتنخلق بأخلاقنا وأساليب حياتنا وحديثنا. كان في "سان - كول" وفي غيرها، والآن هو في "سانس".

- لأول مرة أسمع هذا الكلام... - فقد صوت ماري - أنجيليك جدّته. ثم أضافت بعد قليل إلى ما تستغربه: - لهذا السبب أقول إن آل فيريول غريبو الأطوار. لن يطليعوك على ما في قلوبهم حتى لو ولدت لهم مئة مرة، وربت لهم مئة ولد، وأحسنت إليهم أو أساءت. أتعرف الصبية الشركسيه هذا؟

- لا أظن شارلوت إليزابيث أيسيه تعرف.

- بربك! صرعتنا بتدييك هذا الاسم "شارلوت..." حتى زوجة ملوكنا المنير لا يذكرون اسمها بهذا القدر!

- أتفقد ما أصرروا عليه. - أنسىت يا كونتيسة كيف جمعنا الكونت شارل دو فيريول، وطلب منا جميعاً أن نلفظ الاسم الذي أطلقه على الصبية كاملاً؟

- أذكر، ولكن لا أستطيع أن أضيع وقتني في كل مرة باسمها المركب من ثلاثة. ليفرخ إن سميتها بالجزء الأخير الشركسي من اسمها... ليس هذا مشكلة يا لاروش. المشكلة في موضوع دراستها الذي ذكرته. ما سمعته عجيب، عجيب!

أنا أحسب نفقات تربيتها إن كلفنا بها هنا في غيابه بإستانبول، وأصدع رأسي به، وهناك يتفقد الأخ العنيد لزوجي الأديرة الملكية. يبحث عما يفيده، الله وحده يعلم كم سلب من الملك. وربما علموها بالجان لأجله في الوقت الذي لا يعرف أين يذهب بماله. لو أن أحداً ربي هذه الشركسيّة الشعثاء لكان أفضل. ونحن لسنا فقراء، وأملاك أخيه أوغستين – أنطوان ليست أقل. ولماذا تبدد الملك سُدِّي إن كان سيفيدك يوماً ما؟ ألا يكفي ما أنفق على المؤسسات؟" – عجيب يا لاروش، عجيب ما تُسمعني إيه. – أفاقت ماري – أنجيليك من هواجسها، وحسمت الموضوع بسرعة: – أنت وأنا يا لاروش لم نتكلّم في أي موضوع. أنا واثقة بك. لم تخلّني مرة إلى الآن.

حين بقيت ماري – أنجيليك الكوتنيسة وحدها فحسب أدركت أن بون دو فيل الذي كان يتصفح كتبه ويصغي إلى الحديث قد احتفى من أمامها. ومع أنها تحدّس أين يمكن أن يكون الصبي قد ركض فإنها لم تذهب في هذا الاتجاه بل اتجهت إلى نافذة الغرفة التي تفتح على القناة.

لم يكن النهار ثقيلاً لأن الخريف اقترب. وكان البوابون يحافظون على نظافة البيتين الكبارين لآل فيريول، في الصحو والمطر. وليس في الدار الكاملة التجهيز شيءٌ غريب عنها، ولا ترى العين ما يؤذيها. والبيتان الآخران المجاوران بعيدان، المتناغمان مع القصرين العظيمين، ولو لم يكونا كبيرين جداً، بل حتى الظلل المجهزة وغير المجهزة، وهندسة الباب الصغير والبوابة الكبيرة، إلى توزيع الأشجار وتنويع الزهور ، كل هذا منسجم مع القصرين العظيمين. والدروب الضيقة التي يسلكونها في الصباح وفي المساء، تدخل في مساكن الزهور المتنوعة الألوان وتخرج منها. وتحت الأشجار المقلمة المشدّبة مقاعدٌ ضاحية للشمس،

تتسع لواحد أو لاثنين. وسور حجري عالٍ يحمي الحدائق والقصور. وعلى الباب رجلان عملاقان مخفيا المظهر يرصدان بالتناوب أمام الباب ليلاً ونهاراً. "ما تراه العينان جميل، وجيد، ويسر القلب، ويُشعرك بامتلاء جسدك، يرفعك إلى أعلى ما يصل إليه إنسان، وكأنك سلطان. يذكرك من يعرفك ومن لا يعرفك. المُلك هو ما يرفعك، والقلة هي ما تهوي بك. وليس قليلاً ما يُنفق على بناء كل هذه القصور والدروب. بناء كل هذا، وإرضاء الحراس النهميين، ودفع الضرائب التي تزيد كل شهر عن سابقه، ودفع الرشاوى لأزلام الحكم أشياه المسؤولين. حتى لاروش وحده ماذا يُبقي بيدنا عن حق أم عن باطل ولو لم نسعل أو نفرض. يلاحقنا ونحن أصحاء ناصحاً أن افعلوا كذا وكذا. لا أعرف ماذا يفيدنا وجوده؟ لم تسمع ما ينصحني به بشأن الشركسية الصغيرة المتمردة متبنياً موضوعها؟! وسلفي الذي شاخ بسبب شبابه الذي لا ينفد؛ ألا يستوعب الأمر؟ والغريبة التي دسّها بیننا - لا هي ابنته ولا زوجته، لو كان أباها غير الشرعي لرضيت بالأمر الواقع - ستشاركتنا أملاكنا يوماً ما! نحن أسرة كبيرة، ومع ذلك ها نحن يزيد تعدادنا. لا يحسب حسابنا بذرية أنه الأكبر؛ فيحيشو جيوبه بالجزء الأعظم من دخل الأسرة، وينفقه على النساء؛ ومع ذلك يوفدونه سفيراً للحكومة إلى تركيا. لا أريد أن يسمعني أحد. ما أسعد النساء عشيقات ملكتنا الصغير المكتنز، يجعلهن يتصرفن بأملاك البلاد كمن يركل الكرة. عشيقي أنا، نيكولاي دو بلي، ما ألطفه وما أجمله! ليس له ميزة سوى أنه ماريșال، من مستشاري الملك، أما من جهة المال فلا شيء. أنفق عليه أكثر مما ينفق علىي. الآن يجب أن أبحث عن عشيق أغنى منه. ثم إنه لا أحد غير الله يعرف أين هو. وجد ذريعة حسنة في كوني حاملاً فغاب عن أنظاري. لا مانع عندي إن لم يفارق أفخاذ امرأته ذات السيقان الطويلة، ولكن من أين

يأتي بعشيقه أجمل مني؟! - كأنه لا يعرف أن عين ملكنا المنير علىّ، يرميني بلحظه من حين إلى آخر - لو وجد العشيقه الأجمل مني لما قبلت، أزهقت روحه. ليس مشكلة على كل حال، باريس ملأى ب الرجال أغنى منه وأحلى. المشكلة في الصبية الشركسيه المنحوسة. تظاهر أمامي كأنها فأرة رُمي بها في بيت لا قِطْهَ فيه. أنا أعرف لماذا هي "حردانة". لا تحتاج إلى امرأة لسنة ناعمة اليدين، بل إلى المترجم الذي يختلس النظارات زاماً عينيه إلى جبينه. ألا يكفي ما نفق عليها حتى نفق عليه أيضاً؟" - ارتوت ماري - أنجيليك تجريعاً - وهي جالسة إلى النافذة، ونفست عن هومها، وخضت وقد غدت خفيفة الحركة. وتوجهت إلى عائشة وكأنها لم تكن إلى ما قبل لحظات في سيرتها بخير أو شر. ما رأته في البيت عجيب: كان بون دوفيل وعائشة جالسين متقابلين، ساندين وجهيهما بكفيهما.

انفجرت ماري - أنجيليك ضحكاً، وسألت:

- ماذا حدث لكما أنتما الاثنان؟!

- أيسيه لا تكلمني. - غمغم بون دوفيل.

- ماذا جرى لك يا أيسيه، هل أساء إليك أحد؟ مرت ماري - أنجيليك براحة يدها الناعمة على رأس عائشة. ثم قربتها إليها وقبلت جبينها بشفتين ناعمتين. - قولي لي من هو، لن أغفر لأحد. فهو المترجم فخرى؟!

- لا، بدأت عائشة بصوت مرتفع حاسم، وانتهت بصوت خافت. - فخري إنسان طيب. كان قد قال لي: إن كنت ترغبين فسأشتريك من شارل دو فيريول وأعيده إلى إسطنبول، فرفضت. إلى من سأعود، ومن يسأل عنى الآن؟ وأعاد إلى هذا الزنار الصغير... - انفجرت عائشة باكية ربما لأنها تذكرت أمها، أو لأنها دست رأسها في حضن ماري - أنجيليك. واغرورقت عينا بون

دو فيل، ودس هو الآخر رأسه الصغير في حضن أمه من الجانب المقابل لعائشة، وشرع يبكي ملصقاً جبينه بجبين عائشة.

- كفى، كفى! - عصر الألم قلب ماري - أنجيليك، وقالت للصبيين وقد تحركت في نفسها عاطفة الأم: - ابتعدا عنِّي، قلبي لا يتحمل، لا تتخذاني حائط مبكي، تصالحنا ثلثنا.

- وبعد قليل سألت عائشة التي بدأت تعود إلى وعيها - إن كان الأمر هكذا يا أيسية فلماذا تخاصمتما أنت وبون دو فيل. ألا يطلب منكما الامتناع عن التحدث بالشركسيّة؟

- نعم، - قالت عائشة مبرئه نفسها، معلنة أنها لا تلوم أحداً. حين أستعمل بعض الكلمات الشركسيّة أفهم الفرنسية على نحوٍ أفضل.

- نعم يا شارلوت إليزابيت أيسية، جعلتني أحاسب نفسي. لو حدث لصغيري بون دو فيل مثل ماحدث لك - لا سمح الله - لقبلت، ليس أن يتحدث به "شركسيتك" بل بلغة البابواس¹! الآن فهمت مأساتك؛ حسناً فعلت إذ رفضت العودة مع التركي. ماذا كنت ستفعلين بين الأتراك الذين تعلق بهم شارل دو فيريول؟ لا يلاد في العالم تساوي فرنسا التي يتمتع فيها المرء بحريته. ولماذا كان فخري أخذ منك زنارك؟ - لم تستطع ماري - أنجيليك إلا أن تسأل السؤال الذي لم يفارق ذهنها - لماذا احتفظ به كل هذه المدة وأعاده إليك حين قرر العودة إلى تركيا؟

- لا أعرف، كما أعاد إليّ قبعتي قائلاً "وهذه كانت لك". ولبسـتـ هذا الزنار وهذه القبعة حتى وصلـناـ إلى مرسيلـياـ. تنهـدتـ عائـشـةـ وصـرـحتـ بماـ كانـ يـسـبـبـ

¹ قبائل تعيش قريراً من ماليزـياـ. المـترجمـ.

- لها الأسى. - انتزعت منهم هذه القبعة بعدما كانوا همّوا برميها مع سائر ملابسي بعدما كسوبي في المخزن. ولكن لا أعرف متى صار الزنار بيد فخري. شكرًا له إذ لم يُضيّعه. ليس فيه ما يُغري، إلا أنه مطرز باسم أسرتي.
- الزنار جميل - قالت ماري - أنجليليك من أجل أن تُسعد الصبية الصغيرة. والقبعة الصغيرة جميلة جداً. ما أسعد المرأة الماهرة في الوشي بالذهب والفضة!
- إن كنت تريدين يا ماري - أنجليليك - والتمعت عينا عائشة الصافيتان - سأعلمك كيفية التطريز بخيوط الذهب.
- أتعرفين التطريز حقاً؟
- كانت جدي علمتني. كانت جدي "شاباً" تقرأ في الكتاب الوحيد الذي في بيتنا بصوت عالٍ. ولكنها بدلاً من أن تعلمني القراءة وجهتني إلى التطريز. إن كان عندك إبرة وخيوط فليس أسهل من تعلمها. وإن أراد بون دو فيل فسأخيط له قبعة جميلة.
- لا أريد قبعة بنات! لم يقبل بون دو فيل بما سمع.
- لم أقل لك: قبعة بنات يا بون. - استغربت الصبية صياغ الصبي. - أتكلم على القبعة التي يلبسها صبيان الشركس.
- لا يا أيسيه - قلقت ماري - أنجليليك كما لو كانوا يأخذون مقاس رأس ابها - لا يحتاج الكونت بون دو فيل إلى قبعة شركسية. لا يجوز إجبار الأطفال على أي شيء! ليدرس بون دو فيل، وليركتسب تربية ممتازة!
- وأنا سأدرس، صاحت عائشة على الغور.
- وكيف؟ - سألت ماري - أنجليليك ناسية ما كان الطبيب لاروش قاله لها.
- لا أعرف... - نظرت عائشة في وجه الكونتيسة بحزن. لم تكتم ما تعرفه وإن لم تعرف غير الله. - الكونت شارل دو فيريول قال لي إنه سيعلمني. ويبحث

عن أفضل مكان لتعليمي. والآن هو في "سانس" واليوم سيعود. وعلى ما أظن فملك مطلٌّ على ما يفعل. — رفعت من قيمة الخبر الذي روتة.

— وأنا على دراية بالموضوع. وحين عرضه على الكونت شارل دو فيريول وافقته، بل شجعته. التعلم جيد. — منحت ماري — أنجلييك نفسها قيمة عالية حتى لو لم يكن لها أي علاقة بالأمر. ولم تملك إلا أن تصارح الصبية بما يشغل بالها: — التعلم خيرٌ من أن تجلسني واجهة ويدك تحت خدك. ألا تسمعين وترى كيف يقرأ بون دو فيل الصغير في الكتب؟ — "على ما يبدو نحن لسنا من الأسرة في شيء، تُرتب أمور كثيرة من وراء ظهورنا. أنتظر عودة الدب المسكين أوغستين — أنطوان لأفرغ فيه ما أعرف وما لا أعرف. سنصبح بمثابة الحيطان الصماء لهم بذرية أنه أخوه الأكبر" — عَقْت ماري — أنجلييك نفسها وهي تتميز غيظاً.

VIII

كل إنسانٍ، دون اعتبار للغة التي يتكلم بها، وطعامه، ولباسه، وأصل قومه، وموطنه حيث يعيش، يحمي شخصه وشرفه وملعب صباه؛ وباختصار: إنسانيته. وينطبق هذا المبدأ على الطيور والحيشات والزواحف، ولكن الإنسان بعقله وفطنته، وخبثه وعناده، وحسده وغيته، ورحمته وظلمه، يُنسِيك سائر المخلوقات.

يعود فخري إلى تركيا وهو يفكر في هذه الأمور وغيرها. ولا تفارق ذهنه الصبية التي تركها في حضن الأسرة غير المتفاهمة. ويظل موضوعها يطفو على السطح وإن حاول إزاحته. وحين يفكر فيها يجد نفسه مذنباً في شأنها. وكل من له رِحْلان من المخلوقات، وهو منهم، يسن أسنانه لما ليس له، وما يعلق بينها لا فكاك له.

حتى لو كان الهواء هو من يدفع المركب فقد كان من ابتكار الإنسان. وحين لم يكن يملك الشّرّاع استعمل المجاذيف. ولم يتوقف عند هذا الحد فرَّكَ فيه مرجلاً، وزوده بالمدافع وسائر أنواع السلاح تحسباً للمسافات التي يقطعها، وللعدو الذي يمكن أن يقابلها. ومن أين لمن لا يملك أدوات إلا ما قدمته الأم مثل هذا العقل المفكّر؟

- أرقبك طوال النهار فأراك لا تفارق جانب المركب. أترى للمرة الأولى ما في البحر من كائنات؟ - سأّل قبطان المركب فخري مهموماً بأمن الركاب.-
أهناك ما يُقلّقك؟ أيمكنني أن أساعدك في شيء؟
- مضى على بعض الوقت على الطريق ومع ذلك - ابتسם فخري راضياً - لم يسألني أحدٌ مثل سؤالك.

- ليس في هذا ما تستغريه يا أخي - قال القبطان الأجرد من اللحية والشاربين - هذه مهمتي أنفذها. أمرك عجيب؛ أنظر إليك فأرى وجهك يشبه وجهي كثيراً؟ أخبرني إن كان ضاع منك أخوك الأكبر!

- ولكنك أنت أشقر وأنا أسمير - قابله فخري بمزحة.

- وأنت لست أسمير فاحماً، ولا أنا أشقر تماماً يا أخي الصغير. الأتراك متنوعو المشارب ولكنهم جميعهم مصوغون من سيف واحد لعثمان. كلنا إخوة وأقارب. أنا أسمى سليمان، ونادني دون تكليف بـ "سو" وأفضل من أن تقول قامه¹ أن تقول "سو" - وإن قلت "بسه"² أليس أفضل؟ السيف يقتل، والماء عmad الحياة. وأنت ما اسمك؟

- أسمى فخري.

- هذا اسم جميل وجيد. ولكن أفضل شيء وأعلاه هو أن نعيش سالمين أصحاء بفضل الله تعالى في هذه الدنيا الفانية.

- صحيح وحق يا سليمان!

- نادني "سو" أنا قلت لك؟! - قاطع سليمان ما بدأه فخري - وهذا ما يخاطبني به الفرنسيون في مرسيليا.

- حسناً، فهمت يا سو - حين نظر فخري بإمعان إلى سليمان أدرك تشابههما في المظاهر، ولان قلبه قليلاً، وأكمل كلامه: - صحيح كلامك، حق، لا يجوز أن ننسى فضل الله علينا. وإن أنت أكثرت من فعل الخير في دنيا الله العارية كان حسابك يوم الحشر أسهل. أما الفرنسيون الذين يخاطبونك في

¹ سيف قصير مشهور عند الشركس. المترجم.

² ماء بالشركسية. المترجم.

رسيليا "سو" فأنا أعرف عنهم شيئاً. أناس مرحون، يسهل اتخاذهم أصحاباً، يشربون من النبيذ أكثر مما يشربون من الماء. ويحبون اللحم الأبيض، لحم الخنزير. ليسوا سبعين، غير أن رجالهم ونساءهم مهوسون بالجنس، منفلتون.

أوقفك على ما قلت، ولكن نظرت إلى النساء مختلفه. ماذا تفعل بنبيذهم وكرومهم وضفادعهم وأفاعيهم؟ لا تأكل ولا تشرب، لا أحد يُجررك. وإن كنت لا تشرب النبيذ - سحب سليمان غليونه فجأة ورفعه في الهواء - فإن نساء فرنسا سيسكرنك ويُشبعنك! لسن مثل بناتنا التركيات.

- صحيح يا سو، غير أن الجنس يمارس سراً.

– أليس متعًا يا أخي لأنه سر؟! ليس اللذُّ ما تسرقُ أيها المسكين! أعاد سليمان غليونه نصف المشتعل مسروراً في قلبه. ومصّ دخان غليونه بضع مرات

ثم سؤال: - كم زوجة عندك؟ أتعيش على أربع نساء كما سمع الإسلام؟
- عندي واحدة فقط. - كذب فخري على سليمان الذي صار فجأة صديقاً

— وشرح له لماذا "واحدة" — وهذه أعميلها بشق النفس.

- والأطفال، أليس عندك؟

۲۷۰

- هذا سيء - قال سليمان بإشراق.

– نأمل في أن يعطينا الله – زاد فخري الآن في كذبته دون أن يعرف السبب.

- ليحقق الله الذي يتسلل إليه الكثيرون، ولا يحتاج هو إلى أحد، أمنيتك! ما

العمل، لأجل هذا سمح الإسلام للرجل بأربع. وفي هذا حكمة إلهية. صحيح أنه ليس في الأمر ضرورة. إن كان مالك يعيدهن، وفي إمكانك إرضاؤهن.

- وإن كان الرجل عاقراً؟ - بدأ فخري يصدق كذبته!

- إن كان الأمر هكذا وجب الامتثال لحكم الله. - قال سليمان، وربت على كتف فخري. - لا يجوز أن تقول هذا وقوت في قهرك. لا تفهم أسرار الجنس من امرأة واحدة. نحن، وإن كان لدينا أربع نساء، نسلّ أحياناً من بينهن، ونجرب الحب السري كما تقول. - ضحك القبطان بحماسة وهو يُفرغ الغليون. الآن فقط سَرَّتْ إلى فخري رائحة النبيذ القوية من فم سليمان. - لا تحرم نفسك من مُتع الحياة يا أخي. ما تُمْتعَ به نفسك من مباهجها مكسب لك. أنت ما تزال شاباً بالقياس إلى. وما يقول الأتراك "حين تنحدر إلى الشيخوخة يتقادسك الشباب" ربما يكون صحيحاً. أنا أثرثر معك مذكراً نفسي بالماضي فحسب؛ وإلا ماذا تجني من سنواتي الستين. أسبح في البحر الذي غطستُ فيه يوماً بمشقة. وإن أردت الحق فأننا أحباب الثرثرة مع الأصغر مني سناً. "أي أفاق عنيد هذا الذي وقعت بين يديه؟" فقد فخري شيئاً فشيئاً رغبته في سماع سليمان الذي كان يُحبّطه، وفي رؤيته. وفيما هو يبحث عن ذريعة لمفارقته وقعت عينه على السفينة القادمة.

ارتعدت أطراف فخري في هذه اللحظة، وتذكر طفولته.

كان عمر فخري آنذاك سبع سنين. وكان محمولاً في مثل هذه السفينة الغربية. ثم أدرك أنهم يحملونه إلى مصر. كان مجموع الصبيان الأسرى، من هو فيهم، عشرين، وتسعة عشر منهم من الأديغة، وفي هذه اللحظة أدرك المؤسَّ الذي يعيش فيه الأديغة، وسمع فيها لغتهم. وفي خلال خمس سنوات في القاهرة ثم في دمشق لم يسمع فخري إلا لغة الأديغة والعربية. ثم اشتراه لاحقاً فرنسي من حَمَّلة الصليب، وأجّره في جزيرة كورسيكا. وحين هرب في الخامسة عشرة من العمر وعاد إلى إسطانبول وقع في يد مجرم تركي واستفاد من لغته الشركسيّة. وقد

مات هذا الجرم منذ زمن بعيد، ولكن رفيقاً له هو الجرم الآخر عصام، هو من يلاحقه فخري اليوم.

- أترى يا فخري كيف تجري هذه السفينة بأقصى سرعتها نحونا؟ - وفيما هو يرفع للقطبان الآخر الواقف أمام دفته إيمانه ودّعه قائلًا: - لو كان مركبي أنا أيضاً محشوًّا بالأموال لما أكتفيت بالسباحة بل طرت طيراناً. ليس محروماً من الحظ سليل الكلبين هذا. وأنا ماذا؟ ذهبت إلى فرنسا خالي الوفاض ورجعت صفر اليدين. ما الفائدة من مزاحة هؤلاء الفرنسيين الذين يكررون "بونجور" و"ميرسي" و"سي لافي"¹. يا فخري ليس العرب مجالاً للربح، الشرق فقط. مصر والشام تغامر فيهما حقاً، ولكن تستطيع أن تخرج منهما بما يكفيك العمر كله. لا يحتاج الأمر إلى الكثير فيهما، خمسون طفلاً أسيراً أو ستون. انظر، لم أخطئ، ها هم يجلسون خمسة خمسة.

لم ينظر فخري فيما السفيتتان تفترقان متبدلتين التحيات إلى الأولاد المقيدين على السطح. بل نحّى نظره معتّفاً بالعجز عن فعل أي شيء. ودون أن يستطيع تمييز أي صوت من خلال صياح سليمان دار رأسه واعتصر الألم قلبه. ما أكثر ما في الدنيا من متناقضات تعرفها ولا تعرفها. الليل والنهار، والشتاء والربيع والصيف والخريف. بردٌ حيناً وحرٌ حيناً. صحو ومطر. شرق وغرب، وشمال وجنوب. وفي كل مكان يعيش أنس. يضحكون ويكونون، يكبرون ويبنون قبوراً. وكلّ يجد مسقط رأسه، سواءً كان البرد يُحرقه أم الشمس تشويهه، أجمل مكانٍ وآنسه. وماذا عن الحظ والحب والاحتقار؟ هذه متفاوتة كما مظاهر الناس وسُحنانكم وملابسهم. هناك حظ يدوم طويلاً، وآخر يزول

¹ بالترتيب: صباح الخير، شكرأ، هذه هي الحياة. المترجم.

سريعاً. وليس قليلاً الحب الذي يحرقك والحب الذي يُشعرك بالدفء. والاحتقار يلاقي من يناسبه وذنب البارحة والمعروف اليوم هل يتصرفان؟ أتداوي من جرحته إذا نفثت في وجهه؟ البحر يطيب ولكنه يترك ندبة أبدية. بدت الصرخات التي ارتفعت في السفينة والفووضى أفكار فخري. وحين نظر رأى سلسلة عظمية لطفل يرميها أحدهم أمام سليمان:

- ما هذا؟ ومن هو؟ - دفع سليمان الصبي بطرف جرمته وأبعده.
- هذا القدر الصغير - رفع الرجل ذو الساعدين المكسوين بالشعر الصبي عن الأرض - يركب معنا إلى إسطنبول دون أجرا.
- امنعه، سيخنقه - قال سليمان وضحك - وهو على كل حال يكاد يتنفس، كيف ركب سفينتي؟
- ركب لأني أود العودة إلى ديارنا - حاول الصبي النهوض غير أنه لم يلبث أن انحصار.
- إلى أين ستذهب؟ أتسمع ما يقول، ركب سفينتي لأنه يريد العودة إلى دياره... - سخر سليمان من الصبي مقلداً إيه - أين قلت ستذهب؟
- إلى تركيا لأني تركي .. - نطق الصبي هذه الكلمات بصعوبة ثم بكى.
- اسمع ما يقول! - سخر سليمان ثانية من الولد الأسير الذي يلفظ أنفاسه الأخيرة. - لأنه تركي يعود إلى تركيا!
- يا سليمان - نادى فخري القبطان وقد نفد صبره - ما تفعله عيب، لن يقبله الله منك.
- أنت يا فخري؟ - نظر إلى فخري كأنه يراه أول مرة، ثم صرخ وهو ينظر نحو السفينة المبحرة نحو الشرق: - أنا من لن يقبل الله منه؟! ذاك ينقل الأموال، وأنا أترجّح الصبي المختصر. إن بعثه أم اشتريته فلن تستطيع انتزاع قلبه التركي.

- سيموت بين أيدينا ويلونا... - دمدم الرجل ذو الساعدين الغزيري الشعرا.
- ربما كان مصاباً بالطاعون... .
- هل تراجعت؟ ماذا تقول؟ - نهر سليمان الرجل وقد جحظت عيناه. - ارمي من السفينة!
- لن ترميه! - وقف فخري على رأس الصبي - ليس مريضاً، ألا ترون أنه يموت جوعاً؟
- لم أدق طعاماً منذ خمسة أيام... - شهد الصبي على صحة كلام فخري وقد استرد شيئاً من الشجاعة.
- إن كان هذا رأيك يافخري - غير سليمان نبرته بسرعة - هذا الولد نصف الميت، والذي لن تستفيد شيئاً من مقاضاته، ولا وحش البحر ترحب به، وقد شهدت لصالحه فإن أجرة طريقه عليك!
- لن أقول لا - أمسك فخري بكيس نقوده وأعطي سليمان ثلاثة ليرة مما كسب من عمله مترجمًا لعائشة. ومد للرجل ذي الساعدين القوين عشرين ليرة: - هذا من أجل أن تحمل الصبي على ذراعيك حين نصل. ما اسمك يا أخي الصغير؟ - سأله الصبي ذا الأحد عشر أو الاثني عشر ممسكاً به من أحد ذراعيه.
- أورخان.
- لا تلم يا أورخان الرجل الجسيم ذا الشعر الكثيف الذي كان يقذف بك هنا وهناك! أعطه مالاً يحمله إلى فرنسا على ظهره - وقال للرجل: إن كنت أهنتك فاغفر لي - أكفر عن إهانتي بهذه الليرات الثلاثين.

- لا بأس هكذا - مد الرجل يده بسرعة ناظراً إلى سليمان ودس النقود في جيئه. النقود دائمًا نقود، حتى في المرض لا رائحة لها. أغفر لك، ولكن ألا يحتاج هذا إلى تنظيف وإطعام؟ لا تنس أجراهما.

عاد سليمان إلى وعيه بعد ما سمع ما سمع، ورأى ما رأى:

- هل ظنت يا فخري أن الموضوع انتهى عند أجرة طريق أورخان؟

- كنت أنتظر سؤالك عن هذا الأمر. أشتري أورخان بما يساوي أجرة طريقه؛
أنت راض؟

- نعم راض، نعم. العصفور الذي يدلل إلى بيتك صار لك إن كان كبيراً أم صغيراً. وكذلك ما جرى لي من جهة أورخان صبي السعد الصغير... كنا بانتظار موته فإذا بنا نفترق على عرسه. يمكن أن تكون غير راض؟ - استعجل سليمان كمن يخاف أن يسترجعوا منه ما منحوه. - أورخان الصبي، ليُسعده الله ولبيحمه، أحسنا إليه أنت وأنا. وهل يمكن للتركي إلا أن يعود إلى تركيا! ولكن ما لا أفهمه الآن هو أمر واحد يا فخري. قلت لي إنك تعيل امرأتك الوحيدة بصعوبة فكيف أنفقت كل هذا المال على الولد الشارد الذي لا تعرف عنه شيئاً؟

- ليس أورخان ولداً مشرداً. بل هو إنسان سيء الحظ سلبيه حريته. المال يفارقك كما أتاك. ربما كان الله قدّر أن أنفق المال الذي كسبته من الترجمة في فرنسا لعائشة الصبية الأديغية المسكينة السبية على إعناق أورخان. ولذا لا أندم على ما فعلت.

- ليكافئك الله الذي يضع إليه الكثيرون وهو لا يحتاج إلى أحد على معروفك. ولكن أتعرف ماذا أريد أن أقول لك: لا تنس أن الزوجات الأربع أمنع من المرأة الوحيدة، ولا تخدع نفسك!

في اليوم الثالث وقد وصلوا إلى إسطنبول، وهم فخري وأورخان بالنزول إلى اليابسة، صاح سليمان في إثرهم:

ـ مع السلام يا فخري وأنت يا أورخان ولو لم نودعكم. متى احتجتما إلىـ فهذا موقف سفينتي، وتجدونني في أي وقت. ـ وغمغم وراء المسافرين اللذين لم يلتفتوا إليه: "انظر كيف غدا هذا الصبي الذي كان يُختصر صبياً رائعاً! ما أرخص ما بعثه! لا تعرف متى ستائيني وأنت تتصرف عرقاً أيها الفقيرـ الغني، العاجز عن إعالة زوجته الوحيدة!"

IX

الوقت يجرحك، ويداويك، ولكن ليست كل المروح متماثلة. ما يقطعه السيف، وإن شفي، يترك ندبة. وما يجرحه اللسان يبقى وجعاً للجسد والقلب، يحمله المرء معه أينما ذهب، بل يأخذه إلى الآخرة.¹

تعود عائشة دائماً إلى لياليها البائسة المترفة بالأحلام المقطعة. وكلما تقدم بها العمر زاد ما تتذكره ونقض. أو تتمثل لها أشياء أخرى. أبوها بولت، وهو قتيل ملقى على الأرض، يقاتل المجرمين بسيفه المشهور، وأمها "جنتات" وهي ميتة على الأريكة، تراها تجري خلفها، وتسمع نداءها. وجدتها التي توفيت في تلك السنة بتحابه المعذبين بقرآنها، تتولى إلهم، وتدعوه إلى الله، ولكنهم يقتلونها دون أي رادع. أما عائشة فيحملها أحد الرجال باتجاه الساحل، وحين تحاول الإفلات منه ينهرها بالتركية والأديغية.

ما هذه؟ إنما أحلام عائشة التعيسة. وذكريات آلام قلبها وجسدها الواضحة. والأيام الراهنة التي تعيشها في أسرة غريبة في بلاد بعيدة لا تعرف عنها شيئاً. ماذا ستحمل هذه الأحلام: أهي رياح تحمل الذباب أم هي أيام سعيد تسر القلب؟

حين استفاقت عائشة من أحلامها المعتادة نصحت نفسها، خلافاً للأيام السابقة، كما كانت تفعل جدتها: "ها هي الحال: لا شيء لا يتألم معه المرء. إن كانت تمطر أمس فالشمس مشرقة اليوم. كل شيء حسن، مريح، ربما تحسن سلوك الكوتنيسة معي لأن شارل دو فيريول تكلم إلى ماري - أنجيليك

¹ في الأصل: معبر الأموات، وهو تعبير شعبي شائع يعود إلى معتقدات قديمة تشبه ما في الأسطورة اليونانية. المترجم.

وأوغستين أنطوان قبل أيام. ولاروش بيتس مارلي، ويسأل عن صحتي. أما كلودين — ألكسندرین فنادراً ما نراها. ولكن تجذب ماري — أنجيليك حين تعاتبها: "سأخلق شعري وأتحقق بالدير" أي دير تتكلم عليه؟ أيشبه ذاك الذي سيعلمونني فيه ويربونني؟ أنا صبي فيحلقوا شعري؟! لم يقل لي الكونت شارل دو فيريول شيئاً من هذا. والملك لن يقبل به. كل شيء حسن، ولا شيء يدعو للإيأس. ولأن حرف "الغين" الشائع في الأديغية له مثيله في الفرنسية تصبح الأخيرة أسهل على يوماً بعد يوم. و"صوفى" التي كلفوها بخدمتي، ولو أنها أكبر مني بأربع سنوات، لا تتوانى عن خدمتي. ويدو عليها أني أُعجبها أكثر من كلودين ولو لم تصرح بذلك. ولكن لا أعرف ماذا سيحدث حين أتوجه للدراسة. لن أطلب من صوفى أن تخلب لي الشوكولا مرة أخرى إذ لم يكن من عاداتنا مثل هذا. ولماذا على أن أبقى في فراشي متباهية؟ أليس هذا عيباً؟" خضت عائشة بسرعة ورتبت فراشها قبل قドوم صوفى.

توقفت صوفى التي جاءت بكأس الشوكولا حزينة على أرض الغرفة:

— أُفقت يا أيسى؟

— اكتفيت نوماً ونضخت. — ظهرت بأنها لم تفهم سؤالها — لماذا تستغربين؟

— لأنك تختلفين عادات أسرة الكونت فيريول يا شارلوت — إليزابيت أيسى — أحببت صوفى بصوت منخفض ووافق — لا يقوم آل فيريول من أسرتهم قبل أن يشربوا الشوكولا. ولا يرتبون أسرتهم بأنفسهم.

— ما أقسامك يا صوفى!

— لست قاسية بل أقوم بعملي — ابتسمت صوفى لعائشة بعد هنيهة — أسألك بالكلمة الشركسيّة الوحيدة التي علمتني إياها، هل تفهميني؟

- فهمت، فهمت يا صوفي - عانقت عائشة صوفي وهي في منتهى السرور،
ومزاحت: - آل فيريول لهم مواعيد منتظمة للفطور والغداء والعشاء، غير أنهم
ينامون ويستيقظون متى شاؤوا.

رن منبه الفطور في الساعة العاشرة. وسمعت أصوات الأبواب تفتح. وسمعت
عائشة صوت بون دو فيل يجري من غرفته على عادته. وخلافاً للأيام السابقة
حيث كانت أول من يصل إلى المائدة أخرّت نفسها اليوم قليلاً: لن تسبق ولن
تنتأخر.

- ألسستِ جاهزة إلى الآن؟ - استغرب بون دو فيل.

- لا تستعجل! - قالت عائشة لبون دو فيل وهي أمام المرأة تصلح زنارها.

- تعالى يا عائشة! رنّ المنبه.

- حالاً يا بون، لن نتأخر عن كلودين.

- كلودين صارت في غرفة الطعام - لم يُطق بون دو فيل صبراً.

في صالة طعام آل فيريول الفسيحة المتجهة إلى الشرق أربع نوافذ عالية.
والستائر البيضاء التي لا تصل إلى الأرض، والغطاء الأبيض الناصع للطاولة
الطويلة الكبيرة، وانتهاء بالصحون البيضاء، والصداري والممساح، كلها تزيد
الصالة نوراً على نور. والكراسي المتنصبة المصنوعة من الخشب الأبيض،
والطاولة التي عليها أصص الزهور، والصور المعلقة إلى الجدار، والمصابيح المتسلية
من السقف، ترسم منظراً منسجماً متناسقاً.

وفي الصالة خادمان: أحدهما يأتي بالطعام، والآخر يرتبه على الطاولة. والاثنان
يرتديان بزتين سوداويين قصيرتين. وقفازين أبيضين.

وعلى مائدة الإفطار يجلس خمسة: في الصدر شارل دو فيريول، وعلى يمينه إلى
جانب المائدة أوغستين - أنطوان وماري - أنجلييك، والكرسيان المقابلان لهما

فارغان. وعلى الجهة اليسرى بيير وكلودين - ألكسندرин. والخادمان - أحدهما في أعلى المائدة والآخر في أدناها - ينتظران أوامر الكونت الأكبر، ويتدلى من الساعد الأيسر لكل منهما منديل أبيض.

ما إن تجاوزت عائشة الباب حتى وقفت خجولة من أنها جعلت الأسرة تنتظرها. ولكنها استفاقت سريعاً فأومأت للحاضرين دون أن تعبأ بيون دو فيل الذي كان يركض إلى كرسيه، بإشارة احترام، وحيثهم:

- صباح الخير!

- في الأيام التي أكون فيها على المائدة يا شارلوت إليزابيت أيسيه - قال شارل دو فيريول الجالس في مكانه المخصص لعائشة - سيكون مجلسك على يسارِي.

دفعت ماري - أنجيilik بطرف قدمها أوغستين - أنطوان وكأنها تقول: "ماذا يفعل هذا؟" وبغمضة عين نظرت بطرف عينها إلى أختها كلودين - ألكسيندرن.

- وأنا؟ نمض بون دو فيل كالمدoug حين رأى عمه يجلس عائشة على يساره.

- أنت ستبقى في مجلسك! - شدد أوغستين - أنطوان الكونت على ابنه.

- لا - سحب بون دو فيل مقعده بصعوبة - وجلس إلى جانب عائشة.

- بون! - لامت ماري - أنجيilik ابنها دون أن تنهِه.

- كفوا عنه! - حين مد شارل دو فيريول يده بعد صلاة الطعام، مد الآخرون.

حافظ الجميع على صمتهم ريثما انتهوا من الطبق الأول دون أن يُسمع منهم إلا أصوات السكاكين والملاعق - وحين أتى الطبق الثاني توجهت كلودين - ألكسندرin إلى شارل دو فيريول بالسؤال:

- وحين تغيب عن المائدة؛ إلى جانب من ستجلس أيسية؟
- أشعر بيير غيرين دو تانسين الذي لم يعجبه السؤال أخته الصغرى باستيائه عبر سعلة مبحوحة.
- أنا حين أغيب عن باريس يا كلودين - ألكسندرин، سيجلس أخي الأصغر أوغستين - أنطوان مكاني - أجاب شارل دو فيريول متظاهراً بأنه لم يُعرِّف السؤال اهتماماً، ومشهداً بيير على كلامه - وستعود شارلوت - إليزابيت أيسية إلى مقعدها، أأجبت على سؤالك يا كلودين؟
- ولكن الكونت أوغستين - أنطوان لا يقيم في باريس كثيراً.
- وفي هذه الحال - ستكون أختك ماري - أنجيليك الكونتيستة هي من تشغّل رأس المائدة. والآن هل أنت راضية عن الجواب؟
- يسرنا أن يتذكّرنا نحن مرة من المرات - أخت ماري - أنجيليك مازحة، بالنيابة عن أختها الصغرى، النقاش الدائر على المائدة. - أحب شارلوت - إليزابيت أيسية كصغيري بون دو فيل، وأظنها تحبني هي كذلك.
- شكرأً أيتها الكونتيستة - قال شارل دو فيريول لكنّته بارياد بالغ. - جئت بشارلوت - إليزابيت أيسية إلى منزل آل فيريول وليس لي أمل في غيرك طاماً في أن تصوّنها. وقد اخترنا، كما اتفقنا، الدير الذي سُنّتحقّها به. وليس بعيداً، هو الواقع في "سان-كول" وقد ذهبنا أنا وشارلوت - إليزابيت أيسية إلى هناك من فيرساي، وأعجبت به؛ أليس كذلك يا شارلوت - إليزابيت أيسية؟
- نعم المنزل كبير والفناء جميل، وفي كل مكان، كما دارنا، الزهور والأشجار.
- ثم إن أشد ما أعجّبني هو أني لن أكون بعيدة عنكم.

- اطمئني من هذه الناحية! يا شارلوت إليزابيت أيسبيه، لن تكون بعيدين أحدهما عن الآخر - وافت ماري - أنجلييك وقد انتعشت روحها بسبب التقدّم التي سيتركتها لها، الصبية البريئة التي لا تعرف غير الله. - سترزورك، ويوم الأحد ستأتي بك إلى هنا. لن يقبل ملكتنا المعظم إلا أن يكون دير سان- كول جميلاً ومريحاً.

- وأنا سأدرس فيه - لم يتمالك بون دو فيل نفسه.

- أنت يا بون، حين تصبح في عمر شارلوت إليزابيت أيسبيه، وقتها، ستدرس هناك.

- أرضست ماري - أنجلييك ابنها بما لم يخرج من أعماقها.

- ولكن، لن أسمح لهم أن يخلقوا لي شعرى - لم تملك عائشة أن تخفي ما يُقلّقها. ثم اختتمت بنبرة ألطاف: - توسل يا شارل دو فيريول إلى الملك ألا يفعلوا بي هذا!

- ومن قال لك إنهم سيقصون شعرك؟ - سأّل شارل دو فيريول عائشة بصوت لطيف يخفي استياءه من الفكرة.

- لا أحد! - سحبت عائشة كلامها، ولكنها أضافت نادمة على أنها لم تقل الحقيقة: - لماذا إذن قالت كلودين لأختها ماري - أنجلييك "سأحلق شعرى وألازم الدير"؟

الكلام الذي سمعته كلودين - ألكسندرین عن نفسها جعلها تعيد كأس الشاي بعصبية إلى الطاولة. وفي اللحظة نفسها نهضت تزيد الابتعاد عن المائدة فلم تقبل أختها:

- اجلس يا كلودين؛ سلوكك معيب!

وكالعادة، حين ينشب نقاش بين آل فيريول، خرج الخدم من الصالة.

- سأجلس كرمى لآل الكونت فيريول - وهوْت كلودين - ألكسندرин بقوامها المشوق على كرسيها. - كم مرة رجوتك يا ماري - أنجيليك أَن لا توجهي لي نصائح في حضرة أيسبيه!

- شارلوت - إلزابيت أيسبيه - سرعان ما أصلح شارل دو فيريول اسم عائشة لكلودين - ألكسندرин.

- نعم، - في حضرة شارلوت إلزابيت أيسبيه - أصلحت كلودين - ألكسندرин: - أما قلت لك يا ماري - أنجيليك ألا "تربيني" في حضور شارلوت - إلزابيت أيسبيه؟ وأنت يا شارلوت - إلزابيت أيسبيه لا تتဂسسي على حديثنا نحن الأخرين!

- لا أتجسس - جعل الاتهام الباطل صوت أيسبيه يرتفع - بل أقول ما سمعت.

- أنتما يا ماري - أنجيليك - قال أوغستين - أنطوان الذي ظل يُصْمُ أذنه وهو يشرب الشاي: - حدث لكما ما تستحقانه تماماً، لا تنتبهان إلى ما تقولان!

- صحيح يا أوغستين - وافق شارل دو فيريول أخاه الأصغر، وواسى عائشة: - ما تأتي كلودين - ألكسندرин على ذكره دير تمارس فيه شعائر دينية، أما الدير الذي ستدرسين فيه فمختلف. لا يخلقون شعور الصبيان والصبايا.

- نعم، يعلمون ويربون في الدير الذي سيوِدِعُك فيه، ولا يخلقون الرؤوس - وافقت ماري - أنجيليك الكونتيسة أخا زوجها.

- الآن، نهي نقاشنا وطعامنا وشرابنا. ليتقبل الله طعامنا وليرغف لنا ما في قلوبنا. - حين خض شارل دو فيريول خض الآخرون عن المائدة. كان نهار باريس مليئاً بالضباب، ولذا لا خشية أن تمطر السماء.

وكان نهار أمس ومساءه أثقل على شارل دو فيريول من اليوم بكثير. اتجه إلى النافذة أكثر من مرة قلقاً من النهار الذي ينتظره. ووقف لأثياً وغادر. كانت السماء مرصوفة بنجوم تشبه نجوم ليالي الربيع والصيف. واستدار البدر الذي آن أوانه. والجو مستقر فلا ورقة تهتز على الأشجار. ومن لا راحة بالي له هو شارل دو فيريول. لم يراوده النعاس رغم أن الليل انتصف. ولا تفارق ذهنه القضايا الثلاث التي يجب أن يحلها في الأيام القليلة القادمة: أولها موضوع دراسة شارلوت إليزابيث أيسبيه وتربيتها، والثانية: تأخير زيارته لتركيا. والثالثة: العلاقة بين ماري - أنجيليك وأختها كلودين - ألكسندرین. وإذا لم يعاكسه الوزير الأول دوبوا، والذي معاملته للكونت سيئة، فيامكانه تأخير زيارة تركيا شهراً آخر. وقد تحدث في هذا الشأن إلى بضعة أشخاص من مقريه. وفيأسوء الأحوال يمكنه أن يترجى الملك المفدى، وهو واثق أن سيفيجيه. ولكن الأفضل ألا يصل الأمر إلى الملك. - هذا ملك، لا يجوز أن تشغله باله. وبالنسبة للأختين فما يهمه من أمرها هو أخوه الطيب، وإلا فليس من شأنه تربيتها. ولكنه يعتمد على زوجة أخيه في موضوع أيسبيه. ولو لم يكن أوغستين - أنطوان بعيداً في "دوفين"، لو كان في باريس، لما لقى لأمر الصبية.

- أظنني خلقت لنفسي مشكلة بجلبي شارلوت - إليزابيث أيسبيه. - رمى شارل دو فيريول اللحاف الناعم، وقام من الفراش. يندفع أرض الغرفة ذهاباً وإياباً. - لماذا تسرع واشتريتها؟ لأنني أشفقت عليها أم لسبب آخر؟ أخرج من الخزانة الكبيرة الصندوق الخشبي الذي يحتفظ فيه بنيذه الأحمر المفضل، واحتسى الكأس دون استراحة. وبعد ما ذرع أرض الغرفة عدة مرات تنشطت أطرافه، وتحركت أفكاره فيما كان رأسه المثقل بالهموم يتخلص منها شيئاً فشيئاً. ورجع إلى الفراش وهو يدين نفسه في الموضوع الذي يشك فيه في داخله، ثري

هل هذا الشك صحيح أم لا؟ ويشرك معه في الإدانة من هم أعداؤه وليسوا أعداءه في آن، ويعرفهم وليس يعرفهم. - أنتم تسخرون مني وتضحكون بشأن شارلوت إليزابيت أيسيه الصبية الشركسيّة الصغيرة ولكن ما يُدرِّيكم أنتم بما في قلبي نحوها؟! سترون خلال بضع سنوات جمالها. أنتم مجانين إن ظننتم أني لا أفهم في النساء شيئاً. الأفضل لكم من هذا ألا تسمحوا لعشاق نسائكم أن يصحبوهم إلى صلات الحب. يكفي ما استمتعت به من نسائكم، دعك من غيري. نعم، نعم، لن أهجم على شارلوت - إليزابيت أيسيه. وفي إسطنبول من النساء ما يكفي لشغلي عنها. ولكن في إحدى زياراتي لباريس..." - لم يُمهل اليوم شارل دو فيريول ليكمل حلمه اللذيد.

X

في عربة شارل دو فيريول السريعة خمسة أشخاص. هو وبون دو فيل، والثلاث الآخريات هن: شارلوت - إليزابيت أيسيه، وماري - أنجلييك الكونتيسة، وصوفى الخادمة. كانوا وعدوا كلودين - ألكسندرин أن يصحبوا فلم تقبل. ولكنها ودعت عربة آل فيريول دون أن تفارقها صورة امرأة الدير التي في ذهنها، ودون أن تعرف أهي تحسد تلك الصبية الشركسيية الصغيرة التي تسببت في كل هذه المشكلات أم تشفق عليها. وفي اليوم السابق لسفر الأسرة كان على بيير غيرين دو تانسين الذي نصّبّوه أسقفاً الالتحاق فوراً بـ "أمبرين" فسافر آسفاً على أنه لن يصحب أيسيه إلى الدير.

قال شارل دو فيريول مازحاً بعدما صاروا خارج باريس ليشرح صدورهم:
- يوم لطيف رغم الضباب.

- لو كانت تمطر مطراً ناعماً دافعاً لكان حسناً - قالت عائشة، فتعجب كل من في العربة.

- وماذا في ما قلت؟ سألت ماري - أنجلييك.
- يتفاءلون عندنا بالسفر تحت المطر الناعم الدافئ. - قالت عائشة.
- أهم الأتراك؟ - نظرت ماري - أنجلييك بطرف عينها إلى صوفى.
- وكيف يكون الأتراك؟! - استغربت عائشة سؤال الكونتيسة - هم الشركسية الذين جئت من عندهم، من شرق البحر الأسود.

- تتفق علامات الأقوام المختلفة - وافق شارل دو فيريول عائشة وإن كان أزعجه ما سمع - ونحن الفرنسيين عندنا مثل تلك العالمة - وتوجه إلى سائس العربية كي يغير موضوع الحديث: - خفف السرعة يا جاك؛ العربية ترتجّ بنا!
- ضحك الجميع عندما عقب بون دو فيل: لا ترتجنا، بل خفت سرعتها.

انقضت مهمة آل فيريول في "سان -كول". وحين قبلوا الفتاة الشركسية الصغيرة دون كثير من الاعتراض، لا ينسى شارل دو فيريول ما قالته عائشة حين سأله مشرفة الدير جانيت - نيكول البيضاء ذات الشعر الأسود عمن يكون مرافقوها، ولا تنفك ماري - أنجيليك أيضاً تتعجب، ولصوقي وجهة نظر أخرى؟ منذ زمن بعيد كانت فهمت هذا الوضع، منذ أن رأتها للمرة الأولى.

- جعلتني شارلوت - إليزابيت أيسية أحبها مرة أخرى، - قالت ماري - أنجيليك برباء مصطنع لصوقي - ما كنت لأتصور البتة ما في ذهنها خونا: شارل دو فيريول أبوها، وأنا كنتُها، وبون دو فيل أخوها الصغير، وأنت خادمتها. لا أعرف ماذا كانت ستسمى كلودين لو رافقتنا دون أن تفتعل الغضب. حسن، حسن، أنا راض، يجب أن تكون الأسرة هكذا. من الأفضل التعايش بين أفراد الأسرة دون صراعات، مع المحبة، وحرص كلٍّ على الآخرين. - لم تُسمِ الكونتيسة ماري - أنجيليك أختها كلودين مع أنها كانت تعنيها بالكلمات الأخيرة من حديثها.

- نعم يا كونتيسة، وأنا أحببت شارلوت - إليزابيت أيسية منذ أول مرة رأيتها، فطنة، طيبة، حلوة المعاشر، لا يستطيع المرء إلا أن يحبها. لا يغيب شيء عن ملاحظتها، نظيفة، أشتاق إليها.

- نعم يا صوفي، مؤدبة، لايفوتها أنها سليلة أمراء. وأنا أشتاق إلى رؤيتها. أنتظر بلهفة اليوم الذي نزورها فيه. يصعب علىي انتظار الساعات. أحياناً تذكرني شارلوت - إليزابيت أيسية بطفولة كلودين - ألكسندرین. وما كان غيرين دو تانسيين يسمح لنفسه أن ينسى أنه من أسرة نبيلة. كان يستمد منها الثقة. والآن لا أقول إنها نسيت أصل أسرتنا ولا إنها لا تفتخرا بها. ولكن منذ هذا الصيف تحولت إلى طبع مسحور لا يمكن معه التحدث إليها. ربما لأنها تفريط في

القراءة. - والآن مرة أخرى تجاوزت الكونتيسة في الحديث أختها التي تهتم بموضوعها: - يا صوفي؛ أيكون الكونت قال لأيسبيه إنك ابنتي؟ هل سجلتها بهذه الصفة؟ لا يُستبعد البتة أن يفعل سلفي المنفلت قلباً وطبعاً مثل هذا. كانت صوفي تنتظر إلى جانب الباب، الذي سترجع منه من غرفة ماري-أنجيليك، زامة شفتتها الصغيرتين وهي تقول: لا تخاصموا الصبية الصغيرة بعد الكلام الحلو الذي صدر عن الكونتيسة بحقّها، ولا تتحدثوا أمامها بمشكلات أسرتكم، وحلوا قضایاكم بأنفسكم.

أبعدت الكونتيسة كأس الشاي البارد من أمامها بنزق، وقالت لصوفي: - وكيف ستتهمني بما أهتم به؟! في رأسك أمور كثيرة. امضي إلى أشغالك! وفي اللحظة نفسها، وخلافاً للزيارات السابقة، ركضت عائشة إلى شارل دو فيريول وهي تصيح: شارل، شارل: - كنت أنتظرك اليوم يا شارل، كنت أعرف أنك ستأتي. - أَخبرك أحد؟

- لا، لم تخبرني حين زرتني أول من أمس أنك ستغادر غداً إلى تركيا؟ - نعم، نعم. كنت قلت لك. لم تنسني. - وأنت رغم مشاغلك الكثيرة لم تنسني. كيف حال بون دو فيل، وأوغستين - أنطوان، وماري-أنجيليك، وصوفي، ولاروش؟ وكلودين - ألكسندرин لم أرها منذ زمن بعيد. منذ أن جئت إلى هنا، لا شك أنها تقرأ كثيراً من الكتب. - من تسألين عنهم بخير. سالمون وحملوني السلام إليك. وسيزورونك الأسبوع القادم.

- وهل بينهم كلودين - ألكسندرин؟ - نعم بينهم، كتم شارل دو فيريول أن كلودين نزيلة الدبر في "أغostoين".

- ها هي جانيت - نيكول قادمة - ما إن رأت عائشة مشرفة الدير، ذات القبة البيضاء على رداء أسود، قادمة حتى أسرعت إليها وصافحتها.

- استريح يا شارلوت إليزابيت أيسيل - أبعدت جانيت - نيكول عائشة من عند الكونت دون أن تبتسم لها أو تعففها. ولكنها برأت نفسها من إمساكها بيد الصبية: - يستوي عندنا نحن المدرسات كل البنات اللواتي يتعلمن عندنا لا نميز الصالحة من الطالحة بينهن. غير أن شارلوت إليزابيت أيسيل تخدعنا أحياناً فتجعلنا نتصرف بغير ما يجب.

- أتسمع لكن؟ ألا تختلف الأوامر؟ - مع أن الكونت يعرف أن عائشة ليست من هذا النوع فقد طرح السؤال. وقال لها دون أن يتطرق الجواب: - لن أقبل منك إن كنت في فرنسا أم في تركيا أن تكوني مشاغبة يا شارلوت - إليزابيت أيسيل!

- اطمئن من هذه الناحية يا شارل دو فيريول - أجبت جانيت - نيكول الكونت، - ليس عندنا في معهدنا مثل هذا السلوك، نحن حريصات على هذه الأمور. نتعامل مع مشكلات الأطفال. وشارلوت - إليزابيت أيسيل التي جئتم من أجلها لم تعد صغيرة، تتمتع بالأخلاق والرحمة. ومهمما كلفتها من أمر تنفذه بكل نظافة وإتقان. وتتعامل جيداً مع أقرانها. وهن يعاملنها بالمثل. وخلافاً لما توقعنا فهي تحفظ كل ما تسمع من الفرنسية. وتعرف كثيراً من فن التطريز.

وكما روت لي شارلوت - إليزابيت أيسيل لا يخفى أنها سليلة أسرة أمراء.

- وهل روت لك أشياء من هذا القبيل؟ - سأله شارل دو فيريول دون أن تدري إن كان ما يسمعه يسره أم لا.

- هؤلاء يا كونت صبياً صغيرات - رأى شارل دو فيريول لأول مرة في وجه جانيت - نيكول الصبور علامات البشاشة. - يجربن أن يصارحنك بالكثير، ويتعلمن الكثير. سأترككم على راحتكم، وأنا تنتظري أعمالي.

حين يبقى شارل دو فيريول الكونت وشارلوت - إليزابيت أيسبيه وحدهما تحدثا، كلّ بما يسمح له عقله وفطنته. وطرقوا للكثير من الموضوعات. ومهما تحدثا كانا يعودان إلى رحلة تركيا.

- لو عرفت يا شارلوت إليزابيت أيسبيه أن أمورنا ستؤول إلى ما نحن فيه - قال الكونت يتنهد وما في قلبه ليس على رأس لسانه - ما كنت لأقبل الذهاب إلى تركيا البعيدة جداً. ولكن عليّ تنفيذ المهمة التي كلفني بها ملوكنا المنير. وإن لم أنفذها فقدت قيمتي. وثبتت بي أعدائي.

- وهل عندك أعداء؟ - رفعت عائشة رأسها الصغير بخفة. وفي اللحظة نفسها، تصرفت مشفقة عليه، دون أن تخجل مما تفعل، وكأنها مع أبيها أنسنت رأسها الصغير على ساعد شارل دو فيريول. غير أن أفكارها دفعتها أن تبعد رأسها عنه. وحدّقت في عينيه. - أليست جانيت - نيكول امرأة جميلة؟ أنا أحبها لأنني أشتبهها بأمي.

- أ يكون السبب أنهما تحملان الاسم نفسه؟ - ابتسم الكونت متذكرةً أنما أخبرته مرة باسم أمها.

- ليس السبب الوحيد، بل لأنهما إنسانة ممتازة. - أمسكت عائشة بصوتها العالي قلبها الذي كان على وشك التداعي. - نعم، أيسبيه، نعم، الناس الطيبون هم من يحافظون على الوجود الإنساني. - وافق شارل دو فيريول حذراً الصبية حين عرف حالها. ولما لم تعد عنده رغبة في مزيد من الحديث في الموضوع الذي لم يكن يتظاهر؛ استغل المناسبة التي جاء يودعها من أجلها: -

إن كان رأيك أنت أيضاً أن أنفذ المهمة التي أوكلها ملوكنا المفدى إلى يا أيسيه فأنا منطلق غداً إلى تركيا. وسأرضي بما كتبه الله على جبيني. وسأزورك في خلال السنة مرتين أو ثلاثة. وفي غيابي سيهتم بك، كما لو كنت حاضراً، أخي أوغسطين – أنطوان وماري – أنجيليك وصوفى ولاروش.

– وبون دو فيل أيضاً – نطقت عائشة اسم الصبي الذي نسيه الكونت – ونسىْتْ كلودين – ألكسندرین أو تناست. ثم قالت بصوت يخلو من الفرح: – عندى رجاءان اثنان حين تصل إلى تركيا.

– ومن أي نوع هما؟ – سأل الكونت حذراً مما ستطلبه عائشة.

– ترج بالبيابة عني فخري الذي أساءت إليه أن يغفر لي.

– أكان قال لك ما لا يليق؟ جفل شارل دو فيريول.

– لا، كان قد عرض عليّ أن يشتريني منك ويعيدني إلى إسطانبول فأجبته "لن أسافر مع رجل مثلك نصف لسانه تركي والآخر شركسي"

– أعرف هذا. لم يكتم فخري عني استياءه من هذا الجواب. كان قد ركب الطريق شاعراً بالإهانة. وإن لم يكن سراً أخبرني لماذا قلت له هذا!

– لا سرّ! – لم أكن أطيفه لأن من سبّوني إلى تركيا كانت أسلتهم نصف تركية ونصف شركسية، كحال فخري. خبره اعتذاري.

– صحيح، صحيح. فخري رجل طيب، سأبلغه اعتذارك بكل سرور، وسيفرج به المسكين. وما الرجاء الثاني؟

– سبّوني لساي. إذلم يعد في الأمر فائدة الآن. تنهدت عائشة.

– تعرفي يا أيسيه من الذي لم تعد فيه فائدة؟ هو ذاك الذي رحل عن الدنيا وانقطع ذكره.

– هذا هو أنا إذن!

- وكيف تكونين أنت يا شارلوت إليزابيث أيسبيه - تعجب شارل دو فيريول
ما سمع جاهلاً سبب هذا التصريح. - ها نحن أنا وأنت نتحدث، والجو
صحيٌّ، تقولين هذا لأنك لا تعرفين بعد بعض سنوات ما ستكونين، لا تعرفين
أن باريس بأكملها ستغبطك. ليس في الدنيا ما لن أحقيقه لك. قولي ما
تعجزين عن قوله!

- إذن حق لي هذا الطلب: حين تصل إلى البحر الأسود قف على أعلى
مكان في الشاطئ واصرخ: عائشة ابنة بولت وجنات حية ترزق وتعيش في
فرنسا، ليتردد الصدى في كل مكان. ربما يسمعك بعض الشراكسه الذين
أنتمي إليهم. - وانهارت عائشة لا تستطيع مغالبة دموعها فارقمت على صدر
شارل دو فيريول.

في كل زمان تبدأ الأفكار تتراحم في الطريق. ولا تميز الأفكار بين طريق طويل وآخر قصير. تدور عجلات العربة وأفكار شارل دو فيريول تتصعد الرأس. وهي سريعة كالريح، تغفر فتطير فوق البراري والجبال والبحار. ثم تلتهب فتسقى في الرأس من جديد.

ينهياً إلى شارل دو فيريول أنه نسي شيئاً مع أنه أنجز أعماله جيداً في باريس. ومن جديد يستعرض ما في ذهنه حتى يصل إلى نسائه الكثيرات ولكن لا يستطيع أن يحدد ما الذي يخزنه من بينها ويجعل حاليه لا يُطاق. ما طبيعة هذا الشاغل؟ تكون شارلوت إلزايست أيسبيه؟ ولكنه أمضى نصف نهاره معها أمس! وتطرق إلى موضوعات كثيرة لم تكن في البال. وصارت مشرفة الدير جانبية - نيكول ذات الوجه الصبور أنيسة له. ووَدَّع راضياً الملك لودفيغ الرابع عشر. وشهد اللقاء دوبوا الوزير الأول الذي ليست مشاعره نحو الكونت صافية. وهذا قد تحقق له المهمة التي كان ينتظرها منذ سنين فيتوجه إلى تركيا. وعرّج قبل أيام على المصرف الذي يحتفظ فيه بأملاكه. وأضاف إلى رصيده فائدة السنة. وحل مسألة تكاليف دراسة عائشة في الدير ونفقاتها الأخرى في "سان - كول". ورتب أمور النفقات بحيث يدفع ماري - أنجيليك مبلغ محدد شهرياً.

وترك لصوفي مبلغ ألف ليرة لنفقات عائشة المتفرقة لا يعلم بها أحد. وماذا بقي إذن؟ وقضى مع كل امرأة من محظياته ليلة. وانصرف عنهن راضياً بما أنفق عليهن من أموال طائلة. ووَعَدَ امرأة أخرى متميزة من غيرها جسماً وقلباً أن تأتيه إلى إسطانبول ، وتعيش معه إلى أن تمل منه.

ماذا نسي شارل دو فيريول أيضاً مما يعصر قلبه خارج هذه الأفكار؟ وبسبب المطر الخريفي البارد الناعم لا يرى العربية تقطع من الطريق أمامه منذ ساعتين إلا سطح المياه المتجمعة والضباب. وكل ما في المدى المنظور، بما فيها الأشجار والبيوت، متتشابه. صار جزءاً من السحاب المتذليل إلى الأرض. أ تكون الحياة الثقيلة هي ما يؤلم قلب السفير الفرنسي؟ من إذن غيره هذا يتآلم له قلبه؟ فاته هذا الأمر منذ زمن بعيد في شبابه. ولن يعود مهما ناديه أو توصلت إليه. أين الشباب؟ صار بعيداً كالأيام والأسابيع والسنين المنصرمة. إن فكرت فيه وجدته قريباً شاخصاً أمام عينيك كأنه يومنك الذي تعيشه. تشاقق إليه دون أن تعبأ بابتسامه لك. فهم شارل دو فيريول هذا للمرة الأولى حين جأت الصبية شارلوت - إليزابيث أيسبيه إلى سعادته. ثم حين ارتفت على صدره باكية. ما الذي جرى في قلبها في تلك الساعة، بل في تلك الدقائق؟ وماذا فهمت؟ هل جأت إليه الصبية اليتيمة باعتباره كبيراً الذي تعقد أملها عليه؟ أم لأن رائحة الأنوثة التي لم يمل منها طوال عمره حركت قلبه؟

لن تستطيع الإجابة على نحو شافٍ على أي سؤال يتعلق بالكونت شارل دو فيريول ما لم تعرف من أي نوع من البشر هو، وما أساليب عيشه. ليس من النوع الذي إن وقع بين مجموعة من الناس لم يتدخل فيهم، وعجز عن إخضاعهم لأوامره. وفيه الرجولة والرحمة والصداقة والأدب. وليس من الناس الذين يفقدون وعيهم إذا شربوا فلا يتذكرون ماذا فعلوا. ومن الصعب معرفة متى يقرأ هذه الكتب الكثيرة المتنوعة. ولكنه لن يسمح لك أن تفوقه في أصول العلم والتربية. وإلى أي وجهة وجّهته - سواء الفلسفة أم التاريخ أم الغناء أم المسرح - وجدته مثقفاً فيها ذكياً. وقد درس جيداً في شبابه، وكان شاباً جميلاً تتخطافه البناء. واليوم لا يزال رجلاً بمعنى الكلمة، في عز قوته، مرغوباً.

الجُّوَّ معكَرَ جَدًّا وَقَلْبُ شَارلُ دُو فِيرِيُولُ أَشَدَّ تَعْكِيرًاً. وَعَلَى زِجاجِ نَافِذَةِ الْعَرْبَةِ تَنْمَازُجُ قَطْرَاتِ المَطَرِ الْبَارِدَةِ وَتَنْفَصُلُ. وَالْكُوَنْتُ يَسْمَعُ صَوْتَ اصْطِفَاقِ المَطَرِ بِالْعِجَالَاتِ وَبِقَوَائِمِ الْخَيْلِ إِنْ لَمْ يَرِهِ. وَتَنْصُلُ إِلَى أَذْنِيهِ اصْدَاءُ نَدَاءَاتِ غَرْبَانِ الْخَرِيفِ. وَمَا لَا يَسْمَعُهُ وَلَا مَا لَا يَفْهَمُهُ هُوَ الصَّوْتُ الْخَفِيُّ الصَّادِرُ مِنْ أَفْكَارِهِ، وَالَّذِي يُوهِنُ قَلْبَهُ. وَلَيْسَ غَيْرَ مُنْتَهِيٍّ إِلَى هَذَا، وَلَكِنَّهُ لَا يَرِيدُ أَنْ يَخْصِّهُ بِاسْمِ "وَلِمَاذَا أَصْدَعَ رَأْسِيَ بِهِ؟" إِنْ عَرَفْتَهُ عَرْفَتَهُ، لَنْ يَجْرِيَ أَحَدٌ عَلَى مَعْرِفَتِهِ أَوْ عَدْمِهَا. أَعْجَبٌ إِنْ تَمَاوِجَتْ سَنَوَاتُ عَمْرِي رَائِحَةً وَغَادِيَةً؟ لَا يَزَالُ قَلْبِيُّ فِي الْعِشْرِينِ أَوِ الْثَلَاثِينِ مِنَ الْعَمْرِ. وَلَا يَسْأَلُنِي مِنْ يَرِيدُنِي عَنْ عَمْرِي. وَمِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيَّ أَنِّي لَا أَرِي فِي نَفْسِي أَمَامَ النِّسَاءِ عَيْبًا أَخْجَلُ مِنْهُهُ، مِنْ أَعْجَبَنِي فِيهِ لِي، وَمِنْ لَا تَعْجَبُنِي أَقُولُ: وَهَذِهِ سَتَجْدَهُ مِنْ تَعْجِبِهِ فَأَتَجَاهُزُهَا. لَا يَجُوزُ مَقَائِيسُ الشَّبَابِ وَالصَّبَابِيَّةِ، فَالْمَرْأَةُ سَرْعَانٌ مَا تَحْرُمُ، وَالْمَرْأَةُ الَّتِي يَتَمَنَّاها الرَّجُلُ أَنْ تَظَلُّ فِي قَوَامِهَا يُفَضِّلُ أَنْ تَكُونَ أَصْغَرُ مِنْهُ بِعِشْرِينِ عَامًاً. حَتَّى الْثَلَاثُونَ لَيْسُ مَهْمَةً إِنْ قَدَرَ اللَّهُ لَهَا رَجَلًا مُثْلِيَّ فِي عَنْفَوَانِهِ"

رَبَا كَانَتْ هَذِهِ النَّظَرَةُ إِلَى الذَّاتِ الَّتِي اكْتَسِبَهَا شَارلُ دُو فِيرِيُولُ مِنْ طَرِيقِ الْخَرِيفِ السَّبَبُ فِي أَنْ نَادَى ظَهِيرًا سَائِسَهُ جَاكَ بَنِيرَةَ حَازِمَةً، مَقْرَرًا بِعَزْمِ:

- سَتَنْتَوْفَقُ فِي "مِيلِين" وَنَقْضِي الْلَّيْلَ هَنَاكَ.

لَمْ يَسْتَغْرِقْ عُشَاءُ الْكُوَنْتُ عَلَى الْمَائِدَةِ الْفَاخِرَةِ الْمَعَدَّةِ عَلَى عَجْلٍ، مَعَ الْمَرْأَةِ الَّتِي اخْتَارَهَا مِنْ بَيْنِ ثَلَاثَتِ، طَوِيلًا إِذَا أَوَى سَرِيعًا إِلَى الْفَرَاشِ، وَأَخْبَرَ الْمَرْأَةَ بِمَا فِي قَلْبِهِ.

- اخْلَعَيِّ مَلَابِسَكَ أَمَامِيَّ رَوِيدًاً رَوِيدًاً دُونَ أَنْ تَطْفَئِيِّ الْمَصَبَاحِ!

- أَنْتَظِرْ مِنِّكَ كَلْمَةً يَا حَبِيْبِي - شَرَعَتِ الْمَرْأَةُ الشَّقَرَاءُ ذَاتُ الْقَوَامِ الْمُتَنَاسِقِ الَّتِي ارْفَعَتْ حَمِيْتَهَا مَعَ الشَّرَابِ تَخْلُعَ ثُوبَهَا.

حفرت الرغبة التي تملكت الكونت نفسه، فهبت واحتضن المرأة العارية. ولكن، ولأول مرة في حياته، انطفأت تلك الرغبة حالاً.

لم ينجز شارل دو فيريول رغبته في الفراش. وبقيا أكثر من ساعة دون كلام ودون مزاج يتأملان السقف. وكما بين الرجل والمرأة من فروق ظلت أفكار كل منهما مختلفة عن الآخر. ولم تقصّر المرأة في شيء مما يمكن أن تقدم للكونت. وكانت مخلصة له كما تفعل المرأة مع الرجل الذي خذلته فحولته.

ومع أن شارل دو فيريول لم يكن إلى الآن يتقبل أن الرجل إن عاجلاً أم آجلاً ستخذله رجولته يوماً ما مع الجنس الذي لا حدّ له، فقد شعر بالإهانة وهو لا يعرف السبب ولا المسؤول. وكان أصعب شيء عليه هو أنه يأنف أن يتقبل ما جرى له. "الشهوة بحالها والآلة بطلت. أيكون انشغالي بأمور شارلوت - إليزابيت أيسية، وإهمالي علاقاتي النسائية هو السبب. والنساء اللواتي ودّعنهن طوال الأسبوع؟ ولو أقمت في باريس بضعة أيام أخرى لربما زرت في إحدى الأمسيات جانيت - نيكول التي تتدلّل عليها الصبية. لم يكن بلوغها صعباً؟ كانت تتأملني بروحها وقلبها وهي تحدّثني. لم ألتقي في حياتي بامرأة لا تشتهي الرجال. ثم إنني لم أتصل في حياتي بامرأة تعمل في مجال الدين"

- تعالى نجلس إلى المائدة - أبعد شارل دو فيريول للحاف مدفوعاً بشهوته وإيمائه.

- عاريين هكذا؟! - ظهرت المرأة بالاستغراب ولو أنها كانت مسروقة للعرض.

- تدثّري بغضّاء السرير إن كنت خجلة!

لم ينفعهما النبيذ الأحمر الذي بدلوه بالأبيض، ولا عودهما إلى الفراش. ومهما تصرفا، لم يجدا علاجاً لعجز الكونت.

- ملأتِ الغرفة رائحةً طيبةً؛ ما الذي استعملته لزيتك؟ - بدأ الكونت يبحث عن ذريعة يسوق بها عجزه أمام المرأة.
- كل الرجال يشتهون هذا العطر!
- الآن فهمت ما جرى لي، دوّختني رائحة العطر.
- إن كانت مشكلتك في الرائحة تعال نستحمل!
- وهل نحمم الغرفة و السرير و الأغطية؟!
- إذن لا أعرف ما العمل؛ إن كنت تبحث عن مسوغ... - ارتدت المرأة ملابسها بسرعة: - وأين أجريت؟
- على سطح الصندوق على المدخل؛ توقفي لحظة!
- ما الأمر؟ - توقفت المرأة التي يشتهيها الرجال على أرض الغرفة والعطر. يضط من هنا.
- خذدي! - نهض شارل دو فيريول ملتفاً ببطاء السرير - أضيفي هذا المبلغ إلى ما دفعت لك. سامحيني. ولبيق ما جرى بيننا الليلة سراً! لا أريد أن أقع في أفواه الناس لأنني عجزت معك هذه المرة. وإذا انتشر خبرني ألا تعرفين ما سيحدث لك؟!
- لا تصدق يا شارل دو فيريول أن يبدر مني ما يسيء إليك!
- ومن أين تعرفين اسمي؟ - ارتعب الكونت لسماع اسمه من فمها.
- لا أظن في باريس أو "مليين" امرأة لا تعرف اسمك - أنت لا تذكرني، سبق أن اجتمعنا في هذا الفندق. كنت وقتها رجلاً قوياً. والرائحة التي لم تعجبك الليلة هي التي كانت تفوح مني ليلتها. ولا أذكر في حياتي رجلاً مزّ على في رجولتك ومت unk. وأنت الوحيد الذي لبيث له مثل ما طلبت مني الليلة، لا أطيع الرجال في مثل هذا.

- أشفقت على على ما يبدو من كلامك... - أخفى شارل دو فيريول جسده العاري تحت اللحاف خجلاً من منظره.
- ربما. ونحن لا ننسى أن النساء يحترمن الرجال الأقوية. لا تبخ نفسك أيها الكونت؛ لم يحدث لك ما يعييك!
- شكرأ لك؛ إن كنت تعرفين اسمي فخبريني باسمك أيضاً!
- نحن لا نبوج بالاسم الحقيقي لكل من نلتقي به أيها الكونت. ولكن لن أخفى عنك، ناديني بـ "مادلين"!
- اعذرني يا مادلين، سأرتدي ثيابي.
- وهل تخجل مني؟! - مزحت مادلين، وأدارت وجهها إلى الصور المعلقة على الجدار.
- لسؤالك يا مادلين أجوبة كثيرة - قال شارل دو فيريول وهو يتأمل نفسه - هناك فرق بين ما يحدث من سرٍ بين رجل وامرأة عاريين، وبين العلاقة بين رجل وامرأة لابسين. كيف يكون بيننا الابتعاد الذي بين حيوانين ونحن لسنا حيوانات؟! والآن لننسى حديثنا، ولنجلس إلى مائدةنا بعض الوقت كإنسانين!
- لا مانع إن كان رأيك هكذا، ولكن لا أعرف النتيجة - جلست مادلين إلى المائدة متصنعة، ثم أصلحت موقفها بسرعة: - مزحت معك فحسب، لا شيء وراء كلامي.
- كل شيء جائز يا مادلين، جائز - جلس شارل دو فيريول إلى المائدة، وهو ينظر إلى المرأة الجذلة التي أعادها إلى المائدة، وكأنه ليس ذلك المسعور الذي كانه قبل لحظات، ورد على مزحة مادلين بمزحة: - ها يُخيّل لي أن حرارة تنبعث مني الآن!

- لا، لا، لا نُعْدُ ثانية إلى الموقف الذي عايناه هذه الليلة — رفعت مادلين كأس النبيذ — صحيح أني امرأة ولكنني إنسان. لن تجده في حبًا لذيندًا. إن كنت تبحث عن تنفيسي لشهوتك فأنا أُغبطك على صحوتك، والليل لا يزال طويلاً، يمكنك استقدام امرأة أخرى.

- ولكنك أنت من أريد.

- أتظن نفسك قادرًا على تعويض ما لم تستطعه؟ لا، لا، فيما بعد!

- ومني "فيما بعد" وأنا سأرحل صباح الغد؟

- وهل ستبقى في إسطنبول إلى الأبد؟ حين تعود... الأفضل من هذا يا كونت أن نتبادل خبراً لتحقق أمنياتنا. — وما إن شربا حتى سالت مادلين: — من تلك الصبية الصغيرة التي كانت معك حين توقفت في الصيف هنا؟ أهي بنتك أم ابنة أختك أم ماذا؟

- وتعرفين هذا أيضًا؟ — نظر شارل دو فيريول إليها بنظرة استغراب وإن لم يستغرب سؤالها: — لا أظنك أيتها النساء يفوتكن شيء مما يحدث على هذا الطريق الطويل. أأعجبتك تلك الصبية؟ أليست جميلة؟ حتماً، حتماً أعجبتك وإلا ما سالت عنها. ليست ابنتي ولا ابنة أختي، اشتريتها من سوق النخاسة في إسطنبول. ستتخد خلال بضع سنوات شكل امرأة ناضجة. أظني سأتحذها من جنس هذه الـ "ماذا" كما فهمتها. لا أكتمل ما أتمنى بحقها: كيف ترينها؟

- شكرًا يا كونت على ثقتك بي. — "سررتني جداً" قالت مادلين لنفسها. ستتصبح فتاة باريسية جميلة تحطم قلوب الرجال، وترمي الفتنة بين النساء. ولكن لا أعرف إن كانت ستتصبح زوجة صالحة. — "انظر إلى هذا الوسيم العينين ما أكثر ما يريده إلى الآن، وإن كنت لا أعرف ماذا ستنتفعه أمنياته!..."

قالت لنفسها شاعرة بالإهانة التي لحقت بأنوثتها من خلال أشيٍ أخرى. ولكنها كتمت استياءها ورفعت الكأس. - أقول لك مع السلامة أيها الكونت على طريق تركيا وأدعو أن تتحقق أمنياتك - أكملت مادلين كأسها وانصرفت.

- مهلاً، مهلاً يا مادلين! لا يزال الليل طويلاً. إن كنت لا ترغبين في هذا فسأعرض عليك شيئاً آخر: تعالى، لا أستطيع أن أصحبك إلى إسطنبول، ولكن رافقيني إلى مرسيليا. وإلى هناك سنتوقف في مدن كثيرة، وستقضى فيها ليالي لذذة، وسنمتّع أنفسنا. ومضي في مرسيليا بضع ليالٍ إضافية. وحين أركب هناك تعودين بعربيٍّ، وحيثما مررت سيعاملونك على أنك كونتيسة، حتى تصلي إلى ميلين.

- شكرًا يا كونت! حنت مادلين رأسها قليلاً للكونت؛ كأنك حفقت لي كل ما قلته. ثم ما أسهل أن يُضلّي الطريق الطويل، لا أريد أن أتحمل وزر من سينفق علىي كل هذا المال... - قالت له لحظة خروجها من البيت بعدما رفعت يديها من شفتيها، وأومنات له بعمره مرأة. - ليس مستبعداً أن نلتقي هنا في إحدى زياراتك إلى فرنسا لفتاتك الشركسيّة. "عجبيون هؤلاء الرجال كلهم! لا يجوز أن تتحقق لهم ما يرغبون، ولا أن يرثوا الكلفة بينك وبينهم - علقت مادلين على نفسها باسمة"

XII

قلبُ شارل دو فيريول خفيفُ اليوم بالقياس إلى نثارُ أمس الثقيل وليله القلق. أ يكونُ السببُ أنه اجتاز البرية الموحشة التي كانت تتعبُ العين، ودلفَ إلى الجبال، أم الشمس التي كانت تجمَّع من وراء السحب التي ترَّجَّ أمطاراً باردة، أم فرحة تحققت له اليوم أو في يوم مضى، أم فرحة تنتظره يسرُّ بها القلب نفسه؟ وفي قول الناس إن حياة الإنسان تشبه الليل والنهر شيءٌ من الحقيقة. ومن أين للكونت شارل دو فيريول أن يعلو قومه الفرنسيين بأخلاقهم وطبعهم ولسانهم وأنماط تفكيرهم وأساليب عيشهم، وعيوبه وحسناته جزءٌ من تكوينه الفرنسي. وليس على البسيطة إنسان لا يعرف حلاوة الجنس ومرارته، وقلقه وحزنه. ولكن رأيهم فيه مختلف وإن تطابقت أحاسيسهم نحوه. بعضهم يكتمه، وغيره يُشهِّرُه، غير أن الأطفال يولدون بالطريقة نفسها. والعلاقة الخفية المختلسة؟

يستحيل أن تخلو ساحات الحب من مثل هذه العلاقات. طرأَت تغييرات كثيرة على علاقات الجنسين في فرنسا وعلى غيرها في عصر الملك لودفيغ الرابع عشر. جرت تطورات كبيرة على تلك العلاقات، وجرى تناغم بين سيرة الملك الجنسية وسيرة أبناء شعبه. لم تبق علاقات مستورَّة تخفى سواء بين العازبين أم بين المتزوجين، كان عصر انفلات جنسي؛ حتى كأن هذه العلاقات حُلقت مع الفرنسيين. وإن كان الجميع يعتبرونها عيباً. وكانت تُخلق في الأسرة المحكمة من الآباء والأبناء وحواشيها في الحفلات التي لا تنتهي، وفي الصالونات التي تجري فيها اجتماعات ولقاءات، وفي محافل سرية يلتقي فيها رجال ونساء. وشارل دو فيريول كان من هؤلاء. ومنذ شبابه إلى الآن لا يزال منهم.

ما كان يسرّ قلب شارل دو فيريول وروحه الآن ليس اليوم الخريفي الصاحي
الخارج من البرد والمطر، ولا الجبال والغابات المتراصة، ولا السماء التي ثُظلَّه، بل
الخاتمة التي اصطنعها فجأة للوضع الثقيل الذي وجد نفسه فيه فبرئها "ماذا
حدث لي ليلة البارحة؟ لم يسبق لي أن عانيت مثل هذا الموقف. أ يكون السبب
من النساء؟ فالصبية التي طلبتها بعد مادلين أعادتني إلى سابق عهدي. وليس
تلك الصبية أكبر من أيسيه بأكثر من خمسة أعوام. ربما كان سبب عودة
نشاطي أني تخيلتها أيسيه حين نامت على صدرِي بجسدها الدافئ. ليس هذا
مستبعداً. ما أكثر ما أخفقت مع امرأة فتخيلتُ غيرها فرجعت إلى سابق قوتي.
ليحملِ الله يا صبيتي الشركسيّة! أنتِ أملِي وأنتِ حبي المُقبل. ستكملين
دراستكِ ريشما أعود من تركيا. وستتخدzinين القالب الذي أتمناه."
لا يحتاج المرء إلى الكثير لتفرجه أو لحزنه: خبر سار لم يكن يتظاهر أو خبر
محزن.

يتأمل الكونت الجبال والغابات غارقاً في ذكرياته الحلوة. يتجاوز المداعي المبهجة
للعين، ويخترق السحب البيضاء المتبقية على المرتفعات. يُنصلت إلى صوت
عجلات العربية ووقع أقدام الخيل. وفي نفسه رغبة في الغناء.
ينوي شارل دو فيريول إذا صادف في طريقه ثُرلاً حسناً أن يقضي ساعة فيه
يستمتع خلاها بكأس من النبيذ واللحم المشوي على الأسياخ. ومهما وجد
هناك من نساء جميلات فلن يلتفت إليهن. "مادلين امرأة جليلة وذكية، لو لا أنها
امرأة شوارع وتعمل في الفنادق. أفهم أني لم أعد شاباً وإن لم يعترف قلبي بعد
بالهرم. متى ما وصلتُ إلى إسطنبول حققت رغبتي ثم نرى ما يحدث. ولكن لا

تنس أنك قلت لي ذات مرة: قد نتقابل يوماً من الأيام. وكما يقول ملكتنا المفدى: نحن الدولة¹.

وصل شارل دو فيريول وهو ينفذ ما قاله عن النساء إلى ليون حيث عُمِّدت عائشة وسميت باسمها الفرنسي. ولكن قرر عدم التوقف فيها: ماذا سيفعل فيها، ومن ينتظره؟ وإن تجاوز ليون فسيصل في أقل من يوم إلى "فالنسيا" حيث يقيم أخوه أوغستين - أنطوان. ألم تلدهما أم واحدة ويربيا معاً؟! وعندهما كثير من الموضوعات يتحدثان فيها. لا يخفى أن أخي المسكين ضائع بين الأخرين وإن كتم ما في نفسه. وأنا بالمقارنة به لي مظهر من عمره ثلاثون عاماً. فتح لها المجال بسُكوتِه لتأكله. ربما كان هذا هو السبب في أنه حبس نفسه في فالنسيا بحجج أنه خازن للمال، ولا يفارق منطقة "دوفين". ألم تر كلودين - ألكسندرин التي لها رأس دجاجة، كم تسببت في مشكلات وهي تتذرع بأنها تتعلم كيف تكتب الأدب؟! وعلى من هي غاضبة الآن؟ أهو حبٌ محبط أم أمل لم يتحقق؟ أما كان الأجر ألا تفعل هذا في السنة التي عهدتُ فيها إليها بأختها شارلوت إليزابيث أيسبيه؟! ثم إنها لم تعبأ بكون أختها ماري - أنجلييك حاملاً. ولم يردها كون أخيها الأكبر بيير دو تانسين رجل دين. أقول هذا ولكن لا يمكن أن يكون هو من شجعها على فعلتها؟! بيير رجل مهذب خلوق وعنه احترام للناس. وهو بالقياس إلى أختيه إنسان هادئ يحسب حساب الكلمة التي تخرج من فمه وحساب تصرفاته. وساعدنا في إلهاق أيسبيه بأفضل دير. ولكن لا أعرف، لا أعرف ماذا سيفعل رجال الدين هؤلاء.

¹ شعار أطلقه لويس الرابع عشر: الدولة: أنا الدولة. وسيأتي تصديقه في سياق النص.
المترجم.

وجانيت – نيكول ما كان أروع نظارتها إلى رغم أنها من العاملين في الدين! ما أخبار كلودين المسكينة يا ثُرى؟ هي تقيم في الدير الواقع في "مونبلييه" القرية من غرينوبول. يقال إنها بعيدة عن فالنسيا مسيرة نصف يوم أو أكثر قليلاً. لو عرجت على "مونبلييه" كرمي لزوجة أخي الكونتيسة ماري – أنجيليك واطلعت على أخبارها وأديت لها خدمة مما تحتاجها لخففت عنها ذنوبها وكسبت أنا ثواباً منها. يا رب لماذا اعتزلت في هذا الدير المغلق أشدّ إغلاق؟"

– توقف! – صاح شارل دو فيريول بالسائس – أليست عربة أوغستين – أنطوان تلك الواقفة على باب التُّرْل؟ نعم إنها هي، وهذا هو أخي أوغستين – أنطوان. – قفز فيريول الأكبر من العربية وسأل فيريول الرجل الثقيل الآخر: – إلى أين تذهب؟ ومن معك؟ أهو غيرين دو تانسين القادم إلينا؟ – نعم هو بيير الأسقف. يا بيير ما أكثر ما مضى على فراقنا! ما أخبارك وكيف حالك؟ أأنتم كلكم بخير؟

– كنا كلنا بخير يا كونت. لولا أن حلت بنا مصيبة...
– لن أسأل عن وجهتكم. لا بد أن وجهتكم كلوتين – ألكسندرин في مونبلييه. سأذهب معكم.
– أنت على طريق تركيا يا كونت.

– لا مشكلة في هذا؛ أليس بإمكانك أن تأتي يوماً أو نصف يوم؟!
توجهت العربتان بآل فيريول إلى مونبلييه. لا يزال النهار في أوله، وشمس الخريف تشرق على رسالها من وراء الجبال. والأوراق المتعددة الألوان تتهامس مع نسيم الصباح. وطبقة من الصقير تغطي العشب اليابس. وغيمون مقطعة تزحف على الطريق. الطبيعة هادئة، ولا شيء يعكر صفوها.

في العربية الأولى الأخوان فيريول، وفي الثانية الأسقف بيير دو تانسين.

- نحن في دنيا مفهومه وصعبه الفهم معًا يا أخي الصغير — تنهد الكونت وهو ينظر من خلال نافذة العربية — ثم أضاف: - كيف ترك هذه المناظر الجميلة وتنزوي في أشد الأديرة ظلامًا؟! لم يختصر لي البتة أن تفعل كلودين — ألكسندرин مثل هذا. من حظ غيرين ولوبيزا أنهما لم يعيشوا ليشهدا ما فعلته ابنتهما، كانا شخصين رائعين. ليجعلهما الله من أهل الجنة! إن كانت كلودين — ألكسندرин فعلت ما لا يجوز فاغفر لها؛ ما تزال شابة. وحيثنا نحن فعل الشر! كل الناس خطاؤون فاغفر لنا ما نعرف من خطاياانا، وما لا نعرف. امنحنا حياة ليس فيها حرام ولا ذنوب!

- آمين! وافق أوغستين — أنطوان الغارق في أفكاره أخاه.

- ولماذا لا تقول شيئاً يا كونت؟!

- وماذا أقول؟ وافقتك على ما قلت.

- ليس هذا ما أقصد — أجاب شارل دو فيريول غير متحمّل برادة أخيه وكسله: - أكنت تعرف أخبار أخت زوجتك الثرثارة على حقيقتها.

- لا أعرف شيئاً — أجاب أوغستين — أنطوان بنبرة يفهم منها استياؤه من ذكر امرأته بسوء. ثم أضاف بصوت لطيف ناطقاً اسم زوجته الصحيح: - لا أعرف إلا أنها كانت تقول ماري — أنجلييك الكونتيسة حين ثوّجه إليها ملاحظةً ما، أنها ستذهب إلى الدير. وأنت تعرف هذا.

- أعرف، ولكن هذا ليس مسوّغاً. ونحن — دعك منك — نسمع من ماري — أنجلييك الكونتيسة ما يسرنا وما لا يسرنا. ولكن لا نعاديها ولا نهرب إلى الدير. الحق أقول لك يا أوغست إن ماري — أنجلييك ليست كائنَة سيئة لولا أنها تنشر أحياناً بما لا يجوز. تتحمل مسؤوليات آل فيريول. وأنا خفت حملها فأرثّتها من مسؤولية أيسبيه. وماذا ينوي بيير إذن؟

- سُيُّخرج كلودين من الدير.

- هذا يحتاج إلى إجراءات كثيرة، ولا يمكن إخراجها دون علم ببابا روما. وإن وافق البابا فلا يمكن تغيير العهد الذي قطعه على نفسها ألا تتزوج. يجب أن تعيش إلى الأبد وحيدة دون أسرة. هذه أخبار دير "أوغستين" الخاص بالنساء، والذي تقيم فيه كلودين - ألكسندرين.

- يرغب بيير في إخراج أخته من الدير لأنه يعرف هذه الأوضاع.

- إن كانت كلودين ستَّرْ بعهدها ألا تؤسس أسرة فهذا شأن آخر. ولكن لا أطن. اسمعنا يا رب وتفهم حالتنا وارحمنا - دعا إلى ربه بصوت من أعماق القلب وأكمل: - ليس لنا موئل سواك. قل: آمين! يا أوغستين - أنطوان. حين سرى الصمت بين الأخوين قال أوغستين - أنطوان لأخيه بخذر: - في هذه السنة أصبحت يا شارل قريباً من الله بقلبك.

- ليس بقلبي فحسب، بل بروحي أيضاً. ليكن الله في قلبك دائماً يا أوغستين! يحدث أن نأتي بالذنوب في هذه الدنيا العجيبة بعلمنا أو بغيرة. أوقفت مرة أمام الله تائباً؟ صدق يا أخي أنك إن وقفت لهذا الموقف أمامه ولو مرة في السنة غفر لك ذنوبك!

منظر الدير في مونبلييه مؤسٍ. جدار حجري عالٍ لا تستطيع أن تنظر إلى أعلىه ولا إلى أسفله. والغابة التي تضم جدرانه المدورة كثيفة. إن كان في الدنيا مكان واحد يدعو للكمد فهذا هو. كلُّ شيءٍ هادئٍ يذكر بصمت القبور. يعكره نعيق الغربان على قمم الأشجار. لا يظهر أي كائن حي في الأفق. والجتمع المدبب القبة يبدو من وراء السور مريعاً.

بعدما طرقوا الباب عدة مرات سمع صوت امرأة قويٍّ من ورائه:

- من أنتم، وماذا تريدون؟

- أنا أسقف "أمبيرين" ببير دو تانسين. أختي الصغرى كلودين - ألكسندرин منقطعة إلى الله مطيبة له هنا.

قالت المرأة بعد صمت قصير:

- ليس بين المقطوعات إلى الله المطیعات من تحمل هذا الاسم. هنا كل المبتلات إلى الله أخوات. فيم تحتاج إلى أختنا؟

- أود لو أراها.

- "أوغستينياتنا" أيها الأسقف، لانسمح لأحد أن يراهن، وأنت تعرف هذا¹.

- معي إذن مكتوب من بابا روما يسمح لي برؤية أختي.
وبعد توقف قصير سالت المرأة:

- ومن رفاقك؟

- صهري وأخوه الأكبر.

لا أستطيع السماح لك بمقابلة أختك أيها الأسقف، مسؤول الدير في غرينوبيل. وسيعود غداً فيجب الانتظار. ولكن كرمي لكونك أسقفاً سأسمح لك أن تكلمها من وراء الباب. انتظروا!

- لو رأيت كلودين وكلمته لتابعت رحلتي مطمئناً مرتاح البال. - قال شارل دو فيريول محبطاً من عدم تحقق رغبته - وعلى كل حال يكفيني أن أسمع صوتها. وأنتم، على ما يبدو، ستنتظرون إلى الغد حلّ مسألهما.

¹ نسبة إلى القديس أوغسطين (345 - 430 م) لاتيني الأب، أمازيغي الأُم. عاش حياة فِسق في شبابه حتى تنصّر وتعمّد وقد تجاوز الثلاثين، أنشأ مدرسة للرهبنة، وألف كتاباً في العظات، وأثر كثيراً في الكاثوليكية والأنجليكانية. المترجم.

- بيير؟ هل أنت بيير؟ - سألت كلودين - ألكسندرин أخاها بصوت منكسر.

- نعم أنا بيير. ومعي أوغستين - أنطوان. والتقينا بشارل دو فيريول في طريقنا فصحبنا.

- يسرني أن يكون معك أوغستين - أنطوان. وكادت كلودين تبكي.

- وأنا معهما، أنا شارل دو فيريول. لا تيأس يا كلودين - صاح من وراء البوابة الكبيرة على رؤوس أصحابه ممهاً على إغفال كلودين اسمه. - أما عرفت صوتي؟

- ليس لا أريد أن أعرفك فحسب، بل لا أريد سماع صوتك. سامحني يا أوغستين... - انفجرت كلودين - ألكسندرин باكية.

- غداً، غداً! تعالى يا أختنا - استعجلت مسؤولة الدير، وصاحت كلودين - ألكسندرين من وراء الباب.

مر على الكونت شارل دو فيريول في حياته الخاصة كثير من الأمور الإيجابية والأمور السلبية. ولكن لا يذكر أن امرأة أهانته مثل هذه الإهانة إن لم يكن هو أهانها. لو كان من أهانه رجلاً، متنفداً أو من عامة الناس، إلا الملك بشخصه لواجهه بالسلاح "ماذا فعلت برأس الدجاجة هذه؟ وفيم أهنتها؟ لا أعرف أين فعلت شيئاً من هذا. أتكون صدقت مغازلتي لها على سبيل المزاح قبل سفرني الأولى إلى تركيا؟ سواء قال الناس أم لم يقولوا فجنس النساء سهلٌ خداعه. لو عرفت أنك ستتصرفين هكذا معي لعرفتك جمالك الذي تغتررين به في مرأة مكسورة. بعدها جئت من تركيا بالصبية الشركسيّة تغيرت حالمها جداً. لم آت بشارلوت - إليزابيث أيسبيه إلى بيتنا وأنا أجهل أنها أجهل منك. لهذا كنت واقفة على النافذة غاضبة حين كنا نصحب أيسبيه إلى المدرسة الدير؟ ربما كان

لخصمي "دوبوا" يدُّ في هذا الموضع؛ أم هناك شيء آخر؟ مهما يكن، لم أفعل شيئاً يُعاب علىّ . سعينا إليكِ فكسيتنا الإثم. وعُنْكُنْ لبيير أن يُخرجك من هذا المكان، ولكنكَ لن تستطيع أن يجلب لك السعادة.".

شارل دو فيريول الذي لم يكن يعرف ما جرى، وما حدث له، لم يستطع تجاوز ليون، فقال للسائس:

- أوصلي إلى مجمع سان- جان!

غرفة الاعتراف والتوبة المظلمة الضيقة فارغة. جلس شارل دو فيريول الكونت إلى جانب النافذة المحجوبة بالأسود. وبعد لآيٍ سمع صوت رجل يمنحك الثقة في صدقه:

- أسمعك يا بني.

- جئت أتوب يا أباًنا.

- أسمعك يا بني.

- أنا بلغت الأربعين ولكن لم أؤسس أسرة إلى الآن يا أباًنا.

- وما السبب يا بني؟

- لا أعرف يا أباًنا. أنا سليم جلداً وجسداً. وعندِي عشيقات كثيرات، يرضيني وأرضيهم، ولكن لا أكتفي بواحدة، سرعان ما أملأ منها.

- لأنكما لا تتفقان في الأخلاق والطبع؟

- لا يا أباًنا، أبحث عن غيرها حين لا تتفق أهواونا الجسدية.

- إن لقيت من ترضيك فلا جناح عليك إن توافقتما؟

- أليست المشكلة هنا؟ أنا أملأ منها.

- هل مضى عليكِ زمان طويل على ممارستك الأولى للحب؟

- كنت في الرابعة عشرة، أغرتني خادمتنا.

- وارتويتما كلاماً كما؟
- نعم يا أبانا.
- كل العلاقات غير القانونية حرام يا ولدي.
- أفي الحب يا أبانا أكبر و أصغر؟
- حين يتکافأ الطرفان لا أكبر ولا أصغر.
- وإن كانت الحبوبة من عرق آخر؟
- لا يعرف الحب عرقاً.
- وإن لم تكن من دينك؟
- لا يا ولدي بشرط ألا يكون في الأمر إكراه.
- انصرف شارل دو فيريول من مجمع سان - جان غير قادر على أن يسمع المزيد من الصوت الدافع، ناسياً الموضوع الذي جاء من أجله وهو خروج كلودينا - ألكسندرин من الدير. وأكّد على السائس أن يوصله غداً إلى مرسيليا. وفي اليوم الذي ركب فيه سفير فرنسا شارل دو فيريول السفينة المبحرة إلى تركيا كان الأسقف بيير غيرين دو تانسين قد أخرج أخته كلودين - ألكسندرin من دير مونبلييه، وركبت العربة السريعة إلى باريس.

الكتاب الثاني

I

يعتاد الإنسان على تقلبات الطبيعة، شتائها ورييعها، وصيفها وخريفها، وثلوجها ورياحها، وصحوها ومطها، وبردها وحرها، ولو صعب الأمر عليه. ولكن تحدث أمور كثيرة في العالم لا يمكن الاعتياد عليها.

إذا كان إرضاء اليتيم والفقير صعباً فكيف تنسجم عائشة مع دنياها الجدية. حياة الإنسان كالمحلب ينعقد بسرعة وينحل بسرعة. ويضيع العمر على حل عقدته. وإن يئسَ قطعته. وكل ما قطع ورُبط من جديد هشٌ. تخاف عليه وتقلق.

وعائشة قبل أن تكمل خطواتها العشر في الدنيا انعقد خيطها – حيائناً ثلاثة مرات. حين سرقوها، وحين باعوها، وحين حملوها إلى فرنسا البعيدة. ومع أن العقدة الأولى والثانية كانتا صعبتين فلم يستغرق حلهما إلا زمناً قصيراً. وكانت العقدة الثالثة أسهل، غير أن طريقة عقدها مختلفة جداً: تزداد تعقيداً ولو توهجوا الحذر في فكّها.

إن صح ما يقولون: "ما تبالغ في الحرص عليه يسقط من يدك، ومن تتأمل منه الخير يجلب لك الهم، وحملك يكسر ساقيك، الشر يلاقيك، والخير يتجلبك" فكيف ستتكيف عائشة مع الجو الذي فرض عليها؟ ومن حسن حظها أنها لا تعرف إن كانت دنياها الجديدة هكذا. وإن بدأت تتعلمها فلن تفهمها. إنما بعقلها الطفولي غير الناضج فهمت أنها يتيمة فحسب. إن ألقى في الماء من يعرف السباحة نجا، ومن لا يعرفها غرق.

هذا صحيح غير أن الدنيا ليست مقصورة على الظلم. ففيها كما تقول حكايات الأديعة يتصارع فيها الكبش الأبيض والكبش الأسود. والكبش الأبيض الآمل بالخير ينتصر على الكبش الأسود الطافح قلبه بالشر. وإلا قتل الكبش الأسود الكبش الأبيض. وعائشة لا تفهم إلى الآن شيئاً من هذه الأمور ومن غيرها. ولن يست عائشة وحيدة في هذا، فلأن الخير والشر لا يميزان بين أجناس البشر ففتيات الدير الفرنسيات اللواتي يدرسن معها ما يزلن بعيدات عن هذه القضايا. ولكنهن مختلفات عنها في أنهن سعيدات إذ يحيّين مع آبائهن وأمهاتهن.

في الدير، بفضل تطبيق مقاييس الدين الأخلاقية، عاداتٌ واضحةٌ خلافاً لسلوك نساء باريس المتهتكات. ليس فيه تمييز بين فقيرةٍ وغنيةٍ، وجميلةٍ وقبيحةٍ، وحسنةٍ الطبع وسietها. وملابسهن وما يذكرون وفراشهن هي هي. وينهضن في وقت واحد وينمن. ولا يتأخر إفطارهن ولا غداوهن ولا عشاوهن دققة واحدة. وبعد استراحة الغداء تصرف كل واحدة إلى الهواية التي اختارها: المطالعة، والغناء والرقص، والرسم، والموسيقى، والتقطيز، ويتمرنن على البلاغة. ويوم العطلة الأسبوعي من نصيب الأمهات والآباء. وكل هذا في حرم الدير إذ لا يحق للمعلمات الخروج بهن خارج الأسوار. وينصصن يوم الأحد للعروض المختلفة فيجد الأهل فرصة للقاء بناتهن فلا يشعر الطرفان بالملل.

وفي خلال العام الدراسي عيّدٌ مهمٌ يجتمعن فيه. ويختار لهذا اليوم موسم جمال الطبيعة: الربيع. ويجرى الاحتفال المسائي على شرف الملكة. ولا تنسى الفتيات ذلك اليوم الذي التقين فيه بالملكة الحاطة بالأصدقاء. يروي بعضهن لبعض ماذا كان يلبسن وماذا كان على رؤوسهن، وفي أقدامهن، حتى مناطقهن. وحين يتم تقديمهن لعاقلة الملك يبقى كلامها إليهن حديث العام كله.

ما حدث لعائشة، في نصف السنة الماضية، كثير بالقياس إلى قريناها المستعدات بقراءةهن وكتابتهن. تعلمت في الدير القراءة والكتابة وكانت تسبقهن في أعمال التطريز. ولكن أعجب شيء كان طريقتها في إلقاء الشعر وفي الغناء. ولم تكن تسلم من أخطاء في نطق الكلمات الفرنسية وابتஸار بعضها غير أن العجيب جداً هو أنك كلما استمعت إليها أسررتُك أكثر فأكثر بصوتها الجذاب.

وفي تعلم الفرنسية، والتمييز بين أصواتها، وإتقان حروفها، كان لها بالإضافة إلى شارل دو فيريول والمترجم فخري معلمان. أحدهما بون دو فيل الصغير، والآخر جانيت - نيكول. أما العامة فتعلّمها من زميلتها.

لسن قليلاً مجموعات البناء اللوالي علمتهن جانيت - نيكول خلال سنوات عملها السبع في دير سان - كول وخرّجتهن. ومن بينهن من تزوجن من متنفذين باريس، ومنهن صديقات للملكة، وكاتبات، وفنانات. ولكنها لم تلتقي إلى الآن بممثل عائشة الصبية الشركسية. "ما تقوله لها تختزنه في عقلها، وما يسقط منك تلتقطه، وما لا تعرفه تكتم بمعرفته. وما تعرفه تقشره لك، وطريقتها في الكلام والجلوس يمكن الخاذهما غوذجين. وأستغرب قيامها لك حين ترك. جميل أن تنهض للمعلم وتحترمه، ولكن أن تؤدي شارات الاحترام هذه لزملائك الكبار والصغار فهذا ما لا أفهمه. أ تكون تتواضع لمن تقيم معهن شعوراً بالنقص لأنها غريبة عنهن؟ لا يعرف أحد في الدير أن شارلوت إليزابيث أيسبيه صبية شركسية اشتراها شارل دو فيريول من السوق، وألتزم بتلبية طلبه عدم كشف الأمر. ثم أقول لنفسي ما أكثر الناس الذين يعيشون في فرنسا من لا نعرف أصولهم. وأُفِيلَ الموضع".

كان هذا اليوم موعد لقاء تلميذات الدير بآهاليهن، فلما نظرت جانيت- نيكول من النافذة رأت أيسبيه تومي بيدها، تستقبل رجلاً وامرأة، تعانقهما. تعرفت المرأة: صوفى. والرجل ليس من معارفها، ربما كان في الثلاثين. رجل مشوّق القوام، والقبعة الأسطوانية والفراء الأسود معها متناسبان. وبعد ما تبادلا بعض الكلمات عانقتهما أيسبيه مرة أخرى. وما هي لحظات حتى أعادت الصبية الكرة. قفزت وقفزت. نظرت باتجاه النافذة التي تقف إليها جانيت - نيكول، وأومأت إليها. ولم تكتف بالإشارة بل انطلقت باتجاهها.

جفلت جانيت - نيكول من تصرف شارلوت إليزابيث أيسبيه المفاجئ وإن أدركت أنها لا تحمل خبراً سعيداً. وخطر لها خاطر مزعج وهو أنها قد تركت الدير. وسرعان ما تناست هذا الخاطر إذ لا يمكن للصبية التي صار هذا الدير في متناولها أن تتركه. وفتحت النافذة على مصراعيها مُبعدة أيضاً فكرة أن يكون شارل دو فيريول عائداً.

- جانيت - نيكول، أبِشِّرِك - عندي فرحتان: صار عندي أخ صغير سُمُّوه "أرجنتال"، وكلودين - ألسندرین أخرجوها من الدير. والزائران هما صوفى، وتعارفنهما، والأسقف بيير - غيرين دو تانسين الأخ الأكبر لكلوتين، والأصغر لماري - أنجيليك.

- فرحت لك يا شارلوت إليزابيث أيسبيه. عندك أخبار طيبة. لا تَدْعِي ضيوفك في الفناء، ادعِيهم إلى الغرفة.

- كنت أتمنى هذا ولكنهما مستعجلان. بون دو فيل متوعك للمرة الثانية. يوم الأحد، يوم الاستراحة، في حياة جانيت - نيكول، إذا نظر إليه كيوم استراحة فقد أمضته في شواغلها إلى ما بعد الظهر. انصرف زوار الطالبات وغيرهم. وتحدثت إلى بعض من قابلوها. وطوال هذا الوقت، سواء أفرجوا أم

أغضبوها، لم تفارق فرحة عائشة ذهنها ولا صوًّها الحاد سمعها. ومع أنها كانت تلتقي بها كل ساعة فلا تنتذر يوماً أشتاقت فيه إليها كما اليوم، تريد أن تقابلها، تسمع صوتها. وكانت تنوى زيارة خالتها هذا المساء غير أنها لم تستطع. وتناولت كتاباً تسلى به عن هذه الرغبة المفاجئة في رؤية عائشة. ولكن الكتاب لم يثير فضولها. حاولت النوم فأخفقت، كانت صورة الشاب الممشوق لا تفارق مخيلتها. ولا يفارق اسمه واسم أسرته "بيير غيرين دو تانسين" عقلاًها وكأنها تعرفه من زمن بعيد. "ماذا جرى لي اليوم؟ طوال هذه السنين لم تقع عيني على رجل يعجبني، أحبه. من أين جاء هذا؟ ماذا في قلبي نحوه رغم أنني رأيته من بعيد فحسب، ورغم قسمي ألا أتزوج. ما أكثر الرجال الذين رأيهم في باريس يرتدون المعاطف الفاخرة والقبعات الأسطوانية، ويحملون العصي المزخرفة، ويركبون العربات الفخمة للملائكة. ما كانت قيمة هؤلاء المتكبرين؟! وهذا "بيير غيرين دو تانسين" - حين نطقت جانيت - نيكول اسمه في قلبها ابتسمت بطريقة لا تفهم منها إن كان يعجبها أم لا، ولكن الابتسامة طفت على وجهها الصبور. - لم أسمع صوته بل لم أنظر في عينيه: أنها زرقاوان أم سوداوان؟ - وسخرت من نفسها ثانية - كان على أن أذهب حين أشارت لي أيسيل بيدها، كنت عرفت فهو أزرق العينين أم أحورهما؟ فهو أشقر أم أسمر؟ لا شك في أنه إنسان مهذب؛ وإلا ما شرفوه بلقب الأسقف. أقول هذا ولكن بين رجال الدين من عيناه زائغتان وخارج عن حدوده. لا أظنه متكبراً؛ اصطحب الخادمة صوفى في عربته. أما كان يستطيع القدوم وحده؟ أى عقل أن يكونوا انصرفوا بحججة مرض الصبي؟ لا عجب في هذا. حتى ملائكة المنير، يقال إنه لم تبق خادمة في قصر فيرساي، إلى تريانون لم يراجعها. وبين الوزراء من يمكن اتخاذه قدوة في هذا. ولو لم يبق إلا دوبوا الذي تقطر عيناه

شهوة لكفى سيرة هفلاء! لا، لا. إن بقيت أبتسם لأحدهم، ولو لم أعرف أين يذهب حين يخرج، دلّته، وحين يعود في أنصاف الليل ماذا أستقبله باشة؟ وأنا دون أن يعترض على سلوكي أستطيع أن أفعل الشيء نفسه في عالمنا الصالٰ. ولكن أفضل أن أعيش امرأة طاهرة لم تمتدّ إليها يدُ رجلٍ".

أجفل صوت الجرس الذي يعلن موعد نوم تلميذات الدير جانيت – نيكول بقوامها الرشيق. وحين وقفت أمام المرأة تلمست خديها المتوردين دون أن تعرف السبب، ومرت على جبينها الساخن بيدها. الآن فقط تذكرت أنها كانت ترید التحدث إلى عائشة. ابتسمت وهي تثمن عاليًا ترتيبها لفراشها في الصباح، وتعليقها ملابسها في الخزانة، ووضعها حذاء الليل أمامها، وضفّرها شعرها كي لا يتشعث، وثوّبها الرقيق الفضفاض الذي كانت تبتهل فيه إلى رحمة حسب التقاليد الكاثوليكية. "لو كان عندي فتاة كأيسبيه لما فضلت شيئاً عليها في الدنيا" وفيم يحتاج إلىك الكونت شارل دو فيريول فيشتريك؟ قال إنه أشفع علىك؛ أحاول أن أقنع نفسي غير أن من في قلبه رحمة بين الأغنياء قليلون. لو سجلك في الدير باسم ابنته لما قلت شيئاً. الأوراق التي عندنا تقول إنه يعلمك على سبيل الإحسان، وخاتم الملك يشهد على هذا. مرت أعوام أيسبيه الدراسية الأربع وكأنها اليوم. ثم ماذا؟ ستبلغ السادسة عشرة؛ وحينها ما الذي بانتظار الفتاة؟ وسيعود الكونت من فرنسا منهاجاً سنوات سفارته؛ فهل سيعدها ابنة أم أختاً أم ، وهذا ما أتوجسه، يتخذها زوجة؟"

صعد الدم إلى رأس جانيت – نيكول مع الكلمات الأخيرة، جلست في السرير بشوّبها الرقيق، وظلت مدة ورأسها على ركبتيها. ثم ملت شعرها المتاثر كما تفعل عائشة، وناجت نفسها بحرارة: "يُخيّل إلى أن الشراكسة الذين تنتمي عائشة إليهم أناس ممتازون. الشرق، الشرق لا تعرفون عنه شيئاً" لم أستطيع أن

أحمل سفير فرنسا شارل دو فيريول على أن يقول شيئاً غير هذا. أليست نساء الشراكسنة من اخترعن دواء الجدري؟ نعم، كيف لم أتذكر إلى الآن؟ وأيسيه من أين سترعر هذا؟ سأخبرها غداً وأُفرجها. وإن كان هناك كتابات تتعلق بالشراكسنة فسأجدها وسأقرؤها. ونحن حبستنا أيسيه هنا مصريين على أن نجعل منها فتاة فرنسية. والشراكسنة الذين تنتهي إليهم إن عرفنا نمط معيشتهم، وعاداتهم وعلاقاتهم فيما بينهم، وملابسهم. حتى ملابسهم، ستكون معرفتها مفيدة ولن تضرنا. سيكون من المستحسن أن تظهر أيسيه بزيها القومي أمام الملكة في الأممية التي تحضرها. وسنكلفها قراءة الشعر والغناء"

نامت جانيت - نيكول غارقة في هذه الأفكار العذبة. وأفاقت صباحاً نشطة. وأنجرت أعمالها المعتادة. ثم ذهبت إلى باريس تبحث عن العارفين بما كُتب عن الشراكسنة، عن ملابسهم، وصورهم... وعلى عكس ما توقعت وجدت في المكتبة ما كتب "غالون فون توبوس" ولوقا، وأندريانو، وغيرهم من كتاب المذكرات. وقرأت جانيت - نيكول طوال الليل وهي ترى كل كتاب أَعْجَب من سابقه. وأشارت إلى ما رأته أهم المقاطع والعبارات. وعلمت بالإشارة الموضع التي يجري الكلام فيها على الأزياء، ولا سيما النسائية منها.

"إن وجدنا خيطة ماهرة تقرأ هذه المعلومات فسيمكناها أن تخيط لأيسيه ثوباً جميلاً" وبدأت تبحث بذهنها عن الخياطة القادرة. ولكن ما كان ملحاً لها الآن هو أن تقرأ أيسيه هذه المعلومات، وتقرأ هي عليها بعضها"

- أيسيه! هاتي البشارة! عندي ما يسرك - قالت للصبية كما تصرفت الصبية معها قبل أيام.

- ما الأمر؟ أكتب لي الكونت شارل دو فيريول؟ - نظرت إلى جانيت حزينة حين مدت يدها إلى جيبها فلم تجد فيه شيئاً.

- لا، لا. مزحت معك يا أيسبيه. لا يزال عليّ أن أؤدي لك بشاراتك إن كنت تتذكرين. وإن أردت تصافينا. هذه الكتب كلها تتحدث عنكم، عن الشراكسة. ها هو ما يكتب من رحلوا إلى بلادكم "الشراكسة ماهرون في أنواع معينة من الأعمال، وأذكياء" وسائل هذا الكلام رحالة سافر إلى بلادكم قبل ثلاثة سنة اسمه "غالون فون تيبوس". وها هو ما قاله فيكم أندريانو عام 1500 "الشراكسة يثمنون عاليًا سلامه الطوية، يقدمون إليك عن طيب خاطر ما يملكون باستثناء خيالهم وسلاحهم. يحبون الحرية والشجاعة بلا حدود. ولا أحد يستطيع الحدّ منهم. ولا يعرفون منذ سن مبكرة ما يفخرون به إلا التدرب على اللياقة البدنية واستعمال السلاح وركوب الخيل. ويعدون الجبن مثليّة". وامتدحكم "أسكولي" الذي كان عندكم قبل زمن غير بعيد، واسمعي ما يقول "الشراكسة رشيقون، فرسان، مشوقو القوام، دمهم أحمر، مشبعون بالإنسانية، عيونهم عسلية فاتحة أو سوداء. وعلى ما أعتقد فنساؤهم أجمل نساء العالم" ثم هل تعرفين يا أيسبيه أن من اكتشف دواء للجدرى هم أنتم؟

- لا، أسرعت عائشة التي وثب قلبها من مكانه لما سمعته بالإجابة، وتضرجت وجنتها بالحمرة.

- اسمعي إذن ما قاله غيرفيتش في شأن هذه المرأة "ما أكثر ما ندين به لتلك المرأة الشركسية، أول من وجدت علاجاً للجدرى في العالم خائفةً على جمالها، متأللةً لما قد يحدث لأولادها! وما أكثر الأطفال الذين أنقذتهم من براثن الموت. لقد أدت معروفاً جليلاً للعالم" أسمعت يا شارلوت - إليزابيت أيسبيه ما قاله فيكم الرحالة الذين عاشروكم؟

- سمعت يا جانيت - نيكول، ولكن لم أعرف أنها نحن الشراكسة كما وصفونا. - حملت الفرحة الممزوجة بالحزن عائشة على أن تلجم إلى حضن معلمتها.

- لا تبكي يا أيسية. لا تتواضعي لأحد! لا تنسى أنك من الشراكسة العرق الممتاز. أتعرين ما يحزّ في نفسك يا أيسية؟ أتألم لأن ما كتب عن الزي الشركسي، عن الثوب، عن موالصفاته ومظهره، قليل.

- لماذا يا جانيت - نيكول؟ أتودين تفصيل ثوب شركسي لك؟ - سألت، دون أي رباء، المرأة السمراء الصبور التي كانت تذكرها بأمها - أي ثوب كانت ترتديه أمي كان يليق بها لأنها كانت جميلة مثلك... - صارت عائشة جانيت نيكول بما في قلبها دون حرج.

قبلت جانيت - نيكول الصبية باسعة، وأجابت:

- لو عرفت أنه يليق بي للبسته. ولكن ليس هذا ما أريد قوله لك. لو لا أني لا أعرف القالب الذي يوحّد منه الزي الشركسي لخطته لك. وقدّمت لك به في يوم عيدنا للملكة.

- أهذا ما تريدين؟ - قالت عائشة وندمت، ثم أختت: - لا أستطيع خياطة الثوب ولكن أريك كيف يخيطونه.

- وكيف؟ - سألت جانيت - نيكول وهي مسورة بما سمعت أكثر مما استغربت.

- إن ساعدني معلم الرسم استطعت رسمه على الورقة. بعدما تحدثنا عن القماش المطلوب، وأزرار الزنار، وحتى القبعة، اختتمت جانيت - نيكول بما كان يشغل بالها:

- ليت أمنيتنا تتحقق لنا! الملكة تحب مثل هذه الأمور، كانت أُعجبت بها.
وليس وحدها، بل سندعوا الآباء والأمهات، أولياء الأمور.
- ومن سأدعوا أنا؟ - سألت عائشة نفسها ثم بدأت تعدهم: - هناك من تترك لهم ماري - أنجليك ابنيها بون دو فيل وأرجنتال بضع ساعات. أما صوفى فسأشعر بالأسى إن لم تأتِ. وكذلك كلودين ولاروس. وشارل دو فيريول في تركيا ولا نعرف شيئاً من أخباره. و أوغستين - أنطوان سيأتي إن أخبرناه؛ ومن أيضاً؟
- ألا يكفي كل هؤلاء؟! - قالت جانيت - نيكول متللة لعدم ورود الاسم الذي كانت تنتظره: بيير غيرين دو تانسين، مخفية مشاعرها.
- ونسى أول اسم كان علىي أن أذكره. - ضربت عائشة جبينها: بيير!
- أما قلت إنه يغيب كثيراً عن باريس؟... - وتظاهرت بأنها تبحث عن ذريعة.
- إن أخبرته أنا فسيأتي من أي مكان كان. - قالت عائشة واثقة، ثم سالت:
- أتريدين دعوه؟
- إن كان سيأتي فلم لا. - لم تسيطر جانيت - نيكول على صوتها الذي فضحها مهما حاولت.

II

ارقى الريح التي هبت فجأة من جهة مضيق البوسفور إلى إسطانبول. تقتلع السقوف والأشجار، وتمد دكاين الخيز والألبسة الصغيرة وتطير بها. والناس يتهلون إلى الله ويتلون الأدعية. وما تفعله في ميناء المدينة يدعو للأسى: تختطف المراكب من سطح الماء، وتعبر بها، وتقلب السفن وتغرقها. الريح تهب والسماء تطرد الدنيا تنقلب ولا معين للمدينة.

لا يجرؤ شارل دو فيريول السفير الفرنسي أن يتأمل من خلال النافذة بل يخاف أن يذرع أرض الغرفة. يختبئ في الزاوية التي فيها كرسيان مريخان ومائدة واطئة. وزجاجة الشراب أمامه غير مفتوحة. والقهوة التي لم يرشف منها إلا مرتين أو ثلاثة بردت. وقد نسي أنه لم يخلع الصدار الأبيض. ولا يزال الصحن الذي فيه بعض قطع من الجبن أمامه. "اليوم، موعد مقابلتي للسلطان، تكاد القيامة تقوم علىّ. لا يزال الوقت مبكراً، أمامي بعض الوقت فموعدنا الساعة الثانية. ألن تنفرج الأمور إلى وقتها؟ شؤون الدولة فوق الجميع. لا أظن السلطان يؤجل موعدنا. الشرق ليس فهمه سهلاً كالغرب. ما يُدرِيك كيف سيتصرف معك أبناءه. بالقياس إلى العام الماضي قام الترك بتغييرات كبيرة فقد تولى أحمد الثالث السلطنة. ومرة واحدة فقط قابله ، وما كان يُدرِيك وقتها أنه سيتولى الحكم؟ تبادلنا بعض كلمات لا معنى لها ثم افترقنا. حين تكون سفير دولة يجب أن تعرف ماذا يجري اليوم، وماذا سيجري غداً وبعد غد وفي الأيام التالية. ألا ترى كم من أحداث جرت في تركيا خلال هذا الوقت الذي لا يعلو السنّة؟ وأغلب حاشية السلطان شراكسة لأن زوجته شركسية. من أين جاء هؤلاء وهم غير أتراك؟...".

توجه شارل دو فيريول إلى النافذة بعدما حُطِّلَ إليه أن الطبيعة هدأت، وكان ظنه في محله. فعلت الريح ما فعلته خلال ساعة كعادة الأعاصير ثم انتهت في الأمواج. والناس الذين كان شتتهم رجعوا إلى الشواطئ. وفتحت الدكاكين والمقاهي. وحملة الخبز المشروح رجعوا إلى أعمالهم. والعربات التي تخرّ الماء، والدواب التي تحمل المتع، تظهر هنا وهناك.

الساعة تقترب من الحادية عشرة. ولا يزال أمام السفير الفرنسي ثلاثة ساعات. رجع إلى المائدة وبدل القهوة الباردة. رجع وتصفح الورقة التي قرأها هذا الصباح. وتعجب ثانية "كل هؤلاء شراكسة. شركس - عثمان باشا هو قائد القوات البحرية التركية. وشركس - محمد باشا، وشركس - أخمت باشا، وشركس - محمد باشا هم جنرالات في مختلف القوات العثمانية. وشركس - محمد باشا يكاد يكون سلطان أورشليم. ومبعوثو السلطان أحمد الثالث إلى القفقاس، وشركيسيا وأديغه ستان وشيرفان شراكسة. يبدو أن أكثر باشوات تركيا شراكسة. ألم يمسكوا بزمام الأمور في البلاد إذن؟ زوجة السلطان شركيسية ومتنفدو البلاد شراكسة ويسمحون لأسواق النخاسة أن تبيع صبایاهم، وتملأ دور البغاء بمن؟! - حين مد يده إلى إبريق النبيذ" تذكر أن عائشة قالت له العام الماضي "أنت تفرط في الشراب" فسحبها. - ما ضرّ لو شربت القليل أيضاً، ولكن ليس من اللائق أن أقابله للمرة الأولى ورائحة النبيذ تفوح مني. ألم يكن جميلاً لو أن شارلوت - إليزابيث أيسبيه كان امتلاً جسمها فعاشت معه هنا. كان يكفي أن يتعجب الشراكسة من أني صهرهم. وكانت قضائي أي الفرنسيّة أسهل حلاً"

تبعاً لأصول التعامل مع السفارات، حطت عربة شارل دو فيريول أمام قصر السلطان. رافقوه من الباب المذهب الكبير، إلى الباب المذهب - المفضض،

إلى القاعة المذهبة السقف، حيث السلطان. استقبله على الباب الوزير المكلف باستقباله. تبادلا تحية احترام. ولم يتحرك الجنديان المرابطان على الباب. ظللاً مسمّرين إلى الأرض.

دون أن يجد شارل دو فيريول الفرصة ليتأمل ما حوله فتح له مصراعاً الباب الأصم، ودخلوا به إلى قاعة السلطان التي يلمع كل ما فيها من أرض وجدران وسقف. السلطان جالس على أحد المقعدين الوثيرين المتصلبين إلى جانب الموقد المحفور في جدار مرصوف ب بلاط من المنمنمات. وإلى جانب السلطان يقف سبعة رجال. اثنان منهم يرتديان زياً رسمياً، وثلاثةً لباساً تركياً، وقد تعرف أحدهم - عبدول - حزرت باشا، وهو مسؤول الشؤون الخارجية التركية. وكانوا تعارفاً أيام الاجتماعات التحضيرية لمعاهدة سلام "كالوفيتش".

كان قد بقي على السفير الفرنسي خطوتان أو ثلاث ليصل إلى السلطان أحمد الثالث حين نحضر الأخير على رسّله وخطا خطوة، فتقدّم شارل دو فيريول خطوتين ليجد نفسه أمام السلطان. وبعد إيماءة الاحترام قال:

- أنقل تحية شمس فرنسا لودفيغ الرابع عشر إلى سلطان الترك المعظم، سلطان مصر والشام وأورشليم والبلقان، أحمد الثالث. وأنقل إليكم الكتاب الذي يحمل دعواته لكم أن يتحقق الله لكم كل خير. وندعو الله أن يمد في عمركم.

- ونحن، باسم وبا سم دولتنا العظمى، أرد على تحيات ملككم. وأرحب بكم، وأقدمكم إلى رجال دولتنا البهاء للقيام بأعمال أخرى.

ودون أن يصافح كلاً من الذين ذُكرت أسماؤهم اكتفى شارل دو فيريول بحركة تحية. وقبل أن يعود السلطان إلى كرسيه دلّ السفير على مجلسه، وسأله:

- أليست بلاد فرنسا في سلام، وملكيها بصحة جيدة؟

- بلاد الملك المنير لودفيغ الرابع عشر بسلام، ولو لا أن الإنجليز يزعجوننا من حين لآخر لكان هو أيضاً بخير. يا سلطان الترك كلهم وسلطان الأقوام الأخرى المنضوين تحت علمك.

- أنا مسحور أيها السفير لكون بلادكم بخير. وليمد الله في عمر ملوككم. وأما الإنجليز الذين أتيت على ذكرهم فنحن نعرف نواياهم. لقد قرروا أن يملكون الدنيا كلها، ووصل شرهم إلى الجميع، وتدخلوا في كل شيء. ولكن من خالفهم لن يصيّبهم أي شر. يخرجون من مضيق "جبل طارق"، ويعبرون البحر المتوسط ويعزّون البلاد ليلاً ونهاراً؛ أليس صحيحاً يا شركس - عثمان باشا؟

- كلامكم صحيح كما ضوء هذا النهار المشرق يا سلطان كل الأتراك. - لم يكن الجيد شركس - عثمان كابودان باشا، بصوت حاد واثق، أكبر من الكونت إن لم يكن أصغر.

- والإسبان والنساويون والطليان واليونان، كيف يتصرفون معكم يا سفير فرنسا؟

- هؤلاء نجد ما نجبيهم به يا سلطان كل الأتراك.

- من الأفضل التعايش بهذه الطريقة. الطليان واليونان لا يغفرون لنا فقدانهم القسطنطينية رغم مضي أكثر من قرن ونصف على الحادث. - ابتسם السلطان بوجهه الأسمى الممتلىء، معبراً عن رضاه بما قاله.

- وهؤلاء معهم روسيا. - أضاف السفير الفرنسي إلى كلام السلطان عارفاً أن السلطان كان بوده أن يقول هذا ولم يقله.

- أسمعتم يا قادة جنودي الشجعان ما قاله سفير فرنسا؟ - سأّل السلطان أدميرالاته وجنرالاته. ثم استدار إلى محدثه. - يسعدني أن يكون سفير فرنسا قد فهمنا على هذا النحو.

- وسألناول شيئاً آخر أقرب من هذا يا سلطان الترك، بدليل الشمس، - أكمل الآن شارل دو فيريول كلامه الحضرّ مسبقاً، معتقداً بمعلوماته عن القضايا التركية، مُظهراً ثقته بنفسه: - ولا يغفر لكم أتباع دينهم البلقان. - أضاف لهم هذه الفكرة وإن لم تكن من صلب مهمته، عارفاً أنّها تروق لهم. - ثقوا بنا من هذه الناحية؛ ستظل فرنسا حليفتك.

- يسرنا ما تقول، يسرنا - علا صوت السلطان الآن - أن يفهمنا سفير فرنسا هكذا. ونحن بدورنا إن ظهرت لفرنسا مشكلة خارج فرنسا فليس عندنا ما نخفيه عنها. عالمنا صعب يستحق أن نتعاون فيه.

حين كان شارل دو فيريول عائداً إلى البيت، وقد أرضي السلطان، وراضياً عن نفسه أيضاً لأدائه المهمة التي قابل السلطان لأجلها ومؤذنو العصر يملؤون سماء المدينة، وعكن أن تقول إن الشوارع كانت خالية من الناس، كان كُلُّ الناس مشغولين بالوضع ثم الوقوف أمام الله يتضرعون إليه بما يهون عليهم دنياهم العاجلة. "الساعة الآن تقترب من الخامسة - قال شارل دو فيريول لنفسه - هل جلست مع السلطان ساعتين زيادة عما كان مقرراً؟ وماذا قلت له طوال تلك المدة وماذا قال لي؟ لا، لا أذكر أني قلت ما لا يجوز. هم أصغوا إليّ وأنا أصغيت إليهم. ووَدّعني بأحرّ ما استقبلوني. ربما بالغت في كلامي على الروس والبلقان ودينهم الواحد. ولكن كما وحدنا ولم يسمعنا أحد. ليست هناك قضية دولية تخلو من الصدق ومن الكذب. ما يبدأ بالكذب يختتم بالكذب. والصدق يغلقون عليه بمصداقه. وفي القضايا الدولية أفضل سلوك هو قول الحقيقة شريطة أن يُسمح لك بقول ما تريده. انظر كيف ثارت الطبيعة هذا الصباح والآن كيف ابتسمت لنا. غابت الشمس كأنّها لم تر في البحر، ولا في إستانبول، ما يعيّب..."

انتصبت أمام مخيلة شارل دو فيريول مائدة الصباح وعليها زجاجة الشراب. وتدكر حالاً ما قالته له عائشة في شأن الشراب. وسألها وكأنها أمامه: "ما أخبارك يا شارلوت إليزابيت أيسبيه؟ لا تظني أني نسيتك إن لم أسأل عنك. لا يمر علىّ يوم أو ساعة لا أذكرك فيها. وها أنا قابلت اليوم عند السلطان رجالاً متتفذين من قومك الشراكسة. لم آت على ذكرك ولكنني أرحب في التقرب إليهم كرمي لك. أجسام رشيقه ووجوه جميلة، وينظرون إليك نظرات ذكية. ترى شجاعتهم ليس في عيونهم فحسب بل في مظهرهم. الآن أفهم لماذا لاتنسين قومك الشراكسة. لا تؤاخذيني، لست المسؤول عن مصيتك. والضابط الذي تعرفته اليوم شركس - عثمان كابودان - باشا، يقال إنه حُطف من شركيسيا صغيراً، وبيع في سوق التخasse. والآن هو قائد كل القوات البحريّة التركية. وأنت لا تعرفين ماذا ستتصبحين في فرنسا خلال بضع سنين. انتظريني، أنا أحبك، وفهميّني. أوصلُ رجاءك إلى فخري. وهو لا يعتب عليك. وسأتي إليك في الصيف القادم بعد أن أنجز معظم مهماتي في إسطنبول. وما أخبار جانيت - نيكول ذات الجسد الممتليء والوجه الصبور يا تُرى؟..."

- اذهب باتجاه مضيق البوسفور، لا إلى بيتك! - قال شارل دو فيريول فجأة لسائسه التركي، ثم سأله: - أتعرف جرفاً عالياً للبوسفور؟

- نعم، هو في قرية "أناضول كافاغ"

- أهوا بعيد؟ إن كان بعيداً إلى مكان أقرب - وتوقفت العربية عند أعلى جرف: - في أي اتجاه تقع بلاد الشراكسة؟

- من يدرى؟ - قال السائس حذراً متسائلاً عما ينوي هذا الرجل - لا أعرف إن كانت نحو الشرق.

- في هذا الاتجاه يعيش الشراكسة لأن الشمس تغرب من ورائنا - توجه شارل دو فيريول نحو الشرق وصرخ كما رجته عائشة: - أتسمونني أيها الشراكسة؟ ألي رجاء ابتكم: عائشة ابنة بولت وجنتات حية وتعيش في فرنسا. - "انتظر إذن أن يسمعك الشراكسة!" قال شارل دو فيريول لنفسه وجلس في العربية، ثم برأ نفسه بأقصى صوته: - "هل سمعتني يا مريم العذراء، تحملت من نذر شارلوت - إليزابيت أيسيه - وبعد ما قطعوا مسافة قال لنفسه بحزم: "يجب أن أكون انتهيت بهذا من المسألة الشركسيّة لشارلوت - إليزابيت أيسيه. لن تصبح فرنسية ما لم نزع منها قلبها الشركسي وننسلها شركسيتها."

III

حضرت جانيت - نيكول لحفلة الربيع طوال أشهر الشتاء الثلاثة دون كلل أو ملل. و Paxat زى أيسىه الشركسي دون أن يعلم بالأمر غيرها هي وأيسىه، ثم طوته في الحزانة. ومن وقت لآخر كانت ثلبيس أيسىه الزي كي تعتمد عليه، وفي كل مرة توقف وتأملها فلا تشبع من جمالها. ولم تكن تتوقف عند هذا الحد: كانت تطلب من أيسىه أن تتلو المقطوعة الشعرية القصيرة التي كتبتها جانيت - نيكول، وتطلب أيضاً أن تغنى أغنية. وتصدق لعائشة التي تزيد جمالاً على جمال بزيها الشركسي، وتحتف لها: "برافو!" وتقول لها "يليق كل زى اختاره شعب لنفسه بأبناء هذا الشعب، ويكشف جمال قوم أبنائه" وتقول جانيت - نيكول لنفسها، وقلبها يتلمس للصبية اليتيمة ودون أن يجعلها تشعر: - لم أتوقع يا أيسىه أن تفضل الخياطة زيك بهذا الإتقان. - ثم تضيف بشيء من الرياء: - وإن أردت أخبرتك لماذا الخياطة ناجحة: كل الجميلات، وأنت منهن، قولهن جميلة؛ ولذا أثواجهن جميلة.

- ألم أرجوك يا جانيت نيكول ألا تقولي لي مثل هذا الكلام؟! - قالت عائشة بشيء من التصنع. ثم أصلحت كلامها: - وفي الدير تدرس صبايا أجمل مني.

- في الدير صبايا فرنسيات جميلات، ولكنك أجمل منهن.

- إن كنت تقولين هذا لأني صبية شركسية فأنا راضية - لم تغير عائشة رأيها، وأكملت كلامها بسرعة بعدها فكرت فيه: - كانت أمي تحبب حين يقولون لها إنك تحيطين وتطرزين على نحو جميل "على كل إنسان أن يتقن المهنة التي اختارها بقلبه" وهذه الخياطة الفرنسية لم تخط لي ثوباً جيلاً لأني جميلة بل لأنها تتقن مهنتها.

ومرة أخرى ابتسمت جانيت - نيكول للصبية الشركسيّة وهي تنظر إليها نظرة رضاً - حقاً، حقاً يا أيسبيه، يجب أن تحب العمل الذي تمارسيه. وإن كانت معلوماتك عنه قليلة صعب عليك. ولا يتوقف الأمر هنا، فكل عمل تندمجين فيه يُسعدك.

- أهذا يا جانيت - نيكول تبرّوننا هنا على الدراسة والتصوير والتطريز والرقص والغناء؟

- نعم، فهمت جيداً يا أيسبيه. ولهذا تُرافق بتعلّيمك وترتّيتك هذه الهوايات. ونحن ننوي في العام الدراسي القادم بعد عطلة الصيف أن نصحبك إلى المسرح بضع مرات في الشهر.

- وما هذا؟ - سألت عائشة مستغرقة الكلمة "المسرح" التي لم تسمعها قبل.

- هناك يا أيسبيه، كما نقدم نحن عروضاً صغيرة هنا، يقدمون عروضاً هامة مستوحة من التاريخ والحياة الاجتماعية. ويعمل ممثلون وممثلات مشاهير. وهم يظهرون في مشاهد مختلفة. وينون، ويفرون الشعر.

- لا بد أنه عجيب في جوانب كثيرة...! توردت وجنتا عائشة الصغيرتان.

- لا يقتصر الأمر على العجائب فالناس يتعلّمون هنا. وترى هناك أنواع الألبسة وتسريحات الشعر والمكياجات على الوجوه، حتى الخليّ التي يتزيّنون بها، سواء كانت تليق بهم أم لا تليق.

- يبدو يا جانيت - نيكول أنّ بين الممثلين من يمكن اتخاذه قالباً، ومن لا يمكن.

- وملاحظتك هذه ممتازة. - قالت جانيت - نيكول متعجبة من فطنة الصبية - ولكن من بين من تتحدث العروض عنهم يمكن أن تجدي من تعرفيه أو تخمنيه.

- إذن - وصرخت عائشة لا تملك نفسها - أليست مثل الكتب التي تقرؤها أو تكتبها كلودين - ألكسندرین؟

- ربما - وافتت جانيت - نيكول الصبيّة - من أمثال هذه الكتب يستخلصون المسرحيات. ويمكن تقديمها على خشبة المسرح.

- أيعرض في المسرح أيضاً مثل ما في الكتب من صور عارية للرجال وللنّساء؟

قالت عائشة وقد تذكرت الكتاب الذي رمته لكليودين - ألكسندرین مرة على فراشها.

- لا، لا يعرض أشخاص عراة هناك، ولكن ليست قليلة المسرحيات التي تُعرض فيها قصص حب ماجنة، وقد يتبدل الأبطال القُبْلَ على الخشبة.

- إن لم يكونوا عراة فلا بأس في الحب - عبرت عائشة كعجوز حقيقة عن رأيها في ما سمعت. ولكن كان الأفضل ألا يتبدلوا القبيل أمام الناس. أتعرين يا جانيت - نيكول ماذا أفعل إذا صحبتنا إلى المسرح الملكي وعرض مشهد من هذا النوع؟ سأغضض عيني!

- إن عرض ما تخجلين منه فلا بأس في مثل هذا التصرف.

- نعم، لهذا يرتدي الرجال والنساء اللباس، لأنهم يخجل بعضهم من بعض، حتى لا يظهر ما عند الإنسان مما يُخجل. عندنا في بلاد الشركس لا يسمحون بالتعري.

- ربما لهذا السبب ترتدي النساء عندكم الحجاب.

- عندنا يا جانيت - نيكول لا ترتدي النساء الحجاب. - قالت عائشة بعناد وثقة، وخصت بصوٍت أقوى ما تعرفه: - النساء التركيات هن من يحتمين باللباس. ويقال إنّ في مصر أيضاً الوضع نفسه. لا تظني أني أسوّغ إخفاء المرأة

لجمال وجهها وتناسق جسدها. ولكن كانت أمي وجدتي تنصحاني بإخفاء ما يحجل الإنسان من ظهوره.

- هذا صحيح. وأنا أواقفك في هذا. ولكن لا تنسى أنك الآن في فرنسا.

- وما المشكلة — استدارت عينا عائشة لما سمعت — أليس من يعيشون في فرنسا أناساً؟ إن كانوا يأكلون فنحن أيضاً نأكل، وإن كانوا يضحكون فنحن نضحك. وإن كانوا يبكون فنحن نبكي. وإن تزوجوا فنحن نتزوج. ما الفرق بين الفرنسيين والشراكسة؟ الفرنسيونبيضُّ وسُمُّرٌ وشُقُّرٌ كأناسنا. لا نختلف إلا في لغاتنا.

- نعم، نعم. وافتقت جانيت — نيكول عائشة ناسية أن تتعجب مما سمعت. — أشكال أناسنا، وطريقة فرحتنا وحزننا، كما تقولين لا فرق بيننا إلا اللغة. ألسنا بشر؟ لفرق كبيراً بيننا. ولكن مع ذلك فمن تعيشين معهم من بلاد أخرى، نوع آخر من البشر. ليس الآن أوان فهمك هذا الأمر يا أيسية، بل حين تكبرين.

حين خرجت عائشة من الغرفة وهي تتلفت هجم الحزن على جانيت — نيكول فبكت. ولكنها خافت أن يراها أحد تبكي فغضبت وهي تمسح دموعها: "إثم كبير أن تسرق فتاة ذكية لا يتناسب عقلها مع عمرها وتبيعها في السوق. بل إن انتزاع الإنسان من أهله وبيعه إلى بلاد غريبة لا يتوقف عند حدود الإثم، ومن يشتريه ليس أحسن من يبيعه. لم يفعل الكونت شارل دو فيريول شيئاً حسناً. لو كان يريد الإحسان إليها كان عليه أن يعيدها إلى بلادها، كان ثواباً. وبدلاً من أن يفعل هذا يأتي إلينا بالفتاة التي يجري في عروقها الدم الشركسي، وينبض في صدرها القلب الشركسي ليحوّلها إلى فتاة فرنسية، ونعلمها، مستعملاً صلاتيه بالقصر الملكي. لا، لن أستطيع أن انتزع من الصبية الشركессية

ما في نفسها وأضع مكانه ما ليس فيها. لا يلمني أحد في هذا الأمر. أعلمْتني الكوتنيسة ماري – أنجليك عدم رضاها بتفصيل زَيِّ شركسي لأيسية، ولكن ليس هذا ما أهتم به بل هل ُتعجب الملكة به أم لا. ليس عندها تمييز بين الأعراق، ولكن إن لم يقبلوا ما فعلت لأيسية فإني سأصحابها وأعيدها إلى بلادها مهما كلف الأمر. إن سرقت ما سرقوه وأعدته إلى أصحابه فهل أكون سارقة؟" – نصحت جانيت – نيكول نفسها، ثم سخرت منها.

جاء الاحتفال الذي تنتظره طالبات الدير ومعلماته في الثلاثين من أيار عام 1704.

الربيع حلو وداعي دائمًا في باريس. والطبيعة جميلة جداً لأن اليوم آخر أيام الربيع، والغد بداية الصيف. والنسيم يحمل رواح الأشجار التي برممت، وتلك التي أزهرت، والأخرى التي أورقت. السماء صافية والنهار لطيف. والمنتظرون للملكة مرحون ووجوههم تطفح بالبشر. وملابس التلميذات جميلة وموحدة. وملابس المعلمات مختلفة غير أن كل واحدة لبست أجمل ما عندها. والمدعون إلى الاحتفال من أمهات وآباء وغيرهم من الأهل أنيقو اللباس كذلك. وجانيت – نيكول تلبس ثوبًا خمريًا ترتديه مرة أو اثنين في العام. وفي عنقها منديل حريمي أيضًا، وعلى الرأس قبعة وردية خفيفة.

أين إذن الري الشركسي الذي فضّلوا لشارلوت – إليزابيت أيسية؟ لا تلبسه عائشة الآن، بل تلبس كسائر الفتيات. وعندما يحين موعد إلقاءها الشعر وغنائها فحسب سترتدي ثوبها الشركسي الجميل وقعتها المطاؤلة الموشاة بخيوط الذهب والفضة، وجانيت – نيكول التي تنتظر الملكة هي من لا تنظر نحو عائشة الآن.

حين أُعلن عن وصول الملكة ظهرت العريتان الملكيتان من وراء المنعطف قبل أن يتاح للمستقبلين أن يحولوا أنظارهم نحوهما. وقبل أن تنزل الملكة من العربية الأولى أُنذلوا كرسيها الذهبي من العربية الثانية ونصبوه في الفناء في الظل المعدّ له.

ثم حين فتحوا للملكة باب العربية المزین بكتابات ذهبية وفضية، ودعوا ماري- تيريز الملكة إلى التفضل بالنزول أوما الجميع إليها إشارة احترام وهي تتحذّق مقعدها على الكرسي الذهبي. وكان على عين المقعد ويساره بعض النساء. ما استغرقتها عائشة لم يكن كرسي الذهب، ولا لباسها الملوثى بالذهب والفضة، ولا وصيفاتها الجميلات القائمات على رأسها، بل المقعد الوطيء الذي تسند الملكة قدميها عليه "وأنا حين تحل جدي ضيفة على أحد كانوا يجلسونها على أريكة وثيرة مريحة، ويحيطونها بالوسائل. ثم يضعون لها مثل هذا المقعد تحت قدميها وإن لم يكن من الذهب فيريحونها هكذا". وكتمت عائشة ألم الذكرى الذي عصر قلبها.

- يا بنات فرنسا العزيزات - خاطبت الملكة ماري - تيريز مستقبلتها. - أهئنكم يوم الاحتفال. وأدعوا الله أن تكون سعيدات، وأن تساهمن في جمال بلادكم.

افتتحت مجموعة من البناء الاحتفال بأغنية تمجّد الملك والملكة. ثم مرت مجموعة من الفنانات أمامها يعرضن رسوماتهن ويومئن إليها احتراماً. وعرضت مجموعة قطعة مسرحية أبطالها من الوحوش. وقد صفت الملكة لكل هؤلاء، وأمرت بتوزيع الحلوى عليهم. ثم رقصت بكل أدب مجموعة يرتدين ملابس ملونة، وعden إلى المقاعد المخصصة لهن. ووزعت الحلوى عليهم أيضاً.

عندما حان دور شارلوت – إليزابيت أيسبيه، وشخصت أمّاً للملكة بزيها الشركسي الجميل لم تُعرّفها الكونتيسة ماري – أنجيليك، حتى خادمتها صوفي لم تُعرّفها. وجعل الطبيب لاروش والأسقف بيير دو تانسين يتهمسان. وتأملت جانيت – نيكول الملكة وقلّبها يكاد يقفز من صدرها. ونظرت بطرف عينها إلى بيير، ولا تُعرّف لماذا خطر لها في هذه اللحظة الكونت شارل دو فيريول.

"الطبيعة جميلة، وملكتنا أجمل منها – تقرأ عائشة مقطوعة جانيت – نيكول، والجميع ينصلتون إليها وقد انقطعت أنفاسهم. – السماء عالية والشمس تشرق، وشمس ملكتنا أَدْفَأَ منها كلّ أقطار فرنسا تعيش في طمأنينة وسلام وحرية وفرح. ولما كان هذا كله بفضل ملكتنا الشمس فليبق دائمًا حارسنا!"

حين قرأت عائشة المقطوعة واضحةً سلسة صفق الجميع لها. ومن كانت من بين الحضور تصفق بحرارة زائدة عن الحد، ناسية حضور الملكة، هي الكونتيسة ماري – أنجيليك. وحين انتهت الملكة من التصديق طلبت إليها جانيت – نيكول:

- من هذه الصبية؟ زُيّها جميل، وهي جميلة جداً.
- هي صبية جاء بها من تركيا الكونت شارل دو فيريول، أيتها الملكة المعظمة.
- أهذه هي الصبية الشركسيّة؟ – أشارت الملكة إلى عائشة أن تقترب إليها. وكما كانت جانيت – نيكول علّمتها، قبّلت عائشة اليد التي امتدت إليها، جاثية على ركبّتها اليسرى دون أن تمس الأرض تماماً، محيبة بإيماءة من رأسها.
- ما اسمك يا حلوتي؟
- اسمي شارلوت – إليزابيت أيسبيه فيريول، يا ملكتنا المجلة.

- نعم، حقاً، أنت ابنة سفيرنا في فرنسا الكونت شارل دو فيريول. تلبسين ثياباً جميلة، وألقيني القصيدة إلقاء جميلاً. اذهب إلى قرينتاك الآن!

- سأغنى أيضاً أغنية يا مليكتنا، وسأعرض عليك مطرباتي. - حيت عائشة من جديد الملكة بالطريقة نفسها وانصرفت.

- إنها فتاة حلوة الوجه واللسان، إن كبرت فستكون زينة احتفالاتنا. - أتبعد ملكة فرنسا بكلامها الصبيحة الشركسيّة.

IV

كبير جسم أورخان وكأنه ليس ذاك الصبي الذي كادوا يرمون به من السفينة. وصار شاباً رائعاً. ومن نظراته ومن كلامه وتفكيره يتميز من أقرانه وكأنه ليس ابن الثامنة عشرة، وينسجم مع الأكبر منه سناً أكثر مما مع أقرانه. وهو صالح لأي مهمة توكل إليه، ومستعد لأن ينفذ أي شيء يُطلب منه. إن حقيقها فرح، وإن أخفق حزن لأخفاقه، وفكراً في سبب عدم تحقيقها وبحث عن طريقة نجاحها.

أهو عناد أم هو إخلاص للمهمة التي بدأ بها؟ هذه الصفات وغيرها، منذ طفولته وإلى الآن، صارت جزءاً من حياته شاء أم أبى. لاشك في صدق الحكمة التي تقول: المأساة تُغْنِي الإنسان، والمشقة تصقله. هذه الحكمة تنطبق بكمالها على أورخان. ولكن الجزء الثاني من الحكمة أصدق من الأول. قبل أن يفهم صبي السابعة العذاب الذي حل به صقلته سنوات الأسر الخمس. وفهم حلاوة الحرية. ولهذا كان قد هرب من الأسر في جزيرة كورسيكا، ولجأ متخفيًّا إلى سفينة سليمان. ولهذا أيضاً قال ملن أهانوه حين ألقى القبض عليه "لأنني تركي أعود إلى تركيا".

"الصراحة وقلع العين سِيَّان" أكان الصبي أورخان يفهم معنى هذه الحكمة. لم يكن أورخان يعرف إن وجدت مثل هذه الفكرة. ولكن قد يكون مِثْل الكلام الصريح الخالي من الكذب الذي قاله سليمان هو الذي صار أساساً للفكرة. وربما حمى فخري الصبي في ذلك اليوم لأنه كان تجسيداً لطفولة فخري. فتناسي مشكلاته هو، وأوصل أورخان إلى جزيرة قبرص وسلمه لأهله.

كان قد مضى على هذه الأحداث أكثر من أربع سنوات حين رجع أورخان إلى فخري زائراً ففرح فخري:

- أورخان، أخي الصغير، هذا أنت؟! – استقبل فخري فرحاً الشاب المشوق الواقف على بابه. – كنت أنتظر عودتك يوماً من الأيام. ولكن إن أردت الحق فليس الآن، بل بعد أن تتقدمني في السن وتتصبّح رجلاً.

- لم أُطّل مزيداً من الصبر – قال أورخان واثقاً من كلامه ومن تصرفه. – إن كنت على وعدك حين صحبتي إلى بيت أهلي وأقمتني فأنا إلى جانبك. فإن كنت واثقاً بي فقولك قولي، وفعلك فعلي.

- لا أحنت بوعدي. وإن سمعت نصيحتي فلن أقبل منك أيضاً أن تحنت.

فضلًّا معـي! كـيف أـهـلـك؟

- كلـهم بـخـيـرـ، وـحـمـلـوـيـ سـلـامـهـمـ إـلـيـكـ.

- وـعـلـيـكـمـ السـلـامـ، شـكـرـاًـ لـهـمـ.

- يـدعـونـ لـكـ لـيلـ نـهـارـ. لـاـ يـنـسـوـنـ مـعـرـوفـكـ نـحـويـ. وـأـنـاـ أـعـدـكـ أـلـاـ أـنـسـيـ. وـلـوـلـاـ

أـنـيـ قـادـمـ إـلـيـكـ مـاـ سـمـحـواـ لـيـ بـالـخـرـوجـ مـنـ الـبـيـتـ.

- عـلـىـ مـاـ فـهـمـتـ يـتـأـمـلـونـ فـيـ – اـبـتـسـمـ فـخـريـ رـاضـيـاًـ فـيـ قـرـارـةـ نـفـسـهـ – وـهـكـذـاـ

لـكـلـ مـنـاـ مـعـرـوفـ عـنـدـ الـآـخـرـ، أـرـيدـ مـنـكـ شـيـعاًـ.

- قـلـتـ لـكـ يـاـ كـبـيرـ إـنـيـ لـنـ أـفـصـرـ مـعـكـ فـيـ شـيـءـ.

لـمـ يـرـ أـورـخـانـ أـيـ تـغـيـيرـ فـيـ الـبـيـتـ الـذـيـ قـضـىـ فـيـ بـضـعـةـ أـيـامـ إـلـاـ السـتـائـرـ. كـلـ

شـيـءـ عـلـىـ حـالـهـ. فـخـريـ رـجـلـ نـظـيفـ جـداًـ، وـبـيـتـهـ كـذـلـكـ. تـنـصـتـ أـورـخـانـ

مـتـسـائـلـاًـ إـنـ كـانـ فـيـ الـبـيـتـ اـمـرـأـ، غـيرـ أـنـهـ لـمـ يـلـاحـظـ مـاـ يـشـيرـ إـلـىـ ذـلـكـ "عـلـىـ مـاـ

يـبـدـوـ لـاـ يـزـالـ فـخـريـ وـحـيدـاًـ"

لـاـ حـظـ فـخـريـ حـرـكـاتـ أـورـخـانـ فـقـالـ لـهـ باـسـمـاًـ:

- إـنـ وـافـقـتـيـ فـأـمـامـنـاـ الـلـيـلـةـ مـهـمـةـ نـسـمـيـهـاـ: الـعـشـاءـ. نـذـهـبـ إـلـىـ الـمـطـعـمـ الـمـجاـوـرـ،

فـنـأـكـلـ بـحـجـةـ قـدـومـكـ مـاـ طـبـخـهـ غـيـرـنـاـ. أـوـ نـشـمـرـ عـنـ سـوـاعـدـنـاـ وـنـطـبـخـ لـأـنـفـسـنـاـ.

- الاثنين جائزان. ولكنني أفضل الخيار الثاني. أكلت تواً في الميناء.

- أكلت وأنت تعرف إلى أين ذاهب، هذا ليس تصرفًا صحيحاً يا أخي الصغير. - قال لأورخان أخيه الصغير عاتباً ثم صارحه بما يريده: - أنت أشعّل النار، وأنا ماضٍ إلى الدكانة المجاورة.

- أنا معني ما أشتري به طعاماً، أعطاني إيه والدي.

- إن كان معك فاحتفظ به. لا نقود تفيس عن الحاجة. إن أنفقت بعض المال على عشاء الليلة فلن أفتقر. - ولحظة خروجه من الباب تذكر شيئاً فتوقف: - أورخان هل رأيت بالمصادفة سفينة سليمان في الميناء؟

- لم أرها ولكن سأله عنها؛ قيل لي: توجهت إلى الإسكندرية. وما تزال فيها.

- لم يكذبوا عليّ إذن، ما سمعته صحيح. ستتجدد الخطب والقداحة في الموقد. وأنا راجع حالاً.

لم يستغرق شيء لحم الخروف سوى انتظار اشتعال الحطب وتحوله جمراً. وحين جهزت المائدة، وتناولوا بضع لقمن، لم يستطع فخري إلا أن يسأل ضيفه:

- لماذا يا أورخان تسأل عن سفينة سليمان إن لم يكن سر؟

- ليس عندي ما أخفيه عنك: لولا أنت يا فخري كان رماني في البحر. وأشد ما آلمني أنني أنا التركي لم يفهمني تركيّ!

- أورخان يا أخي الصغير! - ابتسם فخري في وجه الشاب وإن كان قلبه ينتمل: - لن تصلك إلى التفاحة التي في أعلى الشجرة ولو وقفت على رؤوس أصابعك. من الذي سرقك؟

- تركيّ.

- ومن أخذك إلى تركيا وباعك إلى حملة الصليب؟

- وهؤلاء أتراك. والمركب كان تركيّاً، ومن باعني كان تركيّاً.

- وكيف تريد إذن أن يفهمك هؤلاء؟ - وسأله ثانية متعجباً من طريقة تفكير الشاب، منتظرًا كيف ستكون إجابته:
- لو كان الأتراك كلهم متشابهين يا فخري - احمرت وجنتا أورخان ثم تسرب الدم منهمما - ما كنت اشتريتني من ذلك التركي! - ثنى السكين الفولاذية بعض مرات كمن يؤجج حزنه أو يطفئه، ثم سوأها.
- قال فخري كيما اتفق كأنه يريد انتشال أورخان من الكآبة التي تسبب فيها:
- ثم إن ما دفعته لأجلك كانت نقوداً فرنسية، لا تركية.
- وجد أورخان ما يعلق به على كلام فخري:
- لم يختبر الإنسان أظلم ولا أقذر من النقود كما يقول والدي. يبيعونك بما ويشترونك. ثم إن ما أستغربه هو أنها لا تميز بين غني وفقير.
- والدك يقول هذا لأنه يشعر بالألم وبالرجمة. - تنهد فخري وقد تذكر سنوات أسره في طفولته، ثم سنوات إجرامه، وبعد قليل أكمل كلامه: - أنت تفكك بطريقة صحيحة في الموضوع مع أنك ما تزال شاباً. ولكن لأنني فهمت الآن ما فعلته وما لم يكن عليّ أن أفعله أقول لك: الأفضل هو أن تعيش حياتك دون أن تمارس الظلم، كما يقول قرآنا المنزل من الله. نعم، نعم يا أورخان لا تتعجب، لم أعش حياتي نظيفة من الظلم، سواء مني أم عليّ. وكل هذا بسبب أنني أعرف الشركسية.
- وأنا بالإضافة إلى لغتي التركية أعرف الفرنسية... - أسرع أورخان بالتصريح بسبب ما سمع.
- حسنٌ أنك تعرف الفرنسية، ولكن لا تستغله في الشر. أنا كثيراً ما أجبرت من قبل الجرميين الأتراك على استغلال اللغة الشركسية التي تعلمتها من الصبيان

الشراكسة خلال فترة استبعادي. وسببوا لي عاهة أبدية... حسناً لا داعي أن أروي لك، فيما بعد، لاحقاً.

برد الطعام على المائدة قبل أن يُنهي فخري وأورخان حديث الذكريات المؤللة الذي تبَّأّت بينهما فجأة. وسأل أورخان وقت استعدادهما لل موضوع قبل صلاة العشاء:

- أنت تقول هذا ولكن يا فخري ألم تنفع لغتك الشركسيّة تلك الصبية الشركسيّة التي ذكرتها؟

- نعم، ولكن لا أدرى ماذا استفادت. وما كسبتُه من الترجمة لها افتديتك به..
كيف سنميز الآن النتيجة؟

- لا أعرف كيف نميز إلا أن نقول: باعوا واشتروا.

هذا كلام سهل إن تتبعه جذرها. وربما كان جواب سؤالك عن سفينة سليمان في هذا. ولنؤجل هذا الموضوع أيضاً يا أورخان. الآن لتووضأ ولنقف طاهرين جسماً وقلباً أمام الله الذي يتولّ إليه الكثير من الناس وهو لا يتولّ إلى أحد. ولندع إليه أن يغفر لنا ذنبنا ويدركنا دائمًا أن نفعل الخير.

نام فخري وأورخان بعد الصلاة ، كلّ في غرفة، وقد تقارب قلباهما. أحدهما، وإن شهد في طفولته العُسر فقد كان في أول الطريق، والآخر قطع نصف طريق الحياة، ويعيش وهو يعرف أنه سيعيش وحيداً ما تبقى. وكلّهما يفكّر في الثأر. ولكن لم يتكلما صراحة في كيفية ونقطة البدء فيه.

يعدُّ أورخان الإهانة التي أُلْحقت به في سفينة سليمان أصعب من سنوات أسره في كورسيكا. ولو لا فخري كان منذ زمن طويل طعاماً لوحش البحر. يسأل عن سبب ظلم الإنسان ولكن هل سيجد جواباً لسؤاله؟ كما أن الإنسان ظالم فكذلك عظوف وطيب وخَيْر. وليس المواقف التي اختبر فيها أورخان خلال

حياته القصيرة قليلة. يفكر أورخان في ما كان والده يقول "لولا أن الخير وفعله أكثُر في الدنيا لانتهى الإنسان منذ زمن طويل مع الظلم" وفي كل مرة يتذكر الناس الطيبين أمثال فخري الذين ساعدوه. لماذا إذن يتجاور الخير والشر في كل مكان. يفكر أورخان في الصبية التي روى له أخبارها فخري أكثر من مرة. "ما فعلوه بها عجيب، بحجة أنهم يفعلون بها الخير، اشتروها وأخذوها إلى بلاد أخرى. أنا مهما قاسيت رجعت إلى مسقط رأسي بفضل الرجل النبيل فخري. والصبية الشركية؟ أتجد في نفسها القوة فتعود إلى بلادها؟ يا إلهي أعط تلك الصبية قوة حلاوة الحرية! وأرسل لها شخصاً في قلبه الرحمة. قد يكون هذا الشخص فخري. قد يكون هذا هو السبب في أنه لا ينقطع عن ذكرها. أم لأنه ساهم في مصيبة الصبية كما يقول فخري نفسه.

لم تكن أفكار فخري اللامتناهية بعيدة عن أفكار أورخان. ولكنها كانت تفترق في مفارق الطرق فتجرى يعرف كل الآخر ويستيقظ إليه: ما فعله به صديقه السابق عصام الجرم، ومؤسسة الصبية الشركية، والكونت شارل دو فيريول سفير فرنسا، والباحث عن العدالة الشاب التركي أورخان، وباختصار: إن راعيت إحساسهما، الكبير والصغير، بالظلم فالذى أمامهما هو ثأر للمظام التي تعرض لها. ومع أن أفكار فخري كانت في تركيا، وتصل إلى بلاد الشركس، ومصر، وفرنسا، فإنها تؤول أخيراً إلى الشاب أورخان. وكان يتساءل متراجعاً في شأن إقحامه في أمره السلبية: "أورخان يبحث عن أهاناه سليمان والرجل المُشعر الساعدين اللذين أبحث أنا أيضاً عنهم. الشاب جاءني قائلاً "قولك قولي، وفعلك فعلي" فإن قابلته بكلماته نفسها؛ ألا يجب أن أطلعه على سري كله؟ لا، لا، لن أطلعه على سري. لا يزال في مقتبل العمر. ثم ماذا يمكن أن ينفعني إن رويت له؟ لم نصل بعد إلى مرحلة يمكن أن تتبادل فيها الأسرار. لا

يجوز استعجال الأمور التي تحتاج إلى وقت. إن تبين لاحقاً أن في قلب هذا الشاب رحمة فقد يكون أمله في آخر عمري. ولكن هل من الصحيح أن أوقفه على أحقاده وأغريه بما لأنه سليم من العاهات، وفي كامل صحته؟ لا يزال طري العود وسيقابله في الدنيا الكثير من الخير والشر. ومسؤولية عائشة التي تفهم مأساتها وأشفق عليها على من تسبب في مصيبيتها. وإن قاسمني سرّي دون أن يتدخل فيه قنعت به. ويعرف أورخان أننا اشترينا بالمال سليمان والرجل المُشعر رفيقه، المحرومَين من كل إنسانية وكرامة، وسخرنا منهمما، فلماذا لا يزال أورخان يلاحقهما؟ وما في ذهني نحو سليمان والرجل المُشعر وعصام ثالثهما في القذارة، أمر آخر. وإن كنا سُيخلص أحدهما لآخر فالذى علينا أن نختتم به هو قضيتي وقضية عائشة بالتوازي..."

- أين وجهتك أيها الضيف؟ - مع أن فخري كان يتوقع وجهة أورخان الذي كان يستعد للخروج بعد تناول الشاي فقد سأله.

- أفك في استطلاع الميناء، ربما رست سفينة سليمان الليلة.

- هذا ممكن، ولكن أسألك بعدما أعدت التفكير في أمور كثيرة: ماذا ستفعل بسليمان؟

- أتسأل عن هذا يا فخري؟ - استغرب أورخان السؤال وأجاب عن المسألة التي عزم عليها: - سأفعل به ما كان ينويه لي وحُلّت أنت دونه. وليس وحده بل ذلك الآخر الذي كان يهجرني من قبتي. لا يجوز إبقاء أمثال هؤلاء أحياء. ولكن قبل أن أرهق روح ذلك المُشعر أريد أن أُقرّه باسمه.

- وما شأنك باسمه؟

- يجب أن تعرف يا فخري اسم الرجل الذي تقتلته واسم أسرته وإلى أي عرق ينتمي.

تنفس، أو خان عميقاً:

- کما ترید یا فخری!

إن فهمتَ الموضوع هكذا فأمرُّ جيد — توقف فخري قليلاً وأردف: للشراكسة قول مأثور: "الهان يجد وقتاً للثأر" لا أقصد بهذا أن نحمل سليمان وصاحبـه. أتوقع أن عصام شريـكـهـما، وهذا ما أظن أنه سيفـسـحـ لناـ المجالـ للانتـقامـ. ولن يخـطـوـ خطـوةـ واحـدةـ دونـ علمـيـ لأنـ عنـديـ أشـخـاصـاًـ مـكـلـفـينـ بمـأـفـقةـ سـفـنـةـ سـليمـانـ.

- فهمت، ثق بي؛ ولكن ألا يجوز أن أراقبهما من دون أن يشعرا بي؟

- لنمش، لا داعي أن تجلس.

- إلى أين؟ إلى الميناء؟ - نخص أورخان الآن متھمساً أكثر من ذي قبل.

- لا، سندھب للقاء شارل دو فيريول السفير الفرنسي.

- إلى من اشتري تلك الصبية الشركية؟

– نعم، هذا رجل متميز، سأقدمك إليه وتصبحان صديقين.

- لا أعرف كيف سأصبح صديقاً لمن اشتري إنساناً.. - تغيرت سُمعة أورخان.

— لا تخف! — ابتسم فخري، ليس هذا الرجل كما تتصور.

- لا، لست خائفاً. - كان أورخان مستعداً للجواب. - لا أخاف الآن إلا من الله. - "فخري يتصرف أحياناً بطريقة غير مفهومة. يجاهه من يشترون الناس، ويساند من يُهان. ثم يقول لي إنه سيعرفني شخصاً اشتري إنساناً فأهانه" أضاف أورخان بينه وبين نفسه، ثم قال بصوت أطفف لضائقه: - إن كان رأيك هكذا فسأمضي معك، لن يأكلني.

- إن وصل الأمر إلى هنا يا أخي الصغير سحبت سيفي أنا أيضاً - يوافق فخري أورخان بصوت أثبت، مع شيء من العتاب، - كيف ترفض أن تتعرف شخصاً فعَلَ خيراً فاشترى؟! أعنديك كثير من الأصدقاء من سفراء الدول؟ وبهذه المناسبة سأطلعك على قول مؤثر آخر للشراكسة وأدعوك تفكير فيه "ما تراه العين يساوي ما في العقل"

- ليس رضأً لما اقترحت عليّ يا فخري "كأننا نحن الترك ليس عندنا أقوال مأثورة حتى تعلق فخري بأقوال الشراكسة؟!" قال وفي ذهنه هذه الأفكار: - لأن هناك طرقاً كثيرة لفعل الخير سمعت كثيراً من أهلي يربونني عليها، وأنت تضيف إليها. لنمش! ولكنني أخrys وأصم وإن كنت أعرف الفرنسية.

- ليس في الأمر إجبار يا أورخان. - ولكن لما كان من نزوره يتعلم بعض الكلمات التركية فاحذر وأنت تنصت إلينا.

- حسناً فعلت بإطلاعي على هذه المعلومة. - شعّت عيناً أورخان دفناً كما لم تكونا صباحاً. - إن كانت له صلة بالأترارك فليس رجلاً سيئاً على ما يبدو. وبشأن ما حذرتني منه فأنا أخrys وأصم طوال استماعي لكتما، بل أجعل نفسي أعمى إن أردت!

- من هذا الشاب الرشيق المتناسق؟ - سأل شارل دو فيريول فخري. ولم يكفي بجدا، بل سأله الشاب الجالس أمامه بالتركية: ما اسمك؟

- أورخان.

- اسم جميل. وما العلاقة بينك وبين صديقي فخري؟

- قال أورخان بالفرنسية: أنا الأخ الأصغر لفخري وإن لم تلدننا أم واحدة.

- أتعرف الفرنسية؟ - جعل الجواب بالفرنسية شارل دو فيريول يشب من مكانه. ومن أين تعلمتها؟ تغلب عليك اللهجة الكورسيكية.

- نعم، تعلمت لغتكم مرغماً في كورسيكا.

- كل ما كان إجبارياً سيء دائماً. تحدث مثل هذه الأمور في عالمنا، وكان الأفضل ألا تحدث. ولكن لستنا نحن المسؤولين، بل الله.

- لا ذنب لـ "الله" المسلمين، ولا لإلهكم في هذا. - بدا الغضب على وجنتي أورخان. - الذنب ذنب من سرقني ومن اشتراكي. ما أشد العذاب الذي سببه هذان لي ولأمي وأبي ولكل أهلي !

نبهت الكلمات المفاجئة لأورخان شارل دو فيريول وفخري فرفعا رأسيهما. وجعل كلاً منهما ينظر إلى الآخر بطرف عينه. وسبق السفير الفرنسي فخري فقال متوجناً الجفوة التي نشأت للتو، عائداً إلى الموضوع الأول:

- نعم، صحيح، علاقنكم حسنة ولو لم تلذكم أم واحدة. خير للناس أن يتتصادقوا من أن يتعادوا. لماذا على الناس وعلى الدول أن تتخاصم وتحارب؟ هذه مهمة في تركيا، وما يأمله ملكتنا العظيم مني. وأينما كنت أمارس هذه المهمة الإنسانية. أعمل جاهداً كي لا تتشعب نزعات بين الناس. وهذا لا

أتکاسل عن تعلم لغات الناس الآخرين. وها أنا الآن أتعلم الروسية بكل جدّ.
ولكن هذا ليس إجبارياً، يفیدني في هذا "کانتيمير ديميتري".

- ومن هو؟ - سأل فخري الذي يسمع هذا الاسم للمرة الأولى.

- لا تعرفه. جاء مثلي إلى تركيا منذ عهد قريب. إنسان ممتاز. نجتمع مرة على الأقل في الأسبوع، فيعلمني بعض الكلمات. وإن تعذر حضوره أرسل إلى بعض موظفيه. وأفضل شيء يا صديقي العزيز فخري هو أن أحصل على امرأة من تلك الديار، لا يهم إن كانت جميلة أم قبيحة.

- وإذا كانت صربية؟ يقال إن الصرب والروس تتطابق لغاتهم. - قال فخري ناسياً حضور أورخان ومعرفته الفرنسية، معتبراً الحديث عن النساء مدحّاً.

- والنساء الصربيات في إسطنبول كثيرات. ولكن لما كانت لغتهن مشتقة من الروسية فهن يشوهنها. - وأردف بعد قليل وإن كان كلامه سبب نوع حزن - يقال إن النساء الروسيات جميلات ولكن لا أراهن في أسواق النخاسة.

أصادفت واحدة منهن يا فخري؟

- لا، لا أيها الكونت - لم يدع فخري السفير يكمل كلامه. - منذ زمن بعيد تركت هذه المهمة، وأنت تعرف هذا.

- هذا أمر سيء - يقول شارل دو فيريول ما يهمه هو - لو أنك حصلت لي على امرأة روسية بيضاء لعلمتني اللغة جيداً. ثم أتدرى ماذا سأقول لكمما: لو تعلمت لغتهم لربما كان ملوكنا أرسلني سفيراً إلى بلادهم.

ما إن ألقى فخري نظرة بطرف عينه على أورخان الذي كان يحمر حيناً ثم يشحّب ثم يسودّ، حتى كان الآخر سأله الكونت ما كان يتوجّسه فخري، فأحرقه سؤاله:

- إن كنت تحب اللغات هكذا أيها السفير فلماذا لا تتعلم الشركسية؟

- أفلت الشركسية؟! - أجاب شارل دو فيريول متمهلاً على السؤال الذي لم يتوقعه، مفكراً، و دون أن يشعر محدثه أن تحت السؤال أمراً، وقد غلب عليه احتقاره، أداءً للواجب فحسب: - وما حاجتي للشركسية في عملي؟
- ألا تكلم بها عائشة؟! - لم يتمالك أورخان الشاب المتورد نفسه غضباً.
- ومن هي عائشة؟! - سأله شارل دو فيريول ثانية وكأنه لم يفهم الاسم الذي يُطلق بالتركية؟!
- يتكلم أيها الكونت على شارلوت - إليزابيت أيسبيه. قال فخري ومهماً جدّه أورخان بسرعة. - لا يزال أورخان شاباً؛ سأجحه! ما يزال متأثراً بالمية التي كان فيها قبل سنوات. - المؤس لا يميز صغيراً من كبير... - غمغم أورخان لفخري غير عابئ إن كان السفير الفرنسي سيفهم أم لا.
- نعم، صحيح.. - أنهى شارل دو فيريول كلامه موافقاً أورخان، موجهاً دفة الحديث إلى حيث يريد: - لم تقل ما أؤاخذك عليه. يحدث مثل هذا كثيراً - ثم ضحك وأكمل: - إن كنت تقصد شارلوت - إليزابيت أيسبيه دو فيريول فهي صارت فتاة فرنسية منذ زمن بعيد. وأنت شاهد على هذا يا فخري.
- حين ذهبنا بها إلى فرنسا كان فيها شيء من "الروح الفرنسية" إن شاءت أم أبنت. - قال فخري دون حماسة - غير أني لا أعرف ماذا جرى بعدي.
- ماذا قلت لي يا فخري عما يقول الشراكسة عن الولد الذي لم تلده؟
- "الولد ليس ملن ولده بل ملن ريه"
- لن يقول الشراكسة أصدق من هذا الكلام! - صاح شارل دو فيريول، مؤكداً سفارته بإتقان، وتتابع دون أن يغير رأيه، باحثاً عن خاتمة للموضوع الذي لن يسمح لأحد بالتدخل فيه: مهما أمعنت النظر في شارلوت - إليزابيت أيسبيه فلن تكتشف أنها كانت فتاة شركسية. لو لم نضف إلى شارلوت - إليزابيت

الاسم الفرنسي الجميل الاسم الشركسي الصعب النطق "أيسيه" يا فخري
ل كانت نسيت من زمان أصلها الشركسي.

- لا شأن لي بهذا الموضوع يا كونت. - تملّص فخري ما قيل له، وشهد على
أصل الموضوع: - ألا تذكر كيف لم تقبل أيسيه ألا يكتب اسمها الشركسي؟
- أذكر... - برأ شارل دو فيريول نفسه وإن ظهر ندمه على ما قال: - كنت
أذنبت بحق شارلوت - إليزابيت لو لم أفعل هذا... أقول لماذا ما نزال جالسين
وقد حان موعد الغداء! - "ما شأنكم بقضايا الأسرية" قال في نفسه، غير
أن فخري وجد ذريعة بمهارة.

- شكرًا يا كونت. ينتظروننا في مكان آخر للغداء ولذا لا نستطيع الإخلال
بالموعد. - نمض فخري. - لنمش يا أورخان. لم أتوقع أن نطيل جلوسنا كما
فعلنا. كنا في طريقنا فأحبيت أن أعرفك على من صار أخي الأصغر.

- شكرًا، سررت جداً بلقائكم. - نمض الكونت مخفياً ارتياحه لانصراف
الضيوف، ولم يستطع إلا أن يمدح نفسه: - من العجيب أنكم وجدتموني في
البيت لأني مشغول بقضايا دولية لا حصر لها. أورخان هذا الشاب الذكي،
نظر إليه نظرة رضا، وابتسم له، وربت على كتفه رغم أنه كان ساخطاً عليه -
شكراً على أنك قدمته لي يا فخري. إن احترتم يوماً وأخبرتموني مسبقاً
فسنجلس مزيداً من الوقت معاً وسنتحدث. نسيت يا فخري؛ توقف قليلاً:-
أعاد فخري إلى ما وراء الباب وهمس في أذنه بحيث لا يسمع أورخان: - أنت ولا
واثق من هذا الشاب؟ مهلاً، لا تقل شيئاً. حيل إلى أنه لا يطيقنا، لا أنت ولا
أنا. أظن أنه صار أذكي مما يجب في الأسر. من الأفضل الابتعاد عن كل
الأذكياء.

"جلست ساعة كاملة أستمع إلى كلام لا معنى له من شاب ثرثار. — اهتاج شارل دو فيريول لاضطراره إلى أن يكظم غضبه، ولم يعد يجد مكاناً له على أرض الغرفة. يذرع أرضاها كمن خرج من جلده عابس الوجه، محمر العينين. لماذا يصبحه فخري في تنقلاته؟ أمن أجل أن يتنصلت علي أم ماذا يبغي منه؟ ما شأنكم بها حتى تسميا شارلوت إليزابيت بعائشة حيناً وحياناً بأيسية؟ إن كنت أنا من اشتراها ورباها، ومالكها فأنا حر في ما أعمل بها وفي تسميتها. لا يجوز أن تُطعم الأتراك في صحبتك. يسيرون إليك بما لا يليق بك. يساوون أنفسهم بي فيأتون وقت يشاؤون دون إعلامي.."

— يا ديستان! — نادى شارل دو فيريول السفير الفرنسي حاجبه وعنقه: — كم قلت ألا تفتح الباب لمن يأتيني دون موعد؟!

تمشى شارل دو فيريول ظهراً وأراح جسده ونفسه. وارتدى بقلبه إلى فرنسا، وإلى باريس تحديداً. ومر أمام مخيشه شارع نيف- سان — أوغستين، وطفولته، وشبابه، والأماكن التي قضى فيها سنواته التالية: القصر الأبيض الكبير، وآخر السين الذي يقذف ضفتيه بالأمواج، وكاتدرائية نوتردام، وبراري الإليزية، والغابات المقابلة للقصر، والمطاعم — المشارب على الأزقة المتفرعة من الشارع الكبير، والساحات المستديرة المتطاولة، وقصر فرساي، ومستراح تريانون يزدحم بالمتزهين. وحين ألقى نظرة على سان- كول ورأى بين الفتيات شارلوت إليزابيت أيسية عَصَرَ الأَلْمَ قلبها: "شارلوت إليزابيت اكتمل نوها الجسدي غير أنها ما تزال فتية. وجانيت — نيكول التي في ريعان الشباب ولم تمتد إليها يد رجل؛ ما أخبارها يا ترى؟ يحيّل إلى أنه يحدث لي عَرَضٌ لا أفهمه. ولا يجوز أن أطلع طبيبي هنا على الأمر. لاروش الطبيب الذي طال غيابه والذي أنتظره هو من سيفهم سبب هذا الصداع..."

قطع صوت فتح الباب أفكار الكونت على أرض الغرفة، وأخبره حاجبه:

- لاروش أيها السفير!

- ومن هو لاروش؟ - لم يفهم شارل دو فيريول ما قيل له في البداية، ثم حين
للح الداخل استقبله بذراعين مفتوحتين كما يفعل الصّبيان: - لاروش، هذا
أنت؟! جعلتني أنتظرك شهراً كاملاً!

VI

في تلك الساعة نفسها جرى حديث قصير بين فخري وأورخان.

- احضر يا أورخان من كلامك ومن أفعالك! - نصخ فخري أورخان. - من

الآن لا تتدخل في حديث الأكابر منك سنًا، سواء أعجبك أم لم يعجبك!

- فهمت يا فخري. لام أورخان نفسه دون انتظار بقية الحديث.

قلق فخري لعدم رجوع أورخان الذي كان يتضرر كل يوم سفينه سليمان فتوجه

ُقبل المساء إلى الميناء. كانت السفينة التي انتظروها أسبوعين ليلاً ونهاراً راسية

تتقاذفها الأمواج. ولكن أورخان هو الذي لا يظهر. وليس وحده بل

الشخصان اللذان كلفهما فخري بمراقبة قدوم السفينة. شمس الصيف الحمراء

الضخمة تهوي إلى الغرب، ومخاوف فخري الساخنة تعلو في صدره "أيمكن أن

يكون أورخان ركض إلى في البيت لإخباري؟ إن فعل هذا فالأمر حسن. ولكن

أين هما الآخرين؟ أيمكن أن يسرعا إلى في البيت أيضاً؟ ليس صحيحاً، يجب أن

يبيقي أحدهما هنا. أظن أنه حدث لهما سوء"

دار فخري حول السفينة السوداء بضع مرات. ولكن لم يجد دليلاً على مخاوفه.

كلّ يقوم بعمله. يفرغون السفن، وبائعو السمك على الضفاف. والصبيان

بائعو الماء والشاي لا يهدؤون. - تعلو أصواتهم في كل مكان. وحين لم يظهر

من ينتظركم نظر فخري إلى حيث ترسو سفينه سليمان مدركاً أن في الأمر

سوءاً. لم يتغير فيها شيء. تتحرك في موقعها وتحتر، ولم يستطع فخري إلا أن

يسأل أحد الصبية بائعي السمك رغم أن قلبه كان في البيت:

- ألم تصد إلا سمكة واحدة؟!

- وكيف تصيد بعد المشادة التي جرت هنا؟... - أجاب الصبي دون النظر في وجه محدثه. - مهلاً مهلاً، السمسكة تسحب السنارة... - وبهارة سحب السنارة ومعها سمسكة سمينة.
- من الذين تشاورو؟ تغير لون فخري. - وما يُدرِّيني؟ شخص واحد كسر أنوف الثلاثة ومضى.
- وهؤلاء الثلاثة الذين تتحدث عنهم؛ أين يمكن أن يكونوا؟
- وما قيمة الرجال الذين لم يستطعوا الوقوف في وجه رجل واحد؟! حملوا زميلهم الجريح وانسحبوا.
- وهل جرح هذا الشاب بليغ؟... - تلهف فخري مدركاً أن الجريح هو أورخان.
- ولماذا علقت بي تمنعني من الصيد؟ - صرخ الصبي غاضباً - أتعرف كم شخصاً في البيت ينتظرون صيدي؟
- صحيح، صحيح. ساحمي. وهذا تعويض إشغالك. - ونقد الصبي ليرتدين وانصرف.
- حين رجع فخري إلى البيت تبيّن أن مخاوفه في مكانها: كان أورخان جالساً ترجمة الإهانة التي لحقت به، ويده اليسرى معصوبة، ووجنته مسودتين تحت الأهداب.
- كيف هو جرحك؟ سأله فخري كأنه مستهين بجرح أورخان. ثم ابتسם.
- ليس جرحي مهمًا، مجرد طعنة في اللحم، ولكنني أشعر بالعار لهروب عصام منا.
- ومن أين تعرف أنه عصام؟

- حين ناديت باسمه وأنا ألاحق من خرج من سفينة سليمان من أشك فيهم التفت نحوي. وفي اللحظة نفسها أسرع إليّ شخصان لا أعرف من أين جاءا، ودون أن أجد فرصة لل العراق فعل بي ما فعل وهرب.

- وهل جرّهما مثل جرّك؟

- لا، هذان سحاباني من مكاني وجاءا بي إلى بيتك على أمل أن تكون فيه.

- لم تتصرفوا ثلاثكم على نحو صحيح. - تنهد فخري وختم" - جرى ما جرى ولن نستطيع إصلاح الأمر الآن. أما قلت لك إن عصام من أصحاب سليمان؟ أرني يدك لحظة. إن لم ينكسر شيء من عظامك فسأشفيه لك في أسبوع".

VII

"إذا أقام الضيف ثلاثة أيام صار جزءاً من الأسرة" ما يجعل هذا الكلام صحيحاً ليس أمثال لاروش. وهو يعالج آل فيريول منذ أكثر من عشرين عاماً. وهو من جيل الكونت شارل دو فيريول، وأكبر من أوغستين – أنطوان بثلاث سنوات. وكان أبوا الكونت عميد الأسرة وزوجته على قيد الحياة حين تسلم هذا المنصب: طبيب الأسرة. وحضر عرس ماري – أنجيليك. وحضر مولد ابنيها. وباختصار: ما من سرّ لا يعرفه من أسرار الأسرة. وقد أجهض الطفلين اللذين حملت بهما كلودين – ألكسندرین دون أن يعرف بالأمر غير ماري – أنجيليك والطبيب طبعاً. – والإجهاض الثاني جرى قبل أن يأتي إلى تركيا ليس بوقت قريب. ويعرف من أسرار ماري – أنجيليك خمسة من هذا النوع لا يعرفها زوجها: اثنان كانوا لزوجها، وثلاثة لعشاقها.

قضى لاروش الأسبوع الأول من إقامته في إسطانبول متعجبًا من كل شيء: مما يسمع، وما يرى، ومن الشوارع والأسواق والمقاهي والدكاكين وملاعب الراهن والحمامات و محلات التدخين والملابس والحلويات والحمير والجمال واللغة التركية، وما يسمى المشرق. وفي الأسبوع الثاني حين لاحظ شارل دو فيريول شيئاً من الملل على وجه ضيفه سأله:

– أمللت وما كدت تخط رحالك في البلاد؟

– لا ياكونت، إسطانبول جميلة ورائعة. – وما في قلب لاروش على لسانه لا يسمح بإغلاق فمه: – أرى شيئاً عجياً لم أر مثيله في حياتي. حتى لو يكن إلا قصر توب – كاب السلطاني، والمضائق... ولكن أقول لك: أشتاق إلى باريس، ربما لأنني ولدت فيها.

- وأنا ولدت في باريس، فرنسي مثلك، ولكن أحب المشرق، ولا أشعر بالملل في إسطنبول.

- لأن تغيير البلدان من صلب عملك بصفتك سفيراً يا كونت.

- هذه المهنة التي تتكلم عليها لا تولد مع الإنسان يا دكتور. نحن لا نخلو من شوق لأحد سأل شارل دو فيريول فجأة دون مناسبة: - إذن كيف حال شارلوت - إليزابيت أيسبيه في باريس؟

- لا تدعنا نقارن أنفسنا بشارلوت إليزابيت أيسبيه ونحن، أنا وأنت، عشنا أكثر عمرنا. لا تزال شارلوت صبية.

تغير لون شارل دو فيريول لما سمعه. وبدأت عيناه تتلونان بالأزرق والأصفر. ونحض ورأسه يهتز وأسع إلى النافذة، ونهر جليسه بصوت قاسٍ: - بعد الآن يا لاروش لا تقسني إليك بالعمر! - ثم أردف بكلام أقسى من سابقه: - ستفسدون أخلاق شارلوت - إليزابيت بمثل هذا الكلام الذي لا معنى له ولا حاجة إليه. ماذا خاطت لها جانيت - نيكول؟ ثوباً شركسياً؟ - ثم سأله بأسلوب ساخر: - ألا تزال جانيت التي تسلب الألباب بعينيها على امتنانها؟

منذ اليوم الأول لوصول لاروش إلى إسطنبول تكلما على هذه المسائل وغيرها. وكان قد سرّ للثوب الذي خيط لعائشة ولم يعلق عليه كما فعل اليوم. وامتدح جانيت - نيكول. وكرر الحديث عن جمالها مراراً. وكان راضياً بالكلام الحلو الذي وجهته الملكة إلى عائشة واعتبره مدحياً. والآن، بعدما مضى أكثر من أسبوعين، ماذا يقول شارل دو فيريول عن هذه الأمور؟ ولاحظ لاروش ارتخاف أصابع شارل دو فيريول واحتلاج عينيه. وكذلك كانت عضلة ساق رجله اليسرى. وأحياناً يرتفع رأس كتفه الأيمن وينخفض. "الأفضل ألا تقول شيئاً له

الآن. الأرجح أن في رأسه خللاً لا يتبه إليه هو... ليست هذه أول مرة لاحظ عليه فيها هذه الأعراض... ما يحتاجه هو مهدئ. وإن لم تعالجه من الآن فسيجلب لنفسه العار، ولنفسه. من أين مصدر مرضه يا ترى؟ لأنه بلا أسرة أم لتبدل نسائه؟"

- لماذا لا تقول شيئاً يا لاروش؟ - ترك شارل دو فيريول النافذة الآن وكان شيئاً يحدث له. ثم عاد إلى مجلسه، وأجاب نفسه بنفسه: مارأيك منذ زمن بعيد لم تتكلم في هذه المواضيع. إذن سأصارحك أني لست راضياً عليك، يا لاروش لا تؤاخذني، سأكلمك بصراحة. أنت مخلص لزوجتك مثل أخي أوغستين - أنطوان لا تحيد بنظراتك عنها؟ إن كنت هكذا، وتحرم نفسك من هذه الدنيا المفتوحة أمامك فأنت مجنون. صاح بحماسة: أمثالكما من يشيع تعبير من نوع "باريس، يا باريس، إستانبول يا إستانبول!" ثم لان قلبه وصوته:- سأخذك إلى دار بعاء ممتازة دون أن تخطو خطوة خارج إستانبول؛ أفهمت عليّ؟

- نعم فهمت، ولكن...

- حين أقول لك شيئاً لا تستدرك بـ "ولكن"! إن كنت تخجل مني فسأطلب من فخري اصطحابك. لا، هذا لا يناسبك. بل سأطلب منه أن يرافقك صديقه أورخان.

قضى لاروش بضعة أيام لا يفهم ما جرى للسفير شارل دو فيريول ولا تأويلاً له. ثم فكر في طريقة لمعالجه دون أن يدري مريضه. فاغتنم فرصة صحو مزاج شارل دو فيريول يوماً وسألته:

- أيصفد كثيراً أن ترهقك أعمال سفارتك؟

- أتسأل عن هذا؟! ألسنت كل يوم في هذه المشكلة؟ أجاب مرتاحاً لسؤاله عن عمله. - ليس سهلاً أن تكون بين دولتين توافق بين آرائهما ومصالحهما. إن كنت عاقلاً أمكنك حلّ كثير من المشكلات - ثم سأل مخمناً ما في قلب لاروش تجاهه: - ما الأمر يا دكتور؟ أتعرف دواء يُسسيني تعبي؟
- نعم - أخرج حزمة الدواء التي كان قد حضرها لاروش. - تغلي هذه الأعشاب نصف ساعة على نار هادئة ثم تبردّها، وتناول منها ثلاث ملاعق يومياً، صباحاً وظهراً ومساءً. - إن كنت في ضيق فقط ألم دائم؟
- دائماً يا كونت. لا تتراءَ عنه!
- إن كان هكذا فلا بأس إلا إن كان مُرّاً - وتناوله منه. ثم فكر في نفسه وسأل لاروش بين المزح والجد: - وما تأثير هذا الدواء على مسألة الرجلة؟
- يمكن أن يؤذيني؟
- لن يضرك إن لم ينفعك - أجاب لاروش باختصار لأنه كان قد حضر الجواب.
- لا بأس هكذا، ولكن إن كذبت عليّ...
- لا يا كونت، اطمئن!
- وظهر الحاجب عند الباب:
- فخري!
- أدخله!
- أنت وحدك؟ - سأله الضيف الداخل.
- الله معك يا كونت. - أجاب كالعادة.
- لا أسأل عن إلهك - ابتسם الكونت - بل عن ذاك الذي تدور معه دائماً، الولد العنيف.

- أورخان في البيت يداوي نفسه بالراحة. - تجاهل فخري الاحتقار الذي أبداه الكونت لصديقه وأجاب - وحملني حياته.
- وما مشكلته؟ - سأل شارل دو فيريول متوجهًا السلام المحمول إليه.
- جرحوه في الميناء.
- ألم أقل لك إنما مسائل صبيانية؟
- لا، لا - لم يدع الكونت يكمل كلامه - ليس الأمر كما تظن. عثر على عصام الذي أبحث عنه ولكنه عجز عن التغلب عليه.
- هكذا؟، هذا شأن آخر - "لماذا عليّ أن أكشف أسراري في بلاد الغربة أمام لاروش" - قال شارل دو فيريول في نفسه. ثم أكمل حديث النساء الذي كان بدأه معه - يا فخري مع أن ضيفي يقيم في إسطنبول منذ أكثر من أسبوعين فإنه لم يفهم لماذا تحمل المدينة هذا الاسم. ماذا تقرر تقادمه لضيفنا؟
- هذا كما تقرر يا كونت.
- اعتبرني قلت لك إذن: ستصبح لاروش حالاً إلى أفضل دور الباءة!
- لست جاهزاً في هذه اللحظة لهذه المهمة - استعجل لاروش.
- الآن، غداً، وليس بعد غد. "كما تعرف منا بعض أسرارنا، لنعرف بعض أسرارك!" حسم شارل دو فيريول الأمر مع ضيفه بهذه العبارات، وأنهى بكلام أعقل وألطف: - حتى لو لم تكن جاهزاً لتلك المهمة فسيجهزونك هناك حيث تذهب!

لم يعاند لاروش لأنه أدرك بعد كلام الكونت أن لا مفرّ من إطاعته. وبعدما غاب قليلاً ظهر بمظهر مختلف تماماً يختلف عن ذاك الذي كان ينافق ويعترض قبل قليل: كان يرتدي ملابس نظيفة جداً وعيناه الحبيتان الضيقتان تلمعان، وحذاؤه براق، وبزنته السوداء تناسب الحذاء، وخاتمه الذهبي متناسق مع سنه

الذهبية الوحيدة. ويبدو مع ظهره التحيل رشيقاً. كل ما فيه جميل لولا بعض الصلع فوق جبينه. - هذا مقبول، جميل! - تعجب السفير الفرنسي مما رأى أمامه. ثم أردف بين الحسد والمزاح: - أذهب معك أيضاً للمغازلة؟. لا، لا يا لاروش. لماذا أزاحمك؟ ليكن ما اعتمت عليه!
وبعدما مشيا لأيّاً قال لاروش لفخري:

- بودي أن نذهب إلى أحد المقاهي. كنت أود محادثتك إن كانت الثقة ستسود بيننا. ها هو مقهى قريب، وإن أردت غضي إلى مقهى آخر.
- كما تريده أيها الضيف - لم يخف فخري استغرابه لحديثه - ولكن لا أعرف من ستنتزعن. ألا يمكن بعد إنجاز ما كلفونا به؟
- لا يا فخري. تكلم لاروش الآن بصوت أحزم: - كنت أود التحدث إليك بشأن هذا الموضوع الذي كُلّفنا به.
- يبدو لي أنك لا تريدين الذهاب إلى دار الحرام.
- أثق بك فأقول: لا.

- فهمت، والأفضل في هذه الحالة أن نبتعد. - أشار فخري إلى أول عربة ركاب وصلت. - اركب يا لاروش - وقال للسائق: إلى مطعم "جنة النبي"!
في مطعم "جنة النبي" لم يكن لاروش يشبع من المنظر: يلمع في كل مكان اللون الذهبي - الفضي. وتنعكس صورتك على أرض المطعم وعلى السقف.
وألوان الستائر الصفراء - الوردية، وأغطية الكراسي الخضراء - الصفراء
متناسبة. والخدم الشبان يلبسون زيًّا موحداً. وترنو إليك الملاعق والسكاكين
والشوك مع الصحون تريدين منك أن تأكل ولو لم تكن جائعاً. وتتنادى البُسطُط
على الجدران مع تلك التي على الأرض. وليس في المطعم زُيُّنَ كثيرون. ولا
أصوات نافرة، أما الخدم فكأنهم يسبحون على أرض المطعم.

- لا بد أن هذا مطعم غالٍ جداً! - لم يتمالك لاروش نفسه.
- مهما كان غالياً فليس أغلى منا. - تكلّف فخري الإجابة على كلام الضيف، وتكلما في اختيار الطعام. ومع اللقم الأولى ذَكَر فخري ضيفه بما كان ينوي محادثه فيه: - الآآن أصغي إليك يا لاروش.
- لن أطيل عليك الكلام لأنك فهمت أنك عرفت عدم رغبتي في ما أصرّ عليه شارل دو فيريول. اشهد لي أني كنت في دار الحرام. كل الممارسات الجنسية غير الشرعية متشابهة. ولن أفعل هنا ما لم أفعله في باريس. لا تؤاخذني!
- ولماذا أؤاخذك؟! كلّ وما يستطيع أن يحمي به نفسه في هذا العالم الشرير. - زفر فخري وأكمل: - ولكنني لم أستطيع أن أفعل هذا. إن كان رأيك أن يشقّ أحدهنا بالأخر فسألّك: كيف تستطيع أن تعيش مع أسرة فيريول وأنت تعرف أخلاق ماري-أنجيليك وأختها كلودين المتحرّتين، دعك من شارل دو فيريول؟
- صحيح، لا أحد يعرف هؤلاء كما أعرف. - ثم قال بعد لأي: - يصّرّين عليهم مهنتي، والأجرة الكبيرة التي يدفعونها. ولكن هذه ليست مهمة. اعتدت عليها منذ وقت طويّل. ما يهمني الآن أكثر من أي شيء آخر هو صحة الكونت شارل دو فيريول. وهذا سبب مجئي إلى هنا. - لم يستطع لاروش إخفاء الحقيقة - لم أقل شيئاً ولم تسمع شيئاً يا فخري.
- أنا حتى قبل أن تقول لي هذا أشك منذ زمن في أن الكونت يعاني من مشكلة في رأسه. - ثم سأّل لاروش: - إذن كيف يمكن ملئه أن يري أيسيه؟
- فهمت ما تريده قوله. لا أعرف ما سيحدث لاحقاً غير أن شارلوت - إليزابيت أيسيه الآن في عهدة أناس ممتازين. ولو لم يبق إلا جانيت - نيكول فهي بمثابة أمها.

- سمعت الكونت يتكلم على هذه المرأة، إنها تستحق الشكر. ولكن لا يخفى أن ما تفعله من أجل أيسى لا يسر الكونت. على كل حال أليس مرض الكونت علاج؟ ألا يمكن أن تشفيه؟ سأل فخري وهو يطمع في أن يسألها عن عاهته هو.

- نعرف كلاما أن الكونت يقول اليوم شيئاً، وغداً شيئاً آخر، ومع ذلك نخفيه. وقد استدعاي إليه وكأنه مشتاق لرؤيتي. الأمراض التي لا تُشفى، إن عوجلت في أوانها، قليلة. ولذا لا خطورة اليوم في مرض الكونت. ولا شك في أن الدواء الذي اخترته له سيفيده إن واظب عليه.

- يسري والله أنك وجدت للكونت مثل هذا الدواء — سرى الدفء في عيني فخري الباردين في هذه اللحظة. وسأل دون أن يُفصح أن الموضوع لا يتعلق به: — أعرف رجلاً مريضاً ولا أعرف كيف أصف لك عاهته، ولكن إن نفعته وشفتيه فلن يمسك عنك شيئاً.

- هذا الرجل طريح الفراش أم...

- لا، ليس في الفراش — لم يدعه يكمل سؤاله. ومظهره لا ينم عن أي عيب، غير أنه عاجز في مسائل المرأة...

حين سمع لاروش السؤال المفاجئ الذي ارتعش له جسده، نظر الطبيب في عيني فخري دون أن يُبدي معرفته بالأمر، وكأنه يقول له "لا تكتم عن سرّك". ثم أجاب مخفياً شكوكه:

- لست من يشفون المرضى دون أن أعاينهم. إن دللتني عليه فأنا حاضر لعلاجه. ولكن أقول لك: لا يخفون شيئاً عن الطبيب ولا يكتمون عنه سراً. كل مريض يبقى سره بينه وبين الطبيب.

- إن كان هذا رأيك يا دكتور فلمعنى بالأمر جالس أمامك.

- أنا مطلع على موضوعك. ولكن عندي سؤالاً، هل استعملت معك آلة حادة سبب هذا المرض؟
- أي آلة حادة؟ - في البداية لم يفهم فخري السؤال ثم صحا وسأل متلهفاً:
- لا، لم يمسني أي أداة حادة. سقاني عصام سراً عقاراً ما. وانتهت فحولتي إثر هذا العقار.
- هذا شأن آخر. والآن سؤال آخر: ألا تشتهي امرأة أحياناً؟
- نعم، ولكن كما بدأت الشهوة تنتهي بسرعة.
- ليس مرضك ميؤوساً منه يا فخري؛ بإمكانك علاجك. أقول: سأعالجك ولكن لا أعدك وعداً قاطعاً بالشفاء. وعليك القدوم إلى فرنسا لهذا السبب، وسأعرضك على طبيب آخر، ماهر في هذا الشأن.
- افعل معي هذا المعروف يا لاروش!... - حين نحضر فخري عن المائدة، جلب أنظار رواد المطعم إليه، وتوقف حملة الموائد - إن شئت رافقتك من هذه اللحظة، وأعطيك كل ما أملك.
- لا داعي أن تسفر معي إلى باريس لأن شارل دو فيريول يشك في نوایاك نحو شارلوت - إليزابيث أيسبيه. كان بإمكاني ألا أقول لك هذا غير أن الأفضل أن تعرفه. ألسنت حراً؟ ابحث بنفسك عن ذريعة، ولاقيني في باريس. وهي مثل إستانبول ليسوا قلائل من يدخلون إليها وينخرجون. والأفضل من كل هذا أن ترافق الكونت الذي يستعد للسفر.
- لا، لن آتي معه. أستطيع أن تؤمن لي لقاء بشارلوت إليزابيث أيسبيه؟
- سأصحبك إلى حيث تقيم، ولكن لن أظهر أمام أحد.

VIII

في العام الماضي والذي قبله، بالقياس إلى الأعوام السابقة، تغيرت عائشة كلياً واندمجت في المجتمع الفرنسي بمظهرها الخارجي وبأفكارها، واعتادت على نمط الحياة الفرنسية. أنسنت أصلها الذي تنتهي إليه؟ أجرى أسلوب الحياة الفرنسية في دمها أم يحيى إليك؟ لا. تقرأ كثيراً من الكتب. تحب الكتب التي تتحدث عن تاريخ فرنسا، وكتابها، وفنانها، ورساميها، ومطربيها، وحكواتييها. والكتب القليلة المتعلقة بالأدبية، والتي تحضرها لها جانيت - نيكول؟ وهذه ترويها عائشة بدموع خفية. ولم تعد تعرض هذه الكتب على زميلاتها كما في السابق. وحين تُسأل تجيب نفسها "خير لكن الاهتمام بما يتعلق بتاريخ فرنسا من الاهتمام بقومي الشراكسة" ثم تضيف إلى نفسها أيضاً "ما شأنك أن تنتمي؟ أنا من تفنيها ذكرياتها، ومن تبعث الدفء فيها... ماذا يفيدني إن تركتك تصطلين بنار شعوري بقوميتي؟ صالح وطالحي لي أنا، ولن أعطيهما لأحد"

أهي جانيت - نيكول؟ أبدأتأت تبعد عنها هي الأخرى أيضاً؟ لا، لا جانيت - نيكول هي ناري الدافئة هنا، وكذلك صوفى، وبون دو فيل، وأرجنتال. لولا هؤلاء لانفجرت منذ زمن بعيد. وإن قلت هذا فلست عادلة. فسماء فرنسا ظلني، وشمسمها تدفعني، ومؤها يحييني. وكما كانت المرحومة جدتي تقول "على الإنسان أن يرضى بما قسمه الله له" أغفرى لي يا مريم العذراء. لم أستطع إلا أن أتذكر إله قومي. وهؤلاء جزء من هذا العالم. لتحميمهم ولتحفظي عليهم حياتهم!"

في أحد الأيام سألت جانيت - نيكول عائشة سؤالاً كان يشغل بها: - يحيى إلّي يا أيسيله أنك تتجنبين قريباتك الفتيات، أم أنا مخطئه؟

- لا، لست مخطئة يا جانيت – نيكول. يعدي عنهن هتافهن "أنت شركسية، أنت شركسية!"

- وما العيب في هذا إن كانوا ينادونك باسم قومك، أهذه إهانة؟

- أنا يا جانيت – نيكول لا أجري وراء أي فتاة صارخة "أنت فرنسية، أنت فرنسية!" – وفيما جانيت – نيكول تتعجب مما قالت عائشة إذا بقلبها يخفق ثانية من كلامها: أنسست ما أكّد عليه شارل دو فيريول الذي نسيّنا؟ "كل من يعيش في فرنسا يجب أن يصبح فرنسيّاً"

- إذن يا أيسية – ضحكت جانيت – نيكول دون حماسة: أنت ما تزالين مخلصة للكونت الذي نسيّنا.

- مخلصة له لأنّه تبنّي كابنة له. ولكن إن زارني فسأصарحه بأنه أهملني، لن أسامحه. أتعجب أن يكون سفيراً لفرنسا؟ اعمل في قضايا الدولة، ولا تنس أهلك!

- صحيح، أفاقك – وغيّرت جانيت – نيكول موضوع الحديث: - أتعرفين أين سيصحبنا بيير دو تانسين الأسقف الذي هو الآن في زيارة لباريس؟ إلى فيرساي، حدائق الغزلان.

- ولكن إن رأتنا كلودين – ألكسندر؟ - التمعت عينا عائشة وكأنها غير الفتاة التي كانت قبل قليل جافية.

- أيسية؟ ما أشد ما تذعررين! - ابتسمت جانيت – نيكول بعينيها الدافتتين في وجه أيسية. - لم أرفض طلب غيرين دو تانسين لأنّه دعانا. باريس كبيرة؛ ثم ما شأن كلودين – ألكسندر؟ إن كنا لا نعجبها فهذا شأنها. لن نخبرها على حبنا. لا تختمي بهذه الأمور. الأفضل من كل ما سبق هو أن تقرئي الكتاب الذي عثرت لك عليه. إن رجعت عدة قرون إلى الوراء فالكتاب

يتحدث عن سلاطين مصر المماليك الشراكسة. — بيروس وبرقوق وقلاؤون وقانصوه الغوري، وآخرين.

— ألا يزالون سلاطين مصر؟ — التهبت عينا عائشة كجمرتين.

— لا، ظلوا سادة مصر لأكثر من قرن، ثم سلبهم الأتراك السلطة.

— ولماذا يسد علينا الأتراك منافذ العيش؟ — زفرت عائشة ثم انتصب خيال فخري أمامها. ولكنها كانت تحتاج لشيء آخر متناسية إياه: — شارل دو فيريول عندهم يتعلم لغتهم وطبائعهم. يقول: "المشرق، المشرق، لا تعرفون المشرق" لا يقل من حب الذين تسبيوا في بؤسي وفي خراب بيوت الشراكسة. لماذا لا يأتي إلى هنا؟ أنسى عبارته الشهيرة "باريس، يا باريس!"

لم تستطع جانيت — نيكول إلا أن تقول لنفسها وإن لم تعلق على احتجاجات الصبية: "تصنعن أيسيه أنها فرنسية ولا تسمح لنفسها في الوقت نفسه أن تنسى أصلها. هكذا يجب أن تكوني يا أيسيه وإلا فيئنا في العالم دون جذر ودون فائدة"

أفاقت عائشة حين عبرت أشعة شمس الصيف الدافعة النافذة وعيشت بخديها. وفرحت بصحو الجو اليوم. وهي الآن تفكك في أي ثوب من أنواعها الصيفية الثلاثة ستذهب إلى فيريسي. أهو الثوب الملون المفتوح الصدر دون أكمام وبنوار ضيق أم الثوب الحريري الطويل الكميين والمزموم الصدر؟ والثوب الآخر القصير الكميين يناسب أيضاً خصرها النحيل. تكلما البارحة هي وجانيت — نيكول على هذه المسائل. ويتعلق أمر ملابسهما بما يلبس بيير غيرين دو تانسيين.

" وإن جاء بيير في ثياب رجل الدين؟ — فرعت عائشة من السؤال الذي قفز فجأة إلى الذهن. ثم سألت نفسها: — إن جاء لبسنا ما يتناسب مع لباسه.

والثوب الذي أدرس به في الدير مكوي ومعلق في مكانه. وجانيت – نيكول
عندها أكثر من ثوب ديني. ويعجبه ثوبه ثوي الملون دون أكمام. هذا هو ما
سألبسه اليوم..."

كانت الشمس الحارة ترتفع شيئاً فشيئاً إلى كبد السماء حين وصلت عربة بيير
إلى أمام باب الدير. وخرج منها لابساً بدلة بيضاء ناصعة. حاسر الرأس،
مخلوأً أزرار الصدر، وحذاوه العالي الأسود يتناسب مع لون شعره. وما يلبس
في أصابعه من الخرز الأسود الصغير يتناسب مع كل ما سبق.

– تعالى يا أيسيله! – ابتسمت في وجه جانيت – نيكول، الصبية التي كانت
مهتمة بملابس بيير. – لم نخطئ في ملابسنا الصيفية كما ترين.

تبعدت عائشة الصبية التي لا ترى في العالم أسعد منها جانيت – نيكول التي لا
يخفى ثوبها المفتوح الصدر خصرها التحليل والتي ترتدي ثوباً مائلاً إلى الصفرة.
وما إن خرجت من الغرفة حتى ركضت نحو بيير الذي استقبلهما، وعاقنته.
وحيث استقلوا العربية اختارت الجلوس إلى جانب جانيت – نيكول مقابل بيير.

– وأمطرته بالأسئلة:

– كان من المقرر أن يسافر بون دو فيل حالما ينهي عامه الدراسي إلى "أبلون"
فهل ذهب؟

– ذهب الجميع: ماري – أنجليكا وأرجنتال وصوفى.
– متى؟

– على قول كلودين في الأسبوع الماضي، وهم في انتظارك.
– بقي على انتهاء عامي الدراسي أسبوع واحد. أليس كذلك يا جانيت –
نيكول؟

- نعم، أيسيه، نعم. سأجعلهم يرسلونك في اليوم التالي إلى "أبلون". الطبيعة هناك جميلة ومرήكة. ستستريحين جيداً بصحبة أهلك.
- كان يسرنا أن تصحبينا - تنهدت عائشة.
- صحيح يا أيسيه، غير أن مشاغلي في المدرسة تحول دون ذلك. اختلست جانبك - نيكول نظرة إلى بيبر، ولم تsei إلى الصبية.
- إذا كان عملك هكذا فسأشتاق إليك طوال عطلة الصيف. وإلى مدرستي وزميلاتي. - قالت عائشة بصوت منكسر وتنهدت، ثم صاحت فجأة: - ألا يزال لاروش في إستانبول؟
- أظن ذلك، لم أسمعهم يأتون على ذكره.
- وكلودين - ألكسندر؟
- لم أرها إلا مرة واحدة خلال ثلاثة أيام قضيتها في باريس.
- منذ زمن طويل لم أر كلودين، منذ أن زارتني في الأيام الأولى من الشهر الماضي. لا ألومها، ولكن أرغب في رؤيتها. ومن اشتقت إليه كثيراً هو أوغستين - أنطوان.
- كنت في منطقة دوفين قبل شهر تقريباً فسأل عنك. وأتى على ذكرك بالخير كثيراً. وهو أيضاً يجهز نفسه للراحة في أبلون.
- شكرأ له على أنه لم ينسني... - ولما لاحظت جانبك - نيكول ما تعجز عائشة عن قوله تنهدت عميقاً.
- ومع أن جانبك - نيكول كانت تتأمل الصبية مستغرقة سؤالها عن أهلها بهذه المودة، وما في قلبها نحوهم من صدق العاطفة، فإنما لم تكن تُظهر حزناً الذي يعزق قلبها على عائشة. لا أحد يعرف ما يعتمل في قلب عائشة الصغير غيرها. "ورغم أنها مصوقة من الحزن وتحمل في نفسها على شارل دو فيريول فهيا

تشتاق إليه وتحتم لعدم مجئه. وكلما كاتبها كان همه: هل أكتمل نموها؟ ولا يسأل عن دراستها وأمورها الأخرى. وما في آخر رسالة له هو ما يجعل ششك يقيناً إن كنتِ أكتملتِ جسداً وقلباً بعثتِ وراءك، واستقدمتك إلى إسطنبول. وحين عرضتِ الرسالة على ماري - أنجليليك وصوفي أبدتا اعتراضاً، بل عنفتها. أما كلودين - ألكسندرین فاكتفت بابتسامة، ولم تعلق. "لو فرش لها الطريق من إسطنبول إلى باريس لما أرسلتها. ولو حضر بنفسه لما سمحت له أن يبعدها خطوة عنِي دون رقابتي!"

- لماذا سَمَّوا المكان الذي نذهب إليه "حديقة الغزلان"؟ - حين سالت عائشة قطعت على جانيت - نيكول أفكارها السيئة.

- كانت يوماً ما في القديم غابة تسكنها الغزلان فحملت هذا الاسم، أجاب بيير - وها هو الدوّلاب الكبير أمامنا، وإن كنت لا تخافين ركبناه.

- ما أغربك يا بيير! إذا كان ركابه لا يخافون فلماذا أخاف؟ وأنت هل ستركتين معنا يا جانيت - نيكول؟

- وهل تسألين يا أيسيله إن كنت سأدعكم تركبان وحدكم دولاً بـ بهذا الارتفاع؟ شجعت الصبية وأخبرتها بأمر آخر: - والطاحونة المائية ملكنا معظم في هذه الحديقة.

- أيشعلّها؟ - استغربت عائشة ما سمعت.

- لا يدع طريقة للملل إلى نفسه - قال جاك السائس الذي لم يقل شيئاً إلى الآن.

- لا، لا، ليس الأمر مللاً - لم يقبل الأسقف بيير غيرين بصوت واثق كلام السائس. - يشغلها مرة أو مرتين في الأسبوع. لا يجوز إنكار معروف أي إنسان. والله يعلم ويري. - أكمل بصوت ألطف.

وحين ترجلوا من العربية وهموا بالدخول إلى الحديقة، توقفت العربية التي يجرها أربعة أحصنة، ويخرسها فارسان من الأمم ومن الخلف، ونزلت كلودين - ألكسندرین ونادتهن:

- يا بيير وأيسية وجانيت - نيكول رأيتكم فلم أستطع تجاوزكم. - قالت والرياء يغلب رائحة النبيذ من فمها، ونادت من لم ينزل من العربية: - يا كاردينال دوبوا لماذا لاتنزل؟ سترى شارلوت - إليزابيت أيسية التي كنت سألت عنها. وقال للرجل المسن الأسنر الذي أنزلوه من العربية بين الراغب في النزول والخجل: - هذا الرجل تعرفه: بيير - غيرين دو تانسين. وهذه ربيتنا شارلوت - إليزابيت أيسية التي جاءنا بها من تركيا سفير فرنسا شارل دو فيورييل. وهذه جانيت - نيكول مشرفة التعليم في دير سان - كول. والآن من نعرفه بكم هو كاردينال فرنسا، الوزير الأول دوبوا.

- سري تقديكم - وأشار إشارة احترام إلى عائشة وجانيت - نيكول، وسائل الفتاة باسمها الفرنسي الكامل: - كيف تمشي أمور تعليمك وتربيتك يا شارلوت - إليزابيت أيسية؟ ألا تصعب عليك اللغة الفرنسية؟ - أجبت عائشة باختصار: التعليم جيد، ولغتي الفرنسية لا بأس بها ياسيادتك.

- إن كانت أمورك هكذا فأنا مطمئن، وسأبلغ الكونت شارل دو فيوريول في أول لقاء بسعادي لأجلك. وأنتم أبلغوه. نحن مستعجلون، أمامنا مهمة. ما إن ابتعد الكاردينال إلى عربته حتى قالت عائشة: - أما قلت لكم إننا ستصادف كلودين - ألكسندرین؟

- نعم قلت، ولكن لم أعرف أنك تقرئين الغيب إلى هذا الحد. - مزحت جانيت - نيكول موهة رائحة الشراب التي كانت تصدر من كلودين - ألكسندرین. ثم دخلوا الحديقة وكأنهم لم يقابلوا أحداً.

حديقة الغزلان العائدة للملك جميلة ومثيرة في كافة أوقات السنة. ولأن اليوم أول أيام الصيف كانت أصوات الناس تملأ الفضاء: الصبيان والصبايا على العشب يلعبون، أو في الأراجيح، أو يمشون على الأخشاب المدورة المرتفعة قليلاً، أو يتزلقون على الأخشاب المصقوله، أو يجررون وراء الفراشات. والأمهات والآباء الجالسون على المقاعد يتبعون أولادهم. وغيرهم يشربون الماء وياكلون الحلويات.

والناس الذين يتظرون دورهم على الدولاب الكبير الذي يديره رجلان كثيرون رغم أنه يستوعب العديدي.

- لن يصلنا الدور لو انتظرنا النهار كله - تقول عائشة وتسند على كتف جانيت - نيكول.

- لن نركب إن كنت متبعةً - ضمت جانيت - نيكول الصبية إليها.

- إن كنت سأطل على باريس فسأنتظر إلى المساء. - شجعت عائشة نفسها

- حين تنزل هذه المجموعة من الدولاب وتركب الثانية، سيعين دورنا؛ أليس كذلك يا بيير؟

- نعم لم يبق الكثير!

- وصل الدور إلى عائشة كما حسبت. وحين ربط الثلاثة أنفسهم بالزنانير الجلدية العريضة المتصالبة، سألت الصبية المخصوصة بين الاثنين وكأنما لا تبالي بالارتفاع المحتمل:

- أنت خائفة يا جانيت - نيكول؟

- لا أعرف!

- لا تخافي، انظري إلى الأعلى فحسب، لا إلى الأسفل. يا بيير نحن الآن فوق باريس، ما أجملها! أرى الدنيا، أرى الاتجاهات كلها. — والآن همست عائشة في أذن جانيت — نيكول: — في أي اتجاه يعيش الشراكسة؟

- يقال إنهم يعيشون في الشرق منا.

- إذن في هذه الجهة — قالت عائشة بصوت منكسر، ثم رفعت صوتها سريعاً: — و"أبلون" في أي اتجاه، أين "أبلوننا"؟

- ها هي، تظهر أمامنا. — أشار بيير إليها بيده.

- يا بون دو فيل وأرجنتال وصوفي؛ هل تسمعونني؟! — صاحت بصوت لففت انتبه الركاب. — أنا شارلوت — إليزابيت أيسيه من تنداديك!

IV

"السر ما كتمته أسيء لك، وإن عجزت عن كتمانه أسيء له" انطبقت الحكمة على فخري. بين اليوم وغداً مضى على رحلته المتوقعة إلى باريس أكثر من نصف سنة. وحين نفذ صبره سأله شارل دو فيريول.

- انتهى الصيف، ولحقه الخريف؛ متى إذن ستدهب إلى باريس؟

- وهل اتفقنا على الذهاب إلى باريس؟! - تظاهر شارل دو فيريول بأنهما لم يتطرقوا إلى هذا الموضوع قط. ثم وافق كأن شيئاً لم يحدث: - نعم، نعم، كنا اتفقنا. - وبعد قليل أكمل وعيشه تنظر كلّ في اتجاه: - أتساءل يا فخري لماذا أنت مستعجل. أتركت في باريس من تقلق عليه؟ أهي شارلوت - إليزابيت أيسبيه؟ أنت مخطئ. هذه منذ زمن بعيد نسيتني ونسيتك ونسيت كل الشراكسة.

تميز فخري غيظاً من سلوك الكونت معه ومن كلماته المبطنة بالخبث فلم يطق صبراً، وقاطعه:

- حاولت أن أحتملوك ولكن أما آن لك أن تكتف عن مخاطبتي بهذا الأسلوب؟! - ونحضر - أنا كشفت لك سري بكل صدق، وأنت تسخر مني وتخيني.

- مهلاً، مهلاً. أمنح معك فحسب ولا أحقد عليك لأهينك. - نظر الكونت إلى ضيفه بصدق نية - ألا ترى وتعرف أن أعمالي لا ترك لي راحةً غمضة عين. أتظنني حراً بنفسي؟ لا أستطيع السفر إلى باريس إلا بإذن من الملك ومن الوزير الأول دوبيوا. أشتاق إليها. اجلس، لا داعي أن تقف! - ثم رجاه بالتركية: - لا تلمني، ولا تنفعلي. أنا نسيت في غمرة أعمالي، آملاً بين اليوم والغد، أني وعدتك. مثل هذه الغفلات لاحظتها على نفسي منذ العام الماضي. وأنا يجب

أن أداوي نفسي من عوارض أخرى. ولذا اغفر لي أني آذيتك دون قصد —
اضطر السفير الفرنسي الآن إلى أن يكذب على فخري.

— إن كنت تقول هذا يا معلم سحبت كلامي — حمدت نار فخري — ولكن
الأفضل ألا نماطل في سفرتنا إلى باريس. الوقت يفوتنا.

— وهذه المرة أيضاً — ساحني — لا أظني أستطيع مرافقتك. وإذا كنت قادراً
على السفر دوني فأمامك وقت كافٍ. ولكن لا تنس أن أمامك بحراً عاصفاً
في الشتاء. وإذا كان لاروش ودك فيإمكانه مساعدتك. ولكن مرة أخرى
أقول لك — التمعت عينا الكونت اللتان بلون الماء — لا أرجوك بل أؤكّد
عليك: لن أسمح لك، ليس بمقابلة شارلوت — إليزابيت أيسبيه، بل بأن تقع
عينك عليها. لا، ليس الأمر عدم ثقة، بل لا أريد أن يهيج المسافرون من هنا
قلبهما. وقد كتبت إلى جانيت — نيكول وحذّرها لأنني سمعت أنها تعلّمها بعض
الأمور من أجل ألا تنسى قوميتها الشركسيّة.

"لو حقق لي لاروش ما أملني به — ابتسم فخري في سرّه — لما همّني ما تفكّر
فيه وتقلق لأجله. ولكن مهما قلت لي وحدرتني فلن أعود من باريس دون
مقابلة عائشة. وأفضل ما يمكن أن يحدث لي هو أن أفعل بعacam مثل ما فعل
بي قبل زيارتي لباريس، إذن كنت تحملت من نذري. كلّ يفكّر في مصلحته
ولكن لا أريد أن أحافظ على نفسي وحسب؛ إذن لن يقبل الله مني، ولن
يفهمني عباده الأسواء"

— أفهم يا معلم، ولولا الثقة التي بيننا لما تحدثنا بمثل هذه الصراحة. — قال
فخري بلسانه وفي قلبه شيء آخر.

— صحيح، علاقتنا من هذا القبيل — ابتسم شارل دو فيريول في سره، وكان
يزيد في ريائه وكذبه — ولكنك صارت لاروش بمشكّلتك الذكورية ولم تقل لي.

ابتسم فخري ابتسامة صفراء.

- لماذا تبتسّم؟ لأنّي قلت لك ما هو غير صحيح؟

- لا يا معلم، بل لأنك لست طبيباً، - لامه فخري وبشّ له، ثم رجع إلى الجد: - إن كنت تذكر فلم نغفل الكلام في مشكلتي. ولم أعدّها على مسامعك لأنّ مثل هذه المواضيع المعيبة المهينة لا يُستحب تكرار الحديث فيها.

- نعم، أتذكّر هذا. كنت أقول إنّه فعل بك مثل ما يفعلون بالرجال العاملين في دور الحرام، وأحقد عليه للمصيبة التي أصابك بها، فما سمعته الآن عجيب. كان الأجرد بك أن تُطلعني على سرّك من أن تُطلع لاروش عليه. كثيّر من الأطباء لا يفهمون في مسألة العجز الجنسي. غريب أن لاروش لم يلغّي... لا ألوّه هكذا يجب أن تكون أخلاق الطبيب، ولو لم يكن هكذا ما كنا ائتمناه على أسرار أسرتنا. - توقف الكونت قليلاً ثم سأّل فخري متصنعاً الضحك:

- أما قال لك شيئاً بشأني هذا الخبيث؟ وماذا يعرف عنّي ليقول لك؟ اختصاصه هو أمراض النساء، لا الرجال. متى عزمت على السفر إلى باريس رتّبت لك موعداً مع طبيب ممتاز. نعم هو ماهر جداً في مثل مشكلتك؛ غير أني أقول لك: لا يسمح لك بمقابلته إن لم تكن جيوبك محسّنة. - حمل الكونت الورقة وقرأ عدة أسطر سريعاً. ثم مدها إليه. - على هذه الورقة اسم الشارع وعنوان البيت باسم الطبيب. أخّرّه بما حدث لك واعتبر قضيتك محلولة. وكتبت لك اسم أحد أدوبيّي فلا تنسّه. وخذ هذا، - ووضع أمامه كمية كبيرة من النقود.

- أيساوي دواؤك كل هذا المبلغ؟ - تعجب مما يرى.

- خذ المبلغ، وأساهم بما يتبقّى منه في علاجك.

- أتراني فقيراً يا معلم؟

- لم أقل إنك فقير، بل أساهم في علاجك.
- لا أقيم في إسطنبول دون مالٍ كافٍ، وعندني ما أشتري به دوائك؛ ولذا استرجع نقودك!
- إذن، على قولك، ألا تدخلنا في موضوع الأخذ والردّ.
- لا تعليق لي على كلامك، ولكن العالم الذي نعيش فيه من هذا النوع كما تقول.
- وما العمل، العالم مرتب على هذا التحول. - لم يأخذ شارل دو فيريول النقود التي رفضها فخري بل نجحها جانباً. - مع السلامة يا فخري، سأصلي من أجل أن يتحقق الله لك أمنيتك! - ثم مازحه: - لن أسمح لك، حين تشفى، بدخول إسطنبول قبل أن تختبر رجولتك في باريس مع امرأة فرنسية جميلة.
- توجه فخري في صباح اليوم التالي مع أورخان إلى الميناء لأنّه كان مستعداً للسفر منذ عهد طويل. وما لم تكن أي سفينة مسافرة طوال الأسبوع إلا السفينة التي لا يريدها اضطرا إلى ركوبها. ثم إنك إن كنت متلهفاً على ما تأمل تتحققه ركبت، لا سفينة سليمان فحسب، بل سفينة أللّه أعدائك. ولماذا يخاصل سليمان؟ أتعجب أن رأوا عصام يخرج من سفينته؟ وهذا الـ "عصام" نفسه، مهمما كان صديقه ورفيقه، يمكن لك أن تحصل من سليمان على أخصّ أسراره بقليل من المال.
- انظر من صادفthem من جديد! - صاح سليمان بصوت نبه الجميع حين رأى فخري وصاحبه - حتى لو افترقنا العام الماضي أو ما قبله، من يذكر، على غير موعد فقد التقينا ثانية. انظر إلى هذا! أليس هو أورخان؟ ما أشد ما كبر! خدعتني يا فخري في شأن هذا الشاب، وكلما تذكرت حاسبت نفسني.

- حسنٌ أن تغضب على نفسك لأنك لم تعمل الخير يا سو، ولكن ما شأني أنا؟

- غريب أنك لم تنس يا فخري! - تناهى سليمان تلميح فخري إلى عدم فعله الخير، وتعلق باسمه المختصر "سو": - لم تنس أن بنات مرسيليا يناديني "سو". أتذهبان إلى مرسيليا أم إلى كورسيكا؟ أم إلى مكان أقرب؟

- أنا إلى مرسيليا، وأورخان يودعني.

- إن أردت يا أورخان أخذتك إلى مرسيليا وأعدتك - ابتسم سليمان في وجهه أورخان دون أن تعرف جده من مزحه وكأنه يعتذر عن إساءاته السابقة له.

- أمن أجل أن أنسى رفسك إياي بمقيدة حذائك، وإعازك برمي في البحر؟

- أجاب أورخان على غير توقع من سليمان. - هذا سيكون أرخص مما ينبغي عليك وعليك.

- فخري ألم تسمع ما يرويه لي هذا؟ - قال سليمان بين المزاح ولوم النفس - هذا يا إلهي ما جناه عليّ فعل الشر. لن أسمح لأحد بعد الآن أن يوعني في الخطأ الذي وقعت فيه في ذلك اليوم. أتذكران ذلك الرجل المُشعر وزميله؟ دعونا ننسى جرائمهما وذنبي لأنني صرفتهما عن العمل منذ العام الماضي. جرى ما جرى وانتهى، ونحن، ثلاثة، والحمد لله بخير.

عبرت السفينة البوسفور فيما مسلمو إسطنبول يؤدون صلاة الظهر. في المساء عبرت مضيق الدردنيل وصارت في عرض البحر.

لا يفوّت فخري الذي أمّمه طريق طويل صلواته. وبعد أن وقف بين يدي الله ودعا إلى ربه أن يتحقق له ما يريد، تأمل الدنيا بعين أخرى: البحر يموج مرتاحاً والسفينة تسبح، والسماء عالية، والشمس تنحدر رويداً رويداً، وفخري يقف إلى جانب السفينة. وكما يتموج البحر متمهلاً تتناثر أفكاره القرية والبعيدة.

تباعد في السفينة وما تبقى منها يتجه إلى سليمان وعصام. وما يطير منها نحو الغرب هي أفكار تتجه إلى أسرة فيريول القاطنة في باريس. والأفكار الأخرى إلى إسطنبول. والأفكار المتوجهة نحو بلاد الشراكسة؟ من هذا المكان، وراء البحر، بدأت مأساة فخرى.

من الملوم في هذا؛ أهو أم الأديعة؟ لماذا تذهب إلى مكان لا علاقة لك به بمجرد أن تُدعى؟ مستأنساً بلغته الشركسيّة التي تعلمها من زمن "ملوكيته". آذته في أرض الأديعة هذه المعرفة باللغة. من أين كان سيدري أن صديق طفولته عصام سيتصرف معه بهذه القذارة؟ والسبب غَرَّلَ مع امرأة وليس نزاعاً رجولياً.

حين نظر فخرى غير عابئ بضياعه القديمة إلى شمس الخريف تنحدر إلى المغيب حُتِّلَ إليه أنها تحوي في البحر والدخان يتتصاعد منها. ولكنه استفاق إلى نفسه وحدها: "لن يغلبها البحر، ستشرق غداً حمراء مستديرة كبيرة تمنحنا دفنهما قائلة: هل اشتقتكم إلى؟" وهكذا يقضي الإنسان عمره على الأرض، يحيا بالأمل، ويفرح بما يتحقق له، ويحزن لما لم يتحقق. وهناك أناس بعيدون عن الفرح وعن الحزن. وهؤلاء يفانون على الأرض وحيدين بلا أمل. وآخرون يعيشون على فعل الخير وآخرون على الآلام. أحدهم يأمل بالكثير، وغيره كعظام يبدد تلك الآمال. وشارل دو فيريول؟ هذا إنسان بريء مسكون هدّته شهوته. ولكن يُفني نفسه في عمله وفي واجبه نحو ملكه. لو أخلص لعائشة كما يُخلص لعمله لتحررث من تبكيت الضمير نحو الصبية التي ساهمت في بؤسها معزياً نفسياً بأنه حدث ما حدث وانتهى الأمر،وها هي تلقى تربية من رجل طيب القلب. ولكن مهما حذرني الكونت فلن أخرج من باريس قبل أن أراها وأعرف كيف تعيش حياتها. وإن تصرفت معه بطريقة مغایرة لما سبق

وقررت أن تعود معي؟ "يا فخري هل أنت متعدد؟" لام نفسه. هذا لا تردد فيه ولو خسرت حياتي في سبيله؛ فكما أخذتها إلى بلاد الغربة سأخرجها منها وأعيدها إلى بلادها..."

- أنظر إليك يا فخري فيخيل إليّ أن شمس الغروب تقلقل كيانك كما كياني.
- هذا أنت يا سليمان؟ لم يُن فخري استياءه وإن لم يكن يحب أن يتقرب إليه سليمان فيجعل منه سميراً. - إن ودعت الشمس التي كانت طوال النهار في عينيك فقد يحدث معك هذا. أنا متعب وسأريح رجلي قليلاً.
- مهلاً يا فخري، احتاجك في أمر. سمعت أن عصام الذي تبحث عنه يختبئ عنك.

- وماذا سمعت؟ - رجع فخري غير متحمس.
- وماذا سيكون؟ - قلد سليمان فخري دون خبث، ثم ابتسם له: - اعتبر عصام صار في يدك، ولكن السعر ليس قليلاً.

- ماذا حدث لكم، ماذا جرى بينكم؟ - لم يُطق فخري صبراً وقد تذكر جرح أورخان قبل عدة أشهر. وقال سليمان دون انتظار الجواب: - إن لم تُعال في الثمن فسأضاعفه لك. ولكن بعد أن أعود من فرنسا.

- الأهم ما حدث بيننا - سحب سليمان غليونه الفارغ فجأة - أنك طمأنتي على ما ستدفع لي. لاتظن أني أفعل خيراً معك؛ ما يهمني هو ما أستفيد به. متى ما اتفقنا فسأكون جاهزاً في الوقت المناسب لك.

قادت فخري سنوات عمره الأربعون، منذ سنته السابعة في طرق كثيرة، منها الخير ومنها الشر. ولكن لا يتذكر أن طريقه انفتح بسهولة، فتحقق له ما أراد، كما الآن. وجد الطبيب الذي يريده منذ وصوله إلى باريس وإقامته في الفندق. وخيل إلى فخري أن الطبيب عامله بلطف أكثر حين عرض عليه الورقة التي

بعثها معه شارل دو فيريول. ثم حين روى له مشكلته باختصار، قال له الطبيب الأشقر الجالس مقابله:

– أقابل لأول مرة تركياً يعرف الفرنسيّة جيداً. ولكن ليس لهذا سأبشرك. وأنا واثق من نفسي لأن الشرب الذي يهدّ الرجل جنسياً ليس من عادتك. ستشرب من هذا الدواء قبل الطعام ثلث مرات اليوم وغداً وبعد غد. وستخبرني إن استفدت منه في اليوم الرابع.

في اليوم الأول حين شرع فخري في الدواء عرف في نفسه أشياء جديدة. وفي اليوم التالي بدأ يراقب النساء بطرف عينه، وفي اليوم الثالث حين أخذت عليه فكرة التودد إليهن، ذهب في اليوم الرابع إلى الطبيب.

– ما الأمر أيها المحترم؟ – استقبل الطبيب فخري وكأنه هو المعنى بالفرحة – ألا تضبط نفسك حين ترى امرأة؟ أهنتك ولكن سأقول لك أيضاً شيئاً محرناً: لا أؤملك في الإنجاب. ولكن من يعرف؟ هذا من شأن الله، وليس من شأنني. وهذا الدواء يكفيك شهراً.

– وإذا انتهيت من الدواء؟... – استعجل فخري وكأنهم يسلبونه فرحته. – إذا انتهيت فلن تعود بحاجة إليه. ليس هذا دواء يومياً بل هو أسبوعي. والآخر خاص بالكونت.

– وهل هذا مثل دوائي؟ – "إن زاد هذا الدواء في شهوة الكونت فهذه لا أعرف..." – سأله فخري.

– لا، ابتسם الطبيب ثانية – الكونت يعرف فائدته. – مهلاً، مهلاً! لا تُمطرني بالنقود من شدة الفرح. أخصم نصف الأجرة كرمي لصديقي الكونت. وإن شئت شاهداً على شفائك أرسلت إليك مساء امرأة شهية.

- لا، يا دكتور! - حسم فخري العرض المفاجئ - لن أقسام أحداً فرحتي اليوم.

- مع السلامة إذن. بلغ تحياتي وأشواقي إلى السفير الفرنسي. ربما ليس في العالم اليوم رجلٌ أسعده من فخري. ينظر إلى الدنيا المضيئة بعين أخرى. السماء عالية والشمس حارة. يبتسم للناس ويبتسمون له. المدينة ليست غريبة ولا البلاد، ولا اللغة. لا تكفي الدنيا كلها لعينيه الصافيتين. "لا أعرف إن كنت أبالغ في فرحي... - يلوم نفسه وينصحها. من قابلته ليس طيباً مخادعاً. كما فرحت لنفسي فرح هو أيضاً لأجلني. ثم إنني لم أذهب إليه عابر سبيل. لماذا أبقي هنا وقد انتهت مهمتي. واليوم تنتظري أعمال كثيرة. لا ضرورة لمقابلة لاروش، وهو لم يكن متھمساً جداً للقائي. ولكن أأسافر دون مقابلة أيسيه؟! ألا أجد وحدي سان - كول وأنا أتكلم الفرنسية؟"

حين رأى فخري عائشة في فناء الدير كانت تغيرت كثيراً عن تلك التي اشتروها من سوق التخasse قبل أربع سنين، وتميزت من زميلاتها بقوامها المشوّق. ناداها بالشركسية:

- آيشت!
حين سمعت عائشة اسمها بالأديغية فهمت ما لم تفهمه زميلاتها فرفعت رأسها من دونهن، ورصدت مصدر النداء الأديغي. وحين اكتشفت أسرعت إلى فخري شبه راكضة، وسألت بالأديغية متعجبة مما ترى:

- كيف وجدتني يا فخري?
- كان بودي أن أراك فقد جئت إلى باريس في زيارة.
- وأين شارل؟ أليس معك؟
- لا، لا وقت لديه ليترك مهماته.

وفي هذه اللحظة وصلت جانيت - نيكول، وسألت أيسبيه بصوت قلق جافٍ:

- من هذا الذي يكلمك؟

- هذا فخري، حين اشتريني شارل دو فيريول كان مترجمًا عنده. وهو يتقن الشركسية والفرنسية. وقد ذكرته لك في وقت سابق. هو إنسان طيب، وقد أساءت إليه دون سبب. وهل بلغك شارل دو فيريول اعتذاري يا فخري؟

- بلغني يا عائشة. - لم يبدل فخري لغته كما فعلت عائشة. شكرًا على أنك تفهمتني. إن أردت الحق يا أختي الصغيرة فأنا مسرور لأنك تتكلمين فرنسية صافية.

- لا عجب في هذا - لم تغير عائشة فرنسيتها. - لن ترتأح مع القوم الذين تعيش بينهم إلا أن تتعلم لغتهم وعاداتهم.

- يا أيسبيه لماذا لا تتتكلمين مع من يزورك ويجهّز عليك بالشركسية؟ - لامت جانيت - نيكول عائشة بعنومة - لا تهتمي لأمرى، كلميه بلسانك. متى ستحين لك فرصة مماثلة؟

سألت عائشة فخري بالأديغية مع أن السؤال الأخير لجانيت - نيكول هرّ كيانها:

- متى ستتسافر؟

- لم يبق لي عملٌ غيرُك - الآن سأركب طريقي إلى نواحينا. - وفهمت عائشة لماذا أكّد على كلمة "نواحينا" غير أنها كتمت ما يعتمل في قلبها.

- مع السلامة يا فخري... - ارتجف صوت عائشة ثم أضافت: - لا أعرف مصير "أديغتي" ولكن اعتبر لغتي الأديغية انتهت هنا... - وانفجرت عائشة

التي تحمل اسم شارلوت - إلزابيث أيسبيه، وارتمت على صدر جانيت - نيكول.

فخري الذي لم يعد يتحمل رؤية ما يرى رجع بمحدوء، وترك الصبية التي تبكي "أديغيتها" المفقودة، مع سندها الوحيد في بلاد الغربة جانيت - نيكول.

X

أبلون واحدة من الضواحي الصغيرة المحيطة بباريس. ولا تبعد كثيراً عنها. تصل إليها بالعربة خلال ساعة. تنتشر بيوها بين السفوح المغطاة بالغابات وفي سهولها، وعلى ضفتي النهر الذي يجري لا مبالياً. تزينها البيوت الجميلة المتنوعة الأشكال، والغابات المحيطة بها أو المقابلة لها، والأشجار المثمرة. الهواء نظيف فيها في كل الفصول. والقلب يجد فيها راحته.

الغابة - البستان، المتناثرة العائدة لآل فيريول تبدأ من ضفة النهر وتنتهي بالبيت المؤلف من أربع طبقات. ولا تقف هنا، بل تندمج رويداً رويداً بالتل الذي يبدأ من جانب البيت. والبيت والفناء منبران في كل الأوقات، ر بما لأنه مرتفع عن الأشجار. والمقاعد الخشبية في كل مكانٍ ضاحٍ للشمس، وفي الأفياء. وملعب الأطفال على مرأى من النوافذ ومن المصطبة أمام البيت.

وطا كان الوقت زهوة فصل الصيف، تتنادى العصافير في كل مكان، في الغابة - البستان، وفي البعيد والقريب، وعلى المصطبة. وبعضها تميّز في الغناء. تفيق مع انبلاج الضوء، ويشتد غناهها مع الشروق. ثم تسكت مع الضحى. غير أن من لم يُئه غناهه يستمر يصيح من هنا وهناك. وعائشة تحب الاستماع إلى غناء كل الطيور. ليست التي تفيق مبكرة جداً، بل تلك التي مع الشروق. وفي هذا الوقت تفيق عائشة وتفتح نافذتها. ومهما أصمت الآذان بضميرها، وحتى لو استمعت إليها طوال النهار فهي لا تمل منها. ولا تكتفي بأغاني العصافير المرحة بل تنتظر الغناء الحزين للبوم. ولا تمل الطيور من الغناء إلا بعد وقت شرب الشاي صباحاً.

من جهة تبعث الفرح، ومن جهة تبعث الحزن. ما هذا؟ حتى لو كانت عائشة تتأثر بقلبها فإنها لا تستطيع إجابتها. لماذا تنتظر نعيب اليوم الحزين، البعيد — القريب، أكثر من صداح الطيور السعيد؟!

اليوم وهي جالسة إلى النافذة تعد مع اليوم بقلبها "واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة... عشرة، أحد عشر،.. ثلاثة عشر... أكملي أيضاً؛ قولي: "أربعة عشر" غداً سأبلغ الرابعة عشرة. وسيأتي اليوم إلى أبلون أوغستين — أنطوان، وبير، وكلودين، وجانيت — نيكول إن لم تنس. وستأتي، بل الأربعة سيأتون في عربة واحدة. ليتهم جاؤوا مثيرين استغراب الناس. لا، لو جاءني بير وجانيت — نيكول وأوغستين وكلودين، كلّ في عربة لكان أفضل. لو جاؤوا فرادى لتعجب جيرياني من الصبيان والصبايا. هناك في بلادنا كانت تقول جدي وجاري الصبايا "اليوم يصوت في موسم البصل الأخضر"... إذن لأنّه ليس موسم البصل الآن تتناقض نداءاتها؟ "سخرت عائشة من نفسها لأفكارها" لا يعني عدم إكمالك الصيحة الرابعة عشرة أين لن أبلغها!"

— يا أيسيل، تعالى معي إلى الماء قبل أن تحمي الشمس — ناداها بون دو فيل ممسكاً بيد أرجنتال الصغير.

— لا تذهبا وحدكما إلى الماء! ها أنا الآن حالاً — قفزت عائشة بقامتها الهيفاء المشوقة، وخرجت من الغرفة قلقة على أرجنتال الصغير، وأمسكت بيده، فانتزع الصغير يده من أخيه.

— ماذا جرى لك أخيها الشقي؟ كنت تترجاني أن آخذك إلى الماء. إذا كنت ستتصرف معي هكذا فلن أحكي لك الحكايات، ولن أركبك الأرجوحة. — نظر أرجنتال دون أن يرد إلى أخيه، وأمسك بيده من كان يلومه، ولكن هذا لم

يمنع بون دو فيل من متابعة عتابه: - هذا طبعك، تظل متمسكاً بالشيء كأنه
يسلبونك إياه... أسرع!

- لا تتشاجرا! - هدأت عائشة الاثنين، وامتدحت من كان يسبقهما: جان
- أرجنتال الصغير ولد ممتاز!

ظهر النهر، وحين سمع بون دو فيل خريره سبق أخاه الأصغر، وركض وهو
يصبح أخيه وراءه:

- حاول إذن أن تسبقني!

- اركض أنت، اركض، ستغرق في النهر - حين صاح أرجنتال وراء أخيه
اعتبرت عائشة:

- يا جان، لا يقال مثل هذا الكلام، هذا فألا سيء!

- لا يسبقنا إذن ويتركنا وراءه! - قال أرجنتال ثم نادى أخاه وهو ييكي: قف
يا بون، سيرجفوك النهر. ضفة النهر ملأى بالصبيان والصبايا. الأكبر سناً منهم
يستحمون حيث يركد الماء، والأصغر يلعبون على الضفة الرملية.

حين رأت ماري- مادلين دو لا فيفيل، الفتاة السمراء الصبور جارئهم عائشة
وأرجنتال نادت:

- يا أيسية ادخلني في الماء، إنه دافئ.

- ستنتظرين طويلاً إن انتظرت عائشة - أجاب الصبي أندريه وهو في الماء.

- وكيف يدخل إلى الماء من لا يلبس بنطالاً؟ - وافق هنري الصبي السمين
القصير ساخراً من زميله أندريه.

أسرع بون دو فيل قبل أن يستكمل خلع ملابسه وهجم على من يسخر من
أخته. وأنقذ الكبار الصبي الذي كان بون دو فيل صرعه، ويغمز رأسه في الماء.
ونصحت عائشة أخويها وهي تضم أرجنتال الذي هبّ لنصرة أخيه الأكبر:

- كفى يا بون وأنت يا جان، اهدأ! ماقاله لي هنري فلتة لسان، ولا يضمر لي شرًا. أليس كذلك يا هنري؟ وأنت يا ماري؟ - استشهدت عائشة بالصبية ماري التي تسبّب كلامها في المشادة التي جرت على ضفة النهر.
- نعم يا أيسبيه نعم. - وافقت ماري عائشة بسرعة. - هنري كان يمزح معك فحسب، لا من قلبه. هنري ولد ممتاز، لنسامحه!
- إن كان رأيكم هكذا - قال بون دو فيل دون حماسة - ليعتذر من أختي، ونحن نسامحه. أليس كذلك يا أرجنتال؟
- نظر أرجنتال نظرة رجاء إلى أخته. وتوسل هنري الولد القصيّر السمين إلى عائشة شبه بالـ:
- سامحيني يا أيسبيه!
- كفى بكاءً... - مدّ بون دو فيل يده وهو يمسح أنفه إلى هنري: - هاتِ يدك، وأنتِ يا أيسبيه ألا تغفرين له؟
- وأنا سامحتك! - لم يتأخر أرجنتال متضنعاً الرجلة عن أخيه وأخته. تأخرت ماري عن الصبية والصبيةا الذين يصعدون الآن الضفة صاحبين يتضاحكون وكأنهم غير أولئك الذين تعاركوا قبل قليل، وسألت عائشة عما كانت تتعجب منه طوال الصيف:
- تأتين إلى منذ أكثر من شهر ولم أرك نزلت إلى الماء مرة؛ أتخاففين؟ ألا تعرفين السباحة؟
- كان ما سمعته عائشة مداعة للضحك:
- كيف لا أعرف السباحة وقد ولدت على شاطئ البحر!
- ولماذا إذن لا تستحمين هنا؟
- كيف أستحم أمام الصبيان؟!

- عارية تماماً؟ - سألت ماري المرأة الصغيرة كما تريد مع أنها فهمت ما قيل لها.

- ماري - استدارت عينا عائشة البريطتان في محجريهما - ماذا تقولين؟ هذا عيب؛ النساء عندنا لهن مسابح خاصة. لا يقترب منها أي ذكرٍ، حتى لو بالصادفة.

- هكذا؟ - رفعت ماري حاجبيها المزججين ساخرة مما سمعت، معتبرة إياها مضحكة، وقالت لنفسها "كيف تخفي المرأة جمالها عن الرجل؟" في هذا النهار نفسه، وقد بدأ الجو يميل للبرودة ساعة انحدار الشمس دعا آل فيريول الصبية والصبايا من الجيران إلى فناء دارهم المستعمل مسرحاً. ولم يكن للدعوة هدف، بل هي دعوة أسبوعية كل سبت. ولما كان أرجنتال هو المكلف بالدعوة فقد دار برفقة هنري، وقد تصالحا، كل المنطقة. وأبلغوا المسؤولين عن إدارة المسرح شارلوت - إليزابيت أيسبيه وبون دو فيل، وهما يتنافسان، أكملما نفذوا المهمة. ومع أن مهمة عائشة كانت أعلى فقد أمسك بون دو فيل المبادرة وسأل أخاه وجاره:

- هل أنتما جاهزان؟

- أنا جاهز في أي وقت! - بادر أرجنتال: سأكون أنا الكلب، وهنري فقط، أنا سأنبع، وهنري مقوساً ظهره سيتظاهر بضربي بقائمته.

- لا تنسي ما ستقولانه - تدخلت عائشة - تخاصما كما أفهمتكم، وكلٌ يحذر صاحبه. وحين يقتحم عليكم أندرية الديك اهريا كالخائفين. هذا أولاً والأمر الثاني: لا تنس صافرتكم!

- إن فعلت بنا هذا مرة أخرى يا هنري فلا تنس ما غفرت لك في النهر! - كان بون دو فيل جاداً في تحذيره مع أنهما تصالحا.

- بون - حمت عائشة مرة أخرى الصبي - لن يعيده هنري خطأه، وهذا هي صافرته على المقعد.

- وأنتما يا أيسبيه؟ - لا يكتفي بون دو فيل بمهمة الأصغرين، بل يقدم نفسه على الأكابر - هل الملابس التي ستظهران فيها، أنتِ وماري، جاهزة؟

- ملابسنا أنا وماري جاهزة ولكن لا أعرف إن كانت ستعجب المشاهدين.

- قالت عائشة خجلة وأردفت: - لسنا وحدنا، فالمغنون والراقصون جاهزون أيضاً. وقد عمل معهم لاروش. وأنت؟ القصيدة التي ستلقيها؟

- وأنا قصيدي جاهزة - ومع أنه لم يكن في نية أي من الثلاثة السؤال عن القصيدة فقد جرّد بون دو فيل من نفسه فناناً، وألحَّ على زملائه مباعداً بين ذراعيه - لا، لا تسألوني، لن أكشف عنها، سأجعلها مفاجأة.

لم تستطع عائشة النوم مع أنها أوت إلى الفراش منذ وقت طويل، كانت دنياها أمس اختلطت بدنيا اليوم. اختلطت أحداث المشاجرة التي كانت هي محورها على ضفة النهر، وما جرى مساء في مسرحهم، والقصيدة التي قرأها بون دو فيل، من نظمه، بمناسبة عيد ميلادها الرابع عشر، وتصفيق الحاضرين. لم تستطع إلا أن تفك في بلوغها الرابعة عشرة رغم تظاهرها بعدم الاهتمام. فمهما كانت العطل الصيفية في أبلون مريحة ومرحة فهي تشترق إلى مدرستها في سان - كول، وإلى زميلاتها. وملعماً ما مثالات دائماً أمام عينيها.

لماذا لا تستطيع عائشة النوم؟ الحق أنها نامت قرابة الساعة في البداية؛ ولكن لماذا أفاقت وكأن أحداً يدفعها بأنامله. ومن أيقظها؟ أخاطبها أشعة القمر الذي تسمّر عند نافذتها أم أجهلها هدوء ليل الصيف القصير؟ "ما هذا؟" أنصتت عائشة، ونهرت، بخلط من الأدبية والفرنسية، الطائر الذي أيقظها: قاتلك الله، لا تنفك عن الدمدمة، ابتعد عني واتركني أستريح. ما أقبحك من

طائر لا تعبأ بجمال هذه الليلة المقرمة! نهضت عائشة وأغلقت النافذة. وعادت إلى الفراش وتدبرت باللحف كي لا تسمع، وفي اللحظة نفسها توقف الطائر عن أنيبه. - هناك، في بلادنا، كان على أشجار بستاننا يومه... ولو لا أن جارنا التركي "ممت" أمر بقتلها لربما تجنبنا هذه المأساة. وإن أردت، لا تعبأ بنهرى إياك، واستمر في الصياح إن كان فيه فائدة. نفس عن همومك! وأنا مثلك أصيبح أحياناً شاكية متنهمدة، غير أن أحداً لا يسمعني".

تقلبت عائشة في فراشها والهموم تتلاعب بها. وغيرت وسادتها أكثر من مرة. وألقت اللحف عن جسدها ثم أعادته. وعدت، كما نصحتها ذات مرة زميلتها في سان - كول، ماري دو فيشي - شامرون، إلى الملة والملئين والخمس.. حتى الألف. ولكنها لم تستفد من عدّها. وحين بدأت تغزو رأسها ما يخصها وما لا يخصها من الهموم، تذكرت نصيحة جدتها "إذا لم تستطع اليوم ليلاً ففكّر في الأمور الممتعة، لا في المزعجة".

"كل شيء على ما يرام" - دعمت عائشة نفسها. - الناس الذين صرّت منهم، آل فيريول أناس طيبون، يربونني، يعزّوني، لا يحيجوني إلى شيء. وماري - أنجلييك تخني. تلبي لي ما لا تلبّيه لأولادها. وكم كانت فرحة حين ألقى بون دو فييل مقطوعته في، ولما انتهى منها دعت الحضور إلى الوقوف والتصفيق لي... وجان الصغير ركض إلى وجثاً أمامي على ركبتيه وقبل يدي. وباقة الورد الكبيرة التي قدمها لي أندريه؟ وهنري المكتنر الخدين، وقد قفز من مكانه وشرع ينفع في صافرته؟ وصوفي؟ حين شخصت أمّاهم لابسة قبعتي الصيفية الخفيفة، لم تملك نفسها من السعادة وهي تهتف "برافو". ولاروش تَنَّرَّه بنا أنا وماري - أنجلييك وهي ترتدي فستانها الأخضر، وأنا قبعتي الحمراء الخفيفة، ثم عرف لنا؟ احتفلوا بعيد ميلادي على ما ييدو. لا، لا، غداً يوم الاحتفال!

وأوغستين، وكلودين، وبير، وجانيت - نيكول، كلهم سيأتون. وشارل دو فيريول كان كتب لي أنه سيصل من إسطنبول في عيد ميلادي الرابع عشر. هو إنسان عجيب؛ قد يكون وصل، وفي باريس؟! يريد أن يفاجئنا. كان كثيرون سيستغربون لو حدث هذا. وإن لم يستطع الحضور فلن ألومه "أمور البلاد، كما تقول جانيت - نيكول، لن تدعك حراً وأنت في بلاد الغربة" - استغرقت عائشة في النوم أواخر الليل وهي تذكر الجميع بالخير.

أفاق بون دو فيل وأرجنتال باكراً على غير عادتها البتة. ولم يكونا وحيدين؛ كانت أسرة فيريول، باشتئاء شارلوت - إليزابيت أيسيه على الأقدام. وأرجنتال هو الغارق في العمل أكثر من الجميع. يجري من المكان الفسيح الذي سيتخدونه مطعماً في يوم الاحتفال وبين غرفة نوم عائشة. لم يقف على باب غرفتها، وعلى رؤوس أصابعه، إلا ثلاثة مرات في حدود الساعة. وكان عنده ذرعة في هذا: استقبل عربة والده أوغستين - أنطوان، وعربة خالته كلودين، وعربة خاله بير ومعه جانيت - نيكول، كلاً على حدة. وفي كل مرة يخبرهم أن شارلوت - إليزابيت أيسيه ما تزال نائمة، ويوصيهم بحزم لا يوقفوها. - تنفيذاً للأوامر السرية الصادرة إليه من أمه ماري - أنجيليك. ومائدة احتفال آل فيريول جاهزة منذ الضحى. والوحيدة الغربية عن آل فيريول عليها هي جانيت - نيكول. والمقعد الفارغ بين مقعدي الكونت أوغستين - أنطوان والكونتيسة ماري - أنجيليك لشارلوت إليزابيت أيسيه. وعلى جانبي الأب والأم بون دو فيل وأرجنتال. ومقابليهم بير - غيرين دو تانسين وجانيت - نيكول. وكعادتها تجلس كلودين - ألكسندرine وحدها مشوقة القوم منتصبة الرأس. وعلى يسارها، بعيداً عنها يجلس لاروش. وقريباً من الباب، وعلى طرف المائدة مقعد صوفى التي أرسلوها تستدعي عائشة.

والشمع الأربع عشرة التي تشهد على سنوات عمرها تنتظر ولا تنتظر من سيفتها. وما إن سمع أرجنتال صوتاً من خلال الباب المفتوح على مصراعيه حتى صرخ:

– شارلوت – إليزابيت أيسبيه قادمة!

حين دخلت عائشة الغرفة بشوحاها الذي يشهد على قوامها الرشيق، وقعتها الحمراء الحقيقة يتخللها الماء، وحذائها الأبيض غير العالى صفق لها الجالسون. وبدأت عائشة من أرجنتال فقبّلت وجنت الجميع، ثم اتخذت مجلسها المحدد. وخطب أوغستين – أنطوان:

– اليوم عيد ميلاد شارلوت – إليزابيت أيسبيه. ولما كانت بلغت الرابعة عشرة فأنا والحاضرون كلهم نحتفل معك بعيدك. ولستنا وحدنا فوالدك شارل دو فيريول سفيرنا في فرنسا، لم يستطع الحضور بسبب أعماله المتعلقة بالدولة، لكنه لم ينسك فأوصاني أن أقدم لك هذه الأسوارة الذهبية والقرطين الذهبين. وباسم أسرتنا أرفق بأسوارة أخي أسوارة أخرى. ونتمنى لك أن تبقى كما أنت فتاة عاقلة ذكية، وأن يرافقك الحظ طوال حياتك، وتحتمني بصحة جيدة. وتحتمني في دراستك، وتحتمني بإنسانيتك. ومن أجل أن تبقى السنوات الأربع عشرة ثابتة الجذور في حياتك أدعوك إلى إطفاء شموعك.

أطفأت شارلوت – إليزابيت أيسبيه شموعها بنفحتين مع أن الجميع تصوروها فتاة نحيلة ضعيفة. صفق الجميع لها مرة أخرى. ثم ألقى كلمات بالمناسبة، ورُفعت الأذناب. وقدموا لها هداياهم: خواتم فضية، ووشاحاً حريريًّا، وحليةً للصدر. وأمشطة، وحافظة فيها عملة ذهبية.

– قالت كلودين – ألكسندرین بعدها هنأها: هذا الكتاب يا شارلوت – إليزابيت أيسبيه،كتابي الأول المطبوع حديثاً أقدمه لك كأغلى تذكرة. ولم أقدمه

بعد إلى غيرك. لا تتوجسي منه؛ أنتذكرين يوم رميت علىّ كتابي، هذا الكتاب ليس فيه مثل تلك الصور الفاضحة في الكتاب الآخر الذي رميته في وجهي في تلك المرة. ثم أكّدت: إنّ أعجبك فاقرئيه، وإن لم يعجبك فافعلي به ما تشاءين. لا اعتب عليك! احتفل أل فيريول حتى الغروب. عزف لاروش على الأوكرانيون، وغنوا معه ورقصوا. وحين اعتزم ببير وجانيت نيكول العودة إلى باريس ودّعوهما، وهمست جانيت في أذنها:

- اليوم كت جميلة جداً يا أيسبيه. أريدك أن تكوني هكذا على الدوام!

الكتاب الثالث

I

حياة الإنسان كالعالم الذي يعيش فيه. أحياناً شمسٌ ساعٌ، وأخرى سماء غائمة. أحياناً عاصفة، وأخرى همطرة. وفي هذا العالم تتناوب مواسم الخصب والجدب، والصحة والمرض، والحر والبرد، والسعادة والنحس. هذا على حscar، وأخر على رجليه. هذا متخم والأخر جائع. وليس هذا عجبياً فهذه شجرة عملاقة وأخرى قزمة، وظل العملاقة يمنع القزمة من النمو. هذه أشجار تحمل الفواكه، والأخرى عقيمة. هذه تكسرها الريح، والأخرى صامدة.

الدنيا — سواء للأحياء أم من لا روح فيه — ليست سراً. واضح ليُلها ونهاها، برؤها وحرها. إنما أشبه بافتضاح أمر حب النساء وأمر حملهن.

لا يهتم الكونت شارل دو فيريول بهذه الأمور التي تتصدع الرأس. لا يعني هذا أنه مهمل لشؤون الدولة التي كلفوه بها. فمن هذه الناحية هو مخلص ملكه ولبلاده. ولكنه لا يمل من شهوته ومن تبديل نسائه. يعيش غير عابئ بأصول النظرة إلى النساء، المرعية في تركيا. سرُّه في هذا الشأن أقلُّ من تحرره، يستوي عنده الوهاد والنجود، لا يريم على شيء. يسخر من ينصحه بالاقتصاد في النساء، ويعتب على من يلومه على نقض الأعراف والتقاليد التركية.

حين يُرى سفير فرنسا متأططاً في الشارع، أو في المطعم الفخمة، امرأة من النساء الرخيمات، يُخيف منظره النساء التركيات. ويسمر الرجال. وليسوا قلائل من يشاجرونه. ومن يصدقون في إثره أكثر. والمحافظون من المتدينين توعز

إليهم أيديهم أن تهوي عليه، ثم يتذكرون أن الرجل سفير دولة، والسفير أجنبي، فيتراجعون.

- أخشى أن يؤذيك من لا يعرفونك. - قال فخري قلقاً على شارل دو فيريول.

- قبل أن يؤذيني من لا أعجبهم من قومك - يضحك الكونت من أعماقه - إن كانوا يريدون استتاب السلام بين تركيا وفرنسا فليسألوا عن نوعيتي بين البشر. لماذا يعيش في تركيا، دعك من إسطنبول، من لا يعرف أني سفير فرنسا! - يسأل مازحاً غير أنه سرعان ما ينقض كلامه: - أفهم، أفهم. أنتم الأتراك تساوون بين الصراحة في القول والعين الفاجرة، ولذا فالأفضل ألا أتصرف هكذا. ولكن ما أحبه بقلبي لا يمكنني أن أحرم نفسي منه مهما كانت التائج. ألا أتازل هكذا عن هويتي الفرنسية؟

- أعتقد أن الحب والشهوة على الفرنسيين؟ - يلمح له فخري معتاباً - هذا يجب أن تصونه في القلب، لا أن تُظهره على الملأ، وتشي به بين الناس. يتجلّى السر بين الرجل والمرأة في إنجاب الأطفال، لا أن تمشي في الشارع متابطاً ذراعها، أو في ميدان سباق الخيل، أو في المطعم.

- نعم، صحيح. أكما تدلل أمرأتك ذات العيون الواسعة وحبتها؟ تبيّن لي أنك غير ما كنت أتصورك!

- ألسنت أنت يا معلم من قال إن الأمر سهل إن كنت قادراً؟ - احمررت وجنتا فخري مسروراً لما سمع. أنت من أرسلتني إلى فرنسا أبحث عن علاج ونفعتي توصيتك. شكرأ لك، لن أنسى صنيعك معي.

- حلال عليك يا فخري. تفرح بما صنعته بنفسك. أصلي إلى إلهكم من أجل أن يأتي مولودكم بخير، وأنتما أدعوا إليه. - قال شارل دو فيريول، ثم أضاف

دون معنى كي يخفي فزعه من شدة تنهده: - لم أر أورخان من مدة؛ ما أخباره؟

- يقول إنه استقر في سلك البوليس.

- حسن، حسن. تبين أن أورخان شخص طيب. ليست العشرون عمرًا طويلاً؛ أتوقع أن يصبح رجلاً ممتازاً.

يجلس شارل دو فيريول في شمس الخريف الناعمة، وهذه الأفكار وغيرها من الذكريات طافية على السطح. لا الهواء يزعج، ولا الشمس تحرق. وروائح ورود الفناء تنتشر مع النسيم الرقيق. والمآذن الداعية إلى صلاة العصر تتجاوب أصواتها في أرجاء إستانبول. ولما كان اعتاد على أصوات المؤذنين فإنما لم تعد تزعجه كما في السابق بل أصبحت تُعلمه بالوقت.

يتصفح شارل دو فيريول الأوراق التي جاءته اليوم من فرنسا ويقرؤها. ويضع القضايا التي يجب أن ينفذها دون تأخير في مصنف أحمر، والأخرى في مصنف أخضر. وفيما هو يتعرف ما فيها يشرد عنها بسبب الأفكار التي تغزو الرأس "ما أجمل المرأة التي أعددت لنا المائدة حين زرت كاتيمير ديميري قبل أيام، بشرئها جذابة، وعيناها؟" منذ زمن بعيد لم أقابل امرأة بهذه الطباع السلسة. ربما بسبب أمثال هذه المرأة يقولون إن النساء الروسيات كأنما يتجممن بالحليب. ونساؤنا الفرنسيات؟ والفتيات الشركسيات؟ انتصبت أمام مخيشه شارلوت - إليزابيت التي لم يغب خيالها عن لحظة. - هذه الفتاة الجميلة هي من أقصدها بكلامي، لا تلك التي تلوى وركها! لن تتعارفها بعد عدة أشهر وقد أخذت عامها الرابع عشر وتقمصت جسد امرأة. ثم إنما أكبر من عمرها لأنها طويلة مشوقة القوام، فلا يشبع فخري رغم مرور سنة على رؤيتها لها من الحديث عن جمالها وفطنتها. حسناً فعلت إذ لم أزر أيسيه إلى الآن. من هي أمام ناظريك دائماً

تمل منها أحياناً، شئت أم أبيت. والبعيدة عنك تشتاق دائماً إلى رؤيتها، وتحبها.

طلت أفكار شارل دو فيريول في باريس وسان - كول وميلين رغم مضي وقت طویل على انتهاء المؤذنين من ذاهم والمصلين من صلامهم. ما شأن هذه الأماكن بأفكاره؟ ليس منذ البارحة أو اليوم يشتاق الكونت إلى هذه المدينة الصغيرة. ماحدث بينه وبين مادلين يطفو أحياناً رغمما عنه على سطح الذاكرة. كان قد أوصى فخري حين اعتزم السفر إلى باريس أن يسأل عن مادلين ولكن تظاهر كل من سأله عنها في ذهابه وإيابه بأنه لا يعرفها؛ ففهم أنهم يخفون عنه سراً؛ فلن يلْجَ في السؤال لعلمه أنها امرأة متحركة. ولا يريد شارل دو فيريول أن يعرف أحد سرّه مع تلك المرأة؛ ولذا كفّ عن ذكرها لفخري قائلاً في نفسه "ربما جرى لها أمر سيء"

ولم يكن شارل دو فيريول غير عابئ بأمر فخري وعصام "أيكون فخري نسي المسألة حين عادت إليه رجولته؟!" ليس هذا مستحيلاً. ولكن لو كنت أنا المعنى بالأمر لما استطعت. لن أهدأ قبل أن أفعل بمن حرمني رجولي مثل ما فعل بي. نسي الإهانة التي أُلْحقت به مرتاحاً في حضن امرأته. وأورخان الدعوي حين مُرِغَ عصامَ أنفَه في الوحل انتسب إلى البوليس ونسي. الظاهر أن عصام، وإن كان إنساناً قدرأ، يتمتع بالرجلولة. يحمي نفسه... انظر إلى الشمس الغاربة ما أكبرها وما أشدّ حمرتها؛ تحرق السماء دون دخان. ما هذا؟ تعرف اسم الأسرة المكتوب على الورقة: "غيرين دو تانسين - كلودين - ألكسندرین" عجيب؛ أنسىت الإهانة التي أهانتيها أمام باب دير مونفرييل؟ ماذا تكتب لي؟ دور الكونت عدة مرات الورقة المغلقة دون أن يفتحها. قلّبها وقلّبها، ووجهها نحو نصف الشمس الآيلة إلى الغياب ونظر إليها. استعجل عليها قبل أن

تعجب الشمس، فقرأ: "صهرنا العزيز السفير الفرنسي المحترم شارل: هذه الرسالة من كلودين - ألكسندرین. قبل كل شيء سامحني على إساءتي إليك حين جئت إلى مونفرييل لزيارتي. في ذلك اليوم لم أكن عادلة مع أحد. والذي كان السبب في دخولي دير أفعوستين هو الوزير الأول دوبوا العجوز الذي أقاله اليوم ملكتنا. وهو من وشى بك إلى وكان السبب في العداء بيننا. لم يدع سوءاً يخطر له إلا أصلقه بك لخوفه من أن تسلبه منصبه. وأنا سايرته خوفاً من أن يمنع صدور كتابي. هل تعرف من استلم منصبه الآن؟ دو كوندي بوربون المؤتمر بأمر المركيز زير النساء دو بري. ولكن يعتقد أنهم لن يتركوه طويلاً في هذا المنصب. ينصحونه بتعيين المقرب من البلاط إركيول - أندريه دو فليري صاحبنا. وإن تولى هذا منصب الوزير الأول كان من مصلحتنا. نعرفه ويخالطنا. والآن سأتي على ذكر شارلوت إلزابيث أيسبيه لأنني أعتقد أن الأمر يزعجك أكثر مما يزعجني: أيسبيه كبرت أكثر من عمرها وصارت فتاة ناضجة. وأرى أنها لن ترفض من يغازلها في المستقبل القريب. وقد ضمتها إليها جانيت - نيكول، لا تعرف بصفة أم أم أخت أم صديقة؛ فأخشى ألا تسمح لنا أن تقع عيننا أنت ونحن عليها. والفتاة التي لا تؤمن بأن في باريس امرأة أجمل منها لا تتوقف عند هذا الحد. علقت بأختنا الوحيدة بير حتى فقد عقله معها. كان يمكن ألا أكتب إليك هذه الأخبار ولكنني لم أعد أتحمل. وماذا الآن؟ لا أعرف خبراً يسر قلبك. باريس كما تعرفها تغلي بالحياة. وفي فيرساي وفي تريانون عيد دائم. أنت تُحِّرِّم من أشياء كثيرة في غمرة انشغالك بهامك في الخارج. ولم أفهم حاجة باريس إليك واحتياقها إليك إلا الآن. كل آل فيريول ومن في قصرهم الأبيض الكبير يهدونك تحياهم. يمكنك أن تجحِّب على رسالتي غير أن الأفضل أن نراك بيننا. كلودين - ألكسندرین.

نَحْضُ شَارِلْ دُو فِيرِيُولْ مَرْتَبِعًا مِنَ النَّارِ الَّتِي دَبَتْ فِي جَسْمِهِ. قَرَأَ الرِّسَالَةَ ثَانِيَةً. ثُمَّ رَكَّنَهَا. وَأَخْدَهَا مِنْ جَدِيدٍ. نَحْضٌ، ثُمَّ جَلْسٌ. أَظْلَمَتِ الدَّارِ الَّتِي غَلَبَهَا الْمَسَاءُ. وَبَدَأَتِ بَعْضُ النَّجُومِ الْقَلِيلَةِ تَلْمُعُ. وَأَصْوَاتُ تَكْسُرُ الْأَمْوَاجِ تَصْدُرُ مِنْ جَهَةِ الْبَوْسَفُورِ. وَتَخَيَّمُ عَلَيْهِ مَظَاهِرُ حَيَاةِ الْلَّيلِ فِي إِسْتَانْبُولْ. وَتَوَجَّهُ إِلَى الْحَاجِبِ "أَسْتَقْنُ" الَّذِي يَحْمِلُ إِلَيْهِ الشَّمْوَعَ:

– مَاذَا؟ أَتَرِيدُ أَنْ تُبْقِينِي جَالِسًا هَنَا الْلَّيْلَةَ؟ – غَمْغُمُ السَّفِيرِ الْفَرْنَسِيِّ مَتَجَهًا إِلَى غُرْفَتِهِ دُونَ أَنْ يُفْلِتَ رِسَالَةَ كَلُودِيَنْ – أَلْكِسَنْدَرِيَنْ.

لَمْ يَرْتَحْ شَارِلْ دُو فِيرِيُولْ فِي الْغُرْفَةِ. كَانْ بِقْلِيهِ فِي بَارِيُسْ وَسَانْ – كُولْ. كَمَا يَقُولُ "الْتَّنَّامُ بِسَبْعَةِ أَلْسِنَةٍ" لَمْ يَخْتَبِرِ الْكَوْنَتِ إِلَى الْآنِ مُثْلِ هَذِهِ التَّجْرِيَةِ. كَانْ يَعِيشُ فِي تُرْكِيَا، وَخَلَالَ اسْنَوَاتِ الْأُولَى، كَانْ يَقْضِي هَذِهِ السَّنَةَ، وَبَارِيُسْ أَمْلَهُ الْلَّذِيْدَ، وَيَحْلِلُ مَشَكَلَاتِهِ فِي إِسْتَانْبُولْ. وَالآنْ تُمْيِي إِلَيْهِ مَا كَانْ يَخْشَاهُ مِنْ أَخْبَارٍ. وَلَمْ يَسْمَعْهَا قِيَالًا عَنْ قَالٍ، كَمَا يَقُولُ الْمُثَلُ "الْطَّبَلُ الْأَجْوَفُ يَصْلُ صَوْتَهُ الْمُضْطَرِبُ وَلَوْ مِنْ بَعِيدٍ"

وَلَذَا لَيْسُ الْأَمْرُ "نَمَامًا بِسَبْعَةِ أَلْسِنَةٍ" لَمْ تَتَحَمَّلْ كَلُودِيَنْ – أَلْكِسَنْدَرِيَنْ مَا تَرَى وَمَا تَسْمَعُ. كَتَبَتْ إِلَيْهِ لَأْنَهَا فَرِيَةٌ مِنِي رُوحًا وَقَبْلًا. لَمْ تُخْفِ عَنِي مَا جَرِيَ لِدَوْبِوا عَدُوِّيِّ، وَمَا شَكَّتْ فِيهِ مِنْ جَهَةِ أَيْسِيَهِ. وَأَطْلَعَتِنِي عَلَى أَخْبَارِ أَخْيَهَا بَيِّرِ وَجَانِيَتِ الَّتِي تَشَبَّثُ بِهِ. وَهَكُنَا يَكُونُ الْأَهْلُ وَالْأَقْارَبُ. أَنَا مِنْ اشْتَرَى أَيْسِيَهِ وَرِبَاهَا وَعَلِمَهَا وَلَيْسَتْ جَانِيَتِ الَّتِي تَتَوَسَّلُ حَبْهَا. مَا إِنْ أَذْهَبَ إِلَى بَارِيُسْ حَتَّى أَكْشَفَ نَوَايَاها الْحَقِيقِيَّةَ نَحْوَ أَيْسِيَهِ. سَأُفْهِمُ بَيِّرَ أَنَّهُ لَا يَمْكُنُ اكْتِشَافُ جَمَالِ الْمَرْأَةِ مِنْ اخْتِلَاءِ أَمْسِيَّةٍ وَاحِدَةٍ، وَأَنَّهُ لَا امْرَأَ كُلُّ مَا فِيهَا جَمِيلٌ. مَهْلًا مَاذَا تَكْتُبُ لِي كَلُودِيَنْ – أَلْكِسَنْدَرِيَنْ – يَمْسِكُ بِالرِّسَالَةِ وَيَقْرَأُ خَاتَمَتِهَا وَهُوَ يَذْرِعُ أَرْضَ الْغُرْفَةِ: – "يُمْكِنُكَ أَنْ تَجِيبَ عَلَى رِسَالَتِي غَيْرَ أَنْ الْأَفْضَلُ أَنْ نَرَاكَ بَيْنَنَا.

كلودين – ألكسندرин. " – أترى، أتسمع ما تقول: الأفضل أن نراك بيننا. من البديهي أن تُسرِّي إذا أشبعتك بعدهما لفظك دوبوا العجوز. هذه المرأة التي تأتين على ذكرها جانيت – نيكول ليست امرأة سيئة. ولا هي قبيحة. سأكتشف هذه الأمور حين آتي إلى باريس. إن كان الموقف كما تقولين فلن أطيل عليكم."

قطع الحاجب "أُستِن" الذي دخل الآن أفكار الكونت:

– جاء الشرطي أورخان.

– أي شرطي؟ – لم يستوعب شارل دو فيريول في البداية. ولكنه استفاق بسرعة. – هل تقصد أورخان؟ وماذا يريد؟ ليدخل! – مثل أمامه أورخان بزي الشرطة الكامل، وعلى رأسه طريوش، والسيف والعصا معلقان ببناره، وأطراف البنطال مضبومة في الخذاء. ومع أنه يراه وحيداً فقد سأله: أَنْتَ وحْدَك؟ – ولما كان يعرف الجواب فقد أصلح كلامه: – نعم، نعم، الله معك. تفضل، اجلس! أراك بهذا الزي لأول مرة، مناسب تماماً لك.

– شكرأً أنا مستعجل.

– ما الأمر؟ أحدث مكروه جعلك تأتي إلى؟ – سأله وأكّد عليه: – ليس من عاداتنا، لا أن نسمح بدخول من يرتدي زي الشرطة فحسب، بل إلى أرض فرنسا كلها.

– فهمت الأمر من اعتراض حارسكم.

– إن كنت فهمت فلا تكرر. – قال الموفد الفرنسي بصوت أحزم، وأضاف باختصار: – أسمعك.

– ألقينا القبض على عصام.

- أين هو؟ - تماسك شارل دو فيريول ولو أن الخبر جعل رأسه ينتفض. -

حسنٌ أنكم اعتقلتموه، ولكن ما شأني أنا بالأمر؟

- ألا يكون لك علاقة إذا كان عصام هو من سرق أيسيه؟ - لمعت عيناً أورخان الفاحستان.

- ليست شارلوت - إليزابيت أيسيه وحدها المتضررة منه، لفخري أيضاً دينٌ عليه!

- لأن لكتلوكما دينًا عليه أرسلني فخري إليك. - لم يتوقف أورخان المستغرب برادة شارل دو فيريول. - ينتظرك فخري في سفينة سليمان لأننا ألقينا القبض عليه فيها.

سرت ضحكة باردة على شفتي السفير الفرنسي.

- إن كنتم تظنون أني أقيم في تركيا ولا شاغل عندي إلا عصام فالذنب ذنبي مهما حصل لي. بلّغ فخري أنه إذا كان اشتري عصام من سليمان فليعمل به ما يشاء. هذا أولاً، والأمر الثاني: افهموا أنتم الثلاثة: فخري وأنت وسليمان أن لاشأن لي بما يحدث داخل تركيا. أنا سفير فرنسا وموفد ملوكها، لا تورطوني في ما لا شأن لي فيه؛ أفهمت؟

- فهمت.

- لا، لم تفهم. - أجابه شارل دو فيريول متأثراً بغضبه.

- فهمت! - كرر أورخان ماقاله ولكن بصوت أحد.

- إن كنتَ فهمت فالأمر انتهى هنا. - نهض الكونت وقد ارتفع صوته - لم نتكلّم في هذا الموضوع اليوم؛ بل لم أرك ولم ترني.

قال شارل دو فيريول في نفسه، وهو يشيع أورخان "هؤلاء الأتراك لا يجوز أن ُطعمهم فيك، إن ابتسمت في وجهه اعترلي رأسك... ومع أني أكّدت لفخري

ألا يقابل أيسيه في سفرته إلى فرنسا فقد زحف إلى سان - كول، ولم يكتف بأن خرب أمرى مع الصبية ومع جانيت - نيكول بل يرسل إلى هذا الشرطي النمام ليبشرني أنه ألقى القبض على عصام. يريدني أن أشهد على ثأره. ستنظرني طويلاً! وما على فعله في باريس يتعلق بإمكاناتي في حله. الله يعلم ماذا خطر جانيت - نيكول. وكلودين - ألكسندرин التي لفظها دوبوا الفتان ليست بريئة. تنتظري بفارغ الصبر، تزيد مقابلتي. وماذا ينوي أولئك الثلاثة أن يفعلوه بعصام؟ ما أحسن أن تتجسس عليهم دون أن يعرفوك! ولماذا هم ثلاثة؟ لا شك أن سليمان سيتركهم حالما يقبض أجرته. ربما فخري من له ذين عليه. سترأب ما يجري" - ضحك شارل دو فيريول في سرّه وعاد بقلبه إلى باريس.

الميناء خاوٍ، رما لاقتراب صلاة العشاء. وحين قفز أورخان من العربية واتجه إلى سفينة سليمان كان قمر الصيف المستدير يصعد إلى قمة الجبل. يصلى فخري العشاء في حين يرقد عصام على أرض الغرفة مكملاً مكمم الفم. ودون أن يعبأ أورخان بال مجرم الذي يريد أن يقول شيئاً، يتوضأ ويقف إلى يسار فخري.

وبعدما انتهيا من الصلاة تباعاً، سأله فخري:
- أراك وحيداً، لماذا؟

- ذهبت إلى حيث أرسلتني ومعي الله وحده، وعدت كذلك مع الله. وحيث كنت - لم يذكر اسم الشخص كما كانا اتفقا - قال لي: اعملوا به ما تشاءون، أوقفكم على ما تفعلون به. أين سليمان؟
- انتهت علاقتنا به.

- وهذا حقٌ! ولكن ماذا يريد هذا الذي يخطّ رأسه بالأرض.

- اسحب الخرقة من فمه ودعه يقول ما يريد.
- إن كنتم مسلمين - توصل عصام - دعوني أصلب العشاء!
- نحن مسلمون ولكن لا نعرف دينك. - ضحك أورخان وهو يعيد تكميمه.
- ماذا سنفعل به؟ قل وأنا حاضر من هذه اللحظة.
- هذا يستحق أي عقاب، ولكن لا أريد أن أذنب بحق أطفاله.
- هل رزق الله هذا المعدوم الرحمة كل هؤلاء الأطفال؟
- أعطاه كي يفكري في سلوكه ويعود عن غيّه ولكنه يعيش دون أي معروف، يغلب عليه الظلم. - وحين انتصبت أمام فخري صورة زوجته الحامل، حفّت صوته، ونظر في وجه أورخان وهو يكاد يتسلل إليه: - قل ماذا نفعل به!
- افعل به ما فعل بك! - اختصر أورخان الموضوع.
- لا، لا. أنا عدت إلى سابق حالي فلا نفعل به هذا يا أورخان! - وأنت في مقتبل العمر. أمامك عمر كامل. - حلّ فخري رجلي عصام المقيدين. وحرر يديه وفمه.
- أتعيد الحرية إلى من دفعت لأجله كل هذه النقود؟ نهض أورخان غاضبًا.
- نعم يا أخي الصغير. ليس من أجله بل من أجل أطفاله. قُم، قُم أيها اللعبة!
- وإذا سمعنا أنك آذيت غيرنا فاعرف أننا سنسلبك روحك لا يرددنا شيء!
- حين صار الثلاثة قرب الميناء وأطلقوا عصام شبه الأحذب الآن لم يتمالك أورخان أن يصبح وراءه:
- قف لحظة! - توصل عصام وكأنه غير ذلك الذي كانت الأرض لا تسعه من تيهه: - ساحني... - كنت أحسي نفسي فحسب.

- أنا لا أسامح أحداً كما فعل فخري؛ انظر فهو أمر حسن؟ - غرز أورخان طرف السيف في ساعد عصام. وصاحت في إثر الرجل المارب متأنلاً: - هذا ثأري الأول. والثأر الآخر سيأتي إن لم تكفت عن جرائمه.

وقف فخري لأياً لا يعرف تفسيراً لما يرى ويسمع، ثم لام أورخان: - ما كان يجدر بك أن تفعل هذا. أحبطت معرفتنا أمام الله.

- نعم، لا أعرف ماذا تأمل من لا يستحق فعل الخير؟ تقضي عمرك تفعل الخير. وبهذه الحجة جعلتني أغفر لمن كانوا يريدون إلقاءي في البحر. وسليمان المجرم جعلتنا نتصالح معه ثم أحسنا إليه اليوم بمبلغ كبير. أزداد معك ما كسبته بعرق جبينك؟

- لا، لم يزد، ولكن لا تكون ظللاً يا أورخان! - نصح فخري، وهو يستغرب عتاب الثأر الذي يسمعه من الشرطي الشاب: - هذا سيضرك. لا ننس زمان كنا عبدين مملوكيين! "من لا يفعل الخير لا يجد الخير بانتظاره". - "ما أقسى قلوب هؤلاء الشباب، وما أكرههم لفعل الخير!"

لم يكن أورخان قادراً على الإجابة على مواعظ فخري لأنه كان غارقاً في أفكاره.

II

هناك من يصعب عليه السفر، غير أن من يستسهلونه ليسوا قلائل. وشارل دو فيريول يستوي عنده الأمران: يصعب عليه القيام؛ غير أنه متى قام صعب إيقافه.

هذه المرة لم يكن عند السفير الفرنسي مفر من ركوب طريق باريس، ولم يبق في المسألة خيار. وسبب الاستعجال هو رسالة كلودين – ألكسندرین المفاجئة. ولم يسبق لها أن كتبت إليه في مثل هذا الشأن رغم أنه يقيم في تركيا منذ سنوات.

ورغم أن الكونت لم يكن يود تناسي المغامرات النسائية فإن عليه الآن أن يفكر في الأمر الذي يقطع لأجله هذا الطريق الطويل. وأمامه أسبوعان يرتب خلالهما قضياباه.

طريق البحر مريح في الصيف. والسفينة تتقدم، ولا أحد يعترض طريقه هو. ورسالة "شوق" كلودين – ألكسندرین أهي مجرد رسالة حب أم أن تحتها أموراً أخرى؟ هذا الموضوع يمكن تفسيره من خلال ثلاثة افتراضات: الأول: قضية أسرية بينها وبين عائشة، والثاني: مغامرات كلودين التي لا نهاية لها، والثالث، ويعده شارل دو فيريول أهمها: منصب الوزير الأول لفرنسا، ولطريقة ممارسة دو كوندي بوربون معنى كبير. فإن حاول تغيير المناصب دخلت البلاد في أزمة خطيرة.

إذا دقت التفكير في رسالة كلودين – ألكسندرین فليست إمكانات تفسيرها ثلاثة افتراضات فقط، بل أربعة: - "كيف نسيت موضوع جانيت – نيكول وبيير؟! عاتب شارل دو فيريول نفسه: - يبدو أن جانيت لا تروق لكلودين. ولذا تريد أن تُقْحِمَنِي بينهما فتحمي أخاهما الأكبر من المرأة المسؤولة عن شؤون

الدير. أهلاً يا ترى "تنتظري" ، تريد أن تراني... يا للنساء! لا أحد يعرفهن كما أعرف. ولكن إن أردت الحق فلا أعرف عنهن الكثير. لأصل إلى باريس أولاً، وسأجعلهن متى تقع علينا إحداهن على غيرها، ترتجف سوقهن. وكتّنا ماري - أنجليك أهلاً النظرة نفسها إلى جانيت - نيكول؟ هذه هي المشكلة: الجميلة تجد دائماً من يمزق طرف ثوبها. وهذا يقولون: "الغيرة تقلع العين". وللترك قول مأثور آخر "بيت لا قطط فيه تلعب فيه الفئران". وربما لهذا تحدث أمور عجيبة في بيت فيريول الخالي من الرجال".

لم يملك شارل دو فيريول إلا أن يتوقف في المدينة الصغيرة "ميلين" رغم استعجاله الوصول إلى باريس. كانت الغرفة والمائدة معدتين في الفندق. وكان قد اغتسل حين وعده باستدعاء مادلين. ولكن حين سمع من النادل المأساة التي حلّت بها صرخ وقد امتنع لونه:

- ليست من نوع النساء التي يمكن أن تفعل هذا!
- ما أحكى لك أيها الكونت هو ما رأيته، ما أعرفه.
- ومتى حدث هذا؟
- العام الماضي.
- وكم سنة حكموا عليها؟
- ثلاثة.

- وأين سجنها؟ يذرع شارل دو فيريول أرض الغرفة التي لم تعد تسعه.
- سجن "ميلين"
- من قلت لي إنها كسرت ضلعه؟
- رجل عربي من الجزائر.
- ما فعلته به قليل!... اذهب ومؤرهم بتحضير العربية!

لم يجهد شارل دو فيريول في العثور على السجن النسائي حيث تُحتجز مادلين. وحين وصفت مديرة السجن ذات الوجه المستدير الكبير أوصاف السجينية تعجبت:

- مضت على سنوات في خدمة السجن ولأول مرة يأتيني رجل مهم مثلك. ثم ما قرابتكم للمرأة التي تسأل عنها؟... أمن قرياتكم أم صديقة؟

- يمكن أن تكون من أهلي ويمكن أن تكون صديقة كذلك. لم يبحث الكونت عن الكلمات التي يريدها، ورجا المسؤولة: - يسرني لو سمحت لي بمقابلة مادلين والتحدث إليها. من أرجوك من أجلها، صدقني، ليست امرأة سيئة. ولا تظني أني أهين نفسي بما أقول وما أفعل.

- لماذا أراك بمثل هذه العين إن كنت تتصرف من قلبك وإنسانيك؟ - وافقت المسؤولة الكونت وامتدحته: - لأن أردت الحق غيره نظري إليك. وأنا رأي في مادلين كرأيك. ولكن مهما كانت فالجميع في اعتبارنا هن سجينات. سأقابلك بما لأنك أتيت بنية صافية. - اكتسبت عينا المرأة الباردتان حرارة، وأضافت وهي تتunge للكونت: - ولكن لا تأمل مني أن أترككم وحدكم. ليس الأمر بيدي.

- ما كنت لأرفض لو حققت لي ما تقولين يا مدام - ابتسم الكونت - لا تقليقي، لم آت إلى هنا بمثل هذا الذي في ذهنك. بل من أجل أن أفيد مادلين، أسعى لإطلاق سراحها.

- حسناً، حسناً. - لمعت عينا المرأة الطافحة الوجه - هكذا يجب أن يكون الرجل، لابس القبعة. أتعجب أن تُكسر ضلع الرجل المغلظ. المرأة لا تعتمد على أحد إلا عند الضرورة... الآن حالاً سأستدعيها لك.

فرععت المرأة التي استدعيت لمرأى شارل دو فيريول:

- هذا أنت أيها الكونت!

- أنا، يا مادلين، أنا — حين استقبل شارل دو فيريول مادلين هجمت دون حياء من ملابسها الرثة وعانته.

- أي مصيبة حدثت لك يا مادلين؟.. اليوم فقط علمت بما جرى. لا تيأس، إن بقي هناك أثر عدالة فسأبحث لك عنه، سأحاول أن يطلقوا سراحك.

- قولًا ما تشاءان، ولا تحفظوا لوجودي — قالت المسئولة ذات الكتفين العريضتين مديرية ظهرها. — هذه القادمة إليكما مراقبة سجون، امرأة يمكن الوثوق بها.

- شكرًا يا مدام. — ثمن شارل دو فيريول صنيع المسئولة. — لن آلو جهداً لإطلاق سراح هذه المرأة. وأنتِ اعتنى بها، لا تدعها لللّيأس. لم يستطع شارل دو فيريول متابعة الطريق لأنّه خرج من الزيارة منهك القلب والجسد.

نعش شارل دو فيريول على الكرسي دون أن يمد يده إلى المائدة، ودون أن ينام على السرير، غير عابئ بالنادل الذي تلصص عبر الباب بضع مرات. كان كأنه يحلم ولا يحلم. يرقص مع امرأة تنتزع نفسها منه أحياناً فترقص مع رجل ذي قرنين. تشير إليه ألا يبقى في الساحة، وحين يقترب منها تختفي، فيبدأ يرقص مع ذلك الرجل.

حين يصحو الكونت من الحلم وكأن أحداً دفعه يتأمل الغرفة ناسياً مكانه، ويتساءل: "أي حلم كنت فيه؟ من تلك المرأة؟ أهي جانيت — نيكول أم كلودين — ألكسندرин؟ لا، ليست هذه ولا تلك. أ تكون هي مادلين؟ لماذا عينها تشبهان عيني أيسيل؟ وتشابهان في جذعيهما النحيلين. لم أر شارلوت — إليزابيت أيسيل منذ وقت طويل فكيف أشتبه عينيها وقوامها بها؟ والرجل ذو

القرنين الذي كنت أرقص معه؟ أيشبهه فخري، أم بيير، أم أورخان. لماذا أسأل عن هذا الدّعّي؟ لا أعرف ماذا يجري لي. أنا في حالة غير عادية... " - نمض شارل دو فيريول بخفة. أسرع إلى المائدة، وصبّ لنفسه كأساً ونظر باتجاه الباب، أنصت، وراقب، لا صوت في المدى المسموع! والغرفة في غاية المدوء. وإنّي الشموع الثلاث على الطاولة انطفأت، والثانية شبه عمياء.

- أيها النادل! نادي الكونت.

- أسمعك يا كونت. - وقف الخادم الذي أسرع من وراء الباب شبه أحذب.

- أين كنت إلى الآن؟ لماذا تتركتني في الغرفة وحيداً؟

- لا يا كونت، أطللت عليك خلال غفوتك أكثر من مرة، لم أشأ إزعاجك.

- كان الأفضل أن توقظني من أن تنهشني الأحلام المرعجة. - تظاهر بلوم النادل، ثم امتدح نفسه بالحلم الذي لم يكن يجد تأويلاً له - يا رجل، علقت بي امرأة حسناء لذيذة في المنام، فانتزعت نفسى منها بعناء. غير أني لا أعرف تأويلاً للحلم.

- أكانت عارية؟

- لا، لا شيء من هذا.

- هكذا لا مشكلة. يقولون إذا كانت عارية فهذا فأّل نحس.

فيما كان شارل دو فيريول يكلّم النادل الذي يعرفه منذ زمن طويل كانت صورة مادلين في عينيه. والعجيب أنه كان يشعر إلى الآن بدفء عناقها. ولم يكن ينسى شعرها ويديها الناعمتين. "أتسبّوا في مصيبة للمرأة الكاملة، أم هي من سببّت الدمار لنفسها؟ لا أعرف، لا أعرف، كيف سأجيب على هذا؟ لا يمكن أن تفسّر وتحلل ما لم تختبر بنفسك. في قول المشرفة "المرأة لا تعتدي على

أحد إلا عند الضرورة" كثير من الصدق. نعم، لسنا نحن الرجال بريئين من وقوع المرأة في الخطأ"

- أيها النادل، لشرب شيئاً من النبيذ!

- لا اعتراض لدى أيها الكوانت، غير أن هناك امرأة لذيدة تبادلك أحسن مني.

- لا، لا. - حسم شارل دو فيريول الأمر. وسأل بعدها شرب: - من تلك المرأة؛ أهي من معارفي؟

- إن كنت تتذكر يا كونت هي تلك التي جئت بها بعد مادلين.

- أتتذكرة هذا إلى الآن؟ - سألكوانت بلهجة تنم عن عدم الرضا. ثم أصلح الموقف مازحاً: - جرى لنا مثل هذا في وقت مضى. أحياناً تستعصي بندقية الصياد. إن كانت تلك المرأة الصغيرة الحلوة فهاها. ولكن لا تظن أني إذا ذهبت أصطاد الآن فستستعصي بندقتي أيضاً!

- لم أنظر إليك هذه النظرة قطُّ أيها الكوانت. ليت كل الذين يقضون ليلتهم هنا - وخفض صوته - بن فيهم ملائكة، كانوا مثلث - وانسل الخادم من الغرفة على رؤوس أصابعه وهو يمدح الكوانت ويرئ نفسه.

جلست في حضنه المرأة العبلة دون سُمنة ولا نحافة، بشوكها الحريري الأبيض القصير جداً الذي يكشف عن صدرها، ويشفّ عن سروالها الداخلي وسرّتها، وكأنها تنتظره منذ أمد طويل وفي منتهى الشوق إليه. وهمست في أذنه وهي تعانقه:

- ما أكثر ما شوّقتنا إليك يا كونت!

- مهلاً، مهلاً يا حلوي الصغيرة، - قال شارل دو فيريول ببرود للمرأة المتعلقة بعنقه وهو يحاول التملص منها - اذهبي واجلسي على مقعدك!

- يا كونت، أما عرفتني؟... "ما أقصر ذاكرتك" قالت له وهي تنظر في وجهه وتلومه، ولم تكتم ما تعرف عنه دون أن ظهره ولو أنها حاقدة عليه: أنا من عالجتك مرة.

- أذكرك يا غابرييل، أذكرك.. - قال شارل دو فيريول ضاحكاً وأجاب بما يريده: - ولكن لا تتعاملي معي بأن تغريني بما لا تريدينه. في هذه العلاقة يجب أن يشبع أحدها من الآخر دون أن تخللها حالة تنفيض واحدة عن الرغبة. لذلك لنتناس أنا وأنت ما سيكون بيننا ولنتكلم في ما يقلقا. ولا تنظري إلى هذه النظرة يا غابرييل. ولا تخيلي أني لا أريدك.

- حسنٌ إن كنت ترى نفسك هكذا - جلست غابرييل حيث أشير لها وضحكة ساخرة تسري على شفتيها الرقيقتين اللمباوين. صبّ لي من النبيذ، وإذا كان عندك ما تقوله فأنا أسمعك. ولكن لا شيء يشغل بالي أنا. - ازرت عينا غابرييل الدافتان.

- أتريدين أن تقولي إنك جئتني رغبة في الشهوة أو طلبتك أنا - ولم يكن الكونت بحاجة للبحث عن كلمات السؤال.

- لا أجهل يا كونت لماذا لا يستجيب قلبك لي هذا المساء... - قالت غابرييل الآن بصوت لطيف، ثم اختتمت بكلام لا يفهم منه أتنصح نفسها أم تنصح الكونت: - الحياة ملأى بالمفاجآت. ولست جاهلاً بالأمر. وكلّ يصطدم بما كتب على جبينه كما مادلين. ولكن إن كان موضوع مادلين هو ما يُعننك فقد حدث ما حدث وانتهى. لا يمكن أن تغير فيه شيئاً.

- ولماذا لا أستطيع؟ أيتخلون عن كل من يدخل السجن؟ ألا يمكن أن تزوريها وتساعديها ولو مرة!

- لأن مادلين خدمتني فعليّ أن أخدمها أيضاً.

- وهل خدمتك مادلين — فرح شارل دو فيريول لما سمع.
- أكيد خدمتني. أكست طلبتني إلى هنا لولا أنها في السجن؟! — قالت غابرييل فجأة بصوت يخلو من أي شفقة للرجل الوسيم الجالس مقابلها وكأنهما لا يتحدثان في موضوع يدعوه للأسى. — خير من الكلام في هذا الموضوع أن تدعني أمتلك أيها الكونت. أم تحتاج قبل هذا إلى دوائي كما في السابق؟
- احمر شارل دو فيريول، ونظر وهو يضبط أعصابه بمشقة في عيني غابرييل المحرومة من أي حياء أو عيب، ثم لامها وقد أشدق عليها قليلاً، يريد أن تعود إلى نفسها:
- لا أتذكرك الفتاة التي أُعجبت بها مرة.
- ليس في هذا ما يدعو للعجب. — ضحت غابرييل محاولة إغراءه بالفخذين العاريتين المتينتين — السنة تتغير أربع مرات. والنهار مكون من الصباح والظهرة والمساء، تختار من تعجبك.
- وأنت في مهنتك لستِ ممن يقال فيها مثلُ هذا.
- نعم لا أشبههن، وعاًنك من جعلوني هكذا — ضحكت غابرييل والإهانة النسائية تغلبها. ولم تنس ما أنت لأجله: — أنسجلس هكذا تبادل النظارات والملامات؟ أنفوت ليتنا بلا فائدة؟
- لماذا بلا فائدة؟ — وضع الكونت أمام المرأة ما يدفع عادة.
- أنا لا آخذ ما لم أكسبه بعملي. — وخرجت من الغرفة ضاحكة مخفية بضحكتها ما حق بها من إهانة مفاجئة. ولكنها في اللحظة نفسها أطلت برأسها من خلال الباب بغضب غلى متأنراً، وقالت: — إن دفعت غداً مادلين هذا المبلغ الذي لم تدعني أكسبه بتعبي سجله الله ثواباً لك.

- مع السلامه يا غابري، مع السلامه. — قال لها شارل دو فيريول معتبراً ما سمعه مضحكه، ورافعاً لها الكأس - أرفع هذه الكأس نخب صحتك !

مهما افترق الكونت وغابرييل على غير وفاق فقد كان كلاهما مثلاً بما يشغل باله ليحرمه النوم. كان شارل دو فيريول انهى من اتصالاته لأجل قضية مادلين. ولم يكن عنده أدنى تردد أو تراجع في هذا الشأن. بل زاد إصراره بسبب ما رأى أمس في السجن، وما سمع من جالسته فجأة في المساء على الطاولة. ولكن لم يكن يستطيع أن يميز العدل والظلم في هذه القضية، ربما لأنه كان في صلبها. "لا أعرف إن كنت بالغت في الصراحة مع غابرييل؛ لا شيء تتوزع المرأة الغاضبة عن قوله لك أو فعله بك. فتجرث غابرييل كجمة ملتهبة وكأنها غير المرأة التي عرفتها من زمان. لا تقل لي إذن إن دواء الرجل هو المرأة. يتذرعن بهذا حتى إذا لم ننفذ هن ما يريدن شجبن تصرفنا. لا تصرف مادلين المسكينة بهذه الطريقة. أقول هذا غير أن تلك العنيدة الجريئة الصغيرة لو استطاعت لما توقفت عند كسر ضلعي بل كسرت ما يقع تحت يدها. نحن الطرفين رجالاً ونساءً مدينون: نتاجر بأجسادنا. خير لنا أن نحافظ على أنفسنا من أن نصنف الناس إلى متهم وبريء. كان الأفضل من كل هذا أن نكتفي بما عندنا ولا نطمع في ما ليس لنا. ولكن ما العمل؛ الدنيا كلها قائمة على الرغبات" — وبين اتّهام الذات وبرئتها غرق الكونت فجأة في النوم.

وغابرييل؟ كانت هي الأخرى تتقلب في الفراش، لا تتقبل ما جرى لها، تنشر الاتهامات والشتائم. "عشيقتي الجميل الغني نسي كيف أعتنّه على استرجاع فحولته، يقول لي "لا تحاولي أن تفرضي على شراءك" والحال أن هذا الدّعّي عبد شهوته كان جالساً أمامي يأكل نفسه رغبة. يضع أمامي ساخراً المال الذي لم أكسبه بجهدي... لا تعرف أيها الأهيل أني أكسب في الليلة ثلاثة

أضعاف ما قدمت لي. إن كنت لا تعرف ماذا تصنع بهذا المال فسأقول لك أين تذهب به. لُفَّهُ وَأَوْلَجَهُ فِي مَؤْخِرَتِكِ!.. من يدرى قد تطرق بابي يوماً ميتاً من الجوع. وإن حدث هذا فسأجعلك تقضي عمرك ناسياً لماذا سجنوا مادلين أيها الثرثار مدّاح نفسه! لا تظن نفسك الوحيد الذي يفعل الخير؛ فنحن أيضاً لسنا محرومين من الشفقة... "غلب النوم غابريل وداخلُها يغلي وتفكر في الخير الذي ستفعله.

أفاقت غابريل في الصباح وهي تفكّر في زيارتها إلى مادلين، قائلة في نفسها: وهذه التي سأزورها ليست تلك المرأة العظيمة. حين بدأت عملي، وحتى سجنها، سببت لي كثيراً من المتاعب. واختارت شيئاً من بين ملابسها الداخلية الجديدة، وأضافت بعض الحلوي، وتوجهت إلى السجن، متباهية لا ترى في نفسها ما يشين، تناكد الكونت الذي أهانها أمس. وحين رأت غابريل السجن المطبق على نزلائه ت慈悲 جبينها، وقد نسيت حر النهار، عرقاً بارداً. ووقفت قليلاً إلى جانب الباب الأصفر الواسع، ثم فرعته وقلبتها ينتفض.

نظر رجل عابس من الشباك الذي افتح في البوابة الكبيرة، وابتسم لها:

- هذه أنت أيتها الحلوة الصغيرة! أضلللت طريقك أم جاء بك الله إلى؟

- دعني في حالٍ أيها القبيح! أحتاج إلى مقابلة المسئولة السيدة كاترين.

- ابتسمت للحراس كما تفعل مع من يلبس قبعة، ولو أنها بادرته بالجفاء.

- إن كان بإمكانك ساعدني على مقابلتها، لا تدري قد تحتاج أنت أيضاً إلى يوماً ما.

- نعم، أنت تحتاجين إلى أمثالي!

- مهلاً! لا تبغع نفسك حقها يا جميل! - ابتسمت غابرييل مرة أخرى في وجه الحارس، وبترث غعمتها. - النقود لا تميز بين الناس. لا تنس أنها دون رائحة. أفهمت عليّ يا نور عيني؟ ولذا افتح الباب ودعني أدخل!
- كنت سمحت لك بكل سرور يا حلوي لو كان هنا مدخل. - بشّ الآن في وجه غابرييل، وأضاف: - لو كان الأمر بيدي لفتحت باباً هنا من أجلك... ولكنني أقول لك ما أستطيع: ستجدين السيدة كاترين في المدخل الثاني. وهي امرأة شفوق، ستتجاوزب معك. ولكن لا تخربها أنك قابلتني! أنت تعرفي طبائعهن أيتها النساء... - قال في أثرها - أخبريني سواءً أفلحت في مسعاك أم لم تفلحي. لن أضرك إن لم أفعلك.

حين رأت غابرييل السيدة كاترين قالت في نفسها "ما أشبهها بذلك الحارس الجهم!". ولم تملك المرأة التي تزن ضعفي غابرييل إلا أن تسألاها مع أنها وعدتها بتلبية طلبها:

- إن كانت علاقتكم هكذا فسأصح بلقائكم ولو لم أكن أملك هذا الحق: وأنت، والكونت الذي سأله عنها، أين كنتما طوال هذه السنوات؟ أفهم، لا أظن أنك والكونت الشخصية المهمة، لا يجهل أحدكم الآخر.

- نعم يا سيدة كاترين. - وافقت غابرييل متلهفة محدثتها - الكونت من الناس الذين يفون بكلامهم. لست مخطئة. ولكن لو لا حرصنا على مادلين ماجئنا هو وأنا إلى هنا.

ما إن فتحت مادلين الباب ورأت ما رأت حتى صاحت بلا وعي:
- ماذا تريدين أيتها المومس! لا تُرّيني وجهك! - ثم توسلت إلى مسؤولة السجن بتحفظ: - هذه من تسببت في مصيبي. أعيديني إلى مكانى قبل أن

أرتكب جريمة! — هذه لا غيرها مصيبة كل الرجال. — عقبت مادلين التي كانوا
يعيدونها إلى سجنها.

III

كل يوم تنمو باريس. تتسع طولاً وعرضًا. والشوارع تستقيم. وتزداد الساحات والجادات. والأشجار التي تنافسها الأبنية علوًّا تتشامخ. وتسع في الاتجاهين العربات ذات الحصانين أو الأربع، المزدادة بالزخارف. ويظهر من العربات الرجال بقبعاتهم الأسطوانية المنتصبة، والنساء بقبعائهن الرقيقة وأوشحتهن الحريرية.

والزهور والأشجار المثمرة والخضار، وعربات النقل، وترى في كل مكان العربات الصغيرة التي تنقل الأحذية، والباعة والشارين والمسنين الذين يستريحون في الأفياء والأطفال.

الحياة التي وصفتها له كلودين – ألكسندرин، والتي يُحرّم منها شارل دو فيريول، تغلي في باريس دون توقف. أتكون الحياة في باريس نشيطة إلى هذا الحد؟ ستفهم حين تدرك وقوعها على العين والقلب. والكونت يبقى إنساناً حتى لو كان يعيش وعنه كل شيء، وما ليس عنده لا عناء في الحصول عليه. وليس جاهلاً أن من يعني يبكي. وأعلى القمصان يتمزق، وأعلى القبعات يسقط. وغط الحياة يشبه العالم الذي ينبعق منه: شمس مشرقة حيناً ومطر حيناً. وليت الإنسان يعرف متى ستزد وتبرق!

يلتفت شارل دو فيريول بقلبه إلى الأماكن التي مرّ بها في عريته الوثيرة: ميلين وفيرساي وتريانون وغيرها: "في قصر فيرساي يعيش ملوكنا الشمس المشرقة، ويحكمونه. وفي "حديقة الغزلان" يشغل مطحنته. وميلين مدينة حلوة صغيرة تأثر القلب، غير أن سجن مادلين المسكينة يقع فيها. وكان ممكناً أن آتي إلى هنا لأجل مادلين وحدها، بغض النظر عن شارلوت – إليزابيت وجانيت- نيكول. ولهذا يقول الحكماء إن الحياة مركبة من الخير والشر.وها هو نهر

السين يفعل الخير بعاته. — قال في نفسه راضياً حين اعتلى الجسر الذي يفصله عن سان- نيف - أوغستين. - يحمل على ظهره المراكب ذات المجاذيف، والسفن. يعمل لصالح الفقراء والأغنياء. ولكن حين يغيب يحمل الضرر للجميع دون تمييز..."

اليوم هو يوم الأحد. ولهذا تتوجه الحياة المتنافرة في باريس: هذا يضحك والآخر حزين. وهذا يوم عرسه والآخر عنده مأتم. وتبكي عربات أشد فخامة عربة الكونت المزينة. وهو يسبق بدوره العربات التي يجرها الحمالون أو الثيران. ويترك المشاة وراءه.

تشمخ في سماء باريس كاتدرائية نوتردام، وسان - كول، وفندق سيولي والبنيات المفرطة في ارتفاعها. وهواء المدينة نظيف عذب. واللغة الفرنسية تشنف الآذان. وما يراه الكونت شارل دو فيريول وما يسمعه يشرح القلب، ويحفز صاحبه على الصراخ: "باريس، هي يا باريس!" محبوك يا باريس لا يسعهم إلا أن يهتفوا باسمك. - وبعد قليل برأ نفسه نحو المدينة الواقعة في الشرق، والتي لم يملك إلا أن يحبها عدة سنوات: اغفري لي يا إستانبول - القسطنطينية، وأنت أيضاً من أهلي..."!

حين وصلت العربية إلى شارع سان- نيف - أوغستين، وظهر قصر آل فيريول الأبيض الكبير، لأن قلب شارل دو فيريول حتى كاد يذوب. وفي اللحظة نفسها خطرت له شارلوت - إليزابيث أيسيليه: "اليوم هو الأحد؛ أيمكن أن تكون في القصر؟"

جفلت عائشة من صوت العربية التي توقفت عند البوابة الكبيرة. وتوقفت عن قراءة قصيدة فنسوا ماري فولتير. وتابعت كلودين - ألكسندرین وبون دو فيل بأعينهما عائشة التي كانت تتحثّ الخطا إلى الباب. وقفز أرجنتال الذي كان

يُحرِّم دائمًاً من شيء ما، وتبعهما. أما من كان جالسًاً بلا مبالاة فهو شارل لويس دو سكوندا مونتسكيو. وينظر فولتير والورقة التي كان يقرأ منها الشعر نحو الجهة التي يركضون إليها. تعرفت كلودين — ألكسندرین العربية التي فتحوا لها البوابة:

— هذه عربة الكونت شارل دو فيريول.
وعلى صدر شارل دو فيريول الذي لم ينزل من العربة بل قفز منها ارتفت شارلوت — إليزابيت أيسية. وتعلق الصبيان كلُّ من جانبٍ بعمرهما.

— أيسية، شارلوت — إليزابيت، هذه أنتِ؟ كم كبرت！ — يمسح الكونت شعر الصبية التي التصقت بصدره — لا تبكي يا ابنتي، لا تبكي！ نعم، اشتقت إلىِّي، وأنا أيضًا... لن تطول إقامتي في تركيا، سنة على الأكثـر. لا تبكي يا ابنتي، لا تبكي！

— بون — استعجل أرجنتال وهو رافع بصره نحو عمه ونحو عائشة — ألا تطلب من أيسية ألا تبكي！

ابتسمت عائشة ودموعها ما تزال في عينيها في وجه أرجنتال الذي كبر خلال هذا العام على نحو ملحوظ:

— جان، يا أخي الصغير، لا تقلق. لا أبكي، هذه دموع فرح؛ أليس كذلك يا بابا؟ — وفيما عائشة تنادي الكونت دون أن تدري "بابا" سأله، ثم قالت له دون انتظار الجواب: — تعال يا بابا أقدم لك أصدقائي. — وسارت به ممسكة سعاده بيديها: — هذا فرنسوا — ماري فولتير، وهذا شارل — لويس مونتسكيو. والاثنان يعملان في المعهد المقام باسم ليودوفينك الكبير حيث يدرُّس بون دو فييل وأرجنتال. وكلودين — ألكسندرین تجتمعنا عندنا كل شهر

مرتين. واليوم موعد اجتماعنا. نتناشد الأشعار، ونتكلم على الكتب المهمة التي تعالج قضايا حياتية.

- وكلودين تقرأ لنا مما تكتب - لم يستطع أرجنتال إلا أن يساهم في الحديث.
- حسن، حسن. - قال شارل دو فيريول راضياً بما سمع. - أرى أن هذين اللذين قدمتهما إلى صديقان حكيمان. اقرؤوا الكتب، وإذا كانت قلوبكم تحدثكم أن تنظموا الشعر فافعلوا. تعلّموا الحياة، وزيدوا في معارفكم. فنسا محتاجة إلى أشخاص المتعلمين مثقفين. - وانتهى بعد وقفة قصيرة بالتنفس القائم بين الفرنسيين والإنجليز: - لسنا أقل شأنًا من العرق الذي يتباهى طوال عمره علينا. ليس من عندنا من يمكننا أن نرفع رؤوسنا بجم وفتخر أقلَّ من عندهم. وأنت يا كلودين تؤلفين الكتب. والشباب يمتدحونك؛ لماذا لا تساهمين في الحديث؟ لم أعرف أن عندك مثل هذه الموهبة... ألا يسرك أن أقطع كل هذه المسافة من تركيا؟ وقال لها على نحو غير مباشر حتى لا يفهم الحضور أنها أرسلت إليه.

- يا كونت، يا صهرنا العزيز - توهجت وجنتا كلودين - ألكسندرین- ابتسمت له وهي تقول في نفسها: "أكنت تزيد أن أستقبلك كما هذه المرائية المتعلقة بساعدك؟" - أيمكن ألا يرضينا قدوتك؟ لم يخطر لي مثل هذا. كنا نتوقع حضورك. ولكن لم نعرف أنك ستصل اليوم. عندنا كثير مما نقوله لك غير أننا نطمئن في أن تقول لنا أنت.

كان اليوم بكماله عيداً لدى آل فيريول. وظل الكبار والصغار إلى ما بعد الظهر على المائدة التي أعدت للكونت الغائب منذ أربع سنين. وأتوا على ذكر الكثيرين. كانت عائشة ملتصقة بالكونت في حين كان بون دو فيل وأرجنتال يبحثان من وقت لآخر عن ذريعة لترك المائدة. أما الآخرون فلم يكونوا

يستطيعون زحزحتهم مهما نادوهم. وكانت عائشة مهمومة بطعام الكونت تحرص على أن يبقى صحنها متربعاً، حتى كأس الشاي وما فيها من السكر. ولم تكن ماري - أنجلييك وكلودين - ألكسندرین تكشفان عن برمهمما بهذا السلوك الذي لا يسرها؛ بل إن الكونتيسة كانت تمدحها دون ذكر اسمها:

- هكذا إذن أيها الكونت، لأجل هذا كنت أتمنى - والله لم يعطنا - صبيّة ما فائدة هذين الصبيان؟ لن يخدموك ولن يرجوك في شيء، ولن يرُفِّقُوا بك. ألا ترون ما أقل تهذيبهما، يتراكب المائدة ويعودان دون استئذان. - يا ماري - أنجلييك، يا روحى الوحيد - قالت عائشة لأول مرة للكونتيسة "روحى الوحيد" في حين رفعت كلودين - ألكسندرین التي سمعت النداء حاجبيها الرفيعين الجميلين استغراها. - لا أسمح لكِ أن تصفيي أخيّي الصغيرين بهذه الأوصاف. إنّهما رحيمان ومحبّانك ويشتاقان إليك. وأرجنتال بالذات يساوي ليس فتاة واحدة، بل عدة فتيات.

- نعم، يا شارلوت - إليزابيت أيسبيه، هذا صحيح. - أكّدت الكونتيسة ماري - أنجلييك أمام الحضور، وأمام الكونت على نحو خاص، على الاسم الفرنسي لعائشة. - أنا راضية عن ولدي ومحبّاني، ويشتاقان إليّ - وفي هذه اللحظة قطع أرجنتال الذي مد رأسه من الباب المفتوح كلام أمها - تعال يا ولدي إلى هنا، ولا تنظر من خلل الباب.

- لا أكلمك أنت يا أمي، بل أيسبيه، يكفي الوقت الذي قضيته معكم، تعالى اجلسني معنا.

- اسمعوا ماذا يقول! - قالت ماري - أنجلييك للكونت وهي تتناظر بأن ماسمعته لم يزعجها بل استغرّتها، مُسمعة عائشة ما تريده: - لهذا أقول ما أقول، هذان الولدان كأني لست من ولدّهما. هذان يا كونت لا يملّان من شارلوت

— إليزابيت أيسية حتى لو بقيت إلى جانبهما طوال النهار. اذهبي يا ابنتي معهما، لن يدعانا مرتاحين. لا بجعليهما يكرهاننا.

— لا، لا ياماري — أنجيليك ماما! لا أستطيع أن أفعل هذا في يوم قدوم بابا.

— قالت عائشة بوجه منشرح. ثم التصقت بكتفها بالكونت وكأنها تقول: انظروا؛ لست وحدي.

— نعم، صحيح. أفهم، اشتقت إلى أبيك طوال سنين — غيرت ماري — أنجيليك فوراً ما لم يتحقق من رغبتها، ولكن اختتمت بحيث عبرت عما في قلبها بطريقة مواربة: — يجب أن تعودي هذا المساء إلى سان-كول، ولا تقبل جانيت — نيكول أن تتأخرى ولو نصف ساعة. ستستاذق إليك كثيراً.

— يا ماري — أنجيليك، يا ماما — رفعت عائشة الآن صوتها، وربما تصرفت هكذا لاعتقادها أن كلامها حق — أليس موقف جانيت — نيكول من تأخينا صحيحاً. ولو لم ننفذ، نحن وأنتم، ما يصرون عليه لخلا سلوكنا من الأدب، ولأسأنا إلى سمعة مدرستنا، ولن تقتدحنا ملكتنا.

— يسرني يا شارولوت — إليزابيت أيسية، أن تحبي مدرستك بهذا الشكل، وتحرصي عليها — احتدت فرحة الكونت المزوجة بالفخار لما سمعته من عائشة — هكذا يا ابنتي يجب أن تكوني إذا كنت فرنسية. وهكذا تثمينيهما. وكل هذه المشاعر والواجبات تبدأ من من يبيتك ومدرستك، ومن سمائك وأرضك، ومن ملوكك ومن أهلك.

— أحب يا بابا معلمي وعلى رأسهم جانيت — نيكول، لا أقول مثلكم تماماً، وكذلك زميلاطي. — وافقت عائشة من قلبها الكونت.

أحجي معلميك وزميلاتك، وأخويك الصغيرين، وزملاءهما، انتهاء بصوفي — غمزت كلودين — ألكسندررين في قلبها من فناة عائشة التي تتدخل في كل

شئونها، مرددة في نفسها كلامها بسخرية. — ولكن لا تسمعني بجده الحجة لما تقوله المرائية جانيت — نيكول، ولا تخدعني كلامها". ثم نطقت:

— حسن، حسن، هكذا يجب أن تكوني. يسرني أن تندمجي في جوّك، في زميلاتك وأخويك. — امتدحت عائشة ثم نهرتها في قلبها: — "كان الأفضل أن تتركينا وتدعينا نكلم الكونت. إن فتحت هذا الموضوع فأنا أعرف ما أفعل بك" — الآن أنا منصرفة — خرجت كلودين بقامتها الرشيقة من الغرفة، وقابلت صوفى وسألتها: — ألم يحن موعد عودة شارلوت — إليزابيت أيسى يه يا صوفى؟

— لا يزال الوقت مبكراً يا كلودين — ألكسندرین — أجبات صوفى التي لم تنتبه إلى سبب سؤال الكونتيسة، وأردفتها بما يشغل بها الآن: — ولكن على شارلوت — إليزابيت أيسى يه أن تستحمّ، وتجهز نفسها. وهذا يحتاج إلى بعض الوقت، أم ستقييم بیننا بضعة أيام بمناسبة قدوم الكونت؟

— لا، لا نية لها — تحقق لكلودين — ألكسندرین ما خرجت لأجله — ثم إن جانيت — نيكول لن تقبل. ذكرى شارلوت — إليزابيت أيسى بما أمامها من واجبات. رأت الكونت فنسست كل شيء.

نفذت صوفى ما قيل لها في أقل من نصف ساعة:

— يا كونت، وأنت يا كونتيسة، أعتذر لمقاطعتكم، حان موعد عودة شارلوت — إليزابيت أيسى يه، يجب أن أجهزها للعودة.

— يا صوفى نصف ساعة أخرى — توسلت عائشة.

استعجلت ماري — أنجلييك فرحة بما سمعت، مخفية مشاعرها:

— لا، لا يا شارلوت — إليزابيت أيسى يه؛ أفعلى ما تقوله صوفى! لا وقت لديك، الشمس مالت للغروب.

- حسناً يا ماما إن كان رأيك هكذا – رضخت عائشة. وفيما هي تترك الغرفة التفت وألحت على الجميع: – إذن سيوصلني بابا إلى سان – كول. البس أ Féxر ما لديك من لباس يا بابا!

تبادل الثلاثة الذين ظلوا في الغرفة النظرات، وتضاحكوا. وسبقت ماري – أنجيليك غيرها بنبرة المزاح:

– أسمعت يا كونت كيف تتأمر عليك؟ لا تترك قبل أن تنفذ لها ما تطلب. فيها الرحمة والظرافة. ولكنها عنيدة.

– أليست مثل أرجنتال إذن؟ – ضحك الكونت دون أن يعبأ بمقصود الكلام الذي يوجه إليه – ليس سيئاً أن تحملهم على تحقيق ما ت يريد في وقته. لهذا يعجبني جان. يذكرني أحياناً بطفولي.

– أنتما، أنت وأرجنتال فنسينيان – شاركت في الحديث كلودين – ألكسندرین التي يجري الحديث على هواها الآن – أما هي؟ – فلا تنسيها جانيت – نيكول كونها شركسية...

– ألم تتفق على ألا تتكلم في هذا الموضوع؟! – احتد شارل دو فيريول.

– قلنا يا كونت ولكن – وافقت ماري – أنجيليك أختها – غير أن جانيت – نيكول تظل تردد على مسامع ابنتنا الصغيرة أنها شركسية، فتضيع هويتها. وأعجب ما في الأمر أن شارلوت – إليزابيت أيسية تسمع لجانيت – نيكول، وتنفذ ما تطلبه ولا تسمع لكلودين. لا ياكونت، ليس في الموضوع غاية أخرى، أنا وكلودين وأنت، ألسنا كونتات؟ أقول لك هذا خوفاً على "فرنسينا". هذه الطويلة الساقين لا أعرف من أين تأتيها بالكتب التي تتحدث عن الشراكسة. والأخرى تسألنا في أي ناحية يعيش الشراكسة. من الضروري اتخاذ إجراء ما في هذا الموضوع وإلا خرجت الصبية من أيدينا.

- وهل أوغستين على دراية بهذا الموضوع؟

- أخوك الأصغر يا كونت لا يهتم إلا بعمله، حتى بتربية ابنيه!

- ألم تخبروا أخاكما بيير غيرين دو تانسين الأسفاف بما يشغل بالكم؟ - سأل شارل دو فيريول الأخرين دون أن يبدي على نفسه أنه يعرف علاقة أخيهما بجانيت - نيكول.

- إن أردت الحق يا كونت، لا تزيد إقحام أخيانا في الموضوع؛ أليس أسفافاً؟ أجبت كلودين - ألكسندرин وهي المستعدة للجواب، ثم قالت وهي تحفظ خوفاً من أن يبدو عليها ازعاجها من جمالها وفطنتها - أنت تعرف دون حاجة إلى أن تخبرك طبيعة معلمة شارلوت - إليزابيت أيسبيه؛ إنها وقحة، تقتحم عالمك حتى لو لم تنظر إليها أو لم تسمعها. ليست معلمة سيئة غير أنها تقوم بأعمال ليست من شأنها، فأينما ذهبت، إلى المسرح، إلى السوق، إلى الحديقة وإلى الحالات التجارية، صاحت أيسبيه دون زميلاتها.

- قولي له إنها خاطت لها زياً شركسياً... - أضافت ماري - أنجيليك إلى كلام أختها واتهمتها بما ليس فيها: - حين احتفلت شارلوت - إليزابيت أيسبيه بعيد ميلادها الرابع عشر اقتحمت هذه "الجميلة" عالمنا دون أن ندعوها، متصنعةً الجمال والذكاء، تتفنن في الكلام، ولم تُفسح لنا المجال طوال النهار أن نشبع من ابنتنا الصغيرة. ليتها أكمنت دراستها قبل أن تضيع علينا هوية الصبية. أتوافقنا على أن نبعدها عنها يا كونت؟ يذهب منك مال كثير دون أن تعرف أين... كان الأفضل أن يدخل هذا المال إلى بيتنا. كل يوم تزداد الأسعار، لا نستطيع مجارة الغلاء.

- بقيت أمامها سنة واحدة فقط - قال شارل دو فيريول لنفسه وقد صدعت المرأة رأسه، وإن كان يعرف شيئاً مما يقال له، ثم حسم الموضوع: - أبعداً من

رأسيكما هذه الفكرة! – "ماذا ت يريد الأختان مني أن أفعل؟ – ضحك الكونت في سرّه – ت يريدان مني أن أجابه أنا جانيت – نيكول لأنّ أخاكما لا يستجيب لكم؟ أنا أوقفكم على اعتراضكم على موضوع تذكير شارلوت – إليزابيت أيسبيه بقوميتها، أما رغبتكما أن أعارضك جانيت – نيكول فهذا مضحك. ما الضرر في أن تُحب وتحبّ في هذه الحياة القصيرة؟ انظر كم أصبحت كلودين جميلة في هذه السنوات الأخيرة. أنسىتك كتبت لي أنك تريدين رؤيتي وأنك مشتاقة إلى؟" – فهمت ما يُقلّقكم. سأقابل جانيت – نيكول، وأكلّمها.

دخلت عائشة إلى الغرفة، وأمطرت شارل دو فيريول بعتابها معبرة عن عدم رضاها بما ترى:

- أراك غير جاهز إلى الآن!
- ألا يمكن بما أرتدي من ملابس؟
- ليست قبيحة؛ غير أن جانيت نيكول تحب الأنقة في الناس.
- وهل هؤلاء "الناس" هم الرجال؟ عبرت كلودين – ألكسندرین عما تريدين قوله عن أخيها بمرحة مع عائشة.
- لا يا كلودين – كان جواب عائشة حاضراً – أنت تعرفين جانيت – نيكول تحب الأنثيين رجالاً كانوا أم نساء. ثم أستميحك عذرًا يا كلودين: جانيت – نيكول ليست أقل منك أناقة.
- ولماذا يزعجني كلامك؟ – موهّت كلودين – ألكسندرین بمرحة استياءها من مقارنتها بعلمه: – أقبل أن تقارنني بها ولكن لا تفضليها علىّ.
- نعم يا شارلوت إليزابيت أيسبيه – قالت ماري – أنجيليك محاولة تخفيف الحدة المفاجئة في حوار أختها وعائشة. – جانيت نيكول أنيقة، وودودة، ولكن

لا يمكن مقارنتها بجمالكما وطبعاً كما المحبوبة. لا تنسياً أنكما من سلالة كوننات. والكوننات عادة تربى لهم غير تربية الآخرين، وجمالهم كذلك... وماذا أيضاً؟ ذِكْرُونِي بما نسيت.

"ما أصعب أن تفهم جنس النساء هذا! مزيج من الوضوح والغموض. تظنها ذهباً فإذا هي فضة. وحين تشهيدها تكتشف أن الفضة لا تعدو أن تكون قطعة حديد. — ابتسِم شارل دو فيريول خفية — لا أستطيع إنكار معرفتي بهن، ولكن لم أستطع إلى الآن الوصول إلى سرّهن. مرة يحرقنك، وأخرى يبعثن الدفء في أوصالك، وثالثة يبعدنك. حيناً يختلسن النظر إليك، وحينماً لا يسمح لك أن ترى ما في وجوههن. وأنهن الثلاث من هذا الجنس، وبإمكانك إضافة جانينت — نيكول إلين..."

— إن كان رأيكن هكذا — خرج شارل دو فيريول من أفكاره — فسأتألق أنا أيضاً. لحظة يا شارلوت — إليزابيت أيسبيه!

IV

- في ذلك الأحد، حين أوصل شارل دو فيريول عائشة إلى سان - كول، جرى بينه وبين جانيت - نيكول، بغياب عائشة هذا الحديث القصير:
- أنا راضٍ عنك في شأن تعليم شارلوت - إلزابيت أيسبيه وتربيتها.
 - شكرًا يا كونت؛ نعمل ما بوسعنا.
 - نعم راض، غير أنه بلغني أنك تلمحين إلى ابني بأصلها الشركسي.
 - أصلها الشركسي سُرّ؟
 - الجميع، من فيهم ملكنا، يعرف؛ بل أبقيت على اسمها الشركسي.
 - وماذا إذن يا كونت؟ تعرّض على أني قدمت شارلوت - إلزابيت أيسبيه إلى الملكة بزتها الشركسي؟
 - لا، لا أتعارض، بل أقصد أن تتباهي إلى أن تجعلني قلبها يتشرب كونها فرنسية. هل تظنين أن الفرنسيين كلهم من أصول فرنسية؟
 - لأن الصحيح دائمًاً صحيح يا كونت أوقفك. واعتبر أننا اتفقنا في هذه المسألة.
 - هذا لا يحتاج إلى مزيد من الكلام - حسم شارل دو فيريول النقاش قائلًا في نفسه "هذه المرأة أظنها ليست صعبة المنال" ثم عقق الأساس: - الكونت، سفير فرنسا لا يعيد الكلمة مرتين. لماذا نحن واقفان هنا يا جانيت - نيكول؟ عربتي جاهزة. باريس تنهض وتوشوش لنا. إن مللنا من لطفها فـ "ميلين" ليست بعيدة. الليل فيها ممتع ومقرّ.
 - يا كونت أظنك لا تكتفي بمنصب السفير حتى تصبح شاعرًا. رأيت جانيت
 - نيكول في الجواب، قبل أن يفتح فمه، وهي تضحك في سرها، قائلة في

نفسها "اسمع ماذا ينوي زير النساء هذا!" — كلماتك متناسقة، حلوة مفهومة.
مساؤك سعيد أيها الكونت، ينتظرونني هناك.

— إن كنت اليوم مشغولة فلا بأس في الغد — صاح الكونت وراء المرأة التي
تسحب جسدها الجميل، ثم قال دون كلام "أحضرتُ كثيراً من أمثالك"

يحب شارل دو فيريول كل الأشياء الجميلة مهما كان مظهرها، ولكن المرأة الجميلة، وإن لم تكن صديقته، أمله الذي يحرق قلبه كجمرة ملتهبة. غير أن أمله في جانيت – نيكول خاب خلافاً لما كان يتوقعه البارحة. ولا فائدة في أن تصيح وراءها "أخضعت كثيراً من أمثالك": أنت مثل من أفلت رأس الحصان وهرجم ي يريد إمساك ذنبه.

خلال كثير من السنين قضاها في إسطنبول لم يكن اليأس يدب إلى قلبه ولو أن الحب الذي يشهيه كان يُقتل منه. والمرأة التي تحترم نفسها وتعرف قيمتها قلعة مستعصية. مهما حُمِّت حولها أو حاولت احتلالها فلن تفلح ما لم تكتشف نقطة ضعفها. وكما يُخرج الكلام الحلو الحياة الرقطاء من جحرها فلن تستطيع إرضاءها وإغراءها دون جهد ودون مداراة. والناس يتداولون حكمة أخرى: "الفتاة يغازلها مئة شاب ولكن من تختاره واحد فحسب"

هذه الأمور وغيرها ليست مشكلة ولا عقبة في طريق شارل دو فيريول السفير الفرنسي. وإذا كان الكونت قال لها "أخضعت كثيراً من أمثالك" فقد بقي شيء واحد وهو الصبر. ولو كان الأمر يتحقق حسب ما يريد كل أمرٍ ويعتقد!... "وماذا لا يتحقق؟" ابتسם الكونت وهو يتعجب من تذكرة هذا الكلام. - وحين قلت لتلك المرأة المتناسقة الجسد، الحلوة الطباع "إن كنت اليوم مشغولة فلا بأس في الغد" التفتت إلى فحسب ولم تقل لي شيئاً. كيف يمكن أن تفهم تصرفها؟ يعني بطريقة تفكيرنا الدبلوماسي أنها "تريد ولا تزيد". ولكن إن ضغطت عليها بشيء، لا ب الكثير، من الحكمة فوجدت مسلكاً آخر إليها فسترضخ. وبعدما أعدت النظر فيها بدقة ما أجملها هذه المتصنعة السمراء ذات الوجه الصبور! لم يرِكِب فيها الله شيئاً زائداً. وبيبر غيرين دو تانسين ليس

أهل. له خبرة في النساء. المسكين اختار مهنة الأسقف بدون فائدة، وإن لم أكن أعرف هل سيتحمل ما سيجري له قريباً. وجانيت - نيكول المعلمة التي واعدهما مساء اليوم لن يضيرها أن تنتظري عدة أمسيات. وما يقال إن كل ما تشتته طيب، صحيح. وإلى وقتها سأتابع موضوع مادلين.

لشارل دو فيريول ثلاثة مخارج من قضية سجن مادلين: معاون وزير الشؤون الخارجية ملوكنا المعظم لودفيغ الرابع عشر برنار دو غراند، وقائد شرطة باريس هنري دو فارج. حين نطق أسماء الثلاثة سخر الكونت من نفسه: "لماذا أوصل القضية إلى الملك وإلى معاون الوزير من أجل امرأة للعموم. ميلين جزء من باريس، وهنري دو فارج هو المسؤول عنها، وهو صديقي منذ الطفولة ولا أحد يعلو شأنه في مواضيع هذا النوع من النساء، دعك مني، في فرنسا كلها. كيف نسيته! يا مادلين، يا مسكنيني اصبري قليلاً أيضاً، ابتك الصغير حي، وبخير، وخلال أيام سأجعلهم يفتحون لك باب سجنك. أيمكن هنري دو فارج أن يحل لي هذه القضية؟ - أنسى السؤال القلق الكونت أفكاره المترجمة وما كان يراه من داخل العربية من سيرة حياة شوارع باريس. - ليتك حققت لي يا هنري هذا المطلب وحسب! وإن سخر مني قائلاً: ومن هذه التي تتسلل من أجلفها؟" يقول ل JACK السائس تتقاذفه وساوسه:

- ماذا جرى لك اليوم، لست واعياً إلى نفسك، ماذا لو صدمت أحد هؤلاء؟
- وأنا منتبه إليهم في قيادي أيها الكونت. وإن لم أسرع فلن نجد طريقةً بين هؤلاء المتسولين.
- لا أعرف، كأن المتسولين زادوا في باريس خلال هذه السنوات الثلاث أو الأربع - قال الكونت لنفسه. وما قاله ل JACK شيء آخر: وإستانبول مدينة

كبيرة. ولكن ليس فيها مثلُ ما في باريس من المسؤولين. لا تستغرب: الدين الإسلامي يحمي الفقراء.

- وكيف؟ - التفت السائس جاك، وسأل مستغرباً.

- سأقول لك: مساء الجمعة يتصدقون على المحتاجين من الفقراء. ومن يأتيهم إلى الجامع يساعدهم المصلون. وأعجب من كل هذا ما في قرآنهم: ما أكسيبُنك بعرق جبينك أوصيَّل منه إلى الفقراء دون أن تدخل على أهلك أو تنتزع من أفواه أطفالك. - وفكِّر ثم أضاف: - ولا يخلو كتابنا من هذا، غير أن اعتقاد المسلمين بكلّاهم أعمق. وفي هذا الشأن، وفي شؤون أخرى، يحتوي الإسلام على أمور كثيرة يمكن اتخاذها نموذجاً يحتذى. والنظافة التي يهتمون بها من خلال الوضوء الذي يسبق وقوفهم أمام الله للصلوة؟ والدعاء الذي يسبق نحرهم للمواشي؟ وختنان الأولاد ليكونوا نظيفين قبل سن البلوغ وبعدها؟ لماذا تضحك؟ - حين سمع شخير السائس سأله: - أقلت ما لا يقال يا جاك؟ احفظ في قلبك الأمور الحسنة، وانسَ السيئة. أنت تعيش عمرك والأحصنة والعربة آهُنْك.

- ليست وحدها يا كونت، وأنت أيضاً إلهي - أضاف السائس على عادته في كسب قلوب آل فيريول، ولم يتوقف عند هذا الحد: - لو لا أنت كيف كنت سأعيش أسرتي؟

- حسنٌ أنت لا تنسى فضل آل فيريول، غير أني غير راضٍ عن مقارنتي بخيلك وعربيتك. وهذا يثبت أنك بلا إله.

- أَشِّهُك بما عدّتَ لو كنْتَ في وعيي أيها الكونت. ولكنني لا أتراجع عن اعتباري إياك إلهي. وليس الموضوع أني لا أؤمن بالصلب ولا أذهب إلى الكنيسة. بل أنظر إليك هذه النظرة لأنك إنسان ممتاز رحيم.

ـ كفى، لا تتدحني إلى هذا الحد! ـ منح شارل دو فيريول مع سائسه، ولمح له بما كان عاتباً عليه لأجله: منذ أربع سنوات لم تَتَدَرْ بي. عرضت عليك أن تصحبني إلى تركيا سائساً فلم تقبل. وفضلت عليّ ماري ـ أنجلييك وكلودين ـ ألكسندرин. كيف تتصرف معك هاتان الأختان؟ ألم يكرهوك دنياك من وراء مشاويير الليل؟

لـ لا ألمهما يا كونت. تعاملاني، كما تعرف، معاملة حسنة. ومشاوير الليل نادرة... إيه يا حصانـي السـريعـين إـلـى الأمـام! - كان بـوـدـ جـاكـ تـمـويـهـ ماـ قالـهـ بـنـدـائـهـ لـحـصـانـيـهـ غـيـرـ أنهـ لمـ يـسـتـطـعـ كـتـمـانـ ماـ يـعـتـمـلـ فـيـ قـلـبـهـ: - العـربـاتـ الـتـيـ تـقـلـهـماـ لـيـسـتـ مـثـلـ عـرـبـتـناـ، مـشـرـبـاتـ بـمـاءـ الـذـهـبـ. وـالـحـيـوـلـ تـتـنـعـلـ الـفـضـةـ... ثـمـ يـاـ كـوـنـتـ تـقـولـ لـيـ: أـنـتـ مـلـحـدـ!

نعم يا جاك، نعم. ما العمل؟ نحن في مثل هذه الدنيا... ومهما كان تبقى
الحياة حلوة. انظر ما أجمل باريس! ألا يزال شارعِي الحبيب بعيداً؟

– "نعم، نعم" – حنق جاك السائس على نفسه – تعيشون في دنيا الله لا تعرفون إلا بطونكم وراحتكم. ونحن نعيش معكم تحت شعار: سعداء إذ لا نموت. تعيشون بأطراف أرجلكم ما لم تجئه بعملكم. تبذرونها على البغايا. تستثون أمثال الصبية الشركسيية أيسبيه كي تتسلوا بها كما بالدمى. ونحن حين نحمل إلى المرأة ما كسبناه بمؤخراتنا المرهقة في دوراننا بِكُم توزعها قرشاً قرشاً على أيام الشهر. وأنت تمتّع نفسك غير مهم بحياة كنّتك، قائلاً "ما العمل؛ هذه هي دنيانا؟" ثم تندح لي الإسلام مهتماً بـ"باتوليكيتي وعدمها" – ولم ينس جاك السائس الذي جاش صدره بكل هذه الأفكار سؤال الكونت:
– إذا كان عندك وقت فنحن نكاد نصل إلى مبتغانا.

- لا أتابع عملاً ليس عندي وقت من أجله... مهلاً مهلاً، توقف، انظر إليه!... قفر شارل دو فيريول من العربية مستغرباً ما يراه.

حين يصل شارل دو فيريول، إلى الشارع الذي يحبه، يتوجّل من العربية متمهلاً، سواء كان عنده وقت كافٍ أم لم يكن، يلعب بعصا المزخرفة بالذهب والفضة، ناسياً أنه كان يشتري من المحلات التجارية الغالية، وتبع المرأة التي يحبها خائفاً من أن تضيع بين عامة الناس "ماذا ت يريد هذه؟ أهي وحدها أم ماضية إلى من يتتّرّضها. لا أحد معها. دخلت جانيت - نيكول إلى أحد محلّي باعة الذهب... ماذا ستفعل المعلمة التي من عامة الناس في مثل هذا المحل؟ تعيش حسب ما قالت لي كلوتين - ألكسندرین ولا فرحة لديها إلا راتبها الشهري. ليس بمقدورها أن تشتري ملابسها الداخلية فكيف بالذهب؟! يا للنساء! ولكن لولاهن ماذا كانت حياتنا نحن الرجال؟ نحن وإن اعتبرنا أنفسنا في منتهى الجمال وأساس الوجود فالحقيقة ليست تماماً هكذا. وإن كنا عظماء إلى هذا الحد فلماذا لا نكشف عن حقيقتنا بمنتهى الصراحة؟ هؤلاء النساء هن من يمحنننا الجمال والرجلة والطيبة. غير أنه يحدث كثيراً أن يتسبّب في دمارنا... وجانيت - نيكول التي أستهين بها؛ ألا يمكن أن يكون بانتظارها رجل أغنّى مني؟ لا أحب أن أقول هذا ولكن - انتفض شارل دو فيريول وهو يغار من الرجل الذي اخترّه لها للتو قائلاً: - من في باريس، بعد ملوكنا المفدى، أحسن تربيةً وتأهيلًا مني؟ بل من في فرنسا؟ مهلاً، لحظة! ألا يمكن أن يكون هذا الرجل هو بيير غيرين دو تانسين الذي يغازلها سراً؟ - دخل الكونت الآن المتجر الأشد بهاء وأبجدة في الشارع.

لم يكن في المتجر أي زبون إلا جانيت - نيكول. ولم تكن هذه في جناح الذهب، بل في جناح العصي الشمينة، تتحفّصها.

تعرفت البائعات حالاً شارل دو فيريول فأحطّن به:

- تفضل أيها الكوّنّت شارل دو فيريول. لو عرفنا أين أنت لانتظرناك. التفتت جانيت - نيكول حملّا سمعت اسم الكوّنّت الذي اتجه نحوها، وأوّمأ إليها بإشارة احترام، وسأّلها:

- جانيت - نيكول يا شقيقة روحي؛ أهذه أنت؟ - قبل اليّد التي مدّها إليه المرأة والعصا الشمينة الرفيعة في يده.

- نعم، يا كوّنّت. تسرّني رؤيتك.

- أنت وحدك؟ - سأّلها وهو لا يزال غير مصدق أنها وحدها.

- كما تراني، وحدّي!

- وأنا وحدّي يا جانيت - نيكول. - بدا الارتياح لا في عينيه الفرحتين فحسب بل في قامته كلها. - لا أكتتمك أني مسّور لرؤيتك أنا أيضاً. وتشهد على ما أقول هؤلاء النساء الجميلات. ولكن لي صديقاً في إسطنبول كلما سأّلته: أنت وحدك؟ أجابني: الله معّي. ونحن لا نقلّ "وحدّي" بل "الله معنا". لا، ليس صديقنا فخري، هذا تزوج، ويعيش شبابه. من أذكره لا تعرّفنيه أنت. هو أورخان الشاب النسيط. أليس حسناً أن نخيا نحن مع إلّهنا كما هو مع إلهه؟

- نعم يا كوّنّت، نعم. ولكن الأفضل أن يبقى في قلبك من أن تذكره حيث يناسب وحيث لا يناسب.

- جيد جداً. وأنا علاقتي بشئون الله من هذا النوع. ولكن بالنسبة لامرأة جميلة مثلّك؛ أليس صحّيحاً ما أقول - اتجه إلى النساء البائعات اللواتي هُرّعن لاستقباله وسأّلهم، ودون انتظار جوابهن قال لها: - إن لم يعجبك سؤالي يمكنك ألا تجّيبي. ولكن أستطيع مساعدتك لأنّي أعدّ نفسي خيراً إلى حد ما

في العصا التي تختارينها. أولاً يا جانيت - نيكول، إن لم يكن سراً أسألك عن عمر الرجل الذي تسترينها له.

— ليس في الأمر سرٌ — أبعشت من عيني جانيت — نيكول نظره تصنٍع حارةٌ —
— هو من عمرك، لا أكبر، ولا أصغر.

— حسن هكذا — "ليس بيير من تشترين له" — قال الكونت لنفسه — يمكننا اختبار العمدة المائية بغير ، ألا يك ، أن تكون كمالات ، باء ؟

— لا يأكلونه، لا — غضب حانت — نكما

- ماذا؟ ان كنت لا تحمله، ثمك فأننا حاذه.

- لا ياكونت، لا. - ارفع صوت جانبيت - نيكول أكثر. ثم أكملت

بصوت ألطـف: - وما معـي من نـقود يـكفيـ. هـذا الـبـائع عنـدـه مـثـلـ العـصـاـ
الـجمـيلـة الـتـي معـكـ. انـظـر إـلـى تـلـكـ المـوـشـاة بـالـذـهـبـ وـالـفـضـةـ وـالـرـخـارـفـ. أـيـعـجـبـكـ
يـاـ كـوـنـتـ إـنـ لمـ تـكـنـ مـبـالـغـاـ فـيـ تـلـوـيـنـهـاـ؟

- وهذه جميلة. لو كنت أشتري لنفسي لاخترتها لأن كل ملؤن يعجبني.

- أشتريها إذن.

– ستعجب من تشترينهما له لأنها تنتهي برأس امرأة جميلة – قال شارل دو فيريول مازحًا وأردف: – ولكنها لا توازي جمالك.

تظهرت جانيت نيكول أنها لم تسمع شيئاً مما قاله الكونت، مع أنه أسمعها، لا وحدها، بل كل نساء الملح. وحين أخذت جانيت - نيكول العصا التي اشتراها قال الكونت ما يجب أن يقوله وعلى مسمع الجميع:

أقدم لكم هذه المرأة الجميلة، مسؤولة مدرسة سان - كول، ومعلمة الصبية الشركسيّة التي أتيت بها من بلاد الشراكسة البعيدة، تعرّفن وجود بلاد بهذا الاسم، وإن لم تكن تعرّفن فاعرّفن الآن، شارلوت إليزابيث أيسبيه. وهي امرأة

ذات صفات ممتازة ترفع بها فرنسا رأسها. ولذا ما رأيكن في اختيار قطعة مما في محلن تكون ذكرى لها؟

- أيها الكونت شارل دو فيريول - توهجت وجنتا جانيت - نيكول من الكلمات التي لم تنتظرها. ونظرت نظرة تقرير إلى النساء المرئيات اللواتي وافقن الكونت. - أرجوكم لا تخرجني. شكرأ لك، ساعدتني على حسن الاختيار. وستعجب العصا من كلفني بها. ولا أسأل عن سيمهدي إليه العصا ولا عن رضاه بها. والآن عندي موعد في مكان آخر ياكونت، ينتظرونني.

- أتظننن أني أعيش في هذه الدنيا دون أن يكون لي دالله على أحد. - توسل شارل دو فيريول متواضعاً لها، ثم سألها بصوت ناعم وبنبرة عتاب: - ما المانع من أن تسمحي لي أن أهدي معلمة ابني شيئاً للذكر؟

- إن كان رأيك هكذا أيها الكونت فلتتفق: أنا عندي من يشتري لي تذكاراً. وأنت اشترا لأيسبيه. وإن أردت فلنختر معاً، وأنا أخبرك ما هو.

- لا شيء أحتجه عن ابني العزيزة شارلوت - إليزابيت أيسبيه؛ قولي إذن!

- قلادة صغيرة تنتهي بصلب صغير. تعبط أيسبيه زميلاتها اللواتي يملن مثلها. - هاتين أعلى قلادة مع صليب في محل! - نادى شارل دو فيريول البائعات وهو يفتح حافظة نقوده.

- لا تحتاج شارلوت - إليزابيت أيسبيه إلى قلادة غالية أيها الكونت - لم تقبل جانيت - نيكول - تحتاج إلى ما لا تتميز به من زميلاتها.

VI

استقبل هنري دو فارج، قائد شرطة باريس، الرجل الأسمى الضخم صاحب الحاجبين الكثيفين، والسالفين الطويلين، شارل دو فيريول على باب بائع المجوهرات، وضمه إلى صدره بقوة وحمله ودار به عدة مرات على أرض الملح وهو يرفعه ويختفضه، ثم قال له:

— يا صديقي العزيز، ظننتك ستزيد وزناً وحجماً في تركيا ولكنني أراك رشيقاً —
ثم ضحك ضحكة مجلجلة، ومزح معه: — أ تكون نار نساء الترك الحاميات
أحرقتك؟

— إن لم تختلس أمكن لنساء الشرق السمراءات، ذوات السيقان المتينة أن يفعلن بك مثل هذا يا هنري — ولكن نحن رجعنا منذ زمن بعيد من حيث كانت أمثالهن... لسن مشكلة.. وأنت ما أخبارك؟

— أكونت أكاد أنكرك؛ أأنت هذا! أأشبعوك في إستانبول؟ — يقول هنري دو فارج لصديقه ما يريد هو. — ماذا تقول؟ إن لم تكن النساء مشكلة فما عملنا نحن؟ تعال؛ لماذا نحن واقفان هنا. تأخرت في القدوم على غير عادتك فانتظرت حتى الظهيرة.

— هنري، كل هذا حسنٌ غير أن لي عندك رجاءً.
— أي رجاء؟ — لم يفهم هنري ذو العينين الواسعتين والأنيف الضخم ما سمعه، ثم مازحه مخفياً عدم فهمه: — احلك قبل أن تتطفّي رغبي الملتئبة.

— امرأة من معارفي محبوسة في سجن ميلين.

— وما تهمتها؟

— كسرتْ ضلع عربي جزائري.

— إذن اعتبر أنها انتهت من قضاء مدة حكمها؛ ما اسمها؟

- مادلين.
 - صرخ هنري دو فارج بصوت يرتج الغرفة، وأكّد على الرجل الداخل إليه، الربعة الذي لا يصغره:
 - الآن، بما أنك ذاهب إلى ميلين، سُتُخرج السجينية مادلين دون اعتراضات. ضممناها إلى نسائنا العاملات لأنها حسنت سلوكها. يجب أن تجهز الأوراق بحيث لا يمكن لأحد الاطلاع عليها. أفهمت عليّ؟ - وحين خرج الرجل المكلف بال مهمة من الغرفة سأّل صديقه: - وماذا أيضاً يا كونت؟
 - إن كنت لبيت رجائي بهذه السرعة - نهض شارل دو فيريول منتسباً وكأنه ليس ذاك الذي كان جالساً مرهقاً - انهض معّي؛ أنا الآن جاهز لما ذكرت.
- "خرج الاثنين من الغرفة يعنيان معاً" باريس، هيـه يا باريس!

VII

رغم أن أول أشهر الخريف في باريس يمضي إلى نهايته فالجو صحو حار. والناس يقضون ساعات الغروب الكثيبة في البيوت فرحين بعدم هبوب هواء البحر الرطب من جهة المانش، أو في أفياء الأشجار التي توشوش أوراقها للهواء الخفيف.

تحب كلودين - ألكسندرین الجلوس قرب النافذة في مثل هذا الوقت ترقب الشمس التي تغيب كالحاتم المستدير فتحرق السماء. ولا تفوت هذا المنظر إلا لأسباب قاهرة. حتى حين تكون في العربة توقفها وتراقبها منحدرة. وحين تكون مع جماعة من الناس تنسل من بينهم وتؤدي الشمس التي تحرق نفسها في سرير مكشوف بساحتها الكثيبة وأسئلتها وامتناعها عن الإجابة.

ليست هذه العادة لدى كلودين - ألكسندرین وليدة اليوم. بل في السنة التي أقامت خلاها في دير مونفرييل. متى جرى هذا؟ مضت عدة سنوات إن كانت قليلة أم كثيرة. ولم تُقم فيه طويلاً. - لم تكمل خمسة أشهر، ولكنها تعدّها هي خمس سنوات. وتنحى باللائمة في هذا على الشمبانيا التي احتستها، وعلى أختها التي شجعتها عليها في الليلة التي كان الكونت شارل دو فيريول سيافر في صباحها إلى تركيا. لو لم تنم في فراشه!

"ما الفائدة في أن تلوم هذه الشمس - الحاتم التي تغيب، بمحجة أنها لم تدفعتك ولم تجّملني؟! - لامت كلودين نفسها بنفسها. - إنها أدفأ الكثيرين، أحرقتهم، كثيرون تأثروا بها، وكثيرون لا. لا أندم على ما فعلت في تلك الليلة، غير أني أعجب من أن يتظاهر الكونت بأنه لم يحدث بيننا شيء. وأنا إن أخفيت الأمر فماري - أنجلييك لا تقصير في ما تستطيع فعله. تركتنا وحدنا، نحن الاثنين في الغرفة. وسافرت إلى حيث يقيم زوجها على بعد المكان. لا بد

أن في رغبتها أن تكون الأخтан زوجتين للأخوين فائدة. أتعجب أن أكون أصغر من الكونت؟ أو أن يري الصبية الشركسيّة التي اشتراها، أو نربيها نحن له؟... هذا يتعلق بما كتبه الله على الجبين. أخي امرأة عاقلة، وحين يُؤول الأمر إلى الأملالك فلا شيء لا يخطر لها، ولا أحد يقف في طريقها. لا أطلع بيير، ولكن هذا هو سبب دخولي إلى الدير. نعم، نعم، الخاتم الذي يقع من الإصبع يصدأ.

لم يكن في برنامج كلودين – ألكسندرین الذهاب إلى أي مكان هذا المساء، ولا أن يزورها أحد. ومنذ بضعة أيام هي تستعد لمثل هذا المساء. – بعد اليوم الذي زارت فيه ماري – أنجيليك زوجها. وأوصت البوابين والخدم أن يخبروا كل من يسأل عنها أنها ليست في البيت، ولا في المدينة. ومن كانت تنتظره لترجع من البيت حين تغيب الشمس، وينبدأ الظلام يسقط، هو من كان جالساً في القناء يشرب الشاي، وينهوي لنفسه، شارل دو فيريول. ليس من أجل أن تُقبل عليه دون كرامة وتتخد منه سميرأً، ألن تجد مكاناً في الدار الواسعة؟ ستقابله وهي تذرع أرض الدار حتى يفقد صبره عليها ويدعوها للجلوس.

قطع صوت العربية القادمة من منعطف شارع نيف – سان – أوغستين أفكار كلودين – ألكسندرین غير المريحة. وحين توقفت العربية عند البوابة الكبيرة أغلقت النافذة كي لا يراها القادم بالعربية، غير أن ما تراه عجيب. خرجت من العربية امرأة طويلة القامة، وبيدو احترامها لنفسها من مشيتها.

من هذه المرأة؟ وماذا تريده؟ ليست من معارف كلودين – ألكسندرین. أيمكن أن تكون من صديقات ماري – أنجيليك؟ إنما صغيرة في العمر، تراها لأول مرة. أ تكون قادمة لمقابلة لاروش؟ ليس من عادة الطبيب أن يستقبل في بيته رحلاً أو امرأة للعلاج. مهلاً، مهلاً! أهي من لا نعرفها من صاحبات شارل دو

فيريول؟ العادة أن يلاحق الرجل المرأة، لا العكس. ليس في الأمر ما يُدهش. ولكن إذا زارت المرأة الرجل في كل زيتها لتعازله فماذا تكون النتيجة؟ دفعت كلودين – ألكسندرine النافذة ففتحتها مغامرة، غير هيابة من تكون هذه المرأة، ولا من سيرها. وفي اللحظة نفسها سمعت من شارل دو فيريول الصوت الفرح المألف حين تُرْفَ إلَيْهِ امرأة:

– مادلين، هذه أنت؟... أطلقوا سراحك؟

– شفقتك وإنسانيتك يا كونت هما من أطلقاني. – أشارت إشارة احترام لشارل دو فيريول وهي تُثني عليه، ثم قبّلت يديه واحدة واحدة. – لن أنسى، لا أنا ولا صغيري معروفك.

– كفى يا مادلين – انتزع الكونت يديه من مادلين – لا تُحرجني. لم أفعل ما لا تستحقين. ليس مهمًا، اجلسي نتكلم. وأنت يا كلودين – ألكسندرine لماذا تقفين وراء النافذة؟ تعالى إلى هنا أعرّفك بmadلين. كيف وجدتني يا مادلين قبل أن أجده؟

– انتظرتك في ميلين في الأيام القليلة الماضية تحسبًا من عودتك إلى تركيا ولكن مللت من الانتظار فتحركت إليك. تبيّن أن السائس يعرف بيتك. سامحني يا كونت على إفساد يوم راحتك!

– لا داعي للاعتذار! خيراً فعلت؛ سرتني!

لم تكن مادلين تسمع في هذه اللحظة ما يقال لها. كانت تفكّر فقط في المرأة التي نادتها الكونت، ونفّد صبرها فسألت:

– من التي ناديتها يا كونت؟ أهي زوجتك الشابة؟ حين رأته فتحت النافذة كأنها ستخلعها.

- وهل لاحظت هذا أيضاً؟ - ابتسם الكونت وريأوه بادٍ من صوته: - لا يا مادلين. ما زلت كما تعرفي عازباً. بعد أن أفضي بضع سنين في تركيا وأعود سأكفي حالة العزوبيّة هذه بفتاة صبية أذخرها لهذه المناسبة. أما هذه القادمة فهي أخت كنّتي.

- أخت زوجة أخيك يا كونت؟ أليست امرأة؟ - ابتسمت مادلين وهمسَت في أذن الكونت: - هذه امرأة جميلة انتبه لنفسك! وفجأة ظهرت كلودين متأنقة جداً كأنها تنافس مادلين. وبعدهما تعارفتا، سألت مادلين كأنها تعرفها طوال عمرها:

- لماذا تجلسان في الظلام؟ - ثم أضافت بحثث لا تعرف جدّها من مزحها: - لا أظن الليلة مقمرةً. أيها الخادم لا تبخّل بالشّموع! - لا، لا تقلقاً! - قالت مادلين وهي تعرف أن كلودين غير مرتاحة للموقف، متظاهراً بعدم فهم إزعاج كلودين: - لم آت إلى هنا لأسهر، عندي كلام مع الكونت.

- لم أعرف يا مدام أنكمما متواudedan، لو عرفت لما أفسدته. - قالت كلودين دون قصد إلى إزعاج رغم أنها التهبت غضباً لما تسمع: - لا أرى من اللايق أن تجالس امرأتان رجلاً واحداً.

- يسرني أننا تعارفنا - قالت مادلين وسألت: - ألسْتِ غيرين دو تانسين كلودين - ألكسندرین؟

- نعم، أنا - توقفت كلودين مستغرية معرفتها باسم أسرتها. - من أين تعرفي اسم أسرتي؟

- لأنني قرأت كتاباً صغيراً لك لا أذكر اسمه.

- ربما تقصدين أول كتاب لي – كانت فرحة لذكر كتابها ولو أنها لا تنوى العودة – وما رأيك فيه؟
- المكان الذي قرأته فيه – تنهدت مادلين – ترين الأحسن فيه أنه الأسوأ... لا أريد أن أذكر اليوم مأساة البارحة.
- السيدة مادلين كانت سُجنت في ميلين من أجل شخص تافه، ربما تتذكرين يا كلودين.
- سمعت، سمعت. أهذه أنت؟ إن كنت أنت فمن حبك أن يُكتب عنك كتابٌ كامل. يا مدام ما كنت لأصدق، مهما قيل لي، لو لم أعرفك. وهذا جزء من حياتنا. كلُّ يستطيع أن يزيد أو ينقص منها؛ أليس صحيحاً يا كونت؟
- نعم، الحياة مركبة بطريقة عجيبة. علىٌ وسرُّ كالنهار والليل. – نظر الكونت في وجه السائلة راضياً عن نفسه لما قاله، وابتسم في وجه الكاتبة الشابة كأنه يسألها: أفهمتِ؟
- حين انصرفت غيرين دو تانسين الكاتبة الشابة قالت مادلين دون أن تفصح عما يقلقها:
- الوقت يمضي يا كونت.
- لا حول لنا في هذا يا مادلين. الوحيد الذي أعرف أنه قادر عليه هو الموت.
- يا كونت، يا رجلي الذهبي؛ أيَّ كلام يائس تقول؟ أنا أقصد شيئاً آخر. أقصد ما يسرّ القلب وينحه الأمل. جئت إليك بمنفي من أجل أن أقول لك إني أود أن أدعوك إلى الفندق ونقضي آخر ليلة لي وأصالحك. العربية تنتظرك يا كونت.

التهب شارل دو فيريول في داخله كما في كل مرة يسمع فيها دعوة صريحة إلى المتعة أو يتوقعها. ولمعت عيناه من خلال الظلام الذي يسبق الليل. وداخل رأسه مما وجد في الدعوة الصريحة للمرأة الجميلة. وصار يرغب في النبيذ بدلاً من الشاي. ولكنه فرح لعلمه أنه يجب أن يضبط نفسه من أجل مادلين التي ستصالحه ومتى تتعه في آخر ليلة، وكأن شخصاً آخر، لا هو نفسه، ينصحه:

شكراً يا مادلين. لا أكتنك أني خبرت نساء كثيرات في حياتي. والله يعلم
ماذا ينتظري الآن. ولكنك حملت لي خبراً ساراً، أفرحتني. لتصور أننا قضينا
معاً تلك "الليلة الممتعة". لا تنظري إليّ يا مادلين هذه النظرة. ولا تظني أن
فاحولتي نفدت؛ أنا جاهر منذ هذه اللحظة، غير أني أريد أن أحافظ على
الحب الذي كان بيننا.

وضحت مادلين تغلبها ذكريات الغرف الخاصة في الفنادق والموائد الشهية. وأما كلودين التي لم تدع إلى البيت ولم تكن تتحمل ما تسمع فإنما نجحت بسرعة وهرعت إلى الغرفة، وهي تعنيّفه في سرها: "إن لم تحترم نفسك وتحمّن لقب الكونت الذي تحمله، فستحدث لك مثا هذه الأمور وغيرها".

– اغفر لي ضحكتي المدوية يا كونت. ليس سخرية مما قلت. ليت كل الرجال
الذين كنت أحدهم من ذاكرتي حالما يتذكرونني كانوا مثلك... وإن كان هذا
رأيك فلن نتكلّم مرة أخرى على الموضوع الذي ثبّت عنه. شكرًا لك مرة أخرى
على ما فعلت لأجلّي. ولن تسمع بعد الآن أن أحدًا رأي على طريق باريس –
مرسيليا – ثم انفجرت باكية.

– مادلين ماذا جرى لك؟ كفّي عن البكاء! – أمسك بيدها ونصحها. –
أعرفك امرأة قوية...

- نعم يا كونت، نعم... - رجعت مادلين إلى وعيها بسرعة _ أبكي على ما فات، وأنظر بالآتي...
- حسن إذن يا سيدتي - يلطف شارل دو فيريول المرأة التي تعود الحرارة الآن إلى يديها الباردتين. - حسن لا تردد في ما تفعلين. وربما كان جهلك بما يتطلبه لك أفضل لك. لو كنا نعرف ما ينتظرك في الغد إن خيراً أم شراً لما بقي في الحياة متعة... ماذا تنوين أن تفعلين إذن؟
- سأعود إلى مسقط رأسي شفيصار، حيث لن يراني أحد في باريس أو ميلين، وسأرقي صغيري في قرية هادئة بعيدة عن المدينة.
- أوقفك على ما تقولين إن كنت قادرة على تغيير المكان. وسأساعدك على أجراة الطريق ونفقات الأشهر الأولى.
- لا يا كونت. لا أريد شيئاً من هذا، يكفي ما قدمت لي. - نهضت مادلين عندى من المال ما أربى به صغيري. ألا يردد لي معروفي إذا كبر؟!
- سيفهمك من تعبي عليه - لم يفك شارل دو فيريول في ما قاله - ولكن ما لا أفهمه أمر واحد يا مادلين - أضاف الكونت بنبرة مزاح ورياء: - على ما يبدو أني من "الرجال الذين يحبون تغيير النساء"، لا، أراه مديحاً ولا ألوم نفسي عليه.
- نعم منهم... - قالت مادلين دون استغرابٍ ما سمعت، وامتدحت الكونت - ولكن لأني لا أرى إنسانيتك بين من تشبه بجم نفسك يا كونت. والآن مزحت معه - دعني أقيلك مجاناً في لحظة ركوب طيفي!
- مع أن عربة مادلين غادرت باب آل فيريول منذ زمن بعيد فلا يزال صوتها في مسامع الكونت. والوقت الذي لا يعرف التوقف يمر عليه وعلى غيره، سواء مضى نصف ساعة أم ساعة.

وطوال هذا الوقت فتحت كلودين – ألكسندرин التي كانت تريد لفت انتباه الكونت الباب وأغلقت أكثر من مرة. والسماء التي كأنها لا تغادر مكانها تنظر نبوماً، ونصف القمر بان ويراقب من أعلى شجرة.

مررت أمام ناظري الكونت شارل دو فيريول الذي ناهز الخمسين أحدهات كثيرة. ولسن قليلاً النساء اللواتي رآهن في باريس وفي إسطنبول وغيرهما. وأغلبهن نسي الكونت أسماءهن. ولكن لا يعرف لماذا ييرز اسم مادلين من بينهن. إن كان السبب ما حدث له مرة فقد لا تخلو حياة رجل من مثل هذا الموقف. أيكون السبب كونها امرأة عبلة منشرحة؟ وكلودين – ألكسندرин امرأة ممتلئة طويلة. ويعرف من سان – كول امرأتين. ولكن شأنهن مختلف "نعم، نعم قبّلتهن مادلين أخيراً مجاناً" بكت، هدّأها. ولاطفتني أخيراً. ومهما فعلت بي أو قالت لي فلم أر منها رباء أو حُبشاً أو جرياً وراء المال. فكيف يمكن ألا أحبها... يا رب يمكن أن تصدق مادلين في ما التزمت به؟!"

حتى لو لم يجد شارل دو فيريول أجوبة كما يريد لأسئلته المسائية فقد دخل الغرفة راضياً عن نفسه، شاعراً بالارتياح. وبعد ما استحم احتسى كأساً من النبيذ الأحمر والتجأ إلى فراشه.

وفيما الكونت يردد "ماذا رأت مادلين من شيء هام في كتاب كلودين – ألكسندرin؟ لم يكدر هذه الليلة يمسك كتاباً" ليس من أجل أن يطفئ المصباح وبينما كعادته دائماً بل من أجل أن يغرق في النوم وهو يقرأ في كتاب. فاجأته كلودين حتى دون أن تقرع الباب:

– ما الأمر يا كونت؟ لأول مرة ترى امرأة؟ أنا، أنا، قفز شارل دو فيريول ولكن حين رأى النهددين البارزين المدورين المتبنين من صدر المرأة المفتوح سقط

من تأثير النار التي هجمت عليه فلاطفها وهمس لها: - ألم تتفق على أن علاقتنا انتهت؟

- ستنتهي يا كونت حين لا يبقى لي مكان في فراشك!

- اشربي إذن يا كلودين من النبيذ الأحمر الذي شربت منه.

- يكفي يا روحي ما سببتك لقلبي إلى الآن حتى دون أن تضييف النبيذ إليه. أفسح لي ودعني أنام على صدرك الدافئ - أبعدت لحاف الكونت ونامت إلى جانبه مرددة "سأريك إن كان الخاتم الذي يقع من اليد يصدا"

VIII

مهما علت الشجرة وشاخت في الهواء فما يُريها الدنيا وينحها الحياة هو الجذر. فإن لم يكن الجذر قوياً عجزت عن أن تقف في وجه المطر والعاصفة والفأس والمنشار... حتى لو انكسر جذعها أو أغصانها، ومهما قصوا منها وقلمواها عادت إليها الحياة من جذرها ونمث شيئاً فشيئاً.

يمكن القول إن أسرة بوربون التي ظهر منها ملوك أقوياء لها جذور قوية أو ليس لها. تبُّوا أسرة بوربون الحكم في فرنسا بعد أسرة "فالوا" ومن بين ملوك آل بوربون لودفيغ الثالث عشر. وحكم البلاد فعلياً في ولايته الكاردينال ريشيليو. وحكم لودفيغ الثالث عشر فرنسا طوال اثنين وأربعين عاماً. وكان ملكاً ولم يبلغ الثانية والعشرين. وإذا كانت أمه آن أفستريسك مريضة - وصية عليه فإن من كان يحكم البلاد هو عشيقها الكاردينال مازيرين.

حين مات مازيرين أبدى لودفيغ الرابع عشر رجولة لم يتوقعها الناس منه. وجه إلى البرلان الذي لم يكن يطيعه هذه الرسالة: "منذ اليوم أنا من سيحكم البلاد" ولم يكتف بهذا بل ذهب إلى "المندوبيين أصحاب العباءات" كما كان يسميهم، وسألهم وهو يمزق أمامهم أوراقهم التي كانوا ينتفعون منها: "هل تظنون أن البلاد لكم؟" وأجاب بنفسه "أنا البلاد".

سيحتفلون بعد غد ببلوغ حكم لودفيغ الرابع عشر عامه الخامس والأربعين. ودُعى إلى الاحتفال آل فيريول وآل غيرين دو تانسين. وحضر إلى باريس أوغستين - أنطوان وبيير غيرين دو تانسين. ولم تنس جلاله الملكة مشرفة دير سان - كول، جانيت - نيكول.

حين أبلغ شارل دو فيريول عائلة أنه سيأخذها إلى الاحتفال فرحت بخبر دعوة جانيت - نيكول إلى الحفلة أكثر مما فرحت باصطحاب شارل دو

فيريول لها. وتشاورتا في ما ستلبسان في المناسبة. وكان بود جانيت – نيكول أن تلبس عائشة الزي الشركسي، ولكن حين علمت أن عائشة ليست متحمسة، تجاوزت الموضوع متذرعة بالثوب الذي جهزه آل فيريول لها.

ترتدي عائشة الثوب الذي خاطه أمهر خياطي باريس والذي أحضروه اليوم وتنظره الأسرة بكاملها. ومن سيعزف على الأوكورديون حاضر وهو لاروش. ومع أن بون دو فييل وأرجنتال مستاءان لعدم اصطحاجهما إلى الحفلة فإنهما جالسان يخفيان بابتسامهما حقيقة مشاعرهما.

وماري – أنجيليك هي من لا تطيق صبراً:

– أنت يا كلودين أمهر في اختيار اللباس، اذهي وساعديه!
لا تقلقي يا كونتيسة! – نظرت كلودين – ألكسندرین بخبت إليها وابتسمت
– سترين شارلوت – إليزابيت أيسيه كيف ستلبس حتى تبدو كالصورة بشعرها
وحاجبيها وثوبها وقوامها المتناسق مع لباسها.

كان عليكم أن تلبسوها عند الخياط. – غغم بون دو فييل الذي بدأ تطلاع
شاربيه.

– نعم، صحيح – وافق أرجنتال أخاه.

– كفى! لم يستشركم أحد. – أسككت كلودين – ألكسندرین أولاد أختها.
– إذن لا تأتوا على ذكر شارلوت إليزابيت أيسيه! – رد أرجنتال بالمثل. – إن
لاحظتم عليها شيئاً في غير مكانه سخرتم منها.

حين دخلت شارلوت – إليزابيت أيسيه بثوبها الطويل الأبيض المشرب بالحمرة،
والقبعة المخبوطة من القماش نفسه، والحناء غير العالي المناسب معهما،
والقفازين الطويلين إلى قرب المرفقين، وعلى الصدر قلادة من الذهب يتدلّى
منها الصليب، فغر المنتظرون أفواههم وتفحصوها بنظرائهم. وحين عزف لاروش

في المناسبة صفق الجميع بمن فيهم صوفي له. وقامت عائشة دون أن تسمح للخجل أن يسيطر عليها بحركة الجلو على الركبة، والتي يجب أن تقوم بها في حضرة الملك والملكة، أمام من صفقوا لها ومن لم يصفقوا. ثم جلست حريصة على الثوب الذي يضيق عند الخصر بجانب شارل دو فيريول. وأصلحت شالها.

- كل شيء جيد جداً - قالت كلودين التي كانت تعرض فخذها العارية - ولكن شيئاً ينقص مظهر شارلوت - إليزابيت أيسبيه، لا أعرف ما هو.

- أيكون ثوبها مفرطاً في الطول؟ - سأل لاروش.

- هذه حسنة في الثوب. لم تتوافق كلودين - ألكسندرین - لا يقفون في حضرة الملك بثوب قصير. ولا يخالطون خاصة الناس به.

فاجأ أرجنتال على عادته الجميع:

- أعرف ما ينقص شارلوت - إليزابيت أيسبيه - القرطان! ألا ترون قرطي كلودين - ألكسندرین الجميلين؟

- صحيح يا أرجنتال، صحيح! ملاحظتك دقيقة - تعالى يا شارلوت - إليزابيت أيسبيه أشتراك لك ما يعجبك من الحال الذي اشتريتما فيه من أجلي العصا القضية، وأنت يا أرجنتال امشي معنا.

صاحت كلودين - ألكسندرین وراء الذاهبين للشراء:
- إياكم أن تشتروا أقراطاً مثل أقراطي!

إذا رجعنا عشرين سنة إلى الوراء فالعريمة الخفيفة التي صُنعت للودفيغ الرابع عشر توصلتك إلى القصر في ساعة ونصف، والفارس في أقل منها.

لاتبدأ الأمسية التي تقام باسم الملك والملكة في القصر الكبير باكراً - بل في حدود الساعة العاشرة. ولكن الضيوف لا يتأخرون عن الساعة التاسعة.

والأفضل قبل التاسعة بقليل، وحينها سترتقى الدرجات المكسوة بالسجاد دون استعجال أو تداعع. تدخل وتخرج من غرف كثيرة منيرة حتى تبلغ الصالة التي يقام فيها الاحتفال. وعلى المدخل يتطرق المستقبلون من موظفي القصر، وينادونك باسمك فتدخل صالة الاحتفال الكبيرة التي تلمع أرضها، وجدرانها مزينة بالذهب والفضة، وتنتشر آلاف الشموع في آنية مذهبة ومفضضة. وحين تدخل تحيي الملك والملكة باباءة من رأسك وتتخذ مكانك.

انطلق من باب قصر آل فيريول ثلاث عربات بعدما حسبو بدقة متى يجب أن ينطلقوا. في العربية الأولى شارل دو فيريول وشارلوت – إليزابيت أيسيه. وفي الثانية أوغستين أنطوان وماري – أنجيليك. والثالثة هي عربة كلودين – ألكسندرین غيرين دو تانسين. والكاتبة الشابة لا يحيزنها كونها وحيدة بل تعتد بها. والعربة الرابعة تأتي من مسافة أقصر، من سان – كول. وتلتقي بالعربتين في الطريق، وفيها الأسقف بيير غيرين دو تانسين ومسئولة مدرسة الديار جانيت – نيكول.

باريس في ليتها ونمارها جميلة إلا أنها مزدحمة. ولكن في البعيد تتوهج أنوار فيرساي وقت الغياب في الريف حتى يُحيل إليك أنها جنة الدنيا.

تنظر شارلوت – إليزابيت أيسيه من خلال نافذة العربية حريصة ألا تفسد كيّة ثوبها وقبتها. كل ما تراه العين: الشوارع في المساء، والبيوت، والجسور والسفن، يعجبها، غير أنها من يوم أن عرفت قصر فيرساي، واستقبلت فيه، يُقلقها السؤال الذي لا تستطيع البوج به. ولو لم تأسّها زميلاتها لما اهتمت بالأمر إلى هذا الحد. وكانت ستحت لها الفرصة أمس في محل بائع الذهب لتسأل شارل دو فيريول غير أنها لم تتحمّل تصرفات الباعة النساء، بالإضافة إلى القرطين اللذين اشتراهما، فنسّبت الموضوع.

تجري العربية الوثيرة لا تلوى على شيء، ويتظاهر شارل دو فيريول بأنه ينصل إلى صوتها غير أنه يتلخص بنظراته على الفتاة المشوقة الحريصة على ملابسها والجالسة مقابله شارلوت إليزابيت أيسبيه: "هكذا صبرت نفسي عنها قائلاً: اليوم، غداً حتى صارت في قلب امرأة... ولكن لم تصل بعد تماماً إلى سن النضج. غير أن من في سنها هن زينة دور الحرام في إسطنبول... إسطنبول وحدها؟ في أي عمر كانت كلودين حين انسلت إلى فراشي؟ لن تفعل أيسبيه مثل هذا، ولكنها خلال سنة أو سنتين ستصبح من أولئك اللواتي يسلبن اللب وبخطمن القلب... لا أعرف إن كنت أخالطها في سنوات غيابي عن فرنسا بالرجال والنساء المتحررات... انظر إلى كلودين... كانت تريد أن تقلل أيسبيه بعريتها إلى فيرساي!"

نظر شارل دو فيريول إلى عائشة وكأنهم سيسلبونه أغلى ما عنده. وجعلته الحرارة التي غزت جسده يقول لها بصوت ناعم:

- لا يعجبني أن تركي العربية وظهرك إلى عكس اتجاه العربية. تعالى واجلسني قريبي!

- لا يا بابا، يرى أحدهنا الآخر أفضل في هذه الوضعية. وأجاب شارل دو فيريول الذي كانت عائشة تنظر إليه كابنته:

- هكذا؟ إن كان رأيك هذا فلا بأس! - وسألها دون أن يُشعرها، قائلاً في نفسه "ليتك خففت من" بابا" هذه": - أرى على وجهك سؤالاً يا أيسبيه.

- عرفت يا بابا. - ضحكت عائشة ووجهها يزداد جمالاً على جمال: - هل دُعيت إلى فيرساي كما دُعيت أنت وكما دُعيت كلودين؟ أتعرف لماذا أقول هذا يا بابا؟ لأنه في نواحينا حين تُدعى الفتاة إلى الحفلة يرسلون وراءها مجموعة فتيات، تركب العربية معهن.

- طبعاً، دعوك كما دعوني يا أيسيله؟ - أجاب الكونت بسرعة وكأنه كان يتضرر السؤال "انظر ما أشد ما تتباهى بنفسها...لولا أن الشراكة يحترمون المرأة ويشمنونها، وهي تحترم نفسها لما سألت هذا السؤال". وأضافت متعجبة:
 - أظن أن ماري - تيريز الملكة هي من دعنتي.
 - وتعرين اسم الملكة؟
- كيف تكون من رعایا فرنسا وأنت لا تعرف اسم ملكتها ولا تُعُرُّها، ألسنّت أنت من يقول هذا؟
- نعم أنا يا ابنتي. - ولأنها نادته "بابا" ضغط شارل دو فيريول الآن على "ابنتي" ليُنسِّي نفسه أقواله. واعتبر أن الفضل في دعوتها إلى الحفلة من قبيل الملكة التي نطقـت أيسيله اسمها بإعجاب، لا من قبيلـه يعود إليها: - ماري - تيريز الملكة التي قدمـوك إليها هي من دعـتك. لم تنسـ أنـك أـلقيـت قـصـيـدةـ أمـامـهاـ.
- هـكـذـاـ إـذـنـ - شـكـرـاـ لـهـاـ - قـالـتـ شـارـلـوتـ - إـلـيزـاـبـيـتـ أـيـسـيلـهـ وـكـأـنـاـ تـعـرـفـ المـلـكـةـ مـنـذـ زـمـنـ بـعـيدـ وـكـأـنـاـ كـانـتـ تـدـعـوـهـاـ إـلـىـ أـمـسـيـاـتـهاـ،ـ وـلـحـتـ لـهـ إـلـىـ مـاـ كـانـتـ أـخـفـتـ عـنـهـ: - كـانـتـ جـانـيـتـ - نـيـكـوـلـ أـوـصـتـ بـخـيـاطـةـ زـيـ الشـرـكـسـيـ... - وـلـكـنـهاـ قـلـبـتـ المـوـضـوـعـ بـمـهـارـةـ: - ثـوـيـ وـقـبـعـتـيـ وـأـسـوـارـيـ وـقـرـطـايـ،ـ كـلـهـاـ جـمـيـلـةـ...ـ هلـ سـنـرـىـ مـارـىـ - تـيرـيزـ الـمـلـكـةـ يـاـ بـابـاـ؟ـ
- نـعـمـ،ـ لـنـ نـرـاـهـاـ فـحـسـبـ بـلـ سـنـحـيـيـهـ مـعـ ذـكـرـ أـسـمـائـاـنـاـ.
- كـمـ سـيـكـوـنـ مـمـتـعـاـ يـاـ بـابـاـ!ـ - قـفـزـتـ شـارـلـوتـ إـلـيزـاـبـيـتـ أـيـسـيلـهـ مـنـ مـجـلسـهـاـ وـجـلـسـتـ إـلـىـ جـانـبـ أـيـهـاـ مـعـتـرـبةـ مـاـ سـعـتـهـ دـلـلـةـ حـسـنـ حـظـهـاـ.ـ وـبـعـدـ ماـ جـلـسـتـ قـلـيلـاـ مـتـمـسـكـةـ بـذـرـاعـهـ وـرـأـسـهـاـ عـلـىـ كـنـفـهـ،ـ لـمـ تـمـلـكـ إـلـاـ أـنـ تـُقـصـحـ عـمـاـ يـزـعـجـهـاـ:ـ وـلـكـنـ لـمـ يـُدـعـ بـونـ دـوـ فـيـلـ وـأـرـجـنـتـنـالـ.

- وهذان سيدعيان يوماً ما... - قال شارل دو فيريول، واختتم بامتداح نفسه: هل تعرفين يا أيسيه كيف تحدث الدعوة؟ أوغستين - أنطوان أخي، لا أريد الانتقاد من شأنه. أنا سفير فنسا العظمى، وعمل أوغستين ليس مثل عملي. ولذا تصعب المقارنة بين أولاده - أولادي وبينك. ولكنني سأقدمهما يوماً إلى الملك. ولذا فالأولاد، بالإضافة إلى لقب الكونت، يجب أن يتمتعوا بتعليم وإعداد ممتازين، ومهنة عالية في خدمة فنسا. أنت عندك يا شارلوت - إليزابيت أيسيه من تحتمين به، من يعذرك، - وهو أنا. أما الذي استغربيه فهناك أشياء كثيرة شبيهة به سارياك إياها متى رجعت من تركيا.

- تقول هذا يا بابا، ولا ترجع!

- في غضون سنة، سترين، سأعود إلى باريس. وإن أردت، حين تنتهي من دراستك أصحبك إلى إسطنبول، ونقيم معاً هناك بعض الوقت.

- لا أريد! - ازرق وجه عائشة الذي كان طافحاً بالأمل والفرح، وجزمت: - يكفيني ما قاسيت في إسطنبول.

ارتسم في مخيلة شارل دو فيريول سوق النخاسة التي لم يطأها في السنوات الماضية. وهذه الفتاة الجالسة أمامه يصعب أن تصدق أنها هي التي اشتراها من هناك. "لا تسمح لنفسها، إن شاءت أم أبى، أن تنسى المكان الذي سُبّيت منه رغم كل ظروفها الحالية" تقول لي "في بلادي يحترمون المرأة فإذا دُعِيت فتاة إلى حفلة أرسلوا وراءها مجموعة من الفتيات يصحببها" كان مناسباً أن أخالط الشراكسة يوماً ما، ولكن لا أعرف كيف سأفعل "أُفِرِّجُهُمْ بِأَنْ ابْتَهِمُ الأُسْيَرَةَ" في بيتي، وأني أعمل لتحويلها إلى فتاة فرنسيّة حقيقية؟ - إن كنت كرهت حياتك فافعل هذا! أقول لها إن فخري ألقى القبض على عصام وإنه أفلته دون أن ينتقم لنفسه أو لها، وأنه يعيش فرحاً بحربيته؟ حسب تقديرها لها ستائي

هذه التي أمامي إن سمعت بالخبر على رجليها جرياً إلى إسطنبول رغم معارضتها الظاهرية. وأنا لست محتاجاً إليك هناك؛ لا تنقصني النساء. الأفضل لي أن أعود إليك وقد نضجت"

- وهذا صحيح يا أيسبيه! - تمهل شارل دو فيريول قليلاً ثم نصحها في ما عرضه عليها: - ماذا ستفعلين في إسطنبول؟ بالقياس إلى فيرساي حيث نذهب فباستثناء الأسواق والمقاهي - كان يريد إضافة دور الحرام غير أنه رأه غير لائق - لم أر فيها ما يريح القلب ويخلاص الروح من أوجاعه.

لا يُسمع في القصر المزدهي بالشمع إلا أصوات الناس والعربات. وإذا أضيف إلى الشمع الألعاب النارية خيل إليك أنك في عالم آخر، ونسيت باريس. ولما كان الجو جديداً على شارلوت - إليزابيت أيسبيه فقد برقـت عينـها وـكـاد قـلبـها يـخـرـجـ منـ بـيـنـ ضـلـوـعـهاـ.ـ وـمـعـ ذـلـكـ تـجـدـ فيـ نـفـسـهـاـ مـاـ يـكـفـيـ منـ القـوـةـ لـتـظـاـهـرـ بـأـنـهاـ لـأـعـيـرـ اـهـتـمـاماـ لـلـرـجـالـ وـالـنـسـاءـ الـذـيـنـ يـأـتـونـ عـلـىـ ذـكـرـهـاـ،ـ مـنـ يـمـيـنـهـاـ وـيـسـارـهـاـ،ـ وـكـأـنـاـ اـعـتـادـتـ عـلـىـ كـلـ مـاـ تـرـاهـ هـنـاـ.

لا تفرغ الفتاة التي ليس في جسدها ما يمكن أن يوصف بأنه في غير محله أو زائد، ولا الكونت، من التحيات بإيماءات الرؤوس. وشارل دو فيريول يهمس للفتاة التي إلى يساره تصعد الدرج المفروش بالبسط، بشوتها الطويل المتموج وقوامها الجميل: "أترين الرجال والنساء لا يستطيعون تحويل عيونهم عن جمالك؟" وترد أيسبيه على الكونت ولو أن ما سمعته أطربها "يا بابا لا تقل لي مثل هذا الكلام، الكثيرات هنا أجمل مني".

عائشة التي كانت تقول هذا، كانت تغلبها روح الأنوثة المرائية رغم أن قلبها يكاد يقفر من صدرها: كانت قد حضرت مسجدها، وحافظتها على قامتها، وعلى الفرح في عينيها، وكأنها تقول: انظروا إلي وتابعوني بنظراتكم، وتمامسوا

في ما بينكم! وكلما أشار الكونت إشارة التحية قلّته. ولكن أعجب شيء هو أنها تذكر ما كانت جدتها "شابه" تتصحّها به في مثل هذه المناسبات وكأنها تسمعها الآن: "تحلّي بالأدب، لا تتكلّمي، وكوني جديّة، واحترمي نفسك"!

ما هذا؟ أهو وراثة من الجذور أم أن المرء يُخلق معها؟

صاحب المُضييف حين رآها على باب الملك والملكة:

- الكونت شارل دو فيريول وابنته الكونتيسة شارلوت – إليزابيت أيسبيه!

حين حيّا الملك والملكة، على بُعد بضع خطوات، بإيماءة الرأس، قالت الملكة للملك:

- هذه هي الفتاة الشركسيّة التي ذكرتها لك يا جلالتك. أترى ما أجملها! – ومدت يدها التي تضيّن بها على المدعوات الأخريات، إلى عائشة، فحنّت الأخيرة رأسها بخفة وفُقلّت يدها، سمعت كلودين ومن معها ما قالته الملكة: عندك ابنة جميلة، أيها الكونت، وكانت أجمل لو كانت بزتها الشركسي. – ثم توجهت إلى الصبيّة: أيتها الكونتيسة أنت جميلة ومثيرة جداً، أريدك أن تلمعي من بين نجمات احتفالنا.

IX

لم تستطع كلودين — ألكسندرين، وقد مضى على احتفال القصر بضعة أيام،
إلا أن تقول ما كان يشغل بالها:

- كانت فتاتنا الشركسية يا ماري، سواء قالت ملكتنا أم لم تقل، جميلة جداً حتى لتميّز من بين الحاضرات. ليتني أريتكِ فيليب أورليان ابن أخت الملك، لم يحول نظراته عنها رغم جمال زوجته.
- رأيته... - تنهدت ماري - أنجيليك وهي تمسد وجهها المتغضض وتمر بأصابعها الرفيعة على حاجبيها. - وسأقول لك شيئاً آخر: - وبسبب أيسيله التي لا تساوي شيئاً، عضّت زوجة هنري دو فارج ذات الأنف الطويل والشفتين الغليظتين نفسها غيظاً. ومن حسن حظنا أن الكونت أقنع زوجة صديقه، ممازحاً إياها، أن ترقص معه وإلا تصرفوا معنا بما لا نستحق.
- وما علاقتنا نحن بالأمر؟ - لم تقتنع أختها كلودين — ألكسندرين بما يقللها - لو حدث هذا لكان خيراً.
- يا كلودين، لا أعرف ما تقولين. — ارفع صوت ماري — أنجيليك أتعادين نفسك بنفسك؟ أليست أيسيله تربى في أسرتنا؟
- ليس في أسرتنا — احتدلت كلودين — ألكسندرين وهي تعى ما تقول، ثم خcessت: - نحن من أسرة غيرين دو تانسين، لا تنسى!
- لا أفهمك يا كلودين، أتخيّلني قصداً أم تصبّين جام غضبك وأحقادك علىي — أنسّيت أين كنتة آل فيريول وأين أحمل اسمهم؟
- وأضيفي إلى ما قلت أنك ولدت لهم طفلين!

- أنا أعتدّ بهذا، ولا أخجل منه. مهلاً يا كلودين، مالذي جرى لك اليوم حتى تخاطبني بما يهيني؟ - ثم سألتها بلهجة أنعم: - أؤساء إليك أحد يا أختي الصغيرة؟

لانت كلودين التي كانت جالسة منتسبة كأفعى تستعد للهجوم. وأشارت عينها الرماديتان دفناً وإن كانتا باردين. وقالت بسخونة من تعذر:

- لم يهيني أحد ولكن لا أعرف لماذا أهنتك أنا. اغفر لي؛ يحدث لي أحياناً مثل هذا!

- ما من أحد لم يجر معه شيء. وأنا أكون أحياناً في مثل حالتك. ولكني أزن كلامي وسلوكي. - وخففت أن تستاء أختها من نصائحها وغيرت ماري - أنجليك الموضوع بما يسرّ أختها: إن كان الأمر هكذا يا كلودين فسأقول لك ما لم تتوقعه: رأتك أيسية أجمل نساء الاحتفال، بمن فيهم أنا.

- أيسية هذه تقول أشياء كثيرة. - قامت كلودين - ألكسندرين بإشارة متظاهرةً أن ما سمعته لم يعجبها.

- صحيح، صحيح، وأنا كان لي الرأي نفسه. كان الراقصون، وفي مقدمتهم شارل دو فيريول، يتخاطفونك.

- نعم، وأنا أرقص تأدية واجب حين يأتيني الدور كانت العيون لا تفارق أيسية. هذه القبيحة راقصة ممتازة، لا أعرف من أين تعلمت الرقص.

- ألم تري كيف كانت جانيت - نيكول ترقص؟ علمت أيسية الرقص كما تتقنه هي. وماذا كان شارل دو فيريول يقول لهذه المرأة العوجاء؟

- وما يُدرِّيني؟ أيهمك الأمر؟

- ولماذا أهتم؟ أقول هكذا دون مناسبة.

- ليس نحن من يجب أن يهتم لهذا. الأسقف ولو لم يكن لابساً الجلباب كان واقفاً كقطعة جليد وكأنه يلبسه. حبيبنا الوحيد أخونا بيير تخلى عن هذه الجميلة للراقصين طوال الليل. إذن سأقول لك يا ماري خبراً لا تعرفينه.

- أيُّ خبر؟ أ يتعلق بال فيريول؟

- نعم.

- وأي خبر يتعلق بال فيريول لا أعرفه؟ - كان ما سمعته ماري - أنجلييك يدعوا للسخرية. ثم سألت بسخونة مرتعبة: - خبر سار أم...؟

- بالنسبة لي ليس جيداً، لا يعدي أن يصحبني إلى تركيا.

- ألم تقولي إنه أقتلك؟

- حين أدقق له فراشه يعدي، وحين يبرد يغير كلامه.

احمر وجه ماري - أنجلييك كجمرة. ولكنها غيرت الموضوع كما تفعل حين تجد نفسها عاجزة عن الجواب:

- لا أعرف إن كان قد حدث أمر بين ملكنا والملك مونتيوبان؟

- ومن هي مونتيوبان هذه؟ سألت كلودين الحشو رأسها بمشكلاتها هي غير الخلولة ولكنها سرعان ما فهمت وسألت عن اسم عشيقة الملك الحقيقي:-

أهي فرانسواز أتينايس دو روشيشورا؟

- ومن تكون غيرها؟ ألم تري كيف كانت نظراًهما تنطفئ على بعضها؟

- وقبل أن تقولي هذا يا ماري اسألني عن عمريهما أقل لك لماذا بردت عواطفهما.

- نعم، ليسا شابين. وصل إلى السبعين إن لم يتجاوزاها... نظرت إلى ملكنا يا كلودين - أرجو ألا يصل كلامي إلى البعيد - ما أبغشه وما أقل هيبيته! حتى في

شبابه لم يكن وسيماً. أنفه كالمجدع، وشفاته رقيقة جدأً، وذقنه مدوره، ما كان نفعه بهذا الشكل؟ أياك أن تنشي هذا لأحد يا كلودين وإلا كان هلاكنا! - كفى يا ماري - نهرت كلودين - ألكسندرین أختها - لا شأن لنا بالملك ولا بعشيقته. والأفضل أن نعالج قضيتنا. ولا أعرف ماذا سنعالج. - ضحكت من نفسها، ثم أفهمتها وهي تنهر نفسها: ألم يبق في باريس رجل مهم غير شارل الدعبي؟!

- ولماذا لا يبقى؟ - فرحت ماري - أنجليك لما سمعت - أكيد فيها من تعنين؛ وهل "لافريني" الذي يجري وراءك فقير؟ - لا تكلمي على صاحب الشاربين الأشقرین! - إن كان شارباه لا يعجبانك فاطلي منه أن يحلقهما أم يصبغهما... إن ارتمي الرجل تحت قدميك فهو كالعجبينة يا أختي يمكنك أن تشكليه كما تريدين... ثم...

قبل أن تنهي ماري كلامها دخل بيير منفلاً. وفهم أن بين الأختين ما لا يسر. وندم على اقتحام خلوتهما. ولكنه لم يجد من اللائق ألا يودعهما قبل السفر. ولم يكن يريد ابتلاع حزنه من الإهانة التي لحقت به: - ماذا جرى لكم يا أهلي الكونتيست؟ لماذا مكتيستان؟ - سأل بيير أختيه مجازحاً.

- لا شيء من هذا! - أجبت ماري - أنجليك بوجه بشوش خير - نغربل الرجال، من فيهم أنت، بغربالنا. وأنت؟ ما الذي يقلفك؟ - يقلقني تصرفات الكونت شارل دو فيريول - قال الأسقف بيير بصوت منكسر من الخجل - ليس لكمَا كان يجب أن أقول هذا بل لصهرنا أوغستين - أنطوان ولكنه رجع إلى "دوفين".

- رأسه ألم ماذ؟ - استعجلت كلودين - ألكسندرин على ما كان يشغلها.
- لو كان رأسه سليمًا لما فعل جانيت - نيكول ما فعل دون خجل من
أيسبيه.

- هل الآن عرفت أن الحب يغير الرؤوس يا بيير؟ - سألت كلودين أخاهما دون
أن تميز أهي تمزح أم تسخر، ثم سألت بعد قليل عما كانت تشكي فيه: أغازلها؟
- لو اقتصر الأمر على المغازلة... علق بما. وحتى هذا لم أعد أستغربه. أتعرفان
ماذا قال لي حين لته ونصحته قبل أيام؟ لماذا تغازل عشيقي؟ قال لي أعرف أن
الأسف لا يجوز أن يتزوج، ومع ذلك إن كنت تريدها ساعدتك في الزواج
منها.

- ربما كان ينزع معك يا بيير - شحب وجه ماري - أنجيليك التي لا تريده أن
تسمع عن ابن حبيها مثل هذا الكلام. - يا مصيبي إن حدث شيء لرأسه
وترك لنا أيسبيه عالة علينا.

- إن تركها؛ ألا تعرفين ماذا تفعلين بها؟! - ابتسمت كلودين بعينيها الرماديتين
الباردتين - ستصبح خادمة ممتازة، ويمكن أن تصبح عشيقة ممتازة.

- لا تكوني ظالمة يا كلودين! - نهض بيير مستاء لما سمع - إن وصل الأمر إلى
هذا فالله لن يرضي، ولا جانيت - نيكول تسمع لكمما. ولا تنسي أني حي وأن
الملكة ترعاها.

- نعم، نعم يا بيير الله يحمينا - وافقت ماري - أنجيليك أخاهما الأصغر، ولم
تُخفِّ عدم رضاها - لا أعرف، لا أعرف...!

- إن كنت لا تعرفين يا ماري - احتدّ صوت كلودين - ألكسندرin الآن -
أسألي لاروش، سيجبيك لأنه طيب.

لـن أـسـأـلـهـ!ـ...ـ نـاـكـدـتـ مـارـيـ -ـ أـنجـيلـيـكـ أـخـتـهـاـ -ـ وـلـاطـفـتـ أـخـاـهـاـ -ـ
الـسـلـامـةـ إـنـ كـنـتـ عـائـدـاـ إـلـىـ "ـأـمـبـرـينـ"ـ لـاـ تـقـلـقـ!ـ كـلـ شـيـءـ سـيـكـونـ عـلـىـ مـاـ يـرـامـ.
نـحـنـ لـسـنـاـ مـنـ يـتـخـلـوـنـ عـنـ لـقـبـ الـكـوـنـ وـأـخـلـاـقـهـ.ـ أـلـيـسـ كـذـلـكـ يـاـ كـلـوـدـيـنـ؟ـ
ـ نـعـمـ يـاـ مـارـيـ،ـ نـعـمـ.ـ رـفـعـتـ كـلـوـدـيـنـ -ـ أـلـكـسـنـدـرـيـنـ رـأـسـهـاـ الصـغـيـرـ فـجـأـةـ -ـ
ـ بـالـقـيـاسـ إـلـىـ آـلـ فـيـرـيـوـلـ فـحـنـ آـلـ غـيـرـيـنـ دـوـ تـانـسـيـوـنـ مـعـزـزـوـنـ أـكـثـرـ.ـ أـتـعـرـفـيـنـ مـاـذـاـ
ـ بـجـيـيـ لـكـ يـاـ مـارـيـ؟ـ أـتـذـكـرـيـنـ قـبـلـ أـيـامـ حـيـنـ كـنـتـ تـمـتـحـنـ آـلـ فـيـرـيـوـلـ كـيـفـ
ـ مـازـحـتـكـ أـيـسـيـهـ بـالـقـوـلـ المـأـثـورـ الشـرـكـسـيـ "ـغـنـ أـغـنـيـهـ مـنـ تـرـكـ عـرـبـهـمـ!ـ"
ـ كـفـيـ يـاـ كـلـوـدـيـنـ!ـ خـافـيـ مـنـ اللهـ!ـ -ـ كـانـ صـوـتـ بـيـيـرـ نـاعـمـاـ لـكـ عـيـنـيهـ
ـ جـحظـتـاـ.ـ أـكـبـحـيـ عـوـاطـفـكـ،ـ وـلـاـ تـفـقـدـيـ الصـبـرـ.
ـ نـعـمـ يـاـ بـيـيـرـ.ـ وـلـكـنـ لـتـسـأـلـ مـارـيـ الـدـكـتـورـ لـاـرـوـشـ عـنـ اـبـنـ حـمـيـهـ.

X

ما الخير وما الشر؟ يظل الإنسان يفكر فيهما ولو كانا سؤالياً العمر. من يموتون وليس عندهم جواب، ومن يظنون أنفسهم وجدوا دواء له ليسوا الجميع. ومن يعيش متوهماً أنه وجد دواء له، ليسوا قليلين. ومن لا يستوعب الموضوع، ومن لا يفكر البتة كثيرون.

يردد شارل دو فيريول: "ليس الإنسان الصالح من يفعل الخير بل من لا يعمل الشر" أهناك إنسان لم يجرحه الشر وحياته كلها خير؟! ليس على الأرض إنسان عنده مثل هذه الفكرة. ولم يكن بين الراحلين. ولم يفهم أحد إلى الآن مم تتألف الدنيا، وما ترتيبها، وسهولة فهمها وصعوبة تفسيرها معاً. ولن يفهم. ويحب شارل دو فيريول أن يتفكر في مثل هذه الأمور وفي ما يتخلل الحياة من أحداث في ما يتعلق بشخصه وما يتعلق بيلاده، وأن يدلي برأيه فيها. وليس منذ زمن بعيد أولع بهذه الأفكار بل في السنوات القريبة السابقة.

ما السبب؟ لأن السنين تفوتها أم وهو يسبح إلى جرف عالٍ — خفيض مجهول، فلا يعرف ما سيحدث، فيقلق على مستقبله؟ ربما يسُوَّغ لنفسه لأن الحياة تفهمها بسهولة في حين أن تحليلها صعب. ولا يكفي هذا بل ربما ينصح نفسه أحياناً قائلاً لها: "لا يعني كون ظلّ الإنسان أمامه أن يكون هو وراءه".

يتذكر شارل دو فيريول أنه في مساء قريب قضى هو وجانيت — نيكول أكثر من ساعتين في أفحى مطاعم باريس يحمل اسم "الكونت" وتحادثاً. إنها امرأة عاقلة جميلة حلوة الطباع، تجد جواباً على أي سؤال تطرحه، تعرف شيئاً عن كل البلدان التي أعرفها، ومن تاريخ العالم، والأدب والمسرح. وهذه المعارف وغيرها أعرفها أنا بحكم مهنتي سفيراً ولكن لا أعرف من أين تعلمتها هي رغم

أكنا تصغرني سنًا. الآن أفهم من التي صنعت من أيسيه هذه الفتاة الصافية. لم
أكنا غير متتبه من البداية إلى أنها صبية فطنة ولكن يتضح لي كل يوم أنها
زرعت في شارلوت - إليزابيت أيسيه من الروح الفرنسية أكثر مما زرعت من
الروح الشركسيّة. وبذا هذا جيداً في يوم احتفال ملكتنا، حتى الذين حسدوها
أو غبطوها يعجزون إلى الآن التعبير عن إعجابهم. هي من تناصي وستكون
زوجة ممتازة لي، من جهة كوني كونتًا، ومن جهة كوني سفيراً. ما حاجة الرجل
إلى الزوجة العاقلة؟ أمن أجل أن تربيك؟! كم سنة بيني وبينها في العمر؟ بیننا
ثلاث عشرة أو أربع عشرة. وبينها وبين أيسيه؟ أيضاً الفرق نفسه. لم يفت
الأوان بعد للزواج منها، ولكن أليست المرأة التي يفور دمها من الآن وإلى
المستقبل خيراً من التي يبدأ دمها ينطفئ..."

- أرجوك يا جانيت - نيكول أن تنسى ما قلت لك بخصوص تربية شارلوت
- إليزابيت أيسبي على الروح الشركسيّة. - تذكرة ما قال لها وهما في المطعم.
- لا أرى ما أعتب عليك في ما قلته لي أيها الكونت. لا ضير في أن يقللوك ما كنت قد فهمته آنذاك. ثم إن هذا ما يخطر لك حين تكون الصبية ابنتك.
- ولكن، ليس، هذا ما ألومنك عليه.

– أهو الزي الشركسي لأيسيله؟ – لم يدعها تكمل كلامها رغم أنه ليس من عادته مقاطعة كلام امرأة.

- انتهينا من هذا الموضوع يا كونت - قالت جانيت - نيكول وأكدت - سمعت ما قالته الملكة بخصوص زيها الشركسي.
- ماذا إذن الذنب الذي لم تغفره لي؟

- أمران أيها الكونت: قلت لي "أخضعت كثيراً من النساء مثلك" دون مراعاة كوني مربية لشارلوت - إليزابيث أيسبيه، وكون أخي كنوك على صلة بي. والثاني دعوتك لي إلى هذا المطعم.
- لم ترفضي دعوتي لك إلى هنا، - استغرب شارل دو فيريول ما سمع، ثم أنهى بشبهه عتاب: - ولكنك أكذت بهذا كونك امرأة قوية.
- لا حاجة أن تكون قوياً لتحترم نفسك، ولتحمّل الناس على احترامك.
- نعم، صحيح. ضحك الكونت - قلت لي ما أستحق. ولكن سأروي لك بقدر ما أتذكر قولهً يتعلق بالنساء، لا أذكر إن كنت سمعته في تركيا. النساء يولدن لخطأ الرجال وخلافاً لرغبتهن. ويتزوجن عن حب، ويحملن وهن بين العلم به والجهل، والولادة تجعلهن حكيمات، ويفارقن الرجال معاندات لهم. ثم يفارقن الحياة من متاعب الولادة. وهذا يا جانيت - نيكول ما تريدين قوله؟
- وهذا ممكن، يا كونت - ابتسمت جانيت - نيكول بنعومة، وروت له ما تعرف هي مما يتعلق بالنساء: - الشاب يحب الفتاة حتى تكون زوجة له، وحين يتقدم في العمر يتذكر أيام كونها فتاة فيحبها أكثر.
- يا إلهي أتسمع كيف لا توفر جانيت - نيكول شيئاً ضدي! موه شارل دو فيريول بالزاح وإن كان صادقاً في قلبه. والآن وقد فهم أنه لا يستطيع تحقيق نوایاه لمح للمرأة التي لا تقنع بما تقول بسهولة. - هذه المرأة الجميلة التي لا تريدين أعدّ نفسك يا إلهي محظوظاً لأنك عرّفتني عليها.
- شكرأً يا كونت على أنك فهمتني.
- وأنا أقول لك شكرأً على أننا نترك مائتنا، وليس بيننا سوء تفاهم، ونتقاسم الفرح. ولا يعتب أحدنا على الآخر.

- لن ينقص الإنسان حزن مadam عنده قلب. - قامت جانيت نيكول وهي تردد هذه الحكمة.

حين نخص شارل دو فيريول من ذكرياته الطافية كرر كلمات جانيت - نيكول في قلبه: "لن ينقص الإنسان حزن مadam عنده قلب" ماذا كانت تريد بهذه الحكمة أن تقول لي؟ القلب يتحمل في وقت معاً الفرح والحزن والإهانة، ولكنه حين يعجز عن مقاومتها يتوقف عن النبض. أ يكون هذا ما كانت تريد قوله لي؟ ليس هذا جديداً عليّ ولا على غيري. قديمة هذه الحكمة قديم الدنيا. أقول هذا غير أن جانيت - نيكول لا تتكلم في هذا اليوم الذي زادت فيه معرفتنا ببعضنا عمقاً، خلافاً للأيام السابقة، كلاماً دون جذور ولا فائدة. تخشوا كلامها أفكاراً ولبّاً. تعرف كيف تناقش وكيف تسأل، وكيف تحيّب، بل كيف تبتسم وكيف تضحك ظاهراً. أنها حسن أم سيء؟ مثل هذه المرأة سيئة كزوجة، جيدة كشريكة عمل. ومع ذلك ففيها أيضاً شيء لا يُمْلِئ منه: يسري إليك دفؤها وبرودتها دون أن تعرف كيف. أنها يا ترى تحسدتها كلودين - ألكسندرین الكاتبة الشابة وتغار منها؟ لا أظن أنها تخلو من جمال وطيبة تنافسها عليها، ولا تريدها لأخيها. أليس حسناً أن تتحذذ من مثل هذه المرأة نموذجاً لشخصية روائية في كتاب. ولكن مهما تصنعت جانيت - نيكول وكلودين - ألكسندرین الجمال والطيبة فلن تصل إلى مرتبة شارلوت - إليزابيت أيسبيه الصبية الشركسيّة..."

كان لدى شارل دو فيريول الكونت عادة يعرفها في نفسه ويكتتمها عن غيره: كان يمل بسرعة من مجموعة النساء أنفسهن، ومن مجموعة الأطعمة نفسها، ومن الملابس نفسها، ومن المشي في الشارع نفسه. ولكن الغريب أنه كان متّحمساً دائماً لأعمال السفارة التي يمارسها منذ مدة طويلة. لم يكن يقف

أمامه أي عقبة إذا كان العمل في صالح فرنسا والملك. وكما يحب فرنسيته وبخلص لها، كذلك كان موقفه من تركيا التي يعيش فيها. ويهتم أيضاً بما يتعلمه من الأقوام الأخرى ويستفيد منها في حياته. وعندئذ ملئ ينافسه في هذا الأمر ما يكلمه به وما يتخذه مقياساً يعرفه به قيمته. ولا يشغل وقته وجهده مع من لا يفهمه قائلاً كما الأديغة "لا تعاند الجنون، أعطه قبعتك وامض في طريقك".

"ماذا قال لي بيير قبل أيام حين اعترض على كلامي ونحن نتكلّم على المسلمين والكاثوليك؟ - تنهد شارل دو فيريول بحيث لا تعرف إن كان ما تذكرة إهانة أم مزاحاً. - "لا تنس يا كونت أن المسلمين حاربوا قروناً وهم يلقبوننا بحملة الصليب" "لن أنسى، ونحن أيضاً لم نتحملهم، ليتنا لم نحاربهم، ونحن نصفهم بأنهم بلا دين" "من تفهم في هذا أنها الكونت؟" ليس جواب سؤالك سهلاً أيها الأسقف، ولكن سأقول لك رأيي إن كنت ستفهمي: هل العرب هم من احتل أرضنا أم أن الفرنسيين والإسبان والبرتغاليين هم الذين احتلوا أرضهم؟" إن كنت تريد الحق قلت لك: إن المماليك، قوم شارلوت - إليزابيت أيسبيه التي أقمعتها بالدين الكاثوليكي، هم الذين حموا العرب وإسلامهم. لسنا وحدنا من حاربهم هؤلاء من جهة الغرب؛ ففي الشرق تصدوا للمغول، ومنعوهم من احتلال مصر. وحموا الدين الإسلامي" "أنت على ما أراك مطلع على دين العرب وتاريخهم وإن لم تعتنق دينهم" "ولكنك مخطئ في ما لمحت به إلى في شأن شارلوت - إليزابيت أيسبيه. لم أقمعها بالدين الكاثوليكي بل جعلتها تعتنقه. ما عجز عنه حملة صليبينا فعلته أنا باللين واللطف والحب. وأنت دون أن يردعك الدين الذي اقتنعت به أمام الله ونذررت نفسك لخدمته دون زواج

كيف ستنتقضه بجانب - نيكول؟ هذا موضوع نعرفه نحن الاثنين فلا داعي أن تجنيبي..."

صحا الكونت من أفكاره كأن أحداً ناداه. تنصت، ثم اقترب من النافذة المطلة على الفناء. لا يزال الوقت مبكراً. الجبل الشرقي الذي صبغته بالأحمر شمس الخريف التي تحمل النهار تعيد طلائعه شيئاً فشيئاً بلون فاتح. وليس في سماء باريس كلها غيمة واحدة. - يعتقد النهار بنفسه أن يكون حاراً كالبارحة. وتتبدد المدينة التي تستيقظ معها، تتقطع بأصوات متنوعة تذكره بإستانبول. والمرآكب على نهر السين تصفر في الفجر.

أي صوت عربة يسمع في هذا الوقت المبكر؟ توقفت عند البوابة الكبيرة لآل فيريول. وخرجت منها كلودين - ألكسندرین وحيدة. دخلت الدار برأس منتصب وقامة جميلة وكأنها تقول: لا أكتم سراً، وليحسدني أي شخص يراني، ثم توجهت إلى الغرفة متمهلة مغورة بنفسها.

"انظر ها هي التي تُرعبني لتنضي معي زوجة إلى تركيا! - ابتسם الكونت مسحوراً بما رأى ومتعجبًا. ثم لام نفسه: لهذا يقال: لا تجري الرياح بكل ما تشتهي السفن. من أريدها لا أصل إليها، ومن لا أريدها تحرقني. أين كانت هذه الآن ومن أين تأتي؟ ومن فراش من انسلت؟ لماذا أنا مهم بهما؟ هذا واضح، والآخر سر. هذا يختتم نفسه والآخر يبيعها. لا أريد أن ألوم هؤلاء ولا أولئك ولا أن أقيّمهم. ولكن مهما رأت كلودين - ألكسندرین نفسها جميلة واعتذرت بنفسها فهي لا تساوي قلامة ظفرٍ من شارلوت إليزابيث أيسبيه التي لي. وبالقياس إلى جانبيت - نيكول فلم أصادف إلى الآن امرأة تساويبها جمالاً مصحوباً بالعقل. لولا أيسبيه ودعوها لي أن أتكلم في لقائهم الأدبي اليوم لعدت إلى إستانبول منهياً أموري الدبلوماسية هنا. يريدون أن يستمعوا إلى في حديث

يتعلق بتركيا وبالشرق. وأكثر من ألحّ علىّ هما فرنسوا وأرجنتال. وما يريده هذان لا تريده أيسيه غير أنها أخفت عدم رغبتها. ودون أن تقول لي شيئاً أفهم سبب عدم رغبتها..."

ألحّ شارل دو فيريول على نقل الأمسيّة الثقافية التي كانت تنظم في الرابعة مساء إلى الحادية عشرة صباحاً. وحين نامت عائشة مساء البارحة الجمعة واستيقظت لم يكن لها إلا هذا الممّ. ومع أنها كانت فرحة بالصباح الخريفي الصافي فقد صارت شارل دو فيريول بما يحزنها كما البارحة:

- لا أعرف لماذا لا تطيق كلودين - ألكسندرین جانيت - نيكول؟ حين أخبرتها بأني دعوتها إلى لقائنا لم تقبل ونظرت إلى شزاراً.
- ليس الآن ستفهمين هذا يا ابنتي؟ بل بعد عدة سنين.
- لأنك تنظر إلى يا بابا على أنني قليلة الفطنة؟
- لا، ولكن لأنني لا أريد أن تعرفي ما لا حاجة لك به.
- هكذا؟ - ابتسمت عائشة كأنها عارفة بما لم يستطع الكونت قوله، وإن لم تكن عارفة - إن كان الأمر هكذا يا بابا فسأرجوك: لا تمدح الأتراك حين تتكلّم عليهم.
- ما هذا؟ حتى لو كان الكونت يعرف الجواب فقد استغرب ما سمع.
- لا أريد! حسمت عائشة الموضوع.
- "لا أريد" وحدها لا تصلح جواباً يا أيسيه - قال شارل دو فيريول دون أن يرفع صوته ودون نبرة رجاء. - هذا كلام قاسي ولكن لا معنى له.
- أنت تعرف يا بابا معنى هذا الكلام، ولماذا أقوله - لم تترجح عائشة عن موقفها.

- لا أريد أن يكون لك موقف سلبي من جميع الأتراك وإن كنت أعرف السبب - ولم يكن شارل دو فيريول يتزحزح - ليس صحيحاً أن تحكمي على قوم من خلال نظرة سلبية إلى شخص. إن كنت تطعييني وتريدين أن تكوني إنساناً صالحًا فلا تحكمي على الأقوام الأخرى حكماً سلبياً. اسخري منهم ولكن لا تهينهم. جانيت - نيكول امرأة حكيمة و يصل تفكيرها إلى أمور كثيرة. ولكن بما أني التقيت بها عدة مرات فقد رأيت عندها تفكيراً عميقاً.
- إن كان هذا رأيك يا بابا - لمعت عينا عائشة وقد امتنجت نظرتها بشيء من الخبرت وعممت الفرحة أوصالها - الآن أمسكت بك! أتتذكرة كيف أأسأك إلى جانيت نيكول وأحزنتها بمناسبة زببي الشركسي والكتب التي تتحدث عن الشراكسة؟
- ألم تنسى إلى الآن؟ - ظاهر شارل دو فيريول بالسؤال وإن كانت كلمات الملكة ما تزال ترن في أذنيه.
- لم أنس لأني تأثرت بالكلام. - أجبت عائشة بسرعة وكأنها تنتظر السؤال. حنق شارل دو فيريول على نفسه دون أن يُظهر حزنه "أتسمع يا كونت تلميحاتك؟" ثم اختتم الموضوع دون إطالة:
- إن لم يكن في المسألة أحقاد فخير! أنك لم تنسى يا أيسيله. ولكن الأفضل أن تنسيه من أن تحفظي به وأنت تتذذبين منه.
- إذن يا بابا أتلغى المعروف من ذاكرتك بسبب إساءة واحدة؟ هذا ما كانت جانيت - نيكول قالته لي. ثم إني لا أعرف إن كنت سأتذكرة بعض الكلمات العجيبة. كانت أضافت "من الصعب أن تنسى الشر الذي عمله معك عدوك والخير الذي عمله معك صديقك"؛ أليس هذا عجيباً يا بابا؟

- كل كلام حكيم عجيب. ولكنني سأضيف إلى ما قلت: أحياناً ندين العدو والصديق بالشر نفسه.
- وكيف ستفهمون هذا يا بابا؟
- حين ينقلب معروفك شرّاً.
- وهل هذا ممكن؟
- تعرفين هذا، كما قلت لك، حين تتعثرين بمعرفتك.
- نعم يا بابا، الآن فهمت. - فرحت عائشة من نفسها لما تذكرته - أتعرف ماذا كانت جدي "شابا" تقول في المعروف؟ "معروفي انقلب عليّ خسأً وجاري صار عدوّي"؟ أهذا ما تريده أن تقوله يا بابا؟
- أجبتني جواباً أحكم يا أيسية - لا يحتاج كلام جدتك إلى تعليق مني.
- إن كنت أعددت كلام جدي أأكون إنساناً حكيمًا؟
- لحظة يا كلودين انظري إلى هذين! لم تستطع ماري - أنجيليك أن تكتم ما لا تتحمله - فيم يتحدثان خلال أكثر من ساعة في فناء البيت؟
- ألا تعرفين ابن حميك قبل اليوم يا ماري؟ أظنه يمدح نفسه وهو يغازل أيسية.
- نعم، نعم. مادا - ابتسمت كلودين - ألكسندرین متذاكية، وسرعان ما أضافت إلى أختها: - ولكن المجانين يا ماري صنفان: الأول لا يفهم ما يجب أن يفهمه الجميع، والثاني يفهم ما لا يفهمه أحد. تعالى، دنا موعد اجتماعنا. وهذا هما فولتير ومونتسكيو قادمان.
- لا تخرجيني، لا أستطيع الحضور. لن أصدع رأسي بكلامكم.
- لن تستمعي إلى بل إلى ابن حميك العازب الوسيم. سيتكلّم على الآتراك، ومنهم أيسية، الذين يحبّهم. حضرت له عدة أسئلة وسأرّي بمَ سيجبّ عليهما.

- يا كلودين - وارتفاع مرأة ثانية صوت ماري - أنجيليك - إياك أن تقولي للكونت أمام الشباب ما لا يليق؛ أنا أعرف أنك حاملٌ على الكونت وأعرف ثرثرتك. والآن حسب ما يجري، ولأنك لستِ موضع ثقتي، سأتي إلى لقائكم. وأصحابي معنوي صوفي.

أوراق أشجار الخريف الملؤنة يحركها النسيم الخفي فتهامس. والأوراق الصفراء المشربة بالحمرة المتساقطة من الأغصان الصامدة تتطاير وهي تدور حول نفسها فتنشر على الأرض.

تأمل شارل دو فيريول الشباب الذين تجمعوا في أرض الدار العابقة بروائح الأزهار. ومع أن له معرفة طيبة بالحضور فقد ارتعب قائلاً في نفسه: وماذا سأقول لهؤلاء؟ ثم أردف: "أعرف ما أقول لهم ولكن هل سيفهمونني؟ الأكبر سناً ليسوا مشكلاً، الصغار هم الأصعب إقناعاً... وأيسيه ترجمتي ألا أمدح الأتراك؟! مونتسكيو يتأملني. وفولتير تخرق عيناه ما تحت جلدي. ولا روشن طبيب أُسْرَتَنا، ولكن لماذا جاؤوا بصوفي خادمتنا؟ أقول هذا ولكنها ستتعجب مما سأقوله لهم أكثر من غيرها. كائناً من كان داعيها فالشّكر له.

- إن لم يبق من ننتظره فلنبدأ يا كلودين لقاءنا - ناب عن كلودين التي تفتح اللقاء عادة شارل دو فيريول باعتباره الأسنّ بينهم.

- لم تقبل كلودين اقتراح أيسيه بدعة جانيت - نيكول - لم يملك أرجنتال إلا أن يقول.

- الآن بدأت... - بدا على كلودين عدم الارتياح.

- هل علىّ أن أكتم الحقيقة؟ - رد أرجنتال على خالته.

- صحيح يا جان صحيح — دافعت عائشة عن معلمتها وهي تشهد على صدق أرجنتال — حتى لو دعوناها إلى لقائنا ما كانت لتلبي لأنها مشغولة اليوم جداً.

- هل فهمت الآن؟ — لم يكن أرجنتال يهدأ.

- فهمت يا أرجنتال. دعنا نبدأ عملنا — نستمع إليك أيها الكونت، ساحمنا، نأخذ من وقتك!

- نعم، نعم. — بدأ شارل دو فيريول الكلام قائلاً في نفسه "جعلني أرجنتال أشمت بك" — من لا وقت لديه هو الكسول ولذا لن أشبعه نفسي به. ولكن لو دعوتم جانيت — نيكول لربما أسمعتها معلومة عن الأتراك لا تعرفها. الحق أني أحب بلاد الترك الواقعة في الشرق القريب. وهناك من لا يحب الأتراك. — نظر الكونت بطرف عينه إلى عائشة — وكثيرون في العالم لا يحبون الفرنسيين. وبين الأتراك من لا يحبهم. قابلتهم وحدّثهم، ولكن لم ألمّهم بتة. من المهم أن تعرف ما لا تعرف، وهذا سبب قبولي دعوتك. إن حبست نفسك في بيتك صرت كطائر في قفص. وإن نظرت من النافذة أو من خلال الجدار فليس قليلاً ما ستراه. ولكن إن وقفت على رأس عمود رأيت أكثر. الإنسان يعيش على الأمل والنوايا. ولماذا نختم بما يتجاوز مدى التقاء السماء بالأرض؟

- لأننا لا نعرف ما يحدث في تلك الألحاء يا كونت. أجاب فولتير.

- صحيح، نريد أن نعرف ما لا نعرف — ماذا كانت جدتك يا عائشة تقول لك في موضوع العين؟

- وأنا أعرف هذا — أجاب أرجنتال بسرعة — مهلاً يا أيسبيه لا تقولي، دعيني أتذكر "ما تراه العين يساوي العمر"

- أسمعتم؛ مثل هذه العبارات الحكيمية هي التي تُبقي على حياة الناس والعالم. الترك عرق عجيب من البشر. وهم لا إن رجعت ثلاثة سنة أتوا من الشرق البعيد إلى الشرق القريب عن طريق الحرب. احتلوا القسطنطينية وسموها إسطنبول. يعيشون على شواطئ بحرين. ويختلرون مضيق البوسفور والدردنيل. واحتلوا البلقان. هم رجال محاربون. وتدب الحمية في رؤوسهم بسرعة. يتمتعون رجالهم ونسائهم بالجمال. وهم مخلصون للإسلام.

- لصوص وقتلة... - قالت عائشة غير متحملة ما يقول الكونت عن الآتراك.

- وبينهم أمثال هؤلاء. - شهد شارل دو فيريول على ما وُجِّهَ إليه. - ولكن بين الشراكسنة الذين خرجت منهم، وبين الفرنسيين أمثالهم يا شارلوت - إليزابيت أيسية. أليس صحيحاً يا أرجنتال؟ تظاهر بأنه يسأل الصبي ليفسح المجال للحضور أن يفكروا.

- لا أعرف - جزم أرجنتال - لو لم يكن صحيحاً لما صدر عن أيسية!

- اسمع ما يقول هذا! - ساحت ماري - أنجليليك من ابنها الكلام الذي بدأه خجلة من أقوال ابنها.

- لا تعبي على أرجنتال أيتها الكونتيسة - قال مونتسكيو - الأفضل أن يعبر عن رأيه، لا أن يوافق كل من يتكلم هازاً رأسه؛ وإلا خلت الحياة من الإثارة. أليس كذلك يا بون دو فيل؟

- نعم، نعم. - كان جواب بون دو فيل قصيراً - ولو كانت الأشجار والأزهار من شكل واحد ولون واحد لخلت دارنا من الجمال.

- تصدق الدنيا وهي تلملم الأشكال والألوان المختلفة - ساهم في النقاش فولتير الذي كان جالساً منفعلاً متظاهراً بأنه لا يصغي.

- على ما يبدو يا فولتير - قالت عائشة وكأنها ليست مصدر النقاش الدائر - الناس كلهم ولو تشابهوا في قلوبهم وأرواحهم وأجسادهم، يختلفون في لغاتهم وأديانهم ولباسهم وطعامهم.

- نظر شارل دو فيريول في وجه كلودين قائلاً في نفسه "هؤلاء ليسوا محتاجين إليّ". وابتسم في وجهها معبراً عن رضاه بما سمع. ولكنه لم يمتنع عن الكلام الإيجابي على الأتراك ناسياً اعتراض عائشة. وخلال ساعة كاملة من الحديث وجد شيئاً واحداً سلبياً في الأتراك: نساوهم يرتدون غطاء الرأس، ويرتدون ثوباً عريضاً سابعاً.

- كما قلت - اختتم شارل دو فيريول كلامه - تركيا بلاد مدهشة، ولكن خير أن تراها بعينيك من أن ثروى لك. أليس صحيحاً يا لاروش؟ أنت كنت هناك.

- صحيح يا كونت - وافق لاروش الكونت متتجاوزاً ما في قلبه، ثم أضاف كاسباً قلوب المستمعين: - ولكن لا أعرف بلاداً كبلادنا فرنسا الجميلة. حين صفق فرنسو فولتير لكلمات لاروش الحاوية لفرنسا صفق الشباب، بمن فيهم أيسية. ولم تتأخر ماري - أنجليك، ولا كلودين - ألكسندرин، ولا صوفي عن الشباب. وقال الكونت راضياً عما رأى وعما سمع:

- ما حاجتنا إلى الشرق البعيد والغرب القريب إذا كان هذا رأيكم؟ أقترح ألا ندخل في الأسئلة بل نختتم اجتماعنا بما نُكِنُ لفرنسانا من الحب. إن أردتم أنتم الشباب تابعوا اجتماعكم. ونحن الكبار ستنصرف إلى أعمالنا.

لم يمر على عائشة يوم في باريس شعرت فيه كما اليوم بالوحدة واليأس. هل السبب أن عقلها لم يكن يستوعب في السنوات الماضية مأساتها لصغر سنها أم لأن ما قيل في اجتماع البارحة تفاعل في قلبها فأضطرّ بها؟

- أرى في هذه الأيام حزناً في وجهك لم يكن في ما مضى. لأنني سأسافر غداً إلى تركيا أم لأن أحداً أزعجك؟ - سأّل شارل دو فيريول عائشة وهو يتمشى بعد العشاء في أرض الدار. - لا تكتمي، أخبريني! إن كان أحد أساء إليك فلن أغفر له.

- لا يا بابا، لا أحد أساء إليّ. - كتمنت عائشة التي كانت الكلمات المعبرة عن حب فرنسا والتصفيق لها ما تزال في أذنيها ما في نفسها. تذكرت ما قاله لها فولتير في أحد الأيام "يحدث أن يجرحوك وهم يمتدحونك" ولكنها سرعان ما أصلحت الموقف وأراحت ضمير الكونت: - من يستطيع يا بابا إزعاجي؟ وعندني إخوة من أمثال بون دو فيل وأرجنتال!

- هذا صحيح - وافقها الكونت وابتسم. - ولكن لا تنسى أني عندك أيضاً. أقول هذا غير أن كلودين - ألكسندرین امرأة صعبة المعاشر لا يعرف المرء ما بداخلها. ولا أعرف إن كانت أساءت إليك؟

- كلودين امرأة مغلقة ولكنها حكيمة. حين تجمعننا تروي لنا أخباراً مثيرة عن الحياة لا أعرف من أين تأتي بها.

- أما قلت إنها حكيمة؟!

- قلت لأنها تؤلف كتاباً. قرأت لنا عن سيرة المرأة المتحركة مادلين والكونت الغني الذي لا تُفصح عن اسمه. كتابة عجيبة.

- ماذا قلتِ؟! – جعل الخبر الذي سمعه الكونت يقفز من مجلسه. ولكنه سرعان ما صحا فسأل: – أَعْجَبُكَ؟
- لا أحب أمثال هذه الحكايات. ولكن مونتسكيو يراها قصة مشوقة. وأعجب ما لاحظت أنها أَعْجَبَ بون دو فيل.
- وفولتير؟
- فولتير أكتفى بالضحك دون تعليق.
- متى قرأت لكم كلوتين هذه الكتابة؟
- في الاجتماع السابق.
- أقرأها من كتاب أو من جريدة؟ – سأل الكونت وهو يكظم غضبه بمشقة.
- لا، من ورقة. وقالت إنها كتبتها حديثاً.

"العارفون بقصة مادلين عدة أشخاص. – قال الكونت لنفسه – وهم أنا والنادل وغابرييل وكاترين وهنري دو فارج، وبعدها حين أتت مادلين إلى كنّت عرفتها إلى كلوتين. وكل من ذكرت أسماءهم لا علاقة لهم بالملكتوب. مهلاً، حين قدمت مادلين إلى كلوتين ماذا قالت لها؟ "إن كنت تقولين هذا فأنت تستحقين كتاباً كاملاً" انظر الآن ما تلا هذا الكلام من كتابات وأحداث!"

– ما الأمر يا بابا؟ لماذا تلحّ في السؤال عما كتبت كلوتين، لأنّه يتعلق بأحد الكونتات؟ – أمسكت شارلوت – إليزابيت أيسبيه الآن بذراع الكونت – ما العلاقة بين الكونت لوفيلاس الذي في الحكاية وأنت؟ ماذا يجمع بينكم؟ ربما كانت كلوتين – ألكسندرین تروي حكاية أحد أصدقائها.

– وأنت هل تظنين الأمر هكذا؟ – أكّد على عائشة دون انتظار الجواب: – كلوتين ليست إنساناً صالحأً. لا تقيمي معها علاقات من أي نوع! ولا

تسمحي لها هي بذلك. مهلاً، مهلاً يا أيسية؛ أ تكون تلك الحكاية سبب اكتئابك؟

- ما أقل فطنتك يا بابا رغم أنك رجل حكيم! كما تقول لنا جانيت -
نيكول " علينا أن نرى جمال الوجود لا فُبحه ". وما قلته بشأن كلودين لا تتوقف عنده. مهما قالت لي أو لمحت أتحلى بالصبر كما كانت جدي تربيني. وحين أعجز أحياناً ألوم نفسي وأسخر منها.

- حسنٌ أن تكوني هكذا. ولكن لو قبلت عرضي أن تسافري معي إلى تركيا - ولا يزال العرض قائماً - لكنني اطمأننت عليك.

- لا نعد إلى هذا الموضوع! قلنا ما قلنا وانتهى الأمر. وبالنسبة إليّ، بغض النظر عن موضوع الأتراك، لم يبق وجود للشركس... - وجدت عائشة ذريعة تخفي بها الألم الذي غزا قلبها: - برد الجو في الفناء؛ دعنا ندخل!

حين تمنى كلّ منهما ليلة مريحة لصاحبها ودخلت عائشة إلى غرفتها، وانفجرت باكية "لا أحد يفهمني... أ تكون مكتتبة بسبب ما كتبته كلودين! وكما تقول صوفى: العالم كله من هذا النوع، دعك من باريس، أم الأديعة الذين افترضت أنّي فقدتهم؟ ألم تنتهِ الدنيا التي أعيش من أجلها؟ ألا يفهمني بابا أم يشدق علىّ فيحاول إخراجي من حالي؟ حين قلت له "انتهى الشراكسة بالنسبة إليّ" رأيت في وجهه ارتياحه... مهموم بما كتب كلودين. ومع ذلك يعرض عليّ اصطحابي إلى تركيا، لا إلى الأديعة الذين أتنمي إليهم... لماذا مهتم إلى هذا الحد بما كتبته كلودين؟ تقول الكاتبة الكونت ولا تذكر اسمأ... .

جفلت عائشة حين سمعت طرقاً على الباب، وأمسكت أول كتاب وجدته في طريقها، وقالت للطارق:

- تعال، الباب مفتوح. ورحت بالقادم: هذه أنت يا صوفى؟

- هل بكيت يا أيسيه؟.. - سألت صوفي وهي لا تفهم ما ترى - ثم تناولت كتاب كلودين غير المفتوح غاضبة:
- هاتي الكتاب، سُجنَّين بسبب هذه المخلوقة التافهة.
- لا يا صوفي، لا أقرأ فيه. لم أعرف أنك الطارقة فتناولته دون سبب كي أخفي حالي.
- لو كنت مكانك لم أدعه في غرفتي؛ دعْلِ من قراءته!
- ولكن كلودين كتبت لي إهداء عليه.
- أكتب لك الإهداء من باب القرابة والحب؟ لا تخدعي بما؛ هذه تقول شيئاً وفي قلبه غيره! - ارفع صوت صوفي رغمَّ عنها فخجلت ولامت نفسها: - ساحيني يا أيسيه على كلامي بصوت مرتفع. لن يدعوني يوماً واحداً في البيت إن وصل إليهم ما قلت. لو كنت مسؤولة عن نفسي فقط لما اهتممت، هذا عملي أجده أينما كان. بل لأنني أحببتك من أول يوم رأيتك فيه فأنا أتوسل إلى آل فيريول وليس في ذهني غيرك. - أجهشت صوفي بالبكاء وانكسر صوتها. ولكنها عادت سريعاً إلى حالها: - أقول هذا لأن وجودنا في هذا العالم، أنت وأنا، متشابحان.
- أفهم يا صوفي. وأنا أنظر إليك النظرة نفسها. تعالى واجلسي قري. - عانقت عائشة خادمتها وقالت لها: شكرأ، ليس لي أحد هنا يفهمني وأشكوا إليه غيرك وغيره جانبيت - نيكول. أنت ربُوك في ملجأ للأيتام، وليس لك أهل. وأنا اشتريوني من بلاد غريبة وأتوا بي إلى هنا. صحيح ما يقولونه "اليتيم يفهم اليتيم في كل زمان وحال".

- نعم يا أيسيه، صحيح. - لم تُخف صوفى وعینها على الباب ما يشغل بالها: - لن يرضى الكونتات إذا رأنا أحد هكذا، كأن يدخل علينا فجأة أرجنتال.

- لا يقبلوا إن أرادوا! - قالت عائشة غير مهتمة بما سمعت. وشهدت على جلوس صوفى معها بمحكمة أديغية "من يجلسك إلى جانبه لا يعود فيغتابك" هكذا كانت تقول جدي. وثقي بأرجنتال. ليت الجميع كانوا مثله ومثل بون دو فيل.

- ليس الموضوع عدم ثقة بأرجنتال، هذان أخواك الصغيران مخلصان لك وصادقان معك ولكن...

- نعم، نعم، قاطعت عائشة صوفى. - فهمت ما تريدين قوله. دَكَرْتني بما كانت تقوله جدي شابا رحمة الله "قائمة البقرة لا تقتل عجلًا" لا أقول هذا عن بون دو فيل وأرجنتال. هذان أخوان رزقني الله بهما. وأنت يا صوفى أحب أن يكون موقفك منهمما هكذا.

- شكرًا لأننا تعاهدنا أن نتحمل معاً أحزاننا يا أيسيه. لا داعي لأن تطلب هذا مني. ومع ذلك أود معرفة ما في قلبك. ثقي بي أقسامك همومك!

- يمكنني القول إننا تكلمنا الآن في الموضوع حتى لو لم أتكلم صراحةً. وإن أردت قلته لك لأنه لا أسرار بيننا. أتذكرين في اجتماع البارحة كيف صفقنا لفرنسا؟

- نعم أتذكر، ما الأمر؟

- من المؤس يا صوفى أن تتناسي البلاد التي تنترين إليها، وتصفقى للبلاد غريبة. ما العمل؟ أنا يائسة.

لم يكن شارل دو فيريول مهموماً بما كانت عائشة شارلوت - إليزابيت أيسبيه مهمومة به. وما كان في ذهنه شيء آخر: "لهذا السبب أقول يجب الحذر من الكتاب، لا يجوز مخاصمتهم. - لم يكن الكونت يجد مكاناً له في بيته. - غالباً أني عائد إلى إسطنبول ما كنت لأهتم كثيراً بـ كلودين - ألكسندرین. تقول أيسبيه إنها لم تذكر اسم الكونت، ولكن من أين لها أن تعرف أن هذه الكاتبة الناشئة المغروبة ترسم صورتي؟ أعرف ما ستفعل بي بـ كلودين - ألكسندرین: ستطيع الكتاب وتحصل بـ باريس كلها تسخر مني. ولست وحدي بل ستجعل من شارلوت - إليزابيت أيسبيه مضيفة في أفواه الناس. وستسود وجه آل فيريول. عند ماري - أنجيليك فكرة عما في الورقة التي قرأت منها؟ أطلب منها أن تكلم أختها لتمتنع من طبعها؟ اعتبر ما تعرفه بـ كلودين يعرفه الجميع. يقال إن كل الكتاب يجبون المال؛ أشتريه منها؟ مهما كان الشمن فليس لي مخرج آخر..."

نظر الكونت إلى ساعته: العاشرة والنصف. ليس الوقت متأخراً بالنسبة إلى كلودين. لو كلامها دون أن يراها أحد كان حسناً، "أذهب إليها مرتدياً ملابس الغرفة؟ هكذا أبدو كأني أتوسل إليها؟ سأتظاهر بأنني خارج من الحديقة وأدخل إليها لابساً لباس الخروج وأكلمها..."

لبس شارل دو فيريول بسرعة، وارتدى قبعته الأسطوانية أمام المرأة، وتلمس الجيب المحتوي على النقود. وخرج من الغرفة على رؤوس أصابعه دون أن يصدر صوتاً، حاملاً عصاها الفضية، وطرق باب غرفة بـ كلودين فانفتح من تلقاء نفسه. وقالت بـ كلودين التي تقرأ في الفراش دون أن تستغرب مجيبة:

- تعال، تفضل!

- لم يكن باب غرفتك مغلقاً.

- كنت أنتظرك يا كونت.
- لم يكن بيننا موعد الليلة.
- ومع ذلك جئتني.
- جئتكم لأن عندي معك موضوعاً.
- لهذا كل هذه الأنفة؟ لو كان في الأمر خدعة كنت صرخت زاعمة أنك تهاجمي دون أن أعبأ بما تلبس — ابتسمت كلودين — ألكسندرine في وجه الكونت، دون أن تعرف أهي تمرح أم جادة. وفي كلامها ونظرتها ما يغري — ولكن لا تتظاهر بأنك شبعان ولا تريد شيئاً. اجلس، أسمعك.
- قال شارل دو فيريول لكلودين التي رجعت إلى الفراش بإغرائها:
- سأشتري منك ما كتبت بشأن مادلين.
- وكم ستدفع لي، هذا غالٍ!
- مهما كان سعره!
- هكذا؟ — سألت كلودين — ألكسندرine بصوت يقطع نياط القلب، ووضعت جانباً الكتاب الذي كان معها إلى الآن. — إذن تعال واحلع ملابسك!
- كلودين! — صاح شارل دو فيريول وهو يتلقى هذا العرض المفاجئ، ونظر ساهماً إلى المرأة الجميلة التي رفعت طرف لحافها فبدت فخذاتها المتينتان. وبدأ يخلع ملابسه غير واعٍ ما يفعل. — ييدو يا حلوتي أني أشتري كتابك وتبيعني في نفسك معه. ألا يمكن أن يكون ما في كتابك هو هذا الموقف؟
- لا عجيب في هذا يا كونت مادامت الدنيا كلها قائمة على البيع والشراء.
- الأفضل مما تقول هو أن تغلق هذا الباب.

XII

لا ينسى شارل دو فيريول، مع أنه مضى على عودته إلى إستانبول عدة أشهر، الليلة التي سقطت سفره. وسواء كان إلى الطاولة يمارس مهماته الدبلوماسية أم كان نائماً أم مستيقظاً أم يغير النساء، فليلة الحب المفاجئة تطفو فوق الجميع. مرت عليه ليالٍ كثيرة مشاكحة مع نساء آخريات: كان يشتري منهان الحب في الفنادق وفي دور الحرام. ولم يسبق له أن باعوه الأوراق التسع الفضيحة بتنفيسة في الفراش.

"ماذا يمكن أن تسمى هذا؟... كان الكونت يسأل نفسه – يبدو أن لا فرق كبير بين من كتبتها ومن كتبت لأجلها؟ مادلين وإن كانت بائعة هو مكشوفة فإن الكونتيسة كلودين – ألكسندرин كانت تعيش وهي تسخر من غيرها وتشر هنا وهنا شهوها السرية المخادعة التي لا نهاية لها. إن كت مخطوطاً فلن تتخذ منك المرأة التي نمت معها عدواً. وإن عرفت منك ما يفضح لم يقف شيء في طريقها. لا تجعل لي كلودين من نفسها فتاة بكرة. لم أجبرها أنا حتى ترحف إلى تحت لحاف. تكتب عنا وهي لا تعرف نفسها. ليتها لم تخدع شارلوت – إليزابيت أيسبيه التي تمنع عليها بالكلام المسؤول والسلوك الخبيث فتصنع منها شبيهة بها نكبة بي. كان عليّ أن أصحبها إلى إستانبول كما ترجمتني كي أبعدها عن أيسبيه؛ ولكن كيف كنت سأفهم الموضوع لأيسبيه؟ كان أفضل شيء هو لو أتتني كلودين في تلك الليلة كما لمحت لي دون أن يكون لي علاقة بالأمر. لو كلفت أحداً من زوار باريس كفخري، دون أن أظهر أنا كانت وصلت إلى بسهولة. يمكن أن تقع هنا في مشكلات كثيرة. وإن فلن تدعنا نعيش في هناء.

لم يكن شارل دو فيريول يفهم في البداية لماذا بدأ ينظر إلى تركيا التي يحبها، وعاش فيها، وعمل سنين كثيرة، بعين أخرى، ولا يعجبه فيها لا محاسنها ولا مساوئها، ويصل أحياناً إلى حد الكفر بها. ولكي لا يفكر في هذه الأمور يبدأ في مزيد من الشراب ومزيد من النوم وارتياد المطاعم الفخمة. وارتياض سوق الخاصة؛ حتى لتكاد تصبح عادة لديه. وأعجب من هذا كله أنه شوهد يرتاد الجماع، وإن لم يكن يصلبي، أيام الجمعة، ويقف على أبوابها ويكلم المصلين. وحين يصدق ألا يميز بين أصوات المؤذنين وأجراس الكنائس يبدأ ينهر نفسه قائلاً "ما الذي حدث لي". وأحياناً تغزو رأسه مثل هذه الفكرة المفاجئة: "أليس حسناً أن تعتنق معاً الإسلام والمسيحية؟" وحين يعود إلى وعيه يجثو على ركبتيه أمام صورة الإله في ركن الغرفة ويصلبي كي يغفر له. ثم يشرب الدواء الذي أوصاه به لاروش، ويختيّل إليه أنه ينفعه وإن لم يكن هكذا حقيقة. ولكن أحياناً حين يسهو عن موضوع كلامه أو ينسى، يصب عليه غضبه قائلاً "ما هذا الدواء الذي يسكنني إيه لاروش ذو الرأس المتطاول؟" ثم حين يتذكر يرتعب مما فعل أو فكر، ويبدأ يتناوله ثانية.

اليوم هو يوم الأربعاء. ولو لا قليل من الريح البحريّة الباردة لأمكن القول إن الجو دافئ. وأكواخ من السحب البيضاء تتراكم في السماء. وأحياناً تحجب شمس الخريف ثم تخرج من ورائها متشائلة. والسوق القائمة لا قريباً ولا بعيداً من بيت السفير تعج بالناس وترتفع أصواتهم. والسفن العابرة للبوسفور تطلق صفاراتها. ونحيف الحمير من هنا وهناك ينبعك بقدوم الظهيرة. وما سحو الأحذية وسقاوو الشاي والماء وبائعو الجرائد الصبيان لا تفارق أصواتهم المتداخلة الآذان حتى كأنه لم يبق في إسطنبول غيرهم. وإذا علت فوق هذه الأصوات نداءات المؤذنين ونواقيس الكنائس ضجّت المدينة التركية بالأصوات التي تجعلها عن

جدارة مدينة شرقية. واللغات المتنوعة التي تسمعها تجعلك تتصور أنك صرت في عالم آخر.

"أما كان مناسباً أن تأتي عائشة معي إلى هنا... - انتشل الكونت شارل دو فيريول نفسه من خليط الأصوات إلى باريس. - كان قد قرر في موضوع عائشة في زمن ما، غير أنه جزم أخيراً بـ "لا" قائلًا: أنا أعرف ما سأفعل بها. حين ألتقي بأحد أقربائها في غمرة بحثه عنها سأكتب لها "إن أردت سلمتك له ومنحتك حريتك". وفي طريقهم إلى بلاد الشركس، حين يمرون على سأنهيا عذريتها في إسطانبول. ألا يكفي أني دلّتها إلى الآن، وأرخيت لها الحبل؟... كم هي معيبة الفكرة التي خطرت لك! - عنف نفسه - تتناسي أن ما مضى كثيرون سيمضي قليلاً... ماذا حدث لك حتى فقدت السيطرة على نفسك؟ أمن قلة النساء حولك؟ أم لم يق في العسل طعم الحلاوة؟ أن تزور بلاد الشراكسة كما وعدتها، وتطلع على أحوالهم أفضل من أن تُضيع كل معرفتك مع أيسبيه في نزوة عابرة. أسينفعني هذا أم مجرد تنفيس؟ لا تكن يا كونت هكذا! - الآن لام نفسه ورق قلبه شيئاً فشيئاً. - أضف إلى جمائلك الكثيرة هذا الخير. لا تسمح لنفسك بالخطأ..."

جعله الشوق إلى أيسبيه يقفز من مكانه ويخرج من البيت. حين خرجت العربية من دار السفارة وسارت مسافة لا تعرف أين تتجه، سأله مولود السائئ: - أسمعك يا سعادة سفير فرنسا.

- ماذا تريدين أن أقول لك؟ - سأله وكأن ما سمعه مداعاة للضحك.
- كي أعرف إلى أين أوصلك.
- اتركها تجري حتى تتعب أنت.

- أنا لن أتعب، غير أن الأحصنة ستتوقف - "هذا الرجل لا يعرف أحياناً ماذا يقول وماذا يفعل" قال في نفسه.

- إن كان رأيك هكذا فلن نذهب إلى سوق النخاسة؛ ماذا سنفعل فيها؟ أنت لا تعرف، كنت اشتريت فتاة شركسية جميلة... أنت ماذا يُدرِيك؟

- ولماذا لا أعرف؟ ألا تتكلّم على شارلوت - إليزابيت أيسبيه؟ - سأَل السائِس مولود وكأن لم يقِ حاجز بينه وبين السفير. وشدَ اللجام وزاد في سرعتها.

- ومن أين تعرَف اسم شارلوت - إليزابيت أيسبيه؟ - ارتعَب شارل دو فيريول بيعُثُّ ارتياهَ الوعي إليه - أين رأيتها؟

- لم أرها في أي مكان، عرفت اسمها لأنك لا تكُف عن ذكرها.

- إذن اتجه إلى مطعم فخري. فخري التركي؛ ألا تعرفه؟

- وكيف لا أعرفه؛ ألسْت استأجرتني من عنده بعدها كنت سائِسَه؟ أنسِيت؟

- نعم، نعم، صرت كمن لم يتذَكَر كلب داره. - سخر الكونت من نفسه - ساحني على تشبِّهك بكلب الدار. لست من ابتدع هذه الحكمة بل أنتم الأتراك. مهلاً أوقف العربية. لن نذهب إلى فخري. انعطَف إلى الميناء الذي يخدم فيه أورخان الشرطي. لا، سُنجد فخري أولاً. ثم أورخان. - وحين صارا على باب المطعم قال له شارل دو فيريول: - اطلب لي فخري دون أن تخرج من العربية.

فتح شارل دو فيريول باب العربية لفخري المعتمد بنفسه:

- اركب!

- إلى أين سنذهب؟

- ألسْت رجلاً كما يقول الشراكسة فتسأَل إلى أين؟

- إن كان هذا رأيك – ابتسם فخري – فلست محروماً من الرجولة، سأمضي إلى حيث تريده.
- قل لي أين يعيش عصام، سندھب إليه.
- من ذكرت اسمه لن تجده يا معلم.
- أهو بعيد؟ ألا يعيش في إستانبول؟
- أرسلته إلى حيث لن يعود منه إلى الأبد، إلى "معبر الأموات".
- لم تسكت على الثأر.
- لم أتوقف لأنه يستحق.
- وأطفاله ماذا سيحل بهم؟
- سأرعاهم إلى أن يكروا.
- وهل سيغفرون لك قتل أبيهم؟
- إن لم يغفروا فعندى أولاد يقفون إلى جانبي.

وفي هذه اللحظة، ودون أن يعرف كيف، ارتسمت مادلين في خياله، وتذكر قوتها "سأعود إلى مسقط رأسي شفيسار، حيث لن يراني أحد في باريس أو ميلين، وسأربى صغيري في قرية هادئة بعيدة عن المدينة" وتنهد شارل دو فيريول عميقاً، شاعراً بالضعف لكونه بقي وحيداً في الدنيا "وهذا فخري أسس أسرة وهو يناضل من أجل حياته وشرفه. واغتنى في الدنيا بثلاثة أولاد، وامرأته حامل بالرابع. وأورخان تزوج منذ عهد قريب وأنا في باريس. وأنا؟ أنا أعيش في الدنيا شجرة حلوة باسقة يشتهيني من يراني ولكنني لا أثر... أليس عليّ أن أنفض نفسي يوماً من الأيام؟"

- يجب أن نجد أورخان الآن – قفز شارل دو فيريول من أفكاره.

- ليس صعباً العثور على أورخان - قال فخري وإن لم يُسأل - أود أن أعرف
لماذا تحتاجه وتحتاجني. لم يعد الأمر سراً الآن يا معلم؟

- عندي ثلاث مهام، سأتكلم عليها حين نجتمع ثلاثتنا.

لم يكن أورخان بحاجة إلى بحث طويل لأنه كان من حراس سفينة السلطان
التركي. وما كان بقى على انتهاء نوبته في الحراسة نصف ساعة انتظاره في
العربة دون أن يترجل.

ليس نصف ساعة وقتاً قصيراً، يمكن خلاها الحديث في بعض الموضوعات.
ولكن مهما تكلما لم يكشف شارل دو فيريول عن سبب استدعائه فخري، بل
لم يجعله يرتاب فيه. تكلم على البحر والسماء والسفن، وعلى صيد السمك
الذي هو أبعد الموضوعات عن اهتمامه. بل تكلم على المغول. ولأن الحديث
عن النساء كان يدخل في الموضوعات التي لا بداية لها ولا نهاية فقد كانت
الأحاديث تنتهي فجأة دون إكمالها. وكان فخري الجالس صامتاً يستغرب كل
شيء في الكونت: طريقة كلامه ونظرته وضحكه وتفكيره؛ تغير كل شيء في
السنة الأخيرة.

حين فتح الباب لأورخان صاحب القد المتناسق في لباس الشرطي لم يُطق
الكونت منظره فأشار إليه:

- وهل ستظل دائماً بهذا الزي؟ كأنكم خفضوا رتبتك!

- لا يا معلم؛ إن لم يرفوها فلن يخفضوها. - أجاب فخري بدلاً من أورخان.

- حقاً؟ - حُيل إلى هكذا - ثم إنني لا أفهم في الرتب التركية - أصلاح
الكونت موقفه - اركب دون أن يراك أحد. الأتراك والإنجليز والشراكسة
يلاحقونني بنظراتكم.

تبادل فخري وأورخان النظارات، متتجاوزين الأتراك والإنجليز، متسائلين عما يعنيه بـ "الشراكسه"؟ قائلين ألا يكفيه شخصه؟ ولم يمتنع أورخان لهذا السبب من الإجابة على موضوع زي الشرطة:

- أنا أغير زي أيها الكونت في البيت فقط.

- لا بأس إذن، أخبر السائس بمكان سكنك.

جرت العربية برకابها دون أن يتبدلا أي حديث. وبدأ الكونت وقد نسي زملاءه في العربية يدندن بلحن أغنية دون كلماتها. ولكنه قطع موسيقاه حين ظهرت دار السفارة، وقال ملولود السائس:

- يكفي ما درناه في المدينة.

فريع أورخان غير عارف كيف يفهم كلام الكونت:

- ألن نذهب إلى بيتي؟

- وماذا أفعل عندك؟ أنا تنتظري مهمات دولية. - وحين تصبح العربية أمام مقر عمله يقفز من العربية دون توديعهما، ويوصي السائس دون تسميتهم: أوصل هذين، كلاً إلى بيته.

تبادل فخري وأورخان ثانية النظارات مستغربين ما جرى لهما. ولم يكونا يريدان إطلاع السائس، ولو أنه ليس بعيداً عنهم، على شكوكهما. وحين وصلت العربية إلى منعطف الشارع لم يتمالك أورخان نفسه:

- توقف، سأنزل هنا.

- وأنا أمامي عمل هنا. - فرح فخري لما سمع، وحين بقيا وحدهما قال لأورخان: - حسناً فعلت بإخراجنا من العربية.

- أفهمت الآن أن الكونت في حالة غريبة؟

— منذ وقت غير قصير كانت عندي شكوك، على أني لم أعرف أنه وصل إلى هذا الحد. انظر ماذا فعل بنااليوم! أضاع علينا نصف نهارنا وهو لا يثبت على قول. لماذا نقف هنا؟ تعال إلى مقهئي. كان المقهي فارغاً لأن الوقت وقت صلاة العصر. وتوضأ فخرى وأورخان وصليا. وجلسا إلى المائدة. وبعد الصلاة شرع الناس يتقاطرون حتى امتلأ المقهي شيئاً فشيئاً.

- افتحت المقهى يا فخرى في مكان مناسب، وجهزته جيداً.

– من نفعني في هذا هو شارل دو فيريول الكونت. فشكراً له. اختار لي المكان وأفرضني المال. وخلال عدة أشهر سددت له المبلغ.

– نعم، الكونت إنسان شفوق، طيب القلب. – تنهد أورخان بطريقة أرهقته.

— أترى ما يحدث؟ سليمان هدّه المرض. وعصام نال جزاءه. هذان كانا

سيئين، ولكن الكونت؟ هل لعنة الله عليه؟

- ليلعنـه!

ـ يا فخري أفكرت في ما قلت؟ سأل أورخان دون انتظار الجواب. ـ هل أساء الله شخصاً؟

ليس بيبي وبين الكونت إلا كل خير. ولكن ما لا يغفره الله تعالى لا أغفره له. وأنت تعرف الموضوع. — أجبر عائشة الصبية الشركسية على اعتناق المسيحية — الكاثوليكية. وفي هذا الموضوع لم يتجاوز معي مما قلت له. وهذا سبب لعنة الله عليه... لماذا تضحك؟

- كيف ستتحل لعنة إلهنا على من يدينون بدين آخر؟!

– لا تغلط يا أورخان! اقرأ لنفسك "قل هو الله" ثلاث مرات! – بعد أن شارك الملوم في دعائه وقد أرعبه الموقف، مسح على وجهه براحتيه، ثم أكمل كلامه: – رحمة الله تعالى ولعنته متجاوستان. وهو يرعى أمته، ويحميها أينما

كانت. لن يتسامح الله مع شارل دو فيريول في حال ارتكابه معصية لأنه من أتباع دين آخر. لا يقبل الإسلام بل حتى المسيحية أي أمرٍ يفرض بحكم الضرورة. لا أنسى إلى الآن كيف عمدوها في مرسيليا، ولا تزال ماثلة في خيالي. وأعدّ نفسي اكتسبت ذنباً بحق عائشة في هذا اليوم حين دخلت معهم الكنيسة بصفتي مترجماً، رغم أنني مسلم. كنت أود إخراجها من فرنسا غير أنني لم أستطع. ولم يفت الأوان الآن فعائشة لم تبلغ الثامنة عشرة. سأجد، كما سبق أن ترagna الكونت، أحداً من بلادها، والأفضل من أهلها، وسأعيدها من فرنسا مع الأوراق الرسمية الالزمه. ولكن لا أعرف من أين آتي بمثل هذا القريب.

- هكذا تنفذ للكونت مراده! - لم يملك أورخان إلا أن يسأل فخري رغم معرفته بأصل كلامه.

- ألم تفهم أنني لن أدع عين السفير الفرنسي تقع ثانية وإلى الأبد على عائشة؟

- متى ما أوصلتها إلى إسطنبول فسآخذها في اليوم نفسه إلى أهلها الشركسة. وبهذا أتحلل أمام الله من نذري. وإلا فلن أجد راحة ضمير في هذه الدنيا الفانية يا أورخان.

- ألا يمكن أن أكون أهلاً لعائشة؟ - جمد السؤال المفاجئ فخري.

- كيف تصبح أهلاً لها ولست من أهلها دون أن تكون من بلاد الشركس، ودون أن تعرف اسم قريتها؛ لا يكفي أن تتقن الشركسة.

- ألم تسمع من عائشة اسم قريتها؟

- نعم، اسمها "فُرّاي".

- ألا تعرف من أنا يا فخري؟ - يكفيني هذا. سأطلب منها اسم أحد أقربائها من جهة أمها. اختطفوني في طفولتي واستعبديوني. والآن رجعت وأعيش في

"طوابسه" وجلت إلى باريس لأنني سمعت خبرها فقررت ألا تضيع بين الفرنسيين. واصطحبتك لأنك تعرف عائشة. وماذا بعد؟
ضحك فخري.

- إن كنت متقدماً مثل هذه القضايا فما حاجتنا إلى أوراق الكونت؟
- خذها منه، لن تضرّنا. إن كان سفير فرنسا الكونت سيأتي بعائشة إلى هنا بالخدمة ثم يتصرف معها كما يريد فلماذا لا نخدعه نحن أيضاً كما نريد؟

XIII

فاقت أيام وشهرور على فخري وصاحبها وهما متلهيَان للسفر. وانقضى الخريف والشتاء. وحلَّ الربيع. ولم يكن الذنب ذنبهما بل الكونت الذي كان يتذَرَّع بشتى الحجج، ويظل يؤجل إلى الغد وما بعد الغد الأوراق التي يعدُّهم بها، والتي تسمح لهم باستقدام عائشة إلى إستانبول. وبدون هذه الأوراق لم يكنوا يجدان من المناسب ركوب هذا الطريق الطويل.

في يوم حار من الربيع الذي تُحيي فيه أمراض الناس أرسل شارل دو فيريول في طلب فخري، وقبل أن يدخل فخري البيت شعر يلومه:

– أراك اخفيت تماماً؟ أعندهك مأخذ على أم يحرضك أورخان ذو الرتبة؟ لا تقل شيئاً، أعرف مخططاتكما. ولكني لا ألومكم... أين صديقك أورخان؟
– في العمل أو في البيت؛ أبعثت وراءه؟

– وماذا أفعل بهذا الشئار؟ لم أفعل. أنت من أحتاجه، وأنت الوحيد الذي أراه صادقاً معي. لا تظنا أني نسيت حديثنا في موضوع أيسية. سكُّ لأنه لم يبق أمامها الكثير لتنهي دراستها. رأيت شارلوت – إليزابيت أيسية في الحلم. وخوّلتني في ما سأقول لك. قلت لها إنني أريد امرأة سوداء فسمحت لي.

– أتفصلك امرأة سوداء؟... – تعجب فخري – دور الحرام تعجّ بمن.
– ليست من هذا النوع. أريدها معي في البيت. ومتى اشتاهيتها وجدتها في الفراش. ترضيَني وتنفَّس عن ضيقني.

– ألن تسمح لنا بإعادة أيسية إلى إستانبول؟
– ولماذا لا أسمح لكم؟ ألم أقل إن موعدنا هو إكمال دراستها؟ لماذا نتناقش؟ لنذهب إلى سوق النخاسة! سأشتري امرأة سوداء أتعجبني.

– أنا لا أعرف الكثير في قضايا النساء.

- لا تعاند! سأبقيها في البيت إلى أن تجيئنا بأيسيه إلى. ثم أحررها بحيث لا تقع عيني عليها ثانية؛ أفهمت؟
- فهمت؛ غير أني لا أجد الموضوع مناسباً.
- تحدث في العالم أمور كثيرة لا نراها مناسبة. - ضحك الكونت - وهذه واحدة منها لن يضيق عنها - سأحتفظ بها ملدة قصيرة؛ ألا تصدقني؟ إن كنت لا تثق بي فسأرقيق بالدعاء الذي تعلمنه أمس "قل هو الله".
- لا ضرورة! - نمض فخري فرعاً مما سمع. - لذهب حيث طلبت و"الله" معى، وإلهك معك!

خرج فخري بصحبة الكونت شارل دو فيريول، وريثما استقللا العربية تلا فخري لنفسه ثلاثة أدعية. وبعدهما قطعا مسافة خرق الكونت الصمت الذي بينهما:

- هل يمكنني أن أحذرك الآن يا فخري؟ إن دعونا أنت وأنا، كلاً إلى إلهه، دون اتفاق بيننا فسيتحقق لنا مرادنا. لنشق بحما في هذا الموضوع!
- "ما أظهر المهمة التي تصحبني إليها!" - قال فخري في نفسه، ثم لامها: - وأنا لست بريئاً يا الله فاغفر لي! لا أظنك لا تعرف ما ننوي فعله الآن. ولكن المرأة التي لا تملك نفسها، والتي يصحبني إليها، مهما كان دينها، أذهب لأشتريها، وليس إلى مسرح جريمة. وأنه يقول كما سمعت أنه سيحررها في ثلاثة أشهر فأنا أصدقه. وإذا كان يخدعني فلن أسأله لأنه يخدع إلهي وإلهه..."

- تعال؛ لماذا لا تزال جالساً - قال شارل دو فيريول وهو خارج من العربية.
- هل وصلنا؟ - تبع فخري الكونت المستعجل الذي لا يلتفت.

الوقت ساعة شرب الشاي من الصباح، ولذا فهو وقت ازدحام سوق النخاسة: البضاعة المعروضة أكثر من الزبن. والرجال والنساء جالسون في مجموعات منفصلة. وما في السوق من أصوات هو أصوات الباعة والشاربين ومساوماتهم.

ما أعجب تركيب الدنيا من المتجانسات والمتناقضات! في السوق هذا رافع رأسه اعتزاً، وذاك مطرق كمداً. والعبد القانع بعводيته والذي جرى شراؤه مسروراً. ومن لم يُشتَر يُأمل. ومن لا ينفع لشيء يُرثي نفسه.

- انظر، ها هي تنتظري! - صاح الكونت وهو يتبع سيره - هل ترى يا فخري ما أجملها! - وعيناها؟ وتعكس صورتك على بشرتها اللامعة... أتعرف كم ستكون جميلة ومغيرة إن اعتنت بنفسها قليلاً؟ وأيسية؟ لا. لا أحد يعدها وهي التي أصوتها في قلبي. هل أشتريها يا فخري؟ لا تُثُر رأسك! أعرف منذ زمن طوبل أنك لا ترى في الدنيا امرأة أجمل من شارلوت - إليزابيت أيسية، وإذا كنت أرى أيسية أجمل مما تراها أنت فكما قلت لك، هذه لمدة ثلاثة أشهر فقط، لقضاء الشهوة فحسب.

بعد عدة أيام من شراء شارل دو فيريول للمرأة السوداء أسرع أورخان إلى فخري وعيناه تكادان تخجان من محجريهما:

- أتعرف ماذا رأيت في هذه اللحظة؟
- رأيت السفير الفرنسي في الشارع متأنقاً ذراع المرأة التي اشتراها!
- ومن أين تعرفها؟... - سأله أورخان ولا يزال محتمداً.
- إستانبول كلها تتكلم في الموضوع، لا يرون تصرفه لائقاً به.
- ونحن هنا نفكّر في ما يمكن أن نفعل من أجل المسكينة عائشة... - ددمد
أورخان لنفسه.

- وكيف نتأخر والورقة التي كتبها لي من أجل عائشة في جيبي؟! - نظر فخري في وجه أورخان بين الحبّ والفرح. - لا تعاتبني، أمس فقط جعلته يكتبها. - وأغرب ما في الأمر هو أنني لست من طلب الورقة، بل جلس من تلقاء نفسه

وكتبها. وفيما هو يختتمها أضاف "ستكمل دراستها ريثما تصل أنت إلى
باريس"

- لماذا يا ترى غير رأيه بهذه السرعة بعدما جعلنا ننتظره؟

- ييدو لي أنه نادم على المرأة التي جاء بها من دون عقد زواج. أخبرني أمس
أن "لهذه المرأة السوداء رائحة قوية كريهة لا تفوح من غيرها من النساء". هل
نذهب إلى باريس؟

- لا داعي للسؤال. ولكن لا أحتاج إلى إجازة؟ وكم يوماً تستغرق رحلتنا من
البداية إلى النهاية؟ حتى لو استغرقت شهراً كاملاً؛ فبعدما عانيت في الأسر لا
شيء أضيق به على حرية عائشة.

XIV

الطريق والتفكير متلازمان دائمًا. حتى لو سبق التفكير والأعمال فالطريق لا يتأخر عنها. وأحياناً يمشيان متباورين بل متلاصقين. وأحياناً يتتسابقان. وأحياناً يشيان معاً. وأحياناً يفترقان خاويي الوفاض.

يقال إن "من يركب طريقاً لا ينقطع فيه" ولكن كيف سيكون مصير فخري وأورخان؟ أسيكون طريقاً بعيداً قريباً أم طريقاً خادعاً ومخادعاً للذات؟ هذا ما لا يعرفه أيٌّ منهما. هذان جسمان إلى السفر رغبتهما في فعل الخير، لا الجري وراء ربح أو مدح. ولأن "الحزن يقى في القلب أكثر من الفرح" و"بعد المطر تشرق الشمس، وبعد الشمس المطر" لا يسمح كلاهما لنفسه أن ينسى هدفه من الرحلة. في هذا الأمل المزوج باليأس الذي لا نهاية له يسافر فخري وأورخان منذ أيام على الطريق الذي لا يعرفان فيه إن كان هدفهم سيتحقق أم لا.

حين تكون على طريق، ومعك غيرك، تتطرقان إلى أمور كثيرة، وتضحك من ذكرياتك، وتفرح لها، وتتسبب في خصام بينكما. مهما تبادل فخري وأورخان الذكريات لم تكن تمضي ساعة يغفلان فيها عن مهمتهما الأساسية، ولا يقلقان لأجلها، ولا يعيدان الحديث فيها، ولا يتبدلان النظارات. ولكن فخري بدأ يروي ما كان يشغل باله إلى وقت وصولهما إلى "ميلين":

- هذه المدينة يحبها شارل دو فيريول. وكان يقضي فيها ليلة قبل وصوله ولو أنها ليست بعيدة عن باريس. ونحن سنقضي ليتنا هنا.
- هل سننام هنا ليلة لأن الكونت يحب المدينة؟ - سأل أورخان كاتماً عدم ارتياحه للفكرة، ثم أجاب: الظُّهر قريب.

- هذا أمر جيد — ابتسם فخري ووافق زميله: - سنصلـي الظـهر ونتـغـدـى ونـسـتـرـيـعـ، وأـطـلـعـكـ عـلـىـ أمرـ يـقـلـقـنـيـ، ونـتـكـلـمـ فـيـ شـائـنـهـ. وـغـدـاـ نـسـتـيـقـظـ باـكـراـ وـغـضـيـ إـلـىـ بـارـيسـ وـالـنـهـارـ أـمـامـاـ.

نظر أورخان ساـهـاماـ إـلـىـ فـخـريـ وـهـوـ لـاـ يـرـىـ أـيـ شـيـءـ مـخـيـفـ فـيـ كـلـامـ صـاحـبـهـ، ثـمـ سـأـلـ:

- ماـ الـذـيـ يـشـغـلـ بـالـكـ؟ـ أـنـدـمـتـ بـعـدـمـ قـطـعـنـاـ كـلـ هـذـهـ مـسـافـةـ؟ـ

- لـاـ تـقـلـقـ يـاـ أـورـخـانـ!ـ إـنـ قـلـتـ "ـمـاـ يـقـلـقـنـيـ"ـ فـهـلـ يـعـنـيـ أـنـيـ نـدـمـتـ؟ـ وـفـيـمـاـ هـمـ يـتـنـاـولـانـ الـعـدـاءـ فـيـ فـنـدـقـ أـكـمـلـ كـلـامـهـ بـقـوـلـ مـأـثـورـ تـرـكـيـ:ـ هـلـ سـعـتـهـمـ يـقـولـونـ:ـ "ـسـيـّـانـ بـيـنـ أـنـ تـكـوـنـ شـاهـدـ زـورـ وـأـنـ تـكـوـنـ كـذـابـاـ؟ـ"

- لـاـ،ـ وـلـكـنـ كـائـنـاـ مـنـ كـانـ قـائـلـهـ فـلـنـ يـقـالـ أـصـدـقـ مـنـهـ.ـ مـاـ الـأـمـرـ؟ـ

- إـذـنـ دـعـنـاـ نـقـلـ الـحـقـيـقـةـ لـعـائـشـةـ وـلـاـ نـخـدـعـهـاـ!

- كـيـفـ عـرـفـتـ مـاـ فـيـ قـلـبـيـ يـاـ فـخـريـ؟ـ صـاحـ أـورـخـانـ.ـ فـكـرـتـ وـاحـتـرـتـ كـيـفـ أـقـولـ لـكـ هـذـاـ.ـ لـيـسـ لـأـنـيـ عـاجـزـ عـنـ أـنـقـولـ لـعـائـشـةـ إـلـيـ "ـمـنـ أـهـلـهـاـ"ـ كـثـيـرـ مـنـ هـذـاـ الـقـبـيلـ أـجـبـرـتـ عـلـىـ فـعـلـهـ فـيـ زـمـنـ اـسـتـعـبـادـيـ.ـ وـكـانـ مـعـيـ مـلـوـكـ شـرـكـسـيـ أـسـنـ مـنـيـ،ـ يـرـعـاـيـ وـيـحـرـصـ عـلـيـ،ـ حـيـنـ يـعـرـفـ أـنـيـ كـذـبـتـ يـقـولـ لـيـ "ـمـاـ يـحـنـيـهـ الـكـذـبـ يـقـوـمـهـ الصـدـقـ"ـ وـإـلـىـ الـآنـ لـأـنـسـيـ كـلـامـهـ.ـ وـعـلـىـ مـاـ فـهـمـتـ مـنـكـ فـعـائـشـةـ فـتـاةـ لـبـيـبـةـ لـاـ يـجـوزـ أـنـ نـقـولـ لـهـ مـاـ يـدـعـوـهـاـ إـلـىـ الشـاكـ فـيـنـاـ.

- إـنـ كـانـ هـذـاـ رـأـيـكـ يـاـ أـخـيـ الصـغـيرـ فـكـلـامـنـاـ وـفـعـلـنـاـ مـتـطـابـقـانـ.ـ إـنـ فـهـمـتـنـاـ فـهـذـاـ حـسـنـ،ـ وـإـنـ لـمـ تـقـتـنـعـ بـنـيـتـنـاـ الصـافـيـةـ نـحـوـهـاـ نـنـصـرـفـ إـلـىـ بـلـادـنـاـ دـوـنـ شـعـورـ بـالـإـهـانـةـ،ـ وـقـلـبـانـاـ طـافـحـانـ بـالـخـيـرـ.ـ أـسـمـعـتـ؟ـ لـنـ نـبـقـيـ فـيـ بـارـيسـ سـاعـةـ وـاحـدـةـ.

- صـحـيـحـ كـانـ الـكـلـامـ مـوـجـهـاـ إـلـىـ أـورـخـانـ غـيـرـ أـنـ فـخـريـ كـانـ يـلـزـمـ نـفـسـهـ أـيـضاـ بـالـفـكـرـةـ.

حين وصل فخري وأورخان في الصباح إلى سان – كول والسحب المقطعة تعطي السماء قابلاً جانبيت – نيكول، كما كانا اتفقا، بحجة أن عائشة في الدرس الآن. ولما كان فخري يعرف جانبيت – نيكول وهي تعرفه فلم يضيع وقتاً في الحديث بل كاشفها بسبب قدوتهم:

– رفيقي اسمه أورخان، يعرف جيداً الشركسية والفرنسية. وهذه الورقة بعثها إليك عبرنا شارل دو فيريول. والأخرى تشهد على أنه يحقولنا أن نفعل ما نريد. ولهذا لا أحد يستطيع إدانتنا في شأن مهمتنا. ويمكن أن تضييفي إليهما مكتبته إلى قائد شرطة باريس هنري دو فارج. وإن أردت الحقيقة فهذه الأوراق رغم أنها من الكونت فليس لأنه قلق على شارلوت – إليزابيت أيسبيه. حين نصل بها إلى تركيا فنيته نحوها أمر آخر. – لا نكتم: سيخذلها زوجة!
جانبيت – نيكول التي كانت تعبر بلونها عن مشاعرها قالت بصعوبة وهي تكظم غضبها:

– وأنا كنت أشك في الأمر... – ثم ضبطت أعصابها وسألت دون أن يهتز شيء من تفاصيل وجهها: – ولماذا تودعان ثقلكما في؟
– لأننا نأمل أن تفهمينا – قال أورخان مستعجلأً، وأجاب نيابة عن فخري.
– هذا ليس جواباً. – جزمت جانبيت – نيكول باختصار. – إن كنتما تريدانني أن أفهمكم كما فأخبراني بنوایا كما!

– نحن تركيان. وأنت فرنسية، وأيسبيه شركسية. بدأ فخري يحوم حول الموضوع.
– لا مطمع لنا في الفتاة الغربية التي أُجريت على العيش عندكم. لأن البحر لا يقبل الجسم الغريب بل يلقطه. ننوي إعادة أيسبيه إلى القوم الذين تنتهي إليهم قبل أن يحدث لها مثل هذا. وبودنا أن نُسدي إلى أيسبيه ما أُسدي إلينا

بتحررنا من العبودية. بما مثل هذا يقول الشراسته: "اعمل المعروف وارمه في البحر!"

- نيتكمَا خيرَة - كتَمْت جانيت - نيكول الأم الذي يعصر قلبها - شكرأً لكمَا على هفتكمَا على شارلوت - إلزابيت أيسِيه ولكنَّي أعتقد أنكمَا تأخرتمَا... هذا الموضوع لسنا أحراً فيه، لا أنتَما، ولا أنا، ولا شارل دو فيريول الذي فعل معروفاً معكمَا بهذا الكتاب. والجواب عند شخص واحد: - شارلوت - إلزابيت أيسِيه التي حملتَما إليها الخبر السار، والآخر المزعج.

- لا، لن نبلغ عائشة بالنية السيئة للكونت. - قلق أورخان الذي كان صامتاً. سخِيرها فقط بنيتنا.

- إذن اسألها، سأستدعيها لكمَا... - نحضرت جانيت - نيكول كالرمح المقوَّم قلقة، وخرجت من الباب. وحين رجعت أضافت إلى كلامها واثقة أن نيتهمَا لا أمل في تحقّقها، ضاحكة في سرّها: - إن كانت ستليي طلبكمَا فلن أقف عثرة في طريقكمَا.

تجمدت شارلوت - إلزابيت أيسِيه التي تغير فيها كل شيء لوناً وجسداً حين رأيت الرجلين اللذين بانتظارها، ولكنها سألت بالفرنسية الرجل الذي تذكّرته: - هذا أنت يا فخري؟ - لماذا جئت الآن أيضاً؟

- جئنا في إثرك - أجاب فخري بالأديغية. - رفيقي أورخان هذا يعرف التركية والشركسية والفرنسية. رجل رزين ولو أنه أصغر مني عمراً. وعنه أسرة. لا نية لنا نحوك إلا أن نعيديك إلى بلادك.

الأمل الذي كانت نسيته في السنوات الأخيرة بعدما ملّت وينسّت منه جعل قلبها يشب من مكانه، وتوجهت إلى أورخان وسألته بالأديغية:

- هل أنت أديغى؟

- لا، أنا تركي. أجابها بالأديغية.
- إن لم تكن شركسياً - شحب لون عائشة وأجابت بالفرنسية أورخان الذي كان بدأ حديثه بالأديغية - تكلم بالفرنسية حتى تفهم جانيت - نيكول، وأنت يا فخري أيضاً - وقطعت أملهما مهما كان:
- دعي ضيفيك يتكلمان الشركسية، لا تهتمي لي!
- لا! - قالت عائشة وقد تورد خداها وارتجف جسدها كله - لا أريد سماع لغتهما الشركسية ولا التركية.
- جئنا عيناً - تحمل أورخان الكلام القاسي الموجه إليهما فتظاهر بعدم الشعور بالإهانة، وقال بالتركية لفخري - هذه صارت من القوم الذين تعيش بينهم، نسيت أصلها.
- لا ليس عيناً - أجاب فخري أورخان بالفرنسية - لأننا تعينا ولم نستطع أن نحسن إلى أيسيه كما أحسنوا إلينا فسيفهُمُ الله معروفنا. نحن لا نعتب عليك.
- قال لعائشة بالشركسية - ندعوا لك الله بحياة سعيدة بين القوم الذين تعيشين بينهم. أسلِّمْك هذه الورقة التي أرسلها إليك الكونت شارل دو فيريول.
- كان يجب أن تبدؤوا حديثكم بهذا - تناولت عائشة الورقة يسبقها لوثها - تصفّحت الورقة ورفعت عنها رأسها بسرعة: - ألم أقل لبابا إني لن أضع قدمي في تركيا، دعك من العيش فيها؟! وبلغوه عنى الكلام نفسه أيضاً.
- ستفعل... - نحضر فخري. - وسنبشره بأنك صرت فتاة فرنسية حقيقة... خلال المدة التي قضاها فخري وأورخان في الغرفة قلبت ريح الشمال السماء إلى الأزرق. وبدأ المطر الخفيف يشتد.
- عائشة تراقبنا من النافذة... - تألم أورخان لما رأى.

– لا تلتفت! – شدد فخري على أورخان – نحن عملنا ما علينا...لا أصدق
أنما صارت فرنسيبة الروح. هكذا ستعيش البائسة حياتها في بلاد الغربة.
كانت عائشة تبكي بدموع ليس أقل من المطر الذي تنشره الريح الباردة على
زجاج النافذة.

الكتاب الرابع

I

يوم خيري صاح دافئ. وفناء آل فيريول المزين بالأزهار الملونة والأشجار المتنوعة والدروب المقاطعة مكان يشرح القلب ويعث في النفس الأفكار فجأة. وأمام القصر تنتصب شجرة البطم الضخمة التي تحبها عائشة وتتكللها أحياناً في ساعات فرحتها وساعات ترحة كأنها خارجة من قصة.

أهناك شجرة بلا أغصان؟ إن وجدت فيها قلموها، أما أن تُخلق هكذا فمستحيل. واضح لماذا تنبت الشجرة بأغصان كثيرة: لا تخفي جمالها، يراها أي إنسان. تؤوي من يشكون الحر إلى ظلها. وتحرق نفسها من يشعر بالبرد، والعصافير تتخذها مسكنًا ومستراحةً: بعضها دون صوت، والآخر معنٍ، وبينها من يبني عليها عشه.

وليست العصافير وحدها؛ فالنسيم الخفيف المرهق يستريح بين أوراقها اليابسة. وحين يأتي الشتاء فتجابهه بأغصانها العارية تعيش على انتظار الربيع. وتفرح لقدوم الصيف، وتشتاق إلى الخريف.

كانت شارلوت – إليزابيث أيسبيه التي أهنت دراستها في سان – كول جالسة في ملتقى كلودين – ألكسندرین الأدبي الذي يقام في الفناء، ورأسها مشغول بمذهل الأفكار المقلقة.

– أيسبيه؛ ماذا ترين في هذه الشجرة، أنت لا تُصغين. – توقفت كلودين – ألكسندرین عن القراءة ولامت عائشة.

– أيسبيه تعيش الآن في هذه اللحظة في عالم آخر – عقب فولتير.

- ليست أيسية في عالم آخر - لم يقبل أرجنتال ما قاله فولتير وقال ما يعرفه - إنها تكلم الشجرة. أليس كذلك يا أيسية؟

انفجرت ماري دو لافيفيل ضحكاً لما سمعت فوافقها بون دو فيل وماري دو فيشي شامرون، أما كلودين فاكتفت بالضحك.

ليس في ما قال أرجنتال دو فيريول الكونت ما يُضحك - قال مونتسكيو بصوته الرفيع. - إن تخيلت الشجرة تفهمك أمكنك التحدث إليها وعدم التحدث. أغفرى لي يا كلودين، عند الأشجار حكمة أكثر مما تروين أنت.. دعي من يُخيّل إليهم أن الأشجار كالناس يحكون لك رأيهم. إن وافقتموني فأنا أول المتكلمين. ولكن إن كانت شارلوت - إليزابيت أيسية ترغب في الكلام فسأنازل لأنها امرأة.

- إن كان هذا رأيكم فسأقول رأيي في الأشجار؛ لا تسخروا. - بدأت عائشة يغلبها الخجل - أحب الأشجار. وتبعد لي أحياناً كالناس. أحدثهنَّ ويحدثُنِي. ها هي شجرتنا العملاقة؛ انظروا إليها. يرون أن جد بابا هو من زرعها. وإلى الآن ما زالت تحرس نسب آل فيريول الكونتات. كبيرة، جميلة، متينة الجذور والجذع والأغصان. وأنا في البلاد التي جاؤوا بي منها بلاد الشراكسة، كانت في دارنا شجرة عملاقة من هذا النوع، لا أدرى إن كانت ما تزال حية... ربما كانت هي السبب في حي لهذه الشجرة وهذه الدار... - أكملت عائشة بعدها ضغطت على قلبها الذي بدأ يتخاذل: - ربما زالت من دارنا لأن جدي كانت تقول: الأشجار تموت مع أصحابها... ولذا ليس كلُّ جميلٍ قويٍّ مثل ما نريده في هذه الدنيا.

- ويصدق أحياناً أن تملأ منها - قال فولتير بين المواقف والمعارض لكلام عائشة.

- كيف تفهم هذا؟ - رقت عينا ماري دو لافيفيل النديتان الصغيرتان.
- ربما، كما أنك حين تنظر في وجه إنسان قبيح يغلي قلبك - تذكر بون دو فييل العجوز المقدد الذي يمر كل يوم من أمام البيت.
- إن كنت تقصد يا بون العجوز الذي يذهب إلى السوق - قال أرجنتال لأخيه الكبير - فإنه يحيينا، يرفع لنا إيمانه. أليس من حقه أن يعيش؟ بيع ويشتري و يترجى ويتشارجر.
- تعتمد على من هو ماثل لعينيك دائمًا؛ أليس كذلك؟ - سألت كلودين ألكسندرین ابن اختها.
- لا يا كلودين - نابت عائشة عن أرجنتال - لا ترى في من اعتدت عليه جماله ولا قبحه. إن كنا سنكمل الغد ببوم آخر مشابهٍ فلن يعود فيه ما يتعجب منه.
- والحب؛ أهو كذلك؟ - سألت ماري دو فيشي شامرون عما يشغل بالها.
- ابتسم مونتسكيو غير منكر اعتداده بأنه أكبر الحاضرين، وبالنقاش الذي حمي. وأفهم كلودين بعينيه أن تسمح للحضور بالنقاش دون مقاطعة.
- أي حب تسألين عنه يا ماري؟ - أكملت أيسية كلامها - أنا أميز ثلاثة أنواع من الحب، وقد تكون أكثر: حب الأبوين لأولادهما، والحب بين الرجل والمرأة، وحب الإنسان للحياة. ليس عندي معلومات في النوع الثاني، وفي النوع الأول سأروي لكم ما كانت جدي ترويه "لا يجوز للأم أن تبالغ في حب أولادها" كانت تقول "المراح ينتهي بالقتال" كانت هناك أم لا تضع حدوداً للحب، ولا تقول له "قف!". وحين يقال لها: "لا تدعني طفلك يلعب بالملقص" تجib "ماذا سيجري له إن لعب به" ويررون أن الطفل قلع عينه بهذا المقص، ويسخنون مثل هذا "الحب الأعمى" فادع الله أن يحميك منه. وأما حب

الدنيا فيمكن أن يقال فيه الكثير. شجرتنا العملاقة هذه، كما قلت، أحبها. وهذه تغير نفسها كل عام أربع مرات. وفي كل مرة تعاني الكثير. البرد يجمدها، والحر يببسها، والريح تحاجها، ولكنها مهما عانت تنظر إلينا منشحة كأن شيئاً لم يحدث لها.

- على ما تقولين يا أيسية - ما إن انتهت عائشة من كلامها حتى أكمل فولتير أفكارها:- الأشجار تحمل منافع كثيرة للإنسان، وأعرف فائدة كبيرة للبشرية في تطور ذكائها. وهذه ليست سرّاً عليكم ولذا أقولها: الشجرة كانت السبب في اختراع الفأس.

- كيف يا فولتير؟ - سألت ماري دو لافيفيل وهي تتودّد لفولتير، وعدم فهمها لما سمعت أُعجب من سؤالها، ولم يكف هذا السؤال الغيّي بل سألت مونتسكيو:- وهل تستطيع الأشجار أن تفكّر في اختراع الفأس؟

- لم تجتمع الأشجار لتختبر شيئاً - كان بود مونتسكيو أن يتسّم ولكنه تراجع:- حين عجز الإنسان عن الاستفادة من الشجرة فكر في اختراع الفأس القادرة على مقارعتها. في البداية من الحجر ثم من الحديد.

- إذن صنعوا يد الفأس من الشجرة نفسها؟ - لم تتأخر دو فيشي شامرون ماري عن ترجمتها.

- صحيح - يا ماري تفكرين بطريقة صحيحة. - وافق فولتير الفتاة التي يراها خفيفة الرأس، والتي عيّنه عليها، معتقداً بأنّهم ما يزالون يتناقشون في الموضوع الذي طرّحه: - وإن فكرت أيضاً يمكن إضافة أمر آخر.

- أنا أعرف.

- تعرّف كل شيء، وتحشر أنفك في كل موضوع - غضب بون دو فيل الجالس منطويّاً على نفسه كأبيه - هلاً تقولين شيئاً له يا كلودين!

- إن أجبت جان على السكوت يا بون - قالت كلودين - ألكسندرин -
فلن نعرف رأي أخيك الصغير. وإن بدأت أتصرف معكم هكذا فماذا
ستقولون لي؟ الأفضل أن ندع كل شخص يعبر عن رأيه.

- برافو كلودين - ألكسندرин - صفق مونتسكيو، وبرأ نفسه بجاه بون دو
فييل: - ساخني يا كونت؛ كما قالت كلودين - ألكسندرин، إن لم نتعامل
هكذا فسيصبح صالوننا الأدبي الذي ننتظره بلهفة ملأ، ثم نفترق.

- هل فهمت؟ - خف أرجنتال مرة أخرى، ولكنه رأى أخاه الكبير ينهره بعينه
فانكمش: - حسناً لن أقول شيئاً آخر. وإنذ اسمحوا لي أن أقول ما أعرف:
وكالفأس كانت الشجرة سبباً في اختراع المنشار؛ أليس صحيحاً يا أيسية؟

- نعم يا جان، في كلامك نصيб من الصحة - نظرت عائشة الآن وقد
شحب وجهها نحو شجرتها العملاقة التي تهمس في الوجود بأوراقها الصفراء
المائلة للحمرة. وسألت نفسها وقد ثقلت عليها أفكارها وكأنها تُسمع نفسها:

- هل ستكون نهاية هذه الشجرة الرائعة يوماً ما على يد الفأس والمنشار؟

- أتعرفين يا أيسية ماذا كان سيحدث لنا لو كنا نعرف ما كتب على جبيننا؟

- سأل فولتير ضاحكاً وأجاب: - كان كل إنسان مات عاجزاً عن فعل أي
شيء، متاثراً بما سيحدث له.

- لا أريد أن أعرف ما كتب على جبيني - ارتعب الحاضرون حين صرخت
فجأة ماري دو فيشي شامرون. واعتذر عن فعلتها: - ساخني؛ الحياة
جميلة، حلوة؛ أريد أن أعيشها وأسعد فيها. لنغير الموضوع يا كلودين!

ابجهت عيون الشباب إلى الكوتنيسة ماري - أنجلييك التي كانت قادمة تنظر في
مشيتها تضفي الجمال على أرض الدار الخريفية. كان عتابها يسبقها رغم
ابتسامتها الظاهرة: - لماذا تجلسون مطربين؟ هذه السنة أنهت شارلوت -

إليزابيت أيسيه وبون دو فيل وفرنسوا فولتير الدراسة. لماذا لا تهتمون أنفسكم؟!
نعم، نعم — استعجلت الكونتيسة حين تذكرت: — أتذكر أنكم تبادلتم التهاني
في اجتماعكم السابق، افروا، لن تلحوظوا غداً بشبابكم الفائق. ولن يلتفت
إليكم ولو صحتم وراءه.

— ما أشد أناقتك اليوم يا ماما! — تفحص أرجنتال أمه.

— وأنت يا بني حين تنتهي من دارستك سأتألق لك أكثر من هذا اليوم. ولكن
إن أردتم الحقيقة قلت لكم: — تأقلمت لأنكم ذكرتموني بشبابي... لماذا أنت
واقفة يا أيسيه؛ اجلس. — قالت عائشة التي دفعتها تقاليد قومها إلى النهوض
لماري — أنجيليك.

— كم قلت لك يا أرجنتال أن لا تجلس في حضرة الأكابر منك سنًا! — لامت
عائشة الصبي بحيث يفهم الحاضرون.

كان أول من فهم الموضوع هو مونتسكيو فهض، وهذا حذوه فولتير وبون دو
فييل وأرجنتال. وكذلك الفتاتان. وقالت كلودين — ألكسندرين التي تأخرت عن
الآخرين، وهي تبتسم:

— ستحدث في الاجتماع القادم على تقاليد الأكبر والأصغر فاستعدوا
للموضوع. وسألوا أيسيه الخبرة بكل شيء... — نطقت اسم عائشة وهي
تضحك في سرها.

— وسيكون اجتماعاً مهماً. — وافقها شارل مونتسكيو متوجهاً العبرة الأخيرة
لها.

— إذن دعونا نتكلم على العلاقة بين الرجال والنساء. — فاجأت ماري دو
لافيفيل الحضور وكأنها قادمة من عالم آخر.

- كفى يا كلودين! لا تستأنفوا جلستكم بعدهما نخضتم. — قالت ماري — أنجيليك عارفة أن هناك ما لا يعجب أختها الصغرى — تعالوا؛ الغداء ينتظركم. لم يُطل الأصغر سنًا الجلوس على المائدة الخالية من الشراب. فقد نخضوا بعدهما شربوا شيئاً من الماء الحلى.

حين انصرف الجميع وبقيت الأخنان وحدهما، صرحت ماري — أنجيليك بما يشغل بالها:

- كم قلت لك يا كلودين ألا تناكفي أيسيه هكذا ولا تغمزي من قناتها؟ أليس نهوض الأصغر للأكبر عادة جميلة ومعبرة عن الاحترام؟ ألم تري كيف فهم مونتسكيو وفولتير الأمر بسرعة فنهضا؟ ألم تحسدیني لأن أيسيه نخضت لأجل؟

- يا ماري، لا تكوني حساسة بهذه الطريقة! — نظرت كلودين إلى أختها بودّ وإن كانت تلومها ظاهراً: — أظننين أيسيه تنهض عالمة احترام لك وحده؟ أريها دميةً تجديها نخضت لها!

- يا كلودين! ارفع صوت ماري — أنجيليك.

- حسناً حسناً، ولكن ليس ما في قلب الفتاة الشركسيّة التي أسكناها بيتك مِثْل ما على لسانها... سأقول لك شيئاً آخر مادمت بدأت: لا أطيقها! من أول عمرها تأنق وتدلل نفسها. أتعرين ماذا ستصبح في غضون ستين؟

- ماذا تريدين أن تخبريني؟

- لا أعرف، فكري! تعرين متى سيتضح كل شيء؟ حين يعود لاروش من إستانبول التي أستدعي إليها ثانية.

- إن كنت تعرين عن الكونت ما لا أعرف فلا تكتمني!

- لا شيء تجهلنيه مما أعرف. – قالت كلودين لأختها وهي تتحقق في عينيها وإن لم تكن تثق بها، وأضافت: – غير أني لا أعرف لماذا لم يأت الكونت بنفسه إلى شارلوت – إليزابيت أيسبيه دون إرسال الرسل؟

- أيُّ رسُل؟

- ألم يقل لك بيير شيئاً؟

- لم يقل لي أحد شيئاً – تشتَّتت عيناً ماري – أنجلييك بسبب الخبر المزعج الذي لم يكشف لها عنه: ما أعجب ما يفعل هؤلاء من ورائي؟ أأنا الآن من لا تثقون به؟ أوكلوا إلى تربية الصبية الغربية وهم يفعلون ما يريدون... – هُرعت ماري – أنجلييك إلى عينيها بالمنديل ثم رمته على المائدة: – لست إنساناً يا كلودين! لا تسميني بعد الآن أختك!

- كفى يا ماري، لا تغضبي! – كانت كلودين جالسة وقد لفَت رجلاً على الأخرى، دون شعور بالذنب – لم يحدث لنا ما تفني نفسك لأجله، انصرف الضيوف كما جاؤوا. الأهم من هذا هو إقامة الكونت في إسطنبول غير عارف ماذا يفعل.

- عندي شيء من العلم بهذا. سمعت المزيد حين يعود لاروش.

- ليس لاروش من كان يجب أن ترسله إلى إسطنبول بل زوجك أوغستين – أنطوان.

- وهل هو طبيب لأرسليه؟! – احتدلت ماري – أنجلييك بصوتها. ثم اختتمت نادمة: – ألا تعرفين من أي نوع من البشر هو؟ تقوم القيامة ولا يتحرك!

- ولماذا تزوجته وأنت تعرفين هذا منه؟ – سألت كلودين دون مبالاة.

- تزوجته لأنكما أنت وبير كنتما صغيرين، كنت أريدكما أن تعيشَا دون أن تتحاجا أحداً. – مدت ماري – أنجلييك مرة أخرى يديها إلى عينيها بالمنديل

— والآن لا أحد يحتاج إلى! ولم يكفي أن أربى أطفالي بل أضافوا إلى حملي فتاة غريبة.

قفزت عائشة إلى غرفة الطعام تطير من الفرح، وتضوّع عطراً. وحين رأت ماري — أنجيليك التي كانت تمسح دموعها سألتها وهي تعانقها:

— لماذا تبكين يا ماما في هذا اليوم السعيد؟ — يا كلودين هل أحزنها أحد؟

— لا أعرف؛ أسلّيها! — أجبت كلودين بمحنتها البرودة، وخرجت من الغرفة بقامة في منتهى الرشاقة والاعتداد.

— هل تخاصمتما أنت وكلودين يا ماما؟ سألت عائشة عما تشك فيه وهي تربت على كتف ماري.

— لا يا أيسية لا شيء بيننا! — أجبت ماري — أنجيليك ببراءة دون خبث أو مواربة. — بل لأنّي سمعت أنّهم كانوا قد أرسلوا وراءك رسلاً من إستانبول.

— يا ماري — أنجيليك يا ماما — ضمت عائشة إليها الكونتيسة على نحو أقوى وهي تضحك، وقبّلتها على وجنتيها — لا تهتمي بالأمر، ما كنت أريد أن أشغل بالك. ومن أتاني رجع بخفيّة حنين. أعرّفين ما أزعجني أكثر من هذا الموضوع؟ كتبت بعد الرسل مرتين إلى بابا فلم يرد علىّ. ربما كان يتّظر انتهاءي من الدراسة ليهنتني. غير أنّي لا أعرف سبب استدعاء لاروش من جديد.

وأنا مهمومة بهذا يا أيسية. أعرّفين ما أشك به من ناحية لاروش؟ يحب الكونت أن يعزم له لاروش ومن أين يأتي في إستانبول عازف فرنسي؟ ربما

لهذا السبب؟ يقال إن السفراء يستأقون إلى بلدانهم إلى حد إضاعة الرشد.

— كتّمت ماري — أنجيليك وهي تخبر عائشة بمعلوماتها القليلة عن ابن حميها، ما نشب من سوء تفاهم بينها وبين أختها. ولكنها سألتها بأسلوب المزاح: —

لم تعلق يا أيسية على ثوي الذي خطّه حديثاً، ألم يعجبك؟

- جميل جداً! لأجل هذا كنت جئت إليك. ولست وحدي من أعجب به بل فيفيل وصاحبتها أيضاً. وماري دو فيشي شامرون تدعوك "الكونتيسة الجميلة".
- وماذا عن فولتير ومونسكيو؟ - سألت المرأة التي استقلّت المدائخ فيها وفي ثوبها وترى أن تعرف حتى آراء الرجال.
- من عدّت أسماءهم يا ماما أناس حكماء قرؤوا الكثير، وهم يرونك جميلة. وأعجبهم ما قلت لهم.
- ثوبي، عن ثوبي أسأل. - قاطعت ماري - أنجيليك عائشة - أتعجبهم ثوبي؟ أيناسب مع قامتي؟
- نعم، نعم يا ماما.
- هذا هو يا أيسيله. تظنيني أبكي ولكني أبكي من الفرح، هل فهمت الآن - مؤهّت ما رأته عائشة قبل لحظات، ومسحت على قامتها. - لا تقلقي يا ابني؛ كل شيء على ما يرام.

II

اليوم بعد الظهر، تردد صدى الخبر السار الصادر من إستانبول في المدينة. ولد حفيد للملك لودفيغ الرابع عشر؛ ولذا يحتفل شارل دو فيريول في مقر السفارة بالحدث، فتقرب الطبول ويعزف على الأوكورديون، ويشرب الضيوف فتصاعد أصواتهم إلا وقت صلاة العصر فيخضونها عن المصلين. والجيران القرييون والبعيدين ضاقوا ذرعاً بأصوات الرجال والنساء الفاجرة.

يجلس شارل دو فيريول متبوئاً صداره الغرفة، مرتدياً بنطالاً أسود قصيراً وقميصاً أبيض قصير الكمين، والصلب يتدلى على صدره، واكتسى وجهه بالأحمر لكتمة ما شرب. وعلى الجانبين كومة من النساء أشباه العاريات. وامرأة المتعة السوداء التي اشتراها في الربيع، والتي ينادونها بـ"السوداء" على يمينه، وعشيقه لاروش التي جاء بها في الأحد الماضي لولو الشقراء الرقيقة إلى يساره. والحضور تسعه من فيهم لاروش والسائس مولود والكونت نفسه.

ليس سهلاً قيادة النساء حتى لو كن صاحبات. ولكن ادع الله ألا تراهن ثلات؛ لن تستطيع السيطرة عليهم ولو كنت سلطاناً. وكل منهن تجد ما تقول وما تفعل. هذه تصريح وتلك تضحك، والأخرى تغنى وترقص. ولاروش، وقد انتشى بما شرب، يعني مع عزفه. ومولود السائس الذي لم يذق الشراب قبل يقوع على طبل محشور بين ركبتيه دون أن يعبأ إن كان قرعه متناغماً مع العزف أم لا. تنهض المرأة السوداء وتمد ثدييها الضخمين للكونت وتبعدهما وترقص لتعريه أن يرقص معها. وعشيقه لاروش الشقراء الرقيقة تقف على طاولة وتحز مؤخرتها المدوره معتمدة بجمالها ومهارتها. والباب التحيل جداً يختلس النظر إلى النساء العابثات وهو يصب لهن الشراب. وهن يغمزنه متوررات الوجوه ويلهون معه.

حين سمع مولود صوت الأذان كفّ عن قرع الطبل، وأنصت برأس مرفوع جافل. ثم شرع في الوضوء وقد انتبه إلى الإثم الذي يكسبه من إطراب هؤلاء السكارى.

— إلى أين تمضي مقاطعاً سرورنا؟ صاح الكونت وراء مولود. — أمن أجل أن تقف أمام "الله أكبر"؟ — وجعل الكلام المغرض المهين مولوداً التركي المخلص لدینه يتسمى في مكانه ولكن لم يلتفت. — لا إله إلا لاهو، الله أكبر...—

حين سمع مولود الكونت يقلد المؤذن انفتل بجذع غاضب متوجّب:

— حاولت ألا أرد عليك ولكن أيّ منكر تقول يا عديم الإيمان. توقف حالاً!

— حين نظر إليه السائس بجسد ممتليء ركض إليه الباب ولكن مولود أزاحه بصدره، فأمسى إلى الكونت الذي توقف عن "أذانه".

— مهلاً، مهلاً مولود! — ركض لاروش والأوكورديون بربتها — هذا الرجل شارل دو فيريول هو سفير فرنسا!

— أعرف أنه سفير وأنه ملحد، ولكن لا أسمح له ولغيره كائناً من كان، أن يهين الله! اغفر لي يا إلهي وقوعي بين هذه المجموعة من الأبالسة. ولكنني بهذا

— ومد يده إلى الطاولة واحتطف زجاجة — أكفر عن ذنبي أمامك، — ورمى الزجاجة أرضاً وكسرها.

— برافو يا مولود! — صاح شارل دو فيريول وصفق لسائسه.

— إن كان "براو" أو لم يكن فأنا أُنفي عملي معك الآن. — قال مولود، وفيما يفكّر في أن ينهي السلام علاقته بالكونت الذي كان يتسم له صدرت ضجة من جهة الباب.

— ما الذي جرى على بابنا؟ — سأّل الكونت شارل دو فيريول بلا مبالاة، وأضاف رافعاً الكأس لنفسه: — قولوا لمن جاؤوا يهنجوننا: شكرأ لكم. وإن كان

لهم نية أخرى فتأكدو، وإلا فلا تكتموا بهم. وإن كنت تريد الاستقالة يا مولود فأنت حر. لن أُعدم سائساً مكانك. ولكن فنّر حتى وصولك إلى الباب. لم أقل لك شيئاً.

- لا تترجمه أيها الكونت! – قالت المرأة السوداء لشارل دو فيريول. – ما حاجتك إلى من لا تريده ولا يريده؟ – سأعمل أنا سائسة عندك. في النهار سائسة وفي الليل كما تعرف. – أكملت كلامها في منتهى الحماسة.

- وإن احتجاك في النهار؟ – سألت المرأة الشقراء الضخمة التي جلبها من دار الحرام والتي كانت إلى وقتها مشغولة بالطعام والشراب.

- سأكون حاضرة ساعة يطلبني – أجبت، دون تفكير، المرأة السوداء المنسجمة مع سلوكها العاهر.

- وأنا أستطيع العمل سائسة! – قفزت لولو الرقيقة.

- لا تصدعي رأسي يا من يأخذك الهواء يميناً ويساراً! – نهرتها المرأة السوداء – أفرحي إن استطعت إشباع لاروش.

- أكان جاء بي عشيقي إلى إستانبول إن لم أكن أستطيع إرضاءه؟ – أضافت لولو إلى ما قالت وهي تشعر بالإهانة – قل يا لاروش لهؤلاء كيف أنا!

- برافو لولو – صاح لاروش مع العزف.

جين رجع الباب سأله الكونت:

- ماذا جرى لك حيث كنت؟

- عدد من الأتراك، وبينهم امرأة ترتدي النقاب عنيفة تجهمروا عند بابنا.

- وماذا يقولون؟

- لا يطيقون أصوات نسائنا.

- وأنا لا أقول شيئاً غير أني حزين لعدم سماع أصوات النساء المرحات في إسطنبول. - تظاهر الكونت بالملحاح ولو أن الخبر الذي نقل إليه أزعجه. - نحن في دار السفارة، وكما اتفقت الدولتان نحن في أرض فرنسية. ولذا لن نسمح لأحد أن يعكر فرحة ملكتنا العظيم. أنت يا لاروش اعزف على الأوكورديون، وأنت يا ديستان على الطبل. وأنتم أيضاً يا أحبابي امرحوا وأسعدوا أنفسكم. أدعو لكم أن لا تروا إلا الأفراح، وأن تحبوا وتحبوا، وتعيشوا طويلاً طويلاً حتى تهروا. - قال الكونت رافعاً الكأس. وانتظر الكونت حتى شربت النساء اللواتي صحن صحة النصر، ثم أتى على كأسه.

- لا أريد أن أشيخ، أريد أن أعيش شابة أبداً! - قفزت لولو ثانية إلى ما فوق الكرسي.

- صبوا! - نحضر شارل دو فيريول خفيفاً متصنعاً الشباب بقامة رشيق، وأمسك بالرجاحة - لنشرب نخب شباب فرنسا الدائم!

لاروش يعرف، ويعني مع العزف، ويدنن دون كلام معه. وديستان، ولو أنه لا يجيد القرع، كلما رفع صوت القرع اهتزت الرؤوس له كأنه يعزف لحناً ما. والكونت يوقع برجليه وبأصابعه السميكة على الطاولة كأنه يتابع ديستان. وتتقاfer المرأة التي جاؤوا بها من دار الحرام بقدمين عاريتين بحيث لا تعرف أترقص أم لا لأنها لا تتحرك من مكانها، وتصبح بصوت ضعيف ثم تصرخ. والمرأة السمراء حين تغنى بلسانها يتوقف الأوكورديون والطبل، ويهدا الراقصون الصابخون. ويرتفع صوت المرأة السوداء مع غياب الشمس وحلول المساء. يتعدد صدى صوتها في الأفق حتى ليصل إلى قصر السلطان. ولا يعبأ أحد من المختلفين باحتجاجات الجيران ولا بالصبيان الذين يرجمون بالحجارة.

والآن سمع صوت طرق على الباب. وتبعد الطرق صوت قوي حاد:

- افتحوا الباب باسم الله معاون الوزير – النساء اللواتي سمعن اسم "الوزير" ، باستثناء السوداء ولولا ، تركن المائدة وتوزعن في أنحاء الدار على غير هدى ، واختبأن. ومن بقي منها على المائدة قال لهن شارل دو فيريول:
- اجلسن أنتن. أعرف ما سأقول معاون الوزير إن كان آتياً لتهنئتنا أم لسبب آخر. – قال لنسائه المخلصات ، وهو يتوقع سبب زيارته ، وإن صحّ ما يتوقعه ، ولكن ينوي أن يلبس ، أوعز الكونت للحراس: – افتحوا له!
- حين رأى الكونت معاون الوزير وعدداً من مرفقيه يدخلون الدار على خيولهم فهم أن مقصدهم ليس خيراً ، فاستراح على نفس الطريقة التي كان عليها.
- قبل أن تُطلعك على سبب قدومنا كان بودنا أن تحبي معاون الوزير – قال الفارس الأول. وترجم أورخان إلى الفرنسية.
- إن كان جلوسي فأنت أيضاً على ظهر حصانك. أسمعك ، ثم لا تنس أن الدار التي دخلتها دون استئذان هي أرض فرنسية.
- إذن نحذرك: أسكِت النساء الساقطات اللواتي يخْرُقْن أخلاقنا وتقالييدنا الإسلامية.

غامت عينا شارل دو فيريول الناظرتان كلّ في اتجاه. وارتفعت كتفاه وانخفضتا. وقرب إليه وهو يضحك القدح الفارغ. وأبعده. ونادي النساء المختبئات بصوت عذب:

– يا ضيفاني الصغيرات الحلوات. أين أنتن ، من تخْبَئن شفاهكن الدافئات ونظراتكن اللواتي تفطر القلوب. عُدُن إلى مائدة عيدنا. يا ديستان املاً من البييد ، سنشرب من أجل أن يعيش حفيد ملكتنا المفدى ، ويكون مولده سعداً على فرنسا. وتصبح محظوظة على شرفه. ولا تحرموا ضيوفنا. إن كانوا لا يشربون

فليس عيباً اسقونهم، وليرقى سمعنا فرحتنا! — قال رافعاً كأسه للنساء اللواتي عاد إليهن شيء من الأمان. — عاش حفيد ملوكنا العظيم ول يكن حظه حلواً! عادت النساء ثانية إلى الصراخ والتصاigue. ورفع لاروش من درجة اللحن. وبدأت المرأة السوداء التي كانت نامت إلى جانب الكونت تقعع الطبل. والمرأة البدنية ذات الشفتين الغليظتين التي حلت محل لولا الرقيقة التي زادت رقة والتي عادت إلى الصمت، عادت إلى الطاولة ترقص رقصة لا تلائمها البتة محرّكة مؤخرتها المستديرة.

— توقفن عن هذا السلوك المشين! — لم يُطِقْ أورخان صبراً.
— هذا أنت يا أورخان؟ — سأله شارل دو فيريول كأنه يراه لأول مرة. — ظننتك فخري؛ ترجل! لست ضيفاً. أنت أشر إلى أي امرأة باستثناء سمرائي مُساعدة القلوب، نعم، نعم يا لاروش. — أوعز إلى لاروش الذي أوقف العزف، وباستثناء "لولاك"، وأعطيك إياها على إشارتك، وأُسعدك معها. أما مللت من زوجتك إلى الآن؟ آه نسيت أنكم أيها المسلمين يحق لكم أربع نساء؛ فلماذا لا يحق لي الاستمتاع بجميلاتي؟...

— ماذا يقول هذا؟ — سأله معاون الوزير العبوس ذو الوجه الطافح.
— لا تهتم بما يقول، هذا حين يشرب يفقد وعيه أحياناً — لم يكتم أورخان عيب السفير الفرنسي.

— بما أن هذا سفير الجيران وأساووا إلى تقاليدهم. ترجم له يا أورخان! الذين أقلقوا راحة الجيران وأساووا إلى تقاليدهم.

— لن تندوا حتى أنا ملكم على نسائي. ليست من صلاحياتكم. — وقف شارل دو فيريول حالاً، والتقط فوراً عصاً مما تعلق به الشموع المضيئة لأرض الدار. — إن حاولتم أن تفعلوا فأذنوا بحرب من فرنسا على تركيا. أترون مستودعات

البارود التي تفنيكم وتغينا. وفي القبو المزید. سأفجراها وأنسف الحي، وكذلك قصر سلطانكم. اخرجوا حالاً ولا تدعوا خيولكم توسيخ أرض فرنسا النظيفة! - أسرع الكونت بلاوعي إلى مستودعات البارود.

حين صرّ لاروش في إثر المسبحين تضاحك المشاهدون المتبعون باستثناء السفير الذي كان يعي شيئاً فشيئاً عاقبة ما فعله.

- ما كان عليك أن تصرّ لهم... - لام لاروش. ثم صرخ في وجه النساء اللواتي لمّهن ارتحالاً: - وأنتن تفرّقن بسرعة. وهنا ننهي احتفالنا. وسيدفع لكم ديسنان أجرة يومكـ. ارحلـ، لم يعد عندي سائس يحملكـ. سأجدركـ متى احتجت إليـكـ.

في صباح اليوم التالي قرع شخصان باب شارل دو فيريول: أحدهما مسؤول العلاقات التركية الخارجية، والثاني أورخان. - العامل في مركز تأديب الشرطة.

- ما في هذا الكتاب يا سفير فرنسا - قال الرجل الذي مد إليه الورقة - يجب تنفيذه خلال أربع وعشرين ساعة. وإن لم يخرج ضيفك لاروش وأنتاه لولو في الوقت المحدد فسيتم إخراجهما بالقوة تعرف أن لا مرد لأوامر سلطاناً الذي وضع الله بيده أرضنا وبخنا.

- إن كان السلطان أمر هكذا فضيوفي يركبون اليوم إلى بلادهم. - لم يملك السفير رغم قصر جوابه إلا أن يعرض لأورخان: - تصرفتم معنا على نحو جيد! - لم يفعل بك أحد ما لم تعمله بنفسك - ناكده أورخان بالمثل.

حين أخير الكونت ضيفه لاروش بالخير المزعج، لم تُمهله امرأة السفير السوداء ليجيب بل بادرت: - وأنا، ماذا سيكون مصيري؟

- من يسأل عنك أنت! - نهرها الكونت، ثم غيّر الموقف بسرعة: - لا أحد يحتاجك غيري. لا تقولي كلاماً فارغاً.

كان مرض الذهول يتفاقم يوماً بعد يوم مع شارل دو فيريول ولا أمل في شفائه. وأسوأ ما في الأمر أنه لم يكن عارفاً بمشكلته. أحياناً حين يتبعه متأخراً إلى عدم تطابق أقواله وأفعاله كانت الذريعة التي يجدها لنفسه هي كثرة النساء اللواتي يعاشرهن. وحين يبدأ المرض الذي لا يتعرفه في نفسه يتسلل إليه كان يبدأ يكتب إلى عائشة معاذباً. ويرسل إليها أنه يسافر في كل شهر. ولكن حين تتشتعل في إسطنبول قصص حبه المتسابقة ينسى من يكتب إليه ولماذا يكتب، فيمضي عليه الوقت إلى أن يتذكر مع التعب.

وهكذا تمضي الأيام والسنون، وتتبعها سنة وسنوات، وشارل دو فيريول يبدل نساءه: السمراء والشقراء والصفراء... ومع أن سفير فرنسا يعيش هذه الحياة فامرأته السوداء التي يتعجب منها من يراها ومن يسخر منه أكثر، والتي عملت عنده سائسة نصف سنة لم يتركها حين ملّ منها: فبعدما منحها حريتها ساعدها بالمال، وأرسلها إلى موطنها إفريقيا البعيدة.

ولكن الكتاب الذي وصله من باريس في هذا العام 1709، وفي آخر شهر منه، أجهز على رأس السفير الفرنسي الذي لم يكن من البداية ممتازاً: يجب أن يختتم مهمته في تركيا ويعود إلى فرنسا. لم يفهم الكونت في البداية مضمون الكتاب. وضحك، ونسى، وبعد شهر تقريباً أعاد قراءته ففهم أن أمره لا تسير جيداً. وما تلا بعد ثلاثة أشهر كان أسوأ: حين امتنع تماماً عن العودة إلى فرنسا جاءه إلى إسطنبول السفير المعين نفسه ومعه كتاب التكليف وعليه توقيع الملك. ولكن دون أن يمثّل لهذه الأوامر ظل يقول للسفير الجديد "أنت من كتب الكتاب الذي تحمله أيها الكاذب الفتان. سأجعل صديقي السلطان

يطرك من تركيا، وسأجعل ملكي المفدى يرميك في الباستيل، وإن تركوك تصل إلى فرنسا دون أن يكسرها رقبتك فلك أن تفرح" ويخيفه فلم يترك له الفرصة ليكلمه، ولم يتركه حتى أركبه في اليوم نفسه السفينة المتوجهة إلى مرسيليا. وهمس في أذن السفير البديل الذي ودعه بنفسه وهو يضحك:

- إن كان صحيحاً أنك سفير من أرسلوك فقل لهم إني سأغير مناصب الجميع باستثناء الملك لأنني عائد إلى باريس في غضون شهر.
- سأقول لهم، سأقول. - وودعه الآخر وهو يقول في نفسه: "أكيد أن رأس هذا الرجل لم يعد سليماً"

ومضى نصف السنة الجديدة وباريس وإستانبول تتراسلان. وحين اكتشفوا من خلال كتاباته لهم مرضه أرسلوا له حتى لا يبقى أكثر من هذا سفينة من فرنسا إلى إستانبول في الشهر الأول من عام 1711. وجاء على متن السفينة آخره أوغستين - أنطوان والسفير المعين حديثاً. وحين رفض السفير المريض المهاجر أوثقه وأعادوه.

III

"من يُعْدُ من سفِّرٍ يحملُ معه إلى أهله ولو حجراً صغيراً"

لم يجد شارل دو فيريول الوقت ليتحقق القول المأثور، فعاد كتلة خاوية.
وأسرعت عائشة إليه وهي تقول:- ماذا جرى لك يا بابا حتى يعيديك هكذا
في ذروة اليأس والضياع؟

- يا شارلوت - إليزابيت أيسبيه يا ابنتي الصغيرة. - قال شارل دو فيريول وكأن شيئاً لم يحدث له، ومن يسمعه لا يسعه إلا أن يتعجب، وأخوه الأصغر لا يعرف تفسيراً - سبب عودتي هكذا إلى ديارنا - لا تؤاخذني - أ Gund رأسه إلى كتف عائشة وانفجر باكياً.

- لماذا أنت واقف يا لاروش؟ - نهرت عائشة الطبيب. - أعط دواء يريح بابا - وفي غمرة لفتها قالت لأوغستين - أنطوان: - وأنت ألا ترى بابا كيف يعود إلى وعيه؟ - واكتشفت عائشة قسوتها في الكلام فاعتذررت: - ساحني، بابا عاد للتو من طريق طويل. يجب القيام بما يحتاجه.

- ألا ينفعك الدواء؟ ألاست أحسن يا شارل؟ - سأل أوغستين - أنطوان
أخاه بحدنر.

- أنا أحسن إذا نفذتم ما طلبت منكم شارلوت - إليزابيت أيسبيه، أيها الكونت.

- طبعي أن ينفعه الدواء وتحسن حاله - بشّت ماري - أنجيليك لابن حميتها متولسة إليه.

- شكرأ لك يا كونتيسة على شعورك. ولكن لا تقاطعي كلامي. وأرجنتال
كبير، وبون دو فيل أليس هنا؟ أيسبيه أين هي؟ وهذه اشتقت إليها. إلى

الجميع... - أجهش بالبكاء غير أنه تحدى - كلودين - ألكسندرine الكونتيسة من لا أراها معكم، ألم تصبح عجوزاً؟

- أنا لست عجوزاً فكيف هي يا كونت؟ مازحته ماري - أنجيليك ثم امتدحته: - وأنت لاتزال في منتهى الجمال!

- شكرأ يا كونتيسة، وأنت لم ينفصل شيء بل زدت جمالاً. - ثم أضاف بصوت خشن: - وأخي هذا أوغستين - أنطوان المهمل، لا أراه يليق بك... لماذا ما زلت جالساً يا كونت... جعلتمني مجذوناً ولست مجذوناً - مرة أخرى كاد الكونت يجهش بالبكاء، وبعين التوسل طاف على الجالسين، وقال لبوابه: - يا ديستان إن كان الماء جاهزاً فأنا متعب، أريد الراحة.

نظرت ماري - أنجيليك إلى كتف شارل دو فيريول الذي كانت تمتدحه رياء، ففهمت أنه صار عجوزاً حقاً. ونادت عائشة التي كانت مع لاروش وديستان: - لا شأن لك يا أيسبيه في مهام الرجال.

- لا يا ماما، لن أترك بابا وحيداً سأظل قريبة منه.

- وأنا أيضاً - قفز أرجنتال من محله واصطف إلى جانب عائشة.

حين بقي الرجل والمرأة وحدهما في الغرفة صرحت ماري - أنجيليك بما يزعجها: - كارثة كبيرة يا أوغست! كيف سنعيش الآن؟ ألن يُشفى أخوك الكبير؟ والفتاة الغريبة ألا ترى كيف تتصرف معنا؟ وكيف ستعيش بيننا؟ ولا نعرف كم بقي للكونت من أملالك، وماذا ضاع منها؟ تزداد المعيشة صعوبة كل يوم... وولداننا، وسيحين هذا دون أن نحسن، ألا يجب أن نزوجهما؟ ألا تقول شيئاً يا كونت! سأنفجر...

- وماذا أقول؟ - سأل أوغستين - أنطوان الذي كان يحترق في داخله وإن تظاهر بعدم الاهتمام وما يسمعه يجرحه.

- لا تتظاهر بأنك مجنون، ولست مجنوناً يا كونت! أريد أن أسمع أجوبة ما سمعت.
- حقاً كنت أني السكوت ولكن يا كونتيسة ألا تفهميني ولو مرة! أنت مهمومة بمصيبة أخي أكثر مني؟
- لوم أكن مهتمة أكنت سألك؟
- أعرف ما يهمك أنت!
- ما جلوسك إذا كنت تعرف؟
- ماذا تريدينني أن أفعل؟ - صرخ في وجهها وعيناه الزرقاء تحولان إلى الرمادي - ألا تسكتين مرة!
- لا تذكر ماري - أنجلييك بعد عشرين عاماً من المعاشرة أن زوجها غضب مثل هذا الغضب: عيناه تحيطان، وكفاه تعلوان كالمسمار، وقبضاته متصلبتان كالصخرة.
- نعم، هكذا يا أوغست ياروحي الوحيد. - بشّت ماري - أنجلييك في وجه زوجها ولو أنها ارتعبت - فهمت، أزعجتكم في ساعة مصيبيتك. ساحني. إن كنا لن نتسامح ولن نتحمل فما فائدة عيشنا معاً؟... كفى، لا ثفن نفسك في الحزن. اجلس هنا. ستحل الأزمة بطريقة ما، ستفكر.
- حين انتصبت أمام عيني الكونت أوغستين - أنطوان المصاعد التي سببها لشقيقه خلال الأيام التي رافقه خلالها في عودته من تركيا أكثر مما سبب له شقيقه ثم أضيف إليها صرائحه على امرأته وتوسل الأخرى إليه داهمه الحزن فوق إلى جانب النافذة. وفي اللحظة التي كانت ماري - أنجلييك تنوين فيها إسداء النصح لزوجها وصل أرجنتال محمولاً على أجنحة الفرح. ولكنه فهم أن شرّاً ما حصل بين أبيه وأمه، فتوقف فجأة وسأل:

- ماذا جرى بينكمما الآن؟
- لا شيء يا جان. — عُمُك، نتكلّم كييف نخفّ المقصبة عنه.
- إذن جتّكم بخبر جيد.
- أي خبر؟ — استدار الكوونت سريعاً ثقيلاً.
- نام الكوونت شارل دو فيريول — أسرع أرجنتال باسمه واسم أسرته ناسياً أنه عمه — نيمته أيسية على كتفها وهي تربّت عليه.
- ألم أقل لكم إن دواء لاروش سينفعه؟ — تبعت ماري-أنجيليك زوجها وابنها.
- ليس دواء لاروش ما نيمته يا ماما، بل أيسية.
- أشارت عائشة إلى من دخلوا الغرفة تريدهم ألا يوقظوه. ورأوا بأعينهم صحة ما قاله لهم أرجنتال: رأس شارل دو فيريول الثقيل على كتف عائشة دون أن تتدمر من ثقله. تمسح عليه، ولاروش وديستان جالسان، وصوفي على عتبة الباب.
- أليس الأفضل أن يتمدد على الفراش من أن يبقى هكذا جالساً؟ — كان كلام أوغستين — أنطوان موجهاً إلى الجميع. ومع ذلك رمى عائشة بنظرة رضا.
- ألن يستيقظ؟ — وسألت عائشة الدكتور لاروش.
- لن يفيق، سينام إلى المساء — تعاون أوغستين ولاروش وديستان فمددوا الكوونت على فراشه. وأصلحت عائشة وسادته دون أن تسمع لأحد أن يمسه، وكأنها عملت مرضية طوال عمرها. وقال الطبيب ملئ في الغرفة: — الآن لنترك الغرفة حتى يرتاح الكوونت.

- لا، لا. أنا سأبقى إلى جانب بابا. - خافت عائشة مما سمعت من الطبيب.
- قد يفيف في أي لحظة، لا أريد أن أتركه في غرفة فارغة. انصرف يا ديستان،
سأستدعيك عند الضرورة.

- نعم يا ديستان، ستناديك إن احتجناك - أفهم أرجنتال المنصرين أنه
سيبقى هو أيضاً في الغرفة، ولكنه توسل إلى أمه التي رمته بنظرها: - ألا يجوز
أن أغيب اليوم فقط عن المدرسة يا ماما؟

- يا جان - نظرت عائشة في وجه الصبي مستغرية ما سمعت - لا يقول من
سينهي دراسته قريباً جداً مثل هذا؛ سأنتظرك أنا.

بعدما جلست عائشة إلى جانب شارل دو فيريول قرابة الساعتين صارت
فجأة، ودون أن تدري، على شاطئ البحر حيث عاشت طفولتها. البحر
الأسود الذي يستريح تحت السماء الصافية يسحب حصاه الصغيرة إلى
الشاطئ، ثم يستعيدها. وشمس الصيف تلتهب رويداً رويداً من وراء الجبل.
وعائشة تبحث عن الأنواع المختلفة من الحصى، وتعرض ما تجده على أمها.
وما لا يعجبها تعيده إلى البحر. والصياد التركي يمشي على امتداد الشاطئ
وهو يختلس النظر إليها ويتسم. ومن بعيد، على سفح الجبل، يتسابق الصبيان
على الخيول. والعجز التي لا تقبل أن تتوجل عائشة في البحر يصل صوت
صراخها إلى الجانب القريب. وكيف سهرت الأسرة بكمالها على صحتها حين
أصيّت بالحصبة. وكيف كانت تبكي حين رجع أبوها من إحدى الغزوات
جريحاً، خائفة أن يموت، وكيف كانت جدتها تواسيها.

خرجت عائشة من ذكرياتها حين أنّ شارل دو فيريول وانقلب على جنبه.
ت فقدت الكونت، وأصلحت لحافه محاذرة أن يفيف. وحين عادت إلى جلستها
سألت نفسها وهي ترى ذكرياتها حلوة وغير حلوة: "لماذا أذكر هذه

الأحداث؟ لن أروي ذكرياتي لأحد... أُرُويها لجان؟ إنه يخاف علىّ أن أعود إلى بلادي ولذا سأتسبب في إفلاته. وسيقلقني كذلك. وَيَ أيها المحبون الصغير؛ من يسأل عنِّي في الدنيا كلها ولكنك لا تستوعب الموضوع! بعد المسكين بابا الذي مرض ليس لي غيركما. أُملي هو بون دو فيل وانت. يا إلهي أتوسل إليك أن تشفى بابا. هو وأخواي مصدر سعادتي... - لم تفهم عائشة في البداية ماذا حصل لها، ثم ارتعبت وبدأت ترسم إشارة الصليب: - افهموني واغفر لي يا إلهي الكبير. لا سند لي غيرك في القوم الغرباء الذين رميوني بينهم. ولكن حين أصبحت أذكر أحياناً إله الأديعنة الذين أنتمي إليهم، وأعرف أنه لا يجوز أن تبعد إلهين، وبيير وجانيت - نيكول أعلماني، لا تؤاخذني. يحدث لي هذا حين أجد نفسي في موقع الخوف والخطر... إن قلت لن أكون هكذا مستقبلاً فأنا كاذبة فارجعني... وأنت أقول لك الكلام نفسه يا إلهي. كان خيراً لي أن أموت على أن أقول لكمما هذا. ولكن أسلستما من يُعد المترعرع ميتاً بلا توبة؟ لا، لا، سأصبر على كل ما كلفتماني به خير من أن أفعل ببنفسي هذا." فرحت عائشة بنوم الكونت ولو أنها كانت تخاف أن يفيق إذا تحركت، وابتسمت وسألت نفسها: - كانت جدتي شاباً تقول "حين أسلمت الفارة لم يزد عدد المسلمين ولم ينقص المسيحيون"؛ أظن أن من حملهم على هذا الكلام أنا أو مثلي."

حين عادت ماري - أنجيليك وزوجها أوغستين - أنطوان إلى الغرفة الأخرى دخلا في شجار لا ينتهي حول ما جرى لهم بسبب مرض شارل دو فيريول، وما لبنا أن نصالحاً. وإن سمعتهما صعب عليك إدانة أي منهما؛ ما العمل؟ الأول أخو الكونت، والثانية كنته. كلاهما يبحث عن المستقبل الأفضل. غير أن ما يتذمرون من أحداث جعلهما صعباً التفاهم.

- يا كونتيسة، يا روحى الوحيد. — توسل أوغستين — أنطوان غير قادر على تحمل المزيد. — أفهم ما تفكرين به ولكن اسمعي أيضاً ما أقول لك. ألا ترين كيف عاد شارل إلى وعيه حالما وجد نفسه في بيته؟ لا تخافي عليه. لن يصبح عالة علينا ولو أنه صار عاجزاً عن العمل. ولا تجعلينا نخسي أملاكه أو نتكلّم في موضوعه. أنا أخوه الأصغر، وبالنسبة لك أنت وأولادك ليس غريباً. وفي حال الضرورة عنده ما يعيل به نفسه.

- نعم، صحيح يا أوغست. — وافقت ماري — أنجيليك زوجها حين سمعت بسيرة الأملالك. — أليس من المناسب أن تعرف ما يملك أخوك، من يعرف ماذا سيطرأ، وإن كنا نعرف أنه ليس محروماً منها. ولست أنت أو أنا من يحتاج إليها بل أولادنا.

- يا كونتيسة! — احتدأ أوغستين — أنطوان ثانية بسبب حديث الأملالك. — لِئَنْهُ حدثنا عند هذا الحد! حيثُ من مسافة مرهقة، دعيني أستريح. إن لم يبق لشارل أملالك فأنا مُلْكُه. إن مُتُّ مات معى، وإن سعدتُ سعد معى. — صحيح يا أوغست صحيح. أين تذهب بأخيك الأكبر؟ — نصحت ماري — أنجيليك زوجها بصوت ناعم. ولكنها في اللحظة نفسها سأله بصوت قلق: — صحيح ما تقول ولكن ما حاجتنا إلى الفتاة الغريبة المتصنعة؟ أنت من يعرف كم نفق عليها.

- أعرف — استدار أوغستين وهو يخرج من الغرفة — لا أظنه أكثر مما يُنفق عليك!

- اسمع، اسمع! — ظلت ماري — أنجيليك تكظم غيظها حتى خرج الكونت من الغرفة، ثم ودعته وهو وراء الباب. — ما ي قوله هذا الجنين الأحدب! — يقول هذا القبيح: "يساوي أن تختد وأن تكون عارياً" ثم يريد أن يرييني. ألا يكفي كم

حسبت على ترببي لأخي وأختي أيها البارد الثقيل؟ والآن تنوون أن تتركوني فريسة للبنات الغربية المتمردة التي ورطتماني، أنتما الأخوان، بتربيتها. ستنتظارن طويلاً حتى يتحقق لكم! – قرعت الجرس وسألت الخادمة: – أين الدكتور لاروش؟ استدعيه لي!

دخل لاروش الغرفة متعباً تكاد رجلاه تحملانه. وجلس راضياً على الكرسي الذي أشارت إليه بنظرة مرائية ماري - أنجليك التي تحفي غضبها. وسألت الكونتيسة من استدعته بلطف:

— تعبت يا لاروش، تعبت، أنتم على أقدامكم طوال النهار. — وبدأت حديثها وهي تحوم من بعيد حول ما تزيد: — الكونت أوغستين — أنطوان متعب جداً، اجتاز طريقاً طويلاً. الله يعلم ما في قلبه من أحزان؛ أليس أخاه؟ أنت وأنا كيف لنا أن نعرف؟ صرفته إلى غرفته ليستريح. ما أخبار الكونت؟ ومن تمّرضه كيف تدبر أمورها؟ — سألت دون أن تنطق اسم عائشة، وخصته كي تخفي الموضوع: — أقصد أيسية المسكينة، لم تعد تسأل عن الطعام أو غيره.

الكونت نائم، وأيسيه لا تفارقه، جالسة قريه تهوي له بالمرحة.
- بديهي أن تخلس إلى جانبه وتهوي له... إن لم تفعل هذا لأبيها فماذا
ستفعل؟ - سالت ماري - أنجيليك سؤال من تثق بمحديثها: - أشدق على
الكونت المسكين؛ أظنه سيشفني؟ صارحنى بحاليه الحقيقية. أنت وأنا يا
لاروش، قلت لك مرة، والآن أقوله، لا حاجة أن تكون بيننا أسرار. يتوقف
سلام يتنا على هذا. أستمع إليك يا دكتور!

— منذ زمن بعيد اختبرنا الثقة بيننا يا كونتيسة. لا نتكلّم في هذا الموضوع! هذا أولًا. وثانيًا من يعرف الوضع الحقيقي للكونت هو الله الذي فوقنا. وثالثًا...

- يا دكتور - تغيرت سحنة الكونتيسة بحيث لا تعرف أهي نفسها من كانت تترجاها وتلاطفه قبل لحظات. وقطعت كلامه بصوت غليظ: - لا أهتم بـ "أولاً" و "ثانياً" ... أجب عما أسأل دون تفصيات غير مفيدة.

- إن كنت تقولين هذا يا كونتيسة - لمح الدكتور ثانية إلى أنه غير بارع في الأمراض التي يسأل عنها ولو أنه كتم في نفسه استياءه من مقاطعة كلامه: - لن أكتمك السبب الذي عادوا لأجله بالكونت شارل دو فيريول ولو أني لست طبيه: لا أمل في شفائه إن لم تتفاقم حالته. ولا تؤاخذني سأضيف معلومة لا تعرفينها: أحياناً سيدو كمن لا يشكو من شيء. وأحياناً لن يميز ما يقول وما يفعل.

- يا لمصيبي! - تأملت ماري - أنجيليك الطبيب ساهمة، - وكيف سيقيم معنا في البيت مريض من هذا النوع؟

- إن كنا محظوظين فلن يهيج... - أضاف لاروش إلى أقواله ما هو أسوأ: - من يفقد وعيه يفعل أموراً كثيرة. سيكون مريضاً صعباً. ولن يستطيع دستان وحده العناية به. سيحتاج إلى أكثر من شخص يسيطر على عليه. وخاصة في نوباته.

- وخارج النوبات؟

- وخارجها سيقضي يومه مسمر العينين على زاوية ما. ثم إنه لا يجوز أن تنهريه أو تسخري منه. ألم ترى كيف رجع إلى وعيه حين لاطفته شارلوت - إليزابيت أيسبيه؟

-رأيت وتعجبت... - مسحت الكونتيسة عينيها كأنها ستبكي - لهذا يقولون: لا شيء يستعصي على اللطف والنعومة. كفى يا دكتور، لا تدعنا نتكلم بسوء على الكونت المسكين. سترضى بما يكتبه الله. ولكنني لا أستطيع

إلا أن أقول ما أقوله دائمًا: الرجل يجب أن يتزوج ويؤسس أسرة في الوقت المناسب. وهو ظل يؤجل إلى الغد وما بعده، ويفرط في علاقاته النسوية، حتى فاته العمر. والآن نرى عاقبته. من سيعتني به الآن؟

العينان اللتان كانت ماري - أنجيليك تعتد بهما في الأيام السالفة فقدتا التركيز لأن كل عين تنظر في عكس اتجاه الأخرى: "كيف سأقيم إلى جانب شقيق زوجي الساهي عن كل شيء أترجمه وأنا لم أعد شابة؟ وكيف سأقوم بأعباء البيت الكبير، وأطعم الناس العاطلين عن العمل فيه؟ ولا يكفي هؤلاء بل ستقع مسؤولية الفتاة الشركسيّة على عاتقي. وهل عندي زوج يعتمد عليه؟ ماذا قال لي! الفتاة الغربية التي لا يعرف أصلها "سينفق عليها أقل بقليل مما ينفق علىّ". سأرّيه نتيجة كلامه. هذه حال آل فيريول. هو سيعود إلى دوفين ويتركني أحمل عباء أخيه والبيت. إن كنتم تريدون هذا فليعطي الكونت الذي ستحمّلونني مسؤوليّته أملاكه. ولنكتب لنا حصته من البيت ومن أملاكه. هل يمكن التّبؤ بما يفعله شخص ليس سليم العقل. ثم إنني سأعيش بالإضافة إليه ثلاثة مرضى، وإن رفضت فكرث في غيره. وربما كان هذا أسهلها. إن حرضت هذا الطبيب طويلاً الرقبة على هذا الحال فلن يتّردد..."

- أريد أن أسألك يا لاروش وأنسى. - سألت ماري - أنجيليك الطبيب الذي تعتمد عليه بلهجة مرائية وكأنها امرأة أخرى غيرُ التي كانت غارقة في أفكارها المتصارعة: - أليس في باريس مصحٌ للمرضى الذين فقدوا الذاكرة؟ لا يذهب خيالُك بعيداً، لا أقصد ما في ذهنك. - أضافت بسرعة.

- إن ذهب خيالي بعيداً لم يذهب يا كونتيسة ليس في ما قلت ما يدرينك. - أجاب لاروش وهو يقول في نفسه "انظر إلى أين وصلت هذه المرأة!" أنا طبيب لا أرى في موضوعه ما يُحرجُ منه. والمصح الذي سأله عنه لا تخلو

منه بلاد ولا مدينة. وهذا المرض ليس خاصاً بعرق أو جنس بعينه. هذا يظهر مع أناس متنوعين، ويختفي معهم. ولذا ففي باريس مشفى باسم "بيسيرت"، وهناك غيره، ولكن هذا مجهر أفضل من غيره.

- هكذا؟... إن شاء الله لا نصل إلى هذا الوضع، ولكن من يعرف؟...
"ألا أعرف معدنك؟... - ابتسם لاروش في سره - وإن لم أكن أعرف فأنت استعلمت عن هذه المشافي منذ زمن طويل. وقد فكرت في حلول أخرى ولكن لم تجرئ على مصارحتي. وهذه ستكتشفين لي عنها كما فعلت اليوم. ولكن لن أسمح لشدييك الكباريين أن يخدعني دون فائدة..."

- نعم، يا ماري - أنجيليك، نعم - خاطب لاروش الآن الكونتيسة باسمها وقد استعاد جرأته. لا عيب في متابعة الموضوع الذي يشغلك إن كنت تظنين نفسك قادرة على حله. وأنا طبيب عليّ واجب لن أتوانى عنه. إن لم نفعل هذا للرجل الطيب شارل دو فيريول فبم خدمه إذن؟...

دخلت عائشة والفرح يتطاير منها، وأخبرتهم:

- يا ماما ماري - أنجيليك ويا لاروش، بابا صحا. ولبس وحده، ويريد أن يأكل.

- هكذا!... - قفزت ماري - أنجيليك من مقعدها بطريقة لا تفهم أهي من المفاجأة أم من الفرح. - الآن حالاً. أين أبوك يا أيسيل؟ ولم تعرف من أين جاءت "أبوك" على لسانها.

- بابا نزل إلى غرفة الطعام. - وأجبت دون أن تختتم بقول ماري "أبوك" كأنما اعتادت عليها: أنت اجلسني يا ماما، الدكتور لاروش هو المطلوب. ها أنا سأطعم بابا حالاً وأعود. نعم يا ماما تحدثنا وجهاً لوجه. لم يعد مريضاً.

- لم أسمع خبراً ساراً خلال العام كله - ماري - أنجيليك واقفةً وسط الغرفة لا تعرف أين تتجه - بلّغوا أوغستين أنطوان، بشّروه!

- مهلاً، مهلاً يا كونتيسة، لا ندعه يهجم على الكونت هكذا. لا يجوز أن يزدحوا عنده. لا يناسبه - أعطى الطبيب الخارج من الغرفة تعليماته إلى من وراءه.

IV

حين لا يعود الناس يأتون على ذِكرك بخير أو بشرٍ فهذا يعني أنهم نسُوك. ثبتت صحة هذا القول في الأشهر الثلاثة التي مضت على إعادة شارل دو فيريول إلى باريس. كان سكان القصر الأبيض الكبير على شارع سان - نيف - أوغستين يتأنلون لهذا ولو لم يعد هو في وضع يفهم فيه المسألة. وكانوا يُفتنون أنفسهم في المصيبة التي حلّت بهم متظاهرين بأن شيئاً لم يحدث لهم.

في خلال هذه المدة الطويلة - القصيرة زار الكونت من أصدقاءه شخصٌ واحد. - هو هنري دو فارج، الذي أقالوه من منصب قائد شرطة باريس قبل ستة أشهر بتهمة القتل. وكان يريد أن يمكّي على صدر صديقه، فينفّس عن همه بجداً. ولكن حين رأى وضع الكونت الذي كان يجهله بحث عن ذريعة ينصرف بها حتى قبل أن يستقر على كرسيه.

وأعجب شيء لم يكونوا يعرفون سببه ومن المسؤول عنه هو عدم سؤال الناس الذين عمل معهم خلال سنتين سفارته، والذين أطلعتهم ماري - أنجليك على وضعه وعاتبهم. "هل يخلون عن المريض؟ ألا يسألون عنه؟ أيلتهمون رواتبه المترامية؟ ألم يعد في البلاد قانون؟"

وكان ما تفكّر فيه عائشة وتبتهل إلى الله من أجله شيئاً آخر: "يا ربّ ارحمني وافهمني واسف لي بابا. ليست ماري - أنجليك الكوتيسية امرأة سيئة، ولكن لا تكِلني إلى من لا ينفك لسانها عن ذكر المال والنقود... وكلودين ذكية وعاقلة وتعلّمنا أمور الكتابة والمطالعة، ولكنها تغار مني لا أعرف لماذا. بون دو فيل وأرجنتال حبّبتهما وأنا أحبّهما. وجانيت - نيكول لا تُنسيني إياها وأن لم أعد في مدرستها. وأنا لا أنساها. وتحعنلي أعدّها بمثابة أمي. ولكن مع ذلك لا تسليبني بابا يا إلهي الكبير. إشفه وامنحه عمراً طويلاً طويلاً. وأنت

أيضاً يا "الله" الغالي لم يأت عليّ يوم نسيت فيه "الله" الكبير. أبتهل إليك بلغتي التي علمنيها أبي وأمي، لغة الأديغة، أن لا تركني يتيمة وحيدة، ليس لأن خُرِجْنِي من القوم الذين زرعنِي فيهم؛ وتعيدين إلى قومي، بل حتى لو بقيت هنا أن تُهْمِدَ بالي وترِجْنِي لأنِي إنسان..."

ظللت عائشة تدعو إلى الله وتنصح نفسها حتى فجرت عينيها الأحزان — الإهانات، ومخاوفُ الوحدة. ولكنها كعادتها حين تجد نفسها في وضع صعب أعادها عنادُها وقوة شخصيتها إلى الواقع فتماسكت. وفيما عائشة تراجع ابتهالها إلى الله وطريقته أرعبها الصوت الذي ارتفع في الغرفة المجاورة. لم تفهم في البداية ولكنها انتبهت إلى أنه صوت أذان فنهضت. وأنصت دون أن تستطيع تفسير ما تسمع. "لا إله إلا الله، الله أكبر" "ما هذا؟" الصوت الذي لم تسمعه في سنوات إقامتها في باريس يصدر من مكان قريب جداً. ثم عرفت صاحب الصوت — هل أنت يا بابا؟

ليس ما رأته عائشة عجياً فحسب: الكونت واقف على الكرسي الوطيء، ويداه على وجنتيه، و يؤذن متوجهاً إلى الجهات الأربع. والأدوات التي توضّأ بها: الإبريق والطست في إحدى الروايا. وغطاء الفراش الذي اخذه مع جلد الدب سجادةً صلاة على الأرض موجهاً نحو القبلة. وديستان الذي ألهف هذا الموقف في إسطنبول واقف إلى جانب الباب باسماً. ومع أنه همس لعائشة ألا تقول له شيئاً فإنما لم تستطع:

— ماذا تفعل يا بابا؟

— حين انتهى شارل دو فيريول الذي لن يسمع أي كلام الآن، تجاوز عائشة وسأل ديستان:

— هل توضّأت؟ حان وقت صلاتنا.

- نعم توضّأ. - غمز دیستان عائشة وهو يتّسم، ووقف إلى يسار الكونت.

لم تتحرك عائشة من مكانها ريثما انتهى شارل دو فيريول وديستان من صلاةهما. وعائشة التي كانت تبكي من قلبها بلا دموع كانت أفكارها وما أمام عينيها شيئاً آخر: "أحقاً وصلت حالة بابا كما تقول ماري - أنجيليك وكلودين - ألكسندرین إلى ذروتها؟ أهكذا يا دستان؟ أؤمن هذان بما يفعلن؟ بابا مريض، ومن لا يملك أمر رأسه لا يلام. وإن لم يتوفر الدواء أيجال إلى مستشفى الأمراض العقلية كما تريده الكونتيسة؟ إن نقلوا بابا إلى هناك فكيف أعيش أنا؟" ييدو أن في قلبه إلهين. ويتبعه على طريقتي الديانتين. أقبل الله هذا؟ لا أعرف... لماذا لا أعرف؟ أنا رغم أنني كاثوليكية لا أسمح لنفسي أن أنسى "الله". أغفرى لي كلامي يا مريم العذراء! أ يكون بابا يعاقب على أنه غير ديني، والآن يعاني من تبكيت الضمير؟ لهذا كانت أمي تقول إن في قلب الخير شرًا. ألا هي مسلمة يتصرف بابا هكذا؟ ربما كان هذا الأمر يعرض له في تركيا، أما هنا فلا شرّ فيه. ليس صحيحاً تجاوب دستان معه رغمًا عنه. يجب مناقشته في هذا. وليس هذا فقط بل سأوصي بابا بأن يُخفى عبادته ولا يُطلع عليها أحداً، ولا يتبع المجال لأحد أن يتكلم عليه في السر أو في العلن، وسأؤكّد عليه..."

حين أطل بون دو فيل من خلل الباب خرجت عائشة قبل أن ينطق بكلمة واحدة:

- ماذا يفعل هذان؟ سأل بون دو فيل.
- بصلبان.

- ما هذه الصلاة؟ ما سمعه بون دو فيل غيّر ساحتته. وحين نظرت عائشة التي شحّب وجهها إليه أوصته في ما شاّق فيه: - فهمت يا أيسبيه، فهمت. إن لم يتجاوز عمنا هذا الحد فنحن راضون.

- بون، كيف ستفهم الموضوع؟

- لا داعي لأن تقلقي إلى هذا الحد - ألقى بون دو فيل نظرة مطمئنة على عائشة. - أتعتقدين أن فرنسا كلها تدين بدين واحد؟ لا تسمعني أمثال الأسقف بيير. هؤلاء لا يرون إلا جلايبيهم الحمراء وقلنسواتهم الصغيرة. لا نؤيد فرنسوا فولتير أحياناً ولكن ما يقوله صحيح. العالم موزع على أربع ديانات قوية: الإسلام والمسيحية واليهودية والبوذية. وكلّ منها منقسمة في داخلها. لا تصدقيني إذا قلت لك إن في باريس جامعاً. في العام قبل الماضي حين جاء عمنا إلى باريس صحبني إلى جامع تركي.

- من أجل أن يصلّي؟

- لا، من أجل أن يكلّمهم بالتركية ويتزّه.

- غريب كيف لم تخبرني؟

- وكيف أقول لك وأنت تدرسين في سان- كول. ثم إنه ألحّ علىي ألا أخبر أحداً.

- شارلوت - إليزابيت أيسبيه أين أنت؟ - نادى شارل دو فيريول من الغرفة.

- الكونت ينتظرك... فيما بعد... - استعجل بون دو فيل لما سمع. نكمّل كلامنا لاحقاً.

شارل دو فيريول على أرض الغرفة وقد انتهى من الصلاة مرتاح القسمات، وديستان يطوي السجادتين.

- أين كنت يا أيسيه؟ ظنتك تتابعين صلاتنا. وأنتِ لو وقفت معنا وصليت
كان خيراً.

- لا يصلني الرجال والنساء معاً يا بابا. - بان على وجه عائشة التي لم تكن
تفهم ما ترى وما يقول لها أنها غير راضية.

- نعم، ما رأيته في صغرك تحتفظين به في ذاكرتك. - أجاب الكونت - هذا
حسنٌ. ولكن لأن المسيحية تقبل بهذا خلافاً للإسلام فلنذهب إلى مريم العذراء
معاً. لا عجيب في الأمر. يا أيسيه أتعجب أن أصلٍ؟ إن كنت مخلصاً
للسعد والعدالة في حياتك فلن يبقى في قلبك غيرهما. وحين تفكّر في ما
عملت طائعاً أو مكرهاً، وتقيّمه تكون حياتك خيراً. من يعرف؟ سيعذر لك
كل ما عملت.

- نعم يا بابا، صحيح. - توافق عائشة الكونت مبتسمة له حذرة - تكلمت
خيراً، وأنت من هذا الصنف من الناس.

- لا تنسني يا أيسيه أي إنسان حكيم وكبير. - ولمعت عينا شارل دو فيريول.

- أنت حكيم وطيب يا بابا. ولكن الأفضل لا تؤذن.

- ماذا يا ابنتي؟ ألا يعجبك أن أنا دي المسلمين حين يأتي وقت الأذان؟
والكاثوليك يقرعون النواقيس في كنائسهم.

- أنا أوفقك على ما يعجبني وما لا يعجبني لأنك أبي. ولكن هل تظن أن
الجميع سيرتاحون لما تفعل؟ أريد أن لا يعرفوا.

- وهل يعيش معنا في البيت أمثال هؤلاء من لا إله لهم ولا دين؟ - همس لها
الكونت، ثم بصوت عالٍ: - من هؤلاء؟

- لا تختهم هؤلاء لأن كلاماً يقول ما يريد. - أجابت عائشة بصوت ناعم دون
أن تحمل الموضوع ما لا يحمل، متظاهرة بالضحك.

- وهذا صحيح – وافقها، غير أنه لم ينس الحديث عن شخصه: - إن لم يعد ملوكنا المعظم يريديني فليعرف كل فرنسي أنه لا أحد يساويني غيره.

- نعم يا بابا، كنت اقترح أن نبتهل إلى مريم العذراء – مرة أخرى تألم قلب عائشة. ورضخت للأمر، ولاطفت محدثها.

- نعم، كنت قلت – قال شارل دو فيريول وهو يلين قلباً وجسداً. - ولكنني تعبت، أريد قليلاً من الراحة... بلغني إلهي الكبير أنه في قلبي، ولا يواخذني إن قلت أفعلت منكراً، ولا ينسني... ثم غفا على كرسيه الوثير.

وقفت عائشة أمام صورة الإله على الجدار ترسم إشارة الصليب، وتحني رأسها خشوعاً، ليلي لها ما في قلبها، وما ترجاها شارل دو فيريول من أجله: "يا إلهي، تعرف ما حدث لنا. ارحمنا، وانظر إلينا بعين العطف، واحمّنا؛ لم نؤذ أحداً. رضينا بقسمتك. والآن ندعوك ألا يصيّنا الأعظم. أنا ألي رجاء بابا الذي فقد ذاكرته فلا تحاسبه على ما يبدر منه من قول أو فعل. وأفهم من يظنون أنه مال إلى الإسلام من أجلي، من أجل أن يتقرب مني، أفهم مخطئون. ارحم أبي المسكين وأفهم من في بيته حاله، واجعلهم يحرصون عليه."

لم يكن الكونت يتحسن كما تزيد عائشة، رغم دعواها، وهو الذي أنقذها من سوق النخاسة في إسطنبول؛ من يعرف ماذا كان مصيرها لولاه. أحياناً في يوم لقاء الشهر المنصر بالقادم، أو وقت هبوب الريح، أو الرعد والبرق، إن لم تأته النوبة في مثل هذه الأوقات، كانت حالته مقبولة. ولكن حين تسوء حالته في الشهر مرتين أو ثلاثةً كان سكان القصر الأبيض الكبير في شارع نيف - سان أوغستين يقعون في ضيق شديد. وفي مثل تلك الأيام تنقسم الأسرة قسمين: طرف منحاز إلى ماري - أنجليك وكلودين - ألكسندرین، وأحياناً ينضم إليهم

لاروش خفية. والطرف الثاني عائشة وبون دو فيل وأرجنتال، وهؤلاء كان الخدم يساندونهم وإن لم يكونوا يتدخلون في أمور الأسرة.

لم يكن الطرفان يدخلان في شجارات علنية ومهاترات: أنصار ماري - أنجلييك يتهماسون في الوقت المناسب وغيره. وبون دو فيل وأرجنتال اللذان يلاحظان هذه الظاهرة يعترضان. والتي كانت وسيطاً بين الطرفين وتقيم المصالحات بينهما هي عائشة. وأكثر ما يعجبها ويريحها معاً هو أن الأخرين لا يتركانها وحيدة مع الكونت. وفي أوقات استراحة ديستان كان الأخوان يتذرعان بأي شيء ليشاركا عائشة معاً، أو كلّ بدوره، السهر على الكونت. وليس السبب أن شارل دو فيريول كان هائجاً دائماً تصعب السيطرة عليه، ولكن على سبيل الاحتياط يسهران عليه فيما يتشارغان بالحديث.

اليوم شارل دو فيريول مرتاح خلافاً للأيام الأخرى. يقرأ كتاباً في تاريخ فرنسا دون أن يعيّر اهتماماً للشباب الساهرين على راحته في الغرفة الفسيحة، ويستخلص منه أشياء يسجلها. وأحياناً يصرخ غاضباً: "ليس الأمر هكذا، يتكلمون في ما لا يعرفونه، الآن صار الجميع مؤرخين. ومن لا يجيد إنشاء جملة من كلمتين يسمى نفسه كاتباً" - يرمي بالقلم وينهض، ويتمشي على أرض الغرفة. ثم يقف فجأة عند الشباب:

- ثم ماذا تفعلان يا إخوّي الصغارين؟

- بون دو فيل يعمل - أسرعت عائشة بالجواب بدلاً من الشباب. - وأرجنتال سينتهي من الدراسة سريعاً - وأنت يا بابا كيف حالك، وماذا تقرأ؟ - كتاب سخيف مما كتبه المؤرخون. - لا تقرأ ما لا يناسبك يا بابا، لا تختتم بهم!

- وأنا أنسح نفسي بهذا؛ ولكن ألا يجب أن أعرف ماذا يجري في البلاد؟
- استأنف الكونت تمشيه على أرض الغرفة، ثم توقف كأنه تذكر أمراً ما: - وأنت ماذا تفعل يا بون دو فيل؟ أيرضى ملكتنا المعظم عما تقرأ له؟
- حين أقرأ له كتاباً أو قصيدة ينام جيداً - ابتسם بون دو فيل.
- إذن تنفذ مهمتك جيداً يا كونت! - ابتسم شارل دو فيريول واستأنف تمشيه. ثم استدار بسرعة: - لا تدع أحداً يسمع كلاماً عن الملك من هذا القبيل. وكيف تجري أمورك إذن في المسرح الملكي؟
- أعمالي هناك جيدة. نعثر على مسرحيات كوميدية، ومثلها - نظر بون دو فيل في وجه عمه مسروراً من نفسه. ونظر إلى عائشة يقول لها بعينيه إنه لا يقصد الافتخار، وسألها:
- أليس صحيحاً يا أيسبيه؟ أنت تخبين المسرح.
- صحيح يا بون. ولكن المسرح الملكي الأوبرالي يتقدم عليكم قليلاً.
- يا أيسبيه أليس نوعين مختلفين؟ - وأسع أرجنتال: - في المسرح الأوبرالي يغدون، وفي الآخر يتحاورون - وخوفاً من أن تكون عائشة استاءت صحيحة كلامه: - ولكن في كلام شارلوت - إليزابيت أيسبيه نصيباً من الصحة. مشاهد الأوبا أكثر أناقة. ويعانون فيها أغاني جميلة. والمسرح نفسه يلمع بالذهب والفضة. أما المسرح الكوميدي فيفتقر إلى الزينة، غير أنهم يضحكون الناس.
- من أين لك أنت هذه المعلومات؟ - سأله شارل دو فيريول مستغرباً ماسمع.
- يا كونت - أنت لا تعرف ولكن - لام أرجنتال عمه مستغرباً كلامه بأكثر مما استغرب الكونت كلام ابن أخيه - أنا أذهب معهما دائماً إلى المسرح.

- هكذا! - بشـ الكونت الذي يسهو أحياناً عن الحديث - أنا تأخرت عنكم كثيراً إذن. إن كنتم تقولون هذا فسأراقبكم إلى المسرح. سأرى كيف تسلـون الملك وكيف تمنعون عنه النعاس - ثم أعاد التفكير وشدد عليهم: - حتى لو لم يفهمني الملك الذي أخلص له فإياكم أن تـسمعوا أحداً شيئاً من هذا القبيل. ستشـي بـكم حاشيته، فيرمـيـكم في الباستيل.

- اطمئـن يا بـابـا من هذه النـاحـية وـثـقـ بـنا! - اختـتم عـائـشـةـ التـحـذـيرـ الذيـ كانـ بدـأـهـ الكـونـتـ،ـ وـقـالـتـ لـهـ ماـ يـسـرـهـ:ـ نـحـنـ نـجـهـزـ أـنـفـسـنـاـ لـلـذـهـابـ إـلـىـ المـسـرـحـ الأـوـبـرـالـيـ المـلـكـيـ فـإـذـاـ أـرـدـتـ صـحـبـنـاـكـ مـعـنـاـ.

- شـكـراً يا أـيـسـيـهـ،ـ اـذـهـبـواـ أـنـتـمـ،ـ أـمـاـ أـنـاـ فـلاـ أـتـحـمـلـ.ـ لـاحـقاًـ إـنـ تـحـسـنـتـ.ـ أـنـاـ أـفـهـمـ شيئاًـ مـنـ المـسـرـحـ،ـ فـيـ شـبـابـيـ،ـ فـيـ عـمـرـكـ،ـ كـنـتـ أـرـتـادـهـ كـثـيـراًـ.ـ أـمـاـ الأـوـبـرـاـ فـلاـ أـفـهـمـ مـنـهـاـ الـكـثـيرـ.ـ وـلـكـنـ أـقـولـ الـحـقـ:ـ لـوـ لـمـ أـخـتـرـ مـهـنـةـ الـدـبـلـوـمـاـسـيـ كـنـتـ أـنـوـيـ كـتـابـةـ مـسـرـحـيـةـ.ـ وـرـمـاـ كـانـ هـذـاـ أـفـضـلـ.ـ لـوـ اـتـجـهـتـ مـثـلـكـ إـلـىـ المـسـرـحـ يـاـ بـوـنـ دـوـ فـيـلـ مـاـكـانـتـ بـارـيسـ لـتـسـعـنـاـ وـخـنـ نـتـنـافـسـ.ـ صـحـيـحـ لـمـاـ أـنـتـمـ فـيـ الـبـيـتـ فـيـ هـذـاـ الـيـوـمـ الـجـمـيـلـ؟ـ اـسـتـمـتـعـوـ فـيـ الـهـوـاءـ الـطـلـقـ وـاستـرـيـحـوـ.ـ هـلـ كـفـ صـالـوـنـكـ الـأـدـبـيـ عـنـ نـشـاطـ؟ـ

- فـيـ الشـهـرـ الـمـاضـيـ النـقـيـنـاـ.ـ أـلـاـ تـتـذـكـرـ يـاـ بـابـاـ؛ـ شـارـكـنـاـ جـلـسـتـنـاـ بـعـضـ الـوقـتـ!

- وـكـيفـ لـاـ تـذـكـرـ!ـ أـلـيـسـ فـيـ الـيـوـمـ الـذـيـ رـوـتـ لـكـمـ فـيـ مـارـيـ -ـ مـادـلـينـ دـوـ لـافـيـفـيلـ إـقـامـتـهـ فـيـ إـسـبـانـيـاـ؟ـ وـتـوعـكـتـ قـلـيـلاًـ فـلـمـ أـنـصـيـتـ جـيـداًـ.ـ أـصـحـيـحـ أـنـهـ الـمـكـانـ الـذـيـ زـارـهـ الـكـونـتـ سـيـزـارـ -ـ أـلـكـسـنـدـرـ دـوـ فـوـدـيـانـ بـارـايـرـ؟ـ

- صـحـيـحـ يـاـ بـابـاـ.ـ نـظـرـتـ عـائـشـةـ إـلـىـ الـجـلوـسـ مـنـبـهـةـ إـيـاهـمـ عـلـىـ تـذـكـرـهـ اـسـمـ صـدـيقـتـهـ الـطـوـيـلـ بـدـقـةـ.ـ بـارـايـرـ تـزـوـجـتـ مـنـ الـكـونـتـ.ـ وـالـآنـ هـمـاـ فـيـ شـفـيـسـارـ فـيـ نـزـهـةـ.

- ما عمر ماري — مادلين دو لا فيفيل؟ ألم تتزوج باكراً جداً؟ — قال الكونت دون أن يوجه السؤال إلى أحد، ثم سأل عائشة ناطقاً اسمها بالكامل: — أنت يا شارلوت — إليزابيت أيسبيه أليست من عمرك؟
- الكونتيسة باراير أكبر من عائشة بثلاث سنوات — أجاب بون دو فيل بين الراغب في الإجابة وغير الراغب.
- ألم تدعكم إلى حفلة زفافها؟ — سأله شارل دو فيريول الآن متصايياً، متصنعاً المرح.
- ولماذا لا تدعونا؟ — سبق أرجنتال الجميع لأنه وجد في السؤال فرصة للشكوى: — حضرت كلودين — ألسندرین وبون دو فيل وفرنسوا فولتير وشارل مونتسكيو. أنا وعائشة فقط لم نحضر.
- في ذلك اليوم يا أرجنتال لم نستطع حضور الاحتفال ولكن — خافت عائشة أن يذكر سهواً أن السبب هو الانشغال بمرض شارل دو فيريول فأسرعت في الإجابة — ذهبتنا لتهنئتها في اليوم التالي.
- نعم، صحيح ذهبتنا — وافق أرجنتال وقد فهم سبب مقاطعة عائشة له. — وقاموا بواجب الضيافة على أكمل وجه.
- علاقتكم هكذا ممتازة ، متنوا صداقتكم. — قال الكونت للشباب، ثم أضاف لنفسه ما يريد: — لم أعرف أن ماري — مادلين دو لافيفيل الصغيرة، والآن كونتيسة باراير، صارت في هذا العمر. وعلى هذا فأنت أيضاً يا شارلوت — إليزابيت أيسبيه ستلحقين بها... أما قلت لكم أن تخرجوا في هذا اليوم الجميل. — غير الكونت سريعاً ما قاله بشأن عائشة — أنا أجدهم إن احتجت إليكم.

- لن نبتعد يا بابا، سنكون في أرض الدار — وضعت عائشة كأس الدواء أمام الكونت — اشربه بعد نصف ساعة! ولا تقرأ الكتب التي تزعجك. استرخ وإلا فرافقنا واجلس معنا في الفناء!

- وماذا أفعل بينكم؟ — سأتناول الدواء وأستريح قليلاً. — قال لهم شارل دو فيريول، ثم، دون أن يعرف السبب قال لابن أخيه الذي كان يخرج من الغرفة: — يا بون دو فييل — وليست أيسيله بحاجة — يجب أن تتعلم التركية. وفيما عائشة ورفيقها في هذا اليوم الريعي الجميل، يتحادثن ويتضاحكون في أرض الدار لم يستطع أرجنتال إلا أن يُفصح عن الحزن الذي في قلبه في الأيام الأخيرة:

- ماما وكلودين ولاروش أحياناً يتكلمون على عمي بسوء ولكن، كما تريان، ليس مريضاً ميؤوساً منه، أتعرفان ماذا قالوا؟
— ماذا؟ — انتبهت عائشة.

- سأقول لكم ما سمعت، لا ما نُقل إليّ، ولكن لا ت Shawa بي: الكونت جنّ وصار من الخطر وجوده معنا في البيت... ينونون له شيئاً، لم أفهمه.
خضت عائشة بقامة متينة متصلة بعدها كظمت غضبها:
— ابقيا جالسين، وسأعود حالاً.

في يوم من الأيام سألت صوفي عائشة وهي تضحك:

- ماذا فعلت يا أيسبيه بلا روش؟

- أتظنين يا صوفي أني داويته وهو الذي يداوينا؟ - مزحت معها وقد فهمت السؤال.

- نعم يا أيسبيه كما لم يكن في السابق، الآن يحييك، ويتودّد إليك. يريد أن يخدمك في أي شيء!

- ألم يكن سابقاً هكذا؟ نظرت عائشة إلى صوفي نظرة مرأة، ثم أجبت بصوت جاذب: - حذرته أن يكف عن نفاقه ووشایاته.

- حسناً فعلت به، وأنا كف عن التقرب إلي.

- وأنت ماذا؟

- لا أعرف - ضحكت صوفي - كان يلاحظني بحجة إن كان عندك مرض نسائي فعلي أن أفحصك، والآن استرحت.

- أتعرين ماذا كانت جدي تقول لأمثال هؤلاء؟ "من لا يكف عن الشغب يجد نفسه خارجاً" في ذلك اليوم - إن كنت تتذكرين - كان على أن أكلم لاروش بهذه الطريقة. تنهدت عائشة على وقع الذكرى.

- لا تندمي مهما قلت له، جعلته يعرف حقيقته.

- أتظنين أني كنت وحدي؟ أسرع إلى أخواي بون دو فيل وأرجنتال ولم يوفرا كلاماً يمكن أن يقال له فأفزعاه. لا يمكن منع الناس من الكلام. ولكن صار البيت أهدأ بعد هذه الحادثة.

- والكونتيسة ماري - أنجيليك كفت عن الكلام الجارح في غيابك.

- وهل لاحظتها أيضاً يا صوفي؟

- ألاحظ كل شيء إذا كان بحقيقك يا أيسية - ونظرت إلى أيسية بعودة.
- وهل أنا وحدي؟

- لا، لا. - أصلحت نفسها وقد فهمت صوفي سبب السؤال - وأبوك الكونت، وبون دو فيل وأرجنتال أيضاً. ولا أنسى جانيت - نيكول. من يعاملك معاملة حسنة أقابله بالمثل. ولكن كلودين - ألكسندرин ليست من هؤلاء.

- إذن يا صوفي قلت لي كل ما تريدين؟
- كنت قللت لك مرة يا أيسية، واليوم أعيد: لا أكتملك ما في قلبي لأنه لا سند لي في هذا العالم غيرك.

- شكرأ يا صوفي - تألم قلب عائشة - وأنا لدى الشعور نفسه نحوك. ماذا جرى لنا اليوم، نحن الاثنين، ننگد على أنفسنا ونبالغ في الخدر؟ لا يجوز أن نستسلم لليلأس! يقال عندنا في بلاد الشركس "إذا فقد الفارس الأمل كف الفرس عن الجري". لا يجوز أن ننسى هذه الكلمة وإن لم نركب فرساً، ما أخبار بابا يا ثري؟ - نظرت عائشة من زجاج النافذة. - يتحدث مع لاروش وديستان. وهاهو أرجنتال قادم، ما أشد ما كبر هذا العام! وهو سينتهي من الدراسة خلال شهر. يا أرجنتال! - وأشارت له فرحة به - سأقول لك يا صوفي خبراً جيداً يتعلق بأرجنتال. أتعرفين أين سيدهب متى أكفي دراسته؟
- أين؟ - نظرت صوفي إلى عائشة نظرة قلقة، ثم سألت عما تتوجس منه: -

أسيرسلونه إلى والده الكونت في دوفين؟
- لا، لو لم ييق غيري لن أسمح لهم بهذا - لم تقبل عائشة ما سمعت بل استنكرته - ألا يكفي ما أمضى والده أوغستين - أنطوان فيها؟ رشحوا أرجنتال للعمل في البرلان بسبب تفوقه الدراسي.

- هذا خبر سار يا أيسية، أهنتك. سأله عن دوفين لأنك كان وصل إلى سمعي شيء آخر. ولكن اغفرني لي إن كنت أقول ما لا يجوز دون أن أكون واثية.

- يا صوفي يا روحي - ضحكت عائشة - لا تحاسبي نفسك إلى هذا الحد، سأقول لك ما لا تستطعين النطق به: هاتان الأختان اللتان نعرفهما كانتا تريدين أن تبعدا عني أحد الأخوين اللذين يحرسانني. ولكن بون دو فيل وأرجنتال قالا لأمهما: إن فعلتما هذا فسنأخذها معنا!

- ألم يكن من الأفضل لو حدث هذا يا أيسية؟ - تدخلت صوفي في الأزمة التي تعاني منها أيسية.

- لا، لا. - تلهفت عائشة: أتريدين أن ترك هذا البائس بابا للأختين؟ أفضل الموت قبل أن يحدث هذا.

نظرت صوفي إلى عائشة بمحنة وأشفقت عليها. وسبب نظرة المودة هذه هو أن عائشة من يوم ما عرفتها تعيش في أسرتها وليس في قلبها إلا كل خير. ولا تذكر صوفي أن عائشة نطق بكلمة سوء في حق ماري - أنجيليك وكلودين - أنطوان مهما عاملتها بجفاء أو أساءتا إليها. ولن تغفر لك أي كلمة مسيئة إلى آل فيريول. والكلام الصريح الذي جاها به لاروش ثُل عليه ولو تجاهله. فهو بُعد مسقط رأسها، أم كما يقال "القفص الذهبي يبدو للطائر سجناً" سبب إشراق صوفي عليها؟ وعائشة التي تقول هذا ما هو وضعها؟ صوفي ولو لم يق لها أهل في بلادها، ولو أنها لا تعتبره قفصاً من ذهب لها، تعيش فيها حياتها وتعمل في هذا القفص وتعيل نفسها. إنه دمها، وصوتها، وفرحها، وألم قلبها، ولغتها، ومرثيتها. ومهما شقيت فيه فأرضه سماوتها. وأينما توجهت فلن يناديها أحد بالغربيّة.

الحزن والفرح يدعوان إلى الصراخ. ولكنك تتقبل كلاً منها بصوت مختلف. ربما كانت هذه هي الأسباب التي قربت عائشة صوفى كلاً إلى الأخرى قلباً وروحًا. إذن ما الذي يجمع شارل دو فيريول الكونت وعائشة، وبون دو فيل وأرجنتال وعائشة، وماري-أنجيليك وكلودين -ألكسندرin وعائشة، وجانيت - نيكول وعائشة، والدكتور لاروش وعائشة، وفرانسوا فولتير وعائشة، وعائشة والآخرين؟ هذه علاقات تربطها فجأة الحياة وتركتها بطريقة منسجمة وغير منسجمة.

"من حسن حظي أن الله ساق لي، على غرار أخوي، صوفى. هنأت عائشة نفسها. - بون دو فيل وأرجنتال رجلان، وما لا أستطيع مصارحتهما به أستطيع مع صوفى. وحين أقع في مأزق فهي الوحيدة التي أحمل إليها أسئلتي. "إن لم تجد من تروي له حزنك فضع الوسادة أمامك واروه لها" كانت جدي تقول هذا، وصوفى إلى بثابة تلك الوسادة. ولكن إذا سببت أحزاني السوداد لقلب صوفى كما تسوّد الوسادة غير قادر على تحمل ما يقال لها؟ وإن لم أحرض عليها كما تحرض على سيفحدث هذا لكتلينا. - تذكرت دون أن تعرف السبب كيف جاءها فخرى وأورخان في تلك السنة. - غضبى عليهم وأسئلت إلهمما. ولكن لو أطعهما وعدت معهما إلى إسطانبول فلربما كان في عودتى فائدة لصحة بابا. ولكن من كان يعرف أن ما حدث سيفحدث؟ كل الذنب ذنب لاروش الذي كتم كل هذه المعلومات. أيعقل أن ماري-أنجيليك وكلودين -ألكسندرin كانتا جاهلتين بمرض بابا؟ حتى لو كانت ماري -أنجيليك جاهلة فلا أصدق أن وكلودين كانت تجهل؟ كما كانتا تبادلنا النصائح سألت عائشة مرة أخرى صوفى، وهي تدرج نفسها:

- كفى يا صوفي لماذا نجلس كأننا في مأتم من اختراع خيالنا. لا أتمى هذا حتى
ملن لا يودنا. - نحضت عائشة ونظرت من النافذة إلى من كانت تشفق عليه.
- بابا مرتاح في جلسته. وأرجنتال إلى جانبه يروي له شيئاً. لو لم يكن مرتاحاً
لما تركه لاروش وديستان. أتعرفين ما الذي يُفرحني في بابا؟ يواتيه الجلوس في
الفناء أكثر من الجلوس في العرفة.

- ربما لأنه يستنشق هواء نقياً!

- ليس وحده السبب؛ كان قال لي قبل أيام "حين أرى قصر جدي الأبيض
أنسى أحزاني". يخيّل إلى أن هذا سيكون دواء لبابا، وسيشفى به.
- إن شاء الله - رسمت صوفي إشارة الصليب أمام صورة الإله، محيبة إياه.
وبعد أن دعت عائشة أيضاً إلى الله قالت:

- وسأقول لك يا صوفي السبب في أن عندي مثل هذا الإيمان. ليس لأنعد
إلى بلادنا البعيدة شركيسيا. أتصور أني سأرتاح هنا في فرنسا لو أقيمت نظرة
على مسقط رأسي... - وكى تتجنب الانفعال غيّرت عائشة الموضوع: -
حسناً وأنت عودي إلى أشغالك، وأنا إلى بابا. وسأطلب من أرجنتال أن يروي
لي مسرحية للافونتين شهدتها أمس.

- أليست نفسها التي اشتغلتما فيها أنت وبون دو فيل، كنت روتها لي.

- نعم، حين شاهدناها كان معنا فرنسوا فولتير. وكانت آراؤنا نحن الثلاثة
متباينة. والآن أريد رأي أرجنتال. - أجبت عائشة على صوفي وقد فهمت
سبب نظرها القلقة: - لا، لا. لن نتناقش أمام بابا.

تصرفت عائشة أمام بابا كما وعدت. وقبل أن تسأل أرجنتال جست يد شارل
دو فيريول فاطمانت عليه. وسألته إن كانت شمس الظهيرة تؤذيه. وزررت له
قبيصه.

- أنا اليوم في وضع جيد - أجابها الكونت - والخبر السار الذي حمله إلى أرجنتال رفع من معنوياتي. اليوم أخبروه بأنه أحد الثلاثة المتفوقين الذين سينهون دراستهم في المعهد الملكي بتقدير جيد جداً. وأخبروه أيضاً بأنهم سيرسلونه للعمل في البرلمان. أهنتك يا أرجنتال، أهنتك؛ بيضت وجه آل فيريول. وأنا يا أيسية تخرجت في المعهد نفسه، في عهد مضى، بالتقدير نفسه. وعملت في البرلمان نفسه. وعملت سفيراً لفرنسا سنوات طويلة. وزرت بلدانًا كثيرة. ورفعت سمعة ملكي وبلادي وعرقي. والآن ترون ما حصل لي. لم أعد أتفع لشيء.

- ولماذا لا تتفع يا كونت؟ - قال أرجنتال مشدداً على لقب "الكونت" وابتسم لعنه. بين الخمسين طالباً الذين تخرجوا في معهدنا برتبة جيد جداً ثلاثة من آل فيريول. - أنت وبون دو فييل وأنا. وأنت واحد من ذكرنا أسماءهم وامتدحوهم.

- هكذا؟ - عادت الحياة إلى عيني الكونت اللتين كانتا تنطفئان - هذا وضعنا نحن آل فيريول! - غير أن آل الكونت دو تانسين لا يريدون أن يفهموا هذا... هذه خالتك كلودين - ألكسندرин كاتبة، يا أرجنتال المغرور... - يا بابا - قطعت عائشة حديث الكونت. - الأفضل من هذا هو أن يروي لك أرجنتال الكوميديا التي شاهدها على المسرح.

- وهل في باريس مثل هذا المسرح؟! - سأله شارل دو فيريول ناسياً المسرح الذي كان يرتاده منذ شبابه. ثم أسرع حين تذكر: - أهو المسرح الذي تُعرض فيه أعمال موليير، والذي يمثل فيه الفنان بارون؟ ما اسم بارون؛ ذكروني! - اسمه ميشيل - لم يدع أرجنتال عمه ينتظر. - نعم، ميشيل. ميشيل بارون، كان فناناً جيداً.

- ولا يزال ميشيل بارون حياً يا بابا. ولا يزال يعمل والناس يحبونه – أخبرت عائشة بسيرة الفنان المُسن ملاطفة الكونت.
- صحيح؟ – تعجب شارل دو فيريول مما سمع. ثم أردد بعد قليل: – يجب أن يعيش الناس الطيبون طويلاً وهم يفيدون البلاد. وأنا منهم. أفهمت؟... في المسرح تعمل "أدريين لا كوفير" التي يشتتها الرجال.
- هذه أدريين لا كوفير التي تؤدي دور "أرتانا" في مسرحية "فلورنتينا".
- أأعجبتك المسرحية يا جان؟ – سالت عائشة.
- أيمكن ألا تعجبك المسرحية التي تمثل فيها أدريين لا كوفير؟ – قال شارل دو فيريول وكأنه شاهد المسرحية.
- صحيح يا كونت، صحيح. وافق أرجنتال عمه. – لو لا أن أدريين لو كوفير وميشيل بارون عملاً في المسرحية لما كان فيها ما يستحق الذكر. وهذا اللذان رفعا من مضمون النص. ودفعا الملل عن الحضور.
- وأنا كان رأيي هكذا. إذن أنت وأنا يا أرجنتال تتطابق أفكارنا. – فرحت عائشة لما سمعت غير أنه كان لها رأي آخر: – ولكن بون دو فيل وفولتير بيريان النص خالياً من التوافص، وأضحك المشاهدين وأسعدتهم.
- لا أعرف، لم أر فيها شيئاً من هذا – ضمّ أرجنتال كتفيه الضيقتين – مُضحكه ولكنها تخلو مما يحثك على التفكير.
- ليس كل ما يُضحك جيداً يا جان؛ أليس كذلك؟ لو شاهد مولير المسرحية لحكم عليها بالفراخ وضحك. ولغضب حزناً على الممثلة الكبيرة أدريين لو كوفير.
- من تغتابون؟ أدريين لو كوفير؟ ساهم في الحديث من كان جالساً مطرقاً شارل دو فيريول. ودون انتظار الجواب جزم: – لا تغتابوا أدريين المرأة الجميلة.

أقول هذا ولكنها يا شارلوت — إليزابيت أيسبيه ليست أجمل منك! ابتسم وأضاف ما يريد ولم يتوقف عند هذا الحد. — أتعرفون أنها كانت عندي الليلة؟ ليست هذه القادمة ماري — أنجلييك الكونتيستة. أتكلم على أدرلين الجميلة. فهمت عائشة أنها لا يجوز أن تُبقي شارل دو فيريول في الفناء أكثر من هذا. وفي اللحظة التي كانت ستخبره وصلت ماري — أنجلييك يسبقها العتاب:

— لماذا تحرقون أنفسكم بالشمس في أرض الدار؟
— لسنا في أرض الدار — أجاب الكونت كنته — نحن في المسرح الكوميدي الملكي. أتعرفين الممثلة الجميلة التي هناك؟
— أدرلين لوكوفير من لا يعرفها يا كونت؟ — سالت ماري — أنجلييك ابن حميتها مبتسمة، وأجابت بين المناكفة والسخرية: — وفي المسرح أيضاً الممثل المحبوب ميشيل بارون لولا أنه هرم. وحين رأت الكونتيستة أن كلامها لا يُعجب عائشة غيرت موقفها بسرعة: — ليست هذه مشكلة. حان وقت الغداء. تعال يا أرجنتال، أنت، قيل لي، خرجت من البيت صباحاً دون فطور.
— أحان وقت الغداء؟ سأله شارل دو فيريول وكأنه غيرُ من كان قبل قليل في نوبة، وسبق غيره.

وهمس أرجنتال لعائشة بما لم يكن يجرؤ على قوله:
— سأقول لك إن أردت يا أيسبيه لماذا تعجب هذه المسرحية بون دو فيل؟ لأنه ساعد المؤلف قليلاً. وفولتير يعرف هذا فيوافقه، ولكن لا أظن أنها أعجبت أياً منهما.

— أنا لا أعرف هذا... — أسرعت عائشة وراء الكونت ثم أمسكت ذراعه. وحين رأت ماري — أنجلييك ما فعلت عائشة لامت ابنها:

- انظر يا جان مقدار حب أيسيه لأبيها. وأنت لا أتذكر أنك أمسكتني يوماً هكذا.

- يا ماما، هل أنا فتاة؟؟!

- نعم يا جان لا تحبني. لا يجب أن تكون فتاة لتحب أمك. ليت أحد ولدي كان فتاة!

VI

الحياة كتعاقب الليل والنهار. من الصعب تمييز عنلها من سرها. وإنسانها ليس ساذجاً تماماً: يغضب وإن كان يضحك، وييكي وإن كان يفرح؛ حسناته كثيرة، وسيئاته ليست قليلة. يعيش من رجولته، ويهلك من جبنته. أحدهم حسود، والآخر طموح، والثالث زير نساء، والرابع وحيد.

كل إنسان يمكن أن يُتَّهم بما فيه وما ليس فيه. ولكن هل يستحق أم لا؟ وبين الناس من لا أهمية له بين أبناء البشر طوال عمره. وحين يتوفى يُتَّهَمُون له ضفائر وإن كان في حياته أصلع. ويفتحون له عينيه وإن كان أعمى. وما كان أحلى رقصه وإن كان أعرج. وما كان أمهره في تقطيع الحطب وإن كان مقطوع اليد. ويتناسون فضائله، ويسترجعون مكان عيوبه فضائل. هذا يحدث كثيراً. وهؤلاء يجعلونك جباناً وإن كنت شجاعاً. يجعلونك مذنباً وإن كنت طاهراً. ويرمونك بالسوء وإن كنت صالحاً.

وأين كان يخرج شارل دو فيريول خلال حياته من هذه القواعد، وأين كان سيدذهب؟ يعيش بفضائله وعيوبه في البيئة التي أصيب فيها بالمرض، ويعرف ماذا يقول إن كان رأسه سليماً أم لم يكن. وحين يأتون على ذكره في حضوره يتكلمون على ما كان حسناً وجبيلاً، ويتجاهلون مأساته اليوم كأنها لم تكن. ولكن ما إن يدبر ظهره حتى يرموه بكل عيب متناسين أنه مريض. ثم إن هذا يحدث في قصره الأبيض لا في مكان آخر.

كانت عائشة تزداد اقتناعاً يوماً بعد يوم أن مرض الكونت عُضال، وكان واضحاً عدم جدوية لاروش. ثم أهي أدوية مجدهية في الأصل؟ "أيكون يعطيه أدوية تدمر ما تبقى من وعيه وذاكرته؟" - جفلت عائشة من الفكرة التي راودتها. ثم لامت نفسها وهي تتصح نفسها شيئاً فشيئاً. - لن يفعل

لاروش مثل هذا بعدها كلامته. إن لم يحسب حسابي فسيخاف من أخوي. ثم إن بابا ليس فاقد الذاكرة تماماً فيفعل به ما يشاء. وليس هذا سراً على ماري-أنجيليك ولا على كلودين-ألكسندرine، ولا على لاروش. يم يمكنني أن أخدم بابا؟ لا يكفي معاملتي له بالحسنى. وأكثر ما يؤلمني هو أن أخيه الصغير أوغستين - أنطوان ليس مهتماً به بما يكفي. أ يكون السبب هو كثرة زيارة ماري - أنجيليك له إلى دوفيني؟ حدت هكذا من زياراته لأخيه وسؤاله عنه. صحيح أنه يكتب إلى أخيه مرة أو اثنتين ولكن حين أقرؤها عليه يصرف سمعه عنها قائلاً "لا يسأل عنني بالورق!" بابا لا يطلب شيئاً منا، ولكن لا يجب أن يعرض على طبيب مختص؟ كانت جانيت - نيكول وعدتني أن تساعدني في هذا الخصوص بأن تتوسل إلى الملك أن يرسل أحد أطبائه. شكرأ لها، هي الوحيدة التي أجدها إلى جانبي في أوقات الشدة. وأنا على بعض المسؤولية في تأخر شفاء بابا، وفي هذا الشأن فالكاردينال إركيول - أندريه دو فليري يعرفني من يوم ما وقعت بين آل فيريول ويمكنه مساعدتي. كان عليّ الاتصال به. كنت قابلته قبل وقت ليس بعيداً حين توفي الملك لودفيغ الرابع عشر، ويوم جنازته، وسأل عن حال بابا..."

يبدو أن كلامهم "الروح والقلب يعرف أحدهما الآخر" صحيح. قطع صوت العربية التي وقفت أمام قصر آل فيريول أفكار عائشة، وجعلها تراقب المشهد. وأيقظت شارل دو فيريول الذي كان يتشمس في أرض الدار مع هواء الخريف النقي. وقال الكونت وكأنه كان ينتظر من سيخرج من العربية:
- أظن ضيفاً كبيراً جاءنا.

دخل إركيول أندريه دو فليري الذي ارتقى منذ عهد طويل إلى رتبة الكاردينال، ومعه رجل نحيل. خفت عائشة لاستقبال الضيوف غير المنتظرين. وحين اقترب

الكاردينال حيّا الكونت بإشارة، وقبل يده، ثم عانقه. وحين بكى الكونت وهو يعبر عن أسفه لعدم حضور جنازة الملك، وعدم إلقاء النظرة الأخيرة عليه، نصحه الكاردينال:

- نعم يا كونت، ما العمل؟ لسنا أحراراً في شيء. سنصلي إلى الله أن يجد ملكتنا المفدى راحته حيث رحل، كفى بكاء؛ احرص على صحتك - ضمّ الكاردينال إليه الكونت ثانية - لنقل ما يقال في مثل هذه المناسبات "مات الملك، عاش الملك!"

- نعم أيها الكاردينال، نعم يا إركيول - أندريه، مات الملك، توفي الملك - قال شارل دو فيريول وأعقب: - لو لا أني كنت غائباً سفيراً له في تركيا لكيت أبنت ملكي المفدى معكم... ولكن، وأنتم تعلمون، مهمات البلاد فوق الجميع. هكذا تجري الأمور. - تبادل الضيوف النظارات وهم يفهمون حقيقة كلام الكونت، ولكنهم عادوا إلى وعيهم مع ما أضافه لهم: - زميلك الضيف هذا ليس من معارفي.

- يا كونت هذا هو سيلفا جان - باتيست، طبيب الأسرة الملكية. كنت صاحبته إلى ابني الأكبر لما توغلت. وما كنا في طريقنا قريباً عرّجت عليكم للاطمئنان على صحتك. - قال مخفياً رجاء جانيت - نيكول، ثم أنهى دون إعداد مسبق لكلامه: - إن كان يزعجك شيء يا كونت فسنجو الطبيب أن يرى حالتك، وأنا فحصّني عندنا...

- يا إركيول - أندريه، يا صديقي - كان شارل دو فيريول مرتاحاً لما سمع - وهناك أحد حال من مرض واحد على الأقل؟ انظر إلى الشابين الآتين مع كنتي ماري - أنجلييك، ولداتها، يشكوان قبل أن يولدا من الصداع. وشارلوت

— إليزابيت أيسبيه يصعد الدم إلى رأسها في غمرة اعتنائها بي؛ أليس كذلك يا أيسبيه؟

— لا تقل هذا يا بابا. لا أشكو من شيء بسببك. إذا كان الكاردينال إركيول

— أندريه عرض نفسه على الطبيب الماهر فاستشره أنت أيضاً!

— أيسبيه! — استغرب شارل دو فيورييل ما سمع — من أين تعرفين إن كان الدكتور سيلفا جان — باتيست ماهر؟

— يا بابا؟ — نظرت عائشة في وجه الكونت عابسة دون خصم.

— نعم، نعم — غير الكونت موقفه غير متبع لما سأله عنه — لا علاقة للسن بإتقان المهنة. من كنت أعرفه طيباً للملك هو شارل بيير. وهو الماهر في الأمراض النسائية. ما أخباره؟ بلغوه سلامي سواء كان يتذكرني أم لا. هذا الرجل — قال شارل دو فيوريول ناسياً حضور عائشة — نفع كثيراً في بعض الأوقات نسائي الجميلات. وهو بالمقابل لم يكن يعفّ عنهن، أما الآن فلا أعرف.

— بابا — رفعت عائشة صوتها ثانية في وجه الكونت.

— هذه أنت يا أيسبيه! اغفري لي، اغفري... ماذا ننتظر؟ إن كنت تريدين أن تعرف وضعي فتعال إلى الغرفة... هذه الكونتيسة القادمة ستتصدّع رؤوسنا. لن تدعنا نتكلّم. لا تؤاخذني أيها الكاردينال؛ سأعود حالاً. تعالى يا أيسبيه أنت وحدك أهلي ودوائي.

كان أرجنتال ترك أقرانه ومضى مع عائشة ولكن عائشة ترجمته ألا يفعل فرجع على غير هواه. وسمع أرجنتال ما قاله الكاردينال ماري — أنجلييك بعد تبادل التحية:

- لم أكن أعرف أيتها الكونتيسة أن الكونت في هذه الحالة، هذا مؤسف.
ولولا أن جانيت - نيكول ترجمتي من أجل الدكتور لما عرفت حاله.
- وما شأن جانيت - نيكول بنا؟... مع أن ماري- أنجيليك سالت بطريقة يظهر منها عدم رضاها عما سمعت فإنها، على عادتها، دائمًا كظمت غضبها، ولكنها لم تملك إلا أن تضيف: - نعم جانيت - نيكول تطمع في الكونت لقرابة بينهما فتقلق لأجله.
- يا ماما، - لم يقبل بون دوفيل. - لا يُقال مثل هذا في الكونت عمنا، وفي جانيت - نيكول معلمة شارلوت - إليزابيت.
حتى لو كانت الكونتيسة ماري - أنجيليك والكونت إركيول - أندرية دو فليري أقرباء فقد فرح الكاردينال لما سمع وضحك في سره. وحدد سبب تصرفه:
- ليست جانيت - نيكول وحدها يا كونتيسة. فمن يهتم بأمر شارل دو فيريول هو أخوك الأصغر الذي يمت بقرابة إلى من ذكرت اسمها معلمة الدين الجميلة. جاءني الاثنين معاً وطلبوا الطبيب الذي صحّبته إليكم.
- هل فهمت يا ماما؟ - الآن لمعت عيناً أرجنتال.
- وكيف لا أفهم إذا كانوا يُحسّنون إلى عمك؟ - وجدت ماري- أنجيليك ما ترد به على تلميح ابنها. - وأقول شكرًا للكاردينال إركيول - أندرية الذي هو قريبينا من جهتها ومن جهة غيرين دو تانسين الكونت. ولكنني يا ولدي العزيزين أرجوكم باسمي وباسم إركيول - أندرية أن تتركونا قليلاً حتى أتكلم مع الكاردينال.

- هذان _ ليس عندي سرّ يا ماري _ أنجليليك _ نظر إركيول _ أندريه إلى الولدين بمودة _ لم يعودا ولدين، يفهمان ما يقال لهم وما يقولان. ولكن إن أنت أردت هذا فلا بأس أن يتركانا.

حين امتنل بون دو فيل وأرجنتال لرغبة كاردينال فرنسا وجلسا على مقاعد في الاستراحة، تنهدت ماري _ أنجليليك وقالت:

- كما ترى يا كاردينال، حتى من ولدناهم يحاولون تربيتنا.

- بالنسبة لأولاد أختي أيتها الكونتيسة لا أتفهم موقفك. هما مهذبان وتربيتهم صالحة و المتعلمان. ويعملان لأجل فرنسا كعدهما. ما يشغل بالي شيء آخر. الشباب الذين نسوا في السنوات الأخيرة الكنيسة. وما أطلقه فوسكا دو غاما وكوبرينيك من أفكار معادية للدين تتمدد. وإن أردت الصراحة أيتها الكونتيسة مما جئت لأجله إليكم مسألة إلهية، لا مسألتي. على المرء الخضوع لما اختاره الله له. ولكن بما أن له علماً بعملي فقد جئت بالطبيب إلى الكونت الذي هو الآن في وضع صعب.

- أيمكن للكونت شارل دو فيريول أن يشفى؟ - سالت ماري _ أنجليليك وإن كان في قلبها شيء آخر، متظاهرة بالاهتمام بابن حبيها، ثم مدحته: - أقول هذا ليس لأنه ابن حمي أو لأنه أخو زوجي، لقد عمل من أجل فرنسا دون كلل أو ملل. وخرج من عمله بعاهة. والملك الذي وضعنا أملنا فيه فارق الحياة وهو يعِدنا. ولا يكفي أنه مريض وعالة على غيره بل بیننا كما ترى فتاة بحاجة إلى إعالة. ولو دفيع الخامس عشر الذي تبؤا الملك صبي في الخامسة. ومن سيتحمل مسؤولياته الدوق فيليب أورليان الوصي على الملك هل سيفهمننا؟ وهل سيجib على طلبنا؟ والكونت المسكين هل سيُشفى ويعود سندًا لنا؟

- شفاؤه وعده من عند الله يا كونتيسة — قطع الكاردينال آخر سؤال ماري — أنجيليك. — ولكن ستصلي لأجله إن كانت عنده ذنب ليكون رحيمًا به. وفي مسألة التعويض لا داعي لل Yas. وهذه مسألة الله، وعمن للوصي أن يتفهمنا ويساعدنا. وليس جاهلاً بخدمات الكونت لفرنسا. وأنا أتكلف بهذا الجانب على علم من الله.

- شكرًا إركيول — قبّلت ماري — أنجيليك يد الكاردينال. حين أعطت عائشة وسليفا جان — باتيست طبيب الملك دواء لشارل دو فيريول، وأضجعوه ليس تاريخ كان حديثهما في شؤون المرض وشفائه، لا ما كانت الكونتيسة تتولّ من أجله.

- قبل أن نتكلّم، وليس بیننا إلا الصدق، شكرًا لكم وللكاردينال وجانيت — نيكول على تلبية طلبنا — نظرت عائشة في وجه الطبيب نظرة أسى وأمل — أقبل ما تخبرني به عن مرض بابا إن كان خيراً أم شرًا. ولكن عندي رجاء: الخبر السيء لا يجوز أن يعرفه غيرنا نحن الاثنين، حتى الكاردينال وجانيت — نيكول اللذان شكرتهما. ليس لأنني لا أثق بك وبهما، سأخبرهما إن كانت هناك حاجة.

- فهمت يا آنسة. — جزم الطبيب باختصار، وأضاف وهو يبتسم لها: — أنا سمعت ذكرك يا شارلوت — إليزابيت أيسية كثيراً في القصر وفي أسرة الملك. ولكنني لم أعرف أنك آنسة جميلة وصلبة كما أرى.

- لا أعرف إن كنت جميلة — ابتسمت وهي تزداد حلاوة، انتهت وانشراحها ينطفئ: — ما سميتها بالصلابة زرعته في الحياة. هذه ليست مشكلة. قل لي حال بابا على حقيقتها يا دكتور!

- دون أن ترجوني يا آنسة تعرفين أن أساسي مهنتي هما الصدق وحفظ السرّ.
- بدأ الطبيب بصوت قاسٍ ثم أفهمَ عائشة بكلمات ألطف وأحفل بالأمل: -
 - شارل دو فيريول مريض، ولكن لا خطورة إلى الآن.
 - ماذا يعني "إلى الآن" يا دكتور؟
- مرض الكونت صعب الشفاء، فيما هو يتكلم بهدوء يبدأ بالهديان. وكلما تقدم في العمر ستتفاقم حاله فاقداً وعيه شيئاً فشيئاً. ولكن الكونت لن يكون كالمرضى الذين يخرجون عن أطوارهم. ستظل نوباته تتحسر عنه وسيعيش دون أن يحدث بينكم فوضى كبيرة. وسأقول لك ما أعنيه بـ "كثيراً": يمكنه أن يتكلم أو يفعل أموراً مزعجة في نوباته فاحرصوا عليه في مثل تلك الأيام. لا تدعوه يخرج من البيت، ولا إلى الشارع.
- أرضى بأي شيء يقوله أو يفعله بابا في البيت على ألا يدخلوه المشفى. -
 - قالت عائشة ما تقبل به ولكن بعدها كتمت عواطفها.
- ليس الكونت من نوع المرضى الذين يعني بهم في تلك المشافي. وسألته ماري - أنجليك الكونتيسة وإركيول - أندريله فليري و الدوق الوصي أورليان بهذه المعلومات. هل بقي شيء تريدين معرفته عن وضع الكونت يا أيسية؟ -
 - مدّت عائشة يدها إلى حافظة نقودها فلم يقبل الطبيب. - لا حاجة يا آنسة؛ لا أحجب شيئاً أستطيعه عن الكونت الذي ضحى بصحته من أجل فرنسا.
 - شكرأً يا دكتور على سعة فهمك.
- لست من قال هذا يا آنسة بل هو الدق الوصي أورليان. حملني سلامه ذاكراً إياك بالخير.
- شكرأً له، من أين يعرفي الدوق أورليان؟ لست من معارفه. - تعجبت عائشة مما سمعت.

- قال إنه رأك في المسرح.
- هذا محتمل. أنا أحب المسرح. - أحببت عائشة بلا اهتمام، وصارحت الطبيب بما كانت تخفيه: - والآن رجاء آخر: بعد أن تختبر أدوية لاروش ماذا ستكون نهايتها؟ - إن كانت صالحة أم فاسدة فلن يعرف أحد سوانا.
- فتح بون دو فيل الباب دون أن يدع المجال لسيلفا جان - باتيست، طبيب الملك:
- أيسيه لماذا تأخرت؟ الكاردينال يقول...
- يا بون دو فيل - أشارت عائشة بيدها: لا تصرخ! بابا نائم... يا دكتور أنتما اذهبوا إلى الكاردينال، وأنا سأطلّ على بابا ثم أحلق بكم.
- كانت ماري - أنجلييك الكونتيسة أول من سالت الطبيب:
- ما حال مريضنا المسكين يا دكتور؟ فحصته طويلاً، أهناك ما يدعو للقلق. لو كنت أعرف أنكم قادمون ما كنت تركت طبيب أسرتنا يغادرنا. وأين أيسيه؟
- نعم، أين أيسيه؟ - وافق أرجنتال الآن أمه.
- "أين هي، أين هي" غمم بون دو فيل قبل أن يقلده أخوه الصغير. - ها هي تجلب ماء طيباً بصحبة صوفي.
- الكونت شارل دو فيريول مريض لا يستطيع العمل. - قال الطبيب الذي انتظر الأخوين حتى ينتهيوا من مناكمفهم. - سيفوضي بقية عمره بين الوعي واللاوعي. هواء نظيف، وراحة قلب، ودواء يريحه - هذا ما تنفعون به مريضكم يا كونتيسة. ونحن سننظمن عليه من وقت لآخر.
- وأنا أعدك يا كونتيسة بهذا كما قلت لك - إركيول - أندريله فريلي الكاردينال - وافق طبيبه الذي أتى به. وقال لعائشة التي ظهرت: - وهذا يا شارلوت - إليزابيت أيسيه ما نستطيع خدمتك به؛ اطمئني!

- نعم، نعم يا أركيول نعم يا كاردينال. شكرأ يا دكتور. ليبق الكونت المسكين في البيت بدون إزعاجات، ولا يوقتنا في مشكلات! هل سمعت يا أيسبيه: هذا هو وضعنا... ونحن، أسرة فيريول، ولو أن عندنا طبيب أسرة جيد، يسرنا أنك وعدت بالاطمئنان على الرجل الذي له أياً بيضاء على فرنسا. وأنت يا أركيول، يا شبيه روحي، لا تنس ما وعدت أن تبلغه للدوق الوصي أورليان... لا تعبيسي بعينيك في وجهي يا ابنتي الحلوة. ألا يجب أن نعيش أنت ونحن وأبوك؟ أتكلم على تعويض الكونت الذي تكلمنا فيه أنا والكاردينال أركيول -

أندريه فريلي.

VII

ليست نظرات كل النساء إلى الدنيا ولا طائق حبهن متتشابهة. بعضهن يؤسسن أسرًا آملات أن يُسعدن من يحببن، وأن يُسعدن معهم، ويرين في المشقة فرحاً، ويرين وهن يتحملن في الفرح المشقة. وغيرهن، حين يتزوجن، تعيش الأسرة معهن متطلبات الحظ الذي كن يطمعن فيه، جامدات، يتمارين مع أزواجهن دون أن يقدمن نفعاً، وينشأ أولادهن ناقصي التربية. والنوع الثالث حين تخيب آمالهن يصبحن كالعصافير التي طارت من الغرفة فجأة، قبل أن يتمكن أحد من كسر أججتهاهن، يهربن من النوافذ فاقداتِ الأمل في أي مهرب آخر.

والنوع الرابع والخامس؟... هؤلاء يعيشن مثل عيشة شارل دو فيريول إلى الآن. يعيشن كالرجال المتحررين لا يلتفتن إلى شيء. تحدث في الحياة أمور كثيرة لا تنتظراها البتة لن تفهمها ما لم تختبرها، وإذا لم تصطدم بها لا تستغربها. ولو لم تكن حياة الإنسان هكذا لما قالوا: الدنيا فرح، وثقيلة، يسهل فهمها، ويصعب تخليها، ولما سموها "الدنيا الفانية". ولكن كما أن الدنيا مركبةً متناسقةً ومتناهفةً متعارضةً، فهؤلاء مختلفات ومتعارضات.

حين تكلمت عائشة مع طبيب الملك بخصوص الكونت فهمت أنه لم يبق لها ما تتشبث به من أمل.

ولكن بون دو فيل وأرجنتال طيباً معاملتها. دعك من صوفى التي تقدم لها روحها. ولا يمر يوم لا تسأل عنها جانيت - نيكول. ولا يمكن وصف معاملة ماري - أنجيليك لها بالسوء. وهل عجيب أن تعاتبها أحياناً؟ تتحمل عتابها على مبدأ جدتها "قائمة البقرة لا تقتل عجلًا". وكلودين - ألكسندرин ليست

امرأة سيئة لولا أنها تظل تردد على مسامعها "كأنك تزدادين جمالاً كل يوم". وزميلاتها المركيزات دو باراير، دو ديفان؟ وفرنسوا فولتير، وشارل مونتسكيو؟ حتى وإن كانت عائشة تناصر نفسها حين تبقى وحيدة بهذه الطريقة فإنها عندما تفكر في ما حصل لشارل دو فيريوت الذي تحبه، وفي ما حصل لها، فالمcisية التي وقعت فيها لا توفر منها شيئاً. وحين تقع في مثل هذا الموقف الصعب تظل تكرر "ماذا سيحدث لي ، وماذا سأفعل؟" ولما كان الله أملها فكانت تخطبه وتدعوه إليه بالفرنسية وبالأدغة، وترسم إشارة الصليب، وت Rooney له بدموعها التي لا تستجيب لها.

ومتى نفست عن قلبها رجعت سؤال نفسها: "من أنا؟ فرنسي أم أدغة؟" "أكنت يوماً أدغة والآن صرت فرنسي؟" ربما كان إخلاصي للديانتين سبب مصبي... ولكن، في صغرى، في بلادي كنت على الدين الإسلامي وحده. وكان دين أبي وأمي وجدي وجدي. ومع أنها كانت مخلصين له فللمأساة التي صدمتنا سببت لنا العذاب إلى الأبد. وهؤلاء أتراك، وقومي الأدغة كانوا متألفين معهم. وانظر اليوم ماذا يحصل! الأدغة، والترك الذين سرقوني، والفرنسيون الذين صرث منهم صاروا أمّاً متنوعة. وهؤلاء وإن اختلفت لغاتهم وأديانهم في بينهم الرحيم والظالم، والحرير على نفسه، ومن يتأمر بعضهم على بعض... الفرنسيون يسخرون من الإسبان، والإنجليز والفرنسيون أعداء أزيد من بليون يترى كلّ منهم بالآخر. يتناسى الفرنسيون منبع الدين الكاثوليكي، وأين يمارسونه، فيسخرون من هوج الطليان. ويسمون الألمان بالأعاجم الجشعين، ويحتقرون النمساويين والبولنديين. ويسمون الروس الأغنياء بالثلج بالدببة. وكل هؤلاء يدينون بال المسيحية المنقسمة على نفسها. والناس في الشرق البعيد يؤمنون

بالبؤذية. لماذا العالم منقسم هكذا؟ ماذا أضيف إليهم إن أنا رثيت نفسي ، ومن سيسمعني ، ومن سيفهمني؟"

أفاقت عائشة اليائسة من أفكارها كأن من سيجيبيها ناداها ، وأجالت بصرها في الغرفة ، وتنصتت. ثم دنت وهي ترسم لنفسها إشارة الصليب من صورة أم الإله ، وركعت أمامها "اغفري لي يا مريم العذراء؛ ما سمعته لم أقله عن سوء نية. اغفري لي ما يصدر من فمي في ساعات ضيقى. ولا أكتم عنك أن الإسلام ، ديني الأول في طفولتى ، يمنعنى من مثل هذه الأفكار والأقوال ، فاغفري لي وارحيميني. ولكن مهما كنت كتبت على جبيني من عمر طويل أو قصير ، وإن كنت سأصبح امرأة فرنسية حقيقة ، فلن أتنازل عن أديغتى..."

لم تلتفت عائشة إلى من دخل الغرفة. رأت ماري – أنجلييك واقفة إلى جانبها. ونصحت الكونتيسة عائشة التي انتهت من دعائهما دامعة العينين:

– يا حسرتى يا أيسى! أراك بكى... ونحن هناك نظنك تستريحين مع نوم الكونت ، فلا تنفس خشية إيقاظكما... تعالى واجلسي هنا يا ابنتى. حين صرت في قوام الفتاة الجميل جاءتنا مشكلة الكونت. كفى بكاءً ، احرصى على صحتك. – تمسح ماري – أنجلييك بيدها على الفتاة التي أجلستها بجانبها. – لم يحدث لنا ما لم يحدث لسائر الناس. لا بأس إن بقى الكونت معنا وقبل أن يعيش بيتنا. – سألت الكونتيسة التي لم تفهم سبب إبعاد عائشة رأسها عن كتفها: – ما الأمر يا أيسى؟ – وحين نظرت في وجه عائشة التي بردت نظراتها لامتها بصوت أعلى: – لماذا تتحظظين بعينيك؟ أقلت شيئاً لا يليق؟

– أنتِ أدرى بما قلت لي أيتها الكونتيسة – لم تتأخر عائشة ، وهي في فورة دمها عن مكاشفتها بما يزعجها: – وأين سينذهب بابا إن لم يعش بيتنا؟

- أهذا ما لم يُرضك؟... نعم، نعم ، الآن فهمت لماذا على الإنسان ألا يقول ما لا يليق وهو في ضيق... وأين سندھب بالكونت البائس؟... ستحمل ما حملنا الله - تبأكت ماري - أنجيليك على عادتها وهي تمسح عينيها بالمنديل - يا أيسية، يا ابنتي الحلوة، منذ متى أفلعت عن مناداتي بـ "ماما" وصرت تناديني "الكونتيسة"؟ أنت لا تعرفين حي لك، وأن الله أعطاني إليك ابنة حلوة طلما تعميتكا. وإن شئت أخبرتك شيئاً آخر: يُحِبُّ لي أحياناً أني أحبيتك أكثر مما أحب أخي كلودين. وولدائي؟ يُحِبُّ لي أيضاً أحياناً أنهما يحبانك أكثر مما يحبانني. لا أكتتمك، أحياناً أعنفهما لهذا السبب... وأنت تناديني "كونتيسة" وتنتظرين إليّ شرراً!

- اغفري لي يا ماري - أنجيليك يا ماما - ضمت عائشة الآن إلى صدرها المرأة الجسيمة التي كانت تلومها قبل قليل - وأنا فقدت أعصابي من الحالة التي أنا فيها. ولم أقل ما قلت عن سوء نية.

- نعم، نعم. يا ابنتي. إن لم تتفاهم أنت وأنا ولم نتساند، كما قلت فكلودين لولا أنها جميلة وتؤلف كتاباً لا تنفع لشيء. والأخرى جانيت - نيكول الباحثة الدائمة عن غني، ولا تخسدي أمثال باراير وديفان المركبة الصاعدة، وأصحاب الأموالك الواسعة، ولا يخدعوك! اسمعي مني لا أقل لك إلا ما ينفعك! أنظر إليك فأراك جميلة عاقلة حلوة الطياع فلماذا لا تصبحين محظوظة عيون كل أهل باريس؟ وهذا يحتاج إلى وقت فعليك التحلّي بالصبر. وثقبي بي. ولو أطاعتني كلودين لما حدثت لها كل هذه المصائب، ولكن تسبح في المال وتستحم به، وكانت تعيلنا معها لا تحتاج لأحد.

- يا ماري - أنجيليك، يا ماما - سحبت عائشة حبل الحديث من الكونتيسة.

- أعرف ما ستقولينه يا أيسية - مرة أخرى تصنعت ماري - أنجلييك البكاء وأسرعت بالمنديل إلى عينيها. - كلودين جحيلة كالصورة، مؤدبة، وأنت تعرفين هذا دون حاجة لأن أقول لك. وتعمل معك دون شكوى من التعب. تفوت قطار الزواج مشغولة بالآخرين، غير مهتمة بحالها. وحين غازها دوبوا الكاردينال رفضته بحجة أنه أرمل. وكان هذا خيراً لها فهو شخص متلبّد من وسخه، شرير. ما أنفق قرشاً على امرأة إلا ظل يحاسبها عليه.

- لا أحب يا أمي الناس الأشرار سواء كانوا رجالاً أم نساء. - قالت عائشة ما تريده هي قوله - بابا ليس من هذا النوع؛ إنه طيب القلب، من الناس الشفوقين الحساسين لآلام الآخرين.

- وأنا من هؤلاء - امتدحت ماري - أنجلييك نفسها - ولكن لا يمكن اكتنال المال إلا بالخبيث. وهل مستشار المجلس الأعلى "لافريني" فقير؟ يقال إن ما جمعه لنفسه من ملك يكفي لعشر أسر مثل أسرتنا، فيريول، إلى الأبد. أريد أن أنصح كلودين حتى أغريها به، ولكنها تراه قبيحاً، لا أستطيع إقناعها.

- تعرفه جيداً... - غمغمت عائشة.

- ماذا تقولين؟ - جعلها الكلام الذي سمعته ترفع رأسها فجأة.

- نعم يا ماما، ألا ترين أنف لافريني كأنه يد مغفرة فكيف تتزوجه بداعي أنه غني!

- وأنت هل بدأت تمييزين بين الخطاب؟

- لم أصل يا ماما إلى هذه المرحلة - قطعت عائشة السؤال وأكملت بما يشغلها: - الأهم من كل شيء هو صحة بابا.

- وأنا يا أيسية مشغولة بالبال بهذا الموضوع - غيرت ماري - أنجلييك ببراعة الموضوع إلى الموضوع الذي تريده: - صحيح أنك لم تخرجي من صلبه غير أنه

أسدى لك ما لا يُسديه لولده الحقيقي. وأنا ليس قليلاً ما قدمته لك. يسريني أنك تفهمتنا. فرخ العصفور، وهو في عشه بعد، تبت له الأجنبية التي سيسقط بها عن أهله. ولكن الأبوين يزيدان عنانيهما به أوان اقترب موعد طيرانه. لذا يا أيسبيه لست غير مبالغة بمنها الأمر، كما قلت لك، إن كنت ستعطيني في خطوطك الأولى فلن أدعك تخطئين في الخطوة التي ستجعل منك سعيدة على طريق الغنى. لا تحملني الأمور أكثر مما تحتمل. وكما يقول أوغستين — أنطوان سمنتل لإرادة الله الذي قدر ما حدث. ربما تفيده أدوية الطبيب سيلفا جان — باتيست الذي أرسله الوصي على العرش أورليان، توقفَ عن الغناء المصحوب بالصفير في الغرفة. والدكتور جان — باتيست منافق كلاروش، لا تبسطي له وجهك. الإنسان الذي لا يعرف مدى بؤسه يظل يشتئي المرأة الجميلة؟ فاحذر!

يا ماما! – مرة أخرى ابتعدت عائشة عن أفكار الكونتيسة قصداً – لا
أحب هذه الأحاديث، كُفّي عنها!

حسناً، حسناً يا ابنتي، لن آتي مرة أخرى على ذكر من لا يليق بك.
- اصطنعت ماري - أنجيليك المزاح فأراحت عائشة، فلمحت لها الآن بما
تتني بحقها: - وإذا اختارك أورليان فماذا تفعلين؟... نساء فرنسا الجميلات
يتقصّدن أن تقع عينه عليهن فيتحرّقن شوقاً إليه. ولا يقتصر الأمر عليهن، فهو
فتى الأحلام لكثير من المرأيات المتزوجات، ومن لا يمكن الارتياب فيهن من
يزعمن أن عندهن حباً وحيداً... مهلاً يا أيسية دعيني أكمل كلامي... لم تبدأ
هذه المسألة بي ولا بك، لا أقول إننا سنفعل ما لم تفعله النساء والرجال إلى
الآن... .

أعادت عائشة التفكير في ما لم تكن تفهمه من كلام ماري - أنجلييك في الشهرين الماضيين "مهلاً، مهلاً". أظن أن هناك علاقة ما بين ما تُسمعنيني إياه وبين السلامات التي يرسلها لي أورليان. لماذا الاثنان ماري - أنجلييك والدكتور يمتدحانه لي في تناجم؟ لأنه الوصي على العرش؟ يقيم في باريس لا يكل ولا يمل من الطعام والسكر. أبلغها أنه يرسل إلى سلاماته؟ هؤلاء يخفون نية مبيته عندهم في هذا الموضوع... وهل تعرف كلودين بالموضوع؟..."

- شارلوت - إليزابيث أيسبيه أين أنت، لا تصغين لما أقول - في اللحظة التي لامت فيها ماري - أنجلييك عائشة خرج من الباب خفيةً شارل دو فيريول في كامل أناقته.

تسمر الكونت المتأبط عصاه الفضية على أرض الغرفة، وسأل بشيء من الرياء:

- لماذا ليس غيركما في صالة حريمي؟ ما أقلكم!

- يا بابا... - خضت عائشة بسرعة ووقفت إلى جانب الكونت: - نحن ماري - أنجلييك وأيسبيه، لا غريب. ألا تذكرنا؟

- وكيف لا أعرفكم؟! - فرح شارل دو فيريول لعودته إلى رشده وصرخ غاضباً على نفسه: - أحياناً لا أعرف ماذا يجري لي حتى لأنسني أني لم است قبعتي الأسطوانية العالية. - جلس قليلاً، ثم قيّم كعادته منذ مرض، نفسه ومرضه: - هذا هو سبب المرض: ما بذلت من جهد في سبيل فرنسا. لماذا أنتما جالستان؟ حان وقت وصول جانيت - نيكول والأسقف بيير.

- هذان لن يأتياليوم، بل غداً.

- أَغْدَى موعدنا إلى المسرح؟ - سأَلَ الكوْنَتْ نادِمًاً عَلَى تَأْنِيقِهِ ثُمَّ ضَحَّكَ. - أَنَا كَنْتَ جَهَزْتَ نَفْسِي جَيْدًا... أَتَنْذَكْرِينَ هَذِهِ الْعَصَمَةِ الْفَضْيَةِ يَا أَيْسِيَهِ؟ أَنْتِ مِنْ حَمْلَتْ جَانِيَتْ - نِيكُولَ عَلَى شَرَائِهَا. وَلَكِنِي أَنَا مِنْ اخْتَرْتَهَا لَهَا.

- لُعْجَبْكَ يَا بَابَا، صَحِحٌ؟

- لَمْ أَمْتَلِكْ يَوْمًاً عَصَمَ تَعْجِبَنِي بَقْدَرْ هَذِهِ كُلَّ مَنْ يَرَاهَا يَشْتَهِيهَا. هَذَا مَا يَحْدُث - تَنْهَدِي الْكَوْنَتْ عَمِيقًاً - يَا لِلْحَسْرَةِ هَذَا زَمَانَ مُضِيٌّ! وَغَدَّا سَيَّاْتِي الْأَفْضَلْ وَلَكِنِي لَنْ أَغْيِرْ هَذِهِ الْعَصَمَةِ كُرْمَى مَنْ اشْتَرَتْهَا لِي. أَتَعْتَقِدِينَ يَا كَوْنِيَّسَةَ أَنْ فُولْتِيرَ قَادِرٌ عَلَى كِتَابَةِ مَسْرِحَةٍ جَيْدَةٌ؟ ثُمَّ إِنْ مَنْ يُخْرِجُهَا هُوَ الْكَوْنَتْ أَرْجِنْتَالْ دُوْ فِيرِيُولْ؟

- لَا أَعْرِفْ يَا كَوْنَتْ، لَا شَأْنَ لِي.

- لِمَذَا يَا مَامَا مَارِي - أَنْجِيلِيكَ لَا تَعْرِفِينَ؟ - دَافَعَتْ عَائِشَةَ عَنِ الْمَسْرِحَةِ الَّتِي لَمْ تَرَهَا بَعْدُ - شَاهَدَ أَرْجِنْتَالْ وَبِيَرَ التَّجْرِيَّةِ الْأُولَى، وَأَعْجَبَهَا جَدًا.

- لَا أَعْرِفْ، هَلْ هُؤْلَاءِ قَادِرُونَ عَلَى كِتَابَةِ مَسْرِحَةٍ جَيْدَةٌ؟ يَظِلُّ فُولْتِيرَ يَخْتَرُ أَشْيَاءَ جَدِيدَةَ لَا أَعْرِفْ لِمَذَا سَمِيَّ مَسْرِحِيَّتِهِ "أَوْدِيْبَ"؟ - "أَوْدِيْبَ" اسْمَ مَلِكٍ.

- أَلِيْسَ لَأَنَّهُ اسْمَ مَلِكٍ - تَظَاهَرَتْ أَنَّهَا تَعْرِفُ مَا قِيلَ لَهَا وَزَفَرَتْ عَمِيقًاً - أَقُولُ هَلْ أَعْجَبَتْ أُورْلِيَّانَ وَصَبِّيَ الْعَرْشَ؟

- لِاقِيمَةِ لِرَأِيِ أُورْلِيَّانَ الَّذِي يَصْدُعُ الرَّؤُوسَ يَا كَوْنِيَّسَةَ. لَا تَنْظِرُوا إِلَيْيَ بَعْيُونَ جَفْلَى! - صَرَحَ شَارِلَ دُوْ فِيرِيُولَ بِاسْمِ مَنْ يَأْتِي عَلَى ذَكْرِهِ بِسَوْءَةِ - لَيْسَ أُورْلِيَّانَ الْثَّرَاثَرَ هَذَا مَهْمَأً، كَانَ الْأَهْمَ هُوَ رَأِيِ مُولِيرَ الْعَجُوزَ لَوْ كَانَ حَيَاً. مَهْمَأً كَانَ الرَّأِيِ فَسَأُولُ "بَرَافُو" لِفُولْتِيرَ كَاتِبِهَا، وَلِأَرْجِنْتَالْ مُخْرِجِهَا. هَذَا هُوَ

الأمر يا كونتيسة، يا كتّة آل فيريول، وبنت آل غيرين دو تانسين، نحن نهرم، وشبابنا الفطن يأخذ مكانه في هذا العصر الجديد.

– لا تدعنا نقول أشياء لا محل لها بمحجة أنت، أنت وأنا، نشيخ. – انفعلت ماري – أنجليك لما قالوا لها. وامتدحت نفسها عن طريق المزاح: – أنت لا أعرف يا كونت كيف ستعاملك النساء مستقبلاً، أما أنا فسترى مساء غد كيف سيتهاافت الرجال علىّ...

– سترى يا كونتيسة، سترى... – بادلها شارل دو فيريول المزاح.

VIII

في اليوم نفسه تكلم آل فيريول على شؤون المسرح الفنية، وانتهوا، وفيما عائشة على تطريزها غفلت دون أن تعرف كيف. في البداية حُتِّل إليها أنها تسمع اسم "جولي، جولي" وحين ارتعبت ففقرت من غفوتها تبين لها أن هذا صوت فرح ماري - أنجيليك، وشارل دو فيريول يقول لكته "مهلاً يا كونتيستة انتظري! دعني أحسي المركبة جولي كالاندرین. يا كلودين أجهتنا بالضيف الغالي ورجعت؟ أين هي شارلوت - إليزابيث أيسبيه؟ أخبروها أن جولي أتتنا من جنيف. كانت مشتاقة إليها لأن زيارتها قليلة"

خرجت عائشة من الغرفة راكضة دون أن تطل من النافذة وقلبها يتعثر في ركضتها. واستقبلتها مادةً يديها كما كانت تفعل في طفولتها دون أن تشعر بالخرج من أن قوامها الآن قوام فتاة كاملة. وانفجرت باكية وهي تعانقها:

- لا تبكي يا أيسبيه، اهدئي يا حلوي. - مسحت على رأس عائشة التي على كتفها. - انظري؛ ها قد جمعنا الله مرة أخرى. - لم أعرف أنك في السنوات الثلاث أو الأربع التي افترقنا فيها كبرت وصرت جميلة هكذا. وأنت يا كلودين أتينا على ذكرك كثيراً في جنيف. وابنتنا سوزان أحبتك فلا تنساك. وتبلاعك تحياتها. كان بودها أن ترافقني إلى باريس ولكن ظروفها لم تسمح لها.

- نعم يا للحسنة يا جولي - ثُوافق ماري - أنجيليك المرأة قريبتها - أيسبيه تحبك وتشتاق إليك. وبون دو فيل وأخوه لا يحبان أحداً كما يحبانك. وهم في المسرح الآن يضعان اللمسات الأخيرة على مسرحية فنسوا فولتير. اسمع، اسمع يا كونت، حين رأينا قريبتنا جولي نسينا كلباً كلودين التي غابت عن بيتنا شهراً كاملاً. كان جنيف ناسبتك أكثر من باريس يا أختي. وكأنك صرت أجمل فيها. تفضلي، اشتقنا إليك.

- لا أعرف إن كانت جنيف واتني يا ماري، ولكن من أين لي أن تعملي مني
شبيهة أيسية الجميلة ذات الطباع الحلوة، والتي نسيتني. — مدت كلودين —
ألكسندرین مازحة يدها على كتف من كانت تعاتبها — كفى يا أيسية، دعيني
أنا أيضاً أعانقك.

- ساحيني يا كلودين، أنت أيضاً وبابا وماما — عانقت عائشة كلودين متغافلة
عن الكلام الساخر الذي وجهته إليها. — أنا وأرجنتال اشتقتنا إليك يا
كلودين. وفرنسوا فولتير وبون دو فيل هما من ينتظرانك على وجه الخصوص.
يودان أن تشاهدني المسرحية الأولى لهما. خيراً فعلت باصطحاب المركبة جولي.
- نعم، وافق الكونت الذي ظل ساكتاً إلى الآن عائشة. ثم رد على الأخرين
على ما فهم، وهو يبعث بالعصا الفضية: — ولكن تعرفان ما سأقول لكم؟ أنا
الكونت شارل دو فيريول، لا الوصي أورليان، من تركه الملك لودفيغ الرابع عشر
مكانه وهو يفارق الحياة. وأقول لكم ليس في فرنسا، بل في العالم كله، فتاة
أجمل من شارلوت — إليزابيت أيسية، ولا أحسن طباعاً منها.

- يا بابا — أمسكت عائشة بأصابع الكونت الناعمة — لست جميلة على ما
تتصورني أنت. لا تحرجني في حضرة المركبة جولي! — فات موعد تناول الدواء
الذي أرسله لك الملك؛ تعال!

- هكذا؟ — مد الكونت جذعه لعائشة وكأنه لم يقل شيئاً في غير محله. —
تعالي، لماذا إذن نحن هنا؟ لن نجعل ملكتنا يعتب علينا. سنتناول دواءه. تعالى،
تعالي — وقال من تأخروا قليلاً عنه قصدأً: أنتم لا تعرفون؛ أنا أشرب دواء
جيداً. هذا دواء لا يرسله الملك إلى أيّ كان.

التفتت جولي كالاندرین العارفة بأخبار شارل دو فيريول إلى كلودين —
ألكسندرین. وهمست ماري — أنجيليك إلى قريبتها الضيفة:

- هذه حالنا يا جولي!

تذكرت جولي، وما سمعته ورائه جعلاها تهز رأسها، ما قاله لها اللورد هنري سان جون بولينغروك الذي جأ من إنجلترا إلى فرنسا ملدة محددة "شارل دو فيريول الكونت رجل عاقل مهذب، ومن حسن الحظ أن يكون مثلاً لبلادك ولكنه أفرط في علاقاته النسائية على حساب شخصه. وهذا عاقبته وخيمة" وتمثلت لها النساء اللواتي كن في خلال عرس أوغستين - أنطوان وماري - أنجيليك، يشتتهن سرًا.

حين بقيت الأختان وجولي وحدهن أضافت ماري - أنجيليك إلى ما قيل عن الكونت:

- هذا هو يا جولي، ترينه، وضُعُنا في شأن الكونت. لا أعرف ما سيحدث مستقبلاً ولكنه الآن هادئ، لا يثير متابعي لنا.

- كانت كلودين أخبرتني بوضع الكونت... - مرة أخرى هزت جولي كالاندرین رأسها من حزنا.

- ولكني لم أعرف أن هذا الرجل الحقيقي وصل إلى هذه الحالة.

- لا بأس اليوم في سلوكه "الجنتلمني" - ابتسمت كلودين - ألكسندرین.

- أشفق على شارل دو فيريول الرجل الوسيم - تنهدت جولي كالاندرین التي كانت تأخذت وضعية جلوس الخدمة - ولكن إشفافي الأكبر على المسكينة أيسبيه.

- أيسبيه تستحق ما جرى لها.

- ماذا جرى لها يا كلودين؟ - جفلت جولي من الكلام الذي لم تنتظره.

- كان عليها حين أتتها جماعة فخري ليغيدوها معهم إلى بلاد الشركس لأن تتشبث بالفريول، بل تعود معهم - أجبت كلودين على السؤال الذي كانت مستعدة له.

- ما هذا الذي تقوليه يا كلودين؟ ألم أحذرك أن تكوني هكذا؟ - لم تكتم ماري - أنجيليك ما تريد قوله ولو أنها اعترضت على أختها: - لولا أيسيل ماذا

كنا سنفعل، هذه الوحيدة هي دواء الكونت. ألا تراه لا ينقض أوامرها!

- هل تسمعين يا جولي، تظل تقول "لولاه" و "لولا أنها في البيت" فتغنى لمصلحتها! لا تنسى مشفى "بيرسيرت" للمجانين في باريس!... - لمعت عينا كلودين - ألكسندرین بطريقة تعبير عن الظلم.

- كلودين، ماذا تقولين؟ خافي من الله! - صرخت ماري - أنجيليك وكأن مصيبة وقعت لها في موضوع الكونت أعظم مما عندها - إن سمع بون دو فيل وأرجنتال ما تقولين أقاما القيامة عليك. اغفري لنا يا جولي؛ كأننا أربعناك بأخبارنا من قبل أن تدخلني بيتنا!

- ما قلته عن الكونت وعن أيسيل يا كلودين - لم تستطع جولي إلا أن تقول بصوت قاسي مع أن نعومتها كانت تغلبها - كان الأفضل ألا أسمعه.

- حسناً، أنا من لا تنتهون من سيرته - دخلت عائشة الغرفة مع تتمة كلودين.

- ساحميني يا جولي! - عانقت من جديد المرأة التي أحبتها من اليوم الذي عرفتها فيه، وقالت لها في عناقها: - لم يُتع لي أن استقبل كلودين استقبالاً لائقاً، ولذا سأعانقها ثانية.

- نعم، من البديهي أن تعانقي أختك وتقبلي وجنتيها يا أيسيل - خصت ماري - أنجيليك، وهي مسروقة سبب موافقتها كلام عائشة وسلوكها: - لا

أحد يعرف مثلي حبكم لكلودين. ليس أولادنا فحسب، ومونتسكيو أيضاً.
وفولتير وبون دو فيل ومعهما أرجنتال الذي لا يهدأ، لا أعرف لماذا يظلون أنما
إن لم تتبع معهم مسرحهم لا يعادلها ناجحة، ولن تعجب المشاهدين.

- شكرأً لفولتير وجماعته إن كانوا يرونني هكذا – قالت كلودين – ألكسندرین
منشحة الصدر وهي تذكر كيف كانوا يعانونها عناقاً حاراً ويوجهون إليها
كلمات رقيقة – لا يقلقوا عليّ إلى هذا الحد! رواد المسرح لا يأتون مهتمين بما
سيسمعون ويشهدون فيه، وبما سيفتح لهم من آفاق التفكير، بل مهتمين
بالملابس، وتسرحيات الشعر، والأقراط والخواتم وأطواق الذهب والفضة التي هي
موضوع تنافسهم.

- صحيح يا كلودين. أوقفك الرأي – فرحت عائشة وكأنه ليس في البيت
غيرهما – ولكن سأقول لك ما يشغلني في المسرح: يشغلني كيف سيفهم الناس
المعتادون على الضحك الأجوف مسرحية أوديب. وإذا حدث هذا فماذا
سيكون وضع فولتير وبون دو فيل.

- ألم يكن مفرّ من أن يكتب فولتير متذاكيًّا ما تسمونه "أوديب"؟ – ساهمت
ماري – أنجلييك – وبون دو فيل هل أجبروه على إخراجها؟ أليس ما نشهده
كل يوم مأساة؟

- نعم يا ماري نعم – قالت كلودين ساخرة لأنتها – شهدت على ما تقول
أيسية بنفسك! برافو يا أيسية! تتكلمين من داخل قلبي.

- لا حاجة يا كلودين للـ "رافو" إذا قلت رأيك. – رفع المديح الموجه لعائشة
حرارتها فتوردت وجنتها، وشهدت على صحة موقف ماري – أنجلييك التي
كانت سبباً في هذا المديح: – وفي ما قالته ماما الكوتيسة شيء من الصواب.
ولكن لما كانت الحياة مركبة من الصدق والكذب فمن المفید أن ٿعرض هذه

الحياة على المسرح، مكان اجتماع الناس، بمزيج من السخرية والبؤس. ولن يصبح الإنسان حكيمًا بطول الضحك والبكاء.

- لماذا قلت يا أيسية؟

- لماذا؟ سألت عائشة التي لم تعرف مناسبة السؤال بدورها كلودين.

- أسأل: لماذا قلت "لن يصبح الإنسان حكيمًا بطول الضحك والبكاء".
كأن هذا الكلام صدر عن موليير.

- لم تخطئي في موليير - فرحت عائشة. - هذه الجملة قالها أحد أبطال مسرحياته: "دون جوان" أو "طاروف" أو "زواج بالإكراه" أو غيرها، لا أعرف بالتحديد.

- ربما كانت مسرحية "ميزانتوب"؟ - لم تملك جولي التي كانت تنظر إلى عائشة بعين الرضا إلا أن تسأل.

- لا، يا جولي. لا يمكن لـ "التيست" الذي يسوغ الخيانة والكذب والمديح الرأف والنميمة أن يصدر عنه مثل هذا.

- ربما "المحترم بورسونياك" - ألقـت كلودين اعتباـطاً هذا الاسم.

- قد تكون هذه ياكلودين. شـكـت عائشة.

- يا أيسـهـ أـسـعـكـ فـأـتـسـاءـلـ: مـنـ أـيـنـ تـعـلـمـ كـلـ هـذـاـ؟ - سـأـلـتـ جـوليـ كـالـانـدـرـينـ الآـنـ بـصـرـاحـةـ.

- وـمـنـ أـيـنـ سـتـتـعـلـمـ يـاـ جـوليـ؟ - لـمـ تـُـطـقـ مـارـيـ - أـنـجـيلـيـكـ صـبـرـاـ عـلـىـ اـمـتـدـاـحـ عـائـشـةـ، مـحـمـلـةـ نـفـسـهـاـ الـفـضـلـ - تـعـلـمـتـهـ فـيـ بـيـتـ آـلـ فـيـرـيـوـلـ. أـأـرـيـ شـارـلـوـتـ - إـلـيـزـاـبـيـتـ عـبـثـاـ، أـتـقـيـمـ مـعـيـ دـوـنـ فـائـدـةـ؟ وـقـدـ لـاـ يـخـلـوـ صـالـوـنـ كـلـوـدـيـنـ الـأـدـبـيـ مـنـ فـائـدـةـ؛ أـلـيـسـ كـذـلـكـ يـاـ اـبـنـيـ؟

- أتسليني في هذا يا ماما؟ أشكرك أنت وكلودين. ولكن جانيت - نيكول علمتني في الدير الكبير. تعلمت منها في السنوات الأخيرة الكثير عن تاريخ فرنسا والأدب والمسرح، وفي اختصاصها هي. حين تجلس إليها طوال النهار تتطرق إلى كثير من الموضوعات. ليس موليير وحده، بل قرأت كتابات بيير كورنيه وجان راسين و ماري لافاييت وجان لافونتين ولاروشفوكى وديتوشى وأبات بريفو وتعرف الكثير عنها. وإن سألتها تكلمت على أدب الإسبان والإنجليز والفرس والألمان. ومتى بدأت الحديث روت لك وهي تستعرض ما عرض في الأوبرا الملكية. وتغنى لك الألحان التي حفظتها.

- نعم يا أيسيه. شارل دو فيريول إنسان مثقف. لا أعرف شيئاً لا يتقنه. - حاولت وكلودين - ألكسندرین إخفاء امتعاضها من مديح الكونت غير أن لونها فضحها.

- نعم يا وكلودين، أفكار بابا وآراؤه تصل إلى البعيد. - أجبت عائشة، وقد فهمت الموقف، على العبارة المعرضة بالمدح نفسه: - ويقرأ كتاباتك أيضاً يا وكلودين.

- ولماذا لا يقرأها! - أسرعت ماري - أنجلييك لتضع حداً للمهاترة الخفية.

- أتعجب كتاباتي الكونت يا أيسيه؟ - سألت وكلودين - ألكسندرین وكأنها واثقة أن ما كتبته عن شارل دو فيريول ومادلين، والذي اشتراه الكونت منها، لا يعرفه أحدٌ غيرها وغير الكونت.

- طبعي أن تعجبه، وأنا تعجبني. - قالت ماري - أنجلييك ثانية لمنع حرب كلامية مرتبطة.

- اسكتي يا ماري! لست أسلوك أنت.

كلودين يا أختي الجميلة - نصحتها المركبة جولي محافظة على احترامها لنفسها، ودون إهانة الطرف الآخر - لا تنهرني أختك الكبيرة هكذا!
سامحيني يا جولي، وأنت يا ماري! أصلحت كلودين موقفها، سواءً حقيقة أم رياءً أمام قريبتها المادئة.
أنا لا ألومك. يا كلودين إن كنت قلت لك ما لا يعجبك فاغفر لي.
اعتذررت عائشة بدورها وعيناها على جولي كالاندرلين، وكلامها يرقق قلبها.
الأفضل أن تكون علاقاتنا هكذا، لا أحد يعرف ما سيحدث له غداً.
طبعاً يا جولي، طبعاً - هرِّعْت ماري - أنجيليك إلى المنديل الملائم لها على عادتها. ووافقت ضيفتها التي ساندتها: - من كان يتوقع أن يحدث لشارل دو فيريول الطيب ما حدث له؟... حتى الآن لا أستطيع الاقتناع بما جرى.

لما كانت جولي كالاندرین المُسْنَة القادمة من طريق طويل متبعة، وزادها ما سمعته تعباً على تعب فقد رجتهم أن يُعفواها من العشاء ويرشدوها إلى غرفتها. "نحن النساء، وإن لم نكن نعي حالتنا، غريبات الأطوار، فأحياناً تتجاوز الرجال في غمرة زهونا بأنفسنا. - عاتبت جولي نفسها - ما إن بدأنا الحديث حتى شرعنا نمتدح أولادنا معتبرين الرجال الذين ولدناهم لهم. صحيح أن الرجال كلهم ليسوا متشاهين؛ ولكن أليسوا في النهاية رجالاً؟! لا، لا يمكن اتهام "جان لويس" برجلي، بسوء. إنه طيب معي ومع أولادي. ومع ذلك أحزنه أحياناً دون أن أدرى السبب. وحين أتصرف معه بهذا الأسلوب يقول لي "تأكليني وانت ترقيني" أنا، يا حسرتي، أعزك يا جان - لويس، لا آكلك. وموقف أولادك منك هو موقفي. ولكن هل يستطيعون رعايتك كما أرعاك؟ أيسبيه إن كانت محظوظة وانتسبت إلى أسرة جيدة فستصبح امرأة ممتازة من يختار من الرجال. انظري إلى معاملتها لشارل دو فيريول الكونت ولو أنها ليست من

صلبه. مهلاً، مهلاً؛ أتراها، كما لمحت لي كلودين مرة، تستعطف الرجل الذي حياتها في يده؟ لا ضير في هذا. من الواجب أن تحسن إلى من أحسن إليك. لا أرى عجياً في أن تلين مع الناس الذي تعيش معهم ناسياً أصلك. "أيسية؛ أنسىت قومها أم أنسوها؟..."

أظلمت غرفة جولي بأسرع مما أظلم نهار الخريف القصير. والشمس أكثر شحوباً من جهة النافذة المطلة على الغرب منها من جهة النافذة الشرقية المطلة على الدار. وأفكار جولي كالاندرین مثل النافذتين المتقابلتين المثيرتين — المظلمتين. تسمع من بيت فيريول أصوات رعما من تجهيزهم العشاء. وخيل إليها أنها سمعت أصوات عربات قادمةٍ ومتقدمةٍ من البوابة الكبيرة. وسمعت أصوات نوقيس الكنيسة التابعة للدير الخاص بالنساء الكاثوليكيات والواقع على شارع آن غير بعيد عن شارع سان — نيف أوغستين. أشعلت جولي الشمعتين المحاورتين للأيقونة، ودعت إلى الله بالخير لأسرتها في جنيف، ولمن هي في ضيافتهم هنا، وأن تعيش الأستان في وئام بين أفراد كلٍّ منهم، وينعم بالصحة عليهما، وأن يعيش كل أقربائها في سلام ومحبة. وأن ينجح مسرح فولتير وبون دو فيل فتعجب المشاهدين، وأن يرافق بشارل دو فيريول في مرضه، وأن تسعد أيسية في حياتها.

وبعدما فرغت من الصلاة إلى الله، وفيما هي جالسة تلتقط أنفاسها، بليلت الأفكار قلبها فجأة: "حين دعوت يا إلهي لأيسية بالسعادة لم يكن في قلبي أي عتاب على ماري — أنجيليك، ولا على كلودين — ألكسندرين. هاتان تعيشان مرتاحتين حررتين في ما تقولان وتفعلن وتدينان وتشعران حيث خلقتهما. أما أيسية فامرأة وحيدة تعيش في بلاد غريبة بلا سند غيرك ولا أهل. وليس مقصرة في حق "فرنسيتها" ولا تنقصها الغيرة عليها. أدعو لأيسية بالخير لأنك

تربينا يارب على مساعدة من لا معين له. ثم أنيك بأمر آخر يُربيني: في زيارتي السابقة إلى باريس، وفي هذه الزيارة، لم تعجبني معاملة أخي لأيسية. ماري — أنجيليك مرائية مُستساغة، وكلودين — ألكسندرین تأكلها الغيرة لا تريد أن يبقى في الدنيا من هي أجمل منها ولا أعقل. ليست شارلوت — إليزابيت أيسية امرأة كاملة، ولكنني أرى فيها امرأة قوية تحترم نفسها. أرجوك يا رب أن تجعلها سعيدة، ولا تقع في الخطيئة، تحمي شرفها وعرضها، وتنسجم معنا"

دخلت صوفى الغرفة مع الطعام:

— ألم أبلغهم أني لن أتناول العشاء يا صوفى؟
— لم يبلغوني بشيء أيتها المركizza. انتظرناك حين تأخرت عن غرفة الطعام، فكفلفتني شارلوت — إليزابيت أيسية أن أحمل لك هذا العشاء إلى غرفتك لأنك متعبة، إن كان سيعجبك الحليب والخبز المحلى. وعلى كل حال إذا قررت النزول إلى غرفة الطعام فتحن جاهزون. والكونت فرغ من عشاءه، وحين سأله عنك أخبرناه أنك تستريحين فعاد إلى غرفته طالباً منا ألا نزعجك.

— شكرأً للكونت على أنه لم ينسني. أين الكونتيسة ماري — أنجيليك، والكونتيسة كلودين — ألكسندرین؟

— هاتان خرجتا كلٌ في عربة مستقلة من البوابة الكبيرة.
— هكذا؟ — سألت جولي مخفيةً تعجبها مما سمعت. وأراحت صوفى من جهة الطعام الذي جلبه. — لو نزلت إلى غرفة الطعام لكان هذا عشائي. وأين أيسية؟

— شارلوت — إليزابيت أيسية بعدما أطعنت الكونت تمشت في أرض الدار قليلاً، ثم رجعت إلى غرفتها تقرأ في كتاب. كانت متشوقة لزيارتكم ولكنها لم تتشجع خوفاً من أن تكوني في استراحة.

- أفكر كيف سأقضى ليلة الخريف الطويلة. وأيسىه ترعاني حتى لا أقلق.
يلبّيها أن تأتي إلىّ؛ أنتظرها.

حين تتحدث مع شخص وقلباً كما متمازجان وروحاكما، يمضي الوقت دون أن تدري كيف. الاتفاق في الآراء يوصل إلى موضوعات كثيرة. ويجد لك مخرجاً من أقسى المآسي. ويقاسمك سعادتك وشقاءك. وإن عثرت أفالك من عثرتك. وإن عملت ما لا يليق لامك، وإن أخطأت ذلك على الصواب.

بروح القرابة هذه سهرت جولي كالاندرین وشارلوت – إليزابيت أيسىه إلى منتصف الليل.

- لم تدخل حياتي كل هذه السنوات التي عشتها في باريس امرأة أفضى إليها بما في قلبي، باستثناء جانيت – نيكول التي أعتبرها أختي. وإن قبلتِ مني اعتبارك من هذه اللحظة أمي. وإن كنت بعيدة عنّي في جنيف فستكونين الناصحة لي عبر رسائي. ولأني لم أقابل إنساناً فهمّني مثلّك، لا أريد إزاحة ماري – أنجيليك، أرجوكم أن تصبحي سندّي وراعيتي. ولن أحرجك طوال عمري. – عانقت عائشة جولي عنّاق بنت لامها. وقبلت وجنتيها ثلاث مرات كما يفعل المسيحيون.

وبدلاً من أن تجحّب جولي كالاندرین رسمت شارلوت – إليزابيت أيسىه إشارة الصليب ثلاث مرات أمام وجهها. ولم تكتفِ بهذا بل رسمتها من جديد وهي منصرفة حين همت بالخروج.

IX

لم تُغمض عائشة جفنيها طوال الليل. كان أمامها اليوم أكثر من قضية تشغلاها. وما منعها النوم هو كيف سيستقبل الجمهور المسرحية، وكيف سيمعنون شارل دو فيريول من حضورها. وأضيفَ إليها أنه منذ أن جرى الحديث بينها وبين جولي كالاندرین واتفقنا أن تناديها بـ "أمي" كان جواب المرأة قصيراً بعدها رسمت إشارة الصليب دون كلام.

حين تكون وحيداً، وحين يضيع منك مثل الكونت في بلاد غريبة، فتفقد الأمل فيه، تصبح كما يقال "الغريق يتعلّق بقشة"، وتضطر أن تقاتل من أجل نفسك، وتتوسل. في ما يتعلّق بجولي كالاندرین جرى كل شيء كما تشهي عائشة "كنت أريد أن أكون لها وتكون لي كما حدث. لا عتب لي على ماري - أنجيليك، قدمت لي الكثير، ولكن طبيعة جولي وساحتها، وعتابها المملوء بالنصيحة تذكّري بمحظتي. لتكن في جنيف؛ لا مشكلة! فجنيف هذه ليست كبلاد الشراكسة البعيدة التي نسيتها. أكثر سكان جنيف يتكلمون الفرنسية. وهي تأتي لزيارة ابنتها ريني في باريس. وحين يلح على الشوق سأكتب لها وأستشيرها. خوفي من ماري - أنجيليك أن تغار منا فتحمل علينا. وهذه لها حلٌ. والمسرحية ستعرض اليوم. والناس ليسوا كلهم متشارحين، ستعجب ببعضهم، ولا تُعجب غيرهم. ولكن أصعب مشكلة اليوم هي موضوع بابا. منذ أيام يجهز نفسه لزيارة المسرح. وما ذهبت إلى الدكتور جان - باتيست أخبرته بيته، فأجابني: "إذا كان الكونت يريد في نفسه أن يخالط الناس، فانتظروا حتى تمضي بضعة أيام على تقاطع الشهرين، وعندما تحسون أنه هذا فاذهبو به إن كنتم مطمئنين على أنه لن يسبب لكم إحراجاً. وإن أحسستم بأمر غير طبيعي فلأنك الوحيدة التي يثق بها فاعمل على إخراجه من المسرح... إذن علىّ أن

أجد ذريعة ما للامتناع عن الذهاب لأنه قد لا يذهب بدوني. جماعة فولتير يعرفون وضعى فلن يعتبروا علىّ. وأنتظر فرصة أخرى لارتياد المسرح" بعد إفطار الشوكولا، انتظرت عائشة قليلاً ومضت إلى الكونت لتفقدّه. كان شارل دو فيريول جالساً يرتدي الصدار الأخضر الأحّبّ إليه والأجمل. يجلس والشوكولا التي جاؤوه بها فطوراً برد. - بردت الشوكولا يا بابا، ماذا تقرأ؟ -

هذا؟ - رد شارل دو فيريول على السؤال بسؤال وهو يقلب في الماء الأوراق المحيطة إلى بعضها. وبسرعة أجاب: - هذه مسرحية فولتير التي تعرفينها، تتناول قضية "أوديب" والتي ستحضرها الليلة، مكتوبة يا شارلوت - إليزابيت أيسبيه بطريقة رائعة. - نحض وتمشى في أرض الغرفة وأضاف: - لم أعرف أن لفولتير مثل هذه النظرة إلى الملوك. ستعجب المشاهدين. وأنت ألم تقرئها؟ تذكرت كنت قلت إنكقرأها، وتكلمنا عليها. لماذا لن يعجب أورليان الوصي؟ لو كان الملك لودفيغ الرابع عشر حياً لأعجبته. لو لم يكن الخامس عشر صبياً لأعجبته أيضاً. فنسوا فولتير، ونحن نعرف، يمكنه أن يكتب، أظنه سيكون مفكراً ومثقفاً. - الكونت الآن غير الكونت المشوش الذي يهذى: هادئ وساخته مريحة. - قبل أيام كان رأيي فيه كاليلوم. والآن أكرهه. - نعم يا بابا - وافتقت عائشة الكونت والفرح لا يسعها، وسألته مازحة عما كان يشغله وكان السبب في قدوتها إليه - أنت وأنا يا بابا إذا كناقرأنا المسححة فلماذا نحضرها؟

إن كان رأيك هكذا يا آنسة أيسيله - ضحك شارل دو فيريول، واستأنف
تمشيه على أرض الغرفة مُصلالياً يديه وراء ظهره - فسأقول رأي في هذا.
أتعرفين المسرحية التي قرأتناها أنت وأنا؟ إنها مثل الشوكولا التي سألت عنها والتح

أمامي. أراها وأعرف أنها وجة فطوري، ولكنني لا أعرف حلاوتها. - أشار الكونت بيده حين وصل إلى النافذة المطلة على أرض الدار - أترين منظر شجرة البطم المطلة على الخريف بأغصانها العارية؟ المسرحية على الورق تشبهها. لا تقرأ المسرحية كما تقرأ الرواية. إنما تعرض في المسرح. والممثلون ينفخون الروح في كل كلمة من كلماتها، ويعطونها شكلها. ما يقرؤه المشاهدون هو ما يرونها على الخشبة ويصفقون له. وأنت يا أيسية لا تريدين أن تريها لأنك قرأتها... ماذا جرى لك يا أيسية؟ لماذا تنظرين إلى باسمة مرتاحه القسمات كأنك لا تفهمين سبب عتابي لك؟

- لأنني يا بابا لا أتذكر من يوم ما رجعت من تركيا أنها تحدثنا بمحنة الطريقة... - قفرت عائشة لا تطيق صبراً وعانت الكونت. - لا أبكي، أعد نفسي محظوظة. كنت واثقة أنك ستشفني وتعود إلى حالك يوماً ما. أنت أرحم الناس وأعقلهم وأجملهم. أريدك يا بابا أن تكون اليوم وغداً وبعد غد، والعمر الذي كتبه الله لك، كما كنت أعرفك. - رجعت عائشة إلى مجلسها بعد ما مسحت عليه بيدها.

- شكرأ لك أنت دوائي وحياتي يا ابنتي. - إن كان هذا رأيك أنت أيضاً فالآن أفهم لماذا تقول لي الكونتيسة ماري - أنجلييك "أنت دواء الكونت وحياته"

- ماري - أنجلييك ستقول الكثير. - ابتسم الكونت وعاد إلى مجلسه. أبعد الشوكولا الباردة من أمامه وعاد إلى مجلسه - لا تصدقني كل ما تقوله الكونتيسة! ماذا يقول الأتراك "ما تعرفه تماماً خير" ما تظنه" أنا أعرف ما تريه وما تتخمني. الفرنسيون الذين صررت منهم يقولون "المريض يموت أو يُشفى" بعد ما أرْجحُ الكلمة الأولى منها، أنت دوائي الذي يشفيني يا شارلوت - إليزابيت

أيسية. ولذا أريد أن أريك حظك السعيد. وهذا ما سيمنعني الحياة. لا تقلقي بشأن زيارة المسرح اليوم. لن تروا مني بادرة شك. وعلى كل حال، من يدري، إن حدث شيء من هذا أشيري بيديك أو بعينيك. أعيديني إلى وعيي.
- نقول هذا ولكن؟...

- ألم أقل لك لا تفكري في هذا يا أيسية! - لام الكونت عائشة التي امتنع لونها. وما كان في قلبه نحوها منذ سنين كاشفها بما الآن بصوت مختلف. إن كنت تريدين الحقيقة فما كنت أريده شيء آخر. كنت أريد أن نذهب إلى المسرح، ونحن عائدان من تركيا خلال سفارتي لفرنسا، ومن يرانا يتعجب منا، ونجعلهم يتهمون حولنا. ويقولون فيما يظنون وما لا يظنوون.

- يا بابا إذا ترك السفير منصبه - سألت عائشة التي لم تلتقط بعد مغازي كلام الكونت - هل يُقيلونه من عمله؟

- لا قانون من هذا النوع، ومع ذلك فقد قلت لك ما كنت أتمنى، ولكن هذا لا يعني ألا نكون سُعداء. - أضاف الكونت إلى مقاله دون أن يترك فرصة لعائشة كي تفكر في كلامه: - ولكن هل تعرفين ما سأقوله لك أيتها الكونتيسة شارلوت - إليزابيت أيسية؟ سأطلب من عربتنا أن تأخذنا نحن الاثنين فقط إلى المسرح. ما الذي تستغربينه؟ ألأني قلت: سنكون وحدنا في العربية؟!

- لا يا بابا، حدث أن ركبنا أنت وأنا العربية وحدنا. بل لأنك ناديتني لأول مرة بـ "الكونتيسة".
- ولماذا؟

- لا أعرف، للأسف، إن كانت ماري – أنجيليك وكلودين – ألكسندرин ستراتahan لهذا. ثم إنك ناديتني للمرة الأولى باللقب الذي ليس لي ولا أستحقه.

- يا شارلوت – إليزابيت أيسبيه – قاطع الكونت بصوت ناعم كلام عائشة: – ماذا تقولين؟! انظري إلى المرأة؛ أهناك ما لا تستحقينه؟ ليس كلامي دون جذور. وسأقول لك لماذا ستركت وحدنا في العربية. ولكنك لن تفهمي يا كونتيسة. نعم، نعم، وما زلت أنا ديك بالكونتيسة. كل من سيأتون إلى المسرح سينظرون إليك فحسب.

- سنجلس، كل الأسرة يا بابا على مقعد واحد، في صف واحد. ستكون جلسة أسرية.

- لم نفكري في هذا... – هزّ الكونت رأسه. – كان لي في وقتٍ ما شرفةً خاصة بي في المسرح الكوميدي، والمسرح الإيطالي، ومسرح الأوبرا. ليس هذا مشكلة، المال يحقق كل ما يريد المرأة. ما عندنا – نحن الاثنين – يكفينا العمر كله. سأجعلهم يشعرون الآن في تأمين الشرفة.

فجأة دخلت الريبة التي لم تخطر لعائشة يوماً إلى قلب عائشة. لماذا يظل بابا يكرر "نحن الاثنين، نحن الاثنين"؟ وأي "ملك" وأي "شرفه مسرح" يتكلم عليهما؟ لم أر ما يعيب في مخاطبته لي لأول مرة بـ"الكونتيسة"، ولا بـ"ابنتي". أنا أقول إن بابا شفี่ وفرحة بحاله غير أني لا أفهم تورياته وتلميحاته التي يقولها ثم يتراجع عنها. لا أريد أن أفكري في مثل هذه المغارات. إذن أليس ماقالته لي ماري – أنجيليك وكلودين – ألكسندرин صحيحاً؟ بابا لن يفعل مثل هذا. إن تصرف معي هكذا... من سأستشير ومن سيساعدني؟ "أي كلام عجيب أقول؟!"

- لماذا توقفت عن أي كلام يا شارلوت - إليزابيت أيسية، هل قلتُ ما لا يُقال؟ - سأَل الكونت شارل دو فيريول عائشة وهو راض عن نفسه بقلبه وساحتته، ثم نصحها: - لا تفكري في أمور غير مهمة في اليوم الذي نختلف فيه بأول عمل يقوم به بون دو فيل، لا تيأسِي ما دمثُ لكِ!

- لا يا بابا، لم أفكِر بشيءٍ من هذا. - أجبت عائشة الكونت مخفية البرودة التي سرت في قلبها. - فرحةُ أسرتنا فرحةُ الجميع. - "أقول للكونت ما رجتني من أجله الكونتيسة؟" سالت عائشة في قلبها. هذا البائس هو من في أفواه الجميع. وأنا منهم. مع أن بابا دفع كلفة الندوة التي تعقب المسرحية فقد قالت لي ماري - أنجيليك إن المبلغ لا يكفي فاطلبي منه ثلاثة ليرة أخرى. وكلودين تعزف على نغم أختها وهي تهز رأسها. إن لم يكن عندكم غير هذا الخجل فلن أقول له، لن أطلب ليرة واحدة. يستقلون ما عندهم ويستكثرون ما عند هذا المريض... يرون الحصول منه على ليرة واحدة كسباً.

- أنظر إليك يا شارلوت - إليزابيت أيسية فاراك مهمومة، هناك أمر يقلقك لا تستطيعين الإفصاح عنه. - سأَلها الكونت وكأنه عرف ما في قلبها وما لا تستطيع تحليله. - إن لم يكن عندك من الحلي ما تتميزين به من رواد المسرح فقولي دون حياء، يمكن أن أشتري لك إن أردت. لا يزال أمامنا يوم كامل.

- أنسيت يا بابا كم اشتريت لي من الذهب وأنا أحتاج على كثراً؟ - نظرت عائشة بربما إلى الكونت، ولم تستطع إلا أن تقول له إن هذا الأمر مما يشغلها: - إن لبست تلك الحلي فإن ماري - أنجيليك وكلودين - ألكسندرین ستمحواني من الوجود كله.

- ستلبسينها! - جزم الكونت، ثم أضاف بلهجة أنعم: - لن أكون راضياً عنك إن لم تفعلي. لِتَ باريس كلُّها، لا اللتان ذكرتِ أهنتما ستغاران منك، أيني

ربّيت فتاة شركسية جميلة، ولكن إن رأيتِ تبّشّين في وجه كلّ من ييشّ لك
فلن يسّري؛ أُخبارك.

- يا بابا! - ظهر على وجه عائشة أن الكلام المكشوف وغير المقبول الذي
تسمعه يُخجلها.

- حسناً، حسناً يا أيسّيه، كأنك لا تعرّفين المزاح... - سحب الكونت أفكاره
ثم اختتم بكلام غير مفهوم ينقصده: - أنا الذي لا يعرفنّك أيتها النساء؟!...
أنتِ تابعي أعمالك يا أيسّيه، وجهزي نفسك للمسرح، وأنا سأفكّر في ما
سأقوله في الندوة كما كنتِ أفعل زمن سفارتي. غير أن لي عندك رجاء: لا
تخبرني أهل البيت أني سأذهب إلى المسرح وأني سأتكلّم في الندوة. لا يعلم بون
دو فيل ولا فولتير بالموضوع. ليكُنّ الموضوع لهما ولغيرهما مفاجأة!

لم تصدق توقعات عائشة بشأن الذهاب إلى المسرح. كان لديها مشاريع
وأعمال تستحق التفكير اليوم وغداً وبعد غد. وما لا تفهمه ولا تعرف سببه
أمران: "من الممكن كتم الذهاب إلى المسرح، كما يقول الكونت، وبعرينة
مستقلة، وتشاهد المسرحية، وتتكلّم في الندوة، ولا تبادل النظرات مع
المعجبين. ولكن ما لم تكن تفهمه هو كيف شُفِي الكونت؟ أليوم واحد أم...؟"
ما الذي شفاه؟ وذاك الذي يظل يردد "عندنا نحن الاثنين ما يكفيانا إلى الأبد"
فيُفِرِّج به عائشة وينيّها؟ و "شرفة مسرح للاثنين"؟ ومناداته لها فجأة بـ
"الكونتيّسة"، ومرة بـ "ابنّي" وأخرى "شارلوت - إليزابيت أيسّيه" و "حين
يروننا نحن الاثنين يتّعجبون ويُوشّوشون"؛ أي أفكارٍ هذه؟ - حُبِّل لعائشة أن
أحداً ناداها بصوت مكتوم، فخرجت من أفكارها، وسألت نفسها: - "لماذا
يريد بابا أن أبقى معه إلى الأبد سيئة الحظ؟ أهذا ما يريد أم...؟"

- يا صوفي اقتربت الظهيرة – تغيّر موضوع كلامها وهي تخترق بأسئلتها – لا تظهر الكونتيستان!
- خرجتا لتسريحة شعرهما.
- وهل المركبة جولي معهما؟
- لا، هي في الغرفة من ساعة ما حملت لها شراب الشوكولا الصباحي. سأله عنك فأخبرتها أنك عند الكونت.
- أفعل ما لا يجوز بحق جولي – نمضت عائشة بسرعة وخرجت من الغرفة. عانقت عائشة جولي التي اخذتها أماً وقد تناست الأفكار المزعجة التي بزرت مع يوم الاحتفال. وسألتها كيف قضت ليلتها، وماذا تطلب. ولامت نفسها على عدم زيارتها في غرفتها إلى الآن.
- أنا ضيفة يا عائشة، وأنتم أصحاب البيت – ابتسمت جولي كالاندرلين منسجمة مع ما تقوله – تأمرونني بالجلوس فأجلس، بالقيام فأقوم.
- جولي يا روحني – لمعت عينا عائشة فرحاً – ما قلته بشأن الضيف يتداولونه أيضاً في بلادنا، بلاد الشركس. ولكنك نسيت واحدةً: متى مرت ثلاثة أيام على الضيافة صار الضيف من أهل البيت.
- لم أعرف هذا. وهي فكرة جيدة. ولكنني لن أستطيع أن أفعله هذه المرة. سيتعلق الأمر في زيارتي القادمة بتصرف جان – لوي معي، وهو الذي يحرص علىّ، وبما سيقوله لكم. – ختمت جولي الحديث في موضوع الضيافة بالمزاح، ثم عاتبت الفتاة الشابة على ما لاحظت عليها: – لماذا يا أيسيله لا تهتمين بشعرك وأنت ذاهبة إلى المسرح؟ كان عليك الذهاب مع الكونتيستان إلى الحلاقة.

- أنا لا أحب مثل هذا الشعر المصفف والمصطنع. وليس محل حلاقتي بعيداً.
- في بيتنا، صوفي، يداها هما الحبيرتان به. وشعرك أيضاً لا يعجبني يا جولي.

دعني صوفي تتصرف به، ولن يتعرفك جان - لوي، زوجك!

- إذا كان جان - لوي سينكرني فما فائدة الشعر المتناثر المنفوش؟ - بادلت المركبة المزاح مع عائشة. وفتحت علبي الشعر المستعار اللتين جلبتهمما وعرضتهما عليها. صادف وجودك فتحهما. الاثنين جديدين يا أيسية. أقدم لك ما تختارينها.

والآن نظرت عائشة مرة أخرى إلى المرأة الفرنسية السمراء الصبوج الحالسة أمامها وقد صارت أقرب إليها روحأً وقلباً. وابتسمت لها وهي لا تعرف كيف تفسّر الطريقة التي نطق بها التعبير الأديعي "صادف وجودك". غير أنها من أجمل ألا تبالغ في أن هذا التعبير دارج عند الأديعة بخوازته، فأخبرتها كيف تكلم معها شارل دو فيريول بمهارة وتركيز عقلٍ، خائفة أن تصيبه بالعين. ومع أنه ألح عليها ألا تخبر أحداً برغبته في الذهاب وحيدين إلى المسرح فقد أضافت عائشة الفكرة بصوت أميل إلى الهمس.

ومع أن جولي كانت تبدو غير مستعجلة على الإجابة عن السؤالين المفاجئين اللذين أطّلعت عليهما فإن ما يغلي في قلبها تفضّحه طريقة جلوسها وتفكيرها. وعائشة تتسلّح بالصبر رغم نفاده:

- لست طيبة يا أيسية كي أتكلّم على موضوع صحوة شارل دو فيريول الكونت وأحلّل لماذا يحدث له هذا - بدأت جولي كالاندرین الحديث وهي تقطّ الكلمات -. ولكنها ليست المرة الأولى التي أسمع فيها حدوث هذه الأمور في الحياة. لنดغ إلى الله أن يشفع عليه ويعيد إليه عقله، ولا يعود إليه المرض طوال حياته. وأنا أهنتك وأهنتك آل فيريول. وإن أردت الصدق لم أر في

الكونت الخطورة التي صورُهَا لي كلودين – ألكسندرин وماري – أنجيليك في رسائلهما. لا ضير في أن يمتحن نفسه هذا الرجل الذي جهد في تأسيس العلاقات بين الدولتين. يجب تناسي هذه الظاهرة والتسامح معها. ولا يجوز معارضته والسخرية منه وإسماعه ما لا يحتمله. لتكونوا في حماية الله، وليرحص كلٌّ على غيره!

– لم تخبرك ماري – أنجيليك وكلودين – ألكسندرин ما ليس صحيحاً يا جولي – دافعت عائشة عن الأخرين – كانت حالة بابا صعبة في الريع والصيف الماضيين، بل في السنة كلها. ربما نفعه الدواء الذي وصفه له الطبيب الذي أرسله إليه أورليان الوصي مشكوراً. أصلى إلى الله أن يبقى بابا على حاله دائماً.

– نعم يا أيسبيه، نعم لا تنسى الله، لا حدود لمعروفه. وأما بشأن رغبته في كتمان موضوع ذهابه إلى المسرح فهالك ما عندي: لا تعانديه إن طلب هذا، تعالا معاً وفي ما يخصني سأتحاصل كل شيء.

X

المسرح الكوميدي الملكي يلتمع بالأضواء. والعربات المزينة بالذهب والفضة تأتي إليه، وترحل. ومنذ زمن بعيد رحلت عربة ماري – أنجيليك وجولي كالاندرین. ومع أن كلودين – ألكسندرین جاءت وحدها فإنها لم تتأخر عنهما.

والرائحة العطرة التي تفوح من الرجال والنساء الآنيين تملأ الفضاء. والذين يتمشّون في الردهة وقت الاستراحة يختلس بعضهم النظر إلى بعض باحثين عن الأجل والأفق. ويتبادلون التحيّات والجمالات. وبين النساء من يستعملن، رغم احتراسهن، مط الشفاه بدليلاً عن الكلام. وتسمع في كل مكان تعاير من نوع "ميرسي" و"مدام" و"مدموازيل" و"ماركيزة" و"دوق" و"دوقة"... والمشاهدون يبحثون عن مقاعدهم، ويتحذّرون أماكنهم. وشيئاً فشيئاً تمتلي الشرفات. وفي الردهة، مع أن الجو محتمل إلى الآن، النساء فخورات بالملوّنة يلطفن بها الجو. ويتّعن العيون بالمناظير الموشّاة بالذهب والفضة. وشرفـة أورليان وصيّولي العهد فارغة. وكثيرون مهمومون بحضوره أو غيابه.

– ألسنا مثل هؤلاء الذين يحتلـون الشرفات يا كلودين؟ – همست ماري – أنجيليك في أذن أختها – لا ينفذ لي أوغست اللعين هذه الرغبة بحجـة الغلاء. مهلاً، أين هي أيسـيه التي قالت إنـها ستـأتي مع جـمـاعة بـيـير؟ هـاهـي جـانـيت – نـيكـول بـرـأسـها المـطاـولـ إلى جـانـب بـيـير. لا أـرى أـيسـيه معـهـما... يا رـبـي لا أـعـرف أـحـصـل مـكـروـه لـأـيسـيه! الكـونـت الشـيـطـان...

– اطمئـني! – قـطـعت جـولي قـلـقـ الكـونـتـيـسـة مـخـفـيـة ما تـعـرـفـ عنـ عـائـشـة – رـبـما ذـهـبـتـ لـلـقـاءـ بـوـنـ دـوـ فـيلـ.

– هـذـا مـمـكـنـ يا جـوليـ. أـلـيـسـ ماـ سـنـرـاهـ منـ عـمـلـ فـولـتـيرـ وـبـوـنـ دـوـ فـيلـ؟ مـاـذـاـ لـمـ تـنـضـمـ إـلـيـهـمـاـ يـاـ كـلـودـينـ؟ أـنـتـ أـولـ مـنـ قـرـأـتـ الصـصـ وـقـيـمـتـهـ.

عم المدوء فجاة الردهة، واتجهت عيون الجالسين في الشرفات نحو شارل دو فيريول الكونت وشارلوت - إلزابيت أيسبيه.

- انظروا إلى هذين؛ يا المصيبي!... - لم تملك ماري - أنجلييك مع ما رأته إلا أن تصرخ.

- يا ماري! - دفعت كلودين أختها برفقها.

- أليس هذا هو الكونت الذي يقال إنه فقد الذاكرة؟ - همست امرأة لزوجها في الصف الخلفي.

- انظر ما أجمل الفتاة التي يصاحبها زير النساء!

- أكان يأتي بفتاة شركسية من تركيا البعيدة لو لم تكن جليلة!

- أهذه ابنة الكونت؟

- يقال إنه اخندها زوجة ولو كانت ابنته... - تهامت المرأةن في الجانب الآخر - لماذا تستغربين؟ أخن من نجهل الكونت؟! انظري كيف ينظر إليها العقيد بليز - ماري دو إدي شوفالبيه. قد لا يعرف أن من يلتهمها بعينيه كانت عشيقة أورليان.

مرة أخرى هدأت الردهة. وجلس أورليان الوصي في الشرفة المواجهة لعائشة. وفي اللحظة نفسها بدأت الستارة ترتفع عن المشهد مع المرثية المتجانسة معه. في خلفية المشهد تُشاهد جبال بيضاء متفرقة وغابات متصلة. والماشي ترعى في سفوحها. والراعي الواقف على طرف الصخرة العالية يحمل الطفل الذي وجده في الريف. ومن بعيد تظهر القرية التي يسكنها "لايوس" الملك و"جووكاستا" الملكة. تخفُّث المرثية، ويصقق المعجبون بما يرون. ويتميز صوت شارل دو فيريول من بين من يصيرون "برافو!". وأورليان يصفق دون أن يزيح عينيه عن شارلوت - إلزابيت أيسبيه كأنما هي من كتبت الصورة الجميلة.

الصوت الصادر من وراء المشهد الفارغ يروي ناشراً القلق في الصالة: "هذا الصبي الذي يحمله الراعي اسمه "أوديب" وهو ابن ملك طيبة لايوس والملكة جوكاستا. وجده في غابة جبل سيترون. وحين قال "أبولون" العراف: سيولد للملك لايوس ولد، أمر بإلقاء المولود في الغابة. وهو الآن حيٌ رياه الراعي حتى بلغ العشرين. لكن لما لم تكن الحياة كلها خيراً، فحين سمع أنه ليس ابنًا حقيقياً من رياه، توجه إلى العراف أبولون لمعرفة الحقيقة. وفي الطريق التقى في مفرق طريق "دلفي" برجل غني. ولما تشا جرا ضربه الرجل الغني فقتله أوديب وحراسه. وكان الرجل الغني الذي قتله، وإن لم يعرّفه أوديب، هو أباه الملك لايوس. ولما وصل إليه حكم مدينة "طيبة" لم يستطع النجاة من حكم القدر. كان التنين يمنع الناس من دخول المدينة والخروج منها، وأهل المدينة يموتون من الجوع والمرض...".

تبعد صورة مدينة طيبة ببيوتها الكثيرة من تحت أقدام جبل سيترون. ورجال المدينة ونساؤها على الأقدام، وأوديب يواجه التنين ذا الأذرع الهائلة.

- تنجّ جانباً ودعني أدخل المدينة!

- من أنت فتكلمي بمثل هذا الكلام الفظ؟ - سخر التنين من أوديب. وحين يرميه التنين برمي يقطعه أوديب بالسيف، ولكنه ينبع من جديد...

يقف الرجال وقد أعادهم العراك الناشر على باب المدينة ليحاربوا إلى جانب من لا يعرفون هويته. وحين تف ips روح التنين المجرح جرحًا قاتلاً يقول لقاتله:

- لم أعرف أنك مقاتل شجاع هكذا. لو عرفت...

يرفع سكان المدينة أوديب على الأكتاف ويقولون له:

- أنت من أبعد الموت عنا!

- أوديب ملوكنا. سنزوجه أجمل بناتنا!

- ليس في طيبة امرأة أجمل من جوكاستا الأرملة الشابة.
 - أوديب وجوكاستا! أوديب وجوكاستا! يت صالح سكان المدينة.
 بين الفصل الأول والفصل الثاني، وفيما يتغير المشهد والمصورة وراء المسرح يعود صوتُ الرواِي: "هكذا صار أوديب الشابُ العازب ملكاً على طيبة. ويزوجونه من جوكاستا الأرملة الشابة. لا يعرف حقيقة الزوجين الجديدين غيرُ أبولون العراف وأنتم. (في هذه اللحظة تئن الصالة على نحو مريع يبعث الرعب وأوديب الملك (بارون ميشيل يقوم بدوره) وجوكاستا الملكة (لوکوفير أدرين تقوم بدورها)¹ يعيشان سعيدان. - يظهر على الخشبة بعض الأشخاص مثنى وثلاثَ يتحدثون في ما يجري في عاصمة المملكة. يمدحون بعضهم ويذمرون غيرهم. ولكن مهما قالوا فلا أحد يتكلم بسوء على الملك والمملكة. يروون قصة جبهمَا المتبَّن الجميل لكل إنسان. يختفي الناس من على الخشبة، وفيما يتحدث سكان المدينة يستأنف الرواِي حكاياته: دخل إلى مدينة طيبة من يفتَّن بين الناس كما أن الحجرين يشعلان النار إذا اصطكَا. حين تعرف جوكاستا أم بولينيك وأيتيلوك وأنتيغون وإيسمين أنها أم أوديب تنتحر شنقاً. ويفقدُ أوديب عينيه... أيها الناس انتبهوا. لا تفعلوا الشر. من يفعل الخير يجده..."
 انزاحت صور المشهد الثاني رويداً رويداً. ورجعت صورة جبال الفصل الأول. وأوديب الملك الأعمى بكيسه المعلق على كتفه تقوده ابنته أنتيغون على خشبة المسرح. وترتفع الأغنية - المرثية، والذين شاهدوا مأساة أوديب الملك وجوكاستا الملكة يصفقون من أعماقهم للممثلين على الخشبة، ولفرنسوا فولتير وبون دو فيل دو فيريول. وtern أرجاء الصالة بـ "برافو". وعائشة مسرورة، وماري -

¹ الأقواس من المؤلف. المترجم.

أنجليك تمسح دموعها. وكلودين - ألكسندرin تصفق ظاهراً غير أن عينيها تتنقلان بين أورليان الوصي على العرش وشارل دو فيريول الكونت.

- لماذا يا شارلوت - إليزابيت أيسبيه ظلت عيناً أورليان عليك وهو يصفق؟ - سأل الكونت عائشة بصوت مبهم - وأنتِ خليل إلى أنك كنت مسورة لهذا.

- يا بابا، ألم تبهرك ألا توجه لي مثل هذا الكلام؟!

- كفى، كفى؛ لنذهب! - تأبط شارل دو فيريول عائشة وخرج بها من الشرفة مثيراً انتباهاً أورليان والجمهور. وفي هذه اللحظة تمنتلت لها صورة أوديب الملك الأعمى تقوده ابنته فتأملت.

حين رأى شارل دو فيريول وهو نازل من الشرفة أورليان الوصي وحاشيته تتجه إليه همس في أذن عائشة:

- دعينا نحيي هذا الرجل دون أن تُظهر استياءنا منه!

بعد ما تبادلا تحية باهتة قال الدوق الوصي لشارل دو فيريول:

- الحمد لله على السلامة. يسرني أنني رأيتك في المسرح. فرنسوا أروا... ما الاسم الذي قلت إنه أضافه إلى نفسه - سأل الوصي الذي لم تبتعد عيناه عن عائشة أحد حاشيته: - نعم، نعم، فولتير... وبون دو فييل فيريول الكونت أَعْجِبْتُكما مسرحيتهما؟

- هل أَعْجِبْتُك أنت يا وصي ملك فرنسا لدفعي الخامس عشر؟ - أجبت عائشة قبل أن يجد الكونت وقتاً للإجابة.

- ما يعجبك سيعجبنا يا آنسة... - توقف الوصي عن الكلام كأنه لا يعرف اسم عائشة.

- شارلوت - إليزابيت أيسبيه الكونتيسة - نطق شارل دو فيريول الاسم بتمامه مستمتعًا.

- ييدو عليك أنك شهدت اختتام العرض بفرحة أسرية عظيمة يا شارلوت –
إليزابيت أيسيه الكونتيسة – نطق زير النساء اسم عائشة كاملاً مستلذاً –
ونحن أعجبنا به. عندك اسم جميل أيتها الكونتيسة.
- أنا، يا دوق من سماها بهذا الاسم الجميل الذي أعجبك – بدأ صوت
الكونت الذي يمتدح نفسه يتغير فجأة.
- سمعت منذ بعض الوقت أن عندك ابنة جميلة أيها الكونت، ولكن لم أعرف
أنها بهذا الجمال كلها.
- بين "أن تعجبك" و"أن تُعجب بها" فرق يا دوق – نظرت عائشة في وجه
الوصي باسمة – ولكن لأنني أراك أُعجبت بالمسرحية التي قدمها أخي الصغير
بون دو فييل وصديقي فنسوا فولتير فأناأشكرك باسم آل فيريول.
- نعم، نعم ياشارلوت إليزابيت أيسيه، نقول شكرأً للوصي على ملك فرنسا
المفدى. – لم يكن شارل دو فيريول يرغب في مزيد من الحديث مع أورليان.
بل ندم على اتخاذه محادثاً. – لنمض يا أيسيه الندوة تنتظرا.
- يا بابا – مع أنه لم يكن من واجب عائشة أن تقول هذا فإن إنسانيتها
وطبيعتها جعلتها تقول: – أدع أورليان إلى الندوة.
- قال شارل دو فيريول بصعوبة، وقد زاغت عيناه بسبب كلام عائشة، مغالباً
نفسه:
- سأدعو وصي ملكتنا إلى ندوتنا، ولكنه لن يأتي... تفضل يا دوق إلى الندوة!
- شكرأً عندي علّم بوجود ندوة لكم. ولكني لن أستطيع الحضور. لا أندم على
أني تسللت من أعمال الدولة وحضرت إلى المسرح، وأنا سأدعوك مرة أخرى
إلى ندوة ملوكية. ونلتقي هناك.

- كأن الوصي الدوق صديقلٌ من زمان - قال الكونت لعائشة وهم يسرعنان إلى الندوة - أي دعوة حارة وجهمتها إليه! ألتقيان وتحفيان عنِّي؟!

- يا بابا أي عار تلتحقه بي بمنها الكلام؟ - حاولت عائشة أن تُفلت يد الكونت بعنف غير أن الأخير لم يسمح لها.

صفق الحاضرون لشارل دو فيريول وعائشة. وقف شارل دو فيريول إلى جانب المنصة. ووقفت عائشة مع بون دو فييل وأرجنتال وفولتير ومونتسكيو وماري - أنجليك وجولي كالاندرین وكلودین - ألكسندرین... وكان الرجال الآخرون المدعوون في الجانب الآخر.

- السيدات والسادة - رفع شارل دو فيريول كأس النبيذ. - قبل لحظات التقى أنا وشارلوت - إليزابيت أيسية الكونتيسة بالوصي على الملك الدوق. وهو يبلغ إعجابه وتحياته إلى فنسوا فولتير وبون دو فييل، وأنتما أيضاً بارون ميشيل وأدريين لو كوفير. وكان بوده حضور ندوتنا ولكنه مجبراً من تزاحم الأعمال عليه يعتذر ويلغّلكم تحياته. تحيا فنسا! وأنا أقول لمن كتب "أوديب" ولمن أخرجها، ولكل من ساهم فيها "برافو" ثلاثة صيحات. أدعوا ألا يحدث في فنسا ما حدث للملك أوديب. يحيى ملكتنا لودفيغ الخامس عشر، وليعيش سعيداً!

وبعد الكونت تعاور الكلام كلودين - ألكسندرین وعشيقها لافريني وبارابيري و كالاندرین وعشيق ماري - أنجليك نيكولا مارشال دو ديفان وبليز ماري دو إيدي شفاليه الذي لا تعرفه عائشة. وأخرون.

- من هذا الفارس الذي يتكلم؟ - همست عائشة في أذن أرجنتال مشيرة إلى الشاب الجذاب الذي ألهب شغاف قلبها.

- هذا هو العقيد بليز - ماري دو إيدي - همس لها أرجنتال دون ارتيا بـ في سبب السؤال. - فارس في الفرقة المالطية، اجترح بطولات كثيرة في حروب الدفاع عن فرنسا¹.

قال فولتير يتكلم على الفرق بين النص المكتوب والعمل المقدم على الخشبة، وكأنهم سألوه هذا السؤال.

- قد يكون بين الناس من يميز النص من العمل الجسد. ولكن الفكرة واحدة فيهما. العمل الجسد قريب من الميتولوجيا اليونانية. ولست جاهلاً بالفرق. ولأنه يُخيّل إلى أن التمثيل يرفع من قيمة المعنى فإني أعرب عن احترامي لصديقي بون دو فيريول الكونت الذي أخرج العمل. وأشكّره². تسلل شارل دو فيريول إلى جوار عائشة دون أن يعبأ من يرفع الأثخاب ومن يشربها، وقال بصوت يسمعه الجميع:

- لا أعرف إن كنت أهملتني تماماً يا شارلوت - إليزابيت أيسبيه، تركت رعاتي...

¹ يكتب المركب دو ديفان: دو إيدي عقل نشيط، يرافعه كلامه الجميل ومعروفة. لا مثيل له في ذكائه وتقديره للمواقف. جديد دائماً في كلامه وأفكاره. يشهد الحب له دائماً بصدقه. وما يبديه الإنسان من إهمال يعده إهانة شخصية له. ويشجب سلوك الناس الذين ينقضون العادات والتقاليد. ويعادي الناس الأشارق وقصيري النظر. وبسبب تغيير دو إيدي موقفه بسرعة فإنه يستطيع تغيير سلوكه وعاداته. والحق أن كونه بهذه الطباع أفضل " فهو إنسان حزين ولكنه ليس بارد الطباع ولا ذكياً ولكن دون ثحبث". المؤلف.

² كان بون دو فيلي وأرجنتال وفولتير أصدقاء حقيقين. يقول ف. س. ليو بلينسك في كتاب "مسرحيات فولتير". كانوا ينففان عنه مهماته ويساعدانه في كل وقت. وبعدهما "ملائكته الحماة" ويثق بهما ويعرض عليهما مخطوطاته للاستئناس برأيهما فيها. المؤلف.

فهمت عائشة حالاً أن عليها إخراج الكونت من الندوة، وحين أمسكت بذراعه استسلم لأوامرها.

بعد ما رجعوا من المسرح الكوميدي ببضعة أيام لامت ماري — أنجيليك
عائشة:

- أيسيه لي عتبْ عليك!
- وما هو يا ماما؟
- كنتِ أطف في صغرك. أنت الآن متكتمة على نفسك.
- لا أعرف لماذا تقولين هكذا. قلبي مفتوح لك دائمًا.
- لا تقولي، لا تقولي، أعرف كل شيء، وأراه. لم تخبريني ما جرى لك في المسرح قبل أيام مع أورليان.
- ليس هذا سرًا. ألم يخبركم بابا في الندوة كيف حدثني وصيّ الملك، وأبلغكم تحياته.
- هذا باباك الكونت شيء آخر. وأنا أريد منك أن ترويها بنفسك. أفهم، أفهم أن أحدًا لم يعد يسأل عني. حين أمعنت النظر في عشيقي نيكولاي فوجدت الشيب دبّ فيه... وأنت جعلتِ الكونت همّك فلا تعبئين بسُمنتي الطارئة... ألا ترين جفوني، ورجلّي كيف تتفخان؟... — وخلافاً لعادتك سابقاً في الإسراع إلى منديلها فقد بكت حقيقة هذه المرة. — لا أعرف لماذا أنتفخ هكذا إذ لا أشرب كثيراً من الماء. ألا تتذكري يا أيسيه كيف كنتُ خحيلة؟ أنت لا تعرفون؛ ولكن ما الفائدة الآن من هذه التفاصيل، كيف كان نيكولاي وغيره يجرون ورائي. لم يري أحد في المسرح ، ولم يتعرفي.
- يا ماري — أنجيليك يا ماما — جلست عائشة إلى جانب الكونتيستة وعانتها، ومسحت على كتفها. — لا تيأسى ، سأصحبك إلى إحدى المدينتين

اللتين يُستشفى فيهما، بالاريوك أو بوربون – لانسي. أظن أن مياه هاتين المدينتين ستتفعل.

– سذهب. ولكن لا أعرف من أين نأتي بالنقود الالزامـة. حين كان نيكولي شابـلـ يـكـنـ يـخـلـ عـلـيـ بـالـمـالـ. وـالـآنـ كـأـنـ فـيـ أـسـفـلـ جـيـبـهـ شـوـكـةـ فـلـاـ يـجـرـؤـ عـلـيـ مـدـ يـدـهـ إـلـيـهـ. وـإـنـ كـنـتـ تـعـتـمـدـيـنـ عـلـىـ الـكـوـنـتـ فـبـعـضـ الـمـلـاتـ مـنـ الـلـيـرـاتـ الـتـيـ اـحـتـجـنـاـ إـلـيـهـ لـلـنـدـوـةـ لـمـ نـسـطـعـ أـنـ نـخـصـلـ عـلـيـهـ مـنـهـ.

– كانت الندوة جيدة جداً يا ماما.

– لو رجعتـ إـلـيـنـاـ بـعـدـمـ تـرـكـتـمـوـنـاـ وـغـادـرـتـمـ لـعـرـفـتـ إـنـ كـانـتـ جـيـدـةـ جـدـاـ. حين نـفـدـتـ الشـمـبـانـيـاـ وـصـارـ المـدـعـوـونـ يـتـبـادـلـونـ النـظـرـاتـ، ماـ الـعـمـلـ؟ـ أـتـقـلـعـيـنـ عـيـنـيـ؟ـ مـنـ حـسـنـ حـظـيـ أـنـ كـانـ مـعـيـ شـيـءـ مـنـ الـمـالـ. فـطـلـبـتـ خـمـسـ عـشـرـ زـجاجـةـ مـعـ كـمـيـةـ الـطـعـامـ الـمـنـاسـبـةـ. لـأـنـدـمـ عـلـىـ مـاـ فـعـلـتـ. مـنـ أـجـلـكـمـ فـعـلـتـ. لـمـ أـنـقـصـدـ رـوـاـيـةـ مـاـ جـرـىـ.

– لم يكن يجب أن يحدث هذا يا ماما، ولكن لا أعرف كيف أفيده؟

– أخبرـيـ الـكـوـنـتـ! – أـسـرـعـتـ الـكـوـنـتـيـسـةـ كـأـنـاـ كـانـتـ تـنـتـظـرـ هـذـاـ التـصـرـيـحـ مـنـ عـائـشـةـ. – لـيـمـدـ يـدـهـ مـرـةـ أـخـرـىـ إـلـىـ جـيـبـهـ!ـ هـذـهـ هـيـ الـطـرـيـقـةـ الـتـيـ تـفـيـدـيـنـيـ بـهـاـ...ـ بـرـقـيـتـ هـذـاـ القـصـرـ الـأـبـيـضـ الـكـبـيرـ وـهـذـاـ الـفـنـاءـ الـوـاسـعـ.ـ وـالـقـلـيلـ الـذـيـ يـكـسـبـهـ أـوـغـسـتـيـنـ يـصـرـفـ عـلـيـهـمـاـ.ـ وـالـكـوـنـتـ صـارـ عـنـدـنـاـ عـاجـزاـ فـلـاـ يـسـاـهـمـ فـيـ شـيـءـ.

– يا ماما – استدارـتـ عـيـنـاـ عـائـشـةـ مـسـتـغـرـيـةـ مـاـ تـسـمـعـ. – بـاـباـ مـرـيـضـ،ـ وـلـاـ يـقـالـ مـثـلـ هـذـاـ بـحـقـ الـمـرـضـيـ.ـ وـهـوـ يـعـطـيـكـ كـلـ شـهـرـ قـيـمـةـ مـاـ يـسـتـهـلـكـ فـيـ الـبـيـتـ مـنـ الـطـعـامـ.

– وـتـعـرـفـنـ هـذـاـ!

– أـعـرـفـ لـأـنـيـ جـزـءـ مـنـ الـأـسـرـةـ.

- منها، ولكن ليس كما تتصورين.
- ألسست هكذا قلت لي كل شيء يا ماما!
- أنا أقول الكثير يا أيسبيه فلا تتعلقني بكل ما أقول. - مدت يديها إلى عينيها بمهارة وهي تتراجع عن كلامها - أين أذهب بك؟ يا حسرتي! ربيتك وأنشأتك... كلودين أختي تكتب وإن عاتبها، وتعيل نفسها بما تكتب. وأنت ماذا يا حسرتي. لا مهنة لك. أفكر فيك كل يوم فلا أعرف ما أقول بحقك. لا تلوميني يا أيسبيه على ما أقول لك. ولكن أريد أن أسألك الآن سؤالاً آخر: لا يعرف ما سيحدث غداً إلا الله. اليوم الكونت على قيد الحياة، وغداً لا. إن حدث معه شيء من هذا القبيل، مدد الله في عمره، ألم يترك لك شيئاً تعيشين منه؟
- نعم.
- أُمْتُقْعَدْ وجه ماري - أنجيليك.
- خصّني بربع يدرّ على أربعة آلاف ليرة في السنة.
- هذا مبلغ جيد يمكنك أن تعيشي به. متى عمل هذا؟
- قبل شهرين تقريباً. إن كنت تتذكريين حين تحسنت صحة بابا.
- نعم، أتذكرة. ربما حين غبتما طوال النهار ونحن لا نعرف أين أنتما. شكرأً للكونت على أنه لم ينسنك. إذا قسمت الأربعية آلاف على السنة يكون الناتج ثلاثة شهرياً. - حسبت الكونتيّسة سريعاً المبلغ، وأضافت لعائشة مع أنها استاءت من تصرف الكونت دون استشارة أحد: - كان يمكن أن يضيف إليها مثلها دون أن يفتقر. هل هناك ورقة مختومة تثبت ذلك.
- نعم، ما الأمر يا ماما؟ ألا تصدقين؟ إنت أردتِ أربيتك الوثيقة.

- لا يا أيسية. كأني ألاحق أموال أحد. كيف لم تُعلمني حتى سألتني؟ لم أكن أصدق حين يخبروني ولكن أنتِ امرأة قوية. الآن عرفت من أين الذهب الذي تلبسينه. والملابس التي شترتها أو تحيطينها.

- هذه يا ماري - أنجلييك، يا ماما اشتراها لي ببابا قائلاً: ليس هناك ما لا أقدمه لك. وهو مسرور بها أكثر من سروري أنا. ألا تعرفين كم هو طيب القلب وشيق؟

- أعرف، أعرف. - ابتسمت الكونتيسة - من وقت ما صرت كنّته لا أتذكر أنه قدم لي شيئاً. وأخوه الأصغر أوغستين فهو أحسن منه؟ يكلفوني بمسؤولية أسرة فيريول الضخمة متناسين أني امرأة. حسن يا أيسية. يسرني أن الكونت يعاملك هذه المعاملة. وأنا، ولو لم يكن عندي الكثير، كنت أتمنى أن أقدم لك مثل ما قدم، ولكن من يصدقك إن ادعى إمتلاك ما لا تمتلك؟... وبالإضافة إلى عائدات الريع يا أيسية ألم يدرك الكونت بأملاكه ما؟ ألم يقاسعك؟ قالت ماري - أنجلييك لنفسها "وله حصة في هذا البيت، تبدد ثروتك وميراثك على من لا تعرف أصلها"

حين سألت ماري - أنجلييك عن توزيع المثلث فهمت عائشة مصدر كلمات الكونتيسة العذبة: "كان عليّ ألا آتي على ذكر الريع. ومن حظي أني لم أخبرها بأن معي الوثيقة التي تستثنى هذا الريع من تركة بابا حين يتوفى... لست المذنبة، هذا من أخطاء بابا. ماري - أنجلييك تسألني هذه الأسئلة رغم أنه ما زال حياً. لا أعرف كيف ستتصرف معي بعد وفاته"

- لا أفهم موضوع الملك الذي تسألين عنه. - عرفت عائشة أنها الآن في موقف يحجب أن تكذب فيه. لم تقل الحقيقة للكونتيسة، وأضافت إليها كلمة تأسف: - لماذا علينا أن نرثي بابا وهو حي؟

- هذا صحيح يا شارلوت - إليزابيت أيسبيه - بدللت ماري - أنجيليك نفسها - سأله دون هدف، لم يكن في ذهني شيء... أفضله من هذا أن تحكي لي كيف التقييم بأورليان وما تبادلتم من حديث. لم يرفع عينيه عنك طوال الأمسية يا أيسبيه، لم يكن يشاهد المسرحية، وأنت من لم تلتفت إليه.
- يا ماري - أنجيليك يا ماما - عاتبت عائشة الكونتيسة وما يقال لها يورز خديها. - ألم أترجحك ألا تفتحي معي مثل هذه الأحاديث؟
- رجل فرنسا الأول لا يتكلم مع كل أول امرأة يقابلها. لماذا لا تفهمين هذا يا أيسبيه؟
- ما أجمله من رجل! - كررت عائشة ساخرةً العبارة التي نطقها الكونتيسة حين تثبت الوصي الدوق بها.
- لا يتحقق لك شيء يا أيسبيه إذا تعلقت بالكونت المريض من باب سداد معروفة إليك. - رفعت ماري - أنجيليك صوتها، ثم رجعت فنعته: - خذني نصيبك من الدنيا الجميلة، لا تخزمي نفسك من شيء!
- لا تعني عليّ يا ماري - أنجيليك، يا ماما - ولكن سأأسألك. لو كان عندك ابنة من رحمك أكنت تقولين لها ما تقولين لي؟!
- يا أيسبيه، ما كنت لأكتفي بأن أقول لها، بل لو كنت مكانك لقللت لنفسي الكلام نفسه... كان أورليان وعده أن يدعوك إلى الأمسية التي ستتعقد في "باليه روالي" فلا تعاندي وتحزمي نفسك منها. وأنا سأصحبك إن تفضلت وقبلت بي. وهذا الذي تعلق قلبك به بليز - ماري دو إيدري مانفعه؟ أمثاله كثيرون في كل مكان.
- ماري - أنجيليك، يا ماما.
- نعم، نعم، لا تصرخي بوجهي!

صوت الأغنية العالى الذى أجهل ماري — أنجيليك وعائشة كان صادراً من غرفة الكونت.

— بابا! نحضت عائشة سريعاً.

مزقت الأغنية المأخوذة من أوبرا "بروزيرينا" الصمت.

— هذا ما تتقنه؛ تحرمين نفسك من الدنيا وأنت تردددين "بابا، بابا". كفى، سيهدهـه دستان وجماعته.

— مضى بعض الوقت على آخر مرة ظهرت فيها على بابا هذه الأعراض.

— خرجت عائشة ملهوفة من الغرفة.

— هذا أنت أم أديرين؟... — قطع الكونت غناءه وسأل.

— يا بابا، ألا تعرفي، أيسى؟ أمسك عائشة بيد الكونت. — ألا تعرفي؟

— "بروزيرينار يا نوري، بروزيرينار يا حبي!" أكمل غناءه وهو يتغung لعائشة. ثم أمسك عن الغناء فجأة وسألها وعيناه تنظر كلّ في اتجاه: — ماذا يا أيسى، لا تصاحببني في الغناء؟ هل أوبرا "بيليروفونا" هي التي تعجبك؟ — ويضيف إحدى أغاني تلك الأوبرا "بيليروفونا، بيليروفونا، يا حبي أين أنت، تعالى عانقيني عناقً حارً، ودعيني أقبل شفتيك الحارتين!"

— توقف يا بابا! انتزعت عائشة نفسها من شارل دو فيريول الذى كان يشدّها، وترجع مرتعبةً.

— لا تفزعى! أمنزح معك فحسب. — عاتب الكونت وهو يعود إلى مقعده الناعم وكأنه لم يفعل شيئاً: — أنا غير راضٍ عنك يا شارلوت — إليزابيت أيسى.

— ماذا حدث لك اليوم أنت وماري-أنجيليك؟ — سألت عائشة الكونت تريـد أن تقوـه الموقف المهين الذى وجدت نفسها فيه. — هي عاتبة على وأنت؛ هل توافقـنا على أمر؟

أحباب الكونت الذي لزم الصمت مدة مع شبه ابتسامة:

- ليست الكونتيسة التي ذكرتها موضع ثقتي. والآن أسألك: لماذا أخفيت عني لقاءك بيليز - ماري دو إيدري في صالون المركيز "دو ديفان"؟ - قفز الكونت من مجلسه وهو يباعد بين طرفي جلبابه، وفيما يذرع أرض الغرفة طرح شكوى أخرى: - أتجهزين نفسك لحضور أمسيّة أورليان في "باليه روالي"؛ صحيح؟ لا تظني أني لا أعرف شيئاً! لاشيء يحدث في باريس ولا أعلم به. ولن تخطي خطوة خارج البيت دون إذني!

لم تكن المرة الأولى التي تسمع فيها عائشة مثل هذه الأسئلة - الأجوبة اللئيمة. وقبل أيام طرح عليها مثل هذه الشكاوى التي لا تعرف عائشة من أين يأتي بها. ولكنه لم يتثبت بمطالبه في تلك المرة كما الآن.

ولكن تصرُّف الكونت شارل دو فيريول الصبياني العاشر أمامها قبل لحظات، ومحاولة تقبيلها؟... "لا مزاح في ما فعل - تعثر قلب عائشة في صدرها. الأب يعانقك، يمسح على جسده، يقلق عليك، ولكنه لن يهجم عليك وعيناه تلتهان. ولن يحاول تقبيل شفتوك. هذا عار... ثم إنه يحاسبني على ما لم يخطر لي قطُّ. ما المشكلة في أن أتعرف بيليز - ماري دو إيدري؟ ومن أوصل إليه الخبر؟ ومن هيّجه؟ وما قاله لي بشأن ندوة أورليان في "باليه روالي" مضحك... ألم تقل لي ماري - أنجليوك الكلام نفسه اليوم؟ مرة يقال لي "أنتظلين متشبثة بالكونت؟"، وأخرى يوصّلون إليه تعارفي أنا وبيليز - ماري. هؤلاء كمن يفرض هذا الوضع المستحيل: "لا تخرج من البيت، ولا تُقْمِ فيه، ولا أدخل وأنت فيه!" ومن هؤلاء؟ ومن سيكونون؟ أولئك الذين لا يعجبهم ما يبني وبين بابا. ولكن لماذا ينسى أو يتناهى أني ابنته؟ لأنّه مريض؟ ولو لم يكن مريضاً؟ استغلال مرض الإنسان لفائدة شخصية أكثر من عيب. في سوق

خاسة إستانبول تعلمت هذه الحكمة. من حسن حظي أن بابا اشتريني في ذلك اليوم. ولو اشتريني أحد مديري دور الحرام؟ لا يجوز نسيان معروف من أسداء إليك. أتهمه دون ذنب. إن أتناس هذه النصيحة وقت أزمة بابا أكسب ذنباً. كانت جدتي تقول "وجع العين ظاهر ووجع القلب باطن". وتضيف إليها "وجع الرأس سبب للثرة"، وأقولاً أخرى. لا أستطيع مجافاة بابا المريض لأنه أساء السلوك معي. وماري - أنجيليك ريتني سنوات عدة. يقولون: "كل من يهرم يعود طفلاً" فلن أسبب له الأسى بذرية أنه قال لي شيئاً، حتى لو إكراماً لبون دو فيل وأرجنتال...

صار شارل دو فيريول يوجه نظرات متسللة إلى عائشة تقول "لماذا لم تجيبي على ما سألك عنك؟" فعادت وأشفقت عليه، ولاطفته بالكلام:

- نعم يا بابا، فهمت. لن أخطو خطوة خارج البيت دون إذنك.

- حسنْ أنك فهمتني يا أيسية... - سالت دموع شارل دو فيريول على وجنتيه - لا فرح لي في هذه الدنيا غيرك!

- بابا، لا تيأس! - ركعت عائشة دامعة العينين أمام الكونت وأمسكت بيديه وقبلتهما. - أنا لك، وأوغستين - أنطوان، وبون دو فيل، وأرجنتال، وصوفي، وديستان، ولاروش، وخدمنا الآخرون يُحسنون التصرف معك. في ذلك المساء، الوصي - لم تكن تريد ذكر اسم أورليان - كما سمعت ذكرك بالخير، وسأل عنك كثيرون يعرفونك وآخرون لا يعرفونك.

- شكرأً للجميع. - أضاف الكونت إلى ما قاله وهو يميل للهدوء - أنت تعرفين وضع عملك أوغستين، هو في ضيق... - ثم رجاهما بعد قليل: - ولكن يا شارلوت - إلزابيت أيسية لا تخبري الأخرين غيرين دو تانسين أن الدكتور لاروش صار موضع ثقتي.

- ماذا قال لك لاروش؟ - سألت عائشة وهي تتوجس ما لم يصرّح به الكونت.
- مستشفى "بيسرت" - سالت دموع الكونت ثانية.
- لا شيء من هذا القبيل يا بابا - جزمت عائشة بصوت واثق، - إنس هذا الموضوع واطمئن!
- هكذا يا ابني؟ - سأّل ومشاعر الأبوبة واضحة أكثر من أي وقت مضى. ولم يملك إلا أن يتسلل إليها في ما يخافه: - ولكن لا تدعيني مع ذلك يا أيسبيه وحيداً في البيت!

الكتاب الخامس

I

"من تره العين دائمًا يصبح كالروح" لم يكن بليز - ماري دو إيدري وعائشة في هذا الوضع إلى الآن. - لم يكن مضى نصف عام على تعارفهما. ولكنهما تجاهلا من أول نظرة، وقولهم "الحب نازٌ متى تشتعل يصعب إطفاؤها" ينطبق عليهما، ونار الحب التي اشتعلت بينهما تدفهما ولكنها تحرق من يحاول إطفاؤها. وكانت أيام الطرفين الثقيلة وليليهما - أحدهما بحب طاهر والآخر بحقد أسود - تمضي. ومع أن هذين الشابين كانوا حرين في الحب المتبادل بينهما، فلم يكونا حرين في ما يقولان وما يفعلان في هذا الصدد.

كانت واضحةً الطريقة التي انتهى بها حب عائشة لشارل دو فيريول. - عبر عنه في ندوة المسرح، وبعدها صارحها تماماً في البيت. وأضاف إليه موضوع الوصي. ومع أن الكونت، على مرضه، كان يرحب في إفهامها حبه بتردد الأغاني فلم يستطع مكاشفتها به بكلام صريح. وحين فهم الكونت موقف عائشة الحقيقي منه توسل إليها مغيرةً بعض الكلمات التي كان لمّح بها. أيّ سلوك وترتيب هذا؟ فهو خوف الكونت شارل دو فيريول من مرضه أم هو القلق على فوات الغاية السرية التي كان يضمّرها للصبية الصغيرة يوم اشتراها؟ حتى لو كان هذان السؤالان وأسئلة أخرى متداخلةً متلاصقة فقد كان الكلام المتousel "لا تدع الأخرين غيرين دو تانسين تلحقان العار بي" جواباً للسؤال المروع. والجواب الآخر هو قلق حبه الخفي.

يختلف شأن الأخرين اللتين يخاف منهما الكونت: ليست ماري — أنجلييك مهمومة بالريع الذي سيدر عليها أربعة آلاف ليرة في السنة بل بشأن هذا الذي إن يفقد ذاكرته أو يمُتْ؛ أُشركتها في ترِكته حين يتوفى؟ وكلودين — ألكسندرин تصب حقدها على الكونت وتشمل به عائشة مدفوعةً بالغيرة، متظاهرةً بالإشراق عليها. واحدٌ يتأمل، والثانية تخاف، والثالثة تغار.

وباريس التي كان يعني لها شارل دو فيريول "وي باريس، يا باريس" ماذا يهمها في هذا الموضوع وغيره؟ الحياة تغلي فيها. من ينجح أمره فيها يفرح، ومن لا يُفلح فيها يقعد مطروقاً محسوراً. والأمكنة التي يرى فيها الملك الصبي لودفيغ الخامس عشر: فيرساي، وتريانون، وحدائق الغزلان، أمكنة احتفالات لا تنتهي. ولا ينتهي الصخب في "باليه روالي" حيث يقيم الوصي أورليان مأدبه. ولا يقوم الذين يقتربون الدسم من الحليب إلا بجمع المال والبحث الدائب عن الحب بلا قيود. يتذاعون فيلتقطون ثم ينصرفون. يعيشون متحررين من الشعور بالحرج من تبادل العشيقات.

كان حظُّ عائشة التي أوقعها حظُّها العاشر أن تعيش شبابها في عصر هذه العيشة الفاسقة، في عهد لودفيغ الرابع عشر ثم الخامس عشر. وقد التهب حبُّ عائشة الأول في هذه الظروف دون أن تدري أن لا مستقبل لهذا الحب. ولكنها لم تكن ناراً واحدة بل اثنتين: نار بليز — ماري دو إيدي، ونار الكونت شارل دو فيريول. وكانت شارلوت — إليزابيت أيسبيه بين هاتين النارين. الأولى كانت تدفع عائشة، والثانية كانت تحرقها.

أكانت عائشة تجهل أن دو إيدي شفالييه جندي في الفرقة المالطية، ولا يحق له الزواج؟ أكان هو نسي نذر نفسه للفرقة وتعهده بعدم الزواج؟ مرة أخرى أثبتت الشابان اللذان اتحدا قلياً وروحاً أن الحب لا يسأل، وأنه بلا حدود، وأنه نار

حامية. ولكن الحب لا يعني الحظ السعيد. طريقه طويل أو قصير، ضيق أو واسع، إنه مزيف من السعد والنحس. أهي طريق سيسلكه العاشقان؟ وإلى أين سيقود؟ حين تشرع في الإجابة على الأسئلة التي لا تنتهي عن الحب فإنك ستتوه على مفارق طرقه المتعددة. وإن جعلك المال تتقبل الحب الذي لم يتقبله القلب والروح فإن الحظ العاشر سيكون طريقك إلى الأبد.

الربيع الذي تلا أشهر الشتاء الثلاثة الطويلة متعدد بين البرد والحر. ورائحة البرد ما تزال تفوح من الأرض رغم ذوبان الثلوج الناعم الذي سقط البارحة. ولكن الأغصان العارية تخلّت عن قسوتها التي كانت عليها في الأحد الماضي. تهتز مع النسيم الناعم بعنومة. وترقب الشمس التي تغيب ملؤنةً الأفق بالأحمر. والعصفوران الملتوان على قمة الشجرة يتبدلان النظارات والابتسamas. وفي الأفق الشرقي حيث السماء معتمة تلمع النجمة الأولى. وقبل أن تحد عائشة الوقت لتأملها انتصبت أمامها النجمة الثانية "النجمة الأولى هي دو إيدى، والثانية - أنا، وها هي النجوم الآن تبشق من هنا وهناك. من يا ترى أصحابها من بين من أعرفهم. أهي جانيت - نيكول أم بون دو فيل أم أرجنتال؟ هذه الكبرى بينها ربما لبابا. وأيتها نجمة فولتير، ونجمة ماري - أنجيليك، وكلددين - ألكسندر؟ ومن نسيتهم... ليس عجياً لا تتشابه نجمات الأخوات اللاتي ولدتهن أم واحدة. ونجمة صوفى اللامعة إلى جانب نجمتي. والمركيزتان دوفان وباريير، وإن انفصلتا عن زوجيهما، ليستا دون نجمتين. كم قلت لهما ألا تلفظا زوجيهما؟!... لا أعرف كيف ستعيش امرأة بلا زوج، مهما كانت تملك، وحيدةً قليلة الهيبة، وكل من يراها من الرجال يشتهيها؟ وهذان الطائران، ولو كانوا حُرّين، يتساندان ويتعاونان على تكاليف الحياة، ويفرح كل منهما بالآخر..."

تُظلم دنيا الربع مع مرور الساعات، وتشغل الأضواء في البيوت تناعماً مع النجوم. وتبداً باريس تلمع من قلب المساء المظلم.

عائشة مهمومة بمحسسين مرور الوقت. وتنظر بفارغ الصبر ساعة خروجها من البيت. لا تزال قبل الساعة العاشرة ساعتان. "يمكن أن يحدث في الأسرة إلى وقتها الكثير، وكذا في العالم. - تقول عائشة - يا إلهي مدد في عمر بابا إلى ذلك الوقت. لن أغيب طويلاً في موعدي. وعلى الأكثر ليس أكثر من ساعة خارج البيت... يكفيني أن أرى إيدي مجرد رؤية، وأبتسم له وأبشر في وجهه وأحادثه... ليس أغلى من هذا عندي. ويكفيني أن أطوف معه حيّنا في عربته. مضى أسبوعان على آخر لقاء لنا في صالون دو ديفان. وكيف دفعت ثمن هذا اللقاء؟ حين وشّوا بي إلى بابا تغيير سلوكه وصحته وامتنع عن الطعام، ولم يدّخر طوال الأسبوع شيئاً يمكن أن يقوله لي. وماذا رمى إلى أمس؟ "لم أشتريك كي تصبحي زوجة لغيري. وحين كنت أرييك وأنشئك لم أكن أخلو من مثل هذه الـية" من حسن حظي أن أحداً لم يسمعنا. على ما ييدو قال لي ما في قلبه صراحة - ارتحفت أعضاء عائشة لما تذكرت. التجأت إلى الصورة في الزاوية، ودّعث إلى الله كما فعلت أمس: - احبني مما خطر لبابا نحوي. لم أشك في يوماً بل أعتقد أن المرض أوحى له بهذه الأفكار. لن أدع نفسي تنسى ما قدمه لي في وقت الضيق. ولأني أعتبره أباً سواء اعتبرني هو ابنة أم لا فسأخدمه بقدر ما يتطلبه واجبي. ومهما كان ثقيراً علي فسأعتني به دون أن أحيرجه إلى شيء. ولكن ما خطر له نحوي - يا رب اغفر لي - لن أتحمله.

حين دخل أرجنتال الغرفة طائراً من الفرح لم تفهم عائشة ما أراها: - لماذا لستِ جاهزة يا شارلوت - إليزابيت أيسبيه؟!

- لأي شيء سأكون جاهزة يا جان؟ سأله مخفية عنه أن عربة بليز - ماري دو إيدري شوفالييه ستكون على باب الدار في العاشرة.
- لنذهب إلى صالون دو ديفان المركبزة.
- لم يكن عندي مثل هذه النية. - قالت عائشة وأعلمت أرجنتال موعدها معتبرة إخفاءه أمراً لا يليق. - كنت أنتظر شوفالييه لنتقى ولو نصف ساعة.
- وأنت تلبسين هكذا؟
- ماذا يا جان؟ أتراني قبيحة؟ - مزحت معه باسمة وخصت كلامها: - مهما كان لباسك قبيحاً فسيراه من تحب جميلاً. أم لك أنت ولا كوفير نظرة أخرى؟
- يا شارلوت - إليزابيت أيسية، ما نتكلم فيه هو موضوعك، لا موضوعنا. - تساهي أرجنتال عن السؤال وعيناه تضحكان وتخابثان. - أعطيني بشاره كما يفعل شراكستك. أستأذنت من الكونت لأجلك. كيف، كيف - قلد أرجنتال عائشة دون قصد إلى السخرية. - أطلقك لأنه واثق مني. أمهلك نصف ساعة لتجهزني.
- هل ما تقوله صحيح يا جان؟ - نهضت وهي تصف شعرها. - إن كنت تقول هذا فالآن، حالاً. ولكن دعني أشكر بابا وأتمنى له نوماً هنيئاً!
- لا حاجة لما تقولين يا أيسية. منذ وقت كافٍ استراح الكونت مع قراءتي له.
- وقال وهو يخرج من الغرفة: - ولذا لا تنسي أن موعدك قصير.
- إذن سأخبر ماري - أنجيليك ماما أننا ذاهبان إلى ديفان المركبزة.
- لن تجدي الكونتيسة. ولا كلودين - ألكسندرین. ذهبتا إلى أمسية دو ديفان.
- ولماذا لم تخبراني بشيء؟

- لم تخبرك لأن عمنا الكونت كان سبب لك بعض الإزعاج. أنا أنتظرك في غرفة الضيوف السفلية.

- ولكن يا جان - ما تذكرته عائشة الآن أضعف صوت فرّحها - بقي على موعدني مع إيدى على الباب ساعة ونصف. لا يليق بي ألا أنتظره.

- يا أيسى، يا أختي الحبيبة، لا تقلقي لهذا! سأوصي بأن نلتقيه عند دو ديفان.

- وإن اعتبر عدم انتظاره إهانة، وامتنع عن الحضور؟

- ماذا جرى لك يا أيسى؟ لم أعد أعرفك، - استغرب أرجنتال ما سمع - سيفاً، من قال إن الرجل المحمول على أجنحة الحب لا شيء يوقفه، لا الرعد ولا البرق ولا المطر... أطنه سيفاً جان باتيست مولير. أو فيليب نيريكو دو توش. وأيُّ قاله فهو صادق. ولكن عندما يحدث فتحن، لأنك سأليت عن أدريين يا أيسى، سعرّج عليه، ونصحبه إلى صالون دو ديفان. وهو يعرف، ينتظرنا.

-- إذن يا جان، لا بأس أن أنتظر دو إيدى.

- لا يا أيسى، بليز - ماري دو إيدى شفاليه، رجل، لن يتعجب علينا. وعدتها أن نعرّج عليها أنت وأنا.

"كلّ يعمل لصالحه" ابتسمت عائشة، ولم تعلق بشيء.

حين استقبل بليز - ماري دو إيدى شفاليه عائشة دون أن تجد الوقت للتلقى نظرة فضول على الصالون، سلمت عليه سلاماً رقيقاً مخفيةً فرّحها بلقائه ثم عانقت جانيت - نيكول. وقبّلت وجنتيها. وسألت عمن لم ترها بين الحضور دو ديفان.

- أين الكونتيسة ماري - أنجيليك؟ وكلاودين - ألكسندرин لا أراها.

- هاتان يا شارلوت - إليزابيت أيسيه في مكان آخر. - قال بيير غيرين دو تانسين، واختتم بمحنة: - لأن أخي الكونتيستين أوصتاني أن أحرص عليك فسألجي طلبهما. هل فهمت يا بليز - ماري دو إيدى شفاليه؟ وأنت أيضاً يا آنسة أيسيه. لا تقولوا ولا تفعلا ما لا يجوز!

وقفت عائشة دو إيدى جنباً إلى جنب، وحياناً الأسقف بيير دو تانسين المسؤول عنهم ب أيامه رأس عالمية امثالي له. وحياناً الجالسين.

- إن لم أحرص على أخي فمن أكون؟ - سأل أرجنتال متظاهراً بأن ما سمعه أهانه.

- أنت لا تترك أدرلين يا جان! - شددت عائشة على أخيها دون أن يبين عليها المزاح. - ولا تتجاوز ما تأمرك به.

حين بدأت أدرلين تصدق نفسها وقد أعجبت بما قيل عن الممثلين وافقها الحاضرون.

- المدعون إلى بيتي - صالحوني أحرار في ما يقولون ويفعلون. - رفعت دو ديفان المركبة كأس النبيذ عالياً. ليعش الحب المتحرر! اشربوا، وامرحوا! ولتكن أرجاء بيتي أماكن حبكم! ولتكن حبكم لذيناً ودافناً مثل كأس النبيذ هذه!

- برافو دو ديفان! - صاح المركيز مارتين دو بوالو من بين الحاضرين وهو يقع كأسه بكأس عشيقته.

- برافو! صدرت صيحة من شخص آخر. وفيما هم يتصالحون ويتنافسون كرر أكثرهم هذه العبارة ثلاثة مرات.

- لا تصدق يا شفاليه ما سمعت عن الحب المتحرر - لمحت عائشة لشفاليه وهي تقع كأسه. وفيما هي تضع من يدها الكأس التي لم تدق منها

نظرت في وجه جانيت - نيكول التي كانت تفعل الشيء نفسه. وقلقت على أرجنتال: - لا تُفرط في الشراب!

- الله هو من أودع النبيذ حلاوته - قال الأسقف بيير.

- نعم، نعم، وافقته جانيت - نيكول. ثم أصلحت: - ولكنه أَكَد علينا ألا ننسى أن حرارته ترعن الرأس.

- عاش النبيذ الذي يبيث فينا المرح والدفء، والجمال - اللذة! - تقرأ أدرلين لوکوفير رافعة الكأس شعراً في النبيذ - "صُفْرَةُ الْحَشِيشِ الْقَصِيرِ الْفَاتِنَةِ حَمْسَةُ الْأَرْضِ كَمَا الْهَوَاءُ الرَّقِيقُ النَّاعِمُ. وَعَنْقُودُ الْعَنْبِ الَّذِي كَاهَوَاءُ يَلْعَبُ بِأَشْعَةِ الشَّمْسِ فَتَخْتَلِطُ بِالْعَنَاقِيدِ الصَّبُوْحَةِ. ثُمَّ سَتَسْرُعُ هَذِهِ بِالْخَيْرِ إِلَى الْخَزَانَاتِ فِي الْأَقْبَاءِ الْعَمِيقَةِ. ثُمَّ سَيَنْتَظِرُهُمُ النَّاسُ مِنْ أَجْلِ الْخَيْرِ الَّذِي سَيَحْدُثُ خَلَالَ قَوْنَاتِ. شَكْرًا يَا بَذْرَةِ الْعَنْبِ الَّتِي يَسِيلُ قَلْبَهَا، لَا يَضُعُ شَبَابَكِ. شَكْرًا أَيْهَا النَّبِيْذُ الْأَحْمَرُ الْخَارِجُ مِنْ الْخَزَانِ الْخَشِيشِيِّ. احْكُمُ الْفَرَحَ دَائِمًا عَلَى الْأَرْضِ. أَرْفِعْ كَأْسَيِّ مِنْ أَجْلِ أَلَا نَنْسَى كَلْمَةِ السَّلَامِ وَمِنْ أَجْلِ أَنْ تَبْقَىُ الْأَرْضُ مَائِدَةَ خَيْرٍ لِلْبَشَرِيَّةِ"

وبعدها ساهمت أدرلين التي حمسها النبيذ بأغنية فرنسية قديمة، وردد الجميع معها. وقرأت دو بارابيرا المركبزة، وهي بين أن تدخل ساحة اللقاء وأن لا

تدخل، مقتطفات قصيرة من مسرحية "دون جوان" مولير، ممثلاً معها.

- لتقرا شارلوت - إليزابيت أيسبيه الآن شيئاً من حكايات لافونتين - ترجمى أرجنتال عائشة مع إشارة احترام.

- جان! - كانت عائشة خجلة ت يريد أن تقول شيئاً لجان، غير أن الحضور لم يُمهلواها فقرأت حكاية "بائعة الحليب والجرة المكسورة" بنطق واضح جداً، يساعدها صوتها، ويتنااسب مع قامتها الرشيقية.

صفق الحضور لعائشة تصفيقاً صادقاً. وخطب بليز - ماري دو إيدي شفاليه لأجل أدريين، ودو ديفان، ودو بارابيري، والأنسة أيسبيه، خطبة تحية. وشربوا نخبأ، وساهم العازفون الثلاثة المدعون بعزفهم. ولكن الرجال والنساء الذين يرقصون معًا ينسّلون رويداً رويداً من الصالة. وبعد قليل لم يبق في الغرفة إلا الأسقف بيير وجانيت - نيكول، وبليز - ماري دو إيدي، وعائشة.

- كان المفروض أن تأتي ماري - أنجيليك وكلودين - ألكسندرین إلى هنا. - أعلنت عائشة ما كان يشغل بها طوال السهرة. - ولكن لا أعرف سبب غيابهما.

- لا بد أنك لم ترِي أخيّي منذ زمن بعيد - منح بيير مع عائشة، - هل اشتقت إليهما؟ - ثم أضاف لها - لا تصدقني كل ما تقوله لك أختاي يا أيسبيه!

- لا يا بيير هاتان صارت جزءاً من روحي. - قالت عائشة ما في قلبها ولو أنها تعرف أن بيير يمنح. - أنا قلقة على أبي لأننا تركناه وحده في البيت. صحيح أنه سمح لي أن آتي إلى هنا. بالقياس إلى حاله قبل مدة فهو الآن أحسن بكثير. - وأخبرتُهم بمرض الكونت ولو لم يسألها أحد.

- هذا حسن يا أيسبيه - ابتسمت جانيت نيكول في وجه عائشة وقالت لبيير وصحبه - أنتم الرجال ابقو هنا، ونحن أيسبيه وأنا، سنتكلم في بعض أسرارنا. - وحين جلستا في الزاوية الأخرى نصحت جانيت - نيكول عائشة: - أعرف أخبارك مع الكونت يا أيسبيه؛ لا تيأسني! - ثم سألتها عما يقلقها: هل صحيح أن الكونت شارل دو فيريول طلب منك اتخاذك زوجة؟

- أين سمعت هذا - رف جفنا عائشة لـما سألتـها عن الخبر الذي لا يعرفه سواها. ولكنها بدأت تبرئ الكونـت: - بـاـبا مـريـض لا يـجـوز التـوقـف عندـ كلـ ما يـقـولـه.

- هذا سـلـوك مـتـازـ معـ الكـونـت ياـ أـيـسـيهـ وـلـكـ اـحـذـريـ. لاـ تـقـيـ بـهـ وـلـاـ تـبـقـيـ معـهـ فيـ الغـرـفـةـ وـحـدـكـماـ. ماـذـاـ تـنـوـيـانـ أـنـتـ وـدـوـ إـيـدـيـ شـوـفـالـيـهـ؟

- كـمـاـ تـعـرـفـينـ يـاـ جـانـيـتـ - نـيـكـولـ، لـيـسـ دـوـ إـيـدـيـ حـرـأـ بـنـفـسـهـ.

- وـأـنـتـ يـاـ أـيـسـيهـ يـسـتـطـعـ الكـونـتـ أـنـ يـقـولـ لـكـ الـكـلـامـ نـفـسـهـ.

- نـعـمـ؟ - اـحـتـدـتـ عـائـشـةـ ذـاتـ الـخـدـ الـأـسـيـلـ.

- الكـونـتـ يـنـادـيـكـ "ابـنـيـ"ـ، وـلـكـ الـمـوـضـوـعـ لـيـسـ هـكـذـاـ. حـيـنـ اـشـتـرـاكـ وـعـمـدـكـ كـاتـولـيـكـيـةـ، لـمـ يـسـجـلـكـ اـبـنـةـ لـهـ. وـأـلـحـقـ بـكـ كـتـابـاـ يـخـوـلـهـ التـصـرـفـ بـكـ كـمـاـ يـرـيدـ حـيـنـ تـكـبـرـيـنـ. هـذـاـ كـانـ قـالـ لـكـ "أـسـتـطـعـ التـصـرـفـ بـكـ كـمـاـ أـرـيدـ"

- لـاـ يـاـ جـانـيـتـ - نـيـكـولـ، لـيـسـ بـاـباـ مـنـ هـذـاـ النـوـعـ مـنـ النـاسـ. - قـالـتـ عـائـشـةـ وـهـيـ تـدـارـيـ قـلـبـهـ. - لـوـ لـمـ يـكـنـ مـرـيـضـاـ مـاـ قـالـ مـثـلـ هـذـاـ الـكـلـامـ. ثـمـ إـيـنـ لـنـ أـنـسـيـ أـبـدـاـ مـاـ قـدـمـهـ لـيـ بـاـباـ. لـاـ يـجـوزـ إـنـكـارـ الـمـعـرـفـ. إـنـهـ مـرـيـضـ، لـنـ أـنـرـكـهـ وـلـاـ أـحـدـ يـسـأـلـ عـنـهـ أـوـ يـرـعـاهـ. عـلـيـ أـنـ أـخـدـمـهـ كـمـاـ تـخـدـمـ اـبـنـةـ أـبـاـهـاـ. - أـوـشـكـتـ عـائـشـةـ أـنـ تـبـكـيـ وـلـكـنـهاـ تـمـاسـكـتـ. - بـاـباـ تـرـكـ لـيـ مـاـ أـعـيـشـ مـنـهـ حـتـىـ لـوـ تـوـفـيـ الـيـوـمـ.

- وـمـنـ مـنـ الـأـسـرـةـ يـعـرـفـ هـذـاـ؟

- مـارـيـ - أـنـجـيلـيـكـ وـحـدـهـاـ. سـأـلـتـ عـنـ الـمـوـضـوـعـ فـأـخـبـرـهـاـ أـنـهـ تـرـكـ لـيـ عـائـدـ رـيعـ يـقـدـرـ بـأـرـبـعـةـ آـلـافـ لـيـرـةـ سـنـوـيـاـ. وـلـكـنـيـ لـمـ أـخـبـرـهـاـ أـنـ مـعـيـ وـثـيقـةـ تـشـرـكـيـ فـيـ تـرـكـهـ.

- خـيـرـاـ عـمـلـتـ فـيـ هـذـاـ الـمـوـضـوـعـ. وـلـكـنـ لـاـ تـظـنـيـ أـنـ كـلـودـيـنـ - أـلـكـسـنـدـرـيـنـ تـجـهـلـ مـاـ تـعـرـفـهـ مـارـيـ - أـنـجـيلـيـكـ.

- لِتُعْرِفُ! تصليبت كتفا عائشة المنسابتان الجميلتان - لن تستطعوا أن تفعلا شيئاً بوجود بابا وأخوي وأنت. أكبر مشكلة لي هو وضع إدي... لا أعرف ماذا جرى لي حتى أحبه من أول نظرة!

- ما جرى يا أيسية - ابتسمت جانيت - نيكول بحارة لعائشة - أجبت عنه بنفسك، ولكن ما لا تعرفينه هو ما ينتظركما - تنهدت جانيت - نيكول تنهيدة تكشف عن شيء في قلبها - أفهم يا أيسية، أفهم، ونحن أيضاً هذا وضعنا. نحن بصفتنا متذorين للدين فالامر محسوم. وشوفالييه ليس بعيداً عنا بنذر عدم الزواج.

- وهذا ما أقوله - همست عائشة في أذنها ووجنتها الشاحبتان تتوردان - يقول لي "لأنني أحبك؛ متى وعدتني أن تتزوجيني فسأخلل من نذري" ولكن حتى لو قضيت العمر أحبه فلن أسمح له أن يفعل هذا. ألا يددر هكذا ما كان يفعله لشخصه ولفرنسا؟ انظري إليه؛ إلى جلسته، إلى حفاظه على قامته، تكتشفني أهـما كافيان لتعـري أنه إنسان محـبـ مـهـذـبـ... لا أدرـي إنـ كـنـتـ أثـرـرـ... سـاحـيـنـيـ ياـ جـانـيـتـ - نـيكـولـ

- امتداحك لشفالييه - بـشـتـ جـانـيـتـ نـيكـولـ سـعـيـدـةـ بـكـلـامـ عـائـشـةـ عـلـىـ شـفـالـيـيـهـ وـتـغـبـطـهـاـ عـلـيـهـ - لأنـكـ تـحـبـيـنـهـ ياـ أـيـسـيـهـ،ـ أـرـيدـكـ أـنـ تـسـعـدـيـ بـحـبـكـ،ـ وـلـيـسـ هـذـاـ وـحـدـهـ بـلـ هـذـاـ الـخـبـيـثـ أـوـلـيـاـنـ الـذـيـ لـاـ يـتـرـكـ أـرـيدـكـ أـلـاـ تـدـنـسـيـ طـهـارـتـكـ بـهـ.

- ارتاحي من ناحية أوريـانـ. حتى لو كانت ماري - أنجـيلـيـكـ تـشـجـعـنـيـ عـلـيـ فلا طـرـيقـ أـمـامـهـ. - ابـتـسـمـتـ عـائـشـةـ بـشـيءـ مـنـ الـرـيـاءـ،ـ وـقـبـلـ أـنـ تـصـرـحـ بـماـ يـقـلـقـهـاـ سـأـلـتـ:ـ هـاتـانـ اللـتـانـ اـخـتـبـأـتـ؛ـ هـلـ سـتـظـهـرـانـ؟ـ إـنـ وـعـدـتـنـيـ أـلـاـ تـعـتـيـ

عليّ يا جانيت – نيكول فلاني مشقق على بابا، وقد اتصف الليل، يجب أن أعود إلى البيت.

– لن ننتظرها – وكأنها كانت تفكّر بالطريقة نفسها – ونحن حان موعد عودتنا. سنعود كما عادتا دون استشارتنا، سنسدل شيئاً فشيئاً من الأرض – البيت الإنجليزي.

كان الحبان بليز – ماري دو إيدى شفاليه وعائشة جالسين في العربية متقابلين. ولم يكن ما يصرّع في قلبيهما بأقل من ضجيج الأصوات الصادرة من عجلات العربية.

– إيدى يا روحي – قالت حين أصبحت العربية على البوابة الكبيرة لآل فيريول – لا تخرج من العربية، الدار مضاءة، وهذا هما البوابان. سأدخل البيت وحدي. أرجوك، لا أريد أن تسمع من بابا ما لا تحب. لا يقبل أن يرافقني أحد. – لك ما تريدين يا أيسىي. أنا أحبك – استقل دو إيدى حرارة اليد التي مددت إليه، فقبلها.

– وأنا أحبك يا إيدى – ردت عائشة على شفاليه.
– إن سمحت لي يا عائشة فأنا أنوي أن أتكلّم إلى شارل دو فيريول الكونت – قال شفاليه في أثراها.

II

"مهما كان جلد الإنسان سميكاً فالروح هشة" من قال هذا؟ كائناً من كان القائل فلن يصدر عن أحد أصدق منه. إذا انطلقت من هذا القول المؤثر وفكرت في شأن شارل دو فيريول فمن الممكن أن ينطبق عليه القول السابق. ولكن إن أضفت أنه يخدع نفسه بالحياة التي يتثبت بها قلباً وروحاً فإنك تنسى أن الكونت الذي لا يشبع من الحب مريض.

حتى لو كانت فارتوك تُدر دهناً، وكان الشحم يظهر من فوق موقرك، فما فائدة أن ترفع مئة كومة على الوهم؟ هذه كانت حال شارل دو فيريول حتى وهو يتصنّع الشهامة، راكباً حصانه الخشبي. حتى وهو في هذه الحالة كان مشغولاً بإلقاء النار التي تنطفئ حطباً. لم يكن يريد أن يبرد، ولكن الحصان يتبع، والسرج يهترئ.

العالم مركب من طرق مختلفة؛ ليت الإنسان كان يعرف على أيٍ منها سيعتب، وعلى أيٍ منها سيعذر؟ لم يكن جواب هذا السؤال سرّاً على شارل دو فيريول. أحد هذه الطرق المتبااعدة — المتلاقيّة أعاده إلى قصره الأبيض الكبير. ولكنه كان في حمأة حبه دون أن يكتثر بأنه سائر على الطريق الذي يوصله إلى نهاية العمر. ما هذا؟ فهو عناد السنوات الطويلة اليائسة الظالمة أم هو كالشجرة اليابسة تبَدَّ ظلُّها؟

ماذا سيكون إذن مصير العمر الغضّ لعائشة ودو إيدي والحب الظاهر بينهما؟ عمر شارل دو فيريول وحده يساوي مجموع عمريهما. ولكن الحياة عركتهما. وإذا كانت المأسى التي مرت بها عائشة، وحياتها اليوم، جعلت منها حكمة ومتوازنة القلب وبريقه فإن جمالها كمن لم تعانِ شيئاً. وإن تفَكَّرت في هذا فهو

إيجابي من جهة، وسلبي من الجهة الأخرى. وإن لم نجاف الحقيقة فجماؤها سبب مأساتها وسبب استمرار حياؤها إلى الآن في ظل الظلم وانعدام الرحمة.

ماذا سيقول بليز — ماري دو إيدي شفاليه إذا قابل الكونت شارل دو فيريول؟ لا أحد غير جانيت — نيكول يعرف بجهما. وإن لم تكن كلودين — ألكسندرин شكت في أمرها فليس في آل فيريول من عنده علم. وإذا كانت عائشة تتصرّب متأملاً الأفضل فمن يدري ما يمكن أن يحدث إذا بقيت هي والكونت وحدهما في البيت؛ لم تكن تغفل لحظة عن طريقة حماية شرفها.

لم تكن عائشة، رغم ظروفها القاسية، تزيد أن يتكلّم دو إيدي إلى شارل دو فيريول الكونت. من الذي كانت عائشة تزيد حمایته قلقة عليه؟ فهو حبها لدو إيدي شفاليه أم الكونت أبوها الذي تحبه؟ "لا يفاس مثل هذين الحبّين!" — لامت عائشة نفسها على الخاطر الذي أسع إلى رأسها، ثم ارتعدت من الفكرة التي كانت أحياناً تطرق باب قلبها: — ما أسوأ الحظ الذي جاء بي إلى الدنيا — لم يكُفِ ما وجدت نفسي فيه من عناء حتى جاء حبي الأول بلا أمل... لماذا لم أُفهِر قلبي حين عرفت أنه ليس لإيدي الحرية في الحب؟ أَفْتَحْم بِنفسي النار التي ستحرقني؟ يقول لي باراير دو ديفان "هل عجيب أن يكون لك إدي شفاليه دون زواج رسمي؟ لا تفوتني مثل هذا الشاب الممتلئ الغنى، احتويه!" ما أسوأ فهمكما وملاحظتكما! الحب لا يعرف غنياً أو فقيراً. منذ عهد بعيد نسيتني قانون الحب: من يختاره القلب شخص واحد. لم يحبني إدي وهو لا يعرف حقيقة وضعه. ما قاله لي قبل أيام ليس ما يُسمِّعه لكنّ عُشاقكَنْ همساً. — سيتحلّل من العهد الذي قطعه على نفسه أمام وحدته. سمعت عندي هنا أنه لا شيء يقف أمام الحب؛ يجعلك تفعل أي شيء. فهو شجاعة أم حب يوقعك في المهمكة. لا أريد الحب الذي يدمّر حياة من

تحب. ولكنني لا أستطيع أن أرمي وراء ظهري أول حب في حياتي. لماذا أُنصح
نفسي بنفسي؟ أيسليه أحد مني؟..."

كان دو إيدي شفاليه ينوي مقابلة الكونت شارل دو فيورييل هذا الشهر، وفي الشهر الماضي، غير أن عائشة منعت اللقاء بحجج مختلفة. كان المفروض أن تتكلم عائشة أولاً إلى الكونت بصراحة. وكانت جهزت ما ستقوله وما سترد به. حتى لو كان إطلاق الكلام على عواهنه سهلاً فالعثور عليه يحتاج إلى الصدق والكذب والدموع. وإذا كانت عائشة حتى الآن لاتستطيع مفاتحة الكونت به فمنذ وقت غير قصير كان الأمر وصل إليه. ولكن هذا لا يعني أن تعتمض العينين والأذنين وتدير ظهرها لكل شيء وتحرب. وأمنيتها أن يساعدها في تحقيق أمنيتها ونيتها. وربما في المسألة أنه طمع فيها يوماً ما على نحو معيب. وإن تصرفت هكذا، وهي تحمي نفسها، فهي تأمل في حماية شرف الكونت الذي رباهما وعلمهما. وإذا كانت عائشة جاهزة منذ زمن بعيد لما ستقول وستفعل بعدها هبت رياح الصيف أسبوعاً كاملاً، ودخل تقاطع الشهرين في الموضوع أيضاً، لم تستطع وهي المشغولة بالكونت المتفاقم وضعفه، وبوسائل تحدثه، التحدث إليه. ومرت بعدها أيام فأسابيع ولكن لم يطرأ أي تغيير على بيت آل فيريول. ومع أن الجميع كانوا يبدون مرتاحين فقد كان قلق صامت يلف الجميع.

طوال النهار، منذ أن استيقظت إلى أن نامت، لم تكن عائشة تحيد بنظرها عن الكونت. وكلما صدر صوت من أي مكان قفزت برأسها وأنصت. ثم إذا لم يكن الصوت متعلقاً بالريض انصرفت إلى أعمالها مخفيةً عدم اطمئنان قلبها. وكلما مضى من الأسبوع أو الشهر يوم نقص من عمر عائشة، ولم يبق في نفسها ما يسرّ إلأشفاليه. وعند عائشة موعد محدد مرة في الأسبوع للقاء دو

إيدي سراً — حين تعطي الكونت دوأه وتحمّله بالقراءة له، تخرج للقاء العربية التي تنتظر على البوابة. أحياناً يطوفون أرجاء باريس، وأحياناً يتمشيان على الشارع. يطوفان الحي على الأقدام وعربتهما تسير إلى جانبهما. ومع أن عائشة كانت تعرف أن ما يخفيه المرء يخرج للعلن يوماً ما فقد كانت تتسلل إلى البوابين حين تخرج من البيت أو تعود إليه راجية إياهما ألا يحاسبها على ما تفعل، ولم تكن تباهى لهما ب فعلتها.

كانت عائشة تؤجل من يوم إلى آخر موضوع حديثها إلى الكونت مغلوبة بهذا السلوك ونمط الحياة. "كيف أفالحه وأنا أعرف جوابه سلفاً. لا، لن أسيء إلى بابا المريض في غمرة تفكيري بمصلحتي الشخصية. أعرف أن الحب لا يبحث عن فائدة شخصية، ولكن لا أستطيع أن أفعل هذا في أثناء أزمة المسكين. سأنتظر أوغست وسأأسأله لأنه سيعود مع الخريف، وهو ليس غريباً عنّي. ولكن هل أسوّغ هكذا لإدي ما سيفعله نحو فرقته؟ إن يفعل هكذا أكن دمرت حياته لفائدة شخصي. وأين أذهب ببابا؟" لم يبق للكونت شارل دو فيريول من أقارب غيره يعتنون به؟ — حين خلّ عائشة أن أحداً وشوش لها بهذا الكلام أحاببت نفسها بسرعة "ولماذا لم يبق له؟ عنده، ولكن هل أعرف كيف سيتصرّفون معه؟..."

عرفت عائشة أن شارل دو فيريول نزل للغداء فنزلت إلى غرفة الطعام دون غرفته. كان الكونت وماري — أنجليك الكونتيسة جالسين إلى المائدة بكامل عدة الغداء من ملاعق مذهبة ومفضضة وصحون زجاجية فاخرة، ومناديل وأغطية بيضاء للصدر. وحين دخلت عائشة توقف الاثنان عن الحديث.

- لم يحدث أن جعلتنا ننتظر على الطعام يا شارلوت - إليزابيت أيسبيه! -
قالت ماري - أنجلييك وكأنها ترى عائشة للمرة الأولى، وبنبرة عتاب. - عندي
لك خبر سار.

- نعم، نعم، يا شارلوت - إليزابيت أيسبيه، لست جاهلاً بالموضوع - وافق
شارل دو فيريول كنته - رجاني أورليان الوصي بشخصه فلم أستطع رفض
طلبه.

توجهت عائشة، دون التفات لما يقولان، إلى الكونت أولاً فقبلت وجهته، ثم
إلى الكونتيسة ففعلت مثله. ثم جلست على مقعدها.

أضاف الكونت إلى الكلام الذي لم يتح له إكماله:

- دعانا، أنت وأنا، أورليان الوصي إلى الأمسية التي ستقام غداً في "باليه
رويال"¹

- وماذا سيفعل بنا؟ - أسرعت عائشة.

- برافو أيسبيه! - صفق الكونت كأنه كان ينتظر هذا التعليق من عائشة، ثم
النفت إلى كنته بشيء من الرياء ووجه لها الحديث - أما قلت لك يا كونتيسة
أن أيسبيه لن تفرح بخبر الدعوة؟ والآن "برافو" ثانية يا ابتي. ولكن بما أنك
تعرفين وفائي بوعدي، ففي هذه المرة لا تفعلي مثل المرات السابقة حين دعوك
ولم تلبي، فستذهبين مساء الغد. وأنا واثق أن ماري - أنجلييك الكونتيسة
ستحرض عليك لأنها وعدتني. ولا أعني بهذا أنك لا تحترمين نفسك، كوني
بقيطة دائماً. أنا من كان يجب أن يصحبك لولا توعّكي. ولكن مرة أخرى ألح
عليك: الناس الذين ستختالطينهم من الذين أفسدتهم الملك، سكّيرون

¹ القصر الملكي. المترجم.

فاسقون؛ ألا تتذكرين كيف أبعدتك عن شفاليه الأسمر ذي الشوارب السوداء
الكثة الذي كان يأكلك بعينيه؟

- يا بابا - ابتسمت عائشة للكونت ملاطفة إياه وقطعت حديثه - لماذا
فقدت ثقتك البتة بي وكأني ارتكبت إثماً عظيماً في ماضي؟

- أكنت أسمح لك أن تذهب إلى حفلة من دعوك لولا ثقتي بك؟!
- أطمئن يا بابا، - بادرت عائشة؛ أين دواؤك؟

- لولا هذا الدواء اللعين - ارتشف شارل دو فيريول وأتبعها بالماء - أكنت
أليّ لأنوليان دعوته؟!

- ألا يمكن لكلودين أن تخل محلّي؟ - سألت عائشة لتهدهئة الكونت.

- يا أيسيه - جحظت عينا ماري - أنجلييك لما سمعت. - أنسيت أن
كلودين حامل؟

- مَنْ وَالْدُّ جَنِينْ كَلُودِينَ الْآنْ؟ مَنْ نَعْرَفُهُمْ أَوْ لَا نَعْرَفُهُمْ؟ - سأّل شارل دو
فيريول متظاهراً باللامبالاة.

- يا كونت، ما شأنك بالموضوع حتى تصدع رأسك به؟ - ابتسمت ماري -
أنجلييك ابتسامة صفراء ولو أن ماسعته بشأن أختها لا يسرّها. - ولكن بما
أنك سأّلت فلن أكتمك: هو ديشان شفاليه الذي لا نعرف أين هو.

- سمعت يا شارلوت - إليزابيت أيسيه ما سلوك من يحملون لقب "شفاليه"؟
- قال الكونت بحيث لا تعرف إن كان جاداً أم مازحاً وضحك، ثم صرّح بنوع
من الحذر: - غريب أنهم لم ينسبوا الجنين إلي... إن عاش فلن بعدم وسيلة
للحياة - أنهى الكونت الآن بلا مبالاة، ونحضر عن الطعام قبل أن ينتهي -
سأتمشى قليلاً في الغناء... ألا يكفي ما أكلتما؟ من شاء فليتبعني!

تركت عائشة ماري — أنجيليك على المائدة، ولحقت بالكونت فزعةً. ولكنهما لم يلبشا طويلاً في الفناء؛ إذ طلب الكونت من عائشة أن تنضم إليه في الغرفة لأن من عادته بعد الغداء أن يستريح ساعة، ثم يطلب منها القراءة في كتاب أو جريدة. غير أنه ما إن وضع رأسه على الوسادة حتى غرق في النوم.

III

لم يكن هم دعوة "باليه رويدا" يفارق ذهن عائشة وإن تظاهرت بغير ذلك. كانت تعرف من الموضوع أكثر مما يعرف شارل دو فيريول. وما لم تكن تفهمه هو كيف أغروا الكونت بهذا الموضوع وجروه إليه. لم يكن أحد إلا الدكتور جان - باتيست يعرف بأمر الدعوات الأولى. بل إنها أخذت الأمر عن دو إيدى شفالبيه حتى لا تسبب له المشكلات. ولن يقبل الكونت من عائشة أن تختلف أمره. كيف سُطّلَعَ الآن إيدى على المشكلة التي وقعت فيها؟ لا يزال على موعدهما الثابت ثلاثة أيام. ماذا أفعل، وما المخرج؟ كل هذه من حبكة الكونتيسة ماري - أنجيليك. ماذا سستفيد إن أقحمتني في حفلة "باليه رويدا"؟ ومع ذلك تعتب علي لأنني لا أناديها "ماما". أصارح ببابا بما أعرف؟ إن فعلتُ هذا أتيتُ على حياته. إن وصلتم في تأمركم إلى هذا الحد فسأدعى المرض، ولن أذهب إلى الحفلة ولو أرسلوا ورائي مئة رسول..."

في بعض السنوات الماضية، بعدما استدعي الكونت من تركيا، قفز فخري فجأة إلى أفكار عائشة، وهو الذي كانت قد نسيته. وحُيل إليها أنها تسمع صوت الأمواج التي تُقذف بالحصى إلى الشاطئ. "أي ضفة من ضفتي البحر الأسود، يصدر هدير الموج؟ أضفة الترك أم الأديغة؟ - تحفل عائشة وتسأل نفسها. ثم حين تصبح ذكريات المكان الذي قبضت فيه طفولتها تنتصب أمام عينيها وتختفي، تتمثل لها فجأة الجبال ذات القمم البيضاء، ولون المرثية يحمله ماء البحر. - صوت من هذه المرثية؟ لا هو صوت أمي ولا صوت جدتي. كائناً من كان صاحب الصوت فهو باللغة التي أنساها. لماذا علي أن أنسى لغتي؟ تعنّف عائشة نفسها وتبدأ تلفظ تمريناً من تمارين نطق جدتها. ولكنها تتعرّض وقد نسيت الكلمات. وتحاول أن تغنى الأغنية الخفيفة عن القطة ولكنها تبكي

دموع الإهانة إذ لا تستطيع أن تنطق بعض كلماتها التي كانت تحتفظ بها في القلب، تُعَزِّزُها. لو كان "بابا" يُعرف اللغة الأدبية بدلاً من التركية لما بقيت دون لغة الأم. الآن وصلت إلى حيث كان فخري يقول "كل إنسان يجب أن يعيش بين قومه. ولكن إن أُجبر على أن يتركهم فنسي لغته بقي بلا جذور". فخري وأورخان وقعا في طفولتهما في الموضع الذي وقعت فيه ومع ذلك تعلّما الفرنسية والأدبية دون أن ينسيا التركية. ولم تضرّهما إن لم تتفعّلما..."

حين دخلت صوفى الغرفة بوجه الفرح نسيت معها عائشة سبب ضيقها:

- ما الأمر يا أيسى؟ أَزَّعْجُكَ أحد؟

- لا، بل أُرثي نفسى بنفسي.

- ماذَا؟ - دون أن تفهم صوفى ما قيل لها، وناسية الورقة الصغيرة التي في ثناءا ثوبهما، سألت عائشة من جديد.

- كفى يا صوفى، كفى. لا تلومي نفسك. كنت أفكِر في حالِي بيني وبين نفسى. ولكن سأُسألك إن كنت ستفهميني.

- لم يحدث ألا أفهمك يا أيسى؟ أَنْصَتْ إِلَيْكَ - بدا من صوت صوفى، وإن لم يُبُدِّلْ من وجهها، أنها شعرت بالإهانة من "إن كنت ستفهميني".

- شكرًا لك يا صوفى، لا مهِمٌ في ما سأُسألك عنه. ومهمًا أَجْبَتْني آمل منك أن أجِد جواباً لسؤالِي. ماذا كان موقفك من لغتك الفرنسية لو وقعت بدلاً مني بين الشراكسة؟

- الآن فهمت لماذا قلت لي "أُرثي نفسى بنفسي" - ضحكت صوفى - الشراكسة بشرٌ مثلِي. وكما حملت نفسك على الاندماج بهذا المجتمع والاستقرار فيه كنت فعلت مثلَك. أيّ قوم متى تشارکُوكم أَفْرَاحُهم وأَحْزَانُهم

يفهموك. ولو لم تكوني تفهميني، وكذلك أخويك، وآل فيريول، ما كتبت
استطعت العيش معهم يوماً واحداً.

- وأنا هل تعييني من آل فيريول؟ بادلتها عائشة المزاح.

- ألسستِ من آل فيريول؟ - انزلق ما في قلبها على لسانها.

"لو كان عندي موئل آخر ما ترددت..." - قالت عائشة لنفسها. ولكنها
ندمت على ما قالت: - ولماذا ليس عندي موئل؟... لو أطع فخري
وأورخان حين تجشّما مشقة السفر وجاءاني... ما أخبارهما يا ثُرى؟ حين
سألت عنهمَا بابا قبل أيام رماني بنظرة ارتياش عنيفة. وما الفائدة من السؤال،
كانت جدي تقول "لا تفوت رأس الحصان وتلحق بذيله!"، حدث ما حدث".

خرجت عائشة من استغرافها وأجابت صوفي تعرّفها أنها لم تنس سؤالها:

- لا موئل لي بعد آل فيريول يا صوفي. ولكنك لم تجيئ على سؤالي: ماذا كان
سيحدث للغتك الفرنسية لو وقعت بين قومي الشراكسة؟

- هل تعرّفين ماذا كنت سأفعل إن لم أجد بين الشراكسة من يتكلّم الفرنسية؟
كنت كلامت نفسي بنفسي. ألن يفهمك الماء والخبز والشمس والسماء؟

- كانت جانيت - نيكول تقول لي الكلام نفسه. - أعاد ما ستصوّله عائشة
الفرح إلى نفسها ولو أنها تنهدت لِما سمعت وما في قلبها. - إذن ما قاله لي
إيدي قبل أيام كان عجياً: سيصحبني يوماً إلى بلاد الشراكسة ويربني إياها.

- لأنّه يحبك... - أسرعت صوفي إلى صدرها وأخرجت الورقة التي كانت
نسيتها - كدت أذنب بحق دو إيدي شفاليه، خذلي هذه، وهو يتّضر
الجواب.

تقرأ عائشة الورقة التي فتحتها ملهوفة "يا حبي شارلوت - إليزابيت أيسبيه. لن
تسع هذه الورقة حبي ومشاعري نحوك. بعد الله والسماء لا أحب أحداً على

هذه الأرض كما أحبك. أقول هذا لنفسي وأقوله لك. أشتاق إليك. لا أطيق الانتظار إلى موعدنا يوم الأحد. غير أنني سأزف إليك خبر لقائنا غداً: أريدك أن ترافقيني إلى لقاء "باليه روoyal" لأن أورليان دعاني. أعرف أنك دُعيت مرات كثيرة فلم تلبي. مع أن هذا اللقاء ليس لأجلنا فلن يكون إلا لنا، فحرري نفسك بطريقة ما من الكونت، ولنذهب معاً. أرجو الاستعجال في الجواب.

المحب إيدى"

قفزت عائشة من مجلسها حين قرأت الورقة. ونظرت باتجاه النافذة، وجلست. ثم استعرضت الرسالة بنظرة سريعة وأمسكت القلم: "صحيح ما يقال من أن القلب والروح يتخاطران. وأنا كان هذا بيالي الآن. و كنت أفكّر كيف أبلغك ما يشغلني. حين أرسل أورليان الوصيّ رسولاً إلى أبي من أجل "باليه روoyal" الذي لا أحبه، ألحّ علىّ، على سبيل التباهي بالذات، أن أذهب بصحبة ماري – أنجيليك. ومع ذلك كنت عزمت أن أدعى المرض، ولكن لما تبيّن أن وضعني سيكون مختلفاً تماماً فسأتي إلى "باليه روoyal". أيسية"

رغم أن أورليان الوصي لا يدعو عادة إلى لقاء باليه روoyal نصف الشهري إلا خمسين شخصاً فقد أضاف الآن ضعفي الرقم. والطعام والشراب لا تكاد العين تحيط بهما. وعازفو الأوكرديون لا راحة لهم. – الرقصة تتبعها رقصة أخرى. وتصدر من كل مكان أصوات الضحك الصاخبة ولا سيما من النساء. وبالإضافة إلى الصالة الفسيحة التي يرقصون فيها هناك غرف أخرى مفتوحة الأبواب. بعضها يتلاؤ بالأصوات، وبعضها أقرب إلى الظلام. والخدم يدورون بكؤوس الشمبانيا مع الأطعمة الخفيفة. وأورليان يبحث بنظره عن عائشة التي أقام أمسية هذا اليوم من أجلها فلا يراها. أخبروه أمس واليوم أنها ستحضر.

ولكنها لم تظهر إلى الآن. لا، ها هي - أشار إليها أحد المكلفين برصدها - قادمة.

"حسناً فعلت بأن جعلت الحضور ينتظرونها ولا يبدؤون الحفلة دونها." - يقول أورليان لنفسه ولكن يخيل إليه أن الحضور تجمدوا في أماكنهم حين دخلت بينهم الفتاة الشركسيّة. بيد أنه يقرع كأسه بكؤوس النساء المرائيات اللاتي أحطّن به وكأنه لم ينتبه إلى حضورها. لا يدّع عائشة تعجب عن ناظريه وهو يمتدح جمالهن ويعبر عن حبه لهن. " أمسكت الكونتيّسة فيريول كأس الشمبانيا، ومدّتها إلى الفتاة الشركسيّة التي لم تأخذها. لأنّها لا تشرب أم تتصنع؟ كيف لا تشربين الشمبانيا وأنت رُبّيت في فرنسا؟ ومن هذا الذي يقبل يدّها احتراماً؟" هو بليز - ماري دو إيدري شفالليه... لم أصدق ما قيل لي إنه يحوم حول الفتاة الشركسيّة، ولكنني أراه اليوم رأي العين... " - اضطرب قلب أورليان الخبر بأهواء النساء فتمنى أن يتّجه إلى حيث تقف عائشة. ولكنه لا يريد استقبالها بطريقة تباهي بها. وحين اقترب من موقف عائشة وهو يقرع كأسه بمن يصادف دون تمييز توقف عندها وكأنه فوجئ برويّتها:

- يسرني جداً حضوركما إلى لقائي اليوم يا ماري - أنجليك الكونتيّسة وشارلوت - إليزابيت أيسيه. لماذا ليس معك كأس يا شارلوت - إليزابيت أيسيه؟ ألم تحصلني عليها؟

- لا أشرب الشمبانيا يا نور فرنسا!

- هاتوا لها من النبيذ إذن! أتحبّين الأبيض أم الأحمر؟

- لا، لم أحسن التعبير - صحيحت عائشة والخجل يزيدها جمالاً: - لم أشرب قط أي نوع.

- هكذا؟... - نظر الوصي أورليان مستغرباً ما سمع إلى الكونتيسة ماري - أنجلييك، وأحاب حذراً ودون مبالغة: لم يبدأ الشرب بالنساء ولا يجوز اعتباره عيباً على المرأة؛ أليس صحيحاً يا بليز - ماري دو إيدي شفاليه؟ إن وافقتني دعنا نرفع كأسينا على شرف المرأةين اللتين معنا. أدعوا لهما أن تبقيا جميلتين دائمأً، لذيدتين، دافتني كالشمبانيا التي أرفعها.

- وأنا باسمكم - انتظرت الكونتيسة ماري - أنجلييك حتى فرغوا من الكأس وقالت لهم من أعماقها: - أرفع هذه الكأس في صحة الرجال ذوي القلوب الحارة.

وبعد أن فرغت ماري - أنجلييك من الكأس نطق أورليان بيته الخفية: - ألا تعرفين يا شارلوت - إلزابيت أيسية الرقص وإن كنت لا تعرفين شرب الشمبانيا؟

- يا نور فنسا كيف لا تعرف شارلوت - إلزابيت أيسية الرقص... - استعجلت ماري - أنجلييك.

- إذن لنرقص يا شارلوت - إلزابيت أيسية معاً! - أشار أورليان إشارة احترام لعائشة.

- أستطيع أن ألبّي لك طلبك يا نور فنسا - الآن كشفت عائشة سرّها في حضرة أورليان وماري - أنجلييك - حين يسمح لي حبيبي بليز - ماري دو إيدي شفاليه.

- اسمح لي أن أرقص حبيتك يا شفاليه! - وتوجه أورليان إلى شفاليه. حين رأى عريف الحفلة أورليان ممسكاً بيده عائشة، متوجهًا إلى الخلبة، وأشار إلى العازفين، وكذلك إلى الراقصين فتوقفوا. وقال للجميع بحيث يرونها:

- نور فرنسا الدوق أورليان الوصي على العرش سيراقص ابنة الكونت شارل دو فيريول شارلوت - إليزابيث أيسبيه الفتاة التي جاء بها من بلاد القفقاس البعيدة. يرقص أورليان الماهر في كل الرقصات حتى لو كان كهلاً في عمره، حذراً على شريكته في الرقص، متأملاً وجهها برياء وبأسلوب ناعم محبب، دون مبالغة في الحركات، وكأنه يقول للناظرين "انظروا إلى قامتي المشوقة وكتفي العريضتين، اعلموا أين بكامل قوتي". وعائشة المعتدة بجمالها، تنشر قامتها الرشيقه وظهرها للهواء. تختتم مراقصها وإن لم تتصنع له. ولكنها لا توحى له بأي أمل.

"كم يتناسب هذان رغم تفاوهما في العمر!" "الفتاة الشركسيه تدمير مستقبلها برقصتها" لا تختتم عائشة بأي شيء يقال فيها أو لا يقال. ولا تختتم بسلوك مراقصها. وكل ما لا يغيب عن وجهها هو إيدي جبيها الذي تركته في عهدهة ماري - أنجيليك.

بعدما انتهت الرقصة امتدح أورليان الراقصة التي ما يزال يمسك بيدها:
- ترقصين جيداً يا آنسة أيسبيه!

- شكرأً يا نور فرنسا. يسرني أن تشهد لي. لست ماهرة مثلك في الرقص. ولكنني كنت حريصة على مجاراتك.

- يسرني يا آنسة أيسبيه أن كلامك يخلو من الرياء. إن أردت أيتها الكونتيسة فيريول فعندنا في الغرفة الأخرى معرض فني، يمكننا تأمله.

حين سمعت عائشة ما كانت تتوجس منه أجابت وهي تخفي اضطرابها، وهي تخرج به دون استعجال من الساحة.

- شكرأً. إذا أعدتني الآن إلى من أخذتني منه شفاليه، واصطحبتنا والكونتيسة ماري - أنجيليك إلى المعرض أمكننا مشاهدة الصور.

- كما تريدين يا آنسة أيسية، ما من شيء تأمرين به ولا أحقه لك. — وافق أورليان على رغبة عائشة — ثم أضاف بعد لأيٍ: — انظر إليك يا كونتيسة فأراك وقعت في حب شفالييه تماماً... لا أصدق... أغبطكم، أتعجب... من الصعب العثور على من يشبهكم في فرنسا. بل لم أعرف أن فيها مثلكم.

- إن كنت ترى هذا يا نور فرنسا — ابتسمت له عائشة — فأنا سعيدة.
"الا تعرفين يا حلوي أن من تحبينه فارس¹؟" — كان بود أورليان أن يقول لعائشة التي أعادها إلى حبيبها غير أنه تناهى الأمر قائلاً لنفسه "تعاملت مع زوجات وعشيقات فرسان أحسن من "فارسك"..." وأنتِ ستفهين هذا يوماً ما..."
ولكنه وشوش ماري — أنجلييك، وهم في قاعة المعرض، دون أن يسمع أحد:
— أين علق بكم هذا الفارس؟
— لم يكن بصحتنا، قابلنا هنا.

لم تكن عائشة ترغب في قضاء مزيد من الوقت في الحفلة بعدما فرغوا من زيارة المعرض الفني. فشكروا أورليان على دعوته، وحبيوه. وغادروا إليه روياً فُيل منتصف الليل. ولحظة دخولهما البيت سالت ماري — أنجلييك التي لم تعجبها مجريات الحفلة، متظاهرة بالتعب الشديد:
— أأعجبتك حفلة الليلة يا أيسية؟ ما رأيك في الوصي أورليان؟

¹ في الفرنسية كلمتان متقاربتا المعنى ظاهراً، وكلتاها منسوبة إلى الحصان *cheval*، الأولى *cavalier* التي انتهي معناها إلى راكب الحصان فحسب، وتنطق: كافالييه. والثانية وهي التي تذكر في الرواية *chevalier*، وتنطق كما هنا: شفالييه، وهي رتبة اجتماعية أو لقب متوازٍ من مراتب النبلاء، ومنها تأتي الكلمة *chevalerie* التي تعني أخلاق الفروسية. المترجم.

- كل شيء كان جيداً ورائعاً غير أني عتبت على أورليان.
- ماذ؟ أقال لك ما أزعجك؟
- لا، لم يسأل عن بابا المسكين.
- هذه هي؟! - "هذه ليست مشكلة" ابتسمت ماري - أنجيليك في سرها.

IV

الفتنة التي كان لا بد أن تقلقل القصر الأبيض الكبير لآل فيريول نشبت اليوم على شارع سان - نيف أوغست. وكان السبب فيها بليز - ماري دو إيدري شفاليه.

"الحب لا يستشير أحداً" صحيح. وقد فهمها بليز - ماري دو إيدري شفاليه في حبه. والآن كان جاهزاً لأن يفعل ما يناسب السياق دون ندم. وعائشة لم تكن في وضع يسمح لها بالتمعن في حبها المفاجئ القادم، ولا أن تستشير أحداً. ومع أن هدوء أعصابها يحميها فإنها تفني نفسها في تفكيرها بمستقبل حبها. ولكنها عندما يغلبها الضيق فصوبي ملحوظها للتنفيس عن كرها. غير أنها كانت تحفظ نفسها بسرٍّ وحيد تقلق من أجله.

لا يخلو طريق الحبين من عثرات وعوائق وإن عثروا أنفسهم سعداء. وعائشة وإيدري لا يزالان شابين، وأمامهما صعوبات يعرفونها في نفسيهما، وإن كانوا قادرين على الحب المتحرر. ولإدي التزام أمام الفرقة المالطية، ولكن كل فرد في هذه الفرقة يستطيع الوفاء بعهده وعدمه. وقد برهن على شجاعته ووفائه بقسمه في مواضع كثيرة. بيد أنه تصرف في حبه الأول بما لا يليق فأثبتت أن "الحب لا يقف شيء في طريقه، يجعلك تفعل أي شيء" وقرر أن يحيث بندره. وعائشة؟ لو كانت حرة لربما تزوجته دون استشارة أحد. ولكن إن فعلت هذا فكيف سيتصرف الكونت شارل دو فيريول؟ قبل أيام لمح لها أنه اشتراها، ورباها، ولايزال. والأعجب مما سبق هو ما أضافه: "الحب لا يعرف كبيراً أو صغيراً، تعيش بما يأمر به القلب" ليست هذه أول مرة تسمعها عائشة. لو حررها الكونت دون إشكالات لكان أفضل حلٍ، ولكن العائد الذي يُدر

عليها أربعة آلاف ليرة في السنة، والوثيقة التي تشغل بال ماري - أنجلييك التي تُشرك عائشة في الترِكة، بقيا في بيت آل فيريول.

الأفضل أن يدير كلُّ شؤونه الشخصية. ولكن حين يدخل الوسطاء في الحب الأول لا يبقى حباً نظيفاً. بعد حفلة باليه روياً فعلت عائشة خيراً حين رفضت أن يكلم إيدي الكونت. وكلفت نفسها بهذه المهمة. ومرت الأيام وهي تنتظر ساعة صفاء للكونت تفاحته فيها. ومن بين ما كان يشغل عائشة موضوع الوصي أورليان. وكانت ماري - أنجلييك هي من تتسبب في المشكلة بكلام حلو يبدو كأن لا إحراج فيه. ولذا كانت عائشة تبحث عن ذرائع لتخفييف ساعات لقائها بالكونتيسة. وكانت ماري - أنجلييك تعرف هذا فتحرص جداً على كلامها وسلوكها. ولكن من يأتي منه الدواء المريح للكونت في الأسبوع مرة وهو الطبيب الوسيط سيلفا جان - باتيست لم يكن يعرف الراحة. وكان الدواء الذي يجهزه للكونت فرحةً لعائشة وأملاً، وتحفظ ماري - أنجلييك به كآخر ضمان للضغط على عائشة: اتفق طبيب الملك والكونتيسة على تأخير جلب الدواء يوماً. ومضى نصف النهار التالي.

وعائشة التي كانت تستطيع الحصول على الدواء متى أرادت لم تختم كثيراً بعدم وصوله في أوانه أمس، وانتظرت نصف هذا النهار دون أن تُبدي على حالمها القلق. ولكنها لم تستطع إلا أن تبوح لماري - أنجلييك بسبب قلقها: - الدكتور لاروش لا يزال غائباً. ما العمل إن رجع اليوم كما البارحة دون الدواء؟

- لا تسمحي لهذه الوساوس أن تغزو رأسك يا أيسيليه - تصنعت الكونتيسة أنها تطمئن قلب عائشة. ولكنها في الواقع عادت فأثارتها - أنا واثق من

الوصي أورليان، ألم ترى كيف خدمتنا في شأن تعويض الكونت؟ أقول هذا ولكن من يدري ماذا يمكن أن يفعل هؤلاء؟

- لا تنسى معروف الكاردينال إركيول—أندريه! — قالت عائشة متناسية اسم الوصي الذي ما كان يفارق لسان ماري — أنجلييك.

- نعم، لم يهمل رجاءنا، شكرأ له. ولكن أليس الوصي هو آخر محطة رجائنا ورجائه. لو لم تكن نوایاه سلیمة نخونا... ألم ترى كيف اختارك من بين أجمل نساء باريس ورافقتك؟ من أجل هذا أخذتُك إلى باليه رویال. ولهذا عرفتك هذا الرجل الوسيم الذي تتهافت النساء لا على الرقص معه، بل على أن تقع عيناه عليهن... وأنت تزكيه من أجل أمثال شفاليه.

مهما كانت الكونتيسة ماري — أنجلييك تلاطف عائشة، وتحاطبها بكلام معسول فإن عائشة التي كان الدواء يقلقها لم تغفل عنه، وأجابت على السؤال بكلام كانت جدتها ترددده:

- "قبل أن تسألي عن الفائدة التي ستجنيها أساي عن الضرر الذي سيجلبه" لهذا ما تريدين قوله لي يا ماما ماري — أنجلييك؟

- تباً لك يا أيسية — صرخت ماري — أنجلييك من السؤال الموجه إليها. — كلامك دائماً حاد... أنا ليس لك في قلبي إلا الخير. أنا من لا يفرح إن أصابك الخير؟ حسناً أحيي "فارساك" إن قيل الكونت. ولكنك لست جاهلة بنظرات أورليان الوصي المتولسة، ولا برغبته فيك دون حاجة إلى أن أخبرك... لا عيب في هذا؛ الدنيا قائمة على هذه العلاقات.

- ماما — لم تُطق عائشة المزيد كما تفعل حين تُضطر لحماية شرفها. غير أن لاروش العائد من جلب الأدوية قطع كلامها:

- جلبت الدواء يا أيسيه اطمئني. - قال لاروش وأتبع كلامه بما كانت الكونتيسة تعرفه ولا تنتظره عائشة: - أكّد علىّ الدكتور سيلفا جان - باتيست أن تذهبي أنتِ مكانِي جلب الدواء.

- ما الأمر؟ - سألت ماري - أنجيليك كأنها مهتمة بالموضوع الذي تعرفه، وأنكِته باستيائها من هذا الطلب: - لن أدعك يا أيسيه تذهبين وحدك إلى هذا الرجل القبيح الأعوج ولو لم يبق غيري. أنا أعرف من أي طينة هؤلاء. سأظل أراففك.

- ولكن الدكتور مُصِرٌّ على أنتِ تكون شارلوت - إليزابيت أيسيه وحيدة.

- إن كان هذا ما ابتدعه خياله فسنشكوه للوصي. لماذا لا ينفذ ما أمر به؟ هذا هو موضوع الفائدة والربح الذي كنت تتحديثن فيه يا أيسيه.

- أنا أنقل لكم ما قيل لي ولا شأن لي به - أسع لاروش إلى تبرئة نفسه كأن أحداً شَكَّ فيه - وأنا لم أستطع أن أعبر عن استيائي للطبيب الذي لا تسعه الدنيا تيهأً.

- ليس عدم ثقة بك يا لاروش - تذكرت عائشة أنها نهرته مرة فللاطفته بالكلام - أنت عملت ما عليك، شكرأً.

- نعم، نعم يا أيسيه - كانت ماري - أنجيليك مرتاحه لما سمعت - لاروش فعل ما عليه، أحياناً لا ننق به، ولكنه ليس أقل شأنأً من طبيب الملك.

- لا، لا ياكونتيسة - قطع لاروش مدح الكونتيسة متودداً إلى عائشة - لا أحب أن أسمع ما ليس من شأنـي. كل طبيب يختار ما يناسبه من الاختصاص: الدكتور سيلفا ماهر في تركيب الأدوية. أنا أشففي به المرضى، إن لم تعودوا في حاجة إلى تابعت أعمالي الأخرى - نحضر الدكتور لاروش الذي كان مستعجلأً على الخروج حين أذنوا له.

حين تُراجع عائشة بينها وبين نفسها موقف الكونتيسة ماري — أنجلييك منها يبدو لها أن معاملتها لها في شبابها أسوأ منها في طفولتها. ويتجلّى هذا في سلوكها وطبعها في السنين الأخيرتين أو الثلاث. لأنها كبرت وكبر معها عقلها أم لأنها تستجيب لوسائلها؟ ودون أن تعرف السبب الحقيقي تنبت شكوكها واحداً بعد الآخر في شبابها. "لماذا كلما تحدّثنا تأتي لي على ذكر أورليان رغم معرفتها بكرهي لهذا الحديث؟ وأعجب ما أujeب منه هو قوله لي "أحبي الفارس إن قيل الكونت منك"! ربما لاحظت أنت أيضاً شغف أورليان بك... لا عيب في هذا؛ الدنيا قائمة على هذه العلاقات...". انظر الآن ما يحدث! بدأ الدكتور جان — باتيست يمنع الدواء عنا رغم معرفة أورليان بالأمر.. كيف يسُوّغ هذا؟ وكلودين ليست امرأة صالحة، من المحتمل أنها تلعب من ورائي.

يجب أن أكلم بابا في موضوعنا قبل أن ينقلوا إليه ما لا ينفعنا" في هذا اليوم، حين تحدّثنا وكلّ تخفي عن الأخرى ما في قلبها، ذهبت ماري — أنجلييك إلى أختها كلودين — ألكسندرine. وما إن وصلت حتى توقفت على عتبة الباب غير مصدقة ما ترى:

- كلودين هل انتهى الأمر؟
- تعالى، تعالى يا ماري. — استقبلت كلودين أختها بخصر في منتهى الرقة، — ما سأّلت عنه مضى عليه ثلاثة أيام، نسيته.
- وأين الطفل؟
- كما قلت لك مرة سلمته ملجاً للأيتام¹.

¹ كلودين التي سماها ديدرو "جميلة بلا شرف" أخفت حملها بمشد على البطن طوال ستة أشهر، ولم يعرف بأمرها إلا ماري — أنجلييك. وهذا هو سبب مفارقتها آل فيريول، وحياتها

- أهو صبي أم صبية؟ أسائل لأنها إن كانت بنتاً ربيتها.
- ارتاحي؛ ولد.
- يا للحسنة!
- كفى يا ماري! - أوقفت أختها الرياء الذي بدأت به - أسمعني أخبار آل فيريول بدلاً من هذا!
- لا خبر جيداً عندنا. لم يكُفِ أن الكونت تفاقم وضعه، بل لعب شفاليه بعقل البنت أيسية حتى كرَّهنا حياتنا. شفاليه، متناسياً تعهده بالعزووية الدائمة، لا يدعنا نرتاح، التصق بنا. لا تتعججي يا كلودين.
- وما المشكلة في هذا يا ماري؟ أ يريد هذا الذي لا يترككم أيسية؟
- ليس "يريدها" فقط!
- لا تتفقى حجر عثرة في طريقها! الأحسن لك هو أن تتزوجه.
- أنا لا أرى فيه فائدة.
- إذا تزوجت فستتخلصون منها، ولن تقاسمكم تركة الكونت؛ هل فهمت؟
- لم يخطر لي هذا.
- قبل أن تعمل المعروف أحياناً فكَرْ فيه مسبقاً. إذا مات الكونت بينكم لن يكون هناك تقاسم أملاك. سيُؤول كل شيء إلى الفتاة الشركسيّة الغريبة. هذا ما قيل لي حين سألت عن الموضوع.

المستقلة، وافتتاحها صالوناً أديباً. وحين ولد الصبي أعطته ملجاً الأيتام ولم تزره مرة واحدة في حياتها. والصبي الذي سُمي جان دو رون دو ألامبير صار فيما بعد من أكبر رجالات فرنسا. المؤلف.

- لا أعرف هذا. أنا أظل أتصحّها: لا تتزوجي، عيشي معنا. كما يقول العرب: "سيّرنا الجبن ونطعمنا الحجر" هكذا؟ إذن أعرف يا كلوتين ما أفعل بها. سأزوجها وأطلب منها أن تمسح برأسها الجرة الخالية من السمن. ولن أسمح للمسكين الكونت أن يموت قبل أن تخرج من بيتنا. سأمسح على رأسه، لن أسمح لذبابة أن تمسّه.

ومع أن ماري - أنجيليك التي تلقت نصيحة أختها كانت مستعجلة على العودة إلى البيت فقد تبيّن أن عائشة التي استعجلت من أجلها نامت مبكراً على غير عادتها بعدها أراحت الكونت. فلحوظت إلى فراشها قائلة: "ربما كان هكذا أفضل، أكلّمها وقد هدأت ثوري وحضرت كلامي" ولكنها بعد الفطور قالت لعائشة بين المواربة والصراحة:

- فكّرت طويلاً في الموضوع الذي تحدّثنا فيه أنت وأنا يا أيسبيه. ولم أغمض جفني طوال الليلة. لست على حق في ما قلته لك بشأن الفارس. وأنا قسوة عليك. كل أم تتلهف على ابنتها فافهمي، وسامحي. الآن أؤيدك في حبك. لاتفوتي عمر الزواج. اصنعي حظك بنفسك.

- شكرأ يا ماري - أنجيليك - مع أن الكلام الذي سمعته عائشة وردد خديها فقد أنحت كلامها بصوت منكسر كان يجعل لونها يشحب: - أنت تقولين هذا ولكن لا أعرف رأي بابا.

- وماذا سيقول؟ - سألت الكونتيسة وآمالها التي تتحقق تمنّها القوة - أيعييك عازية إلى الأبد؟ إن كنت محرجة في ما ستقولين للكونت فسأراقبك إليه. ما حاله اليوم؟ أيمكنه أن يفهمنا إن كلامنا؟

- كما رأيته على الفطور، كانه في وضع جيد. وتناول دواءه بنفسه.

- لنذهب إذن نكلمه. لماذا لا تزالين جالسة؟

- بهذه السرعة؟ سألت عائشة ولكنها نضت سعيدة.

حين دخلتا الغرفة لم يلتفت إليهما الكونت الجالس مرتدياً صداراً أزرق فضفاضاً. وحين انتهى من الكتابة التفت. ولما رأى في الغرفة التي لم يعد يدخلها إلا عائشة والخادم سأل بين الاستغراب والارتياح:

- أنتما؟ ماذا جرى يا كونتيسة؟ ليس من عادتك الدخول إلى غرفتي؟ ماذا تريدين؟ - سأل مبتسماً ودعاهما للجلوس: - تفضلاً!

- جئناك بخبر سارٍ أيها الكونت.

- مضى وقت طويل لم أسمع فيه خبراً ساراً. أسمعكمما.

- تكلمي يا شارلوت - إليزابيت أيسبيه!

- ولكن لا أعرف كيف أقول.

- ساعطيك فكرة عما لا تستطيع أيسبيه أن تقوله. هذه الصبية اتخذت قوام الفتاة الجميل. إن سمحت لها فهني تزيد الزواج.

- ماذا تقولين؟! - الكونت، وقد سمع الخبر الذي كان يخشاه، قفز من مجلسه ونفض عن ظهره الكسأء، وشرع يتتجول في أرجاء الغرفة، يرفس الكسأء انتقاماً. ويصرخ على المرأتين: - ليس عندي ابنة أزوجها! بأي شيء يفوقني الفارس؟ أهو شبابه؟ وأنا كنت شاباً حين اشتريتك!

- بابا! - هرعت عائشة إلى الكونت خائفة عليه. - اهدأ، لا تقل مثل هذا الكلام!

- اغري عن وجهي! وأنت أيضاً - نهر ماري - أنجيليك - لا ثرياني وجهيكمَا كليكمَا! - وصاح وراء عائشة التي كانت تخرج من الغرفة: - توقفي يا شارلوت - إليزابيت أيسبيه! وحين بقيا وحدهما ارتفى الكونت على ركبتيه أمام عائشة، وأمسك بيديها يقبلهما ويبكي: - ظنتك ستفهمين ما في قلبي

نحوك حين تنضجين فتاة بالغة... ولم تفهمي شيئاً... لا تنظري إلى عمري، لا
يزال قلبي شاباً.

- توقف يا بابا! - انتزعت عائشة، لا تدري كيف، يديها من يدي الكونت
القويتين، وركضت إلى خارج الغرفة.

و قبل أن تمضي ساعة على ما حدث جاء الكونت شارل دو فيريول إلى عائشة
و كان شيئاً لم يحدث. وأعطتها بكل تهذيب ورقة مطوية:

- أقرئي هذه، ثم نتكلّم في الموضوع.

جلست عائشة قليلاً في الغرفة بعدما خرج الكونت ممسكة بالورقة. ثم فتحتها
بأصابع مرتخفة وقرأت: "لم أكن أريد حين اشتريتك أن أسبب لنفسي هذه
الأحزان، ولا أن أجلب التعاسة وسوء الحظ لنفسي. كنت أنوي، وإن لم أكن
أعرف المكتوب على جنبي، أن أخذك ابنة أو حبيبة. وعلى ما يبدو فقد جرى
الأخير لكلينا. ولذا لا أستطيع أن أقارن الحب الملتهب الذي اضطرب في قلبي
بحب الابنة. ارضخي لما حدث لك! إن كانت السماء جمعتنا بإرادتها فلا
تفرقينا أنت..." - سقطت الورقة من يد عائشة وقد داحت مما فيها.

مع أن عائشة كانت تعرف أن إبرة واحدة لا تخيط خيطين معاً فقد رضخت من جهة، وهي تفكّر في الكثير، إكراماً للمعروف الذي أُسدي إليها. أما من الجهة الأخرى الوحيدة المتبقية، فلن تلطخ شرفها حتى لو كلفها حياتها. ماذا تستطيع عائشة أن تفعل؟ في غمرة حذرها وتجنبها الألسن المعسولة يجب أن تحمي نفسها في العالم القذر الذي وقعت فيه. ولكن الحياة الفرنسية التي كانت تحاول الامتثال لها مُرغمة نفسها، لم يكن كثير من الناس يفهمون وضعها فيها: الذين لا يفهمون يسخرون، والذين يفهمون يتعجبون. وليس الموضوع أن عائشة لم تستوعب العادات وأنماط المعيشة الفرنسية، ولا أنها لم تتقبل ما جرى لها. بل كلما تقدمت في السن، ولو أنها تصير بعيدة عن شعورها القومي، ولو أنها تعرف أن "فرنسيتها" تغلبها من كل ناحية، فإن اعتزازها بشرفها الأنثوي يظل يناديها ألا تنساه وألا تخطئ.

ولكن حين تكون غريباً فما كانت تقوله جدتها: "أنت أعمى ولو كانت عيناك حادتين" تبيّن صحته. وهذه الحكمة تنفعها وتضرها. حين تندمج بالناس الذين وقعت بينهم يضيع الدم الأصلي الذي كان في عروقك. ولو كانت عائشة غير عابنة بأصولها لصارت فرنسية حقيقة منذ زمن بعيد، ولعاشت بين النساء الفرنسيات تربى أطفالها، غير أنها لم تكن مثلهن. انقلبت عليها إنسانيتها وجهاً وبالاً عليها: الرجال يشتهونها، والنساء يحسدنها. وما في قلب الكون الذي اشتراها نحوها يستحي اللسان أن ينطق به. "بأي عين سينظر إبدي إلى إن أخيرته بتصرف بابا معي في ذلك اليوم، وأنه كان يريد تقبيلي؟ وأي شعور سيكون له نحوي؟ وإذا قلت له: إذن نفّذ ما في قلبك نحوي بسرعة وأخرجني من بينهم أكون أطلب منه أن يحميني من أبي. لولا هذه الورقة كنت

حملت مرضه مسؤولية ما فعل، وغفرت له تصرفاته معه، وتناسيتها. ولكن يصعب الحكم على من كتب هذه الورقة بأنه فقد الذاكرة. كان قال لي "اقرئي ما كتبت، ثم نتحدث" ولكنه تجاهل الطلب ربما لأنه لاحظ حذري من سلوكه أو خجل من جثوته على ركبتيه. ولو صح تحليلي لكان حسناً. رباني إلى الآن وهو ينادي بابته وأنا أناديه بابا، ولو أنه لا يجري في عروقنا دم واحد، ولم يُحوجني إلى شيء"

الهواء الذي هب فجأة صقر من خلال النوافذ محركاً أغصان الأشجار، ورج الباب. قلقت عائشة على الكونت الذي لم يسمع له أي صوت طوال النهار. "هذه الريح لا توازي بابا. — نهضت عائشة مسرعةً — يجب إعطاؤه الدواء وتحديثه ومعاملته برقة. لا يجوز تركه وحده. — ولكن عائشة كما فقزت بسرعة من مقعدها كظمت اندفاعها بالسرعة نفسها. — لا، لا، بابا وحيد — وحين فتحت الباب رأت صوفي تركض نحوه. وكان ديستان ولاروش يسرعان إلى الغرفة التي ينادي منها الكونت. — قالت عائشة: "لا مشكلة إن كان معي غيري"

— تعالى يا صوفي، بابا ينادينا. — عادت إلى عائشة رباطة جأشها.
— لست من يناديها، إنه لاروش.
— يحتاجني هذه اللحظة أكثر من حاجته إلى لاروش.

حين دخلتا الغرفة كان الكونت الذي غطى رأسه بلحافه ينهر الرجلين:
— ماذا تريدون أيها الشياطين الأتراك أن تفعلوا بي. اغربوا عن وجهي. وأنتما أيضاً يا ماري — أنجيليك وكلودين — ألكسندرین الجنبيتين الشريرتين. مهما قلتم. ومهما فعلتم لن أسمح أن تتزوج شارلوت — إلزابيت أيسية من الأفاق شفاليه.

ولن أسمح لأوريان الملطّخ بالعار أن يدّسها. أيسيه ياروحي أين أنت؟
يسلبونا مني. لن أعطيك لأحد.

– بابا، لن يسلبني منك أحد. – هدّأت عائشة الكونت دامعة العينين. – ها
أنا واقفة أمامك، وكذلك صوفي ولاروش وديستان. ولا شيطان ولا إبليس في
البيت. انزع اللحاف عن رأسك وتناول دواءك!

حين نظر شارل دو فيريول من تحت اللحاف بعين واحدة ومتنهى الحذر،
ابتسם ملن تذكّرهم:

– هؤلاء أنتم؟ من كنت أراهم غيركم. ماذا أفعل بينكم؟ ابتعدوا، هاتي يا أيسيه
الدواء! إن سقيتني بيديك نفعني. – قال الكونت بعدما نفذت له عائشة مراده:

– لماذا أنتم واقفون، أنت يا لاروش، وأنت يا صوفي، عودا إلى عمليكم.
سنجلس وحدنا أنا وأيسيه، وستتحدث في موضوعات معينة.

– لا، لا، ابقي معي يا صوفي. – ارتعبت عائشة.

ضحك لاروش وديستان في أعماقهما. وحين خرجا، سأل الكونت عائشة
دون اهتمام بوجود صوفي:

– ما الأمر يا أيسيه؟ ألا تتفقين بي؟

– إن كنت تعتبرني ابنة يا بابا فأنا واثق بك. ولكنني أربأ بك أن تقول لي ما
قلت وتكتب ما كتبت. إن غفرت لنفسك تلك الأخطاء فستعود كما كنا: أباً
وابنةً. ولن أنسى فضلك أبداً.

– أتسمعين يا صوفي ما تقول "كونتيستك"؟ ابتسم شارل دو فيريول ولوى
عنق الحديث إلى حيث يريد فاختتمه وعيناه تستديران في محجريهما وتحظان:
– هكذا لم يِنْ عليك فضلي. ولم تفهمي ما كتبت. إن كنت ترينني عجوزاً

مجنوناً فستندين، ولكن الفرصة تكون فاتتك. — فقد الكونت زمام أمره فلمعت عيناه: — يا صوفي منْ طلبتُ أن يغرب عن وجهي؟

حين خضت عائشة الجالسة في حضرة الكونت هجم الأخير وأمسك بيدها: — بابا، لا تتعد حذودك! — حين انتزعت يدها من الكونت ووصلت إلى الباب قالت له وهي تنظر إليه نظرة إشفاق دامعة العينين: — ساخني، ماكنت أريد أن أسيء إليك.

— أيسية، شارلوت — إليزابيت أيسية قفي! — صاح الكونت في أثرها دون تراجع عن موقفه لا في صوته ولا في نظرته. — لا تفعلي ما لستِ حرة فيه؛ توقفي!

— لا يا بابا، لا تقل لي شيئاً الآن. — خاطبت عائشة الكونت بـ "بابا" متتجاوزة غضبها، ضاغطة على عواطفها رغم نار الإهانة، ثم عاتبته بكلام ألطف: — فكر في أنك تفعل ما لا يليق بك!

رغم أن عائشة كانت تحرق في داخلها فإذا لم تستطع إلا أن تلتفت نحو الباب الذي كانت تصدر منه أصوات سورة غضب الكونت.

— تعالى يا أيسية، تعالى، كفى — أمسكت صوفي ساعد عائشة وجرّتها إلى غرفتها.

ارتوت عائشة بكاء صامتاً على صدر صوفي. وحين انفرجت أزمتها قالت:

— إذا كان المرء سيء الحظ أمكن أن يحدث له مثل هذا. — أنصست إلى جهة غرفة الكونت، وأكملت: — ولكن لا ألوم بابا... لا تتعجب يا صوفي، لماذا إدانة المريض؟

- وأنت تقولون هذا — قاطعت صوفي عائشة — دللتكموه! إن كان مريضاً فليبق في حدود مرضه! إنه يتصنّع... كلما صدر شيء من فمه أسرعتم إلى تنفيذه، وهكذا خرج عن السيطرة.

ابتسمت عائشة في وجه صوفي وقد نسيت ضيقها، ثم مزاحت معها:
- لم أكن أعرف أنك فظة هكذا!

- ما الذي ينقص الكونت إذن؟ أنت تخاطبينه بـبابا حتى إنك تخدمينه كما لا تخدمه الابنة الحقيقية. أخلصت له وهو اشتهاك. ألن يشبع يوماً؛ ها قد حانت ساعة وفاته. وسأقول لك شيئاً يخونه عنك بما أن الموضوع انتفتح: لا تصدقني كل ما يقوله لاروش. حين تهب الريح ويدوي الرعد يأتيه بامرأة. أقول ما رأيته ولكن لا أعرف الحقيقة. ربما كنت مخطئة.

- لا تحاسبي نفسك يا صوفي. — ضحكت عائشة من خارج قلبها. — وأنا أعرف الموضوع، وإذا أردت أخبرتك باسمها: "لولو". كانت عشيقة لاروش في وقت مضى.

- أيسيه! — ارتفع صوت صوفي ووجهها يحمر — ليتني لم أسمع ما قلته. أهذه هي آخر محطات الكونت؟ يكفي ما قاله لك اليوم حتى دون غيره...

- ألم أقل لك إن بـبابا مريض؟ لا تلوميه يا صوفي. — استنفرت عائشة كأنهم يفعلون بالكونت ما لا يجوز — بالنسبة إلى، مهما قال لي وكيفما تصرف معه ففضله على بلاحدود، أغفر له — تنهدت ثم أكملت: — ربما ما كنت غفرت له لو كان له ولد من صلبه.

- نعم، حقاً. — وافقتها صوفي، وقالت لها ما كانت عائشة تتوجّس منه: — إن هجم عليك؛ هذا شخص لا رادع يمنعه... سيدمر حياتك.
قالت عائشة بعد برهة ولوّها شاحب مما كانت تفكّر فيه:

- وأنا أخاف من هذا يا صوفي... ولكن لي رجاء عندك: - لا تخبri أحداً بما رأيته اليوم.

- إن كان بالإمكان منع لاروش وديستان من الكلام فاطمئني من جهتي. قالت صوفي وأثر الاستياء من رجاء عائشة بادٍ عليها، ثم لامت عائشة: - وأنت لا تتصرفين بطريقة صحيحة؛ هل رعاية الجنون مسؤوليتك؟ ما العجيب في أنه أشفق عليك مرة وأنفق عليك بعض المال فاشتراك؟ أتظلين تسددين ثمن إحسانه إلى الأبد؟!

كما يحدث لعائشة في ساعات الشدة، حين انتصبت أمام عينيها كيف سرقوها فدمروا حياة الأسرة واقتلعواها من جذورها، وكيف اشتروها، وغيروا دينها، واحتفظت باسمها الأديعي بعد صراع معهم، وكيف جهدت للاندماج في المجتمع الغريب الذي وجدت نفسها فيه، وكيف كان يناديها المستاء منها بـ "الشركسية المتمردة"، وكيف كانت تكلم نفسها ساعات كي لا تنسى لعتها، قالت غير قادرة على حبس دموعها:

- لا أؤيدك في واحدة حتى لو كان سائر كلامك صحيحاً يا صوفي: دين الله علينا صعبٌ سداده. ولم يحدث لي ما ليس له به علم. ولكن الطهارة التي زرعها الله فيّ لن أتنازل عنها لأحد وليس المعني الله. - حين بدأت عائشة ترسم إشارة الصليب فعلت صوفي مثلها. أم لك يا صوفي رأياً آخر؟

- لا يا أيسية - انفجرت صوفي بالبكاء - اغتصبني زوج أمي وأنا لم أجهاز الثانية عشرة... ولم تتحمل أمي العار الذي ألحقه بي زوجها... وأعيش وأنا يقشعر بدني كلما رأيت رجلاً، ولا راحة لي إلا بجانبك. - ضمت عائشة صوفي إليها، وبعدما تعانقتا برهة وها تندبان معًا آلامهما، أضافت صوفي إلى

ما قالت: - ولكن يا أيسيه لا أريد أن يحدث لك ما حدث لي... أنتِ عندك مخرج.

- وأيُّ مخرج؟

- تتزوجين من شفاليه دو إيدي.

- صوفي، يا أختي الحبيبة، يا روحـي - تظاهرت عائشة بأنـها تلومـها رغم سعادـها بما سمعـت. - شـكراً، ظـنـتـك سـتـقولـين لي شيئاً آخـر... لا يـاصـوفي لم يـصلـ أـمـرـناـ أـنـاـ وـشـفـالـيـهـ بـعـدـ إـلـىـ هـذـاـ حـلـ. أـلـاـ تـعـرـفـينـ أـنـ دـوـ إـيـديـ أـقـسـمـ أـلـاـ يـتـزـوـجـ؟ـ لـاـ تـدـعـيـنـ نـسـتـبـقـ الحـظـ.ـ ثـمـ إـبـيـ لـنـ أـدـعـ بـاـبـاـ الـمـرـيـضـ وـحـدـهـ.

- سـتـدـمـرـيـنـ حـيـاتـكـ مـعـ الـكـوـنـتـ الـهـرـمـ وـأـنـتـ تـرـدـدـيـنـ هـذـهـ الـلـازـمـةـ.

- يـاـ صـوـفـيـ،ـ خـافـيـ مـنـ اللهـ!ـ لـاـ تـقـولـيـ مـاـ لـيـسـ مـفـيـدـاـ.ـ لـمـ تـقـبـلـ عـائـشـةـ رـغـمـ عـلـمـهـاـ بـهـاـ فـيـ تـلـمـيـحـهـاـ مـنـ صـوابـ.

VI

في اليوم نفسه، وعند حلول الظلام، أخبر لاروش بنفسه عائشة أنه جاء بـ"لولو" إلى الكونت. ولكن التصرف الجيد لاروش هو أنه عندما قال له الكونت "هات لي شارلوت - إليزابيت أيسيه إلى لأريها أني لا أزال في منتهي الفحولة بما يكفي للكثير من النساء" أجابه: "هذه لن تستطيع الحضور، ذهبت مع أرجنتال إلى المسرح". ومن تسببت فجأة في مشكلة دون علم عائشة هي صوفى. فعندما همست ماري - أنجيليك بالخبر أسرعت الأخيرة، وهي التي ت يريد هذه الفضيحة، إلى ابن حميتها، وتسببت في مشاجرة صاحبة.

- لماذا جعلت من بيت آل فيريول بيتاً للدعارة؟ - ألم يقع في العالم حياءً أيها الكونت؟ الآن حالاً، قبل أن أدعوه لتحطيم مؤخرتك أغرب من هنا!
- اسمعوا ما تقول هذه! - نص شارل دو فيريول منفعلاً فاقداً زمام أمره - لا تعرف من هي حتى تربينا!

- اسكت يا كونت! - صرخت ماري - أنجيليك في وجه الكونت - إن قلت كلمة زائدة فسأجعلهم يكتفونك إلى مستشفى المجانين.
أسرعت عائشة إلى الغرفة قلقة ملهمفة:

- يا ماري - أنجيليك يا ماما ، لا تقولي مثل هذا لبابا!
- أيسيه، يا شارلوت - إليزابيت أيسه - أزاح الكونت من يقفون أمامه، وضم إليه عائشة ثم بكى - أنت الوحيدة يا ابنتي من بقي لي ملجاً. هؤلاء جنيون، أححبني منهم. وأنت أيضاً يا لولو. أنت جنية سوداء. لماذا تقفين باسمة ناسية ما أعطيتك وخدمتك به؟

- ألم تسمعي ما قالوا لك؟! - نظرت صوفى بطرف عينها الغاضبة إلى لاروش، وتقدمت نحو لولو بقوامها المتن الحفيف.

- اسمع إلى هؤلاء، اسمع! — أدارت لولو مؤخرتها المستديرة إلى من كانوا يراقبونها، وخرجت من الغرفة تردد ساخرة كلمات الكونت الأخيرة.

VII

تمضي الحياة الإنسانية متداخلة متشابكة بين تعاقب الليل والنهار، والأفراح والآحزان، والأعراس والماتم. ولا أحد من الطرفين ينتصر. النور والظلم يعميان الإنسان. الحزن يُفنيك والفرح الدائم يُمُلك. ولولا هذه الجاجحة الدينوية لفنيت البشرية يوماً ما أمام الخير والشر. — أهي أفكار فولتير أم أفكار مونتسكيو أم أفكار عائشة نفسها؟ كائناً من كان مصدرها فإنها لم تمنح الراحة لها. — "لماذا أختزن في رأسي أفكاراً لا تفيديني؟ ولماذا أهتم لها؟ ربما بسبب مثل هذه الأفكار تبدأ الوساوس تغزو الرأس." تلوم نفسها وتسأل.

في ميزة شباب عائشة بدأت هذه الأفكار التي تدعوها للتأمل والتساؤلات. ولم تكن طفولتها مريحة، ولكن هناك فرقاً بين أن يهتم لك أحد وبين أن تهتم لنفسك بنفسك. إذا كانت حياة الإنسان كلها مركبة من الأسئلة فإن طريقة عيشتك ستتوقف على أجوبة هذه الأسئلة. والأفضل لا يخطئ الإنسان ولو كان كلامهم: إن الإنسان يستخلص العقل والحكمة من أخطائه، صحيحًا. ولكن هذا لا يتحقق للجميع، وعائشة منهم.

لم تكن عائشة محرومة من صديقٍ موضع ثقةٍ واستشارةٍ. لها في باريس خمسة أشخاص تحمل إليهم همومها وقلقها: صوفي، وبون دو فيل، وأرجنتال، وجانيت — نيكول، ودو إيدي. كانت صوفي مطلعة على أحوالها. أما بون دو فيل وأرجنتال فلم تكن عائشة ترى من اللائق إطلاعهما على سلوك عمهما معها. وكان لجانيت — نيكول أيضًا معرفة بوضعها باستثناء الأحداث الأخيرة. ومن لم يكن يعرف شيئاً هو بلير — ماري دو إيدي شفاليه. كان ما يهمه أمراً آخر: معاندة أورليان الوصي لعائشة واتخاده لها طرفاً في المعركة. كان يسعى دون أن يعرف أحد إلى البحث عن مخرج لها. وعائشة التي لم تكن تعرف شيئاً من

أسرار شفاليليه لم تكن ترى من المناسب إطلاع حببها الأول في حياتها على تصرفات الكونت المشينة. وما تبقى لها هو أن تتحمل سرّها بنفسها مهما كان الحمل ثقيلاً. أتستطيع تحمل حالمها؟ أتستطيع الصمود في وجه أسرارها؟ ولكن لن يسمعك أحد ولن يراك حين تغلق الباب على أحزانك بنفسك.

لا يفرق الألم والبؤس، والكلام من وراء المراء، والشر بين شخص وآخر. — لا تميز هذه بين شاب وعجز. المشرفة، وإن كانت تقويك وهي تختبرك، تصرع بعض الناس. والبؤس، وإن كان يهز جذورك، فإنك ستغافل منه يوماً ما.

والكلام متى دخل البيت فرق بين الأحباب. والشرّ يُنسيك العالم المنير، وينزعه من بين يديك.

مررت عائشة بمescفات كثيرة كفيلة بأن ترقق قلبها. والآن لا تنقص هذه المescفات بل تزيد. وتحب عليها رياح قادرة على أن تهز أغصانها وتزعزع أصولها. وما إن وجدت الفرصة لتنتهي من الأزمة التي تمر بها حتى ألم الخرف بالإنسان الوحيد الذي كان أملها. وفيما هي تمثل للمصيبة تأثيرها مصيبة أخرى. ولو كان مصدر الشقاء إنساناً غريباً لما كان في الأمر كارثة.

لم يكُف ما في بيت فيريول من بلبلة فأضيّفت إليها أزمة أخرى.

كانت ماري — أنجيليك المهمة بكل شيء، أول من كلمت عائشة بأسلوب لطيف في موضوع إدخال الكونت في مشفى "بيرسيرت" رغم أنها تعرف رفضها المسبق:

— أهكذا يا شارلوت — إليزابيت أيسية نظل ننتظر أحدنا الآخر، ولا يريد أحد تحمل المسؤولية حتى تدمر تصرفاته حياتنا؟ لا أعرف كيف أقول لك، ولكن هل تستسلمين لما ينويه لك؟ الأسرة بكمالها لا هم لها غير مسألة الكونت.

أمثال الفاجرة لولو ينشرون الأخبار المعيبة في باريس كلها. لا أعرف يا حسرتي
كيف سأقنعك.

- أفهم ما تريدين قوله يا ماري - أنجيليك، يا ماما - أجبت عائشة وهي
تكمم عواطفها بصعوبة - ولكن، ساحيني، لا يرضيني أن تستشيريني في مسألة
لا أستطيع المودة عليها. دعينا نصرف النظر عن هذه المسألة حتى يكون
لعمي أوغستين - أنطوان علم بها!

- ألا تعرفين من أي نوع من البشر هذا الذي نطق ب باسمه؟ - ابتسمت ماري
- أنجيليك، واحتتمت واقفة بنفسها: - لن يخالف رأي!

- إن وافق أوغستين - أنطوان... - وقتها لا أعرف - زفت عائشة عميقاً.

- تجري في العالم أمور كثيرة لا نعرفها - ما يُقلقني هو مصيرك أنت يا بُنَيَّتي.
أنا وأوغستين عشنا عمرنا، لا يهمنا إلا راحتنا في شيخوختنا. ألا ترين ما
يحدث لنا؟

قالت لنفسها وهي تسمع هوم الكونتيسة "أحياناً لا أفهم ماري - أنجيليك"
- هُنَّها أنا، وليس ولداتها اللذان يخطوان خطواتهما الأولى في الحياة. وأما
كلودين فقد نسيتها تماماً. ألسنا أسرة واحدة عليها تقاسم أحزان كل فرد منها
وأفراحه؟ وإلا حلّ بنا ما كانت جدي تقوله "إن لم يكن في الأسرة من يجر
كسرها تصدّعْ". ليست ماري - أنجيليك بعيدة عن التفكير في هذه
المسألة، غير أنها تبحث في كل أمر تبعاً لفائدتها. ومع ذلك لا تستطيع
كتمانه... أقول هذا ولكنها لاتأتي على ذكر أختها حين أنجبت صبياً فسلمته
لملجأ الأيتام. أنا تعرّض على اقتراحات كثيرة لإسعادي في مستقبلي، ولكنها
تغير قرارها بسرعة في إيدي الذي لا تريده، ظلت تقول: شفاليه غني وجميل
ومثقف؛ فكيف ترمي الآن إلى أورليان؟ هذا ما لا أفهمه. ماذا تنويني لي؟ أتريد

فيريول وإن لم يكن دمي من دمهم" تزويجي من إيدي لإبعادي من آل فيريول؟ لولا مرض بابا ربما كنت فعلت هذا دون تدخلك. أعرف ما تريدون: إيداع بابا المشفى. لن أدعكم تتعلون هذا ولو لم يبق غيري. أعندي إمكانية لهذا؟ ولماذا ليس لي؟ ألسنت ابنته؟ نعم، نعم، أنفسهم. مسكم علىه هو تصرفه معه ورغبته فيّ. وأنت يا ماري – أنجليك ما فعلته لأجلني ليس أقل مما فعل بابا إن لم يكن أكثر. لا تظني أني نسيت أو سأنسى. لا تدعيني أستعجل في قراراتي. يُخلي إلّي أن جذري متصل في آل

— أيسية، هل أحزنتك في شيء؟ أراك لا تقولين شيئاً! — أجهلها كلام ماري
— أخبلتك.

لَا - وعائشة خرجت من أفكارها - أَنْزَعْجَ إِنْ قَلْتِ مَا سِيْكُونْ عَلَيْهِ
مَصْبِرِيْ؟ - ثُمَّ حَسِّمَتْ الْمَوْضِيْعَ بِحَقِيقَةِ مَا فِي قَلْبِهَا: - لَا أَرِيدُ الْكَلَامَ فِي شَأْنٍ
مَشْفِيْ بَابَا. لَتَكَلَّمُ فِي مَوْضِيْعَ آخَرَ!

— لا أعرف فيم سنتكلم إن كنت تتكلمين جازمة هكذا. — من أجل أن تحفيي انكسار صوتها غيّرت ماري — أنجليك حديثها بما في قلبها من حرارة نحو أخي زوجها، — نحن ملهموفون على الكونت لأننا جيعبينا صرنا في مأزق ثقيل وإلا ما كان لنا أن نخوض في شأنه. كم كان مخلصاً في عمله لبلاده! باريس كلها مهمومة بعرضه. وأورليان الوصي لا ينفك يطمئن عليه — لا تصرفي نظرك يا أيسية — وكلفت الدكتور جان — باتيست إبلاغه بمقدار عتّينا عليه حين دعاانا إلى باليه روياً ولم يسأل عن الكونت. وأرسل إليك يعتذر بأنه سها عن الأمر فحسست.

وكاننا نتوسل إليه! – جعل الحديث المزعج عائشة ترفع رأسها فجأة _ كان يحب ألا تبلغه هذا الكلام.

- ولماذا نتوسل إليه؟ - بادلت الكونتيسة عائشة العتاب متناسية رياءها.

- ذكرنا أورليان الوصي بأهمية شخص الكونت لفرنسا. سأقول لك يا أيسية ما هو أعجب، ولم أقله لغيرك: أورليان يجهز نفسه للاطمئنان على الكونت.

- ما أحوجنا إليه! - غيرت عائشة نبرتها متظاهرة بأنها ندمت على كلامها المنفعل - لا أعرف، إن كانت زيارته ستفيده بابا فلياً... متى سيأتي؟ - وسألت بسرعة.

- هذا ما لا أعرفه، لا أكتمل شيئاً. أنت الوحيدة التي بقيت لي موضع ثقة. كلودين لا أعرف ما جرى لها. نسيت إن كنت ما أزال حية. وابنائي ماذا تأمل منهم؟ لا يعيان نفسيهما من شدة الغرام. لماذا تضحكين يا أيسية؟ ألا جافي الحقيقة في ولدي الحاليين من العطف على الأم؟ عندما تصبحين أمًا تجربين هذه الحالة. لا أشكوا، الله سيتفهمني. بعدها جاءني بك الله لم أعد أغبط أحداً. لأنني أخاف أن يُبعديك عنِّي، أو يتصرفوا معك على نحو غير لائق بك، أحرص عليك وأقلق. ستكونين محظوظة إن أطعْتني، وستجتمعين ثروة، وسيكون عندك كثير من الذهب. - وبعد انقطاع قصير مزحت معها - وستزوريننا بما تحتاج إليه من أمور بسيطة في شيخوختنا.

- صحيح، ولكن يا ماري - أنجيليك يا ماما هذا الرجل الذي تريدين تزويجي منه إيدي لن نحصل منه على الكثير. - ردت عائشة على الكونتيسة باللزاح وهي تريد أن تسمع حقيقة ما في قلبها. - ليس غنياً جداً.

- ومن قال هذا؟ - سألت ماري - أنجيليك غير مصدقة تلميح عائشة - أ يكون ابن الفيسكونت وماري دو سان - أولير فقيراً؟ لا ألا جافي الحقيقة إن قلت إن كل مدينة بيرغور ملوكهم. لا تدعني أحداً يسمع أنهم فقراء يضحكوا عليك! أهو من قال لك هذا أم تتصورين؟

- لأنه لا فقير ولا غني في الحب!
- هل أحبيت شفاليه من أول نظرة؟ - نظرت الكونتيسة نظرة مراهية خبيثة في وجه عائشة، ثم عادت وامتدحتها: - أنت لا تعرفين؛ جمالك وجاذبيتك ستأتيانك بمزيد من الخطاب. ليس الباحثون عن الزواج فحسب بل كثير من المتزوجين سيجرون وراءك عندما دوختهم.
- "هؤلاء الذي داخوا" ألن يكون بينهم كثير من النادمين؟ - مزحت عائشة مع الكونتيسة بصوت يتناسب ومزاحها.
- هذا بدائي. - سالت ماري - أنجيليك بعدما فهمت أصل السؤال، مقتنة بأنها وجدت الطريق لقول ما تريده: - ما الأمر؟
- لا أعرف - أمتقع وجه عائشة ثم عادت إلى الوعي في لحظتها: - لأنني أتعجب مما قلت.
- لو عشت ما عشت أنا لسمعت أتعجب منه. الحب يحتاج إلى قلب وروح كائناً من كان الشخص الذي أحببت أو أحبك، والذي جرى وراءك أو جريت. فإذا كان عندك معهما عقلٌ تحقق كل شيء تريدينه. ما الأمر؟ أليس صحيحاً؟ أنا أقول ما فيه فائدة لها، وهي تضحك.
- لا يا ماري - أنجيليك، يا ماما، لا تظني أني أضحك من كلامك. بل لأنك ذكرتني بما كانت تقوله جدي.
- الله يعلم ما ستقولين الآن... - قلقت ماري - أنجيليك ومع ذلك ظلت تنظر بعين ودود إلى عائشة.
- سأروي ما سمعته وليس لنا شأن به، لا أنا ولا أنت. ولكن من يعرف قد ينطبق علينا بصفتنا بشرأً "لا تجُر وراء الريح - لن تستطيع الإمساك بها، ولا تلحق ظلك - لن تسقيه"

"اسمع ماذا تقول هذه! — صرخت ماري — أنجيليك لنفسها — أنا أريها للحياة، وأدربها على كسب مودة الناس وحبهم، وهي تربيني بكلام جدتها. أهي تلمّح لي بشيء أم تتهمني خفية؟ الأرجح الاثنان معاً. الشراكسة عرق بشري عجيب ولكننا لا نعرف. ألا ترى هذه كيف تتصرف أمامي بقوام مشوق تحرّص عليه؟ ثم إنني لا أعرفها اليوم ولا البارحة، بل منذ طفولتها، بل لم أر لها بلغت سن النضج في طريقة كلامها ولا أكلّها ولا ضحكتها ولا مشيتها، ولا تفكيرها ما لا يتفق مع طريقة حياتها. وليس هذا فحسب بل إن لها موقفها الخاص من الحب الممتلئ بالسعادة والشقاء. أهي وحدها أم كل أفراد قومها بهذه الصفات؟ أتري كيف تقوم احتراماً للكبير وللصغير؟ ومع ذلك تألفت مع نمط الحياة الفرنسية ولم تغير نفسها دون أن تبالغ في الحافظة على تقاليد قومها. ما أسعدها، امرأة تُعْبَط على كل شيء. ولكن... كفى هذه الـ"لكن"، أنا أظل أحاط ب بهذه الكلمة..." مع أن ماري — أنجيليك عَنْفَت نفسها فقد توجهت إلى عائشة سعيدة بها:

— كفاك يا أيسية! تظلين تختربين موضوعات للفكير... أين تعلمت كل هذا؟ أحياناً تخيفيني، تبعثن في الرعب من الجھول... كانت عندك جدة حكيمة. خرجت من عرق عجيب من البشر لا نعرف أصلهم ولا تاريخهم. ومع ذلك لا يفيدك أن تكوني امرأة حكيمة جداً. النساء الحكيمات، وأنا أعرف هذا من تجربتي، غير محبوبات من الرجال.

— بلiz — ماري دو إيدي شفاليه ليس من هؤلاء الرجال.
— ربما لأنكما في مأزق في قضية الزواج. — قالت الكونتيسة بنيرة ليس في ظاهرها لؤم، كأنها ت يريد أن تفهمها ما لا تفهمه.

- ليس هذا الاحتمال مستبعداً. - ابتسمت عائشة بطريقة لا تعرف منها إن كان الكلام الذي يدور حولها يزعجها أم لا - ولكن قد يكون قولهم "المُرْ" يصبح حلواً مع الحبيب" صحيحاً.

- لم أسمع في موضوع الحب كلاماً أصدق من هذا - يا أيسية تشکین أحياناً من أنك تنسين لغتك الشركية، غير أن كلام الحكمة الذي يقطر من فمك لا حدود له.

- ولكن يا ماري - أنجيليك، يا ماما، أقول هذه الحكم بالفرنسية لا بالشركية. - أجبت عائشة باختصار، غير أنها تنهدت ثم خضت بصوت حزين كلامها: - مهما غيرنا في لغة الإنسان ولباسه، ومهما دجنهنا في الناس الذين كتب له أن يعيش بينهم ييق شيء من أصله. هذه من حكم جدي أيضاً.

- نعم، نعم يا أيسية، أنت محظوظة من الله. كانت عندك جدة حكيمه. ساحمي يا ابنتي. لم أقصد أن أجرح قلبك... "المُرْ مع الحبيب يصبح حلواً" لا قدر الله. لا أريد أن أدخل بينك وبين دو إيدي. كنت قلت لك، والآن أكرر: الفتاة عادة ما تستشير أمها حين تفكير بالزواج، فإن اعتبرتني أمك، دون التفات إلى الكونت المريض، قلت لك في شأن بليز - ماري دو إيدي إذا كنت تحبينه هكذا فيالحسن حظك! ومع السلامة! ولكن يا أيسية، ليس الآن، ولكن بعد الزيارة المرتقبة من أورليان الوصي إلى الكونت شارل دو فيريول.

- متى ستأتي؟ - توجست عائشة مجدداً شرًّا - لا ضرورة أن يعرف بابا حالاً؛ سيصبح هماً عليه فيقلق.

- نحن من نحدد موعد زيارته - "سأظل أناور معها في الحديث، وأستميل قلبها وأشتريه، حتى تنفذ لي ما أريد" امتدحت ماري - أنجيليك نفسها وهي

تردد هذا الكلام، وهنأت نفسها، وفيما تتصح من تعتقد أنها رضخت أضافت: - ولكن يا أيسية سأرجو منك شيئاً لم أرجه في حياتي: إن كنت تتذكرين، لا تتصرفي مع أورليان هنا بالبرادة التي تصرفت معه في إليه رویال. الحياة صعبة، عسيرة الفهم. من يعرف كيف ستحتاجه؟... أنتِ تعرفين من دون أن أقول لك. لا أظن استقبال الضيف ليس في أصل طبعك. - "المرأى عيناه مغورقتان دائمًا" أسرعت ماري - أنجيليك شاهدة على صحة هذه الحكمة إلى عينيها بمنديل صغير جداً، امتدحت عائشة وأرضتها - وأما ما رجوتني فيه فلماذا نبادر الكونت به؟ سنجعله مفاجأة سعيدة له.

الظاهر أنه لم تكفل المشكلات التي مرت بها عائشة في السنتين أو الثلاث الأخيرات حتى انتصبت أمامها مشكلات جديدة تبلبل أفكارها. "إن كان في زيارة أورليان إليها فائدة لبابا فأهلاً به. ولكني لست من يقال فيه: لا يفهم قيمة الفرح من لم يُعِنِ الشقاء؛ لا ينظر إلى أحد بمثل هذه العين! لست مغفلة حتى لا أدرك نوايا الكونتيسة. إن كانت تتعدد إلى تستفيد من إيجاد مخرج من مشكلتي فستندم يوماً من الأيام وتنقلب عليها. ولكن سأحبيها من سوء العاقبة بنفسسي كرمي لـما قدمته لي في صغرى"

مهما كانت وساوس عائشة ثقلها فقد أجبت وهي تبتسم للكونتيسة، ملحة لها أنها لن تقبل تماماً بما تترجمها به:

- ارتاحي يا ماري - أنجيليك، يا ماما، من هذه الناحية. ولكن إن كانت نية الضيف سليمة فلن نجعله يندم على زيارته، فهو فوق الجميع.

- نعم، من سيزورنا ضيف كبير، وإنسان خطير؛ أتظننيه يطرق بيت أيّ كان؟

- والكونت الذي سيأتي إليه ليس إنساناً قليلاً الشأن - قالت عائشة ما في قلبها وإن بدا أنها تؤيد كلام الكونتيسة - ما قام به بابا في خدمة فرنسا لا تنطرق إلى ذكره لأننا نعرفه، عمل جليل سيدخل التاريخ.

- نعم يا أيسية، نعم - "اسمعي إلى أين وصلت الآن بأفكارها! رغم معرفتها بالعمل الشائن الذي قام به أمامنا هذا الأفاق" أيدت ماري - أنجليليك عائشة ولو أنها استغربت ما قالته آملة أن تتحقق ما تريده بالميديح - ما كنت أريد أن أحملك على الافتخار ولكن سأقول لك: ما أطريك وما أرحمك يا أيسية! وما أسعدك من عند الله. كلما استمعت إليك زرعت في رقة الخير، وجعلتني أنظر إلى الدنيا بعين أخرى. نعم يا شارلوت - إليزابيث أيسية لو لم يكن أبوك الكونت مريضاً، لا تبعي بما أقول في ساعات غضبي بحق الكونت، لكان اسمه، بعد جلالة الملك، في كل المحافل الدولية يقوم بالمهام الجليلة. - لم تكن مهامه الخارجية لتنقص. كان مرشحاً لتولي منصب الوزير الأول.

كان ما يُنقل على عائشة شيئاً آخر وإن كانت تهز رأسها مع الكونتيسة المرائية: هذا الذي ستلتين به إلى، كما كانت جدي يقول: أيحمل إلينا خزانة ذهب أم يجد عندنا ما ليس لنا؟ ليأت! ولكن لن يتحقق لكم ما تخفونه عنني. وسيعود كما جاء بعثني حنين. من أحبه أنا رجل واحد لا أساوي به أحداً في العالم. وأنتم كيف لكم أن تعرفوا هذا، أن تفهموه؟ ولكن أسوأ ما أعانيه الآن هو سلوك بابا معي: يندم على ما قال لي فيما مضى، وعلى ما حاول فعله، وبعدني ألا يتكرر، ولكنه ينظر إلى نظرة اشتهاء! ماذا أفعل إن أنا بقيت أتذرع بمرض بابا، وأغفر له ثم هجم على كما تقول صوفى "هذا لا يتورع عن شيء، ماذا إن دمر حياتك؟ هذا العار الذي لا أريده لأحد من أحب ولا أحب، إن ألحقه بي فلن أتحمله، لن أتقبله..."

- كل شيء سيجري على نحو حسنٍ يا أيسية - قالت ماري - أنجلييك كأنها لامست ما يهم عائشة - سينتقل خبر زيارة أورليان، دون قوائم، مُسعداً من يحبّنا، مُغماً من يكرهنا، فيماً باريس بكاملها. هذه الزيارة ستُرفع من شأن آل فيريول. وحين يعود عمك الكونت أوغستين - أنطوان إلى باريس لن يبقى عاطلاً عن العمل. وجانيت - نيكول عشيقة أخيها بير غيرين دو تانسيون ستُفديه في الحصول على وظيفة المطرانية. وأخواك؟ وهذان في بداية معرتك الحياة. هل يؤملك رأسك يا أيسية؟ لماذا شبح لونك؟

- لا، قالت عائشة وهي تخفي عدم رضاها بكل ما سمعت - لا صداع؛ ربما لم أنم الليلة جيداً.

- وكيف تنامين وأنت تُفرين نفسك لا هم لك إلا الكونت... تقومين بعمل جماعة دستان العاطلين. ننفق عليهم المال دونفائدة. اذهبي واستريحي قليلة الظهر على عادة الكونتيّسات. وأنا؟ وأنا تعبت حتى كُلّت قدمي عن حملي. لا تهتمي بالكونت؛ سأوصي جماعة دستان به.

VIII

عائشة على النافذة، لم ينطر لها النوم أو الاستراحة كأن قولهم "الغم في القلب يذهب بالصوت، والعين تبكي مع القلب" مستمدٌ من حالتها. تغادرها كأن أحداً ناداها، ثم تعود إليها. وقلبها مثل أيام الربيع غير الباردة وغير الحارة: السحب المائلة إلى السود تترنح في السماء قلقة. — تبدد فيها وتعود تلتئم. والمزقة الرقيقة منها حائرة لا تعرف أين تتجه. وحين تجتمع قطرات المطر المتفرقة التي تقع النافذة تنحدر من الزجاج بخطوط متعرجة رفيعة. ووجه عائشة الساكن له هذا المظهر. القلب الضائق بحاله يبكي والدموع تنفس عن ضيقه. مرت أمام عائشة تفاصيل حياتها من أيام طفولتها إلى اليوم. لا تذكر أنها فعلت ما يسيء إلى أحد إن لم يسيء إليها غيرها. "ربما أساءت إلى أحد من قصور تفكيري — قالت عائشة لنفسها — ولكن لا أتذكر أني فعلت أو قلت ما لا يليق رد فعل على مصيبي. لأنني اقتنعت بيؤسي عشت حياتي هكذا كما كانت جدي تقول "الفقير يكتفي بما يُحمل إليه". ما يمدني بالحياة هو شرعة قومي التي أنساها يوماً بعد يوم. ما غرسته هذه الشّرعة في، ورثتني عليه من اعتزاز بالذات واحترام للنفس وتحذيب في السلوك والتدبر وإنسانية العلاقات فوق الجميع عندي. ولكن أاستسلم للعار الذي سيوصم به جبيني وأنا أقول إنني أعيش بـ "أديغتي" ولن أضيعها فاحتمي بها وافتخرت؟ — تذكرت عائشة من جديد سلوك الكونت معها. — ما العمل؟ وما مخرج؟ تقول لي جانيت — نيكول: تعالى إلى، تعيشين كما أعيش، وإلى حينها سيعمل موضوعكما أنت، وإيدي" إن فعلت هذا فسيقولون: هجرت الكونت الذي رياها حين مرض، وبخشت عن مصلحتها الشخصية، وستلوكني ألسنة من يعرفوني ومن لا يعرفون، ويُلحقون بي العار. كيف أحمي نفسي وشرقي إذن؟ أتسمعيني يا جدي الطيبة؟

كيف سأتصرف؟ أغفر لي يا أمي أنا أعرف المخرج الذي سينتهي به الموضوع، غير أني لا أعرف هذا الحل غير المشريف. ولكن أهناك بين المحبين ما يمسكه أحدهما عن الآخر بحجة الشرف؟ نعم. ولكن في حال الضرورة؟ لا، لا هذا عار. يجب أن أبعده عن ذهني.

ومع أن عائشة في خضم هذه الأفكار المتلاطمة، ومع أن الكونت الذي لم ينزل لتناول الغداء حُمل إليه طعامه، ف فهي تشفق عليه، وتقلق من أجل دوائه وإن كانت تعرف أنه تناوله في حينه. وتحتم لعدم استدعائهما في نصف النهار الماضي. ولا تعرف لماذا حبس نفسه في غرفته. وإن فكرت في الاطمئنان عليه خافت أن تدخل وحدها إليه.

- يا صوفي، أين كنت إلى الآن؟ - لامت عائشة صوفي حالما دخلت الغرفة.

- كنت مشغولة بالماء الذي سيستحم به الكونت.

- ألم يعد في هذا البيت الكبير من يفعل هذا غيرك؟ - احتدّت عائشة وسألت عما في ذهنتها: ما أخبار بابا.

- وماذا سيكون خبره؟! ربما اقتربت نوبته، يهدي، لا يعرف ماذا يقول ولا ماذا يفعل. يعني بزنته في غير يوم حمامه. سأّل عنك وهو يخلط بين أسمائنا.

- هذا يعني أنه لم يشرب اليوم مهدئاً. - نهضت عائشة بسرعة والقلق بادٍ على وجهها - أين دواوه؟

- ارتاحي يا شارلوت - إليزابيت أيسبيه - نصحت صوفي عائشة مشفقة عليها. بقيت تتلهفين حتى لم ييق عندك قلب. لاروش وديستان سقياه دواعه.

- وهل رأيت أنت؟

- رأيت يا أيسبيه، رأيت.

- ليس هذا حسناً يا صوفي، ليس حسناً – أخذت عائشة دواءه القريب منها
- لنذهب ونره! – إما أنهم سقوه جرعة مضاعفة أو رفض تناوله.
- إن كنت تودين الاطمئنان عليه نذهب – قالت صوفي دون رغبة، ثم غيرة:
- وإن قلت لا، سأله ديسنان.
- لا، سنذهب. – جزمت عائشة، واستدركت: – لم أر بابا طوال النهار، ربما يعاتبني.

حين دخلت عائشة وصوفي الغرفة كان شارل دو فيريول جالساً بأبهى حلته، مسترخيًا على الأريكة الوثيرة، يهوي لنفسه بمروحة نسائية ملونة جميلة. وأمامه على الكرسي الوطيء زجاجة نبيذ "بورغوند" الأحمر غير مفتوحة، والقدحان الفارغان بجانبها، وقطعتنا شوكولا. وخلط من العنب والإجاص والتفاح.

ظننت عائشة أن الكونت يتضرر لولو فسألت غاضبة الرجل الجالس في دلال وتيه:

- من تنتظر بهذه الأناقة؟
- أنت يا شارلوت – إليزابيت أيسيله – نحضر الكونت شارل دو فيريول، وحياناً عائشة بإماءة رأس دون اعتبار لحضور صوفي. – تفضلي، أنتظرك. المساء سيكون زفافنا أنت وأنا. ألا يكفي يا حلوي صيري كل هذه السنين؟ وفي الأسبوع القادم ستحتفل في الكيسة.

- بابا!... – صرخت عائشة مما سمعت دون وعيها – أي عيب تقول؟!
- اليوم، من هذه الدقيقة لا تناذيني باسم بابا! – لم يخُفِّ صوت الكونت.
- بإذن الله ومعرفته سأكون أنا الكونت شارل دو فيريول زوجك. أترى هذه العصا الفضية؟ – سألكونت والدم قد غطى عينيه، ثم ابتسم: – إن أردت كسرها وإن أردت دللتها، إن لم تسمعي كلامي فعلت بك ما أفعل بالعصا.

أتفهمين؟ - صرخ الكونت بصوت أشد إرتعاباً وراء عائشة التي كانت تخرج من الغرفة غير قادر على الإجابة: ارجعني! إن لم تفعلي أمركم أن يأتوني بك الليلة بالقوة.

حين وصل ديسستان على وقع صرخ الكونت التقى عائشة التي أمرته دون أن تتوقف:

- لم نستطع السيطرة على بابا. هذئوه! خذ هذا الدواء وضاعفوا له الجرعة. لا تذكر عائشة الكونت بمثل هذا الوجه الحمراء الملتهب. دخلت الغرفة الأخرى دون أن تقول شيئاً وغيّرت ملابسها. وتعطرت دون مبالغة. ثم عانقت صوفى التي امتنع لونها مما رأت وقالت لها:

- إن سأّل عنني أحد فأنا في المسرح. أمّا لك فلا سرّ أخفّيه عنك: أنا عند إيدى. - انفجرت باكية - لا تقلقي، سأعود.

الكتاب السادس

I

طريقة هطول المطر، وطريقة هبوب الهواء، وطريقة سقوط الثلج مثل حياة الإنسان. إن واقعتها اندمجت فيها؛ وإلا سقطت من بينهم. وحين يبقى الإنسان دون أي انتماء ودون أي أقرباء ينقطع عن التفكير. والتفكير ضالة دائمة، وانتصار دائم، والفرح والحزن أعلى مراتب الفهم. والفرح ممزوج بالحزن، والانتصار يحمل معه الحزن. وكلها مجتمعة هي فهم الإنسان وذاته. وحياته المشقة — السعادة أعلىاتها جميعاً. ومن عنده القدرة يرقى ومن ليس عنده يطمع.

حين لا تملك حريةك، تألفت عائشة مع الفرنسيين لأنها فهمت من اليوم الأول أن عليها الامتثال لواقعها والذوبان في المجتمع الجديد شاءت أم أبت. ورغم أنها اعتادت على ما لا يقبله عقلها فإن قوميتها التي في دمها واحترامها لنفسها ولشرفها كانت تغلبها.

إذن كيف ستسوّغ لعائشة ما جرى لها الآن؟ أهو عدم احترام لنفسها أم أطاعت أمر القلب؟ الأفضل ألا تُنْهِي باللائمة على الحب وإن اختلفت تقويمات ما جرى — ستجني الإثم من حلوها ومرتها... "لا أندم على ما فعلت وإن كنت أخجل منه". — قالت لنفسها عائشة التي لم تخرج طوال النهار من غرفتها — ولكن لو لم أجد نفسي في موقع الضرورة لربما كنت قاومت ضعف الأنوثة" — انفجرت ثانية بفعل حزنها الممزوج بضيقها ولكن دموعها نفدت. وفي اللحظة نفسها أعادها صوت الباب إلى وعيها واستقبلت زائرتها بفرح:

- تفضلاً، ادخلنا، بون دو فيل وأرجنتال!
- جتناك يا أيسيه لأننا سمعنا أنك متوعكة ولم نرك منذ البارحة. — قال بون دو فيل وعائقها. وفعل أرجنتال ما فعل أخيه- كيف حالك؟ — أنت شاحبة وكتيبة. كفاك، لا تفني نفسك إلى هذا الحد! كل شيء سيصير أفضل.
- نعم، نعم يا أيسيه، كل شيء سيتحسن. وافق أرجنتال أخاه الكبير، وقال ما لم يكن بون دو فيل يريد قوله: قبل قليل تكلمنا مع الكونت، ووعدنا ألا يسيء إليك مرة أخرى.
- هذا ما تريدان قوله... — مع أن عائشة فهمت الآن ما لم تفهمه قبل من "كل شيء سيتحسن" فقد نصحتهما قائلة: "إن كان هكذا فلا مشكلة" — ما كان عليكم وأنتما تعرفان مرض بابا أن تهيناه، أنا لا ألومه، ما أحزني أكثر هو خير فرنسو فولتير. سبب لنفسه النفي بعدما حذرناه من عاقب أشعاره وحكاياته الداعية للحرية.
- خير للمرء أن يعيش في لندن من أن يعيش في سجن الباستيل. — قال بون دو فيل — سيكتب الآن براحة أكبر وسيعمل مع كتاباته.
- هذا صحيح. — تنهدت عائشة — ولكن بلاد الغربة لن تكون مثل وطنك. استطاع أورليان مجدداً أن يقنع الملك الشاب بشأن فولتير. وأنتما احذرا. لا تقولا ما هو خارج الحدود كما ألح عليكم بابا. وجولي كالاندرین تبلغكم الكلام نفسه، مع تحياتها.
- اشكرني جولي باسمنا. ولتطمئن! ابتسם بون دو فيل — وأنت أيضاً يا أيسيه. تعرفين أننا لا ننتمي إلى مثل هذه الأوساط. الناس الذين فعلوا بفولتير ما فعلوا، بمن فيهم أورليان والملك، لا أؤيدهم. هؤلاء يهتمون بتحرير المرأة من الأخلاق، لا بالحرية.

- تقول شيئاً آخر يابون دو فيل وأنت تردد "لسنا من هذه الأوساط" -
أضاف أرجنتال بعدما نظر إلى أخيه نظرة ودّ: - لا أعرف لماذا سيزورنا أورليان
الذى لم يعد وصيًّا.

لأول مرة ارتسم على وجه عائشة مشروع ضحكة:

- لا تظن أن أورليان انتهى من الوصاية على الملك ولو أنهم زوجوه ولم يتجاوز
السادسة عشرة. لا تضحك يا جان، فهمت ما تريد قوله: ليس من أجلي
سيأتي بل لزيارة أبي المريض.

- وهذا ما قالته لنا ماما - ابتسם بون دو فيل ثانية - غير أنني لا أصدق أن له
نوايا حسنة نحونا.

- ما الأمر؟ جعلت الريبة التي هاجمت أرجنتال رأسه ينتفض. ثم احمرت
وجنتاه، وأحباب: - لم تقنع ماما حين قلت لها، ولكنه سيأتي من أجلك يا
أيسيه بذرية الكونت. انظر إلى هذا المرائي ماذا يخطر له، ألا يكفي أنه فرق
بيبي وبين أدريين؟

- طالما قلت لك إن لا كوفير أدريين الفنانة لن تخلص لك؛ فهل تعلمت
الحكمة الآن مما فعلته بك؟ - ردّ بون دو فيل الصاع لأخيه وكأنه كان ينتظر
هذه الفرصة.

- لا ذنب لأدريين - قال أرجنتال بصوت منكسر، ثم أتبع بصوت جاف: -
كل الذنب ذنب أورليان. خدعها بأن فتح لها باليه روياً لتعني، وطمرها
بالذهب.

- أيها الكونت أرجنتال دو فيريول كفًّ عن هذه الصبيانية! - نهر بون دو
فييل أخاه شاعرًا بالإهانة مما سمع.

- أنت، أنت، يا بون...

- كفى، توقفا عن الشجار — خافت عائشة ومنتَّ أرجنتال ما بدأ — دعونا نشق ببعضنا، ولا نتكلّم في ما لا فائدة فيه. مهما قلنا أو فعلنا، صدقاً أو كذباً، فالناس سيحكمون علينا ما دمنا أحياء. والآن لي عندكم رجاء: لنذهب إلى آل بولينغبروك. أنتما لا أعرف، لكن أنا منذ مدة طويلة لم ألتقي بمني سان — جون وماري — كلير دو شان. التقى بحما إيدري شفاليه في باريس قبل أيام، وسألنا عنكمما وعنني. وعلى كلامهما سيقيمان أسبوعين آخرين في المدينة.

نظر بون دو فيل إلى أخيه كأنه يطلب منه الموافقة، ثم قال كأنه يستغرب الخبر:

- كيف عرفت يا أيسيل ما في قلبينا؟ كنا ننوي أن نقترح الأمر نفسه.

- نعم يا بون دو فيل، متى قالت أختنا إنها جاهزة فتحن جاهزان.

حتى لو لم تكن عائشة ترتاتب في الأمر الذي وافقها عليه أخواها فقد ألتقت على بون دو فيل وأرجنتال نظرة حب ومزحت معهما:

- أعبثأ أنا أختكم الكبيرة فلا أعرف ما في قلبيكم؟ كان الشراكسة الذين خرجت منهم يقولون في مثل هذا: "القلب والروح يعرف أحدهما الآخر" يا أخوي الطيبين، وأنا جاهزة — تبادل الثلاثة نظرات مودة، وحين جهزت عائشة نفسها للزيارة الطارئة قالت لرفيقها: إذن دعونا نخبر بابا بمقصدنا، وإلا عتب علينا.

- كفى يا أيسيل! — لم يسكت أرجنتال على المشروع المقترن. — أأنت فتاة صغيرة فتطلبي تستشيرين في أمورك الخاصة؟! أنا سأخبره الآن.

- لا يا جان، الأفضل أن ندخل ثلاثتنا إليه.

الكونت شارل دو فيريول جالس على مقعد مريح وعيناه مسّمرتان إلى النافذة. ولم يبق له ما كان يفتخر به أيام الشباب: القامة المتتصبة. الآن هو سمين شبه أحذب. ورقته متهدلة. واللعاب يسيل من شدقته. والجلباب الساقط من كتفيه

المتهالتين على ظهره مجعداً. وجورباه ارخيا إلى العقبين. وشعره الأبيض الذي كان مرجلاً دائماً تشغّث.

- يا بابا أعرفتنا؟ - تألم قلب عائشة للإهمال الذي لم يره يوماً على الكونت، ولامته: - ماذا جرى لك؟ لم تكن يوماً بمثل هذه الفوضى.

- هؤلاء أنتم؟ نظر إليهم الكونت بفتور، ثم قال مبتسمًا: - هل أنتم راجعون من الحفلة التذكرة بزيتكم؟ - وأنت يا شارلوت - إليزابيت أيسبيه ألم يخبروني أنك سافرت إلى جولي كالاندرین في جنيف؟

- لم أسافر إلى أي مكان يا بابا - مسحت عائشة وهي تبكي فم الكونت بمنديل صغير، وشدت جواربه إلى الأعلى، وأصلحت وضع جلاباه، ومشطت له شعره. - أين دستان؟ لماذا يا دستان؟ أليست العناية ببابا مهمتك؟ ألم تنتظري؟

- لا يا آنسة شارلوت - إليزابيت أيسبيه ليس الموضوع أني نسيت مهمتي غير أن الكونت لا يقبل مني أي خدمة. من البارحة لم يدق إلا الماء.

- لا تلومي دستان يا أيسبيه؛ ليس إنساناً سيئاً إلا أنه لا يصلني معى.

- بابا يا روحي. أما آن الأوان لتنسى "تركياك"؟ أنت فرنسي حقيقي!

- نعم يا أيسبيه، نعم. أنت وأنا فرنسيان حقيقيان. سأطيعك ولن أسيء إليك. وسأسمع دستان، وإن أطعمنموي أكلت. واسقوني شيئاً من النبيذ. والآن، إن لم يكن الأمر سراً، أخبروني لماذا تأنقتم. مهلاً يا أرجنتال، لست من أسأله.

- اللورد هنري سان - جورج واللوردة ماري - كلير دو شان في زيارة لباريس؛ كنا نود زيارتكم. وحسب الظرف الآن يمكن تأجيل الزيارة إلى الغد أو بعده. قالت عائشة.

تبادل بون دو فيل وأرجنتال النظارات غير عارفين كيف يفسران التغيير في البرنامج. غير أن الكونت لم يدع مجالاً لأي من الأخوين للكلام:

ـ لماذا تؤجلون زيارتكم للورد بولينغبروك إلى يوم آخر، حالاً! إذا قارنا اللورد بولينغبروك بمن استلم السلطة في إنجلترا جول بول ذي الرأس الخفيف المغرور فاللورد هنري سان ـ جون بولينغبروك هو من أرسى معاهدة أوتريخت¹، وهو أحد رجالات الإنجليز المعدودين. بلغوه تخليتي. وإن شاء مقابلتي فأنا جاهز، سأساعده في مهماته. ـ قال الكونت، وزفر عميقاً، وبعد قليل أضاف إلى ما يحزنه: ـ هذا ما يحدث حين لا يعود أحد يحتاجك... ولكن ـ أنهى كلامه بقبضتين مضمومتين ـ أمثال الكونت شارل دو فيريول لا يبيعون أنفسهم. هل فهمتم يا أخي آل فيريول؟ وأنت أيضاً يا شارلوت ـ إليزابيث أيسبيه. امضوا حيث قرتم. أنا مسرور لاستشارتكم إياي. ولا تقلقاً! نحن دستان وأننا، سنتكلم في مواضيع فلسفية. فقد ظهر في باريس رجل مهوس، فاحرصوا على أنفسكم. ـ قال في إثر الخارجين من الغرفة.

وكما قال الكونت شارل دو فيريول فاللورد هنري سان ـ جون بولينغبروك أحد كبار الدولة الإنجليزية. وهو فيلسوف ومؤرخ ومتقف كبير في حدود الخامسة والأربعين. طاف أوروبا كلها خلال ثلاثة سنوات، ويعرف كثيراً من اللغات. وفي عام 1701 صار عضواً في مجلس العموم، وفي السنوات التالية كان رئيسه

¹ معاهدة استمرت المفاوضات لأجلها سنتين 1712 - 1713 إثر حرب بين فرنسا من جهة وتحالف من بريطانيا والنمسا وبروسيا وهولندا ودوليات أخرى بسبب نزاع على حكم إسبانيا، كانت بداية النهاية لفرنسا ويزوج نجم بريطانيا التي كسبت المستعمرات الإسبانية. المترجم.

وعقله المدبر. وشغل منصب وزير الدفاع أربع سنوات، ثم كان سكرتير الدولة. وحين استلم جول بول السلطة بـأ إلى فرنسا ويعيش الآن في لاسورس، قريباً من مدينة أورليان. وله قصر فخم في باريس. وإلى هذا البيت ذهبت عائشة ورفيقها هذا المساء.

- آل بولينغبروك في البيت. - صاح أرجنتال حين رأى ضوءاً ينبعث من النافذة، ثم أصلح تعبيه: - أقول هذا لأنني كنت أتوقع ألا نجدهم في البيت. وأين سيدهبون؟ هؤلاء ليسوا كوالدتنا الجوالة.

- يا أرجنتال يا أخي الحبيب؛ كم مرة قلت لك ألا تتكلم على أمك بمحنة الطريقة!

- أنت على حق يا أيسيه! - لام أرجنتال نفسه على عادته - لن أعيده على مسمعك، وبون دو فيل شاهدي. قلت هذا دون قصد، لا لوم لي على ماما. ثم بـأ نفسه مبتسماً: أليس حـقاً يا بون دو فيـل؟

- اسمع ما قيل لك! أنا لا أجـيب على مثل هذه الأسئلة.

- حـسـناً حـسـناً. إنـ كـنـتـمـاـ عـاـقـلـيـنـ هـكـذـاـ فـسـأـطـعـكـمـاـ.

استقبل آل بولينغبروك الضيوف بالأحضان. وسألوا عن حال شارل دو فيريول، وعن ماري-أنجليك وأوغستين - أنطوان وكلودين - ألكسندرین، انتهاء ببـير وصـوـفيـ. وفيـماـ يـتـبـادـلـانـ هـذـهـ الأـسـئـلـةـ هـمـسـ بـوـنـ دـوـ فيـلـ فيـ أـذـنـ أـرـجـنـتـالـ:

- غـاـيـرـنـاـ بـحـجـةـ ماـ،ـ وـاسـتـقـدـمـ دـوـ إـيـدـيـ شـفـالـيـهـ!

همـسـ هـنـرـيـ سـانـ - جـورـجـ بـولـينـغـبـرـوكـ ذـوـ الأـذـنـ الـحـادـةـ بـدـورـهـ فيـ أـذـنـ الأـخـوـيـنـ فيـرـيـوـلـ:

- لاـ تـقـلـقاـ،ـ نـحـنـ أـيـضـاـ بـأـنـتـظـارـهـ.

ومن الغرفة المجاورة خرجت امرأة في حدود الخامسة أو السادسة والعشرين، ترتدي غطاء رأس أبيض رقيقًا، ثوباً أسود طويلاً، على صدرها صليب غير كبير. نهض بون دو فييل وأرجنتال وحبيها السيدة واستقبلت عائشة السيدة التي لا تعرفها من قبل، والعاملة في شؤون الدين وعانتها كأنها تعرفها طوال عمرها.

قالت المركبة ماري - كلير بولينغبروك:

- هذه ابنتي إيزابيل - لوبيزا لو فالوا دو فيلييت. مسؤولة دير مدينة سانس. وأقول لماذا يلحق باسمها "دو فيلييت" هذا كان اسم أسرة زوجي الأول الماركيز فيلييت. لنقل هذا أمر مضى. ابتسمت لزوجها - لن نتكلم فيه، وتوجهت إلى ابنتها إيزابيل لوبيزا: هؤلاء ذكرتكم لك كثيراً هذه شارلوت - إيزابيلت أيسبيه ابنة الكونت شارل دو فيريول، وهذان الأخوان بون دو فييل وأرجنتال، كلاهما كونت. من لم أذكر اسمه بعد - نظرت ماري - كلير مرة أخرى نظرة مصطنعة إلى زوجها وأكملت: - ونحن، تعرفوننا منذ تركنا إنجلترا ولجانا إلى فرنسا.

وفيما الضيوف والمضيفون يتداولون الحديث أعلن الخادم للسيدة:

شاي العشاء جاهز أيتها المركبة.

توقفت العربة التي سمع صوتها على باب آل بولينغبروك. واللورد الذي كان ينتظر من سيخرج منها قال لنفسه وهو ينصت باتجاه الفناء:

- أظن أن ضيفاً كبيراً جاءنا.

أرسل الخادم اسم الضيف الداخل إلى الغرفة:

- بليز - ماري دو إيدي شفاليه!

جفلت عائشة للاسم الذي سمعته فجأة، وتأملت الداخل مع شعور خفيّ

بقرابة ما.

- ليسعد جمّعكم! – ألقى بليز – ماري دو إيدري شفاليليه نظرةً ودّ صريحة نحو الحبيبة التي لم يتوقع وجودها هنا. ثم بدأ بالتحيات من ماري – كلير المركيزة. وحين وصل إلى عائشة تمعن فيها وبشّ لها، وقال بلهجة ناعمة: – وأنت يا أيسية هنا؟ لم أعرف!

حين يكون الجمع أصدقاء وأقرباء يطيب كل ما على المائدة. وحين يعقب الشاي المائدة يضفي مزيداً من الحلاوة على الحديث. وموضوعات الحديث بين الجالسين على شاي العشاء تتتنوع بتعاورهم عليها. ووصل الحديث إلى الإنجليز محاذرين الإساءة إلى آل بولينغبروك، وإلى أخبار فرنسا الداخل، وأخبار الخارج. وكلّ عالج الموضوع من وجهة نظره. وأعرب الجميع عن استنكارهم نفسي فولتير خارج البلاد. وحين تطرقوا إلى أساليب العيش في الدول المجاورة، إلى شفيصار وإلى جنيف، تدخل أرجنتال:

– شفيصار، ربما تعرفونها، تعيش فيها قريتنا جولي كالاندرين المركيزة. وتقول إن كل شيء من علاقات الحب إلى أنماط المعيشة، من كل النواحي، أحسنُ فيها. أليس كذلك يا أيسية؟ أنتِ زرّتها.

دفع بون دو فيل أخاه الأصغر برفقه متعضاً من إبرازه موضوع الحب في حديثه:

– في فرنسا يُداسُ الحب، وفي شفيصاره يُعزّونه. – أجبت إيزابيل – لويس التي لم تساهم في الحديث إلى الآن بدلاً من عائشة، ولم تتوقف عند هذا الحد: – الشخصان اللذان بدءا الحب الفاسق وعدم احترام الذات هما الملك لودفيغ الرابع عشر والدوق أورليان الوصي.

– يا إيزابيل! أسرعوت ماري – كلير.

– أفهمُ ما يقلّفك يا ماما، ولكنك لست على حق.

ما أذكى العاملين في الدين، وما أشبه بعضهم بعض! — قالت عائشة لنفسها وقد شخصت أمامها جانيت — نيكول التي لم ترها منذ شهر — أيمكن أن تكون بين جانيت — نيكول وإيزابيل — صوفى — لوينز معرفة؟ لا بد أن القائمين على الأديرة يعرف بعضهم بعضاً. ولا بد أن بيير أيضاً من معارفها. أأسأله؟ ليس الآن، لاحقاً..."

— أؤيدك يا إيزابيل — لوينز — قال بليز — ماري دو إيدى شفاليه الذي كان يشحّب لونه، وهو يخضّ عائشة بنظرة تقول: إننا — الاثنين — لم نفعل ما يعيّب — وهكذا يجب أن يكون حبنا للأوطان. والآن دعونا نتكلّم في موضوع أكثر إمتناعاً. وعلى سبيل المثال موضوع المسرح الذي للكونت بون دو فيل والأنسة شارلوت — إليزابيت أيسبيه معرفة حسنة فيه، والأوبرا، وما شابههما. ما الموضوع الذي تعملون فيه حالياً يا بون دو فيل؟

— وصل الأمر إلى أن نقول: توقف كتاب الدراما عندنا عن الكتابة. لا يرسلون إلينا نصوصاً ذات بال. المسرحيات الهرزلية الحقيقة التي لا تغدو: أحبك، وأنا، وأخبار العشاق والمغامرين... باختصار: ملّ الناس من النصوص التافهة التي تدعو لعدم احترام الإنسان لشرفه وذاته.

— أتعرف من المسؤول يا بون دو فيل؟ — سألت إيزابيل — لوينز ثانية، ودون انتظار الجواب من المسؤول أجبت: هو أورليان الذي يرّخص لعرض النصوص الدرامية. نعم، يا ماما أقول الواقع، ولا أخترع من عندي شيئاً.

ابتسم الكونت بون دو فيل، وقال وهو يقارب كتفيه ويشير بيديه: ما كنت أريد قوله يا إيزابيل — لوينز — قد قلته وانتهى. تقلقين دون فائدة يا ماركية ماري — كلير. لا أرى خطأ في أفكار إيزابيل — لوينز. وهذا هو سبب إضراب

كتابنا المسرحيين عن الكتابة. وهو أيضاً سبب نفي فنسوا ماري أروا فولتير من فرنسا.

- ليس من واجبي مناقشة الأمور السياسية لفرنسا التي التجأت إليها - قال اللورد سان - جورج بولينغبروك - ولكن الحق هو أنه لا شيءٌ مستغرباً في مسار الأمور السياسية في فرنسا، وليس وحدها بل في إنكلترا أيضاً، كل دولة تضع نيرها الثقيل على رعاياها. أترون ما يحدث لنا شئنا أم أبيانا؟ رجعنا إلى السياسة من جديد. السياسة مرضٌ عُضال. والإنسان المصاب بهذا المرض تصعب مداواته... لا أعرف إن شاهدتم أنتم - تغيير كلام اللورد السريع - أنا أعجبتني أوبا "بيرام وتيسيبار"؟ من كتبها؟

- كتبها فرانكل وريبيل و لاسير. - قال الكونت أرجنتال مظهراً معرفته في فنون المسرح.

- ونحن، المركيزة كالاندرین وأنا، شاهدنا المسرحية. وأعجبنا بها. فيها ما يحث على إعمال الفكر. - عرضت عائشة رأيها.

- المركيزة جولي كالاندرین امرأة رزينة وحكيمة. - وبذا من وجه اللورد ارتياحه للذكر عائشة اسم المركيزة - أنا أعرفها جيداً وهي أخت المرحومة زوجة أبي. ربما لهذا السبب تعجبنا كلانا الأوبا. - اختتم اللورد كلامه بمحنة.

- يا أيسيه، يا روحي أنا مسرور لرؤيتك. كنت أعد ساعات يوم لقائنا غير قادر على تمضيتها. - تعانقت يداً المحبين من فوق الطاولة. - كيف حدث أن جئت إلى هنا؟ هل جمعنا آل بولينغبروك بمعرفتهم؟

- لا يا إيدي، جاء بي أخواي على سبيل ترجمة الوقت.

- أيسيه، يا حبيبي، أحبك!

- وأنا يا إيدي. لم يبق عندي الآن ما أخفيه عنك. ولكن لا أريد أن يعرف الآخرون بهذا.

- نعم، نعم يا أيسبيه. هذا ما يسمونه الحب الأول. ولأنني أتأمل منك أن تؤسسي معي أسرة بالحب الأبدي، فأنا مستعد من هذه اللحظة للتحرر من نذري، بشهادة آل بولينغبروك وأخويك.

- لا يا إيدي. ليس الآن. فيما بعد، لاحقاً... ستكلم في الموضوع بعد قليل... تعالى لنُعُد إلى غرفة الضيوف! لا يليق بنا الانفراد هنا.

II

كان القصر في انتظار زبارة أورليان الوصي لأن ماري - أنجيليك كانت أخبرت لاروش سراً باليوم الذي سيزور فيه آل فيريول. ولم يطل الانتظار إذ صارت عربة الوصي على شارع سان - نيف أوغستين تنهب الأرض، أمامها حارسان ووراءها حارسان، وصخباً يضم الآذان. انبرى لاروش عائداً إلى الغرفة كأن لا علم له بشيء وأرسل خبراً إلى الكونتيسة:

- الضيف قادم.
- وأين أيسيه؟
- تقرأ كتاباً للكونت بحراسة ديستان.
- أخاف أن ينام الكونت الذي أخذ جرعة مضاعفة من الدواء قبل أن يتخذه الوصي محدثاً.
- لا يا كونتيسة، حددت له موعداً.
- وإن وضعنا لأيسيه في الشاي من الدواء الآخر الذي أحضره الطبيب جان - باتيست أصبح طيّعة لنا؟
- منذ زمن بعيد اختبروه على نساء الوصي.
- لا أعرف، لا أعرف. - فجأة ارتعبت ماري - أنجيليك - لا تبالغوا في الدواء بحججة تطويها. لا أريد أن أذنب بحق الصبية... لنتوكل على الله. ونحن نجحنا من تجارب مماثلة كثيرة.

نظرت ماري - أنجيليك في وجه لاروش نظرة تبعث على الارتياح. ولم يكف هذا بل أتبعتها بابتسمة غامضة.

"كيف يمكن أن تعرف الآن ماذا تريده هذه المرأة؟ سأله الطبيب نفسه - تقول شيئاً - تتفقهه - تفعل ثم تندم. أعرفها منذ سنين ولم أفهمها. يستوي إشفاقها

وظلمها: تلقمك معروفها ثم تنتزعه منك. ليس الأمر أنها لا تحب أيسيه ولا تهتم بأمورها، ولكن حين تذكر شبابها الذي لن يعود تعيش سعيدة بما تفكّر فيه وما ستفعل. ولكن أكانت تحضر لأيسيه ما تحضر الآن لو كانت ابنتها من رحمة؟ وبالمقابل أليست كلودين أختها، ودمها من دمها؟ أتجهل كلّ ما فعلت أختها ولم تكن شريكة فيه؟..."

- لماذا أنت واقف يا لاروش؟ - صاحت على الطبيب مستنكرة لامبالاته. - جهزوا الكونت وأثروا به إلى غرفة الضيوف. وأيسيه أيضاً. صارت قبيحة من وراء مجالستها من استعصى على الموت؛ أخبروها أنّ عندنا ضيفاً كبيراً حتى يُصلح من حالها.

لم تكن عائشة تحتاج إلى من يخبرها بقدوم الضيف. - فهمت من الأصوات المرحة الصادرة من غرفة الضيوف. وهذه الأصوات حملت شارل دو فيريول على رفع رأسه الثقيل. وتحدث إلى ديستان غير عابئ بالكتاب الذي كانت عائشة تقرأ له منه:

- حقاً يا ديستان أن جلستك هذه جلسة كسامي! اذهب وأخبرنا بما يحدث في البيت. لا أعرف إن كان الكونت أوغستين - أنطوان الذي أنتظره يوماً بيوم قد وصل.

- لا يا كونت. - قال لاروش الداخل إلى الغرفة - ليس القادر أخاك الكونت. وهو ننتظره أيضاً. من وصل الآن ضيف كبير، هو أورليان الوصي.

- أهو ضيفنا؟ - سألكونت غير مهتم بما سمع وعاد فجلس مطرقاً. ثم غضب بعد قليل - من قال إبني مريض حتى يعودين؟ - ثم صرخ بصوت أعلى:

- أانا في الفراش ولست على قدمي؟!

- يا بابا، لست مريضاً، اطمئن! - قالت لنفسها وهي تمسح بيدها على رأس الكوونت "ليس من أجلك استقدموه بل من أجلي"، ولكنها لم تقنع لهذا السبب عن إسداء النصح له: - الوصي لم يأت غير محتاج إليك؛ ولذا البس أجمل ما لديك من لباس، ولنفعل الواجب تجاه من دخل بيتنا!

- طبعاً، طبعاً. يا شارلوت - إلزابيت أيسيه، سرّحّب من دخل بيتنا - فرح شارل دو فيريول من عبارة عائشة "دخل بيتنا" بصيغة الجمع: - هات يا ديسстан ملابس السفير الخاصة بي، وأنت يا شارلوت - إلزابيت أيسيه تأنقني أكثر مني. سرّي الوصي حالنا نحن الاثنين. ولكن كان أفضل شيء هو أن يأتيني الملك لودفيغ الخامس عشر. كنت سأنصحه نصائح كثيرة لمصلحته. لن نستعجل حضوره، سيأتي هو الآخر يوماً ما. أليس صحيحاً يا أيسيه، يا روحـي الوحـيد؟

- نعم يا بابا. - قالت لنفسها "كنت ظننته قد هداً ولكنه لم ينس إلى الآن ما في نفسه نحوـي" ثم توجهـتـ إـلـيـهـ ضـاغـطـةـ عـلـىـ حـرـوفـ كـلـمـةـ "ـبـابـاـ": - ولكن احرـصـ ياـ بـابـاـ عـلـىـ ماـ تـقـولـ وـأـنـتـ تـكـلـمـ الضـيـفـ!ـ أـفـهـمـهـ أـنـ مـنـ يـقـولـ القـلـيلـ أـذـكـرـيـ مـنـ يـثـرـ.

- يـسـرـيـ ياـ أـيـسـيهـ أـنـكـ لمـ تـنـسـيـ تـرـيـتـيـ لـكـ. فـتحـ دـيسـتـانـ، كـمـ أـوـصـوـهـ، الـبـابـيـنـ الـكـبـيـرـيـنـ لـلـغـرـفـةـ الـتـيـ يـتـنـظـرـ فـيـهاـ أـوـرـلـيـانـ، وـقـالـ معـجـبـاـ مـارـيـ - أـنـجـيلـيـكـ مـاـ تـرـىـ وـتـسـمـعـ:

- الكوونت شارل دو فيريول والكوتيسة شارلوت - إلزابيت أيسيه! حين نـخـضـ أـوـرـلـيـانـ ذـاهـلاـًـ مـنـ جـمـالـ عـائـشـةـ لـمـ تـمـلـكـ مـارـيـ - أـنـجـيلـيـكـ الـتـيـ لـمـ تـكـنـ تـقـومـ فـيـ بـيـتـهـ بـمـثـلـ هـذـهـ الـحـرـكـةـ إـلـاـ أـنـ تـنـهـضـ أـيـضـاـ.

- عندنا ضيف كبير - قال شارل دو فيريول مع إماءة تحية، ثم لامه: - أغفر لك عدم إعلامي بقدومك لأنك قمت بواجب تقديم التحية. وأنت تعرف الكونтиسة شارلوت - إليزابيت أيسيه فلا حاجة أن أعرفك عليها مجدداً. لماذا يا ماري - أنجليك الكونтиسة بجلسين ضيفنا الجليل إلى مائدة فارغة! وفي اللحظة التي سأل فيها الكونت امتلأت المائدة بالحلويات وبالفواكه وما يلائمها من النبيذ - أي نوع من النبيذ تفضل يا دوق؟

- النبيذ الذي يعجبني يا كونت متوفر في بيتك - ابتسם أورليان للكونت قائلاً في نفسه "تشتر كثيراً" - والآن فهمت أنك تحب هذا.

- لم تخطئ أيها الدوق. أخلصت طوال عمري لنبيذ بورغوند الأحمر والنساء الجميلات. - لنرفع هذه الكأس على شرف كل النساء الجميلات في العالم! ول يكن محبوبات من الرجال كما نحب نحن هذا النبيذ!

- يا بابا... - قالت عائشة بصوت قاسي ثم ابتسمت له.

- نعم، أيسيه يا كونтиسة، فهمت. ولكن سأشرب من أجل النساء هذه الكأس؛ ول يحدث ما يحدث!

- إذن يا كونت - نظر أورليان إلى الكونت وإلى ماري - أنجليك وعائشة نظرة خبيثة مرائية وقال: - إن سمحت لي سأضيف إلى نحوك: سترفع هذه الكأس واقفين على شرف المرأتين الجالستين إلى مائتنا لأنهما أجمل نساء العالم.

- إن كان رأيك هكذا فما من شيء أححبه عنهم. ولن أسمح لنفسي أن أتأخر عنك - حين حاول شارل دو فيريول النهوض ناسياً أنه خائر القوى تهلكى. وشرب بقية الكأس، وبعد قليل قال وهو يتضاءب: - ها هي الحال. ما الفائدة من تكُلُّف الرجولة، هرمنا!... وأنت لا تتأخر عنك كثيراً على هذا

الدرب. أيها الدوق كيف تدبر أمورك مع النساء؟ لا تدع أحداً يغلبك في هذا المجال بداعي الهرم... كأن النوم يغالبني أمام ضيفنا الكبير. أين أنت يا أيسبيه؟ - بابا لا يواتيه الشراب. - أسرعت عائشة بالنهوض وحضنت رأس الكونت في صدرها. - ويفوت موعد نومه وراحته... لا تؤاخذ بابا يا نور فرنسا، وأنا أيضاً عليّ أن أحضر له لوازم استراحته.

- يا لخجلنا أمام ضيفنا في يوم زيارته الوحيدة! لا تتأخر يا شارلوت - إليزابيت أيسبيه. - صاحت ماري - أنجيليك وراء عائشة مخفية مساهمتها في ما فعلوا بالكونت. - يكفي ما تعبت عليه، استريخي. هذا هو وضعنا أيها الدوق. لا يصدق أحد مهما رويت له، إن لم ير بعينيه، ما حصل لنا من جهة الكونت... لم يكن مناسباً لو أن الكونت أوغستين - أنطوان كان في باريس مع عمل مناسب، لا خارجها. نعيش عملياً أسرتين. لا يكفيانا ما يكسبه. من أين كان للكونت البائس أن يعرف ما حصل له. والبنت الجاهزة للزواج بقيت في عهدها. لا تستغرب أيها الدوق قولي: "بنت جاهزة للزواج" وأما من كان يغازلها وهي تناديه "بابا" فقد رأيت حاله. أيُّ رجل هذا ليتزوج؟! كان الأفضل لو يخدم نفسه بنفسه بدلاً من الافتخار الدائم. والبنت الشركسيّة التي نحن بانتظارها ستظل في خدمته ولو منحها حرية، ولن تتخلى عنه حتى تسدّ له معروفة ولو عاش العمر كله وهرمث في خدمته. ليست من نوع النساء اللواتي تعرفهن.

- صحيح يا كونتيسة - نظر نحو الباب وهو يبتسم، ثم لم يخف عن جليسته ما في قلبه: - لو لم أره بعيني هذه السنة لما أتيت على ذكره.

- أتشتاق إلى من لا تعرفها لأنك لا تعرف حلاوتها؟ - سألت ماري -
أنجلييك محدثها متناسية أنه الدوق أورليان الوصي، وهي تنظر إليه بعينين
وتحتىن حارتين:

وما زاح أورليان الخبيث ماري - أنجلييك:

- لا تختمي يا كونتيسة إلى هذا الحد! أقول لك الصدق: لا تزالين في ميعه
الشباب.

- لا أصدق! - جزمت ماري - أنجلييك حتى لو سمعت ما تجده أذناها. ثم
لامته على ما في قلبه نحوها وهي تتسلل أمامه: - إن كان هذا رأيك فلماذا
تتجاوزني وكأنك لا تراني، إلى من لا تعرف بعد كيف تقتل؟ لأن العجل الوليد
أحلى من البقرة الشابة؟ بادلته المزاح.

الآن ضحك أورليان من أعماق قلبه:

- أتقتل كلامك يا كونتيسة. ولكن إجابتك على سؤالك بنفسك أراحتني. إن
كانت علاقتنا أنا وأنت يا كونتيسة ستستمر على هذا النحو فليس مستبعداً
أن يحدث بيننا شيء ما... - منزح معها الدوق أيضاً.

- حين تتعب من النظر نحو الباب؟ - أراحت ماري - أنجلييك دون أن
 تستطيع التمييز بين جدها وهنلها، محدثها: - لا تقلق، لا مكان تذهب إليه
شارلوت - إليزابيت أيسبيه غير هذا البيت. ولكن لا أعرف إن كنت قادراً على
أن تنسىها بليز - ماري دو إيدري شفاليه... - وشيئاً فشيئاً، وعن طريق
المزاح، عبرت للوصي عن حقدها الذي لا يعرف بأمره إلا الطبيب لاروش.

- إذا كنا نفينا فولتير من فنسا، وكان اللورد بولينغبروك نفذ بريشه من إنكلترا،
فسنجد مصراً لدو إيدري شفاليه. - أجاب أورليان على ما لمحوا به إليه دون
تفكير وكأنه كان يتنظر السؤال.

"انظر إلى هذا الرجل، إنه مثل شقيق زوجي الذي لا يشبع من الحب المتحرر حتى هرم؛ ما أظلمه! - جفلت ماري - أنجلييك ما سمعت - ادعى إلى الله أن لا يوغل في فراشه! ولكن في النهاية من تستطيع مجاشه واحدةً مثلـي، لا مثلـيـه الغضـة... يا للحسـرة! لو وقـعت بين يـدي لـتركـتكـ لا تـحملـكـ قـدمـاكـ، وكـلـما رـأـيـتـ اـمـرـأـةـ تـعـوذـ بـالـلـهـ...ـ ولكنـ منـ يـحـتـاجـنـاـ وـالـحـالـ مـنـ يـرـاـنـاـ يـسـخـرـ مـنـاـ؟ـ"ـ وفيـماـ الكـوـنـتـيـسـةـ الـتـيـ كـانـتـ فـيـ شـبـاـهاـ تـغـلـيـ شـهـوـةـ وـإـغـرـاءـ تـحـدـثـ نـفـسـهـاـ وـتـقـيـسـ الـبـارـحةـ بـالـيـوـمـ وـبـالـغـدـ،ـ وـلـاـ تـصـدـقـ حـالـهـ الـآنـ،ـ رـجـعـتـ عـائـشـةـ إـلـىـ الـغـرـفـةـ.

لم يتحقق ما كان يتأمله الدوق أورليان والكونتيسة ماري - أنجلييك إذ كان في وجهـهاـ أـمـرـاـ يـقـلـقـهـاـ.ـ وكـمـاـ تـرـجـتـهـاـ مـارـيـ -ـ أنـجـيلـيـكـ لمـ تـجـلـسـ أـمـامـ الضـيـفـ بـوـجـهـ بـارـدـ أـزـرـقـ،ـ جـلـسـتـ إـلـىـ الـمـائـدـةـ الـمـزـينـةـ الـعـامـرـةـ،ـ وـقـالـتـ دـوـنـ تـسـأـلـ أـحـدـاـ مـنـهـمـاـ:

- أـرـحـثـ بـابـاـ،ـ اـطـمـأـنـتـ عـلـيـهـ.

- لأـجـلـ هـذـاـ يـقـولـونـ إـذـاـ اـجـتـمـعـتـ الشـيـخـوـخـةـ وـالـمـرـضـ عـلـىـ الـإـنـسـانـ اـجـتـمـعـتـ عـلـيـهـ مـشـاقـ كـثـيرـةـ.ـ تـنـهـدـتـ مـارـيـ -ـ أنـجـيلـيـكـ وـهـيـ تـقـولـ لـنـفـسـهـاـ "ـأـنـتـ أـمـ نـخـنـ مـنـ أـرـحـنـاهـ؟ـ"ـ مـتـدـحـةـ نـفـسـهـاـ،ـ وـمـفـهـمـةـ عـائـشـةـ إـشـفـاقـهـاـ عـلـيـهـ،ـ ثـمـ ضـحـكـتـ دـوـنـ أـنـ تـعـرـفـ سـبـبـ ضـحـكـهـاـ،ـ وـلـامـتـ ضـيـفـهـاـ الـذـيـ بـدـأـتـ تـرـفـعـ الـكـلـفـةـ بـيـنـهـاـ وـبـيـنـهـ:ـ وـهـلـ سـبـقـىـ هـكـذـاـ يـحـدـقـ أـحـدـنـاـ فـيـ الـآـخـرـ يـاـ نـورـ فـرـنـسـاـ؟ـ رـفـعـ نـخـبـاـ مـاـ لـنـشـرـ.

- بـكـلـ سـرـورـ،ـ شـارـلـوـتـ -ـ إـلـيـزـاـيـتـ أـيـسـيـهـ الـكـوـنـتـيـسـةـ لـاـ تـذـوـقـ الشـرـابـ.

- هـذـاـ ذـنـبـيـ أـنـاـ يـاـ دـوـقـ -ـ حـمـلـتـ مـارـيـ -ـ أنـجـيلـيـكـ الـكـوـنـتـيـسـةـ نـفـسـهـاـ الـمـسـؤـلـيـةـ بـطـرـيـقـةـ ذـكـيـةـ.ـ رـبـيـتـ وـلـدـيـ وـأـيـسـيـهـ دـوـنـ أـنـ يـعـرـفـواـ إـنـ كـانـ فـيـ الدـنـيـاـ شـرـابـ.

من خوفي عليهم. كفى يا أيسية، امنحك الحرية في أن تشربي. وستنتسين معه ما يكفلك الكونت من مشقات.

- يا ماري - أنجيليك يا ماما - جزمت عائشة ملن كانت تبتسم له وإن لم ترفع صوتها: - لم أخالف أوامرك إلى الآن، أطيعك، ولكن لن أستطيع تحقيق ما رجوتني لأجله.

- هكذا - امتدحت ماري - أنجيليك نفسها ثانية وهي تصاحك بطريقة غير مناسبة - ربيت شارلوت - إليزابيت أيسية يا دوق، سمعت ورأيت.

- برافو يا شارلوت - إليزابيت أيسية! - صاح أورليان دون أن يُبدي خبأً ونفاقاً، ورفع كأسه: - مرة أخرى حُزِّت على إعجابي. من أجلك، من أجل أوثنك الطاهرة، وجمالك أرفع هذه الكأس.

- وأنا لا تستني، أرفع معك - لم تحرم ماري - أنجيليك نفسها من نخب الضيف. وحين شربت النبيذ غمغمت، وهي تمسح شفتيها الحمرتين، دون أن تعبأ بما لا يرضي الوصي: - على كل حال لا أعرف كيف ترفع كأساً للابنة بحضور الأم... - ثم ضحكت من كلامها ونادت مدبرة المائدة: - تعالى غيري كأس الشاي لأيسية، بردت.

كانت عائشة تدرك أن الكونتيسة ماري - أنجيليك تبالغ في سلوكها في حضرة الضيف دون أن تفهم السبب: - ما الذي حدث للكونتيسة حتى تستهين بقدرها في حضرة الضيف؟ لم تتصرف هكذا طوال عمرها. أعمل الأمر بالنبيذ غير أني رأيتها شربت أكثر من هذه المرة، ولا أتذكر أنها كانت تشرث أو تتصرف تصرفات لا تعرف حدوداً لها ولا تليق بها. وجهتني قائلة "لا تبardi حين يزورنا أورليان!" غير أنها لم تعد تفسح لنا المجال للكلام. وأظن أن الضيف الذي استقدمته لي فيهم الأمر. لا يلام بابا على أنه غفل على المائدة وهو

يتكلم. إنه مريض. تنقل عليه الشيخوخة، ومرهق. وماما ماري — أنجلييك تطير من فرح لم أرها فيه خلال السنوات الماضية. تندلع أمام الدوق، وتتجمل له. مهلاً، مهلاً! لماذا اختارت وقتاً للزيارة يغيب فيه بون دو فيل وأرجنتال عن باريس؟..."

— والآن، من أجلك يا نور فرنسا، ومن أ洁لي ستشرب هذه الكأس.
— ماما...! — نظرت عائشة في وجه الكونتيسة وكأنها تقول: انتبهي لما تقولين وما تفعلين!

— اتركينا يا أيسيله واشربي الشاي... — أشارت الكونتيسة إلى عائشة بيدها غير عابئة بملأ حظتها.

— من أجلك يا كونتيسة أشرب لا كأساً بل كؤوساً! — قال أورليان لنفسه "قد تكون هي التي شربت دوائي خطأً" وصار شكه مدعاه للضحك — ولكن إن لم تعتب علي فعندني نخب آخر: باسم الكونت شارل دو فيريول أرفع هذه الكأس — واحتتم أورليان ما كان يفكر فيه أثناء الخطبة وأثناء احتساء الشراب:
— كانت جلستنا سعيدة وإن لم أستطع مجالسة الكونت الذي جئت من أجله، عاينت صحته، وجلست إلى مائدة ماري — أنجلييك لأول مرة وإن كنت أعرفها منذ زمن بعيد. وأنت يا شارلوت — إليزابيت أيسيله زادت معرفتي بك. نجتمع ثانية، أودع الكونت لأن موعد انصرافي حان. وأنا — ألقى نظرة أمل حارةً نحو عائشة — أقوم ممنيًّا نفسى بيوم لقاء آخر. شائكم وشرابكم ووجوهكم كلها حلوة علىّ.

حين تلاشى صوت عربة أورليان وراء منعطف الشارع قالت ماري — أنجلييك ووجهها انشوى مما شربت، وتكسر المروحة تبرد نفسها:

- هكذا يا أيسية رأينا أورليان أخيراً وهو عندنا وإن لم يطل مجلسه. يكفي أن عربته اللامعة وقفت أمام بابنا. ستغبطنا باريس بكمالها. ولكن من سيحسدوننا ليسوا قلائل. ليقلعوا عيونكم، ولُيقطعوا ألسنتهم إن شاؤوا، هذا لا يهمنا. أنا راضية عن أدائي اليوم وعن أدائك. كان وجهك منفتحاً على ضيفنا الكبير. لم تُخرجيني. قولي الحق يا أيسية ألن يرى الناس أورليان رجلاً وسيماً لائقاً بك؟ صِحْكَتَهُ، كلامه، طريقة شريه، صفاء عينيه، لمعان أسنانه البيضاء، ظهره المستقيم... ألا أقول الحق يا أيسية؟

- اتركيبي، لا أعرف. لم أنظر إليه بعينيك. - لم تتوعد عائشة أن تقول هذا للكونتيسة التي لا تحملها.

- وكيف تنظرين إليه وشفالييه في مخيلتك! - ردت ماري - أنجيليك بدون مسايرة، وعلى وجهها غضب لا يخفى. - ليتنى رجعت شابة مثلك كتبت سلبت عقل أورليان وأنسيته اسمه!

- يا ماري - أنجيليك يا ماما، لا تتدبي عمرك هكذا. - امتدحتها عائشة وفي ذهنها "سأجعلها تصرح بما في قلبها" - وحين جلست معكما على المائدة كان أورليان ذاهلاً عن كل ما حوله غيرك.

- هكذا؟ - فرحت ماري - أنجيليك. وربما تذكرت شبابها فتوردت وجنتها، ولعنت عينها الخضراوان - صحيح يا أيسية، أم تمزحين؟ - ولماذا أمرح؟ - مرة أخرى وثقت عائشة كلامها - أقول ما لاحظته عليكم فحسب.

- نعم يا أيسية لهذا - تنهدت ماري - أنجيليك بطريقة تدعوك للإشراق عليها - يقولون لي: ولدت صبيين وتقاعدت... كنت تناسيت بلا فائدة أن في ما يُعجب الرجال... وها أنت ترين، دون أن أقول لك، النار التي تشتعل

في جسدي فتحرقني. كفى، لا تسمعني، ما أكثر ما أثرر اليوم... اذهب يا أيسية واستريح أنت أيضاً. لا أعرف ماذا فعل بنا الدوق أورليان، ضمّنا إليه كلتينا وأرهقنا.

ما إن خرجت عائشة حتى تسلل لاروش إلى الغرفة وهس على نحو يُذيب القلب في أذن ماري - أنجلييك التي كانت تطفئ حرارتها بالشاي الذي برد: - أنظر إليك يا كونتيسة فأراك في غاية الجمال. - ابتسم في وجه من امتدحها وهو يحدّث نفسه: "أنا من خدعكم وأنتما تظنان أنكم خدعتمي أيسية". - أنا جميلة لأنني كنت جالسة إلى جوار رجل في منتهى الوسامنة. - ليست أسناننا أقلّ حدة من أسنانه وإن لم نكن في وسامته. - لا تمدح نفسك! سمعت هذا حين تعود بعد قليل...

وكما توقعت ماري - أنجلييك فقد تكلمت باريس شهراً كاملاً في استقبال آل فيريول لأورليان. ولكن حدث فجأة في صالون دو ديفان ما أنساهم الصيافة.

لما كان المركيز دو ديفان بلغ الستين دون مواربة دعا إلى بيته أقرب عشرين شخصاً تقريباً. وبين هؤلاء كانت عائشة دون بليز - ماري دو إيدري شفاليه الذي سافر إلى إيطاليا. وفيما عائشة وكلودين اللتان لم تتقابلاً منذ قرابة ثلاثة أشهر تتحادثان بمودة سمع صوت رئيس خدم المركيز دو ديفان: - الدوق أورليان نور فرنسا وصل!

تبادل المركيز دو ديفان والضيوف النظرات من خبر الوصول المفاجئ لأورليان. ونضوا للقادم وأكثراهم مستاء من إعلان أورليان الزيارة. ولم يدع أورليان الممتليء حبوراً مستقبليه ينتظرون:

- جئتكم لأن شارلوت - إليزابيت أيسية أخبرتني أنها ستكون هنا.

- لم أقل لك شيئاً أيها الدوق! - قابلت عائشة بصوت قاسي ووجنتين تقدحان شرّاً إعلان أورليان - أي كذب تتهمني به، وأي عارٍ تلحقه بي! إن كان عندك شيء من شرف فاتركني. وإن لم تفعل فسأقول لك: سأحلق شعري وألتجي إلى الدير. دو ديفان يا روحى لا تؤاخذنى لن أطيق النظر أكثر إلى من أهاننى. أرسلنى إلى بيتي!

- لا يا شارلوت - إليزابيث أيسى الكونتيسة لن تذهبى وحدك - نمضت كلودين - ألكسندرین معبرة عن الاستياء من أورليان بحركة من شفتيها - أنا سأوصلك إلى بيتك، إلى بيت آل فيريول. امض يا "لو فريني" - ألقت نظرة إلى الضيف غير المنتظر توحى بأنها ستعود بمحنة تصريف مستشار المجلس الكبير لفرنسا - قالت له "لو فريني": وأنت اصحابنا!

III

الحزن إن حملته دائمًا معك هرمت معه، وإن تناسيته أركبك أملًا لم تنتظره، وليس كل راكب بالغاً مراده.

هذا ما جرى للدوق أورليان من جهة عائشة: تبين أن حزام سرج حصان الحب الذي طوّعه سنوات كثيرة مقطوع، أو بتعبير آخر: "من لا يهدأ يجد نفسه أخيراً خارجاً" ما حدث لأورليان في عيد المركيز دو ديفان ما تزال باريس تتكلّم فيه، ولكن ما حدث لعائشة أنساهم سابقه: مع أن عائشة لم تكن تعرف وضع المرأة الحامل فقد شَكَّت في الأمر بعد ما حدث لها. وبعد أن قضاها عدة أيام تبكي أكثر مما تفرح، أعلمتها صوفى بما كانت تشكّ فيه:

– ماذا أفعل يا صوفى؟ حالتي غريبة.

– "حالتك غريبة" أم تشكّين؟ سألت صوفى عائشة، ولم تتوقف هنا: – أتعرف شفاليه "حالتك"؟

– لا... – جفلت عائشة كأنها في استجواب: كيف أخِرجه؟

– تقولين له! – قالت صوفى بصوت أحزم وأغلقت الباب – ألا تعرفين أن ما في بطنك ليس لك وحدك؟ – ليُقاسِمُك شقاءك – اختتمت بصوت أشرس.

– هل أدين دو إيدي بما جنّيته أنا بنفسي؟

– ليتزوّجُك حتى لا يتكلّم الناس في ما اشتراكتما في فعله! – حزنت صوفى لـما قالته: لا أريد أن تفعلي ما فعلته كلودين...لن يتسامح معك من يسمعون الخبر بعدما لقّنت أورليان درساً.

– لا يا صوفى لا أُخفي. أحب دو إيدي، لا ذنب له في ما حدث لي. وأكرر: لا يجب أن نحمل دو إيدي مسؤولية ما حملته على فعله وأنا أعرف أنه غير مسموح له بالزواج.

- صحيح أنك ذهبت إليه في ذلك اليوم مهتاجة ولكن ألم يكن يعرف أنه ينقض عهده؟! - لم تكن صوفي تعرف التراجع بل تتمادي في موقفها - أعرف يا أيسبيه أنه وعدك بالزواج ولكن كان عليه أن يتزوجك قبل أن يدفعك إلى الخطأ. الرجل هو أول من يجب أن يفهم ضعف المرأة وهشاشتها. هو فعل فعلته وبلاك أنت... - والآن بعدما لامت المرأة التي بكت حتى نفست عن كريها، عانقتها وبكت.

وعائشة التي كانت دائماً تخفي فرحتها وضيقها انفجرت بكاءً، ولكنها سرعان ما وعت إلى نفسها:

- كفى يا صوفي؛ لا يجب أن نجلس نبكيث أنفسنا. ما كتبه الله علىي أحمله لأنه قراره. ولن أكتم هذا عن دو إيدي شفاليه. ولكن لن نفعل ما اقترحت، ولن أقبل عرضه للزواج ولو عرض. لن أقول له: انظر إلى مأساتي وافهمني فأقلب له حياته. أعرف مخرجي الوحيد ولو لم تذكريه لي.

أكددت صوفي التي شلها الحزن وتورمت أحفاصها:

- لا تدعني هذه الفكرة تغزو رأسك؛ خافي من الله!

- نعم يا صوفي؛ الله يحميكي من الخطأ. سأتصرف كما يملي علي... - وفيما عائشة تهدئ صوفي قرع الباب - لا تقل شيئاً سينصرف من تلقاء نفسه - وضعت عائشة أصابعها على فمها، وقالت لنفسها "في هذه اللحظة لا أريد أن أرى أحداً إلا دو إيدي" ثم همسه لصوفي. وبعد هنีهة قالت لها: - افتحي الباب وتظاهري أنك تصففين لي شعري، وسنعرف الطارق من طريقته في الطرق.

دخلت الغرفة ماري - أنجلييك التي كانت بعيدة عن الطرق:

- لماذا أنتما جالستان هنا وقد حبستما نفسيكما في اليوم الذي جاءت فيه كلودين؟ أرسل وراءكما فلا تردان.. يا صوفي ما أجمل ما صفت شعر عائشة!
نحن، أنا وكلودين – ألكسندرин دعانا أورليان إلى باليه رو وبال هذا المساء. لا
تفزعي يا أيسبيه، الرسول لم يأت على ذكرك. كنت توقعت أن يحقد علينا، آل
فيريول، وصيّل الملك موقفك منه لسعة انتشار الخبر في باريس، ولكنه تخلّى
بالإنسانية.

- لأنّه يعرف قلة أدبه... – ردت عائشة على الكونتيسة باستخفاف.

- يا من أسعدك الله يا أيسبيه! – عندك صبر ومعرفة كبيرة!... لماذا نسيت
يا صوفي مسألة شعري؟

- صفت شعرك بشكل جميل جداً يا كونتيسة – لم تملك صوفي إلا أن تمدح
ما تراه – لا يجوز لمسه، دعك من التدخل فيه.

- هكذا؟ – وقفت ماري – أنجيليك أمام المرأة، وتأملت نفسها قائلة "لو
رأيتما الرجل الذي سيمسه ويشمّه!" ثم لامت نفسها على ما فعلت: - كيف
لا يكون جيلاً وقد أنفقت عليه كل هذه النقود؟ في خروجي القادم من البيت
ستصفف لي صوفي بأجمل مما فعلت لأيسبيه.

- لن أبخلك عليك، سأرضيك بما أستطيع.

- إن لم تطلي النقود التي لا تكفيانا تكونين أرضيتي. يكفي ما يدفعون لك...
– تظاهرت الكونتيسة المتأنقة أنها تبادلها المزاح. – لا، ليس مهمًا. لأنّ أمّانا
على موعد بور رو بال فرقة الساعنة يا أيسبيه انزي، كلودين – ألكسندرин تود
رؤيتك.

- من أجل هذا قطعت كل هذه المسافة؟ كان يكفي أن ترسلني أحداً ورائي.

- قالت عائشة للمرأة الخارجة، المتعطرة بالعطر الذي تحبه النساء السمينات.

توقفت ماري — أنجيليك عند الباب ورددت على عائشة بمنحة:

— كنت أود أن أنفث شيئاً من رائحة عطري في غرفة أخي زوجي الوسيم —
كيف حاله هذا المسكين؟ لا أذكر منذ متى، منذ البارحة أو قبلهارأيته آخر
مرة.

— شكرأ لك يا ماري — أنجيليك يا ماما على سؤالك عن بابا. — قالت
عائشة تكضم غضبها بصعوبة — إلى الآن يستطيع أن يمد يده إلى رأسه. وكما
تعرفين، لا يزال يهزمي.

— وأنت، ألا يتعرف عليك؟

— أنا يتعرفي؟ أما جماعة دستان فيتمدد عليهم.

— حسن أن يعرفك بشرط ألا يعandك... — لم تستطع الكونتيسة إلا أن ترد
بالمناكدة على عائشة — بديهي أنك لا يمكن أن تتمتع بصحة جيدة بعد هذا
العمر. الهرم ينبعض الحياة، والمرض قاتل. سنتكلم على ما سنتخذ من تدابير
بحق أيك المسكين غداً لأن الكونت أوغستين — أنطوان قادم. يا أيسية لا
تنظري إلى شزاراً يا بُنيتي! لم أفك في ما فكرت فيه. لا تتأخر في النزول. لم
يتبقى عندنا وقت.

— هذه المرأة، ساحرني يا أيسية، لا أستطيع فهمها. — قالت صوفى وراء المرأة
الخارجة وقد توترت ما سمعت. — ما بين ما في قلبها وما على لسانها كالمسافة
بیني وبينها. لا تصدقني ما تقوله لك! تتظاهر أمامنا بأننا لا نعرف من تتعرّض
بهذا العطر القوي! من أجل لاروش. من يسأل عنها هذه المتصايبة؟ — في
اللحظة التي فتحت فيها عائشة الباب تقىأت وركضت إلى العرفة المجاورة —
كيف ستختلطين بهذه الحالة الأختين الجنّيتين!... البسي لا ترياك رثّة الملابس!
وانتبهي لنفسك. أنا سأخرج وأبحث لك عن دواء يفيدك.

تأنقت عائشة كما نصحتها صوفى، ونزلت إلى الأختين الذاهبتين إلى باليه رويدا.

– هل ستذهبين معنا يا شارلوت – إليزابيت أيسبيه، ما أشد أناقتك! – سالت ماري – أنجلييك وهى تأكلها بعينيها.

– أيسبيه جديرة أن ترافقك ويروها معك – امتدحت كلودين – ألكسندرین التي كان جمالها يخطف الأبصار عائشة، ثم جرحتها وكأنها تشلّ في حالتها – ولكنني أراك شاحبة؛ أنت متوعكة؟

– لا يا كلودين – ضحكت عائشة – لا شيء من هذا.

– طبعي ألا يعجبك لونها – قالت ماري – أنجلييك الكلمة التي لم تكن تفارق لسانها بحق عائشة: – تتصور أن لا أحد يخاف على الكونت غيرها فلا تفارق طوال النهار، تُفني نفسها معه.

– أيسبيه ماذا تفعلين؟ – كررت كلودين الكلمات نفسها التي نطقت بها في الأمسية التي تصدّت فيها عائشة لأوليان، وما في قلبها غير ما على لسانها – أتظنن أنك ستبقين شابةً الدهر كله؟ لماذا تخربين نفسك من ملذات حياتك جارياً وراء الصدق والمعاندة؟ أسعدي نفسك وامرحي، خذى من الحياة ما تستطيعين.

– حقاً يا كلودين – أيدت ماري – أنجلييك أختها.

– ستكتشفين كم كانت الحياة ممتعة فيما بعد – أكملت كلودين – ألكسندرین ما قطع من كلامها. – حين تحرمن.

– نعم، نعم يا كلودين، وهذا ما حدث لشقيق زوجي الكونت المسكين.

– يا ماري – أنجلييك، يا ماما، وأنت أيضاً يا كلودين، لا أريد أن نتكلم على بابا! – توردت وجنتا عائشة – لا أستطيع أن أهين شبابي الذي منحه الله لي

بحجة المتعة. ليعشْ كُلُّ حسب ما يملي عليه قلبه وشرفه! إن كان هذا ما تريدان قوله لي...

- لا يا أيسية - نظرت كلودين - ألكسندرين إلى أختها بطرف عينها وقاطعت عائشة: - بدأنا بهذا الحديث غير أن هناك خبراً مزعاً، ربما لا تعرفينه، نود إطلاعك عليه.

- أيُّ خبرٍ غير سارٌ؟ ارتعبت عائشة لما سمعت.

- هل ناديتني يا شارلوت - إليزابيت أيسية؟ - جلب سؤال عائشة الصاحب صوفى التي كانت تحمل الدواء.

- لا يا صوفى. - هدأت عائشة نفسها - نحن هنا نتكلّم على موضوع آخر.

- نعم، نحن هنا نتكلّم في موضوع أسرى. - أيدت ماري - أنجيليك أيضاً بصوت ناعم جداً - امضى أنت إلى أعمالك!

- أسمعك يا كلودين. - نظرت عائشة نظرة باردة شاحبة إلى الكونتيسة.

- إذن لست مطلعة على الخبر يا أيسية - ونحن لم نسمعه إلا منذ وقت قريب

- بليز - ماري دو إيدى سيخوض مبارزة مع أورليان من أجلك.

- هذا مستحيل! - انكسر صوت عائشة لما سمعت - لن يفعل إيدى هذا دون علمي.

- على كل حال هذا هو الخبر المتداول - سال الخبر الذي تريده كلودين من أجل عائشة من فمها بصوت ناعم.

- انتظري حتى يطلعك الرجال على حُبِّيْهِم! - عبرت ماري - أنجيليك الحاقدة على الرجال الذين تعتبر توقُّعَهُم عن ملاحقتها إهانة لها، شامتةً بهم - هؤلاء كلهم كأنهم سقطوا من أعلى شجرة واحدة. أنا من يجهلُهُم؟! ولكن ما أسرع ما تلعين بعقولهم من معابتهم مرة واحدة! هكذا يا أيسية، يا شارلوت

— إليزابيت أيسبيه. — مرة أخرى وضعت الكونтиسة النبرة على اسم عائشة الفرنسي. — لا أتذكر أن آل فيريول وآل تانسين وقعوا في مثل هذه الورطة يوماً. العادة أن يتكلموا على أسرة الملك بالخير، لا أن يعقدوا معها المبارزات.

— حتى لو قالوا لك ما لا يجوز وأهانوك! — لم تكن عائشة لترجع ولو أنها تعرف حراجة موقفها، ناسية ما يسبب لها من في بطئها من ضيق — أيجوز إشاعة ما لا يليق بالمرأة وإهانتها؟! ألا تذكرين يا كلودين كيف أهانني أورليان أمام الناس؟

— أتذكّر — بعد أن صحبت كلودين — ألكسندرин في ذلك المساء عائشة إلى البيت صرفت لو فريني متناسية كيف قبضت ليتلها مع أورليان. وتغيرت إلى صوت أشد نفاقاً : — وأنا لم أجد من اللائق بالدوّق أن يفعل هذا، وكذلك موقف أصحابنا. ولكن للوضع المخرج الذي نشأ بين رجلي فرنسا الكبارين من أجلك مخرجاً. لحظة، يا أيسبيه دعني أكمل ما بدأت: إذا ذهبت معنا إلى باليه روبيال، وقابلتِ أورليان، ورآك الحضور تحدّثينه بودّ، وهو يجاملك، فسيفهُم الجميع أنكم تصاحتما.

— نعم، نعم يا أيسبيه — وافتقت ماري — أنجيليك ثانية أختها — لا فرق بين أن تدعوا أورليان وصيّ العرش إلى مبارزة وبين إعلان الحرب على فرنسا.

— ما تقولانه لي من عندكم أم من عند أورليان؟ — ابتسمت عائشة وقالت لهما دون انتظار الجواب: — إن وافق الدوق على الاعتذار أمام الناس عن إهانته لي رافقُكم.

— نحن أخبرناك برأينا وهوانا يا شارلوت — إليزابيت أيسبيه — سحبت كلودين ألكسندرin اقتراها قائلة في نفسها "اسمعوا ماذا يخطر لها، بم تفكّر؟" — لم يكلّفنا أحد بمثل هذه المهمة.

- إذن نعتبر حديثنا كأن لم يكن.

- اعتريه كما تريدين يا أيسيه! نحن كنا مهتمتين بتحسين وضعك أنت وشفالبيه. - رمت كلودين، وهي تبسم، الكرة في ملعب عائشة من جديد - إن كان رأيك هكذا فالمخرج من ورطتكما عائد إليكما.

كانت عائشة التي وقعت في ضيق شديد، تفكّر في أشياء كثيرة فيما هي تصعد إلى غرفتها، وتحتاز الردهة. وكان أعجب شيء في المسألة وأدعاها لحزنه هو تصرُّف دو إيدي دون علمها. "لا، لا، لن أدع دو إيدي يخسر حياته بسبي أمام هذا الرجل الفظّ. في كلام ماري - أنجيليك شيء من الصدق؛ فماذا أفعل؟ ومن سيقف إلى جانبي؟ جلبت لنفسي بنفسي مصيبة بحجة أني أحجمي نفسي وشرفي. والنتيجة أني رميت بالرجل الوحيد الذي أحببته وأودعت عنده شرف الأنثوي في المهلكة. ما مصيرنا أنا والجنين الذي في رحمي إن حدث مكروه - لا سمح الله - لإيدي؟ لا أدرى إن كان رفضي القاطع لاقتراح الأخرين بسبب عدم الثقة فيهما خطأ. لا، مثل هذا السلوك كان مقبولاً لو لم أكن على حق، آباء على نفسي! منذ زمن طويل لم أقابل جانيت - نيكول..."

- ما أشد شحوبك يا أيسيه! ماذا جرى لك؟ - أسرعت صوفى لاستقبال عائشة.

- هؤلاء الذين لا يهمهم إلا أشخاصهم؛ هل يمكن أن يحملوا إليك خبراً سعيداً؟

- انتبهي يا أيسيه إلى نفسك، فكّري في جنينك. ها أنا وجدت لك دواء جيداً يُريحك.

- شكرًا يا صوفي. ما تتحديث عنـه أنسـتني إـيـاه الأـختـان الكـونـيـسـتـان. سـيـتـارـز دـوـ إـيـدي شـفـالـيـه والـدـوق أـورـليـان.
- وـعـلـام يـتـازـعـان، وـمـا الـذـي لـا يـسـتـطـعـان تـقـاسـمـه!
- أـنـا. لـم يـتـحـمـل دـوـ إـيـدي الإـهـانـة الـتـي أـلـقـهـا بـيـ أـورـليـان.
- يـا لـشـمـاتـي! - صـفـقـت صـوـفي لـنـفـسـهـا - كـنـت أـعـرـف أـن هـذـا مـا سـيـحـدـث وـلـكـن لـم أـخـبـرـكـ. - هـذـا مـا يـسـمـى بـالـرـجـولـة. وـنـحـن لـيـحـمـنـا أـحـد الرـجـالـ!
- لـمـا أـنـت مـسـرـوـرـة يـا صـوـفي؟ أـلـا تـفـهـمـي أـن هـذـه الـمـبـارـزـة سـتـحـمـل مـصـيـبـةـ؟
- أـفـهـمـ.
- وـهـذـا رـأـيـ أـنـا. اـذـهـي مـعـيـ، يـحـبـ أـنـقـابـلـ إـيـديـ.
- إـنـ لـمـ يـكـنـ حـضـورـي ضـارـاـ لـكـمـاـ.
- أـهـنـاك سـرـ لـا نـعـرـفـه - نـحـنـ الـاثـتـيـن - مـعـ؟ اـبـتـسـمـت عـائـشـةـ لـصـوـفي وـأـنـصـتـت بـاتـجـاهـ غـرـفـةـ الـكـونـتـ، وـوـاـسـتـ نـفـسـهـاـ: - سـيـغـفـرـ اللـهـ لـيـ وـسـيـفـهـمـيـ إـنـ لـمـ أـخـبـرـ بـابـاـ بـوـجـهـيـ هـذـهـ الـمـرـةـ.
- نـعـمـ يـاـ أـيـسـيـهـ، أـنـا قـبـلـ قـلـيلـ أـطـلـلـتـ عـلـىـ الـكـونـتـ، كـانـ نـائـمـاـ. وـدـيـسـتـانـ كـانـ إـلـىـ جـانـبـهـ يـغـالـبـ النـوـمـ.
- اـسـتـقـبـلـ بـلـيـزـ - مـارـيـ دـوـ إـيـديـ شـفـالـيـهـ عـائـشـةـ الـتـيـ صـارـتـ جـزـءـاـ مـنـ رـوـحـهـ بـسـرـورـ. وـقـبـلـ يـدـيـهـاـ، وـحـيـاـ صـوـفيـ الـتـيـ كـانـ يـغـلـبـهـاـ الـحـيـاءـ، وـدـعـاهـاـ إـلـىـ الـغـرـفـةـ.
- لـاـ يـاـ إـيـديـ لـنـ نـدـخـلـ الـغـرـفـةـ. - لـمـ تـتـلـكـأـ عـائـشـةـ عـنـ إـخـبـارـهـ بـسـبـبـ الـزـيـارـةـ - الـيـوـمـ يـوـمـ خـرـيفـيـ جـمـيلـ. جـئـنـا لـسـبـبـيـنـ سـنـخـبـرـكـ بـهـمـاـ هـنـاـ.
- إـذـنـ دـعـونـاـ نـجـلـسـ فـيـ مـسـتـرـاحـ الدـارـ. سـنـسـتـمـتـ بـحـزـنـ هـذـهـ الشـمـسـ الـآـيـلـهـ لـلـغـرـوـبـ وـحـنـاـخـاـ. وـنـسـتـنـشـقـ هـوـاءـ الدـارـ الـعـلـيـلـ وـنـسـتـوـعـبـ نـعـوـمـتـهاـ - سـأـلـهـمـاـ دـوـ إـيـديـ شـفـالـيـهـ - هـلـ الـأـخـبـارـ الـتـيـ حـلـتـمـاـهـاـ إـلـيـ سـارـةـ أـمـ سـيـئـةـ؟

- أحدهما سارٌ والآخر سيء — أسرعت صوفى.
- ابدؤوا بالخبر السيء وانتهوا بالسار — منح دو إيدى معهما- إن لم تكن آخرته مأساة.
- يا إيدى- سألت عائشة بصوت حزين وإن نطقت اسمه بدهء الحب:-
أصحىح أنك ستتبارز مع أورليان؟
- لا، تدخل اللورد بولينغبروك والملك لودفيغ الخامس عشر، وأوقفا الموضوع.
- ولم لم تخبرني؟
- لأنه لا شأن للنساء بمثل هذا الموضوع. - ابتسم دو إيدى شفاليه، وأضاف دون قصد إلى الافتخار: - ولكنني لا أكتفي ما أفعل: أورليان لن يعترض طريقك بعد الآن. والآن أنتظر الخبر السار.
- هذا لا يقال في مثل هذا الموضع لأنه أمر مقلق لنا كلينا يا إيدى...
- ارتجف صوت عائشة بعدما هاجت الآلام التي قضت فيها نهارها كله.

IV

حين سمعت ماري — أنجيليك صوت العربية تقدمت إلى النافذة، وملأ رأت الكونت أوغستين يخرج منها ضحكت.

— انظروا إلى من يأتيني؛ كم هو مُضَعَّضُ الجسم! أنا من يعاقبه الله. وهو الآخر يعود إلى عاجزاً يحتاج إلى من يعني به... يا لمصيبي مع آل فيريول! يا لبؤسي إذ كتبت على جبيني أن أعيش مع هذه الأسرة العاجزة المنحوسة! وانظر إلى عائشة ذات الساقين الطويلتين كيف تستقبله بما لا تستقبل به والدها. ولداتها كأنه هو من رباهما. وصوفي ذات الساقين العوجاويين ماذا تزيد؟... أنا التي لم يبق لها في هذا البيت، بل في باريس كلّها، شيء إلا لاروش المزيل أنفُس به عن ضيقه... ولكن هذا القادر كان لا فرح له غيري... —

تفقدت ماري — أنجيليك الكونتيسة هيئتها بسرعة أمام المرأة، ثم هرعت إلى زوجها: — تفضل إلى بيتك، انتظرناك طويلاً، لابد أنك مرهق كثيراً على هذا الطريق المتعب. نعم، وأخوك الأكبر انتظرك طويلاً... أين تذهب وأنت تكاد تنتهي من مشوار الطريق؟

— ما أشدّ صخبك أيتها الكونتيسة! — تجاوز أوغستين — أنطوان المرأة بهذه الكلمة.

— صحيح، يا للحسنة، أكيد اشتقت لأخيك الوحيد... — تبعت ماري — أنجيليك زوجها الماشي كالدب قائلة في نفسها: "لم يهتم بي رغم كونه في ذلك المكان النائي"

اغرورقت عينا شارل دو فيريول حين رأى أخيه، ثم سالت دموعه لا يستطيع لجمها على خديه.

- لا تبك يا بابا! — نصحت عائشة الكونت ومسحت خديه رغم أنها هي الأخرى انفعلت وغالبت دموعها. ثم قالت له باسمة: أوغستين وصل.
- نعم يا شارلوت — إليزابيت أيسيه — قال الكونت وهو يستعيد هدوءه — لم نعد وحدنا أنا وأنت.
- ما الأمر يا كونت؟ لا أريد أن أحزنك — أسرعت ماري — أنجيليك، ونبرة العتاب في صوتها أقوى من نبرة الغضب — ألم يقع في هذا البيت الكبير غيركما فتبقيا وحدك؟!
- وما شأنك أنت بهم يا كونتيسة؟ — قال شارل دو فيريول وكأنه سليم تماماً، ثم ابتسם — من في هذا البيت يهتم بي، ويدخل الفرح إلى قلبي غير شارلوت — إليزابيت أيسيه؟
- يا بابا! — ارفع صوت عائشة وقسا.
- ما الأمر يا أيسيه يا روحي الوحيد؟ أقلت ما لا يجوز إلى "سلفتك" الكونتيسة؟ وأنت يا أخي ماذا سمعت حتى تتعجب؟ أليس وضعنا هكذا يا أيسيه؟... — حين نهضت عائشة بوجه شاحب والحياة يأكلها، وهبت بالخروج من الغرفة تضرع إليها الكونت بقلب محطم: — أيسيه، يا ابنتي أين تذهبين؟ لا تتركيين مع هذين وحيداً. وإن كنتما لا تعرفان قلت لكم: أنا رأس آل فيريول، وستطيعونني ما دمت حياً؛ أتفهمونني؟
- بديهي أن نفهم — حين رأت ماري — أنجيليك شقيق زوجها ممتليء العينين بالدموع أسرعت تؤيده تزيد أن تكسب رضاه — ألسنت أنت حامي آل فيريول وأملهم؟!
- نعم، أنا — تصليبت كتفا شارل دو فيريول من المديح — أأنت من يسأل عنه الملك؟ أأنت من بعث إليه أورليان؟ أتسمع يا أوغست؟ ماذا حدث لك الآن

فُتُّجهُشَ بالبكاء؟ أنت أيضًا مثلِي رقيق القلب. تعال وَدَعْنِي أعانقك. أترون ما أرق قلب هذا الإنسان وما أطيه؟ - هَدَّا ماري - أنجيليك وعائشة اللتين اتفقنا باليون على مغادرة الغرفة: - كفى يا أوغست، يمسح كُلُّ على الآخر أمام النساء... أنت من سيليني في زعامة آل فيريول. اجلس مكانك. أوصيك: لا تدع للحزن مُحَلًا في قلب ماري - أنجيليك ولا شارلوت - إليزابيت أيسية الكوتيستين! أنا راض عن زوجتك سوي أنها كانت تحمل السُّؤال عنِي أحيانًا. غير أن شارلوت - إليزابيت أيسية لا تغادر إلا بإذن مني.

"نعم، نعم، هذه التي تسميها "سلفي" ومتذمها" - قالت ماري - أنجيليك وهي تبتسم في قلبها - تجري وراء شفاليه وهي تعرف أنه لن يتزوجها، وأنَّت ما يُدرِيك بالأمر؟... وهذا الجالس في حضرتك أخوك لن يصدقك. لا أعرف ماذا سيكون موقفه إن رأى بعينيه واصطدم بالأمر بشخصه؟ تأملت في أيسية اليوم، ليس في مناداتها "سلفي" ما سبب لها الحزن، هل سمعتها أول مرة الآن؟ لم تعد جميلة كما في الماضي. أ يكون هذا الكونت الجنون - العاقل كتب لها بالإضافة إلى أربعة الآلاف ليرة أملاكًا أخرى مما تأمل فيها نحن فيكون حقق لها ما ترِيد؟ إن كان العينيد ذو إيدي شفاليه يعرف هذا فلا أعرف وقتها... لا نعرف إلى الآن كيف ستتصرف الفتاة الشركسيَّة المخادعة التي لا نعرف أصلها. سبقي حينها - لا سمح الله - بلا شيء. وهذا الأخوان الأهبلان لن يعيشَا الدهر. أُبقي في آخر عمري تحت رحمة "سلفي" التي لا أصل لها... إن لم يكن في الأمر لُغَزٌ فلماذا أناط بي تربية هذه الفتاة العجفاء؟ هذان في أمرها سُرٌّ. ألا ترى كيف صارت وقد تغيَّرَتْ أنفها وشفتها؟ وجلدها أصفر بلا جمال. تشبه تماماً كلودين حين حملت. أخبار هذين عند صوفي. ولكن كيف ستحل عقدة لسانها؟ لماذا لا أغريها ببعض النقود فمن يكره المال! ربما تفصح نفسها"

حين هبت ماري — أنجلييك مما يصدع رأسها وجدت لنفسها حجة:

— إمشي يا شارلوت — إليزابيت أيسبيه نترك الأخوين يشبع أحدهما من الآخر!
— نحن الأخوين، أيتها الكونتيسة، حين التقينا وعائق أحدهنا الآخر قلنا ما نريد قوله. أوغستين — أنطوان جاء من سفر بعيد، يجب أن يستريح. أمامنا المساء والغد. وبعدهما أيام وأسابيع وشهور وسنوات. أعيدي على قراءة تاريخ شفيصار الذي قرأناه أمس إن لم تكوني متابعة يا أيسبيه. وصديقنا جولي كالاندرین أليست من جنيف؟ هذه مدينة ممتازة وببلاد كاملة. وإن لم أخطئ أليست شفيصار هي التي انتقلت إليها مادلين من فرنسا برفقة ابنها الصغير؟ ما أخبارها يا ترى؟ أليست هي من حملت هنري دو فارج على إطلاقها من السجن؟

— هذه التي تذكرها يا شارل لم تكن من مغارفي — أجاب أوغستين — أنطوان الذي كان جالساً إلى الآن صامتاً بجسم ورقة متهدلين. — ولكن زوجها أرمان رينوا كانت أعرفه معرفة محدودة. كان طافحاً بالرجلولة، وما إن ولد له الصبي حتى مات بأيدي البروتستانت الفرنسيين.

— برافو أوغستين! — صفق شارل دو فيريول لنفسه. — أنت وأنا، كل وحده، بيهضت وجهي من سمعة سيئة نشروها عني. أسرعت يا ماري — أنجلييك الكونتيسة؟ كيف لم تسمع كلودين — ألكسندرین به؟ هكذا يمكن اتّهام الإنسان بما ليس فيه! ليس احتماءً من الأخبار السيئة التي أذيعت عني، ولو كانت عندي مثل هذه الهيئة لما قلقت على مستقبل شارلوت — إليزابيت أيسبيه...

— بابا — أسرعت عائشة — أليس عندي بون دو فيل وأرجنتال أخواني، وماري — أنجلييك ماما؟

- نعم، نعم — أسرعت ماري — أنجيليك التي كانت ت يريد أن تسحب زوجها من الغرفة بسرعة. — وليسوا وحدهم. وكلودين — ألكسندرین أختها. أليس صحيحاً يا أوغست؟ — ولم تنتظر الجواب: — تعال يا كونت، استرح قليلاً من تعب الطريق. ولا يزال أمامك طريق طويل — "كأن هذا الجني حين رأى أخيه الأصغر عاد إليه الوعي، كم يصطنع الفطنة!" وفيما تخاطب نفسها بهذا الكلام وجب عليها أن تتوقف عند الباب.

- يا كونتيسة! — نادى شارل دو فيريول كنّته — متى ستذهبين أنت وشارلوت — إليزابيت أيسيه إلى عقارنا البعيد بون دو فيل؟ بين اليوم والغد تفوتان أيام الخريف الصافية. أوغستين — أنطوان عاد إلى باريس ولذا لن أبقى وحدي في البيت. أسمح لكما بالسفر. وكما أوصيتك يا شارلوت — إليزابيت أيسيه، التعمسي أخبار مادلين وابنها وطمنيني. لحظة يا كونت أوغستين — أنطوان، لا تُسْئِ إلى ماري — أنجيليك بسبب كلمة صدرت مني. وأنت لست في صحة ممتازة. ومهما أنكما صرتما في جبهة واحدة فليحرضن أحدهما على الآخر! ولستحلي بالصبر. لن يغفر الله لكم ذنبكم ما تقوتما في حضرته. ماذا قلت يا شارلوت — إليزابيت أيسيه؟ — تغيرت سُحنة شارل دو فيريول دون سبب واضح فسأل بعينين لامعتين — ماذا كان اسم السلطان التركي الذي تنازل لي عن ولايته؟

- سأقول لك يا بابا، الآن ما إن تتناول دوائك. — وقالت لأوغستين أنطوان الذي توقف لِمَا سمع. — لا تقلق يا كونت! أنا سأجيب بابا على سؤاله. لم يتتبادل أوغستين — أنطوان وماري — أنجيليك أي حديث في الموضوع الذي يشغل بالهما ريشما اجتازا الردهة الطويلة. ولكن الكونتيسة التي لم تعد تتحمل وقع خطوات زوجها الثقيل قال:

- والآن ماذا يا كونت؟ من سنين ونحن في هذه الحالة... من لا يره لا يصدق... - لم يقل أوغستين - أنطوان شيئاً ولكن زوجته سأله وقد لاحظت تسارع خطواته: - قل لي قبل أن تدخل غرفتك، لماذا يا كونت تصامت عن أسئلتي؟ ما ذنبي؟ ألم تسمع أخاك الأكبر يوصيك بي؟ ألم سحروك حيث كتبت وأسلوك إلى؟

- لا تقولي يا كونتيسة ما لا ضرورة له؛ أنا متعب!

- ومع ذلك أبعدتكم بصعوبة عمن كنتم تجالسهم. - حين هبّ الكونت الآن كدبٍ غاضب غيّرت الكونتيسة سلوكها بحيث لا تعرف إن كانت هي من تتحدث قبل قليل - نعم يا أوغست، من الصبيق أقول ما لا نفع فيه. ما إن تخرج من الحمام حتى تراني جاهزة لك فأنسنيك كل ما يشعل على قلبك. لن أدعك تذهب إلى غرفة الطعام، سأوصي أن يأتوا به إلى غرفتنا فنجلس قليلاً نتحدث. دعنا نحن أيضاً نمتع أنفسنا ولو في شيخوختنا.

- يا كونتيسة! - توقف الكونت الذي كان انصرف كدبٍ يقف على قائمته الخلفيتين في وجه من يستضعفه، وقال: - وهل أنت عجوز هكذا؟

- هذا سنعرفه يا كونت - تأملت ماري - أنجليليك بنظرة مخادعة ومتولدة وجه زوجها - حين تأوي إلى الفراش. ولكن أعرف طبيعتك، لن نستمع بحلاوتنا لأن الحياة يغلبك.

- لا تفكري على هذا النحو؛ اشتقت إليك.

لم تُظهر ماري - أنجليليك على نفسها عدم استمتاعها التام. ولاطفت الكونت قائلة لنفسها: لن أدع هذا الأبله يرتاتب في شيء:

- الله شاهدي يا أوغست، أمعتنى وأنت تذكرني بشبابي... أدر ظهرك يا روحي لأنني أريد أن أخض.

- ماذا جرى لك الآن يا نوري؟ - ابتسم الكونت الذي يرتدي على ظهره قميص اللبنة. - ألسن من طلب رفع الحياة ما بيننا!

- لننس في الوقت القصير الذي نجلسه هنا الابتدال الذي مارستاه في الفراش. وإلا فلن نلتذ في المرة القادمة. ما يجري في الفراش له أساليب كثيرة حقاً - نادت ماري - أنجلييك حين رأت زوجها يرتدي ملابسه ببطء: - إذن ماذا تفعل وأنا أمدحك؟!

- نحن نلتذ غير أن أخي الأكبر هناك ينتظري لا يعرف ماذا حصل لي. "يكفيه ما جرّب من النساء... قبل أن يسافر إلى تركيا، وفي غيابك، يكفيه ما كان بيننا نحن الاثنين... كان رجلاً حقيقياً لولا أن الإفراط في النساء دمر عقله. يا للقرف، لا رأيُّ نفسي في فراشه وللعاب يسيل من شدقته! وأيسه العجفاء ذات الساقين النحيفتين ليست بريئة. لا شيء تتوعد عنه إذا أغريتها بشيء من المال..." - أيدت ماري - أنجلييك زوجها وهي تردد في نفسها.

- وهذا حق يا أوغست... البائس الذي في انتظارك... لا تصدع رأسك بكل ما يهذي به، لا تُطل جلوسك إليه - تابعت بنظرها الرجل الممتليء الذي كان يعبر الباب بصعوبة قاتلة في نفسها "وكيف يمتعك مثل هذا الرجل؟" ولا تنس أني لن أدع فراشك يبرد.

لم يغب أوغستين - أنطوان نصف ساعة. وحين دلف إلى الغرفة التي تنتظره فيها كانت ماري - أنجلييك على الفراش تشرخ بكل قوتها فاردةً يديها ورجليها، وطرف لحافها على أرض الغرفة. وأطراف شعرها متباشرة على الوسادة. وخداتها الأبيضان ظاهران من فرجة القميص. وحين نظر أوغستين - أنطوان الذي امتلاءاً يأساً من حال أخيه إلى زوجته تصبر رغم اشتهاهه إليها كي

لا يقطع نومها السعيد. وما إن مدد يده إلى طرف اللحاف على الأرض حتى
أفاقت الزوجة:

ـ هذا أنت يا أوغست؟ سألت ماري ـ أنطوانيت وهي تزيح شعر رأسها
الأشقر من أمام عينيها.
ـ أنا، أنا؛ أطمئني!

ـ لأجل هذا يقولون: المرأة ترتاح إلى الرجل. بقيت أنتظر وأراقب الباب حتى
غفلت. هل غبت عند الكونت وقتاً طويلاً؟

ـ لم نكدر نجلس حتى غلبه النوم فأرحته ورجعت.
ـ هل أساء إليك؟

ـ لا، ابتسם أوغستين ـ أنطوان ـ متعدد. ورغم أنه سأله من أنت؟ فقد
تعريفي شيئاً فشيئاً.

ـ افرح إن لم ينهرك أو يشر عليك! لماذا لا تأوي إلى الفراش يا أوغست؟
ـ كنت أتمنى أن أعود إلى غرفتي بعد أن أغطيك.

ـ ألن يسعنا هذا الفراش الكبير؟ ألا يكفي ما أمضيته من سنين وحيدة وأنا
عندك زوج وليس عندك. أم ـ ابتسمت له برياء ـ تخاف أن أخْ عليك في ما
لا تريده؟ ما متعنتي به يكفيك سنوات. نعم إلى جانبي يا كونتي الجميل. ـ
سألت الكونتيسة الرجل الذي خلع بكل تكاسل: ـ لم تخبرك أيسبيه بشيء
يتعلق بأخيك؟

ـ لا، وماذا ستخبرني أيسبيه؟
ـ وكيف أعرف؟ ـ كلتنا مربوطتان إلى الكونت. توقفنا عن زيارة "أبلون"
و"بون دو فيل"، صارت من الماضي. انتظرناك طوال الصيف حتى نزور بون دو

فـيل... الكـونـتـ المسـكـينـ، وأـنـتـ تـرىـ، يـصـبـحـ الـاعـتـنـاءـ بـهـ أـصـعـبـ يـوـمـاًـ بـعـدـ يـوـمـ.ـ
كـنـاـ نـرـيدـ اـسـتـشـارـتـكـ فـيـ شـأـنـ الـبـحـثـ عـنـ مـشـفـىـ أـوـ غـيـرـهـ...

- يـاـ كـوـنـيـسـةـ!ـ رـمـيـ أـوـغـسـتـينـ -ـ أـنـطـوـانـ الـغـطـاءـ عـنـ جـسـدـهـ،ـ وـجـلـسـ وـسـطـ

الـسـرـيرـ -ـ أـيـ عـيـبـ هـذـاـ الـذـيـ فـيـ ذـهـنـيـكـمـ؟ـ أـنـاـ وـحـدـيـ كـفـيلـ بـالـاعـتـنـاءـ بـهـ.

-ـ نـعـمـ يـاـ أـوـغـسـتـ -ـ عـانـقـتـ مـارـيـ -ـ أـنـجـيلـيـكـ زـوـجـهـ -ـ وـلـمـ لـاـ تـعـنـيـ بـهـ؛ـ لـيـسـ

لـهـ مـنـ هـوـ أـقـرـبـ مـنـكـ.ـ وـهـوـ الـذـيـ رـعـانـاـ طـوـالـ عـمـرـهـ.ـ وـلـاـ يـزـالـ يـنـفـقـ عـلـيـنـاـ

وـطـبـعـاـ نـحـنـ أـقـرـبـوـهـ.ـ لـأـنـاـ لـاـ نـرـيدـ أـنـ تـحـمـلـ عـبـثـهـ.ـ وـنـحـنـ لـوـلـاـ أـنـاـ نـسـاءـ مـاـ كـنـاـ

شـكـوـنـاـ جـمـلـهـ.ـ اـطـمـئـنـ يـاـ روـحـيـ،ـ لـمـ نـقـلـ شـيـئـاـ وـأـنـتـ لـمـ تـسـمـعـ شـيـئـاـ.ـ وـرـغـمـ وـضـعـ

أـخـيـكـ فـنـحـنـ نـشـتـاقـ إـلـيـهـ إـنـ مـرـتـ سـاعـةـ وـاحـدـةـ.ـ مـاـ أـشـدـ شـفـقـتـهـ وـرـحـمـتـهـ،ـ نـجـبـهـ.

بارـيسـ كـلـهـاـ تـسـأـلـ عـنـهـ.

فـالـ أـوـغـسـتـينـ -ـ أـنـطـوـانـ دـوـ فـيـرـيـوـلـ الـذـيـ هـدـأـ مـعـ الـكـلـمـاتـ الدـافـعـةـ لـنـصـائـحـ

زـوـجـتـهـ:

-ـ شـكـرـاـ يـاـ كـوـنـيـسـةـ عـلـىـ تـفـهـمـكـ لـيـ.ـ وـفـيـ وـمـوـضـعـ بـوـنـ دـوـ فـيـلـ وـأـبـلـوـنـ أـنـتـ

عـلـىـ حـقـ.ـ إـذـاـ أـهـمـلـتـ هـذـهـ الـأـرـضـ تـحـوـلـتـ بـوـرـاـ.ـ اـذـهـبـوـاـ إـلـىـ بـوـنـ دـوـ فـيـلـ؛ـ الـخـرـيفـ

فـيـهـاـ صـحـوـ.ـ وـاسـتـرـيـخـوـاـ فـيـهـاـ.

-ـ لـاـ،ـ لـاـ يـاـ أـوـغـسـتـ.ـ لـاـ أـسـتـطـعـ أـنـ أـتـرـكـكـ إـلـىـ جـانـبـ أـخـيـكـ الـمـرـيـضـ وـأـنـتـ

قـادـمـ لـلـتـوـ.ـ إـنـ عـشـنـاـ فـإـلـىـ الصـيـفـ وـالـخـرـيفـ الـقـادـمـيـنـ.

-ـ هـذـاـ مـمـكـنـ،ـ وـلـكـنـيـ أـرـيـدـ أـنـ تـسـتـرـيـخـوـاـ فـيـ خـرـيفـ هـذـاـ عـامـ أـيـضـاـ.ـ لـاـ تـقـلـقـواـ

عـلـىـ الـكـونـتـ،ـ نـحـنـ سـعـنـيـ بـشـؤـونـهـ.ـ أـرـىـ أـنـهـ لـمـ يـتـبـقـ لـهـ الـكـثـيرـ.ـ اـنـكـسـرـ صـوتـ

أـنـطـوـانـ -ـ أـوـغـسـتـينـ.ـ إـنـ لـمـ أـحـقـ لـهـ هـذـاـ فـمـاـ سـيـقـىـ؟ـ

-ـ نـعـمـ يـاـ أـوـغـسـتـ،ـ يـاـ حـسـرـتـيـ...ـ عـانـقـتـ مـارـيـ -ـ أـنـجـيلـيـكـ زـوـجـهـ وـهـيـ

تـمـسـحـ بـيـدـهـاـ عـلـىـ جـسـمـهـ.ـ وـأـنـاـ لـيـسـ عـنـدـيـ أـمـلـ فـيـ هـذـاـ الـمـسـكـينـ...ـ إـذـنـ،ـ

إن سمحت لنا، فالله يحمينا وإياكم، سنسافر... — ثم أنهت الحديث بما تريده:

— لا أعرف ماذا سيحدث لي في الطريق البعيد، أنا أشكو من ارتفاع الدم إلى رأسي؛ لو رافقنا الدكتور لاروش كان أفضل.

— وأنا فكرت في هذا. اصحابوا لاروش، ونحن هنا سنبحث عن طبيب متخصص أكثر منه في مرض شارل. — أوغستين أنطوان بين يريد ولا يريد، وكيف تشك في ما لا تعرفه، وافق على ما ألحّت عليه المرأة.

ولكن ماري — أنجلييك حين تفكّرت في ما كانت تريده، عرفت أن هذا التصرف له عواقب، فغيّرت بسرعة:

— حسناً، لا أريد أن أؤذي الكونت في الطبيب الذي اعتاد عليه. لا بد أن نجد طبيباً ما حيث نسافر.

"الطريق يحضرُون له طويلاً ولكنهم سرعان ما يركبونه" شهدت رحلة ماري — أنجليك إلى بون دو فيل على صحة هذا الكلام. ففي اليوم الثالث كانت العربية على بوابة آل فيريول.

كانت عائشة، دون أن يبدو عليها، مسروبة بالرحلة أكثر من ماري — أنجليك التي كانت تردد "على أي حال، ستنتهي، وسنرى قطعة الأرض الجميلة، وننحيمها". الأمر الوحيد الذي كان يريحها ليس ابعادها عن الرجل الذي كان يسبب لها الحرج باشتئائه لها، ويجلب لها الشقاء شارل دو فيريول، مع أن قلبها كان يتأنم حاله، دون تodium بون دو فيل وأرجنتال على نحو متمهل، وعدم إخبار جانيت — نيكول بوجهة سفرها، إذ شُبعت بكاء في ليلة سفرها على هذه الأمور، فعند الضرورة كلُّ وتدبيه لأمره، بل كان إخفاوها لحملها بالمشد، وإخراج سرها المخجل من بيت آل فيريول، ومن باريس التي لا تفهمك، هذا فقط ما كان يريحها.

أهذا فرح أم تعير حظ؟

في العربية التي تركت باريس وراءها واتجهت إلى الشرق، إلى بون دو فيل غير بعيدة عن حدود شفيصار، ثلاثة نساء: ماري — أنجليك الكونتيسة، وعائشة وصوفي. وهن فرحتان بإنصافهن إلى عجلات العربية وإيقاع حوافر الأحصنة، ورؤيهن لسفوح الجبال والغابات، غير أن قلوبهن غير متجانسات كما أن ما يرينه كذلك.

وعلى ما تذيع ماري — أنجليك عن نفسها، فهي مسروبة لأنها تخلصت من حمل أسرة آل فيريول الثقيل، وواجباًها التي لا تنتهي ومشكلاتها. ولكنها قلقة

قليلاً لما يتظرها في بون دو فيل، وما سيجري عليه برنامج استراحتها وعدم اصطحاب لاروش، ونادمة قليلاً عليه.

ولا يقتصر الأمر على ما سبق، بل يتعداه إلى شكها في عائشة، هل سيصدق حدسها فيها أم يخيب. وتفكر في الطريقة التي ستتأكد بها: "إذا لاح من بطنها الصغير ما تخفيه فِيم ستحجج؟ وماذا ستفعل؟ جنس النساء الذي يخلق الله الرجال متهافتين عليه جنس ضعيف. – تحمل طوال عمرها ضعفها سواء بإرادتها أم رغمها. المسكينة كلودين تخفي مشاعرها نحو ولدها ولكن من يعلم ما يجري في داخلها. كم قلت لها أن تُسقِّطه بأي طريقة! الدين لا يقبل، والله لن يسامحني، ووافقتها أخونا الأسقف بيير فلم تطعني. أ تكون أيسية تشكو من العَرَض ذاته؟ إذا كان الأمر هكذا فلماذا تجحّشت عناء السفر الطويل؟ أُنطَلعني على حقيقة أمرها إذا وصلنا إلى بون دو فيل؟ وإن لم تُطلعني فمن يا حسرتي تُطلع؟ ومن يا ترى الأب؟ الكونت أم شفالبيه؟..."

ومع أن عائشة التي يُهظُّها المشد الثقيل كان لديها الكثير لتفكر فيه فإن ما تراه من خلال نافذة العربية يُلهيها عن هذه الأفكار.

– انظري يا ماري – أنجيليك يا ماما ما أجمل الغابة التي على سفح الجبل!

– تتعجب عائشة مما ترى – مكسوّة بخشيش ملون من ارتفاع واحد.

– نعم يا أيسية، وأنا لاأشبع من تأمل جمالها. يا للحسنة كُلُّ يفقد جماله في حينه! – تنهدت ماري – أنجيليك، ثم أضافت: – خلال شهر ستكتسيها الرياح الباردة.

– ومع ذلك – وعائشة لا تغير رأيها – ستكتسي في الربع القادم بالأوراق الخضراء.

- ليس نصف سنة قليلاً بالقياس إلى العمر... - ابتسمت ماري - أنجلييك، مع أنها تنهدت، قائلة في نفسها "م يحن بعد وقت أكتشافكما هذا".

- من كان جميلاً في زمِنِ ما يبق فيه نسُعُ جماله - قالت صوفى ومدحت ماري - أنجلييك: - أنظر إليك يا كونتيسة فلا أرى شيئاً تغير فيك منذ عرفتك، ما تزالين على جمالك!

- شكرأ يا صوفى - أضاء فرح ماري - أنجلييك وجهها - على العين التي ترينى بها. نعم، حافظت على حالي رغم أني أنجبت ولدين، اعتنقت بنفسي، وما أزال، ولذلك أنا جميلة. صحيح ما يقال من أن المرأة التي تنجب تصبح أجمل. انظرا، لا أكتم، ليتكما رأيتمني أيام العزوبيّة. كنت أجمل بكثير من أختي. ولكن أكذب إن قلت إني أجمل من أيسىه. لا تغترّي بما قلت يا أيسىه فتضابي بالغور. - مذحت ماري - أنجلييك مع عائشة واختتمت بما يهمها:

- ولكن في هذه الأشهر الثلاثة أو الأربع تراجعت صحتك، لا أعرف ماذا حدث لك. أراك لا تعتنين بنفسك، ولا يطأوعك قلبك. نعم يا بُنّيَّتِي أفهمُ انشغالك بالكونت المريض، ليس إرضاؤه بالأمر السهل. ما العمل؟ أرهقك. ولست وحدك، نحن أيضاً نشاررك القلق. وينهمني أيضاً شكاوى ديستان ورفاقه. وكلما اشتكتوا زدت في أجراهم.

- ما الأمر؟ - ما سمعته صوفى وترّها - لأن الكونت علم ديستان لعبة الشطرنج، أم لأنه يغفل مع الكونت، يشكو التعب؟

- لن تقولي أصدق من هذا يا صوفى! - غيّرت ماري - أنجلييك كعادتها حين تتجاوز الحدود:

- لماذا نصدع رؤوسنا بمشكلات أسرتنا في الوقت الذي جئنا فيه إلى هنا لنستريح؟ انظرا إلى هذه الشمس المشرقة ما أجملها! سنصل إلى أبلون حين

تصبح فوقنا. ولماذا نحن مستعجلات؟ سنقضي ليلتنا في ملكيتنا وغداً صباحاً
نتابع طريقنا. أليس صحيحاً يا أيسية؟ يجب أن يكون صحيحاً، أنظر إليك
فلا أعرف ما الذي لا يواثيك. - نادت السائس ملحة إلى ما تزيد قوله: -
لا تدع العربية تقدف بنا هنا وهناك، احرص علينا!

النفتت عائشة إلى صوفي وابتسمت. وقالت لنفسها: "ما ترتابين فيه يا ماري
- أنجيليك صعب إخفاوه. ولكن ليس اليوم ولا غداً ولا بعد غد أطلعك عليه.
بل حسب ما أوصتني المركبة ماري - كلير بولينغبروك بعد أن أقابل جولي
كالاندرين... أفهم أني لست عادلة معك. أنت أول من كان على إطلاعها
على ما جرى لي، ولكن لا أعرف لماذا لا أصبح موضع ثقتك. لأنك كتمت
عني حمل كلودين - ألكسندرин؟ ربما كان أحد الأسباب. ولكن لم أكن أريد
أن أفضح سري في بيتي وأسبب العار لأخوي. لا أزال إلى اليوم أتذكر الموقف
الذي اخذاه من كلودين - ألكسندرин. ثم ربما خوفي من أن تقولي "لا تهتمي
بكون الدين لا يقبل، ولا بما سيقول الناس، وأسقطي الجنين" فتحمليني على
أن أفعل ما لم تفعله أختك. ولكن إذا قدر الله هذا فلن أعارضه وأذنب
بحقه..."

مع أن صوفي كانت جالسة ممزومة الشفتين، متحفزة لحماية عائشة فلم يكن
بين النساء الثلاث عداء سافر.

كان طريق بون دو فيل سهلاً على عائشة بعكس ما توقعت. ربما بسبب نقاء
الهواء ونعومة النهارات فقد نسيت هي ورفيقاتها كل مصاعب الطريق الطويل
في يوم وليلة. وبدأن بالاعتياد على رائحة الطعام في غرفهن الخاصة وفي غرفة
الطعام. ومع أن آل فيريول غابوا عن البيت قرابة ثلاثة سنوات فالعمال
المستأجرون يحافظون على الملكية نظيفة تماماً. والخدم في الدار الواسعة لا

يكفون عن العمل. والدجاجتان الذهبيتان المبسوطتا الجناحين كالملروحة تدبّان مغترتين بجماليهما. وبقرة حلوب في الإسطبل المقابل للبيت. وعلى جدار المسطبة عُلِّقت الجرار التي يحفظون فيها الحليب. وأشجار الإجاص والخوخ ما تزال تحمل نتاجها. والعنب الذي موسمه الآن يتدلّى من العرائش. وسلامس من البصل والثوم وعرانيس الذرة معروضة للشمس. والعصافير تتنادى في ذرا الأشجار.

— أترین يا أيسيه ما خِرمنا منه كل هذه السنوات؟! — قالت ماري — أنجيليك الكونتيسة وهي في الأرجوحة المعلقة بالشجرة. — لا يجوز أن نحرّم أنفسنا من مثل هذا العالَم الجميل. انظري هناك جهة شفيسار كيف تصيء قمم الجبال البيضاء. فنساناً جميلة ولكن إن شاؤوا أم أبوها فهذه البلاد أحلى. إنها كالجنة. قبل أن نأتي إلى هنا لم يكن على لسانك إلا الرغبة في زيارة جولي كالاندرین. والآن، عجباً، لا تقولين شيئاً.

— إن قلت لنذهب إلى كالاندرین اليوم فأنا جاهزة — جعل السؤال المنتظر عائشة تسرع في الإجابة.

— ألا يمكن أن تذهبين أنت وصوفي وحدكما؟

— يمكن، ولكن أليس الأفضل معك؟ — سألت عائشة الكونتيسة من خارج قلبها.

— كفانا يا أيسيه نذهب دائماً معاً! استريحي أنت ودعيني أنا أستريح. قالت ماري — أنجيليك دون خبث، واختتمت بمحنة: — لا تخافي؛ لا أحد يتقصدني هنا. غير أن الدنيا مركبة من المفاجآت، الله أعلم...

— كم يمكن أن نبقى عند جولي يا ماما ماري — أنجيليك؟

- ابقيا بقدر ما تريدان - أجبات الكونتيسة وصورة الرجل الذي تعارف
أمس هو وعائشة مائلة في ذهنه حلوةً - أنتما لن تشتاقا إلى أبداً، ولكنني لن
أستطيع العيش دونكم... وفي حال الضرورة الحق بكم. لا تسافرا الآن
فالوقت متاخر، غداً تطلقاً - ألقت ماري - أنجيليك نظرة ارتياش وراء
المرأتين اللتين تصرّفهما من الغرفة، وصاحت وراءهما: - يا صوفي، حمالة صدرى
تخرّشنى، ولا أعرف لماذا لبستها. فُكّيها لي، واغسلى لي رجلي بالماء الفاتر. لا
يا أيسى، شكرًا. استرجعي! يدا صوفي تريحانى أيضًا كما يداك. من حظى
وجودكمَا الاثنين معي.

عرفت عائشة أنها، ولو أنها أخفت عن ماري - أنجيليك حالها إلى الآن فقد
غداً مستحيلًا. كانت منذ أن حملت تفكّر في إخبارها غير أنها تؤجل من يوم
إلى آخر حتى فوّتت الوقت. اغورقت عيناً عائشة، ولكنها هدأت وهي تلوم
نفسها: "لم أتصرف على نحو حسن تجاه من ربّتني كل هذه السنين. كانت هي
أول من يجب إعلامها. فهمتني جانيت - نيكول وآل بولينغبروك وصوفي.
وأمل أن تفهمني جولي التي سأسافر إليها غداً، وأن تساعدني. يبدو لي أنني
تناسيت معروف ماري - أنجيليك بسبب بعض ملاحظاتي عليها. أتعجب إن
كانت تريد معرفة كل شيء والتحدث في كل موضوع؟ هي من هذه الطبيعة.
تتأملني - أبتسّم لها، تناوري في الكلام - أغير الموضوع. إذا سألتني صراحة
عما تشـك فيه فبـم أجيـبـها في الحال عـما لـن أـسـطـعـ كـتـمـانـهـ؟ وكـيفـ أـنـظـرـ في
عـيـنـيـهاـ؟ أـفـاتـحـهاـ قـبـلـ أـسـافـرـ إـلـىـ جـوليـ أـمـ بـعـدـ؟ لاـ يـزالـ عـنـديـ مـتـسـعـ منـ
الـوقـتـ. يا عـائـشـةـ شـارـلـوـتـ - إـلـيـزـاـيـتـ أـيـسـيـهـ لـمـاـذـاـ أـنـتـ بـهـذـهـ الحـالـةـ؟ـ -ـ نـهـرتـ
نـفـسـهـاـ وـهـيـ تـنـادـيـ نـفـسـهـاـ بـاسـمـهـاـ الـأـدـيـغـيـ وـاسـمـهـاـ الـفـرـنـسـيـ. نـهـضـتـ عـائـشـةـ

بقدامة ثابتة وكأنها غير من كانت في هذا الضيق الكبير، واتجهت إلى ماري — أنجلييك الكونتيسة.

— يا أيسية؛ أهناك ما يُقلقك؟... نظرت ماري — أنجلييك نحو صوفى التي لم تكن تجد عندها جواباً لشكوكها وسألت من لم تكن تنتظر عودتها.

— لا — فهمت عائشة من نظرات صوفى مغزى السؤال الملحق عليها، فندمت على قدوتها — لا أستطيع البقاء وحدي في الغرفة التي لم أعتد عليها. وقلقة على ما يحدث لبابا هناك.

— وماذا سيحدث عندنا؟ — كان جواب من تكميم فضولها بم三菱قة حاضراً تماماً — الكونت فراشه نظيف، ووثير، يأكل وينام، وينقرأ له كتاب ما. ويلعبون معه الشطرنج... لا تخافي سيعنى به من عهدهنا به إليهم. ولا بأس أن يهتم الكونت أوغستين — أنطوان الذي قضى حياته وراء سعادته بأخيه بعض الوقت. ألا يكفي ما تعناه نحن؟ انظرا ما أجمل الطبيعة! لننسى متاعبنا في وقت استراحتنا المحدود! أتعرفان أحسن ما نعمله الآن؟ أن نشرب بعض النبيذ. أليس صحيحاً يا أيسية؟ لا تتلوّي كثيراً! أعرف، أنت لا تشربين النبيذ... .

— وأنا أيضاً يا كونتيسة — حسمت صوفى أيضاً كأنها مُكرهة على الشراب.

— وأنت ماذا يا صوفى؟ — سألتها ماري — أنجلييك باسمه — أتعرفين في نفسك مشكلة تمنعك من الشرب؟

— لا تظني أن كل من لا يشرب يعاني من أمر ما يا ماما ماري — أنجلييك.

— أجبت عائشة وقد عرفت أن السؤال موجه إليها، قائلة "حسناً فعلت إذ لم أفالحها" — هناك من يوأتיהם ومن لا يوأتיהם.

— قولي لي هل تواطأنا على أن تحييا الجواب نفسه! لا تشربان لا تشربا؛ لا أحد يغيركما. — عرفت الكونتيسة أن مرادها لن يتحقق فغيرت المسار إلى

مزاح: - إن كان هذا موقفكم فسأدعو جارنا الرجل الوسيم إلى الشرب معي.
- سأفعل هذا بعمك أوغستين - أنطوان يا أيسيه. وإن كنت ترينني أمنح،
ليس الآن، بل حين نعود من جنيف. لا تأملا أن أرسلكم وحدكم إلى هناك،
فأنا مسافرة معكم. - غيرت الكونتيسة فجأة موقفها السابق من رحلة
جنيف.

في ظهرة اليوم التالي ظهرت جنيف متناثرة على الذرا غير العالية، وبين السهول
الواسعة والمضائق الطويلة. وبيوثاً غير بيوت باريس الشاهقة - وتغلب البيوت
المستقلة المسقوفة بالقرميد الأحمر على البناءات التي من طبقتين أو ثلاثة. وتبرز
في المدينة قباب الكنائس الكاثوليكية المدببة. والشوارع المتعددة، والمتعرجة،
والباب الصاعدية النازلة، والأشجار المتنوعة، والقرى المجاورة، تزيد اتساع المدينة
وتزيتها. والهواء النقي الحائم فوقها ينعش القلب.

- هذه التي يسمونها جنيف - لم تُطق ماري - أنجلييك صبراً - أتريان ما
أجملها! ما أسعد من يعيشون فيها! نحن لا نجد هواء نستنشقه في باريس التي
تفوح منها رائحة السمك والضفادع. وللملك وأورليان سكنا فيرساي وتريانون
ونسيانا وهما يستمتعان بالشابات الجميلات. ولا يعبأ بما يحدث في أهم مدن
فرنسا وأعزّها... - مع أن الكونتيسة كانت تحدث نفسها فحسب فقد
قاطعت صوفى التي تريد أن تقول شيئاً: - كفى يا صوفى، لا تفزعى، وأنا لم أقل
شيئاً يتعلق بهما، وأنت لم تسمعي شيئاً.

- وهل أهتم بهما كثيراً يا كونتيسة! - أجايةت صوفى بلا مبالاة.
وعائشة التي لم تكتم بشيء من ثرثرة ماري - أنجلييك التي لا موضوع لها قالت:
- أتكون مادلين تسكن في جنيف أم في إحدى القرى المجاورة؟

- أنسيت يا أيسيه – صاحت صوفى التي ما كانت ترفع ناظريها عما أمامها:
- أن الكونت قال إنها في إحدى القرى؟
- من هذه التي تتكلمون عليها دون أن تسمعوا ما أقول و تختما به؟ أهي المرأة الفاجرة التي توسط لها الكونت فأخرجها من السجن؟ وجدتما موضوعاً للحديث! منذ سنوات لم تبق لنا وسيلة للعيش بسبب هؤلاء النساء. وهو لا ينسى المرأة المتحرّة. ماذا يفعل بها و لم يحتاجها؟... بدلاً من أن يحرّص عليك ويرعاك يكلفك بهمّة. لا يا شارلوت – إليزابيث أيسيه، لا أعاتب الكونت المسكين – حين لاحظت الكونتيسة أن ما تقوله لا يعجب عائلة غيّرت الموضوع على عادتها: - ما الفائدة من معابة المريض الذي صار عديم الحيلة؟ ولكن ألا تعرّفين نحن النساء إرضاوّنا صعب. أفضل من هذا أن تأبى على ذكر جولي المرأة الحكيمّة التي نحن مسافرات إليها. هذه ستستقبلكم بطريقة تنسّياني معها، بترحيب حار ونعومة ولطف. لا تظنّاني أقيس نفسي إلى جولي إذ لا أخلو أنا أيضاً من بعض الخير. ولكنني لن أحقّ بها.
- وأنت يا ماري – أنجيليك امرأة طيبة تستحقين أن يغبطك الناس – سأّلت عائلة صوفى، وهي تعرف أن الكونتيسة ستفرّج لمديحها، مفهّمة صوفى ضرورة موافقتها لها في امتداح الكونتيسة إن كانت تستحقه أم لا: - أليس صحيحاً يا صوفى؟
- بديهي، لا أعرف ماذا كان سيحلّ بأسرة فيريول لولا ماري – أنجيليك.
- أيدت صوفى عائلة آلياً.
- كفّاكم امتداحاً لي؛ لا تظنّا أين سأحبّكم أكثر وسأنفّذ رغباتكم إن مددحتماني. - مازحتمها الكونتيسة قائلة في نفسها "لو عرفت سرّكم لسرّني

أكثر من هذا المديح الذي تكيلانه لي. ولكن هذا؛ إن عاجلاً أم آجلاً، واثقة
أنه سيكشف لي".

VI

استقبل أهل البيت ضيفاً هم اللواتي انتظروهن منذ وقت بعيد بترحيب حار. وأضاء الفرح بيت جان – لوبي كالاندرين.

حين يكون اللقاء بعد فراق طويل، بالإضافة إلى أن المائدة حافلة بأنواع الطعام، ستقوم بين الجالسين أسئلة وأجوبة كلّ منها أغرب من الأخرى، ولن تشعر بمرور الوقت. ومهما كانت ماري – أنجيليك تستغرب ما تسمع، وتروي هي أخباراً أعجب، فما كان في ذهنها اللحظة أمر آخر: ستختلي بجولي وستعرف إن كان لديها فكرة عن موضوع عائشة الذي ترتاتب فيه. قالت الكونتيسة مستغلة فرصة انقطاع الحديث بين الحضور:

– أكرمتنا يا جولي ولو فاجأناك بحضورنا. لم نترك موضوعاً لم نتطرق إليه سواء من فرنسا أم من شفيصار. ولكن يجيئ إليّ أن شارلوت – إليزابيت أيسية وصوفي تعبتا على الطريق فلتمنح استراحة للشباب. إن لم تكوني متعبة يا أيسية فلا بأس. ولكن ابني آل كالاندرين رونيه كتة آل ربيه، وابنته الكبيرة سوزان اشتاقت إليك، وأراهما تريدان أن تقولا لك شيئاً، وأنت لا شك عندك أخبار لها سرية أو علنية.

حين خرجت الشابات من الغرفة سألت ماري – أنجيليك جولي:

– ألا تلاحظين تغييراً على عائشة، شيئاً غريباً عنها؟

– أرى عائشة تصبح أجمل، وطبعها أحلى – تجنبت جولي الإجابة على السؤال الذي فهمته، وردت بسؤال: – ما الأمر؟

– ومن أين أعرف – إن كنت ترينها هكذا فهو حسن... ولكن الشاب الممنوع من الزواج شفالبيه الخبيث... تعرفين نحن النساء كيف... لا أريد أن يضحك عليها.

- بليز - ماري دو إيدي شفاليه من معارف أسرتنا. نعرف أنه إنسان رزين، وهو صديق اللورد هنري بولينغبروك، لا أظن الأمر يصل بينهما إلى ما ترتاين فيه نتيجة تعارف شابين ولقائهما. لا تدعني في رأسك مكاناً لهذه الأفكار يا ماري!

- لا بأس إذن يا جولي... الأم، لأنها أم، شديدة الارتياح.

- هذا صحيح يا ماري؛ غير أنني أعتقد أن هذا الموضوع يتداخل بغيره.

- وما هو؟ - ظنت الكونتيسة أنها جرّت جولي إلى الموضوع الذي تساءل عنه فأسرعت.

- أقول ربما ملّت إحداكم من الأخرى!

- هذا هو؟! - سألت الكونتيسة وقد استاءت من تجاهل محدثتها الموضوع، ثم ابتسمت وأكملت: - ليس مستبعداً حصول هذا بيننا.

- إن كان رأيك هكذا يا ماري - فرحت جولي لأن ماري اقتربت مما في نفسها - لي عندك رجاء: إن وافقتِ أودُّ لو تبقى أيسيه إلى جانبي قرابة شهر.

- وأنت هل مللتِ من ابتيك؟ - قبل أن يبرد ما وُجّه إليها أدلت هي أيضاً بدلوها، ولكن رغبتها في الرجل الذي تقرّب إليها سرعان ما لطف موقفها: - إن كنت ستستبقين أيسيه عندك شهراً فهل يحتاج هذا إلى رجاء يا جولي! وليس وحدها: إن لم تشقّ عليك فاتركي صوفي معها أيضاً، ستكون مفيدة لكما.

- وأنت يا ماري، كيف تتدبرين أمورك في بون دو فيل؟ - سألت برياء وإن لم تكن قلقة على الكونتيسة.

- لا تقلقي عليّ يا جولي الجميلة! – وأشارت ماري – أنجليليك إلى نفسِها وقد أشارت ضِحْكَتها وجهها: – ألا تعرفين طبعتي طوال عمري؟ أعتمد على نفسِي في شؤونِي ولا أتوكل على أحد. وحَدَّمُنا أناس طيبون، سأتدبر أمري.

– ثم لامتها وهي تمازحها: – ولكن لم تردي على ما قلت لك بشأن ابتيك.

– وهاتان يا ماري – ردت جولي بمرحة أخرى من لسانها لا من قلبها: – أتظننِي أَنْحَمَا أَحْسَنَ مِنْ أَيْسِيَهُ – ليس منها إلا وجع الرأس. كَتَهُ آل ريه، كما تعرفين، ستعود خلال أيام إلى زوجها في فرنسا. والكبرى فاتها قطار الزواج فنحن في مشكلة. نتوقع أن تتعقل إن جالستْ أَيْسِيَهُ بعضَ الوقت.

– نعم، يا جولي، نعم – أيدت ماري – أنجليليك جولي بلسانها، وقالت في سرّها: – "يا لَهُنَّهُ "الآنسة" التي تتأملان منها العقل!"

وحين مضى الشهر الذي طلبتِه جولي كالاندرلين قالت لعائشة: قضينا المهلة التي طلبناها يا أَيْسِيَهُ – والآن بعدما تجالستنا كَأَمْ وابنتها حتى تألف قلبانا، وبعدما حققتِ لشارل دو فيريول المسكين رجاءه بشأن مادلين، يمكنك العودة إلى ماري – أنجليليك في بون دو فيل.

– ألم يتبين يا جولي أن مادلين امرأة ممتازة من جهة شخصها ومن جهة ابنها؟ أسعدها ذُكْرُ اسم المرأة التي بحثوا عنها ثلاثة أيام – كم كان بابا سيفرخ لو رأى عيشهما وسلوكهما! سأروي كل هذا له. ما أخبار هذا المسكين يا ثُرى؟ أهو مرتاح مع من تركته لهم؟

"لا لاحظ في أَيْسِيَهِ إِلَّا كُلُّ خَيْرٍ. – تعجبتْ جولي مما سمعتْ – لا تنسى أَفْارِحَها وتقلق لأجلهم رغم الأزمة التي تعيش فيها: لا يمضي يوم لا تسأله فيه عنها دون أن تعبأ بما بدر من شارل دو فيريول، وبإهانته لها قائلة "لا يجوز معاملة المريض كإنسان سليم، ولا تعتب عليه" و "بابا" و "أبي". وما أَعْجَبَ أن تنفذ

له الكلمة التي سقطت من فمه بشأن "مادلين" وهي التي لا تعرف عنها شيئاً ورغم حملها. ولم تغفل طوال الشهر عن ماري - أنجيليك المزاجية. وكتبت إلى بون دو فيل وأرجنتال قبل أن يمضي أسبوع على ابعادها عنهم. ظلت تذكر كلودين بالخير رغم فتور العلاقة بينهما. لماذا؟ أهو رباء أم طيبة قلب؟ أي ارتياح في مثل هذه المرأة حرام. " - خرجت جولي من أفكارها، ونصحت جليساتها بلطف شديد:

- أمورك يا ابنتي، وسترين، ستتجلي على خير وجه. ولكن لتكلم ثانية على تطور الأحداث: لا تقتلي نفسك أسي بداعي أن ما حصل لك لم يحدث لغيرك. وآل بولينغبروك وأنا، كما قلت لك، حين تنحل أمورك في سانس، عند إيزابيل - لوينز، نرجوك لا تتركي الطفل في الدير. ستندمدين إن فعلت. اسمعني: الولد ناز شديدة ستحرقك أنت. وآل فيريول أين سيدhibون بك؟ ستعودين إليهم.

- لا يا جولي، لا تراجعَ عما قلته - احرمت عائشة كالجمر وحسمت الأمر:
- لا نعد إلى الموضوع، لن أتسبب لشفالييه بمشكلة.

- لا أعرف كيف يكون مصيرك إن كنت فررت بلا رجعة يا أيسيليه... - تراخي صوت جولي وأضافت إلى كلماتها قائلة: "هذه المرأة التي أحببتهما وامتدحتها امرأة عنيدة": - ما العمل إذن إن كنت لن تطيعينا؟ كما تريدين. حين تعودين إلى بون دو فيل أريخي أعصابك هناك. ولا تختمي بتلميحات الكونتيسة ومناكداتها. ماري - أنجيليك، وأنت تعرفينها، ليست امرأة سيئة. خلال أسبوع تقريباً، في أواخر هذا الشهر، سيزوركم آل بولينغبروك بحجة زيارة "الاسورس" كعادتهم، وسيترجون ماري - أنجيليك أن تصحبهم إلى بيتهم. وستوافق الكونتيسة لأنها لا تمسك شيئاً عنهم. وسيأتي إليك دو إيدى شفالييه

قبل موعد وضِعِك بشهر إلى لاسورس، وسيقودك إلى الدير الكائن في "سانس" الذي ترأسه إيزابيل - لوينز ابنة آل بولينغبروك. فإن أخلت المسألة هناك بعون الله فستعودين إلى باريس. - عادت جولي فلطفت من هجتها إلى من يتأنم قلبها لها وتشفق عليها قائلة في نفسها "أمُ الخطيبة لا أتعس منها" - ما تحتاجينه الآن يا ابنتي هو الراحة ورباطة الجأش. وأنا واثقة منك فيهما. مع السلامة وسفرًا سعيداً. وأينما كنت فتذكري أيني، بعد الله، معك. وإذا عدت إلى باريس فاكتبي لي وأبلغيني ما يجري لك.

تحقق لعائشة ما دعت المركيزة جولي الله من أجله، وما وعدتها به، في بون دو فيل ولاسورس، دون إشكالات، فوضعت حملها في دير سانس. الفتاة التي ولدت لبليز - ماري دو إيدري شفاليه وشارلوت إيزابيل أيسيل الكونتيسة سموها "سيلين" وُكتَبَ في سِجلَ الدير اسمها ونسبها هكذا: " بليز - ماري لو بلون شارلوت سيلين". في 26 نيسان عام 1721 .

VII

هل كل النساء الجميلات محظوظات؟ لا يندر أن يعيش أمثال هؤلاء، في فرنسا، في شركيسيا. ولكن إذا كانت المعنية بالسؤال هي من أنسوها اسمها وأسم أسرتها الأدعيّين بولت آيشت، والتي تحمل اسم شارلوت – إليزابيت أيسبيه فيريول فالإجابة صعبة.

إذا لم يعرف سرّ الإنسان غيره فليس لهذا جواب حاسمًّا أيضًا. ولكن "السرّ الحلو" الذي فعلته ب نفسها انقلب على غير ما توقعت إلى "سرّ مُرّ". وربما لم يكن في ما حدث لها مشكلة كبيرة إذ تحدث في الدنيا حوادث كثيرة من هذا القبيل، وفي فرنسا. حتى لو استأصلت الكلمة "ابن سفاح" القبيحة من جلدك، ولو كان الأديغة قومها يعتبرونه ابنًا لا يُسّى أصله أبد الدهر... وكانت عائشة تحملتها كما تحملت غيرها من المصائب. لو لم تتخلى عن هذا الطفل الذي تعبت عليه كل هذا التعب إلى "لا أحد"، إلى أناس غرباء... ثم إن أباه حيّ، لم ينتكّر له ويرمه، بل يعود معها بالعربية إلى باريس.

يرتسم على وجه دو إيدي الشاحب ما يتصارع في قلبه. لا أحد غيره يعرف ما عاناه قبل في نصف الشهر الأخير، ولا سيما ليلة المخاض. وليس في قلبه ما يُلام عليه حتى لو دان نفسه بما جرى. منذ الساعة التي تعرف فيها عائشة كان حاضرًا للزواج منها دون اعتبار للقسم الذي أقسمه بعدم الزواج. والآن، إن وافقت شريكه الباكية في العربية فهو جاهز تماماً: وكلما طلب منها شيئاً أكتفت بحُزْن رأسها. والصبية التي ولدتها حبيبته "سيلين" سيستردها من الدير، ويأخذها إلى بيت أهلها في مدينة "بيرغور". وإن رفضت أيسبيه فسيأخذها إلى قصره في باريس، ويقيّم لها عرساً لم يشهد مثله أحد ولم يسمع به.

- يا أيسية لا أنصحك بل أترجاك لأني أعرف أنك امرأة قوية، وما يجري في قلبك لا أحد يعرفه غيري. لا تدع المصيبة تُفنيك. قلت لك سابقاً، والآن أكرر: قولي لي "نعم" إذ أصبحنا ثلاثة.

- لا يا إيدي، لا. - لم تدعه عائشة يكمل كلامه. - منذ زمن بعيد أقفلنا هذا الموضوع. ما كتمناه إلى الآن لن تُفشيه بأنفسنا. لابد من حلّ ما...

- لا تتصلبي في موقفك بهذا الشكل يا أيسية! لا شيء لا أفعله من أجلك. ألا تعرفين كم أحبك؟!

- وأنا أيضاً يا إدي! - سالت دموع عائشة الصامتة دون إرادتها. - اغفر لي ضعفي. أوقف العربية!

- هل شعرت بالدوار؟ - تلهّف إيدي ورافق عائشة إلى خارج العربية.

- لا تقلق! - حين احتضنت عائشة شجرة على جانب الطريق وشرعت تبكي بصوت عالٍ اقترب منها إيدي ليهدها - ولكنها ألقت عليه نظرة قاسية لم يعهدنا منها البتة وقالت له: - لا تلمسني!

ترك إيدي عائشة دون أن يرد عليها كارهاً نفسه، كاظماً إياها، وتساءل: "ما أفسى نظرها إلى كأنها تريد أن تأكلني بعينيها؟ أتراني مذنباً؟ لو لا أنها تحملني المسؤولية لما صرخت في وجهي مرتخفة الجسم: "لا تلمسني". لم تتصرف معي بهذه الطريقة ما دام الجنين في بطئها. أيمكن أن تكرهني الآن بكل هذه البساطة؟ ما إن قال شفاليه في نفسه: السماء شاهدي والله رادعي إني لا أجد نفسي فعلت منكراً بحق أيسية" حتى انتشلته من أفكاره أيسية:

- أحزنتك يا إيدي، ساحني!

- لم أسمع ما يهيني يا أيسبيه - ساعد إيدي عائشة في امتطاء العربية بكل حذر ممسكاً بيدها. وفي اللحظة نفسها وضعت عائشة رأسها على كتفه، ونامت.

بليز - ماري دو إيدي يُغدِّ السير نحو باريس ناسياً ما لقى في سانس من مشقة، وما على الطريق، محتضناً عائشة بيده، جاهلاً ما ينتظره بشأن طفلته. ما يمر أمام ناظريه ينعش قلبه، يعبر نهار الربيع الملون، وأسئلة لها أجوبة وأخرى بدونها تترافق إلى الذهن. "لماذا يُخلق الإنسان؟ ولماذا يعيش والأحزان والأفراح تفهي؟" الحزن حزن، ولكن هل الفرح يُفني أيضاً؟ ضحك شفاليه من نفسه - هذا اليوم الربيعي جميل ولكن ما فائدة جماله إن لم أحسن به؟" ومن رأسها الجميل على كتفك تنيمها عليها، أهي أيسبيه؟" صدر السؤال من صوت ليس لها فقد أجابه دون تفكير: - "هي حبي في أوقات سعدي ونحسي" "بعدما فعلتما ما فعلتما لماذا تخفيان حبكم؟". "أنا؟" صرخ لنفسه دون أن يعرف جواب السؤال:

- هل قلت شيئاً يا إيدي؟ رفعت عائشة رأسها.
- لا يا أيسبيه! تأمل وجهها وتنحى عن أفكاره المضطربة: - ربيع جميل، نهار متميز.

- أين وصلنا؟

- ندخل "ميلين"

- أقلت "ميلين؟"

منذ أن كانت طفلاً، وفي طريقها إلى باريس، تمثلت أمامها كيف توقفوا عندها وتناولوا الطعام فيها وقضوا ليالיהם في الفندق. تذكرت أنها حين عثرت على مادلين قالت لها الأخيرة "أتذكر، كما لو كان اليوم، أني رأيتكم وأنت طفلة في

المطعم وفي الفندق". "ومتي حدث هذا؟.. والأحداث الكثيرة التي مرت عليّ.
بابا الذي أحسن إليّ فجأة بي إلى هنا صار عجوزاً. ليس الهرم مشكلة، هو
أمامنا جميعاً، ولكن المشكلة مرضه. كيف حاله يا ثرى؟ أنسنتني هومي
الشخصية هذا المسكين. أكانت تركياً أحسن من هنا؟ لو أطعنت فخري
وأورخان وجعلتهما يعيدانني إلى بلدي لربما لم يحدث لي ما حدث. ما فائدة
ذكرياتي الآن بوجود سيلين معى؟ لماذا إذن نتركها بأيدي الغرباء ونعود إلى
باريس؟ أهرب من حظنا العاشر؟

- سنتغدى في ميلين يا أيسبيه.

- لا، لا! - خجلت عائشة من ردة فعلها المتجلية في صوتها - سامحني يا
إيدي، لا أريد شيئاً. إذا كنت تريد الغداء فلتتوقف في مكان آخر. -
واختتمت دون أن تستر ما خطر لها، شامة بالماضي: لا أريد ميلين ولا
مارسيليا ولا ليون.

- إذن، لأنه بقيت مدينة واحدة - ابتسم إيدي في وجهها ليبعث شيئاً من
الروح فيها - سنكمل إلى باريس.

- وهذه لو لم يكن فيها من لم أسدّ دينه ببابا المسكين لربما ما وطئتها قدماي.
لا تتعجب يا إيدي، تكلمنا في هذا الموضوع سابقاً. والآن بعدما حاول بابا أن
يتصرف معي على نحوٍ مهين، لا أزال على كلامي: سأرعاه ما دام حياً لأنني
أقدر ما قدمه لي. ولن أسمح لأحد أن يُبعده. ولكن المكان الذي فيه قلبي الآن
هو سانس... - تقطّع صوت عائشة، ولكنها سرعان ما لأمته فاختتمت قائلة
لنفسها، ومفهمة والد الصبية: - لم يعد لي بلاد غير فرنسا ما دام أمرنا استقرّ
على هذا... - لم تستطع عائشة كبح دموعها الآن أيضاً.

- يا أيسيه يا روح قلبي - ضم إيدي عائشة ومسح على ظهرها: - لا تبكي، ولا تيأسِي! كل شيء سيجري جيداً. وسيلين سترعاها إيزابيل - لوizer وتحسين تربيتها، لا ينقصنا إلا أننا لن نراها كثيراً. وحين تقولين "أنا جاهزة" لنصبح ثلاثة أسرة؛ أتعرفين أين سأخذكم؟ حتى لو لم تجر الأمور كما أردنا تماماً فأننا مرتاح لأنك اعتبرت فرنسا التي فيها عرقى ودمي وطنًا لك، وستجعلين ابنتنا تقدّ فيها جذورها. ولكن لا تنسِي شركيسيا التي تركت فيها جذرَك الحقيقي. سأخذك كما وعدتك، أنت وسيلين إلى القفقاس.

- إيدي، ياحي - نظرت عائشة وقد انشرح وجهها وتورد خداتها للخبر المفاجئ إلى من قال لها هذه الكلمات: لا أحد إلا أنت وأنا يتكلّم في هذا الموضوع. لا تزال شركيسيا أمام ناظري كالشمس الحارقة ولكن لم أعد أحسن بها في دمي كما في الماضي. أ يكون قلبي فارق تلك البلاد؟ ولو أخذتنا إليها؛ أبقي لي فيها إلا أن أبكي جباهها وغاباتها وأنهارها وبارييها ولغتها التي نسيتها وأعود؟ من سيَفهُمنا هناك، ومن سيهتم بنا؟ - أُوشكت عائشة أن تبكي ثانية ولكنها كظمت دموعها بحجة ما تراه - فيرساي تبدو، لم تعد باريس بعيدة. ولأن إيدي لم يعد يريد أن يجرح قلب أيسيه أكثر مما فعل فقد سألها عن البيت الذي سيوصلها إليه:

- أيَّ بيت من البيوت الثلاثة تريدين يا أيسيه أن أوصلك إليه؟
- أيُّ ثلاثة بيوت؟ - رفعت عائشة رأسها فجأة.

- إلى بيت فيريول أم بولينغبروك أم بيتنا؟
- إلى بيت فيريول، بيتنا. لا مكان لي أعيش فيه غيره. - قالت ثم غيّرت: - لا، من أجل ألا يشكّوا في أريد أولاً أن توصلني إلى بيت آل بولينغبروك. ثم

سأطلب إيصالى إلى بيتي. لا تعاتبني يا إيدى يا حبى الوحيد، على أنى ورطتك في قضايا لم تخطر لك.

- كُفّي عن هذا يا أيسى، لا أريد أن أسمع هذا الحديث. - قطع إيدى حديث عائشة بصوت لا ينمّ على عتب - أول من فاتحك بالحب هو أنا لا أنت. لا أعتب عليك ولا على نفسى. ولا أندم على ما قلت أو فعلت. وليس لي أهل في هذه الدنيا غيرك. ولن أملأ لو كررت هذا الكلام ألف مرة!

- سأقول لك أنا أيضاً شكرأ لأنّي أحبك حتى لو كان الحب لا يحتاج إلى شكر يا إيدى. لا تضحك مني! أتصور أحياناً أنه لم يق في باريس، بل في فرنسا، غيرنا يقدر الحب ويحميه. وحتى إن بالغت فليبق الأمر هكذا. ومع ذلك يا إيدى فلنصلّي أيضاً بعض الوقت بشأن بيتك الذي حدّثني عنه لأنّ ما مضى أكثره سيمضي أقلّه. لا تدعني أخلّف عن سداد المعروف الذي في رقبتي فأجني ذنبأ. أتوسل إليك أن تفهمي ولا تجعلني أخطئ!

حين أوصل إيدى عائشة إلى آل بولينغبورو وعاد إلى بيته هاجمه الأزمات التي عصفت به خلال الأيام الماضية بدلاً من أن يستريح. وإذا تفكّر في ما تبادلا من أحاديث على الطريق اعتبر أكثر ما وافق فيه عائشة نوعاً من فقدان الرجولة: "لم أتصرف على نحو صحيح منذ أن أخبرتني أيسى أننا سُرّزق بولد" "إذا سمحت لجمال المرأة وحسن حديثها أن يغرياك أصبحت أبكم أعمى أمامها" من قال هذا؟ مولير أم غيره؟ أياً كان القائل فلن يخرج من فمه أصدق منه. وأنا جرى لي هذا من أيسى... لا يستشير القلب أحداً في من يحبه. حسناً، والآن هل سنعيش لهذا السبب مختلفين؟ أخفينا الطفلة في الدير بذرية أن الناس يعرفون، سيتكلمون علينا بسوء. من سيتكلّم علينا؟ أورليان؟ أم ربيه لودفيغ الخامس عشر؟ أم أمثال كلودين - ألكسندرین؟ أم شارل دو

فيريلو الذي ثُفني أيسيه التي لا أساويها بأحد في العالم في إنسانيتها نفسها من أجله، والذي أدى به فسقه إلى حالته الآن؟ لم يفعل كلاما شيئاً واحداً صحيحاً! أنا كمن أسس أسرة وهو عازب... يجب وضع نهاية لهذا الوضع. ولكن حين أرى عائشة أفقد عقلي دون أن أعرف ما جرى لي" في المساء نفسه، كانت أفكار عائشة التي لم تقبل إلا أن تعود إلى آل فيرييل، رغم أنهم نصحوها أن تخفي ما حلت، جاشت مرة أخرى في ذهنها، حزينة كمن عندها مأتم.

- أطعتك يا أيسيه ولكن لو عرفت أنك ستكونين هكذا ما كنت أوصلك إلى آل فيرييل وأنت متبعة من الطريق - لامت ماري - كلير عائشة وما تراه يمزق قلبها. - فقدت لونك ومظهرك. ألا تعرفين سُحنة ماري - أنجلييك العدائية؟... لنعد إلى عندي ولتعيشي معي إلى أن ترتاحي.

- قال لي دو إيدى شفاليه الكلام نفسه حين أوصلني إلى بيتك... شكرأ لك وللورد هنري؛ حميتما لي سرى. وبيتك مثل بيتي. ولكن إن وجدت نفسى عندنا في البيت ارتحت أكثر منه في أي مكان آخر. هل تعب الطريق مشكلة؟ هذا يئسى في ليلة. ما أعده مشكلة هو ما جلبيه إلى الأبد عاراً لا دواء له للطفلة. سامحيني يا كلير - ماري، وليس سامحني شفاليه على أني ورّطتكما في ما ليس من ذنبكم! وأنا سأحمل ذنبي إلى أن أفارق هذه الدنيا الفانية وأقف أمام الله. - تغيرت عائشة كلياً بلونها ومظهرها وجسدتها، ربما لأنها رضخت أخيراً للذنب الذي جلبيه لنفسها.

نظرت ماري - كلير بعين محبة إلى عائشة، وامتدحتها:
- هكذا كما أعرفك يا أيسيه، وهكذا أريدك!

حين رأى آل فيريول الذين يقضون مساءهم حول المائدة عائشة انقضوا عنها إلا ماري - أنجيليك الكونتيسة. وعندما رأت ماري - أنجيليك بون دو فيل وأرجنتال يعانقان عائشة عناقًا لا نهاية له، ويقبلان وجنتيها لم تملك إلا أن تعنّف ولديها:

- اهداً لحظة وأوصلا أيسيه إلىـ. ما أكثر ما أقمت لدى آل بولينغبروك! شوّقتنا إليكـ. لو عرفتك ستعيّبين كل هذه المدة لما سلمتـك إليـهمـ. يا بون دو فيل وأرجنتال وصوفي انظروا إلىـ أيسـيهـ؛ ألم تـصبحـ أـجـمـلـ وـأـرـقـ وـأـنـحـفـ مـاـ كـانـتـ؟ هل "لاسورس" أـجـمـلـ من بلدـتـناـ "بونـ دـوـ فيـلـ"؟ لـمـاـ دـعـوتـنـيـ ياـ مـارـيـ -ـ كـلـيرـ إلىـ بـيـتـكـ كانـ يـجـبـ أنـ آـتـيـ آـنـاـ أـيـضاـ...ـ نـعـمـ ياـ أـيـسـيهـ لـاـ تـرـيـنـ بـيـنـاـ عـمـكـ أـوـغـسـتـينـ.ـ هوـ عـنـدـ الـكـوـنـتـ.ـ لـاـ تـرـعـيـ غـيـرـ أـنـ حـالـ أـبـيـكـ لـيـسـتـ حـسـنـةـ.ـ كـنـتـ مـهـمـوـمـةـ،ـ دـوـنـ عـلـمـ هـؤـلـاءـ،ـ مـنـ أـنـ لـاـ تـلـحـقـيـ بـهـ حـيـاـ.ـ دـعـيـنـاـ وـاـذـهـيـ وـأـطـلـيـ عـلـيـهـ.ـ لـاـ أـعـرـفـ إـنـ كـانـ سـيـتـذـكـرـكـ.ـ وـأـنـتـمـ بـوـنـ دـوـ فيـلـ وـأـرجـنتـالـ رـافـقاـهـاـ.ـ وـنـحـنـ مـارـيـ -ـ كـلـيرـ المـرـكـيـزـةـ وـأـنـاـ سـتـبـاـدـلـ بـعـضـ الـحـدـيـثـ.ـ وـلـيـجـهـزـوـ لـنـاـ شـايـاـ مـتـازـاـ يـاـ صـوـفـيـ!

بعد الكلمات المرائية لماري - أنجيليك لم تعد ماري - كلير راغبة في الشاي الذي سيأتي، ولأن قلبها لم يعد يحـدـثـهاـ بـمـزـيدـ منـ الـجـلـوسـ وـالـاسـتـمـاعـ إلىـ الكـوـنـيـسـةـ المـتـقـلـبـةـ المـزـاجـ فقدـ خـضـتـ بـذـرـعـةـ زـوـجـهـاـ:

- قطـنـاـ طـرـيـقـاـ طـوـيـلـاـ،ـ وـتـرـكـتـ هـنـرـيـ وـحـدـهـ،ـ وـالـعـرـبـةـ تـتـنـظـرـنـيـ.ـ يـحـزـنـنـاـ مـرـضـ الـكـوـنـتـ.ـ لـيـكـنـ فـيـ حـمـاـيـةـ اللـهـ.ـ سـنـعـودـ وـنـزـورـهـ يـوـمـاـ ماـ.

"هـذـاـ الـذـيـ تـأـتـيـنـ عـلـىـ دـكـرـهـ يـهـمـكـمـ أـمـرـهـ كـثـيرـاـ".ـ وـدـعـتـ مـارـيـ -ـ أـنـجـيلـيـكـ ضـيـفـتـهـاـ وـهـيـ تـضـحـكـ فـيـ سـرـهـاـ.ـ وـصـعـدـتـ إـلـىـ غـرـفـةـ الـكـوـنـتـ مـهـمـوـمـةـ بـحـرـمـانـهـاـ مـنـ مـعـرـفـةـ مـاـ يـجـرـيـ عـنـدـ الـكـوـنـتـ.ـ وـحـينـ دـخـلـتـ الـغـرـفـةـ تـوـقـفـتـ عـاجـزـةـ عـنـ فـهـمـ

ما يجري. عائشة جاثية على ركبتيها عند الكونت المضطجع في الفراش، تمسح له على رأسه وجبينه، وتمسح دموعها. ودموع الكونت تسيل أيضاً:
- هل عرفها؟ - همست ماري - أنجليك في أذن أوغستين - أنطوان.
- ألا ترين؟... - ألقى نظرة قاسية على زوجته وأدار وجهه.
- نعم، لماذا لا يتذكرها! - قالت لديستان غير عابثة بكلام زوجها، مسيرة معروفها هي:

- ألا تريان كيف تجلس شارلوت - إليزابيت أيسبيه على ركبتيها على أرض الغرفة؟ لماذا لا تضعن المخدة تحت رجلها؟ كيف حالك يا كونت؟ اليوم أنت أحسن بالقياس إلى البارحة وما قبلها. ربما بسبب عودة شارلوت - إليزابيت أيسبيه إليك.

- رجعت إليّ! - قال الكونت ثم استوى جالساً دون مساعدة من أحد مع تعجب الحضور. - كيف عاملوك في شركيسيا حيث كنت؟ لا تكتمني إن سببوا لك الحزن، أنا سلطان الترك اسمأ فحسب؟!
- بابا، أنت من يذكر شركيسيا. - انكسر صوت عائشة ولكن سرعان ما رجع إلى عهده: - كنت عند آل اللورد بولينغبورو.

- أكنت في إنجلترا؟ - تأمل الكونت الجالسين - الواقفين متعجبين مما يسمع، وغمغم: - إذن خدعني هؤلاء الكذابون فقالوا إنك عدت إليها. إذا كان اللورد هنري بولينغبورو أعاد السلطة إلى "توري" فقد أثبتت أنه رجل! كنت قلت له مرة إن هذا ما سيحدث وما عليه أن يفعل. وقد أكّد ما كنت آمله منه. ولكن هل تعرفين يا شارلوت - إليزابيت أيسبيه ما سأقول لك إن حدث وفارقتك الحياة. نعم، نعم، حين أغيب عن رعايتك اتركي هؤلاء الأشرار، وعودي إلى شركيسيا. أمنحك الإذن أن تختلي بلا دهم وتعتلي رؤوسهم، أرجوك.

- خذ دواءك، تناوله — قالت عائشة للكونت مغيّرة بسرعة ما تسمع. ثم تفكّرت في الأمر ودو إيدي وسيلين أمام عينيها، وهي عارفة أن كلام الكونت لا معنى له، وكررت: — ما ترجوني من أجله لا أمل لي فيه الآن.

- بديهي أن لا تعمليه، لن تعودي إلى شركيسيا يا شارلوت — إليزابيث أيسبيه، وإلا أكون ربيتك لفرنسا عبشاً. — قال الكونت ثم أضاف بعدهما شرب الدواء: — الآن أريد أن أكل.

نظرت ماري — أنجليك بطرف عينها إلى الدكتور لاروش نظرة عتاب كأنها تحمله المسؤلية "اسمعوا ما يقول في الوقت الذي نتوقع موته!" ثم نهضت حالاً متوجدة إلى زوجها:

- ما عليك يا شارل إلا أن تطلب، نقدم إليك الطعام حالاً.

- أشتّهي سمكاً هريراً طازجاً. — لم يفكّر الكونت في ما يقوله.

- ليس أسهل من هذا! حالاً، ديسنان إلى السوق!

- سمعك السوق لا ينفع. أريده خارجاً للتو من نهر السين. ما الأمر يا أوغستين؟ لماذا ما تزال جالساً؟ ألا تتذكرة أين كنا نصيّد ونخن صبيان؟!

VIII

"ما من أحد صنعوا له مهدأ إلا حفروا له قبراً"
صدق الكونت شارل دو فيريول هذه الحكمة بعدما عبث معه المرض سنةً،
فتوفي في السادس والعشرين من شهر أكتوبر - تشرين الأول عام 1722، تاركاً
وراءه قضاياً أسرية غير محلولة.

اليوم الذي دُفن فيه الكونت شارل دو فيريول، كان يوماً لطيفاً خلافاً لأيام
الخريف الأخرى؛ حتى إن من كان عندهم علم بالكونت وحياته وغط معيشته
قالوا إنه كان لا بد إنساناً خيراً فصفا له الجو يوم مماته. السماء التي تطل منها
الشمس الدافئة عالية، ولو لا أصوات عربات حاملي النعش، وتحامس المشيعين
التي تخرق المهدوء في مقبرة "روك" حيث تقوم الكنيسة، لكان يوماً مريحاً.

وإلى جانب النعش المفتوح غطاوه يقف أوغستين - أنطوان، وماري -
أنجيليك، وبون دو فيل، وأرجنتال، ومن يسندونها من ذراعها عائشة، وكلودين
- ألكسندرine، وصوفي، وجانيت - نيكول، وبير دو تانسين الأسفف،
والدكتور لاروش، وديستان. وبالإضافة إليهم نساءً مسنات غيرهن معروفات من
الأسرة، ورجال من جيل الكونت، يقفون في مجموعات. وبين هؤلاء "لولو"
التي طردوها ذات مرة من البيت.

- انظر يا أوغست إلى هؤلاء - همست ماري - أنجيليك إلى زوجها متظاهرة
أنها تمسح دموعها - شكرأ لهم، لم ينسوا الكونت. انظر، انظر إلى هذين
القادمين! هل أطلقوا سراح فرسوا فولتير من السجن؟ ومتى؟ وهل من معه هو
مونتسكيو؟

أفهم الكونت أوغستين - أنطوان زوجته بطرف مرفقه أن تكف عن الثرثرة.
وأنهى رجل الدين إجراءات التأبين، وطلب من الحاضرين الراغبين في الكلام أن

يتفضلوا فاقترب فرنسوا فولتير من النعش ما دفع الحضور إلى التهامس، ورفع من مشاعر عائشة.

- بعد أن أودعوني سجن الباستيل بمحجة أني أكتب أشعاراً فيها أفكار تدعو إلى الحرية. وتشير التعرات بين الناس، أطلق سراحه البارحة. وكان ممكناً ألا تتكلم إليكم. ولكن لأنني أعز شارل دو فيريول الذي أدى خدمات عظيمة لفرنسا، وابنته، اختنا، شارلوت - إليزابيت أيسية، وابني الكونت أوغستين - أنطوان بون دوفيل وأرجنتال صديقي، ووالدهما الكونت، فإني أقف أمامكم لأقسام آل فيريول حزفهم. علينا أن نشيد بمن يسدي خدمات إلى فرنسا، ويزين صورتها في العالم، ويرفع علمها. ولأنك واحد من هؤلاء الناس المخلصين فتحن راضون عنك، نودعك إلى مثواك الأخير مع كل تقديرنا واحترامنا لما أنجزت.

- ها نحن يا كلودين - همست ماري - أنجيليك لأنتها - لم يذكر أحد اسمها، ولا قيمة لها... انظري أيضاً إلى هذا "الشفاليه"؛ لماذا أتى متأناً بلباس الجيش؟ أهو جنرال من يؤتمنه؟! أ يريد استعراض نفسه أم يُفرح أيسية؟ وقف بليز - ماري دو إيدري شفاليه بلباس العقيد إلى جانب التابوت، وتكلم باختصار:

- وداعاً أيها الكونت، عشت من أجل فرنسا. وكما يفعل العسكريون مدّ قامته المشوقة وحييا بيده تحية عسكرية.

لم يرسل الملك مندوياً يلقي ولو كلمتين من أجل الرجل الذي عاش من أجل فرنسا وعمل لها والحتاجة جداً إليه. - غمغمت ماري - أنجيليك، ثم نظرت نحو عائشة واحتتجت: - هذا ذنب هذه المخلوقة ذات الرأس الطويل التي تذرف الدموع كالمطر؛ فبدلاً من أن تلاطف أورليان مريي الملك وتسترضيه

جعلته عدواً لنا. قالوا هو الآخر مريض، المسكين. ما مرضه يا ثُرى؟ العجيب أن هذه الأفكار المزعجة وغيرها كانت أيضاً في ذهن كلودين – ألكسندرин، المسككة بذراع اختها، شاهدةً على صحة قولهم "لا يراقص أحد إلا شبيهه، ولا يتزوج إلا من لونه" لكنهما لم تريا من اللائق الاستمرار في اغتياب الآخرين فسكتتا.

الجو ما يزال صحواً جميلاً كما كان. والشمس كانت تفارق منتصف السماء حين انتهوا من دفن الكونت. ولدى انصرافهم من المقبرة ضحكت كلودين لأنختها وقالت:

– لا تلتفتي يا ماري! لو كان الأمر بيدي؛ أتعرفين ماذا كنت كتبت على شاهدة قبره؟! – زير نساء!

– احضرني سيسمعوننا... – ردت ماري – أنجيليا على اختها. وفيما هما تعودان إلى عربتهما رأتا أوغستين – أنطوان وعائشة وبون دو فيل وأرجنتال ما يزالون على القبر. عنقت ماري كلودين – ألكسندرин: – انظري هناك؛ تُكسيبني العار دائمًا من آل فيريول الذين أنا زوجة أحدهم!

– يا ماري، إياك أن تعودي إلى القبر، الناس يتوجسون من هذا السلوك – خرت كلودين – ألكسندرин اختها لأنها تعرف تقلباتها، وقالت لها ما يُرعبها أكثر: – هذا لا شيء، ينتظرك يوم تجلبين فيه المزيد من العار. – أي يوم؟

– اسألني زوجك ولا تسأليني! وإن رفضت فاسألي من ستشاركك الترفة أيسيله!

– لأنك تظنين الكونت أوصى بشيء لمن لا تشبع من البكاء عليه؟ – لا أعرف، بل أشك.

– وما شأن "كونتي" المسكين الذي لا تُطيقينه في الموضوع؟

- هل أحببت زوجك الآن يا ماري؟ أنسىت أنه الأخ الأصغر للمتوفى؟ لم يمت إلا بعد وصية له. اغفري لي إن ظلمته! ولكن بعد وقت غير طويل ابدؤوا بإجراءاتكم. ليست أيسىه من النوع الذي يظهر بين الناس كما تظنو.

- لا أعرف يا كلودين، ربما تكون أيسىه كما تقولين. هل بقي على الأرض إنسان تتق فيه؟! - نظرت عينا ماري - أنجيليك كل في اتجاه - أعرف أنه أوصى لها بما تعيش به، بأربعة آلاف ليرة - قالت لنفسها، واشتعلت في داخلها: - لن أبقيها على قيد الحياة إن دفعت الكونت المسكين إلى إجراء آخر! وسأنتزع روح من لم يحرض على مال زوجي.

- اهدئي يا ماري، هاهم قادمون - لم تُطق كلودين - ألكسندرین التي تحقق لها مرادها إلا أن تخنز أختها الكبرى بحججة النصيحة: - عجيب أن أيسىه تحولت إلى النحافة والرشاقة خلافاً لما كانت عليه في الأشهر الماضية؟ - يا لمحضي! أشككت في ما شككت به؟ لم يكن سلفي الذي لم يشبع من النساء طوال حياته ليتوب عن شيء!

خلال رجوعهم من المقبرة، وخلال تناولهم "طعام الأموات"، وريشما بقي آل فيريول وحدهم في البيت وتناولُهم ما جرى في المقبرة، انتظرت ماري - أنجيليك اللحظة التي ستحتلي فيها بزوجها. مستغرقةً في النوم، منتظرةً بين لحظة وأخرى مجده. وحين أفاقت ذهبت إلى الكونت مهمومةً أكثر بما فعل الكونت بها: - ألسنت نائماً - دفعت ماري - أنجيليك الكونت بطرف إصبعها - ألم يكُفِّ وقوفك طوال النهار على رجليك فتذريغ الآن أرض الغرفة؟ لم أفهم إلى الآن طبيعة آل فيريول هؤلاء. لا يسمحون لك بأن تعرفي فيم يفكرون، ولا ماذَا سيفعلون!

- يا كونتيسة! - نظر إليها بعينين راقدتين، ثم تداعى قلبه - لا أفهم فيم
ثاريني. ألا يمكنك أن تفهمي حالى في مثل هذا اليوم؟
- حقاً يا أوغست، حقاً. اجلس هنا. ودعت أخاك الوحيد. أفهم آلامك. -
أسرعت ماري - أنجلييك تستعطف دموعها - حتى الدموع نفدت! ولكن
دعنا نشكر الله على أنه وقف أمام ربه دون كثير من الذنوب بفضل رعايتك له
ورعايتنا. لا عتب لي عليك، بل لأنك لم تقل لي "تصبح على خير" جئت إليك
لا أعرف السبب. لنغفر لبعضنا إن خرجت مناكلمة في غير محلها!
- لا أعتب عليك يا ماري - أحبك الكونت وقد رقت الكلمات اللطيفة
قلبه - أنت سندنا الباقى نحن آل فيريول. أنا جئت إليك ولكنك كنت نائمة
فخرجت.
- أانا من عنده رغبة في النوم؟ ولكن ربما غفوت من متاعب اليوم الطويل.
كان عليك إيقاظي دون شفقة. شكرأ لك على حرصك علي، وعلى اعتبارك
لي سندأ آل فيريول. وما أن علاقتنا هكذا يا شبيه روحي، وبصفتنا أكبر اثنين
في آل فيريول، فلن أكتمك ما يشغل بالي منذ زمن بعيد، منذ رجع إلينا سلفي
المسكين مريضاً. وهذا موضوع لا يهمني وحدي بل جميع آل فيريول، باستثناء
أيسية، وبن فيهم آل غيرين دو تانسين.
- لماذا استثنيت شارلوت - إليزابيت أيسية من هؤلاء؟ - سأل أوغستين -
أنطوان - أليست ابنة أخي الأكبر وأخت ولدينا؟
- عرفت أنك ستقول هذا - ارتفع صوت ماري - أنجلييك رغم حذرها. -
لأجل هذا أقول: آل فيريول لا يطعنونك على ما في قلوبهم... البنت الشركسية
التي لا نعرف أصلها؛ وهناك كتاب يثبت أنها ابنة أخيك الأكبر؟

- نعم - احتدّ أوغستين - أنطوان - عرض عليّ شارل كتاباً يوصياني فيه أن أرعاه، وألا أسمح لأحد أن يهينها أو يسبب لها أي إفلاق. ثم يا كونتيسة إنسى تعبير "البنت الشركسيّة"؟ لا يعجبني. وكذلك لا تُسمّعه لبون دو فيل وأرجنتال.

- حسناً، حسناً. سأناديها بالاسم المركب الثلاثي الجميل "شارلوت - إليزابيت أيسّيه" إن كنتم متأكدين أنها لن ترکب على أكتافكم يوماً ما. وإذا كان لشارلوت - إليزابيت أيسّيه مثل هذه الوثيقة ألا تعرف أنها ستظل تقاسينا أملاك آل فيريول إلى الأبد؟

- لن تفعل شارلوت - إليزابيت أيسّيه مثل هذا!

- لا أحد يسأل عنك إذا رجع الأمر إلى المصلحة الشخصية. - ابسمت ماري - أنجليك - إذن سأخبرك بأمر لا تعرفه أنت ونشك فيه نحن:... أن بين الكونت شارل دو فيريول وشارلوت - إليزابيت أيسّيه طفلاً.

- اسكتي! لا تدعيني أنفجّر! - وقف أوغستين - أنطوان دو فيريول الكونت غاضباً.

- حسناً. أنا سأسكت، ولكن إن عرف غيرنا فلا أعرف إن كنت تستطيع إغلاق أفواههم.

IX

من حسن حظ عائشة أنه كان عندها من يسرى عنها: كان معها في البيت الذي تتصوره الآن فارغاً صوفى وبون دو فيل وأرجنتال. وربما كان أوغستين أنطوان يعيد التفكير في كثير من الأمور خلافاً لأيام كان أخوه حياً، وربما تداخل الموضوع بنقاشه الثقيلة هو وامرأته، فأصبح يُعنى بعائشة أكثر من أي وقت مضى.

الآن عادت عائشة إلى صحتها فوقت على قدميها، وانزاح عنها أملها الوحيد، سواء كان الانزياح خيراً أم شرّاً. ولكن آل فيريول لم يتربّكها محتاجة إلى ما تعيل به نفسها... "شكراً لبابا" ولكنه حين اشتريني وجاء بي إلى هنا، لماذا استطعت ناسية ما عانيتُ أن أنتزع من صدرِي الطفل الذي منحني إياه الله؟ وكيف سأعيش وأنا من فعل هذا؟ ولماذا أبقى على ظهر الدنيا؟ أأنا من كتب الله كلّ المصائب على جبينها؟ - ارتعبت عائشة فجأة من ذكرُ اسمه ورفعت يدها لترسم إشارة الصليب وخفضتها ودَعَتْ: - اغفر لي يا إلهي تغيير إسلامي، افهمني! ولأني تذكريت حين وجدت نفسي في مأزق فربما ليس صحيحاً أين غيرُك. ولكن لا أعرف كيف كان مصيرِي لو لم أدن بدين الكاثوليك عندما وجدت نفسي في فرنسا، وبعلمك. كنت وجدت طعامي وشرابي ولكن ما كنت لأستقرّ بينهم. أين كنت ساذبه، وأي أملٍ كان لي وقتها؟ لا أظنك غائباً عنِّي حين أقول ما أقول في ساعات اليأس - وفقط عائشة وراء العمود الذي عليه الصورة وصلت لأجلها: - أنت الآن رجائي، أنت إلهي فاغفر لي. لست مشركاً ولكن، ما العمل، كلاماً كما في قلبي. أفهم أن ما أقوله الآن غير صحيح، لا أبرئ نفسي، ولا أكتم ما لا أطيقه. وربما كان هذا السبب في ضعفي أمام ابنتي... أنا لا أعلم أحداً. لم يحدث لي إلا ما فعلت

بحق نفسي. اغفر لي "سيلين" وافتقاري إلى زواج شرعي. لا ذنب لي إلا حي لدو إيدمي وحبه لي. لم أنجح في اختبارك. أنا من هي مدينة لك. ولكن لأنني آمل أن تغفر لي هذا الذنب فسأتوسل إليك: اغفر لبابا ما أذنبه بمحقني. لو كان في عقله لما تصرف معي على هذا النحو. لا أدعّي أن حياته حالية من الذنوب، ولكنه لم يكن عديم الرحمة. لن أنسى إحسانه إلى مدى العمر. سأصلّي من أجله ما دمت حيّا" أذّت الصلاة وهي ترسم إشارة الصليب ثلاث مرات.

نظرت عائشة في الورقة التي كانت تكتبها دامعة العينين إلى جولي كالاندرين، وقرأت من جديد. وقالت لنفسها "حسناً فعلت إذ لم أكتب لجولي كل وساوسي المريعة التي تسبب لها الألم، وتراني من أجلها سريعة المجزع، لا تستحق الاحترام. أصحّي ما تقوله جانيت - نيكول: "إذا كانت حياة الإنسان مرّبة من الفرح والحزن لم يجُز تغليب أحدهما على الآخر"؟ لا أعرف الجواب. لا بد أن فهُم الأمر يتعلّق بطبيعة كل إنسان ومقارنته له. أحوالُّ الفرحة التي نجّمت لي من آلامي إلى ألم جديد بإخفائه؟ لو كنت وحدي لما كان في الأمر مشكلة... - تذكّرت عائشة أنها اذّعت القيام بزيارة لآل بولينغبروك، ودون علم دو إيدمي شفالبيه، وأخفّت الحقيقة عن آل فيريول، وذهبت إلى ابنته في "سانس"، وأن إيزابيل - لويس أرثّا سيلين التي لم تكمل نصف سنة من عمرها، فسالت دموعها. الآن فقط فهمت كلامهم: لم أستطع الصبر. لا شيء تتورّع الألم عن فعله من أجل طفلها. ولا أعاتبك على أنك جعلتّهم يتّبعونها بالقوة من صدري. ولا تؤاخذني على أنني تعلقت بها وفكّرت بالاحتفاظ بها بدلاً من أن أقول شكرًا على ما فعلت لي. ظللت أقول إنّي أعيش سيئة الحظ وأرثي نفسي بنفسي حتى سقطت الآن في النار الهائلة التي لا مخرج منها. وظللت

أشجب سلوك النساء المتحررات، من كلودين إلى بارابير ودوفان وبرى حتى فقدت شرفها في ما عملت... "رأى بون دو فيل وأرجنتال الورقة التي كانت تقرأ فيها، وإسراعها إلى عينيها تجففهما، حين فُرع الباب فجأة ونحضت... - ألا يكفيك بكاء يا أيسية؟ قبل بون دو فيل وجنة عائشة، وفعل أرجنتال مثله، وسأل بصوت أبلغ حزناً - لماذا تُخفين هذه الورقة؟

- هذه؟ لا شيء فيها - أمسكت الورقة وأعادتها كما كانت.

- لو لم يكن فيها شيء - توقف أرجنتال عند موضوع الورقة - لماذا أخفيتها وأنت تبكين؟ بحجة هذه الورقة لا...

- يا جان!... - صاح بون دو فيل على أخيه ولم يدعه يُكمل.

عادت عائشة الآن إلى وعيها:

- المليت أشد بؤساً أم من تركه؟ - طرحت السؤال واختتمت قبل أن يجدا الفرصة للتفكير: - لا تدعونا نحاول التفسير بشأن عدم قدرتنا على الإجابة على سؤال فولتير ومونتسكيو. لا سرّ في هذه الورقة. اقرأها! وتعارفان ملن أكتبها: جولي كالاندرين المركبزة. - مدّت الورقة إلى أرجنتال، وفي اللحظة نفسها دخل أوغستين - أنطوان الغرفة يتنفس بصعوبة:

- وأنتما جالسان هنا؟ - امتحن الكونت ابنيه - حسناً تفعلان إذ تعينان أختكم على التفريج عن قلبها. من توفي ليس غريباً عنكم. كان يرعاكم. وكان فخوراً دائماً بإنجازاتكم. قدم لكم كثيراً مما لم أقدمه. ولا تنغروا من يقول إن أحداً من طرف الملك أو البرلمان لم يحضر الدفن. حتى لو لم يكن إلا حضور فنسوا فولتير وشارل مونتسكيو الدفن، وما قالاه بشأن المرحوم فلا شيء يعدله. أنت يا شارلوت إليزابيث أيسية الكونتيسة أنا راضٍ عنك بشأن المرحوم الكونت. الله يعلم أنك سهرت عليه حتى اللحظة الأخيرة من حياته، وسجّبته،

متغاضية عما قال لك أحياناً، صابرة على كل شيء. وأنا لن أنسى هذا. ولن أقبل أن يسيء إليك أحد أو يجرح قلبك. والآن لن أخفى ما جئت من أجله، وليس مع أخواك: قالت لي الكونتيسة ماري - أنجيليك إن في حياتك سراً ثقنين نفسك فيه وتحتفظين فيه مع أحزاننا. لا تبكي يا ابنتي، لا بأس مهما كانت المأساة ثقيلة، فلا داعي لليلأس لأنه ما من إنسان إلا وعنه أسراره. وفي جميع الأحوال لا تنسى أن آل فيريول ستد لك.

ودعّت عائشة أوغستين - أنطوان الذي نصحها وخرج من الغرفة يتنفس بصعوبة، متألمة لحاله، فيما لم يهتم بون دو فيل وأرجنتال بحال أبيهما بل بالإشاعة "التخمين" التي انتشرت في الأسرة، فتبادلا نظرات التساؤل لا يعرفان سببها. ولا حظت عائشة ما يجري في قلبي الأخوين فغيرت منحى الموضوع دون أن تخرج تماماً من موضوع جبها المبهم، مصطنعة هيئة الضحك:

- لا تهتما بما ليس ضرورياً. الموضوع هو أن والديكما لا يعرفان نهاية مشكلتنا أنا وشفاليه.

- لا يجب أن يهتم أحد بهذا الموضوع بعد الآن - قال أرجنتال الذي لا يعرف ما حدث لعائشة. - بعد ما دفنا عمنا فأنت وشفاليه خلّ موضوعكم. ستتزوجان!

- وكيف ستخلّ معضلة النذر الذي ندره شفاليه لفرقته العسكرية بعدم الزواج؟ - سأّل بون دو فيل بلا اهتمام، ثم أغلق على الموضوع: - هذه المشكلة ليست كما تتصورانها.

- نعم، نعم - سمعت عائشة ما تريده فأسرعت، ولكنها سرعان ما دانت نفسها: - فيم نتكلّم وجثمان بابا المسكين لم يكدر ييرد؟ دعونا نتكلّم في

موضوع آخر. كان فرنسوا فولتير وشارل مونتسكيو لم يدعيا إلى مأدبة التأبين؛ لم أرها.

- بلـى، دـعـيـا - قال بـون دـو فـيل مـا يـعـرـفـه - وـبـعـد بـابـا أـنـا بـنـفـسـي بـلـغـتـهـمـاـ. أـلـا تـعـرـفـيـنـ يـاـ أـيـسـيـهـ كـيـفـ هـمـ هـؤـلـاءـ، يـظـلـوـنـ يـتـحـسـسـوـنـ فـلـاـ يـنـهـبـوـنـ إـلـىـ الـمـاتـ.

- وـلـيـسـ وـحـدـهـ - لمـ يـكـتـمـ أـرـجـنـتـالـ ماـ كـانـ يـعـرـفـهـ وـيـشـكـ فـيـهـ مـنـ سـلـوكـ أـصـدـقـائـهـ الأـكـبـرـ مـنـهـ سـنـاـ - هـؤـلـاءـ لـاـ تـعـجـبـهـمـ الـمـخـفـظـاتـ الـتـيـ يـتـلـوـهـاـ رـجـالـ الـدـيـنـ عـلـىـ أـرـوـاحـ الـمـوـتـىـ. وـبـالـمـنـاسـبـةـ أـقـوـلـ لـكـمـ رـأـيـهـ: هـمـ عـلـىـ حـقـ!

- أـظـنـكـ تـكـثـرـ مـنـ الـكـلـامـ يـاـ أـرـجـنـتـالـ دـوـ فـيـرـيـوـلـ الـكـوـنـتـ - قال بـون دـو فـيل لـأـخـيـهـ الـأـصـغـرـ بـحـذـرـ أـكـبـرـ مـاـ فـيـ صـغـرـهـمـاـ، ثـمـ مـزـحـ مـعـهـ: - أـتـظـنـ نـفـسـكـ تـتـكـلـمـ فـيـ بـرـلـانـ فـرـنـسـاـ؟

- إـنـ اـنـتـخـبـتـمـوـنـيـ عـضـوـاـ فـلـمـ لـاـ! - قال أـرـجـنـتـالـ مـسـرـوـرـاـ، وـاـخـتـمـ مـدـرـكـاـ إـطـالـتـهـ فـيـ الـكـلـامـ:

- أـلـيـسـ أـيـسـيـهـ هـيـ مـنـ طـلـبـتـ أـنـ تـسـتـحـدـثـ فـيـ مـوـضـوـعـ آـخـرـ؟ـ حـتـىـ لـوـ إـكـرـامـاـ لـخـالـنـاـ الـأـسـقـفـ بـيـيرـ دـوـ تـانـسـيـنـ - لـيـسـ الـدـيـنـ بـلـ رـجـالـ الـدـيـنـ - كـانـ الـأـفـضـلـ عـدـمـ التـطـرـقـ إـلـيـهـمـ...ـ اـجـلـسـاـنـتـمـاـ.ـ أـنـ يـجـبـ أـنـ أـعـوـدـ إـلـىـ عـمـلـيـ.

ـ حـيـنـ بـقـيـ الـاثـنـانـ فـيـ الـغـرـفـةـ صـرـحـتـ عـائـشـةـ بـمـاـ كـانـ مـهـمـوـمـةـ بـهـ مـنـ جـهـةـ فـولـتـيرـ:

- قـلـ لـفـرنـسـوـ أـنـ يـحـتـرـسـ أـكـثـرـ فـيـ خـطـابـهـ الدـاعـيـ إـلـىـ الـحـرـيـةـ.ـ آـلـ بـولـينـغـبـروـكـ يـخـافـوـنـ عـلـيـهـ.

- وـمـتـىـ صـارـ الـلـوـرـدـ بـولـينـغـبـروـكـ الـذـيـ يـحـارـبـ الـسـلـطـةـ الـإـنـجـلـيـزـيـةـ يـخـافـ؟ـ - سـأـلـ بـونـ دـوـ فـيلـ عـائـشـةـ غـيـرـ عـارـفـ سـبـبـ الـحـوـفـ،ـ وـأـدـلـيـ بـرـأـيـهـ:ـ -ـ الـغـاـةـ الـتـيـ لـاـ ذـئـابـ فـيـهـاـ مـدـعـاـةـ لـلـمـلـلـ دـائـمـاـ يـاـ أـيـسـيـهـ.ـ لـاـ أـقـصـدـ أـنـ أـجـعـلـ مـنـ فـرنـسـوـ ذـئـابـ

وبفترس من يقابله بل إذا عرف الأسد الذي يتصور نفسه ملك العادة قدره فهو مفيد يجب أن نحكي فولتير مما قد يتعرّض به. ولكن لا يجوز إضعاف أقواله الذكية، بالإضافة إلى أن من الأفضل أن يكثر أتباعه المخلصون.

على الرغم من أن عائشة لم تنس أحزناها، وما أضافه إليها أوغستين — أنطوان، فقد أحرمت وجنتها مغلبة ما سمعته الآن من حكاية الذئب التربوية. ولم تملك إلا أن تروي مع هزة الرأس الجميل المطاول:

— مع أنك تحاول تربيني فأنا أوقفك يا بون دو فيل. أقصد أن نخترس ويهتمي بعضاً بعضاً. ولكن سأدلي برأيي في ما قلت: الكتاب الكبير الذين عاصروا لودفيغ الرابع عشر من أمثال مولير ولاروشفوك ولافيست ولافونتين، الذين لا نملّكهم اليوم نحتاج إليهم. وهل تعرف لماذا ليس عندنا أمثلهم؟ مهلاً دعني أكمل: ليس لأنّ أكوه من دنس البلاد مري الملك أورليان — هذه خطاياه. لم يُعد يعرض في المسارح إلا قصص الحب الفاسق المعيبة. ما يجري في المطعم، وفي الفنادق، وفي الصالونات الأدبية، وفي الشوارع، من تصرفات شائنة عار. — وفيما تنفس عائشة عن ضيقها خطر لها ما فعلته هي فتعثرت لا تعرف ماذا تقول. ولكن كعادتها حين تقع في مأزق، وجدت في نفسها قوة جديدة فعادت إلى الوعي بسؤال: — أليس هذا يا بون دو فيل، يا عزيزي ما تزيد أن تفهمي إيه بحكاية ذئب الغابة؟ نعم يا بون هذا هو. وسأضيف شيئاً آخر: يُخيل إلى أحياناً أن بلادنا فرنسا — لا سمح الله — ستنهلك من وراء هذه المشكلات وغيرها من التناقضات والعداوات. لنفكّر في هذا، ولكن، كما كان المرحوم بابا يوصينا، وكما نصحتنا اليوم والدُّك، ودون أن تستولي عليك الحمية، لا، لست جان دارك. ولكن لا تظن أني ارتعبت، دعْنا نعمل ما علينا فعله!

كان بون دو فيل يعرف صلابة عائشة، وإصرارها على رأيها، وصدق كلامها، وعنادها الذي يكلّفها غالياً أحياناً، حتى لتنذّرك بشارل دو فيريول. ولم يكن يعلم أنها تعرف هذا القدر من أدب فرنسا وتاريخها والعلاقات الاجتماعية فيها. نظر بون دو فيل بمحنة إلى عائشة وقال لنفسه "أضفت إلى هذا لفتها على بلادها، واهتمامها بما يتحقق للبلاد وما لا يتحقق، ومعرفتها بأسماء كُتابها. وشعرائها ومطرباتها وفنانيها وراقصاتها" - سواء كانوا أحياء أم أمواتاً" - ماذا يا بون؟ ما العجيب الذي تراه في؟ - مازحته عائشة بوجه أكثر انفتاحاً.

- لأنك يا أيسية كلما تحدثنا حملتني على أن أفكّر في ما أعرف وما لا أعرف.

- هذا بسبيك أنت. بدءاً من كُتب الأطفال التي كتبتها، إلى مسرحيك - أضافت عائشة بعد برهة - كان معلمي جانيت - نيكول فضل كبير في معرفي، وصالون كلودين - ألكسندرin الأدبي، شكرأ لها، ويكفي من رواد صالونها فولتير و مونتسكيو، تعلمت فيه الكثير. واعتنقت أفكاراً عميقه. - ثم قالت وكأنها ليست هي التي في حداد، وقد تغير صوتها فجأة: - لا أعرف إن كنت ستسخر مني يا بون، وأنا أيضاً أريد أن أكتب مثل كلودين.

- يا أيسية - فرح بون دو فيل وكأنه كان متلهياً لما سمع - كيف أسرخ منك إن كنت واثقاً أنك ستكتبين.

- كيف؟ - أسرعت عائشة وقد سرّها ما سمعت.

- أنسّيـت كيف كنت تكتبين لنا من جنيف، ومن إقطاعتنا بون دو فيل؟ حين نقرؤها أرجنتال وأنا كنا نؤمن أنك تستطيعين الكتابة. و لولا حدادنا الطارئ، كنا قرنا مصارحتك به حين تعودين.

- ولكن – قالت عائشة يغلبها الحياة – هذه كانت مجرد ترجية للوقت.
- ما كنا لنقول شيئاً لولا أنها كتبت بلغة فصيحة وتضمنت أفكاراً غنية.
- وأسأقول لك شيئاً آخر: حين عرضنا على فولتير إحدى كتاباتك دون أن تأتي على سيرة الكتابة التي كنا ننوي مفاحتلك فيها عبر عن الرأي نفسه. ولكن إن قررت الكتابة فسأقول لك ما لا يرضاه فولتير منك: "سأكتب مثل كلودين"، فلا تسمعيه هذا الكلام. سيقول لك "إذا كان من ينوي الكتابة يعرف ما يقول، ويستطيع أن ينقل أو يوحي إلى قرائه أفكاره المتنوعة: أفراحه وأحزانه، واحتقاره وحبه وغيرها، ويدعوهم إلى الإعجاب بها، ولا يقلد غيره فليكتب!"
- يا بون دو فيل – بدأت عائشة الآن تحجل مما قيل لها الآن، ويتضجر خداتها أكثر مما تأثرت بموضوع الكتابة الذي طُرِح فجأة، وتبرئ نفسها وتصلح موقفها – لم تفهم جيداً ما عننته بقولي "أريد أن أكتب مثل كلودين" ما قلت لي إنه سيكون رأي فولتير صحيح. وإذا كنت توافقه فأنا أيضاً. – ابتسمت عائشة لأنها منذ زمن طويل تعيد التفكير في ما قالت – ماذا نقول؟ أتعرف لماذا كانت جدي المرحومة تقول عنا: "يسلحون جلد الدب الذي لم يصيدهوه" ولكن لماذا أكتم : جولي كالاندرین أيضاً تشجعني على الكتابة. كأننا نتكلم كثيراً على شخصي. والآن أخبرني بما يجري معك. ما الجديد الذي تجهزونه للمسرح؟
- كما تعرفين، كأن كتاب الدراما عندنا توقفوا عن الكتابة. لا يأتوننا بأي نصّ جديد. مللتا من النصوص المأساوية التي لا طعم لها، ومن المسرحيات الشعبية المهزولة السخيفة.
- ما العمل، زماننا من هذا النوع. – سألت عائشة عن الممثلين اللذين تقلق عليهما: – أليس ميشيل بارون وأدريين لو كوفير عاطلين عن العمل إذن؟

- هذا هو الواقع. بارون ميشيل انصرف إلى الكتابة، وأدريين لوکوفير وأرجنتال دو فيريول لا يشعرون من حبهم. لا تصدقني أن جان رجع إلى عمله كما قال.

- إذا كانا متحابين هكذا - تنهدت عائشة - فهذا حظٌ ممتاز. غير أن قلبي لا يحذّنني أن أرجنتال سيسعد مع أدريين. يبدو لي، وقد أكون مخطئاً؛ أن حياة الممثلين تصبح كالشخصيات التي يتقمصون أدوارها. ما العمل؟ هذه هي دنيانا. - هذا يوضحه الآخر يككي، وغيرهما ينسليخ جلدته. ورابع يعيش خاوي البطن. وإذا كانت حياتنا تضي على هذا النحو فعلينا يا بون دو فيل أن نمتلك مسرحاً يفضح الناس الذين يملكون بلا تعب فيطرون ويشترون...

- مهلاً، مهلاً يا شارلوت - إليزابيت أيسبيه دو فيريول - قاطع بون دو فيل ما كان يسمعه من عائشة ولو أنه كان يوضح - ماذا تقولين وأنتِ كنت توصين بالحرص على فولتير؟ إذا كتبت مثل هذا أو أخرجته فستفتح لك أبواب الباستيل... - ثم بصوت أقل حماسة: - لا أعرف ما العمل إن لم نُعد مسرحية "زواج بالإكراه"؟

- أتتكلّم على المسرحية التي كتبها موليير لتسليمة الملك لودفيغ الرابع عشر؟ لماذا لست متحمّساً لهذا العمل؟ ليس نصاً سيئاً. لينق في النص، متى كتبه موليير؟ إذا أضفت إليه أفكار الحاضر ونظراته فسيعجب رواد المسرح على ما يبدو لي. انظروا وفكروا؛ ربما كانت لكم رؤية أخرى له.

جرحت كلمات عنوان النص "زواج بالإكراه" قلب عائشة قبل أن تكمل كلامها، فشردت وهي تخيل أن العنوان موجّه إليها وإلي دو إيدي شفالبيه: "أتتكلّم على غيري بسوء متناسبٍ للأزمة المعيبة التي حدثت لي، والتي لم تردعني. أسئل: ألسنا نحن الاثنين بطلّي مسرحية موليير؟... - فقررت فجأة إلى رأس عائشة الأفكار والمواجس التي تحملها معها - لأجلنا يا ثرى أتى بون دو فيل

على ذكر مسرحية مولير؟ لا أعرف إن كنت أشك في الأمر دون حق؛ غير أني لا أريد الآن أن أطلع أخي على العار الذي جلبه لنفسي... ولكن السر لا بد أن ينكشف يوماً من الأيام. وهما هو أوغستين - أنطوان سالني أمام أخي عما زرعته زوجته في نفسه من الشك. أظن عمي سيفهمي إذا انكشف سري حسب ما أفهم من نصائحه إلى، ولكني أحسب حساب أخي"

- بهذه الحجة يا أيسية ستشجعني على المسرحية كي يأمر لودفيغ الخامس عشر بإخراجها على مسرحه... يا أيسية أين أنت؟ ألا تسمعيني يا أيسية؟

- بلى، يا بون دو فيل أسمعك. - خرجت عائشة من أفكارها الباردة - الحارة وأجابت. - إن كنت خائفاً فلا تخرجها!

- لا أرى نفسي جباناً جداً. مع مثل هذا العيب لا تستطيع إخراج المسرحيات. ولكن سأطعوك في شأن هذا النص، وأخبرك سلفاً أني سأحملك العوّاقب السيئة له إن وُجدت. لنر ما يحدث! - بعدها سخر الاثنان من نفسها، وفيما وصلا إلى نهاية حديثهما، سأّل بون دو فيل فجأة وقد تذكّر شيئاً، ودون سوء نية: - ما الأمر يا أيسية؟ لماذا سألك بابا قائلاً إن ماما أخبرته أنه "مع حدادنا على عمنا تحفظين بسرّ"؟

أجابت عائشة على السؤال غير المنتظر إجابة قريبة من الصدق وإن شحب لونها، مستندة إلى بسالة المرأة في مثل هذه المواقف:

- ألم أقل لك إن ما لا تطيقه ماما هو علاقتنا أنا وشفاليه؟

- لا أعرف أن في باريس قضية لا تهتم بها ماما وكلودين - ألكساندرين - وأمّا بون دو فيل بيده إيماءة عدم اهتمام - وأنا استجوبتني على نحو غير مباشر. وكانت طلبت منهما عدم التدخل في أمركما.

- حسناً صنعت - ابتسمت عائشة وقد بدأ لونها يعود إلى أصله - يكاد الحب يعرف حقيقته من يحب فحسب. ولكني لا أريد أن يتدخل في حبنا أنا وإيادي أي إنسان. أتفق من أن فرقته العسكرية التي نذر نفسه لها ستسمح له؟ لا تعرف أن الشفاليه غير حرّ في نفسه؟ هذا الأمر له عواقب كثيرة. بعد قليل سأطلعك على أخباري. حُبِّل لعائشة أن بون دو فيل يريد أن يقول شيئاً غير مريح عن إيادي فأمسكته: - لا، لاتشك في إيادي، لا ذنب له، أنا المسئولة عن كل الذنوب.

X

حين دخلت صوفى هذا الصباح ناسية حتى إلقاء التحية، وعيناها تتقلبان في مجريهما سألتها عائشة مبتسمة وإن كانت مرتبعة:

- ماذا جرى لك يا صوفى؟ إن كان الثلوج الغزير الذي وصل الليلة فأنا أعرفه منذ وقت لأني لا أنام الليل.

- ليس الثلوج - خرج الخبر الذي جاءت به من شفتها بصعوبة وهي تحكم إغلاق الباب: - ماري - أنجيليك الكونتيسة تعرف سرّنا...

- أيّ سر؟ - لم تستوعب عائشة في البداية.

- هذا الصباح حين حملت إليها شراب الشوكولا سألتني: "صحيح أن شارلوت إليزابيت أيسىيە عندها طفل؟" فأجبتها: لا!

بدلاً من أن ترتب عائشة من الخبر الذي تُقل إليها ضحكت بملء صوتها وخارج سيطرتها. ونقلت صوفى عينيها في وجهها حائرة، ثم سالت دموعها متذكرة أنها دون معين. وعائشة نفسها، ولو أنها مِثُلُ من يتصحونها هذه اللحظة، عانقت صوفى وشرعت تواسيها:

- لا تبكي يا صوفى! علينا أن نتحلى بالصبر والقوة. لا تنفعنا المهاشة والضعف رغم أن الدمع تخفيف للضيق. كانت جدي يقول بشأن السر "في الظلام يرونك وفي الخلاء يسمعونك" وحين تعرف أن جارتنا العجوز تخفى عنها شيئاً تقول "من يستطيع أن يُخفى ما في البطن وما في البستان؟" أرأيت ما جرى لي وأنا أظن نفسي حريصة على سري؟ ثم إني خربت بيتي بيدي وأنا أخفى سري في داخلي.

- لم تفعلي ما يشينك - صاحت صوفى الآن - كان الأجدر بالكونتيسة أن تراقب أختها من أن تتجسس عليك. كادت تنتزع هذا الكلام من فمي. ولكن لحسن الحظ أين صبرت... لا، لا، يا أيسى، ليس ندماً بل خوفاً عليك.

- حسناً فعلت يا صوفى بصيرك - خلدت عائشة إلى نفسها قليلاً ثم أكملت: - أنا أعرف ما يُهُم ماري - أنجلييك ماما... صرّح لي لاروش قبل أيام ببعض المعلومات.

- أستمع إليك يا أيسى فأقول - قاطعت صوفى عائشة - ما أعجبك! كيف تستطيعين مناداة الكونتيسة المرائية الخبيثة بـ "ماما ماري - أنجلييك"؟ ولاروش الخبيث الآخر لماذا تسمحين له أن يكون محلّثاً؟

- يا صوفى، يا روحي! - كذلك استغربت عائشة ما قيل لها - لو كانت الرياح تجرب دائماً كما تشتتى السفن... أحياناً نخضع، وأخرى لا نتحمل. كيفما تصرفت معى ماما ماري - أنجلييك فهي التي صارت أمّا لي وقت مصبيتى. وما قدمته لي ليس أقل مما قدمه بابا إن لم يكن أكثر، لهذا أغفر لها مهما قالت لي أو تصرفت معى. وأنا أفهم ما يُهُمها هذه اللحظة، كنت قلت لك قبل، وأعيده الآن: كلّ منا يفضل نفسه حين يعود الأمر إليه. والمُلك للعين يُفسدُه. ولكن، وأنت تعرفي، لم أطمع يوماً في ما يملّكه غيري، وفي ظل أزمتي الحالية ليس في رأسي مثلُ هذا. وفي كل الأحوال أين أذهب بماما ماري - أنجلييك؟ وهي أين تذهب بي؟ ستبقى أمي. ولكن حزينة لأنّي أهنتها في ما كانت تشوك فيه من جهة بابا. ولا أوقفك في ما قلت بشأن لاروش. ليس إنساناً سيئاً كما نتصوره نحن. يتقن مهنته، وحين طُرح موضوع إيداع بابا المشفى لم يقبل مشكوراً. لا أقول إنه منزه عن العيوب، غير أن حسناته أكثر من سيئاته.

- ما أطريك يا أيسية - ابسمت صوفي لعائشة - أتذكر أن الكونت كان يخاف أن يؤذيه الدواء الذي يرسله إليه طبيب أورليان فيخففه بملاء. ر بما لا أطيق لاروش لافتاته بالنساء. ولكنك غيرت لي رأيي في هذا البائس. لو كنت مكانك يا أيسية ما استطعت أن أقول لأجلي كل ما قلت، من أجلك نعم أقول. أما الآخرون فحين أتذكرة ما رأيت منهم وما أعرفه فلا أعرف، لا أعرف...

رغم أن عائشة كانت تتصح نفسها بما تعرف عن نفسها حين تتكلم مع صوفي فقد نظرت إليها بعين راضية، باسمة لها، ولم تستطع إلا أن تمزج عتابها بالملحاح: - لا تكوني هكذا يا صوفي! لا تنجري وراء الطياع التي ليست فيك ولا تلائمك. ولا تنظري إلى غيري بعين العتاب في حين تمدحيني. ستربّين أعداء بسيبي يثرون لك المشكلات.

- وهل أنا مهتمة بهم؟ - كما تفعل صوفي عادة حين تسمع كلاماً من هذا القبيل انفجرت ضاحكة: لا ينقصني غيرهم! - لولا أنت ما سمحت لأحد منهم، وفي طليعتهم ماري - أنجيليك، أمك! أن تقع عينهم علىّ يوماً واحداً. وما قعدت في بيت فيريول ساعة واحدة. - حين سمعت صوفي صوت الجرس المعلن قدوم الفطور قالت جافلة: - ما أشد ما كرهت هذا الجرس! أنا من يحتاجونها الآن، على قول: هاتي هذا، وخذني ذاك... لا تأتي أنت يا أيسية. سأدعني أنك توَعَّكْتِ فآتيك بالطعام إلى هنا.

- يا صوفي! - قالت عائشة بصوت عالٍ ناصبةً رأسها: - فكّري في ما تقولين؛ أي عيب ستورطيني فيه! أأَنْتُمْ آل فيريول بما صنعت لنفسي؟

- حسناً إذن — ابتسمت صوفى مقتنعة في نفسها بما قالته، وتظاهرت بتغيير موقفها — مصابك مصابي. أين أذهب بك، أتقاسمه معك. إن قلْتَ ما لا يقال فاغفر لي.

- ليس لأن كلامك يخلو من الصواب؛ غير أنني أريدك أن تخرصي على نفسك.

- وأنا أريد أن أبقى هكذا، ولكن لا أستطيع. لا تتأخرى إذن! حين بقيت عائشة وحيدة في الغرفة نهضت بسرعة لأن البكاء داهماها. حُيل إليها أن أحداً يناديها فوquette إلى جانب النافذة المطلة على الفناء بقدم ثابتة. الدنيا في صمت أبيض بعدما غمر الثلج كل شيء ووصل إلى كل مكان. ولا نسمة يمكن أن تغير شيئاً في هذا المدوء. وصديقتها شجرة البطم الكبيرة تخاف أن تتنفس فتنفس الثلج عنها. وفي اللحظة نفسها، ودون أن تعرف المصدر، انتصبت أمامها أيام طفولتها البعيدة، وقمن الجبال البيضاء. "بلادنا الآن دافئة لا يسقط فيها الثلج بغارة — قالت لنفسها — ولكنه أزلي على قمم جبالنا... ولا أتذكرة في فرنسا سقوط ثلج بهذه الغرارة. هل سقط الثلج أيضاً في سانس يا ثُرى؟" — وما إن سألت نفسها حتى أجهلها صوت الجرس الثاني. وفيما طفلتها التي لم ترها إلا مرتين، أمام ناظرها، مضت إلى من ينادونها وهي تفك في طريقة لتنساها.

لم يكن على مائدة الفطور إلا الزوجان: الكونت أوغستين — انطوان، والكونتيسة ماري — أنجيليك.

- تعالى، تعالى يا أيسى — دعت ماري — أنجيليك عائشة إلى الطعام — ونحن وصلنا تواً. يا حسرتي يا أيسى يا ابنتي، تبحثين عن كرسي أبيك المرحوم؛ ألا

يكفيكم بقى في مكانه مؤلماً لك ولنا! أليس صحيحاً يا أوغست؟ - نبهت الكونت بطرف قدمها.

لم يفهم الكونت الجالس كدبٍ هادئ في البداية ما سُئل عنه. ثم صحا على دفع أمرأته فقال مُسماً عائشة عدم رضاه عن كلام الكونتيسة: - حقاً يا كونتيسة لماذا تدفعيني؟ لماذا لا تجلسين مرتاحه؟...نعم يا شارلوت - إليزابيت أيسبيه، طلبت رفع كرسيِّ أبيك الكونت شارل دو فيريول. تعالى واجلسني إلى يساري. سيكون هذا مجلسك ما دمت حياً.

- طبعاً يا شارلوت - إليزابيت أيسبيه - وافقت ماري - أنجيليك زوجها كاتمة ازعاجها من مناكفة زوجها لها، قائلة في نفسها "سأدسُّ في فمك حين نصبح وحدنا ما قلته لي" - كما قال لك أوغستين - أنطوان ستجلسين على يساره. وحين نفارق الحياة ستدعين أخويك الأصغرين.

- ليطل الله عمركم، ولنُظلّلنا! لا مناسبة الآن مثل هذا الحديث. ولكن عندي لكم رجاءً: أريد أن أجلس على كرسي بابا السابق.

- شكرأً يا أيسبيه على شعورك نحو أخي الأكبر. - فرح أوغستين - أنطوان للرجاء الذي ينم على الاحترام فنادي الخادم: - هاتِ كرسي شارل دو فيريول الكونت وضعيه لشارلوت - إليزابيت أيسبيه. والآن كما كان شارل يفعل، لنصل إلى الرب.

وحين انتهوا من الصلاة أسرعت ماري - أنجيليك فرسمت إشارة الصليب، سبقت الجميع:

- ليحقق رب رجاءنا، ولisbury في الكرسي الذي رأيناه لائقاً بك يا أيسبيه - "لا نعرف هدفك الحقيقي إذ توطدين موقعك بين آل فيريول" وأضافت لنفسها "ما كنت أشك فيه يتبيّن أنه صحيح لولا أن الكونت، متذاكياً، لا

يوافقني. وهذا سينكشف بسرعة" ثم غيرت الموضوع مخفية ما يشغل بالها: لم تقولي شيئاً يا أيسية بشأن الثلج الغزير، ولا قلنا لك. ألم تخافي حين رأيت غزارته يا ابنتي؟

- لا يا ماما ماري – أنجيليك، أليس شتاءً بثلج كثير خيراً من شتاء بلا ثلج؟ بالإضافة إلى أنه كما يقال مفيد للزرع.

- يا ربي! أيسية هذه لا شيء يستعصي على عقلها! أتسمع يا أوغست؟

- أسمع... - غمغم الكونت من فوق صحن البيض الوحيد الذي يأكل منه.

- لا تسمع يا أوغست - غمزت الكونتيسة عائشة، ومزحت:

- لا تلحّي أنا أسمع. لأول مرة تريان الثلج؟ دعونا نأكل، ثم حين يأتي الشاي قولًا ما تريدان. ما قالته أيسية لا يخلو من الصحة. الثلج خير.

- لو عرفنا أنها ستثلج هكذا لرّكت لاحدي عربتينا عجلاتٍ خاصةً بالثلج.

- ولماذا أرّكب عجلات مانعة للتزلق؟ - أزاح الكونت صحن البيض الفارغ، وتكلم معتمداً بنفسه: - أنسّيت أن عندنا عربة من هذا النوع؟

- نعم، نسيت، عندنا – أجبات ماري – أنجيليك الكونت قائلة في نفسها: "يتلك انتهيت من شايك وتركني وحدي مع هذه الفتاة المطالولة الرأس" – الثلج يذوب كما هطل فلن أدعك تركب عربة صدئة من أجل عجلات تقاوم الجليد. وإن لزم يمكن أن تصنع منها.

قطع الكونت أوغستين – أنطوان فيريول كأس الشاي معتبراً ما قيل له إهانة، ورمى أمرأته كاظماً غيظه:

- أهذا ما تقولينه لي في شيخوختي؟... لا يا كونتيسة أمنزح معك فحسب، وليس في قلبي شيء عليك. تعرفين أن ما تذكرينه ليس من واجبي، في القصر من يهتم بما، وفي أرض الدار. ليس هذا ما تريدين. إن كنت أفسد جلستك

فأنا كذلك لا أحب سماع أخبارك التي تصدع الرأس، فأقوم من المائدة سعيداً بقيامي. ولكنني لا أظنكما ستغتابان كثيراً – سأرسل الولدين إليكما للإفطار.

– لا نحتاجهما، دعهما ينامان! – نادت الكوتنيسة في أثره.

– أتسمعين يا أيسية ما يقوله؟ – سأله أوغستين أنطوان بققام ممتلي وسائل.

ودون انتظار الجواب منزح مع الاثنين، ولمّح لعائشة: – ماري – أنجلييك المائية ستخبرك الكثير؛ اهرب منها!

– بالله ماذا يقول لك هذا العبوس الغاضب الخارج من هنا؟ – سألت ماري – أنجلييك عائشة كأنها غير مبالغة، وموهت كلامها بإشفاقها عليه: – لم ندع الكوتن يأكل على راحته وكأن الثلج يسقط علينا لأول مرة. الأفضل ألا يأكل كثيراً. ألا ترين كيف أصبح سميناً ثقيلاً يحمل نفسه بصعوبة.

– لا أوقفك في هذا يا ماما ماري – أنجلييك في شأن عمي أوغستين – أنطوان. بالقياس إلى عمره وضعفه مقبول. ثم إن طبيعة جسمه وتركيبه هكذا.

– يا رب، ما أعجبك! يا أيسية – نظرت الكوتنيسة إلى عائشة بودة وهي تغمغم لنفسها: "لا تعرفي بهذا الدب العجوز المنطوي على نفسه، لا أحد يعرفه كما أعرفه" ثم لامتها بمديح مازح. – لن تسمحي لنا أن نقول كلاماً غير مناسب بشأن آل فيريول حتى لو من خارج القلب. إن عاملتهم هكذا أفسدتهم. أتمن تصرفتم بحقي على نحو غير لائق من وراء ظهري. لماذا إذن قال "اهرب منها"؟

– لا تشكي فيه في مثل هذه المسألة يا ماما ماري – أنجلييك، ربما يمزح معنا

– أجابت عائشة الكلام المتصنع بجواب مشابه، قائلة لنفسها: "طردتكِ الكوتن من المائدة، وهذا هي الآن، كما قالت صوفى، تقترب من سرّنا. كان مجيء بون دو فيل أو أرجنتال مناسباً لي. لا أطيق اليوم تبادل الكلمات المائية"

- هكذا بدون قصد قلت ما قلت. غضب مني أوغستين - أنطوان الطيب، ولكن هل جروا الثلج من الفناء؟ - غيرت ماري - أنجيليك الموضوع، ونظرت عبر النافذة - لا حاجة لتوجيه خدمتنا، ها هم نظفوا أرض الدار. - "لا شيء يمكن الحصول عليه اليوم من هذه الخبيثة الصغيرة مهما توددت إليها. وهذا الذي صعد إلى غرفته سيأمر ولديه بالنزول فلن نجد فرصة للكلام. ثم إنني إن لم أصبح مجنونة آخر العمر فمثل هذا الكلام لا يقال في مثل هذا الموضوع. ولكنني لن أتركها قبل أن أفجر سرّها. - لماذا يا أيسية نحن على المائدة وقد انتهينا من الطعام؟ لأنك تنتظرين أخويك الكسولين؟ قد تنتظرين هذين النؤومين إلى الظهر. انظري، ها هو أرجنتال قادم."

بعد أن ألقى التحية توجه إلى عائشة ليقبل خدّها فقالت له:

- ماماً أولاً، ثم أنا...

- نعم هذا هو الصحيح - نهضت ماري - أنجيليك راضية بما قيل لابنها وما فعله - اجلسا أنتما، أما أنا فسألاحق أعمالي. سأوقظ بون دو فيل وأجعله ينضم إليكما.

- اتركي بون دو فيل نائماً يا ماما، حرام عليك، ينتهي من عمله المسرحي متأخراً.

- أتظنني لا أعرف متى ينتهي عمله في المسرح! - لم يعجب الكلام الكونتيسة فأجابت إجابة قاسية - لماذا يتأخر إلى الفجر؟ هلاً عاد باكراً!

- حسناً يا ماما، حسناً - قال أرجنتال في إثر أمه مطيناً مزاجها - أيقظي هذا الكسول!

- يا جان كم قلت لك ألا تكون ظالماً!

- أمنح يا أيسية!

- والمزاح فيه شيء من الجد - حسمت عائشة النقاش.

ذاب الثلج الذي سقط في باريس غير أن ما يشغل بال ماري - أنطوانيت لم يكن قابلاً للذوبان. بين اليوم والغد، والأمل في أن تروي عائشة حكايتها مضى شهر أو أكثر. ولم تلازم عائشة البيت بذرية الحداد. كانت تقابل دو إيدى، بل إنه زارها في بيتها، في بيت آل فيريول أكثر من مرة. وحضرها المسرح. ولم تكن تحرم نفسها من لقاءات صالون كلودين - ألكسندرин، ومن دو ديفان وباريير. وكانت تشتري لنفسها بعض الملابس، أو توصي بخياطتها. ولكن الكوتنية لم تكن تستوعب سبب حزن عائشة الدائم. وحين تستجوها خفية في بعض الأحيان لا تستخلص منها شيئاً ذا بال. ولم تكن بعيدة عن أن توصي بعض معارفها في هذا الشأن. وحين تلمح لولديها بما يشغلها لم يكونا يقبلان منها هواجسها. وكانت ذرائع كثيرة تحمي عائشة من هذه الجهة وتلوك. وصحيح أن كلودين - ألكسندرин، بعد وفاة شارل دو فيريول، فقدت حماستها للموضوع.

وحين تسأل ماري - أنجيليك، وهي في غمرة الحمّ، أختها الصغرى بشان عائشة، فتجيبها الأخرى بقصيدة "لا تُضيّفي إلى مشكلاتي مشكلة أخرى، أسامي شقيق ابن حميك الأصغر أوغستين - أنطوان" تردد عليها" ما حاجتك الآن إلى من نشأت في بيتهما، وبعدما قدموا لك ما قدموا!" وتبقي أيامًا تعبس في وجهها وثدلّ بنفسها. ولكن، ومع أن كلودين - ألكسندرين تتصرف هكذا، فماذا تفعل إن لم تتوافق أختها الكبرى؟ كانت في هذه الحالات تناقش قضايا عائشة كما الكتاب، ثم تلهبها بأخبار لا يمكن أن تخطر على بال، فتترك الاثنين تتماريان.

- ولكن كلودين – ألكسندرин لم تكن على علاقة بالموضوع حين ركضت ماري – أنجيليك إلى عائشة هذه المرة بعينين تقدحان شرراً:
- لا أعرف إن كنت سمعت يا أيسبيه؛ يقال إن أورليان في أسوأ حال. لا تتكلمي في الموضوع غير أني أظنه مات.
- يا ماما ماري – أنجيليك – ابتسمت عائشة – لا أعرف مصدر خبرك، غير أني رأيته أمس في المسرح.
- ربما تهيأ لك! – جحظت عينا الكوتنيسة ثانية متعجبة مما تسمع – هو مريض جداً.
- المريض يُشفى والسليم يموت – قالت رأيها ثم اختتمت: – وكان من يفتش عن النساء في كل مكان دون خجل في كرسيه الذهبي في المقصورة.
- ما قلته عجيب... ليحمي الله، ولا يسمع غيرك كلامي! كم تقدرين عمره هذا الرجل الوسيم؟ – حتى لو كانت ماري – أنجيليك تعرف عمر أورليان فقد سألت لتحديد عن الخبر المنحوس الذي حملته.
- لا أعرف، ولا أريد أن أعرف – كان جواب عائشة مختصرأً.
- لم يأت أجله بعد، هو من عمري... انظري يا شارلوت – إليزابيث أيسبيه يا ابتي، لا شيء يتورع الناس عن أن يشييعوه عنك... الله وحده يعلم ماذا يُشاع عنا نحن أيضاً... – قالت لنفسها "إن كان هذا تصريحك يا عنيدي الصغيرة فلن نجد مكاناً أفضل من مكاننا الآن لأسائلك عما أشك فيه من جهتك.
- على الأقل أنفُس عن قلبي، أرتاح" وسألت دون أي رحمة:
- أيسبيه، يا روحى، سمعت خبراً، إن كنت أملك، لا تكتميه عنى، أصحىج أن عندك طفلاً؟
- صحيح – أجبت عائشة عن السؤال الذى تهيأت له طويلاً.

- يا ملصيبي، ومن الأب؟

- ليس من تشكيّن فيه. يا ماما ماري – أنجلييك. لا تدّني بحقنا أنا والمرحوم بابا. والد طفلتي هو بليز – ماري دو إيدي شفاليه.

- هو! – فرحت ماري – أنجلييك وقالت لنفسها: "إن كان هكذا فلا مشكلة. لم يبق الآن ما نخاف عليه، نحن آل فيريول... لا أعرف لماذا تكتمون" ثم لامت عائشة: – هل ستبقين دائمًا بصلابة الفولاذ؟ تعالى عانقيني يا ابنتي حتى نعش روحينا.

- لا، دعني مررتاح في مجلسي يا ماما ماري – أنجلييك!

- نعم يا ابنتي، افهم موقفك... من يعرف بوضعك؟

- بضعة أشخاص بالإضافة إلى دو إيدي شفاليه.

- أسأل من آل فيريول؟

- من أسرتنا لا أحد غيرك يعرف.

- إذن يا أيسية لا تف瑟ّي سؤالي بغير ما يستحق لأن الأم تبقى متلهفة دائمًا. لماذا تكبدت كل هذا العذاب وكتمت عنا؟ أما كنّا ساعدناك؟!

- مَعْرَةُ الأم غير الشرعية عندنا في بلاد الشراكسه جعلتني أخفى طفلتي... يا ماما ماري – أنجلييك أعرف أنك ستقولين "هذه فرنسا وتلك شركيسيا"... ومع ذلك فالدم نار حامية لا يمكن مقاومتها. سنصلح وضع ابنتنا حين يتحلل دو إيدي من نذرها... – انفجر الضيق الذي كانت عائشة تسيطر عليه إلى الآن فانفجرت باكية.

- لهذا أقول لك تعالى إلى... – نسيت ماري – أنجلييك ما قالت وما فعلت فضمت عائشة، مغلوبة بعاطفة الأم إلى صدرها. ونصحتها وهي تمسح على رأسها ووجهها: – لن يجعلك تتخلى عن طفلتك ولو لم يبق في الدنيا غيرنا يا

ابنی. بلیز — ماری دو ایدی شفالییه رجل خلوق، نظیف. مخلص لکلامه و عمله، یتحلی بالرجلة... أنتم لا تقبلون رأیی غیر أن النساء سیئات الحظ... — كانت تود أن تضيف ما حدث لکلودین — ألكسندرین، غیر أنها لم تکمل کلامها.

حين يهم الإنسان يتذكر شبابه كثيراً. ويتفكر في ما عاشه: يتسلح بالأمل من المفاصل الخيرة في حياته ويتجنب المفاصل السلبية. ويحدث أحياناً أن يسخر من نفسه أو يرثيها. ولكن لأنه ما من أحد يخلو من سرّ سيء فإنه لا يكشفه لأحد بل يدفنه معه في قبره.

وليسوا قلائل الناس الذين أخبروا وهم في ريعان الشباب أعمالاً لم يُنجزها من عاش مئة سنة، ثم فارقوا الحياة قبل أن يشيخوا. الخير هو ما يُبقي على حياة الناس، وما لا يُنسىهم الأموات.

ما الذي فعله بليز - ماري دو إيدي شفاليه ليعتقد بنفسه أو يسخر منها أو يلومها؟ ولد دو إيدي في أسرة "فيكونت¹" غنية تنتهي إلى مدينة بيرغور في الجنوب الغربي من فرنسا. ومنذ يومه الأول راه والده أرمان ووالدته كلير على حب فرنسا. ونسّبوه إلى الجيش الذي يحميها إلى الفرقة المالطية² وأقسم ألا

¹ تعني حرفيًّا مساعد الكونت. غير أن اللقب شهد تطورات كثيرة وتقلبات على مرّ العصور. المترجم.

² كان المنضمون إلى الفرقة المالطية يتادون قبل عام 1530 بالمعلمانيين، والمضيافين، وإخوة رودس. وكان ملك فرنسا كارل الرابع أوكل إليهم حماية البلاد من المماليك والأتراك وغيرهم، وأقطعهم جزيرة مالطة لهذا الغرض. وكانت عنده وحدات مالطية في أماكن متفرقة من البلاد. وقد طُردت الوحدة من فرنسا عام 1792 لسلوك أفرادها. وبعد خمس سنوات أسس إمبراطور روسيا بفل الأول أول فرقة من هذا النوع في منافسة مع فرنسا وتركيا. وانتخب رئيساً لها عام 1798. وفي عام 1834 نقل مقر الفرقة إلى "ريم" ولا يزال فيها. المؤلف.

يؤسس أسرة طوال عمره. وحى لعدة سنوات حدود البلاد برأ وبحراً، ورقوه إلى رتبة العقيد. وكان قريباً من دوقية بيريسك.

كان أقوى سبب في انتماء دو إيدي إلى الفرقة المالطية، وحصوله على لقب الفارس (شفاللية) إلى الآن هو حبه للوطن. ولم ينندم على أنه قدم دمه من أجله. ولكنه الآن فقط أدرك أنه وقع في مأزق كبير حين أحب. وعلى ما يبدو فإن حبه لعائشة أقوى من حبه لفرنسا.

- أيقارن بين الوطن والمرأة؟ - سأل قائد الفرقة¹ في مالطة بليز - ماري دو إيدي شفاللية - فرنسا واحدة والنساء كثيرات. جئتنا برجاء ليس له رجاء، وهذا ما يسمونه في الفرقة المالطية "عار - جبن"

- وهل ما على جسدي من ندوب علامات عار وجبن؟! - أجاب دو إيدي الرئيس الذي لا يجوز لإيدي أن يعرض عليه بكلمة واحدة.

ابتسم الرجل الأسمير الرقيق الذي كان يتظاهر بأنه لم يسمع شيئاً. واقترب من الجدار الذي عُلقت إليه السيوف والخناجر والرماح، وقال إلى من وراءه: - لطخت بطلاتك التي اجترحتها في سبيل فرنسا بالمرأة التي جثوت على ركبتيك من أجلها.

- مهما قلت لي فعلّي دين يجب أن أتحمل من أجله. - رد دو إيدي شفاللية كاظماً غيظه على القائد الذي سخر منه - ولكن لا أسمح لك أن تخين المرأة التي أحببتها.

¹ في الأصل: ماجستر، وهو لقب يبدأ من معلم القرية وينتهي بالقاضي الحاكم، وهو ما يbedo من السياق أنه المقصود. المترجم.

- وماذا يمكنك أن تفعل بي؟ - مرة أخرى ألقى القائد سؤاله إلى ورائه دون أن يلتفت. - أتدخل معك في مبارزة بالرماح؟
- خذ أنت أحد الرمّحين وأعطيك الآخر.
- أفعل هذا لأجلك. وستبقى المرأة التي تحبها مع طفلها أرملة. لا تستغرب.
نحن لا شيء يحدث في فرنسا ولا نعرفه. من ينكث بنذرها لا نغفر له شيئاً! -
صفق القائد وأكّد على الفارس المدجج بالسلاح، والذي استدعاه إلى الغرفة:
لا تدعوا هذا يقيم ساعة واحدة في مالطة، أرسلوه إلى فرنسا! واطلبوا من
"عملائنا" ألا يرّفعوا عنهم لحظة، ويتبعوا كل خطوة يخطوها. هل فهمت
يا بليز - ماري دو إيدي شفاليه؟ لا تنس الطفلة التي تُخفيها وأمّها ووالديك
المقيمين في بيرينغور!... - قال القائد الذي لم يُدِر وجهه وراء الفارس الذي
كانوا يُخْرِجُونه من الغرفة.

في اليوم الذي عاد فيه بليز - ماري دو إيدي شفاليه من مالطة جاء لزيارة
عائشة مفكراً في هذه المقابلة، وفي الأخطاء التي ارتكبها في شبابه، مستبقاً
الزمن حتى يراها.

في ذلك اليوم الصيفي كانت ماري - أنجيليك في الفناء العابق بأنواع عطور
الزهور. انتبهت إلى صوت العربية، وعرفت من كان ينزل منها: نادت الكونتيسة
لشفاليه الذي كان يدخل الدار ، قائلة لنفسها "أتّيت في الوقت المناسب
تماماً. كنت أريد محادثتك":

- تعال إلى هنا يا إيدي شفاليه، لا أحد في البيت. - وقالت ملئ قبّل يدها
محبّياً: - شارلوت - إلزابيت أيسبيه صحبّها أخواها لينزهاها على ضفاف
السين، المسكينة انتظرتك طويلاً غير عارفة سبب غيابك. تفضل بالجلوس؛
حان وقت عودتكم.

- ليس من عادي ألاً أطلع شارلوت - إليزابيت أيسبيه على المكان الذي أذهب إليه، ولكنها ربما ما كانت تعرف موعد عودتي.
- حسناً تفعل بإطلاعك أيسبيه على أعمالك. هكذا يجب أن تكون العلاقة بين المتحابين. أما الكونت أوغستين - أنطوان زوجي فلا يطلعك على مقصده ولا أين هو لأنه خبيث خفي. تحاباً ما دمتما شابين، وليحرص أحدكما على الآخر، وأسعدنا نفسيكما! يا صوفي ألا ترين ضيفنا الكبير؟ - نادت الخادمة التي وطئت عتبة الغرفة. - هاتي لنا بعصير منعش. ماذا رأينا أنا والكونت في شبابنا! ظللنا نكح من أجل الأولاد والبيت ونسينا أنفسنا. والآن صرنا طي الإهمال. الحق لا يجوز تحميل أيسبيه ما ليس ذنبها. جهدت حتى تأخذني معها، ولكن قلت لنفسي ماذا سأعمل بين هؤلاء وأصدع رأسي فامتنعت. لا أعرف إن كنت أثرث. والآن أسمعني أخباركما لأنني لا أريد أن أتكلم عليكم أنت وأيسبيه كلاً على حدة.
- شكرأً يا كونتيسة. على تفهمك إيانا هكذا. - لم يُد شفاليه امتعاضه من مقابلة ماري - أنجيليك بدلاً من كان يريد مقابلتها.
- ولم لا أفهمكما! - لاتسمعا كلام أحد؛ لم تفعلوا ما يعيكما. ما يجز في نفسي عدم إخباركما إيانا. كنت أول من على أيسبيه إخبارها ولو لم تنشأ إخبار أحد. أفهم: ليس محموداً أن تلد طفلاً بلا زواج. لم يكن على أيسبيه إخفاء ولدها الوحيد والحال أنت والدها. أتعجب إن كان الشراكسة يعييون على المرأة ولداً بلا زوج؟! ونحن، صحيح أننا نسكت، غير أن أموراً كثيرة تحدث في حياتنا. ولكنك تحب أيسبيه جداً. ولو لم أكن أعرف هذا لما ذكرته لك. صدقني أنا لا أخطئ في أمور الحب. وسأعلمك - ساحني - بأمر لا تعرفه: ظللت أقول لأيسبيه "بليز" - ماري دو إيدي شفاليه ليس حراً في تأسيس

أسرة" ومع ذلك أحبتك. وأنت لو لم تكن تحبها لما جلبت لنفسك المشكلات. هل ستعيشان هكذا غير قادرين على التواصل. والطفل ما ذنبه؟ حرام! ماذا فعلت في شؤون فرقتك العسكرية؟ إن شاء الله لا تهددك جماعتك ... - توقفت قليلاً ثم أكملت: - إن شئت كلمت أورليان رغم مرضه من أجل الموضوع ولو أنكما تصادمتما أحياناً. ولن نقف عنده بل نصل إلى الملك نفسه.

- شكرأً يا كونتيسة - قطع دو إيدي شفاليه الطريق قائلاً بفتور: - لا أريد أن يتدخل أحد لأنني اعتدت أن أحلى مشكلاتي بنفسي.

- ولا والدك الفيكونت أروان أحد رجالات فرنسا النافذين القساة! ابتسم بليز - ماري دو إيدي شفاليه في وجه الكونتيسة، وقال لنفسه دون أن يجرب عن سؤالها "لم يكن تصرف قيادة فرقتي في مالطة مشكلة بل والدي الذي لا يمكن التفاهم معه. وأمي لا تخالفه. من أين تعرف هذه ما يجري في أسرتنا؟" - سأله دو إيدي نفسه دون أن يعرف في من يشك - "أيعلم أن تكون أيسية؟.. لا، ليست من النوع الذي يقول ما ليس ضرورياً."

- لم يُجرب عن سؤالي بشأن والدك - قطعت ماري - أنجليليك أفكار دو إيدي شفاليه.

- كما قلت لك يا كونتيسة لا أوسط أحداً في قضياباي. - أجاب شفاليه هذه المرة بنبرة أقسى وهو يقول في نفسه: "ما أشد فضول هذه المرأة؟"

- فهمت، ولكنني سأثني عليك الآن: - يعجبني فيك كونك إنساناً رزيناً صلباً. أعتبر مصاهرة مثلك سعداً لي. خل قضيتك بسرعة، واجمع شمل أسرتك! غير أني لن أسمح لك أن تبحرح قلب شارلوت - إليزابيت أيسية ابنتنا! ولن يسامحك أخوها كذلك.

- أعادك يا كونتيسة ألا يبلغ موقفنا هذا المبلغ. هؤلاء الذين ننتظرهم سيتأخرن. اسمحي لي أن أُلْحِق بهم.

لم يجد دو إيدي شفاليه عائشة وصاحبها على صفة السين. ولم يجد من المناسب أن يعود إلى بيت آل فيريول فرجع أدراجه إلى بيته.

حين عاد المتنزهون في المساء سالت الكونتيسة ماري - أنجيليك عائشة:

- هل وجدكم شفاليه؟

- وهل عاد؟ جعل الفرُّ - القلُّ عائشة تصرخ.

سالت الكونتيسة عائشة:

- أين كان؟

- كان في زيارة لوالديه في بيرغور. - غيرت عائشة الموضوع كما تفعل الكونتيسة المراة، مُخفيّة كونه في مالطا - أليس بخير في صحة جيدة؟

- ربما كانا كذلك. لم نتكلّم في هذا الموضوع - مع أن ماري - أنجيليك ندّمت على سؤالها وهي تقول "يا ربّ هذان الاثنان المزعجان، كم هما متشابحان في حفظ أسرارهما التي لا نهاية لها! عرفاً أنني سليمان التوابايا فلم يجدا غيري يكذّبان عليه". امتدح شفاليه عائشة على أمل أن يفتح مديحه له مفتاح أسرارها: - بحالسنا شفاليه وأنا أكثر من ساعة فتعجبت من صلابته وفطنته وذكريّه. أخلاقه جميلة كما مظهره... مثل هذا الرجل - لا أكتم - لو كنت شابة لأعجبت به، غير أنني لم أكن محظوظة. أقول هذا ولكن أوغست المسكين، وأنت تعرفي، ليس امرأً سيئاً. وكلودين - ألكسندر، يا حسرتي، كان مطلّبها في الزواج مثلّ هذا الرجل، ولم تجده إلى الآن. لا يا أيسيله لا تطني أني أغازله من أجل أخي التعيسة. لاسمح الله! ما قدمته لك، وإن لم ترضعي من صدري، حلال عليك. فكيف أنتزعه منك! أريد أن تعيشي محظوظة مع

من أحبيت ولذا نُقْدِي ما يتosل به إلَيْكَ بليز — ماري دو إيدِي شفاليه الرجل الممتاز دون أن تسمعِي كلامَ أحدٍ أو اعتراضَه.

— مهلاً، مهلاً يا ماما ماري — أنجيليك، فهمت كل شيء غيرَيْ أني لم أفهم توسلُ شفاليه الذي تتحدثين عنه. ليس بالإنسان الذي يتسلل، ولكن لا أعرف ما الذي يتسلل منه.

— ألن يتسلل من أجلك أيضًا؟ — سألت ماري — أنجيليك عائشة، باسمة، مخفية امتعاضها من السؤال الموجه إليها.

— لا من أجلي ولا من أجلِيْ كان — كان جواب عائشة التي تبتسم للكونتيسة أشد احتصاراً.

— كفى يا أيسِيه، ظننتُني أعمل معرفةً فإذا بك تعترضين على كلامي دائمًا... قلنا ما قلنا وانتهى. حين تجتمعان أنتما أسلأ نفسيكما، واحذرَا. لا تبحث عنِهم وأنت لا هم عندك.

— ساحِيني إذا جرحت قلبك يا ماما ماري — أنجيليك.

— لا شيء لا أتحمله يا أيسِيه من أجلك إن عرفت أنك ستكونين محظوظة. أسيسي أسرة دون أن تتعالقي بـ"فروسيَّة" شفاليه، وهو سيسقُر على وضع ما. كيف يقابلوك والداه؟ سألت دون اهتمام.

— كلُّ مهتمٍ بمصلحته! ألسْتِ من قال هذا يا ماما؟

— نعم أنا! — امتدحت ماري — أنجيليك نفسها ولامت عائشة: — كأنك تفهمين الآن بصعوبة ما أقلق عليك لأجله.

في اليوم التالي التقى دو إيدِي وعائشة. كان شفاليه فَكَرَ كثيراً: هل يخبر عائشة بما جرى له في مالطة وخصوصاً تحديد القائد له. ولكنَّه عندما روى لها يغله صدقه كانت عائشة هي من نصحته:

- لا تيأس يا إيدي ! إن أخلصنا لحبنا فلن يقف أمامنا إلا الله.

- أنا عملت ما عليّ يا أيسية. لم أكتم تحليي من قسمي ، وأعدّ نفسي حراً.

- لا تدعنا نستعجل على ما سنقول وسنفعل. لسنا وحدنا يا إيدي. سيلين الصغيرة ثالثتنا. هؤلاء لا يعرفون معنى الحب والأسرة والطفل. من لا يحب عديم الرحمة، ولذا لن يرحموك. لا أريد إلقاءك إلى التهلكة من أجل حبنا. سأستلم ابنتي بعد مدة. أنت مطلوب منك أن تحبنا وحسب... ستتجدد هذه الأزمة مكاناً لها بين المصائب التي مررت بها. لا يا إيدي لن أبكي. كن صلباً أنت. واحذر من يتبعونك. أقول لك إني منذ اليوم لن أسمح لنفسي بالبكاء والهشاشة. - كانت عائشة تود أن تضيف إلى من تنصحه أنه يُحزنها تفضيل والده الفيكونت أرمانت ووالدته المركيبة كلير حبّ الوطن على حبّهما هي وابنهما فلم يساندا ابنهما واعتبروا ابنتهما غريبة، ولكنها صبرت قائلة: "في وقت آخر"

XII

— يا رب!... — الخبر الذي نُقل إلى ماري — أنجلييك جعلها تصرخ —
أوغست، لاروش، أين أنتما؟ كلودين لا أعرف أقتلوها أم جرحوها... لا يا
أيسية، لا عمل لك هناك.

— يا ماما، — عائشة شاحبة تماماً قست على ماري — أنجلييك — لن أدعك
تدھبین وحدك!

كانت دار كلودين — ألكسندرин هادئة تماماً كأن شيئاً لم يحدث. أول من
دخل البيت كانت عائشة وبون دو فيل. وبعدهما لاروش وديستان. حين
وصلت ماري — أنجلييك التي تختنق من البكاء يسندها أوغستين — أنطوان،
وأرجنتال من الجانبين إلى المرتفع قال ديستان لها عند العتبة:

— كلودين — ألكسندرين الكونتيسة بخير، سليمة، لافريني هو...
انتزعت ماري — أنجلييك نفسها من زوجها ومن ابنها وهرعت إلى الغرفة. على
أرض الغرفة مستشار المجلس الأعلى لفرنسا لافريني مقتولاً، والمسدس في
قبضته. الآن عائشة وبون دو فيل تمسحان على جسد كلودين — ألكسندرين
وتحدّثانه.

— عجباً! أخبروني أنك قُلت!... ومن هذا المدد على الأرض؟ أهو
لافريني؟... أقتلته؟ أُقتل على يدك يا كلودين؟

التجاء كلودين إلى صدر أختها وقالت متوجهة المصيبة التي حلّت بالبيت:
— اطمئني يا ماري، لا ذنب لي. أنت تعلمون، وغيركم أن لافريني كان يلاحقني
طالباً مني الزواج. ولما قلت له، كما في الأيام السابقة: "لا"! سدد المسدس إلى
جسده وانتحر.

— أ عندك شاهد يا كونتيسة؟ — سأله الكونت أوغستين — أنطوان.

- إن لم يشهد لي الناس الذين يعرفون إصراره على ملاحمي فليس لي شاهد اليوم. ومع ذلك فالله شاهدي — رسمت كلودين — ألكسندرین إشارة الصليب.
- لا يُستدعي الله شاهداً يا كلودين — لم يجد الأسقف بيير الذي دخل الغرفة كلام كلودين في محله. — بل يفصل بين الناس مسيئهم ومحسنهم.
- الله إلهه، ولكن ألا يجب أن نفعل شيئاً في هذه القضية؟ تلهفت ماري — أنجيليك.
- ماري، يا أختي الحبيبة اطمئني. — نصحت كلودين — ألكسندرین أختها الكونتيسة مرة أخرى — سيصل حالاً من سيشيتون براءتي.
- دخل رجال الشرطة الغرفة، وسأل كبارهم:
- من منكم كلودين — ألكسندرین غيرين دو تانسين الكونتيسة؟
- أنا — قالت كلودين بصوت واثق ثم أكملت: — هؤلاء كلهم أهلي وأصدقائي.
- ولكن لا فكرة عندهم عن المصيبة التي أمامكم. دخلوا قبل لحظات أمامكم.
- نرجو من الجميع باستثناء كلودين — ألكسندرین الخروج من الغرفة. وأنتم كذلك: المحترمان أوغستين — أنطوان دو فيريول الكونت، والأسقف بيير غيرين دو تانسين.
- وأنا ماري — أنجيليك دو فيريول الكونتيسة — بادرت شاعرة بشيء من الحِطة لعدم ذكر اسمها. — أنا الأخت الكبرى كلودين — ألكسندرین غيرين دو تانسين الكونتيسة.
- نعم، نعم يا كونتيسة، نعرفك. ونعرف شارلوت — إليزابيث أيسبيه. يجب أن تستجوب كلودين — ألكسندرین غيرين دو تانسين الكونتيسة. سبستنديكيم إن احتجنا إليكم.

حين تحدث الشرطة في موضوع الجريمة مع كلودين – ألكسندرин، جيء بالشهود إلى داخل الغرفة. وقرروا الورقة المطوية في الجيب الخلفي للافريني: "إن رأيتمني مقتولاً فالمذنبة هي كلودين – ألكسندرин غيرين دو تانسين. ظلت تعذني بالزواج، وتؤجل من اليوم إلى الغد، وتخذعني حتى كرهتني نفسي والدنيا، وعجزت عن التحمل. سأكون راضياً بأي حكم ترونه مناسباً بحق من لعب بجي الصادق. لافريني"

نقلت كلودين – ألكسندرин عينيها بين رجال الشرطة والشهود معتبرة ما سمعته إهانة ومضحك معاً. ولكن سلوك لافريني المعيب معها جعلها تنفجر: - أية جنون هذا؟! أقتل الإنسان نفسه لأنه غير محظوظ؟ لا أريد أن أقول كلاماً سيناً بحق هذا الذي اتّحد أمامي. ولكن الأمر مضحك. - رعايا – وافقها كبير الشرطة، وأكمل: - ولكن علينا توقيفك لمدة قصيرة ريثما تتوضّح أبعاد القضية.

سقطت ماري – أنجيليك وهي ترى أختها تقاد إلى خارج الغرفة قبل أن تجد الفرصة لتصرخ. وحين أعادوها إلى وعيها لامت أخاها الأصغر الواقف أمامها: - كان الأفضل أن ترافق أختك إلى حيث اقتادوها من أن تقف على رأسي. - ستظهر براءة أختنا يا ماري. وأنت تعرفي أن كلودين لا يمكن أن تفعل مثل هذا. ولا تجهل الشرطة أيضاً.

- وأنا أعرف براءة كلودين، والشرطة تعرف – جلست ماري – أنجيليك – أليس لهذا تحرقي الإهانة التي لا تستحقها نحن آل دو تانسين وآل فيريول. كم مرة قلت لتلك المنحوسة: لا تسمحي للافريني صاحب الأنف الضخم أن يحوم حولك أو يقترب منك.

- يا كونتيسة ماري لا حاجة لهذا الكلام - مرة أخرى هدأ الأسقف أخته. -
هذا الذي انتحر، اطمئني، سيفجد حيث رحل من يستجوبه كما يستحق.
- لا يعنيني هذا الشرير، بل أختي حماها الله. أين أنت يا أيسية؟ لا أراك!
- شارلوت - إليزابيت أيسية وبون دو فيل ذهبا لزيارة دو فليري - أجاب
الكونت أوغستين - أنطوان.

- هكذا؟ - فرحت ماري - أنجيليك حتى عاد الدم إلى وجهها. ثم سالت
الكونت ولو أنها يتغير: - وأنت؟ أنت لماذا لا تتحرك؟ لماذا لا تذهب إلى
الوصي أورليان؟

حين نظر الكونت أوغستين - أنطوان ساهمًا في وجه زوجته سأل أرجنتال أمّه
مُسِمِّعاً أباه:

- ماما كأنك نسيت أن أورليان مات.
- حقاً دار رأسي. هذا المسكين مات أيضاً... ولكن إذا مات فلللك حيّ،
يجب أن نذهب إليه ونفهمه حالنا.

- لا تغتمي يا كونتيسة! - نصحها الزوج أيضاً. - أنا واثق من براءة كلودين.
سترينه فريباً حرة.

- بديهي أنها بريئة، وبديهي أن يطلقواها! إذا كنتم أنتم آل فيريول وآل تانسين
طوال عمركم تأبون مقابلة الملك ورجاءه في أي أمرٍ فأنا مستعدة أن أذهب
بشخصي وأترجاه. لن أسمح لزير نساء فاسق مثل لافريني أن يلطخ سمعة أختي
الطاهرة والكاتبة الشهيرة. لا أجافي الحقيقة. أيفر لـ غناه ومنصبه العالى!
المرأة التي أوقعت آل فيريول وآل تانسين، وأوقعت نفسها في ورطة، أقامت في
سجن "شاتليه" يوماً وليلة ثم نقلت إلى سجن الباستيل. وفي اليوم نفسه انتشر
الخبر في أنحاء باريس. وكلّ كان يزيد في القصة وينقص على هواه. من يبرئ

الكاتبة كانوا كثيرين، ومن يفهمها ليسوا قليلين. ولكن من يعرفون حقيقة الأمر، بل من يسمعون به قالاً عن قيل كانوا يسخرون من طريقة موت المتحرر، المغموم بالنساء الجميلات، في سبيل الحب من طرف واحد بدلاً من الإشراق عليه. ولأن كل قضية تحتاج إلى وقت، ومع أن إركيول أندرية قد تدخل في قضية الكونتيسة غيرين دو تانسين والمكسيز لافريني أكثر من مرة، وربما كان نافعاً تدخله، فقد استغرقت القضية ثلاثة أشهر قضتها كلودين – ألكسندرин في سجن الباستيل، ثم خرجت مع وثيقة براءتها.

– كنت واثقة من براءتك يا كلودين – قالت ماري – أنجيليك لأختها وهي تعانقها – ولكن لم أتوقع الاحتفاظ بك كل هذه المدة. كيف سارت أمورك يا أختي الصغيرة؟ قضاء ساعة في السجن وسنة كاملة سواء. كان كلودين تعود إلينا بقامة أرشق، ووجه أحلى يا أيسية. لي نصيب في ما حدث لك يا كلودين مع لافريني فاغفري لي. صحيح أن أيسية أيدتك بشأن هذا اللثيم، ولم تؤيدني... حرم نفسه بنفسه هذا الفاسق الكبير مما جمع من أملالك طوال حياته.

– كفى يا ماري لاتتصدي رؤوسنا بحديثه! خير منه أن ُطلعوني على أخباركم. كيف تجري أمورك يا أيسية؟

– وكيف ستجري ونحن، أيسية وأنا، لا هم لنا غيرك؟ – قالت ماري – أنجيليك دون انتظار جواب أيسية – ولسنا وحدنا بل آل فيريول وآل تانسين. تعرفين حقيقة مشاعر كل إنسان نحوك حين تقع في أزمة. يا كلودين لم أعرف أن أيسية تحبك كل هذا الحب. لم تترك أحداً تستطيع الوصول إليه من أجلك. كانت تستعد لمقابلة الملك لو لم يُطلقوا سراحك.

- شكرًا يا أيسية - مدت كلودين - ألكسندرин رأسها نحو عائشة وقبلت وجهتها.

- وهل يستحق ما فعلت الشكر يا كلودين! بين الأهل الذين يرتبطون بالحب والحرص لا تقطع العلاقة.

- نعم، نعم يا أيسية، فعلت كل ما تستطيعين وقت مرض أبيك المرحوم شارل دو فيريول، وقت أزمة كلودين. وتقولين: هذا "لا شكر عليه". ولكن لا أستطيع إلا أن أعبر لك عن رضاي عنك. وماذا ستكون أمور أيسية؟ كما كانت.

- ما تقولينه يا ماما ماري - أنجلييك فيه نصيب من الصحة. - خطرت عائشة ابنتها الصغيرة فتهنّدت. - كيف لا تقلقين على طفلك الذي في مكان ما؟

قالت كلودين - ألكسندرин بعد سكتة:

- هذا صحيح يا أيسية. ما تعانيه في قلبك لا يفهمه أحد كما أفهمه. شهور سجني الثلاثة جعلتني أفكّر في أمور كثيرة. لا تسمح أن يحدث لك بشأن طفلك ما حدث لي. خذها دون الاستماع إلى نصيحة أحد، وربّاها أنت وشفالبيه.

- وهذا ما أقوله أنا أيضًا يا كلودين - أيدت ماري - أنجلييك الكونتيسة أختها - غير أنه لا يعجبني سلوك من سيصاهرنا شفالبيه وتربياته. لا أعرف إن كان يضيّع الوقت في سفراته إلى مالطة أم أرهبوه.

- لا - أسرعت عائشة قبل أن يدان حبيبها - ليس بليز - ماري دو إيدري من هذا النوع من الناس. هو حاضر حتى في هذه اللحظة. هجمت نوبة السعال التي قاومتها عائشة إلى الآن، فسعلت حتى كادت تختنق.

- لماذا إذن يسّوف في المسألة؟ - سألت ماري - أنجلييك كأنها جاهلة بموضوع عائشة ودو إيدي شفاليه، ولامتها على سبيل القلق عليها: - سعالك هذا لا يعجبني. من وقت رجوعك من سانس لم تكفي عنه. كم قلت لك: الشتاء بارد؛ البسي جيداً، واحرصي على صحتك. ولكنك عنيدة لا تسمعين الكلمة.

- قلت لك قبل يا ماما ماري - أنجلييك، وأقول الآن إنني أنا من يسّوف القضية. لا أريد إفساد خدمة دو إيدي العسكرية. هم وعدوهم أن ينسبوه إلى حرس الملك؛ فإذا تحقق أمكننا تأسيس أسرتنا.

- أما قلت لي إن الموعد كان العام الماضي؟ - لم تكن ماري - أنجلييك تستطيع السكوت عن موضوع الملكية الذي يشغل بها.

- قلت لك غير أننا لم نعد من يعرض طريقنا.

- ربما كان أورليان؟ ابتسمت كلودين - ألكسندرین.

- نعم يا كلودين، عرفت.

- لهذا كنت قلت لكما لا يجوز أن تعاودي أحداً. - التفتت ماري - أنجلييك نحو عائشة فيما تناولت بلوم الاثنين. - يا أيسية، يا من لك أسرار لا تنتهي... لو أخبرتني لكنت حللت لك الموضوع منذ زمن بعيد... والآن إذ توفي أورليان الرجل المبارك العظيم - ليوجهه الله حيث رحل إلى الخير - سنعتبر طريقكما مفتوحاً؛ أليس كذلك يا كلودين؟

- تباً له يا ماري! أي نوع من البشر هذا الذي تمحشه؟ هذا واحد من دمروا حياتي. دعينا نترك هذا الحديث ونساعد أيسية ودو إيدي.

- لا أعرف يا كلودين ماذا ستفيدين في وضعك الحالي. لكن من الغد أعدك أن أساعد أيسية.

- لا، لا — أسرعت عائشة، لا يقبل دو إيدي...

- ما الأمر؟ — ارتفع صوت ماري — أنجلييك رغمًا عنها. — انسيا ما يعجبكما وما لا يعجبكما. زماننا يحتاج منا إلى أن يحرص كلّ منا على الآخر. وعلىينا أن نجد من يتكلّم إلى والدّي شفاليه.

- هذان هما يا ماما من لا يجوز التحدّث إليهما. — قالت عائشة، ثم أكملت بصوت ناعمٍ نادِم: — هذا فيما بعد، لاحقاً.

- ولماذا فيما بعد؟ أيّجان فرنسا أكثر مما نحبها؟ ظل أرمان الفيكونت وزوجته المركيزة كلير ترددان هذا فشجعا ابنهما على الالتحاق بالفرقة المالطية، فدمّرا حياته. سأطلب من الكاردينال إركيول — أندريه فريلي أن يتحدث إليهما.

- اسمعي ما يُقال لك يا ماري، لن تطلي من أحد التحدّث إليهما — خاطبت كلودين أختها بخشونة — دعي عائشة ودو إيدي يفعلن ما بسعهما.

- هذا هو، هذا هو... — احتدّت ماري — أنجلييك — انظرا ما حدث لكم وأنتما تقولان هذا وأنا أطيعكم. أهكتماني أنتما الاثنين. — ندمت الكونتيسة بسرعة على ما تلفظت به — لا أعرف، تدفعاني إلى أن أقول أشياء كثيرة؛ ساحقاني. حسناً سأطيعكم الآن أيضاً. ولكن يا أيسيله إن تراخينا في حل مشكلتكم فلن أستشيرك لا أنت ولا شفاليه في ما سأقول وما سأفعل. والحال هذه اسمعي يا كلودين ما سأقول لك: لن أسمح لك أن تقيمي بعد الآن في البيت الذي فاحت منه رائحة جثة لافريني. تبقين عندنا ريشما تبعين بيتك، وسنساعدك حتى تشتري بيتاً أفضل. أليس صحيحاً يا أيسيله؟

- لا أعرف يا ماما؛ هذا يعود إلى كلودين.

- أسمعتِ يا ماري ما قالت لك؟ هل ستجعليني أبدل بيتي المريح لأنّ مجئونا ما انتحر فيه؟ لن أطيعك حتى لو ترجاني الملك نفسه.

- وهل تستطيعين العيش فيه يا كلودين؟ - استغربت ماري - أنجليك. - أقول هذا لأنك ستظلين تذكريين ما جرى لك فيه.

- ولماذا لن أستطيع العيش فيه؟... وحدث لي غيرها هناك... - ابسمت كلودين - ألكسندرин بسرعة لأنها تذكرت أنها وضعت مولوداً في هذا البيت، فخانها صوتها. - سأعيش فيه نادمة على أنني لم أسلب الرجل القبيح الذي مدحه لي ماله الكثير، وأضحك على من قتل نفسه أمامي. أليس صحيحاً يا أيسية؟

- لا يمكن أن يقال في التهمة التي أُلصقت بك يا كلودين غير هذا - وافقتها عائشة من خارج قلبها.

- اسمعوا هاتين، اسمعوهما! ما أسعدهما كيف تتفقان! أنا لا يمكنني أن أقول مثل هذا. شباب اليوم ليسوا مثلنا. الخوف من أن نهاية العالم باتت قريبة. إن كنت على خطأ فاغفر لي يا إلهي العزيز، إلهي العلي. قالت ماري - أنجليك بحجة صوت الجرس المسموع الآن: - حسناً اذهبنا، حان وقت الغداء. أنا سأخفف اليوم من طعامي قليلاً. توقفي قليلاً يا أيسية! ألا يسمع لاروش سعلتك من دون أن أقول لك؟ لأجل هذا يا كلودين أقول: من بعد وفاة المرحوم شارل دو فيريول أهملنا الطبيب. اشربي سوائل حارة بانتظار أن يطرد شهر أيار البرد منك. واطلي من صوفي طستاً من الماء الساخن مساء كل يوم. وأنا سأبحث لك عن دواء عندي. إن لم أهتم بك فمن يا حسرتي سيهتم؟! وأنت يا كلودين أهملت صحتك. - لامت أختها التي لا تسمع الكلمة. وحين بقيت وحدها تابعت الاثنين بالكلام: - إن بقيتما جميلتين فحسب دون صحة جيدة فلن يسأل أحد عنكم.

الكتاب السابع

I

اليوم هو الرابع عشر من نيسان عام 1727.

بعد غد ستكمم سيلين السابعة من العمر. لم تغمض عائشة جفنيها طوال الليل إذ كانت تنتظر صباح الانطلاق إلى سانس بلهفة، كما أن ساعدها لم يتوقف طوال الليل. سؤال واحد كان في ذهن عائشة: "هل ذهابي وحيدة إلى عيد ميلاد ابنتي تصرفٌ صحيح؟"

من ستتصحب عائشة؟ إن انتظرت تسرير شفاليه من الوحدة المالطية فلن ترى ابنتها ولا تسأل عنها يكُنْ دو إيدي يلتزم العهد الذي التزما فيه بإخفاء الأمر مُكرهين سبع سنوات. ولم يكن السبب أن شفاليه يخاف على نفسه. بل كان عليه أن يخفي الأمر لرحمي ابنته. ولكن هل قدوم المولودة سُرّ بالنسبة إلى آل فيريول وآل تانسين وآل كالاندرین وآل بولينغبروك؟ بيد أن السر الذي تذيعه أنت غير السر الذي يشاع عنك. إن اعترضت الفرقة المالطية فلا شيء يخطر على بالها وتتبرأ عن فعله.

"لا ألومك يا إيدي – لامت عائشة نفسها وهي تحدّي نفسها. – أفهم لماذا والدك غير راضيين عني وعن سيلين. وكيف ألوم من يخاف على حياة ابنه؟ أنا المذنبة إذ ورطتك في أزمة مع أسرتك. لا، لا أريد أن تخسر حياتك من أجلكنا! لو كنت أعرف ما ينتظر ابنتي في المستقبل لما ترددت في التضحية بنفسك من أجلك. ولكن كان الأفضل من كل ما عدّاه هو أن تصفي علاقتك بوحدتك العسكرية بسلام، وتصبح ثلاثتنا في مكان واحد. افهممنا يا إلهي،

وحقق لنا أملنا. ولِئن قلوب من يعتضوننا! ولن أهجر ابنتي، مع أني وضعتها على نحوٍ معيب، لأنه جرى بعلمك. متى خُلت مشكلتنا فلن أُبقي سيلين في الميتم ساعة واحدة. وهناك ما هو آمٌ من أن تخفي عَمَّن ولدَهَا أنك أمهَا؟!... ولا ألوم إيزابيل — لويس. وأشكراها على أنها تسمح لي ببرؤية سيلين. أدعوا لها أن تعيش طويلاً، طويلاً، وبصحة جيدة لأنها فاعلةٌ خير في خدمتك"

خلال مسيرة نصف النهار كان السائس جاك العامل طوال عمره لدى آل فيريول، والذي أوصته ماري — أنجلييك، مع مكافأة مالية، أن يحرص على عائشة التي ينتابها السعال دون فواصل طويلة، يلتفت إليها من حين لآخر. وأخيراً قال لها:

— ارفعي زجاج النافذة يا كونتيسة عائشة، الهواء البارد سيؤذيك!
— شكرًا جاك!

— لو كان أبوك المرحوم شارل دو فيريول حياً لما سمح لك أن تسافري وأنت في هذه الحالة. كان إنساناً عظيماً طيب القلب. كنا نتناقش أحياناً المرحوم الكونت وأنا، وربما تذكرين أنت، في موضوعات الحياة. ومن أين كان لي أن أحجاري مثل هذا الإنسان الفطّن؟! ولكن كان يقتنع ببعض آرائي. فارقنا الكونت، وأنت بقيت يتيمة. وأنا أعيش مع آل فيريول مكمم الفم. الكونت أوغستين — أنطوان والكونتيسة ماري — أنجلييك لا يتحادثان في عربتي بخير أو شر. ربما لا يشقان بي!

— لا يا جاك. أنت مخطئ. وهذا طيب القلب جداً.

— حسنٌ إن كان هذا رأيك في الكونتيسة. ولكن، والكلام بيني وبينك، لا يقارنن بأبيك المرحوم. لم يُحوجك إلى شيء ولا اشتتهيت شيئاً فلم تحصلني

عليه. وترك لك، إن كان الكلام صحيحاً، ما تعيشين به طوال عمرك. فرحت حين سمعت ذلك لأنني لست حسوداً.

- صحيح يا جاك. - أجبت دون أن تفكر في ما وراء سؤاله ربما لأن كلماته الطيبة في حق أبيها، ولو فارق الحياة، أنعشت قلبها. ولم تكتم مقدار ما ترك لها: - كتب لي ثلث أملأكه.

- وهل وثق كتابة؟

- نعم يا جاك.

- هذه إنسانية منه. وهذا ما يسمى بالمعروف! ثم أكى بعد قليل وهو يهز رأسه: - لأجل هذا يا شارلوت - إليزابيت أيسبيه أحترم المرحوم وأحبه... - "ولماذا لم يتكرم علينا بشيء" أضاف لنفسه. ثم ارتعب للفكرة التي خطرت له بشأن منحة ما من الكونت، فأضاف إلى مدح الكونت: - أتعرفين ما الحكمة التي كان يقولها لي من تراشكم أنتم الشراكسة؟ "اعمل المعروف وارمه في الماء". ولما لم أكن أفهم في البداية معنى الحكمة سالت الكونت فحملني جوابه على محبة الشراكسة الذين لا أعرف عنهم شيئاً. "إذا عملت معروفاً فلا تتحدث عنه، ولا تسأل أين صار. ربما وصل معروفك إلى من لا تعرفه كقطرة ماء فتفعلته؟ أليس هذا هو المعنى؟

- نعم يا جاك. كنت سمعت هذا من جدي وأنا صغيرة. ولكن لا أعتقد أن الشراكسة وحدهم ينفردون بهذه الحكمة. كان اللورد بولينغفروك روى لي ما يشبهها عند الإنجليز.

- ليس بعيداً أن يكون عند الإنجليز مثلها، ولكن لا أعرف لماذا عندهم ما ليس عندنا في فرنسا... - قال جاك لنفسه "لا يهمني أمر الإنجليز

والشراكسة، أفضل أن تأتي على ذكر سبب زيارتنا المتكررة إلى سانس" ثم أضاف:

- الحق أين لم أعرف إن كان في الدنيا شراكسة. لا شك أن عندكم كلمات مأثورة تتعلق بالأولاد وتربيتهم... أقول هذا لأن عندي كثيراً من الأولاد والأحفاد... ولكن ر بما تكونين نسيتها...

- ولماذا أنساها؟ - ففزع قلب عائشة مما سمعت. - لن تنسى أبداً ما تتعلمته في صغرك. ها أنا تذكرت أشياء من قبيل ما سألت عنه "العود يُخْنِي وهو طري، والولد يُرِّي وهو صغير" "ابنك على ما تربيه عليه، وزوجك على ما تَرَى عليه" "عادة الأم نموذج للبنت" "انظر إلى الأم وتزوج ابنتها" - روت عائشة ما خطر لها في لحظتها - وتريد المزيد؟ - أضافت وهي ترى أنها بالغت في شأن قومها الأديغة، ولا تريد أن يشلّ مُحِّدِّثها في إخلاصها لفرنسا التي تعيش فيها وبين أهلها. - والفرنسيون عندهم كلمات مأثورة حكيمة تتعلق ب التربية الأولاد.

- عندنا يا كونتيسة، عندنا - قطع جاك ما كانت عائشة تنوي روايته من كلمات مأثورة فرنسية - وكيف لا يكون عندنا ونحن عرق كبير! ولكن ما أستغربه هو تطابق أقوال الأعراق الكبيرة والأعراق الصغيرة. لا أقول إن قومك الشراكسة عرق صغير، وقد سمعت ما رویت من كلامهم الحكيم. ماذا قلت بشأن الأم وابنتها؟ ذَكَرْتني!

ضحكَت عائشة:

- إن لم يبق في ذاكرتك فقد لا يكون فيه حكمة يا جاك.

- وكيف لم أحفظه في ذاكرتي، ولكنني سألت لأن من عادي تكرار الكلام. أتذكرة كلمات كثيرة تتعلق بالأم وابنتها "عادة الأم نموذج للبنت" "انظر إلى الأم وتزوج ابنتها". لتجتهذهنَ وأنتَ تتمثل حكمة ما سمعت، أسرعْ عن يا

أصحاب القوائم البيضاء! - هكذا بين منزح وتشجيع مع أحصنته كانت العربية تنهب الطريق.

ضحك عائشة الآن بصوت أكثر دفأً:

- ما الأمر يا كونتيسة؟ لم أعد الحكم الشركسي على نحوٍ صحيح؟

- لا يا جاك بل لأن ما قلته عن الطريق ذكرني بكلام مأثور من عندنا.

- تفضيلي؟ إن كان فيه حكمة حفظه.

- "انصب السلم على الطريق!"

- ماذا قلت؟ كيف تنصب سلماً على الطريق؟

- أنت منذ وقت طويل تنصب سلماً على الطريق يا جاك.

- وكيف؟

- حين يمل المسافرون يقولون "لينصب أحدكم سلماً على الطريق!" يعني أنهم يقصرون الطريق مهما كان طويلاً بسرد الأخبار كما أن السلم يتألف من درجات مفردة.

- إذا كنتِ منذ زمن نصبتِ سلماً على الطريق يا كونتيسة فأنا بانتظار سلماك. - منزح معها السائس.

أجابت عائشة على أسئلة السائس قائلة في نفسها: لماذا هذا الإلحاح على محادثني. خطرت لعائشة شكوك في السائس ولكن لم تجد من اللائق الشك في جاك الذي عمل عمره لدى آل فيريول. ورغم أن عائشة كانت تعرف أن من يركب الطريق يتحدث في موضوعات متنوعة، مع محافظة الرجل والمرأة، كل

على طبيعته واحترامه لنفسه، فقد قطعت على جاك بما حدثها قلبها:

- المرأة الشركسيّة لا تنصب سلماً على الطريق بحضور الرجل، ولا تسمح أن يراها وهي ترقّيه.

- وهذه حكمة – لهذا لا أقبل من أحد أن يقول: كيف للشعوب الصغيرة أن تبلغ مبلغ الشعوب الكبيرة كالفرنسيين والإنجليز والألمان.
- شكرأ يا جاك – تنهدت عائشة خفيةً – لا تتعلق الحكمة بعدد أفراد الشعب، لا تميز شعباً صغيراً من شعب كبير. ولا متفقاً كبيراً من رجل من عامة الناس، ولا تختم باللغة التي يتكلموها. ستصبح الدنيا أجمل وأفضل إذا ساهم كل إنسان فيها بما يستطيع بغض النظر عن لونه ولغته ولباسه وطعامه وطريقة تفكيره ودينه. هذا ما يقوله فولتير.
- أليس هو فولتير العنيد الذي كان يختلف إلى بيت دو فيريول يا كونتيستة؟
- نعم، أجبت عائشة بطريقة ظاهرة امتعاضها من كلام السائس: - ليس عندنا فولتير آخر في فرنسا.
- فهمت الآن لماذا طرد هذا الرجل الحكيم من فرنسا¹. - غير جاك من نبرته وأنت يا كونتيستة كوني حريصة. - واختتم بحيث تفهم لماذا يهتز طرف سوطه: - هؤلاء لا يتورعون عن شيء يخطر لهم.
- ماذا أتظنني مثل فولتير داعيةً نشيطة إلى أفكار الحرية؟ مزحت عائشة مع السائس وهي تسخر من نفسها.
- حكيمة، حكيمة! لم يفكر السائس في ما يقوله.
- كفى – لِتَوَقَّف عن افتخارنا بأنفسنا هنا! غمزت عائشة من قناة السائس العجوز.

¹ سُجن فولتير للمرة الثانية عام 1725. وفي السنوات التالية 1726 – 1729 نُفي من فرنسا فعاش في إنجلترا. وفي رسائله الكثيرة (1049 رسالة) إلى بون دو فيل وأرجنتال كان يبعث بتحياته إلى عائشة. المؤلف.

- كما تريدين يا كونتيسة. إن كنت قلت ما ليس مناسباً فسامحيني. كنا ننهي نقاشنا بهذه الكلمة حين لم نكن نتفق أنا والمرحوم أبوك... أسرعى أيتها الأحصنة، هيا يا أصحاب القوائم البيضاء يا أصدقائي ! وكما تقول كونتيسنا: انصبن سلماً على الطريق. - التفت جاك إلى عائشة بوجهٍ مُراءٍ وابتسم لها. لم تكن ابتسامة في هذه اللحظة كافية لدعم روح عائشة. وما تبادلا من حديث في الطريق إن كان فيه نوعٌ خبيثٌ أم لا تناسته. وهمُها الآن هو كيف ستنتسبلها في سانس الصبيةُ التي لا تعرف أنها أمها، وكيف ستتعاملها هي بالمقابل. الصبية ذات الأعوام السبعة والتي بدأَ وعيُها ولغتها يفتحان سؤال عن أمور كثيرة وهي تتأمل زائرها؛ فِيمَ ستجيبها؟ أتضمّ إلى صدرها من خرجت من رحمها وتخبرها أنها أمها؟ جفلت عائشة التي كانت مغمضة العينين وقالت فجأة: "لم يحن الوقت بعد" لينصِّير نصف سنة فحسب يا حلوى الصغيرة! سيفحلّ أبوك حتى الخريف أموره ونجتمع ثلاثتنا في مكان واحد، وربما قبل هذا الخريف. يا إلهي ما ذنبي الذي لم يفعله غيري؟ أي مصيبة أنزلتها بي زيادة على الآخرين؟ - زمت عائشة بيديها وجنتيها الرقيقتين الجميلتين إلى شفتيها: - لا، لا. ما سمعته خرج من فمي رغمَ عني، وليس من قلبي. سامحني وافهمني..." العشبُ في البرية أخضر زاهي. والأشجار على حافتي الطريق، والغاباتِ القريةِ - البعيدة تلبس لباس الربيع. والمواشي ترعى في السفوح المتناثرة. والقمم العالية تعطيها الشلوح التي لا تريدين الذوبان. وشمس الظهيرة آذنت بالانحدار فهي تلتفت إلى عائشة مشتقةً فرحة.

ليست هذه المناظر مما يغيب عن أنظار عائشة ولا مما لا تفارقها. ولكنها بعيدة عن أن تسترعي انتباها وتشتّم رغبتها فيها. ومع ذلك فقد لامت نفسها حين نظرت إلى شجرة منفردة في الخلاء تحقق بأوراقها: ما أكثر ما أُحرِم منه!

صحيحٌ ما يقولون "إن لم يكن في ذهنك غيرُ الهم لا يخطر لعينيك أي جمال". هذه الشجرة وحيدة. لا أظنها خالية من الهم والشوق. ومع ذلك لا تمنع عن أن تزّين نفسها، ولا أن تقول من هي في ناظريها: "إِلَّا جَمَالُ قَوْمِ الْعَالَمِ" لا أستطيع مخاطبة نفسي هكذا وإن كنت أعرفها... — تنهدت عائشة والتفتت إلى الشجرة التي تركتها وراءها وقد أودعتها شيئاً، وتولست إليها: - اغفر لي أيتها الشجرة الوحيدة الجميلة، أنا من قال لك هذا، لا أنت قلت لنفسك... ر بما يبدأ من هنا اهتمام الإنسان بما ليس ذنبه..."

تأملت عائشة الآن عميقاً عالم الربيع: السماء عالية، والأرض جميلة، والفراشات الملونة تطير في الهواء الدافئ. وعجلات العربية تغنى تحتها. وحوارر الأحصنة تجري على إيقاعها. والسائس العجوز جاك يلطف أحصنته ذات القوائم البيضاء.

كل شيء كان على ما يُرام لولا سُعال عائشة.

"لماذا عليّ أن أكتب وأنا أرى مثل هذه الطبيعة الجميلة؟ - واست عائشة الآن نفسها - اليوم سأرى سيلين الصغيرة. سأضمها إلى صدري حتى لو لم أقل لها "أنت ابنتي الصغيرة". وأمسح على جسدها. وأحس بنفسيها ونبض قلبها. وهذا يساوي كل ما عانيت من مشاق. لِتَنَادِي "يا خالي" إن شاءت فأنا التي قلت لها إن أمها توفيت وأنا خالتها. ولكن ألسنُ من وضعتها؟ أليست بُضعة مني؟ في زيارتي السابقة همست لي دون عتاب "مضى زمان على حضورك، اشتقت لك". والآن كيف ستتصرف معي؟ وماذا ستقول؟ يكفيني أن ألقى نظرة عليها ولنقلن ما تريده! وإن بكت شاكية إياي كان صوتها عذباً عليّ..."

- لاحت من بعيد مدينة سانس المبعثرة. وحين ظهرت عائشة دار الأيتام المترقبة على المدخل اليميني المرتفع تعير قلبها في الريف. وخيل إليها أن سرعة العربية انخفضت. وسأل السائس العجوز ملتفتاً إلى الوراء عن وجهتها وكأنه لا يعرف:
- هل ستنتجه إلى الميت أم إلى المدينة؟
- ماذا نفعل في المدينة؟ - أسرعت عائشة بالجواب كمن تصرف معها بما لا تكتب.
- من أين لي أن أعرف؟ أتساءل إن كنا سنتوقف ونشتري شيئاً.
- ليس الآن... - استعجلت عائشة وقد داهمها حزن غير متظر. وحين تذكرت أنها وصلت ساعة استراحة الظهيرة ارتاحت. ولحظة دخولها من البوابة الكبيرة رأت إيزابيل - لوizer في طريقها لاستقبالها.
- هل أنت وحدك؟ سألت إيزابيل - لوizer.
- وحدي؛ ما الأمر؟ نظرت عائشة في وجه إيزابيل - لوizer مرتابة - هل سيلين مريضة؟
- لا، سيلين في الاستراحة. نوّمتها بصعوبة وهي تسأل عن قدوتك. لا ترتعي يا أيسبيه ولكن لا مكان لعربيتك هنا ولا في سانس. اطّلبي من السائس العودة إلى باريس. لا تسأليني الآن، سأخبرك في الغرفة.
- طلب من جاك العجوز العودة إلى باريس دون أن يعرف السبب، ودون أن يجد الفرصة للسؤال:
- لا تقف في سانس، واسترح أنت والأحصنة في مكان آخر. - همست عائشة للسائس المهموم - لا تخبر أياً يسألوك عن المكان الذي كنت فيه وعن إيسالك لي إلى هنا. - وحين دخلتا الغرفة رجت عائشة التي امتنع لونها إيزابيل - لوizer عما جرى لسيلين:

- سيلين بخير، في صحة جيدة. سترتها حين تُفِيق. كان مبعوثاً من الوحدة التي يخدم فيها دو إيدي شفاليه عندنا اليوم.
- وماذا يريدان؟ - لم تستطع عائشة تحمل صوت ارتياها.
- سألاً إن كان لدى إيدي شفاليه طفل هنا، وعما إذا كان يزورها. تفهّداً الوثائق المرافقة للأطفال، وعندما علم بأن الغد هو عيد ميلاد سيلين. حمّنت أحما سيقضيان اليوم والغد وبعده في سانس، وسيختبران إن كان دو إيدي شفاليه سيزور ابنته.
- وما العمل؟ - سألت عائشة الآن دون استعجال.
- سُرّيَحْ نفسنا يا كونتيسة - أجبت إيزابيل - لوينز إجابة قصيرة حازمة، وبعد قليل أضافت: - أنت وأنا صديقتان. تعرف إحدانا الأخرى منذ زمن بعيد. جئت إليّ لرؤيتك... أيّاً سؤلنا فعندي الكثير لنجيئك... - حين رسمت الصليب لنفسها فعلت مثلها عائشة - والآن سأقول لك خبراً طيباً يا شارلوت - إيزابيلت أيسية: جانيت - نيكول ستكون هنا غداً.
- هذا خبر سار - امتدحت معلمتها التي لا تني عن امتداحها: - جانيت - نيكول امرأة طيبة القلب، لم تنس فرحتي غداً، ولاحزني واكتئابي، شكرأ لها. أيكون بيير برفقتها؟
- لا مكان لرجل! - أسرعت إيزابيل - لوينز، ثم سألت وخوف بعيد يرتسن في عينيها الصغيرتين: - أتكونين ربيت أنت وشفاليه زيارة له إلى هنا دون علمي؟
- هل أستقدم دو إيدي شفاليه إلى هنا وأورّطك وأورط نفسي في مشكلة؟! - أجبت عائشة بخشونة أكبر مما سُئلت بها.

- طمأنيني! - ابتسمت إيزابيل - لويس ولم تعلق على ما سمعت. ولكنها سألتها: - هل ارخت الآن نوعاً ما؟ إذن اسمعي ما سأقول لك: سأطلب لك لو بلون شارلوت - سيلين وأتركها معك إلى وقت النوم. ولكنك ستتصرفين معها كما اتفقنا: لستِ أمها بل خالتها. أفهمت يا أيسيل؟ - سألت بصوت أرحم.

بعدما وقفت عائشة على أرض الغرفة، كما تفعل عادة في أوقات قلقها، تعصر أناملها الرقيقة في كفيها الرقيقتين، انفتح الباب الذي ما كان يغيب عن ناظريها، ودخلت، تسبقها إيزابيل - لويس، فتاةٌ نحيلة يظهر عليها نموها المتسارع. وتوقفت حذرة مستغرية ما ترى. وأطرقت، ونظرت جانباً، ثم ركضت فجأة بذراعين مفتوحتين إلى عائشة التي تنتظرها باسمة:

- يا خالي أيسيل؛ جئني!

- نعم يا سيلين، نعم. - هوت عائشة إلى الأرض وضمت إليها الصبية، وألصقت خدتها بشفتيها وقبلتها.

- هل تبكين يا خالي أيسيل؟ سألتها سيلين الفطينة النظيفة، ثم قربت شفتيها الرقيقتين إلى أذن عائشة وهمست:

- أنتِ أمي فتبكي!

- والحالات ييكون يا سيلين... - ثم همست هي الأخرى محافظة على تمسكها: - لأنني فرحةً بك!

II

في الوقت الذي كان فيه على عائشة العودة إلى باريس بعدها قضت في سانس أسبوعين بدلاً من يوم وليلة تبيّن أن ماري - أنجيليك حزمت أشياءها، برفقة الدكتور لاروش، وطلبت إيصالها إلى أبلون. وسافر الكونت أوغستين - أنطوان دو فيريول مع ديستان الباب إلى إقطاعة بون دو فيل لقضاء الربيع والصيف والخريف فيها. ويعيش بون دو فيل وأرجنتال ينتظران خروجهما من باريس التي تغلي.

حين أنصتت عائشة إلى أخبار أسرة فيريول سالت صوفى:

- لماذا لم يصطحبك الذين سافروا إلى أبلون؟

- وهل أعرف لماذا؟ - أجبت صوفى باسمة تقارب ما بين كتفيها: - وهل تحتاج الكونتيسة والدكتور لاروش إلى شاهد؟ لا تضحكى يا أيسىه! أصررت على الكونتيسة أن أوصلك حال عودتك إلى أبلون.

- إن ابتعدوا عنا ارتحنا قليلاً - ردت عائشة على صوفى بالملحاح.

- صحيح، دعينا من هذا إلى أخبار سيلين.

- نطقت اسمك كثيراً "حالة صوفى".

- لم تنسني، ما زالت تذكرني.

- بعد حوالي شهر سذهب معاً إلى سيلين.... - شردت عائشة وقالت ما تفكّر فيه: - كل شيء حسنٌ ولكن تُقلقني نحافتها... ألم يظهر دو إيدى يا صوفى؟

- لا، ما الأمر؟

- لأنه مريض يعاني من اضطراب في التنفس.

"يا إلهي؛ اغفر لي إن أخطأت، وإن كنت قريبة من الصواب فافهمني. منذ أن عرفتُ عائشة لم تخطر لي فكرة سيئة نحوها. ولكن أنا في وساوس منذ وضعت طفلتها. — تقول صوفي لنفسها متسللة، متأملة إلى الله الذي تؤمن به — أنا أسأل عن الطفولة المقيمة في الدير، وهي تسأل عما إذا جاء حبيبها. هي تسأل عن صحته ولا أعرف لماذا عواطفها باردة نحو الطفولة التي ولدتها. كيف تجعل من نفسها دائمًا فتاة عذراء كأن لم يحدث لها شيء؟ ولا أفهم لماذا لم تتوقف عن حضور المسرح في حالتها الراهنة، ولا تحرم نفسها من اللقاءات المسائية. وما أغرب ألا تتعب من الأنقة في الملبس، أن تطلب من الفنانين تصويرها، أن تتميز من قرياتها، أن تدفع الرجال إلى اشتهاها ولو أنها لا تسمح لأحد أن يمسها. لا أعرف يا رب تفسيرًا لأيٍ من هذا؟" حين فاحتها سابقاً بمثل هذه الأسئلة أتذكرين ماذا أجابتك؟" — سالت صوفي نفسها وهي ترتعب في ذاتها واستذكرت جواب عائشة حينها: "ألا يكفيكم حميت نفسى في صبائى؟... ولكنى لا ألطخ نفسى بجمالي وإغرائي. الخطيبة التي ارتكبناها أنا وشغالىه أنت تعرفينها. نأمل من الله أن يغفرها لنا. ولا نسمح لأنفسنا أن ننسى أننا أم وأب ولو أننا أقسمنا ألا نطلع الصبية عليها. ونقوم نحوها بواجبنا. بعد بعض الوقت سيرعاها آل بولينغبروك..."

فجأة انفجرت صوفي باكية:

— ماذا جرى لك يا صوفي؟ — فوجئت عائشة التي كانت مشغولة البال بما تخفف به من أزمة دو إيدي شغالىه. — هل أهانك أحد في أثناء غيابي؟ لا تكتمي، لن أقبل من أيٍ كان.

- لا أحد أحزنني أو آلمني... - نظرت صوفي في وجه عائشة وأحزنها بادية رغم محاولتها كتمانها. وناورت حول سبب بكائهما دون الصراحة: - كنت أود رؤية سيلين الصغيرة...

- الصبية الصغيرة - لامت عائشة صوفي دون أن تذكر اسم الفتاة إلا بعبارة "الصبية الصغيرة" - أما رویت لك أخبارها ووعدتك أن نزورها قريباً؟ أرجو ألا تُفسدي عليّ يومي... الأحسن يا صوفي أن نذهب هذا المساء إلى المسرح... - أيّ قلبٍ تملكين يا أيسية! - لم تُطق صوفي صبراً - حاولت ألا أقول شيئاً ولكنك أجريتني. ما إن عدت من الميتم حيث ترني ابنتك حتى دعوتي إلى المسرح! أستغرب كيف يطأوك قلبك. - كانت تريد أن تصيف "أنتِ ظالمة" غير أنها ابتلعتها.

- يا صوفي! - وعائشة بدورها لم تقبل لوم صوفي - ماذا تريدينني إذن أن أفعل! أتريدين أن أقضي وقتى في البكاء!

- لا، لن تفعلي. - لم تنقص حدة صوت صوفي إن لم تزد - يجب أن تقدمي لطفلتك ما تستطيعين. قلت لك سابقاً وأكرر الآن: - بعدما حدث ما حدث، وخاض الناس في سيرتك، وسواء عرفت فرقاً أبىها المالطية ما تكتمان عنها أم لم تعرف، كان عليك أن تستلمي الصبية من الميتم وتربيها. وإن قلت لا... - لم تستطع إخاء ما كانت تريد قوله.

- قولي، قولي! - سألت عائشة ولوخما يتغير وعينها - ما الذي لا تقدرين على التصریح به؟

- إن قلت لا، مُرِيَّهم أن يسلموني إياها فأعود إلى قريتي الصغيرة فأربىها لأنها تعرف أني "تانت" ، وأنا أعرفها أنيك "خالتها".

التهبت عائشة بعدما كانت شاحبة:

- أهذا ما تقولينه لي الآن يا صوفي؟! ما أشد اهتمامكم جمِيعاً بطفلي وحنانكم عليها! انفجرت عائشة باكية وهي بين تكُلُّ الصبر، وتقريع الذات.
- أيسيه يا روحي الوحيد، اغفري لي – عاد البكاء فألح على صوفي – ما كنت أريد أن أجرب قلبك، بل ما يجعل حالك أفضل.
- قالت عائشة بعدما تماسحتا بالأيدي وتناصحتا، وارتوتا بكاء:
- الحجر الذي ترميه أمامك تعثر به" كانت جدي يقول، وفيما نحن ندين كلودين على أنها حملت بلا زواج جلبت لنفسي العار ذاته...
- كلودين – ألكسندرین ليست مثلك! – صرخت صوفي فقطعت كلام عائشة – أنت تعرفين أين هي سيلين، وتزورينها، وسواءً نادتك "تانت" أو غيرها فهي تعرفك.
- ليست تعزني فحسب... – تمرق صوت عائشة مجدداً، ولكنها وجدت في نفسها القوة لتسسيطر عليه – تشك في أني أنها... وأنت و كالاندرین وآل بولينغبروك شجعاتموي على أن أعرفها بنفسي وأنا لم أسمع صوتها إلا مرة واحدة، فأوقدت نفسي في ورطة.
- اسكتي يا أيسيه، هذا حرام – نهضت صوفي بعنف ناسية أنها خادمةٌ من ثعنفها. وكممت فمها بيدها عارفة ما حدث لها.
- لا، لا يا صوفي، لم تقولي لي ما ترتعين منه – واختتمت بما تريد قوله هي متصنعة الضحك تستر به عارها: – ولكن كان الأفضل ألا يحدث لي هذا فأعيش حرة.
- لا أعرف بِمَ أعلق على ما قلت – انخفض صوت صوفي، وواربت بالكلام حذرة: – ساحيني إذن، ربما لا تحبين دو إيدي شفاليليه.

- لست على حق في هذا يا صوفي. أحببت دو إيدى كما لم ولن أحب أحداً في حياتي. أظن هذا ما يسمونه "النصيب"... لا أعرف، لا أعرف اسمًا آخر له. سأذهب لزيارة جانيت - نيكول ما دمت لن تذهبني معي إلى المسرح، فأصطحبها.

- لا تعتني عليّ يا كونتيسة في ما قلت لك!

- أي "كونتيسة" هذه؟! - ألم تتفق ألا تناديني بهذا اللقب حين تكون وحدنا؟! أحمل عليك في قلبي لأنك دللتني على سوء حظي؟

لبست عائشة أحسن وأجمل ما لديها ومضت إلى جانيت - نيكول في سان - كول. ومع أنه مضى قرابة خمسة عشر عاماً على إنجائها الدراسة في الديار فلم تهاجمها الذكريات كما في كل مرة تأتي إلى هنا منذ أن جاءت بها أسرة فيريول بكمالها في أول مرة، وتقديها إلى جانيت - نيكول. وكيف كانت تُرثئها ما يتعلّق بالشراستة من الكتب، وكيف خاطت لها أول زوج شركسي، وزيارة الملكة لمدرسة الديار، والمناسبات التي تُجتمع الطالبات فيها مرتين في الشهر، وزياتات ماري - أنجيليك وشارل دو فيريول حين يأتي من إستانبول، واصطحابها إلى بيت فيريول، وزيارة فخري لها حين جاء إلى فرنسا برفقة أورخان لإعادتها إلى بلادها، ورفضها العودة، وأشياء أخرى. - فدخلت الدار التي أمضت فيها أيام صباها، ولم تعبأ بالطالبات اللواتي كن يراقبنها، بل هجمت وعانت جانيت - نيكول.

وبعد ما جلستا بعض الوقت تتذكّران كيف كانت كلير بولينغبروك تتعالج في سانس، المدينة التي فيها الديار حيث كانت قبل قليل في زيارة سيلين، قالت جانيت - نيكول لعائشة:

- أنت جميلة، جميلة جداً. غير أن شحوبك لا يُعجبني.

- إذا كنت أنا لا أعجب نفسي فكيف أُعجبك؟
- ما الأمر يا روحـي الوحـيد؟ - سـائلـتها بـلـطفـ.
- يقال لي: ما فعلـت بـسـيـلـين غـير صـحـيـحـ؟ فـيـدـيـنـي الجـمـيـعـ. كـيـفـ لـغـيـرـيـ أـنـ يـفـهـمـ ماـ يـجـرـيـ فـيـ قـلـيـ... وـلـوـ كـانـتـ صـوـفـيـ لـاـ تـؤـيـدـهـمـ مـاـ اـهـتـمـتـ بـالـأـمـرـ - رـوـتـ عـائـشـةـ لـجـانـيـتـ - نـيـكـوـلـ حـدـيـثـ الصـبـاحـ بـيـنـهـا وـبـيـنـ صـوـفـيـ - أـفـكـرـ فـيـ أـمـورـ كـثـيـرـةـ وـلـاـ أـعـرـفـ مـاـ عـلـمـ.
- ما سـتـفـعـلـيـنـهـ فـعـلـتـهـ وـأـنـتـهـيـ. وـالـذـنـبـ الـوـحـيدـ الـذـيـ تـسـجـلـيـنـهـ عـلـىـ نـفـسـكـ اللـهـ وـحـدـهـ هوـ مـنـ سـيـغـفـرـهـ. وـطـفـلـتـكـ لـمـ تـتـخـلـيـ عـنـهـاـ. وـلـأـنـكـ لـمـ تـفـعـلـيـ فـعـلـتـكـ دـوـنـ مـعـرـفـةـ اللـهـ فـارـتـاحـيـ. وـحـينـ يـتـيـحـ لـكـ مـكـانـاـ تـسـتـقـرـيـنـ فـيـهـ تـضـمـنـيـهـاـ إـلـىـ صـدـرـكـ.
- لـاـ أـعـرـفـ يـاـ جـانـيـتـ - نـيـكـوـلـ. لـاـ أـعـرـفـ. هـذـاـ يـعـودـ إـلـىـ آـلـ بـولـينـغـبـروـكـ الـذـينـ أـعـطـيـتـهـمـ إـيـاـهـاـ.
- لـوـ أـطـلـعـتـيـ عـلـىـ مـاـ فـعـلـتـ قـبـلـ أـنـ تـعـطـيـهـمـ لـمـ سـمـحـتـ لـكـ. - تـنـهـدـتـ جـانـيـتـ - نـيـكـوـلـ. غـيـرـ أـنـ آـلـ بـولـينـغـبـروـكـ نـاسـ صـالـحـوـنـ يـخـشـوـنـ اللـهـ. إـنـ لـمـ تـكـوـنـ سـجـلـتـ طـفـلـتـكـ عـلـىـ اـسـمـهـمـ فـلـاـ أـشـكـ فـيـ أـنـهـمـ سـيـعـيـدـوـنـهـاـ إـلـيـكـ.
- لـمـ يـقـبـلـ دـوـ إـيـدـيـ شـفـالـيـيـهـ تـسـجـلـيـهـاـ بـاسـمـهـمـ.
- حـسـنـاًـ فـعـلـ. لـاـ تـلـومـيـ صـوـفـيـ. فـيـ كـلـامـهـاـ شـيـءـ مـنـ الصـحـةـ.
- صـوـفـيـ سـلـيـمـةـ التـوـاـيـاـ تـقـلـقـ عـلـيـ. أـمـنـ أـجـلـ تـضـحـيـتـهـاـ أـعـطـيـهـاـ إـيـاـهـاـ لـتـرـبـيـهـاـ؟
- وـهـذـهـ يـمـكـنـهـاـ أـنـ تـرـبـيـهـاـ. - تـوـقـعـتـ جـانـيـتـ - نـيـكـوـلـ قـلـيـلـاـ ثـمـ تـابـعـتـ وـعـيـنـاـهـاـ تـحـدـقـانـ بـعـيـنـيـ عـائـشـةـ: - وـلـكـنـ لـاـ أـحـدـ يـرـيـ طـفـلـاـ كـمـاـ يـرـيـهـ أـهـلـهـ!
- لـاـ تـحـمـلـيـ عـلـيـ يـاـ جـانـيـتـ - نـيـكـوـلـ. وـاعـتـبـرـيـنـيـ إـنـسـانـاـ خـفـيـفـاـ أـنـاـيـاـ، لـيـسـ عـنـدـيـ الـآنـ جـوـابـ لـلـسـؤـالـ النـاشـئـ بـيـنـنـاـ. وـمـاـ جـئـتـ مـنـ أـجـلـهـ شـيـءـ آـخـرـ: لـنـذـهـبـ إـلـىـ المـسـرـحـ وـنـرـقـحـ عـنـ أـنـفـسـنـاـ!

- كل فاكهة تنضج في حينها - علقت على الموضوع الذي لم تنهيا مناقشته، ثم لامتها مازحة معها في شأن ما رجتها: - لو بدأت الحديث من هنا لكنت لبست منذ وقت طويل. أين؟ إلى الأوبرا أم إلى المسرح الكوميدي؟ إلى الأوبرا. ملتنا من الكوميديات التافهة.

صدق أن الأوبرا تعرض مسرحية "بيلارافون" وغداً وبعد غد "برزيرينا". حين سمعت عائشة عنوان المسرحيتين تذكرت أن شارل دو فيريول هاجمها وهو يعني إحدى أغانيهما فامتعق لونها. لاحظت جانيت - نيكول الأمر فقالت لها مواربة:

- ألا يكفي يا أيسيله كم رأينا هذه الأوبرا! قيل إنه يعرض في المسرح الكوميدي نص جميل.

- هل نلحق بموعد العرض، ونجد مكاناً؟ - انصرفت عائشة من أمام الأوبرا، وركبت العربية متظاهرة بالسؤال عما تسمع، ومرتاحة لتركها الأوبرا.

حين رجعت عائشة من المسرح الكوميدي، كتبت بعد عدة أيام إلى كالاندرلين في جنيف: "اليوم وصلتني رسالتكاليوم يا عزيزتي فسررتني. أجييك عن بعض أسئلتك، وخصوصاً ما يتعلّق منها بالمسرح. في المسرح الكوميدي تعرض منذ ثلاثة أشهر مسرحية ممتازة بعنوان "ريغود"، وأنا قادمة منها قبل قليل. وقد أغورقت عيناي بالدموع رغمّ عني وأنا أشاهدها. ولا أذكر دوراً أتقنه ميشيل بارون كدوره في هذه المسرحية. وما يخز في نفسي أنه يشيخ. وحين قام قبل وقت غير بعيد بدور "بور" في مسرحية "موت بريطاني" تفوق على الجميع. وهو يُقنعك بصحة ما يمثله.

والآن سأروي لك شيئاً يتعلّق بالعروض والممثلين. مادة الأوركسترا الصغرى مقبسسة من عازفي الكمان فرانك ورييل وبيرام وتيسب. وهي ليست سيئةً من

ناحية الموسيقى؛ غير أن كلماها لا تناسب الموسيقى. إن كان السبب هو الديكور فليس من عادكم... في المشهد الأول، تظهر بوابة المدينة وفيها الأقواس والأعمدة، وهذا منظر محبوب. وتعزف جيداً بنوايا هؤلاء الناس. ويتقيدون فيها بكل المعايير. وتفينار المسكين بسبب تراجعه الكبير يبدؤون بالتصفيير له بعد أقل من نصف سنة. و"شاسيه" تقوم بأعمال خارقة، وتعرض دورها بإتقان شديد. وتستطيع أداء أوكتافين. وهذا يعجب أنتيه. وتعود ليمور، ويفشى المرض ميوريه. وتتناقل أخبار عن أنه يستعد للانضمام إلى الرهبان غير أنه بسبب حبه الشديد لعمله فليس هناك مكان يذهب إليه خارج الأوبرا. ودخلت ممثلة جديدة اسمها بوليسيه، وتنافس هي و ليمور، وأنا أفضل الثانية. - يعجبني صوتها وأداؤها أكثر من بوليسيه. والأخرى ليس صوتها قوياً، ولذا حين تكون في المشهد عليها أن تبذل كل طاقتها لتشمع. حقاً هي ممتازة في الأداء الصامت، وحركاتها كلها صحيحة، يبدو الجمال فيها. ولكن بسبب المبالغة فيها يخيل إليك أن "أنتيه" قطعة خشب لا حياة فيها. وفي رأيي أن العصر الذي يمثله مهما كان صعباً فعلى الممثل الذي يحب دوره أن يؤديه على نحو أهداً. وعليه أن يعبر عما في نفسه من خلال الصوت واللحن. أما الحركات العنيفة فليتركوها للرجال وللشياطين. والأميرة الشابة أَفْضَلُ لها أن تحافظ على هدوئها وتماسكها. هذا هو رأيي؛ فهل توافقيني؟ وقد صفق الجمهور لليمور ربع ساعة حين ظهرت على المسرح بعد مرضها. وقد أفرحها هذا جداً. وحيثهم بإيماءة رضاً.

وكان هذا قد أغضب غضباً بلا حدود الدوقة دو ديوراس التي ترعى بيليسيه. وقد أشارت إلى وإلى بارامبير بما يفهم منه أنها حرضنا الجمهور. ولكن لما صفق

رواد المسرح في اليوم التالي لليمور بالطريقة نفسها فقد كادت الإهانة تشرط بيليسية.

والصراع بين من أنصار ليمور وبين أنصار بيليسية يشتعل يوماً بعد يوم. وهذا الصراع يصب في مصلحة ليمور، وتنظر نفسها مثلاً ليست سيئة. ويحدث أن يتشارجو في ردهة المسرح، حتى ليُخَيَّلَ إِلَيْكَ أَنْهُمْ سِلْجُوْنَ إِلَى الرَّماحِ، والمرأتان تتبدلان الكراهة. وبيليسية امرأة بلا حياء. وقبل وقت ليس ببعيد، وفيما هي جالسة إلى المائدة في قصر بيلونسك، وعلى مسمع من الجميع، وعلى ما قالت لم يبق في باريس رجل "بلا قرون" غير زوجها. وأما من جهة ليمور فعقلها قليل، غير أن القليل الذي عندها جميل جداً، ولا ثقانه بما عند غيرها. ولكنهم يدعونها بعديمة الشرف.

في هذا الشهر سيُعرض "بروزيرينا" والتي تمثل دور "سييرينا" هي أنتيه، وبروزيرين - ليمور، وأريتوز - بيليسية، وبلوتون - تيفينار، وأسكولاف - شاسيه. هذا هو توزيع الأدوار. ويقال إنه لا يمكن إجراء توزيع أفضل. ومع ذلك لا أثق أن هذه الأوبرا ستتحوز إعجاب الجمهور. وأقرب من في الأوبرا إلى القلب أفالير أريتوزار. والآخرون كلهم تبعق منهم رائحة البرودة. يطيليون الدور، وهم ملؤون. ويرى "نوس" أن هذه أحسن الأوبرا وأن لها معانٍ مبطنة. وقد ردت على التقييم بأنها ربما أعجبت من كتبت له أو لها. وأفضل الممثلين ينونون ترك هذه الأوبرا، والممثلون الرديئون لا يملؤون العين. ولا أمل في أن يتحسنوا.

ولا يزال يُعرض في الأوبرا "بيليرافون". وقبل أيام حين ظهرت على المسرح الأفعى الصفراء القبيحة. انفجر بطئها لأن شيئاً تكسر فخرج الولد العاري أمام الجمهور مما جعل الجمهور يضحك.

جمهور "بروزيريين" غير معجبين بها. يقولون إن الأوبرا ليست سيئة، وأنها مؤثرة، غير أنهم لا يستطيعون عرضها طويلاً. شففية بيليسية الآن. وقد كاد رأسها يصاب بعلة. ويرى بعضهم أن السبب هو الجهد الكبير الذي بذلته على خشبة المسرح. وآخرون يعللونه بحبها السري.

في مسرح الكوميديا الفرنسية تُعرض مسرحية "فيلسوف بزوجة"، وهي تحظى برضاء الجمهور. وكاتبها هو دوتوش، غير أنه ما يزال يحتاج إلى الكثير ليلحق بموهبة مولير. يقال إن دوتوش يعرض فيها قصة حياته هو. وسأرسل إليك النص حالما يطبع. والكل يرون أن "كينو" أدى دوره جيداً. ولكن لي رأياً آخر.

سأرسل إليك كتاب "جولات غوليفير" والكاتب هو "سفيفت". والكتاب ممتاز، مليء بالأفكار الصائبة، وفيه شيء من السخرية. إن سألت عن حالي، فأنا مرتحلة إن لم تظهر عقبات لا يمكن اعتراضها. ولكن كل شيء بيد الله. وموقع أملـي الوـحـيد هو الله. وشفـاليـه الآـن أـقـرـب إـلـيـكـما لم يكن فيـ السـابـقـ. وـيـبـدـيـ ليـ اـحـتـرـاماـ عـظـيـماـ. وـيـحـرـصـ عـلـيـ جـدـاـ. وـأـنـاـ أـقـابـلـهـ بـالـمـلـلـ. وـلـوـلـاـ أـسـتـحـيـ منـكـ لـعـبـرـتـ لـكـ عـنـ رـضـاـيـ الـكـامـلـ عـنـهـ. وـأـنـاـ عـلـىـ حـالـيـ كـمـاـ رـأـيـتـيـ. وـلـاـ تـرـازـ الـأـفـكـارـ الـتـيـ أـثـرـهـاـ فـيـ نـفـسـيـ تـقـاـذـفـنـيـ إـلـيـ الآـنـ. وـلـاـ أـمـلـكـ الشـجـاعـةـ لـتـحـقـيقـهـاـ لـنـفـسـيـ. وـيـطـفـوـ فـوـقـهـاـ رـغـمـاـ عـنـ حـبـيـ -ـ إـشـفـاقـيـ. يـتـصـارـعـ فـيـ أـفـكـارـيـ دـائـمـاـ الـحـزـنـ وـالـصـدـقـ. وـهـذـاـ الـصـرـاعـ يـرـهـقـنـيـ جـسـداـ وـرـوـحـاـ. وـلـاـ أـتـحـمـلـ أـيـ مـكـروـهـ يـحـدـثـ لـشـفـالـيـهـ.

عليّ أن أقطع كتابتي الآن إذ طفت على الذاكرة أحزان كثيرة. شفـاليـهـ إـلـيـ الآـنـ يـمـرـ كـثـيـراـ. وـأـدـعـوـ اللـهـ أـلـاـ تـتـقـيـحـ رـئـاهـ. وـفـيـ هـذـاـ الـخـصـوصـ لـأـجـدـ مـنـ الـمـنـاسـبـ أـنـ أـتـكـلـمـ إـلـيـ أـحـدـ. أـفـكـارـيـ السـيـئـةـ لـاـ تـرـكـ لـيـ مـجـالـاـ لـلـرـاحـةـ. لـيـسـ عـنـديـ أـحـدـ

أفتح له قلبي. وبعدي عنك سوء حظ شديد. لو كنتِ معي لاكتسبتُ القوة من رفتك. وحينها يا عزيزتي كنت أظهرت قوة وصلابة من نصائحك وحي لك، وربما كنت تغلبت على النار التي تحرقني. ومع أن عقلي يعرف أن هذا غير مناسب فإنه يفت في عضدي.

شفاليه معي أحسن بكثير مما كتبت لك سابقاً. والرسائل التي يكتبها لي كتلك التي أقرأُ لك إياها. وهو الوحيد الذي أطلعه على رسائلك. وهو معجب بها جداً. ويقرؤها ويجد فيها متعة مثلية. وداعاً يا عزيزتي. ثقي بإخلاصي التام لك".

III

هل ينطبق المثل: "ججعةً ولا أرى طحناً" على أمور حياتي وحي؟ - مزحت عائشة مع نفسها وهي لا تعرف من أين جاءت الفكرة، وأجابات مبتسمة: - ربما اعتاد الناس الذين يأتون على ذكري على أصوات رحابي الفارغة" - ما الأمر يا أيسية؟ لماذا تبتسمن؟ - سألتها صوفى العابسة.

- لأنى فكرت في نفسي - ابتسمت عائشة لصوفى التي كانت تراقبها حريصة عليها، وقالت في نفسها "هل لاحظت هذا؟" - وأنت ألا يحدث لك شبيهه؟

- حين أكون وحيدة. ولكن هذا يوهن قلبي، لا يدعه. إن سمعت كلامي ففكفاك إقامة في باريس حابسًا فيها نفسك. اذهبى إلى أبلون حيث الهواء النقي قبل أن ترسل وراءك ماري - أنجليك للمرة الثالثة. وبعد وقفة قصيرة اختتمت بلومها: - أراك لا جلد ولا لحم. قررت أن تقتلني نفسك من أجل شفاليه. أرسليه للراحة عند والديه في بيرينغور. أنت غير مهتمة بشخصك.

- كيف تقولين يا صوفى هذا الكلام دون شعور بالإثم وأنت تعرفين أنه مريض؟!

- أقول لأنه لا يحرض عليك - بادرت صوفى إلى التعبير عما في نفسها، ثم اختتمت بصوت أرحم: - وأنت ألمست مريضه؛ ألا تسعلين؟

- وأنا متوعكة ولكن الرجل يحتاج إلى رحمة المرأة - قالت عائشة وسرعان ما غيرت الموضوع - وأنت يا صوفى ألا تريدين الذهب إلى أبلون؟

- وتسألين عن هذا؟ - ضحكت صوفى ثم أضافت بشيء من العbos: - ألا تعرفين أني لن أسمح للكونتيسة أن تنفرد بك؟

- أعرف، ولكن إن لم تكن "أكلتنا" إلى الآن فلن ندعها تأكلنا الآن - بادلت عائشة صوفى بالملازح - ماري - أنجيليك مزاجية، طيبة لولا مزاجيتها. لم أرها منذ أكثر من شهر. أشتق إليها، وهي ربما اشترقت إلينا. متى طلبت مني فأنا حاضرة. النهار أمامنا - زفرت عائشة: - ليس هذا فقط بل اشترقت إلى كلبي الصغير "باتي"، ولكن هل اشترقت إليه أنت؟

- وكيف لا أشترق! حين قلت للكونتيسة: لا تصحبيها، لن تُريحك، أصرت على اصطحابها بحجة أنه يذكرها بأيسبيه.

وفي هذه اللحظة انتصبت أمام عائشة كيف دخلت وهي صبية صغيرة دار آل فيريول، وكيف استقبلتها الأسرة بكمالها. ومن أعلى الدرج ركض بون دو فيل الصغير إليها وأمسك بيدها واقتادها. وكيف ضمتها ماري - أنجيليك إلى صدرها ولقت يدها حولها. ولاروش والخدم، وصوفى التي كان لها وقع مختلف لا تدري لماذا، وغيرها.

وإذا كانت هذه الذكرى كأنها البارحة فما مرّ أمام عائشة في حياتها الفرنسية كثير جداً. الملك - الشمس لودفيغ الرابع عشر، الذي كان يقول "أنا البلاد لأنتم فإذا مثّل فيلجرفها السيل إن شاء!". مات. وابنه الخامس عشر، والذي رياه أورليان فارق الحياة أيضاً بعدما نشر في البلاد نظرية الحب المتحرر. وهم والوزراء الكثيرون الذين تعاوروا على الحكم لم يعد يذكرهم أحد. ومن حررها من عار سوق النخاسة في إسطنبول وجاء بها إلى فرنسا، وأدخلها في عالمها الكونت شارل دو فيريول فارق الحياة. وأخوه الكونت أوغستين - أنطوان، وزوجته الكونتيسة ماري - أنجيليك شاخا. وتصبّيهم أمراض جديدة. ومن أصبحت كاتبة شهيرة كلودين - ألكسندرین دو غيرين تانسين، لم تكن حياتها خالية من الأزمات، سواءً بذنبها هي أن بذنب غيرها. وأخوها الأكبر بيير

وصل إلى مرتبة المطران. وبمارس وظيفته. وتذكر يوم مولد أرجنتال كأنهاليوم. وبون دو فيل وأرجنتال يعملان في مجال الفن والسياسة. ومونتسكيو وفولتير من كبار رجالات فرنسا. ويلحق بهم من صار من معارف عائشة قبل مدة "دينبي ديدرو".

"وأنا ماذا؟" — دفعتها ذكرياتها إلى التفكير، وابتسمت: — أنا عشت حياتي و"جمالي" المنحوس لا يجلب لي في بلاد الغربة إلا المصائب. اغفر لي يا إلهي. لأنك لا تجهل مأساتي، أتأمل منك أن تفهمي. غير أنني أعرف أن لي ضلعاً في المصيبة التي جرت لي في فرنسا. وإن قلتُ هذا فلا تجعلني أعتقد أنه كان عليّ تنفيذ الرغبة الأخيرة لبابا. لو طاوعته لحملت نفسى عذاباً لن أخلص منه طوال عمري. والخطيئة التي تسبب فيها ضعفي الأنثوي؟ مثل هذا السلوك والولادة دون زوج ليسا مهمين هنا ولكنها عندنا في بلاد الشركس عار أبدي لن يُمحى. ولا أقصد إدانة الفرنسيين بهذا "لأنه ليس في البلاد زعيم يقول لهم عيب عليكم ألا تحموا حبكم، وأن تعثروا به وتدنسوه. وإذا كانت هذه حياتنا في المستقبل فأنا أظن أنها ستكون نهاية فرنسا. وحتى في خارج فرنسا، دعنا من بلاد الشركس، في شفيصار مثلاً حيث تعيش كالاندرلين لا وجود لهذا العبث."

— لماذا لا تتحركين يا أيسية؟ ألن نذهب إلى أبولون؟ — سألت صوفى عائشة، ولامتها: — الله أعلم فيما كنت تفكرين الآن! آل فيريول هم هُك الدائم.

— إن انتهينا من آل فيريول يا صوفى فسنبقى أنتِ وأنا من دون أمل ومن دون وسيلة للحياة. — مزحت عائشة مع صوفى أيضاً — كنت أفكر فيهم وفي غيرهم.

- لا أعرف من تسمّينهم: "غيرهم" ولكن لو كان الأمر بيدي لما تركتك تصدعين رأسك بالتفكير في آل فيريول. سترين إن لم تُدفعك ماري – أنجلييك ثم السعادة التي عشتِها في الشهر الذي أمضيته بعيداً عنها.
- لماذا إذن تدفعيننا إلى الاستعجال في الذهاب إلى هناك؟ – سألت عائشة صوفى مازحةً.
- وهل أنا المشتاقة إليها؟! أنفذ ما يُصرّون عليه.
- وإذا قررنا هذا فستحيد عن الطريق قليلاً إلى السوق، ثم إلى أبولون. – قالت عائشة، ثم أعادت التفكير في الكونتيسة دون سوء نية: – مهما قلنا عن ماري – أنجلييك فهي غير ذلك. وأنت تعرفين هذا.
- أتريدين أن تقولي إن الإنسان حين يشيخ تظهر لديه طباع جديدة؟ – لم تفتنع صوفى بما سمعت.
- لا، لا أقول إنها كانت دائماً امرأة من ذهب. غير أنني لا أستطيع ادعاء أنها كانت حقداً. أنا أعرف طيبة قلبها وصفاء سريرها. مهما لامتني، وعنتني، فقد ربيتني كما كانت أمي وجدتي تربيني لو كانتا على قيد الحياة، لم تدعني أشتئي شيئاً. عاملتني كما تعامل أولادها من رحمها. والآن ترين شعورها الطيب نحو سيلين. زارتها أكثر من مرة. ولو سمحوا لها لجأةت بها من سانس ورثتها هنا.
- هذا صحيح، الكونتيسة طيبة القلب. لا تتكلّم عن حقد. أنا أشهد عليها من هذه الناحية – قالت صوفى دون تفكير – حين وجدت نفسي في باريس دون مسكن ودون عمل كانت الكونتيسة ماري – أنجلييك أول من لجأت إليها، وأول من تفهّمتني. ولكن ما سمعتها تقول هي والسايّس جاك عنك...

- وماذا يعرف العجوز جاك عنى ليأتى على سيرتي؟ - قاطعت عائشة كلام صوفى لا تطيق صبراً، ثم أضافت مبرئه نفسها أكثر: - كان بابا المرحوم يذكر جاك بالخير فأرتاح له، وإيجاباتي عن أسئلته أرضته.

- فهمت - لم تدع صوفى عائشة تنتظراها - كانا يتحدثان في منح الكونت لك ثلث أملاكه. وفهمت الآن لماذا حين بقيت ماري - أنجيليك وحدها في البيت صاحت "ما كان يليق بالكونت أن يفعل هذا دون عِلم أخيه أو علمنا". وأظن هذا سبب إلحاحها على في طريقها إلى أبلون أن أمر بإيصالك إليها حال عودتك.

عرضت عائشة على صوفى الورقة التي أخرجتها من الخزانة، ثم وضعتها في الكيس الأننيق الذي فيه أشياؤها. وخصّت بالقول:

- هذه الورقة ليست سراً علىّ ولا على غيري. وحين سألتني ماما "وهل سيترك لك الكونت المريض ريعاً تعيشين منه" أجبتها أن بابا ترك لي عائداً سنوياً. وأما وثيقة التملك التي تتحدثين عنها فلم أكن أنا أيضاً أعرفها. كان بابا قبل وفاته بأيام قد أعطاني إياها. ولكن لم يسأل عنها أحد فيما بعد فلم يخطر لي أن أتحدث في الموضوع... والآن، مع مرور الزمن، صرت أفهم أن أحداً لن يسأل عني مع أحوالى التي تسوء باستمرار... - الأحزان التي ما كانت عائشة تُحسن ربطها ببعضها، والتي تُفنيها، كان يضاف إليها الخبر المفاجئ، فتحيل إليها أن دموعها تسيل على خديها الجميلين المطاولين نتيجة الإهانة غير العادلة، ففعلت كما في كل مرة: انفضت برأسها وكظمت غيظها: - ماذا تنتظرين: هيا إلى أبلون!

تبه الكلام صوفى فرفعت رأسها:

- إذا كان الأمر هكذا فلنؤجل سفرنا إلى أبلون ريثما يهدأ قلب الكونتيسة!

- وهل سنتظر حتى ترسل إلينا الرسول الثالث من أبلون؟ لا، سنسافر حالاً.
لا تكاؤن في شأن المال. ولكن كان الأحسن ملاماً أن تسألي من أن تتصرف في
سرها. كنت أرحتها!

- لماذا كنت ستقولين لها؟

- ستسمعين في أبلون.

- لا تفعلي يا أيسيل يا لا يجوز في هذا الظرف. وأنت فكري في نفسك، ولا
تنسي سيلين. ليس هؤلاء محتاجين إلى القليل الذي تركه لك الكونت.
نظرت عائشة إلى صوفي التي كانت دائماً خائفة عليها، ولم تردّ.
وصلت عائشة ورفيقتها إلى أبلون وقت استراحة الظهيرة. الشهر الأول الحر
من الصيف، والجو جميل والهواء النقي يملأ سماء إقطاععة آل فيريول. والأزهار
تفوح روائحها. والعصافير تملأ الفضاء.

ماري - أنجلييك جالسة تحت الشجرة تبصّر. ومن ناحية البيت يعزف لاروش
أغنية تلتتصق بالقلب، وإحدى خادمتها الكونتيسة تكوي، والديك ذو العرف
الأحمر ارتفق الحائط كأنه يعلن قدوم الضيوف.

حين سمعت ماري - أنجلييك صوت العربية، رفعت رأسها. وحين رأت
الخارجتين منها أيسيل وصوفي صرفت النظر عنهما، ورجعت إلى تصويرها.

- وصلت شارلوت - إليزابيت أيسيل يا كونتيسة - استقبلتهما الخادمة. وهز
باتي والكلب الصغير الآخر ذيليهما فرحاً. وعانق باتي عائشة. وطلب منها أن
تحمله.

- يا ماما ماري - أنجلييك لماذا لا تقولين شيئاً؟ - حنت عائشة جسدها
للكونتيسة وقد نسيت كلامها في باريس. - دعيني أعانفك، أقبّلك، اشتقت
إليك.

- ابتعدِي، ابتعدِي! - عاتبَتها ماري - أنجلييك دون أن ترفع رأسها عما هي مشغولة به. لو اشتقت إليّ لما حبسَت نفسك في باريس شهرَين كاملَين... لو لم أصطحب باتي لعدّيْتني شوقاً إليك. تعالى واعتذرِي مني. كانت أحجار التبصير تخبرني بزيارتِك الْيَوْم. وكنت أستعد للعودة إلى باريس لأنني سمعت أنك تسعلين ومتوعكة الصحة. كيف تمشي أمورك هذه الأيام يا أيسِيه؟ هل كنت تعالجين نفسك في باريس فلم تأتي إلى هنا؟ أنت شاحبة ونحيفة. وسيلين الصغيرة كيف حالمَها؟ وكيف لا تكونين شاحبة وأنت تعانين كل هذا العذاب؟ بل إن الله وحده يعلم كيف تستمررين في الحياة! يا باتي توقف عن لحس أيسِيه، ودعنا نتكلّم بحرية!

- لا، باتي لا يعطل حديثنا - سألت عائشة وهي تمسح على ظهره: - أليس صحيحًا؟

- انظر إليه كيف صمت في صدرها! لم تعد تريدين يا سليل الكلاب! أحتفظ بـ "شارمان الصغير" كلي حبيساً في البيت من أجل أن أدلّلك. لا بد أنكما جائعتان. هاتوا المائدة. لا أظن الدكتور لاروش يعرف بقدوم أيسِيه. كرهنا الأوكورديون. ليأت إلى هنا!

- لا أعرف يا ماما يمَّ أبداً من أسئلتك الكثيرة. - هدأت عائشة ماري - أنجلييك وهي تنظر بطرف العين إلى صوفي قائلة في نفسها "ألا ترين وتسمعين أننا اتحمنا الكونتيسة ظلماً؟" - الجميع بخير. والجميع حملوني تحياهم. وأنت كيف حالك؟ ألا تزعجك رجالك؟ هل تشربين من ماء "بالاريوك"؟

- وأنا لا بأس بصحتي، وأشرب من هذا الماء، ورجلائي في حال مقبولة. غير أن وضعهما لا يسمح لي بالذهاب إلى الصيد. لا تنظري إليّ، لا تنظري!

جشتِ ببنديتك عبشاً. لن أسمح لكِ بأي نزهة صيد حتى تُشفى. أنتِ تسعلنين.
وملاداً لا تقولين شيئاً يا صوفي؟

- صحيح يا كونتيسة ما تقولين. أوفُك. - سمعت صوفي ما كان يقلقها من
جهة عائشة ففرحت - ليس السعال وحده بل عظامها وأطرافها.
- أنا لا أتكلم في ما لا أعرف. - أهنت ماري - أنجليك الحديث بامتداح
نفسها وقالت لها: - إن أردتَما بصررت لكما إلى أن يجهز الطعام.
- لا، لا. جزمت عائشة - أنا لا أؤمن بالفأل.

حين رأت ماري - أنجليك الكلب الأسود الصغير الذي أطلق يجري نحوها
صاحت إليه ناسيةً ما قالت وما قيل لها:

- أنا هنا يا شارمان - ترثُ بيدها على الكلب الأشعث الذي أتعى في
حضنها، تعابه وتحدى - لا ضرورة لأن تلهث كل هذا اللهاث وترهق نفسك.
يكفي ما دللتْ باتي الذي لا يعيوني اهتمامه. الآن سنكون معاً أنت وأنا. -
بدأ شارمان الذي يسمع عتاب الكونتيسة لباتي يعوي على رفيقه، فلم تقبل
الكونتيسة: - كفى أيها المجنون الصغير. وهذا الذي تعوي عليه كليناً أيضاً.
أفضل أن ترحب بضيوفنا.

مضى أكثر من أسبوع على عائشة في أبلون. ولم تفتح ماري - أنجليك
الموضوع الذي تنتظره عائشة: توزيع الملك بل لم تلمح إليه. وممضت الأيام
متعاقبة. وتتغير من برد إلى حرٍ إلى مطر صيفي عاصف إلى رعد وبرق. وكانت
عائشة قد نسيت الموضوع أيضاً، دعك من صوفي التي كانت قد صمنت كليةً.
وشارمان وباتي يلعبان معاً في البناء بعدما تصالحا. وماري - أنجليك وعائشة
لا تسمحان لنفسيهما بالراحة: تقرآن في الكتب، وتلعبان الورق، وتتنزهان في
أرض الدار. وتخرجان فندوران في الأرجاء القرية. وفي الأماسي، بعد موعد

الشاي، تطلّبان من لاروش العزف، وتغنيان معه بصوت خفيض ما تجبان من الأغاني.

في البداية، يُخيّل إليك أنّهم يُسعّدون أنفسهم، ولكن الحقيقة هي أنّ ماري — أنجليك وعائشة لم تكونا مرتاحتين في داخلهما: ظلت كُلّاً منها تحمل قلقها الخفي. لم تكن عائشة غير مهتمة بالورقة التي جلبتها من باريس. ولكن أصعب ما عليها هما من أودعها روحها فيهما: سيلين ودو إيدى، غياجا عن ابنتها، وعدم تقاسمهما حبهما، وإلا فهي تناول حصتها من الطعام واللباس والرعاية. وآل بولينغبروك سُمح لهم بالعودة إلى إنجلترا ولذا يحضرّون الأوراق التي تسمح لهم برعايتها في إنجلترا. "لن يُحيّجوها إلى شيء ما دامت في صحة جيدة." — كانت عائشة تواسي نفسها — سنسترجعها أنا وإيدى متى انحلّت أمورنا. ولكنني لست في صحة جيدة، كنت أخشى من مرض العظام عندي فاكتشفت أن إيدى أشد مرضًا مني. كيف أستطيع شفاء مرضه وأجد له دواء؟ لا تنفع معه أحسن الأدوية. ليته لم يصَب بمرض في الخنجرة نتيجة الجراح التي أصيب بها في حروب فرنسا. يا ربّ كن رحيمًا معى من جهة إيدى! إشفه وهبّ لنا أسباب نهاية سعيدة لحاننا. لا أحد لي في الدنيا أحبه مثله! وسيلين أيضًا

ولم تكن ماري — أنجليك في وضع سعادة وراحة. وأشد ما يُفنيها تجُمُد جمالها والحدّارها إلى الشيخوخة. ونقصُ موارد الأسرة منذ توفي الكونت شارل دو فيريول، يضاف إليها ارتفاع تكاليف الحياة يوماً بعد يوم، وتقااعدُ أوغستين — أنطوان عن العمل، وزيادة أجور الخدم. غير أنّ أقساحها هو مشاركة عائشة لهم في الترفة. وفي جميع الأحوال إن لم تقاسّهم عائشة التي ربّتها وأحبتها في الترفة فلن تحجب عنها أي طلب في الدنيا.

"صحيح أن من ربيتها مع ولدي، وأفنيت جسدي في تربيتها، عائشة المنحوسة، أين أذهب بها؟ - واست ماري - أنجلييك نفسها وعاتبها - ولكن عليها ألا تخفي وثيقة الملكية عني وعن آل فيريول الذين منحوها اسمها... أقول هذا ولكن ما ذنب أيسية المسكينة؟ الذنب ذنب الكونت الذي فارق الحياة لا يدرى ماذا كتب ولا ماذا فعل. على أني لن أسمح لها أن تغادر أبلون قبل أن تكشف لي السر..."

الرعد والبرق اللذان خيّما فوق أبلون الليلة جلبا لها صباحاً منعشأً. تحس في كل مكان بالرطوبة. وأشعلت نار الموقد بناء على طلب ماري - أنجلييك عسى أن تقاوم رائحة الدفء أمراض مفاصلها وعظامها.

- صباح الخير يا ماما - حيّت عائشة ماري - أنجلييك وسألتها: - كيف كان حالك مع رعد الليلة وبرقها، هل نمت؟

- ليس المشكلة في عدم النوم بل في تهيجه أمراض العظام. وأنت ألم تُرعبك؟ - أنا؟ - أجبت عائشة بالسؤال مستغرية سؤال أمها - أنسنت أني أحب المطر المصحوب بالرعد والبرق؟ سهرت أُنصلت وأعد ضربات الرعد حتى غفلت.

- نعم، نعم، لا أدرى لماذا نسيت أني كنت تهدئيني حين يقفز الرعد. هذه المرة لم تتفقدني. ربما ليس قلبك صافياً نحوى؟!

- لم يكن في قلبي يوماً من الأيام أيُّ جفاء نحوك يا ماما. لا تتهمني ظلماً! - لا أعرف، دعيني، لا أعرف... أنا عندي بعض العتب عليك... وكنت قلت لك قبل: أنت تعيشين معى بأسرارك.

- أي سِّر يا ماما؟! – صرخت عائشة من السؤال المرائي الذي رُميت به. تذكرت للتو الورقة التي كانت قد نسيتها فذهبت إلى غرفتها، وأرْجَمَا الورقة التي ليست مهمة في نظرها: – أهذه ما تتكلمين عليها؟
- ما هذه؟... – تظاهرت الكوتنيسة أنها لا تعرفها.
- هذه الورقة التي ذكرها لك جاك العجوز. هذه ليست سرًا علي ولا عليك ولا على أحد يا ماما.
- إن لم تكن سرًا فلماذا لم تكشفي لي عنها قبل أن يشي بك جاك العجوز؟
- ما قدمته لي أكثر مما في هذه الورقة يا ماما. وهذا هو السبب في أنني لم أذكرها لك. أنا من آل فيريول يا ماري – أنجيليك يا ماما فلن أتقاسم مع نفسي. لن أسيء إليك ولا إلى عمي الكومنت أوغستين – أنطوان، ولا إلى أخيّ بون دو فيل وأرجنتال. لتعتذر هذه الورقة لم تعد موجودة! – طوت عائشة الورقة وألقت بها في النار.
- ماذا تفعلين؟! – صرخت ماري – أنجيليك، وريثما مدت يدها إلى الملقط الحديدية كانت النار التهمت في غمضة عين الورقة التي كانت تُمْرِّق آل فيريول وصارت رماداً. – كيف ستعيشين أنت المنكودة وسileyin الصغيرة بعد اليوم؟!
- ما يجري عليكم يجري عليّ يا ماري – أنجيليك يا ماما – الآن جلست عائشة إلى جانب الكوتنيسة تحدهما.

IV

حين تنجلبي السحب البيضاء المائلة إلى السوداد عن المطر تمر الأيام على عائشة في أبلون كأن لم يحدث لها شيء كحال السماء بعد المطر. والهواء النقي الذي لا ينفك الدكتور لاروش عن النصيحة به يفیدها. وحين تنام، قبل أن تجد وساوسها الوقت لتفاوض تستغرق في النوم. وتستيقظ على نداء العصافير الصباحي. وتقضي بعض الوقت مستمتعة بإنشادها، ثم تنهض من الفراش. تتأمل الطبيعة التي ترتدي ثياباً ملونة: "ما أعجب تأليف دنيانا هذه!... - تفكك، وتنصح نفسها وهي تتناسى الأفكار القلقة التي تبدأ تغزو ذهنها: - الخير أكثر من الشر. لو كانت الدنيا تتمثل لأعيننا بمظهر وحيد لما وجدنا فيها ما يعجب، ولمللنا منها. هذه الجبال وهذه الأشجار وهذه البراري ليس لها مظهر واحد. وغناء العصافير متنوع. وطريقة كلام الناس، وبكائهم وضحكهم وعتابهم ليس من النوع نفسه. نعم، ومع أن الطبيعة مركبة من أشياء مختلفة فالخير فيها أكثر من الشر. وأن تكون إنساناً خيراً أفضل من أن تكون إنساناً شريراً إن استطعت. - أغلقت عائشة على أفكار الصباح ولم تستطع إلا أن تقول لنفسها ما تشتهيه دائماً وتلح عليه: - اليوم مناسب جداً للصيد؛ غير أني لن أخرج إليه، وبدلاً منه سأكتب إلى جولي كالاندرин. من حسن حظي أن عندي امرأة حكيمة مثلها تفهمني وأجلأ إلى نصائحها!"

من المستحيل مقارنة علاقة عائشة بجولي كالاندرين مع علاقتها بماري - أنجيليك. ماري - أنجيليك أم لعائشة، تغفر إحداهما للأخرى مهما اختلفتا أو تبادلتا الود؛ لا يدخل بينهما إلا العتاب والنصح المتبادل. وإن دخل بينهما الجفاء فلا تملكان إلا المغفرة. وعائشة لم تعد صبية وهي أم ولو من غير زواج. وعندها من تقلق لأجلها وتحميها. وورثت بعض المال تعيش به لا سعيدة ولا

شقيّة. ولكن ماذا كانت تريد عائشة أن تقول ماري - أنجليك بإحراقها ملوكها؟ أتريد أن تثبت لها قوتها ورحمتها أم اعتبار ترتيبتها في بيت فيريول أعز عليها من الملك؟ ربما هذا أو ذاك أو أشياء أخرى...

"ماذا فعلت؟" أهو صياغ ماري - أنجليك، وإسراعها إلى النار لتلقط الورقة قبل أن تحرق، أم بكاؤها أم احتضانها لعائشة وإسداء النصح لها وتمدّتها؟ هذا السؤال "ماذا فعلت؟" يستطيع كلاً أن يجيب عنه كما يتصور. ولكن الإنسانية والشرف واحترام الذات تساوي كل ملك! قالت عائشة: "لن أذكر شيئاً من هذا لكاّلأندرین ولن أصدّع رأسي بها، سأجيب بما سألت عنه". ثم جلست تكتب إلى جنيف:

"مضى زمن طويل على آخر رسالتين لك. وتأخرت عن الإجابة عليهما، ليس لأنني لا أحبك، أو لا أحترمك، أو لا أشتاق إليك. ولا أبحث عن عذر يبرئني. أغفر لك تأخري بسبب إقامتي في سانس، واعتلال صحتي، وأمورى التي لا تجد حلاً، وأمورٍ أخرى. وأعدك ألا أهداون مرة أخرى مستقبلاً. وأشهد الآن مرة أخرى أنني أنظر إليك بعين الرضا، وأنني محتاجة إليك أكثر من حاجتي لأي إنسان آخر، وأنني أنتظر نصائحك الحكيمية.

أنا الآن في أبلون. اليوم يوم دافع منعش للقلب. ولو لم يكن كأيام جنيف وشفيسار الصافية. أرجوك ألا تملّي من كتاباتي، ولتفادي الملل أجيّب عن أسئلتك.

الصبية الصغيرة يُخَيِّلُ إلى أنها تنمو جيداً. لا يخفى من تكوين أعضائها وشكل قوامها أنها ستكون امرأة جميلة. ولن تجدي في العالم كله عينين أجمل من عينيها. ولكنها شاحبة ونحيلة. هي ذكية، فطنة. وطبعاًها وعاداتها ممتازة لولا أنها لا تخترس لنفسها. يُخَيِّلُ إلى أنها، بلا مبالغة، مشروع امرأة جيدة.

والمسكينة منجدبة نحوه كثيراً. وحين رأته كادت تذهل من شدة الفرح. وما عانيتها أنا أكثر من هذا. كنت أكظم عواطفني كي لا تحس باضطراب قلبي في صدري. وقالت لي إنها لم تشهد يوماً أسعده من يوم زيارتي لها. لم تكن تستطيع مفارقتي طيلة الزيارة. ولكن حين أرسلها في مهمة، أو أطلب منها شيئاً تنفذها على نحو كامل. وحين يصدق ألا تستطيع تحقيق طلبٍ من طلباتي تبحث عادة الصغار عن حجة تثبت بما براءتها. وحين اقترب انصارافي كانت حزينة على نحو يمزق القلب، ووقفت عاجزة أن تقول لي كلمة واحدة.

اتفقنا أن نزور كلير بولينغبروك التي تستشفى في ريم أنا ومسئولة الدير. وسكان الدير ممتعضون من خروجها من سانس. وقد قالت لها ابنتي وقد أحزنها الخبر: "وأنا أيضاً كالآخرين مخزني خروجك من الدير. ولكنني أعتقد أن خروجك ضروري. ولأني واثقة أن المركبة بولينغبروك ستسرّ جداً برؤيتك، وأن سفرك مفيد لصحتك، فهذا يريحني ولو قليلاً" وفي هذه اللحظة بكت المسكينة الصغيرة وقالت لي وهي تعانقني: "كم جاءت هذه السفرة في غير وقتها! ولولاها لبقيت عندي وقتاً أطول. أنا يتيمة الأب والأم، أتوسل إليك أن تصبحي أمي. وأنا أحبك كما لو كنت أمي الحقيقية" ألا تفهمين يا نور عيني ما عانيت بعد هذه الكلمات في قلبي وإن كتمت ظاهراً.

بقيت في سانس أسبوعين. وفي خلالهما هاجمتني نوبة آلام في عظامي معتبرني من تحريركها. وفي خلال اليومين لم تفارقني ابنتي خطوة واحدة. ولا تفارق مخدتي خمس ساعات متتالية كي لا تتركني وحيدة. كانت تحدثنى لتخفف من آلامي. وأحياناً حين يأخذنى النوم تسهر علىّ لا تصدر عنها نامة خوفاً من أن توقظنى، وهذا ما يعجز عنه أكثر الكبار. وأنت تعرفي من المهمومة أكثر من

غيرها بإيداع الفتاة عند آل بولينغبروك وتربيتها لها؟ ويمكن القول إنها تنهى عنها.

والآن بعض كلمات عن شفاليه الذي تسائلين عنه دائمًا. أعتقد أن صحته تحسنت بالقياس إلى صحتي. وهو الآن في بيرغور في زيارة لخمسة أشهر تقريبًا. وإذا قلت لك ياشبيه نور عيني لماذا رغب في أن يتزوجني استغرقت. أمس، وبحضور إحدى صديقاتنا، كلامي صراحة في الموضوع. ربما لن تجدي على الأرض كلها حبًا مثل حبنا، وعلاقة مثل علاقتنا. هو يرايني مرة كل ثلاثة أشهر، وأنا لا أفعل شيئاً للاحتفاظ به. ولا أريد استغلال امتلاكي لقلبه في الوقت الحاضر، ولا يقبل به شرفني. ومهمماً أحببت أن ينادوني بزوجته فأنا لا أحب شفاليه من أجل شخصي، بل من أجله. لا، لما قد يوصم به معنى عميق لي. لا أريد أن أدفعه إلى سلوك غير لائق، بل آبى على نفسي مثل هذا. ولو وافقت على الزواج لصار كل ما سيتناقلونه من أخبار عاراً علىّ. ومع ذلك هل أستطيع الوثوق بما في قلبه خوفي ألا يتغير؟ ألا يمكن أن يندم يوماً ما على الحب الذي وقع فيه وكان حقيقة عقل منه؟ ثم كيف سأعيش إذا اتضح لي أنه لم يعد يحبني وأنه كان سيء الحظ مع؟ كلامي بجمية كبيرة وصعب عليه جداً فهم ما أريد قوله. وعلى كل حال كان سبب رجوعه هو ضرورة أن نعيش معاً. ولم تعجبني هذه الكلمات واستغرقتها. وبدأ لحظتها يقنعني أنه ليس في كلماته ما يهينني. يريد أن يسجل نصف ما يملك على اسمي لأنه غير راضٍ عن أهله. ولأجل تشجيعي على هذا الإجراء لمّح لي إلى أن من يتأخر عن الآخر في ماته يرثه. وحين قال لي هذا قلت له إنني لن أترك في الدنيا إلا ملابسي الداخلية القديمة.

والآن أجييك يا نوري عن السؤال الذي أغضبك. وصلتك الأخبار الكاذبة التي يتناقلونها في باريس. أحب شفاليه كما كنت. ولا أحب غيره. وهو الوحيد الذي سيقى في حياتي. سأوضح لك مصدر تلك الأقاويل متوجهة غضبك. كم كنت أحببت الدوق جيفرى. بل إن وقوفي أمام الله من أجل ذنبي الكبير وقرار الأب الذي اعترفت أمامه بأني لا أحتاج إلى كفارة، كل هذا أشهد عليه. ربما كان عمري حين بدأ هذا الحب إحدى عشرة سنة. وحين بلغت الثانية عشرة تحول هذا كله إلى مزاح. ليس لأن جيفرى الدوق لم يعد يعجبني، بل لأن مزاحي معه ومع إخوته وإسراعي إلى دارهم كي ألعب معهم صار مضحكه لي أنا أيضاً. كان أكبر مني بستين أو ثلاث. وبالقياس إلى غيرنا كنا نعد أنفسنا الأكبر سنًا. وكنا نقلد الكبار في كلامنا. ولم نأت على ذكر الحب. والحق أننا، لا أنا ولا هو، لم نكن نعرف عنه شيئاً. كان يأتي إلى الشرفة المقابلة لغرفتي فتتبادل النظارات. وكان يصحبنا إلى سان - وان لمشاهدة أعمال السحر في يوم إيفان. وبسبب أن الناس يروننا دائمًا معاً كان خدمتنا بدؤوا يمزحون معنا. ولأنني كنت صبية أحب أن أفكر قبل أن أعمل شيئاً وأموري كلها واضحة فررت أني يمكن أن أحب جيفرى. ولأنني كنت أؤمن بالله فذهبت إلى الكنيسة للتوبية. في البداية اعترفت بذنبي الصغيرة المتفرقة، ثم وجب علي الكشف عن ذنبي الأكبر. وما قلت للأب الذي أعترف له إني أحب صبياً سألي عن عمره فأجبته إنه في الثانية عشرة.. سألي "أي نوع من الحب تحبينه؟" قلت: "كما أحب نفسي" سألي ثانية: "وهل تحبينه كما تحبين الله؟" في تلك اللحظة تساءلت: كيف ينظر هذا إلى فغضبي. ضحك الأب وأعلمني أنه لا ضرورة للاعتراف من أجل مثل هذا الذنب، وأن علي في المستقبل أن أتحلى بالأدب، ونصحي ألا أرافق ذكرًا وحدي.

وبعدها كنا نتذكرة، حين نلتقي أنا وجيفري، ذكريات الطفولة. ولم يكن كل هذا واضحًا. ويصعب معرفة إن كان الأمر جداً أم هزلاً. أيمكن للكل ما رويت لك يا نوري أن يبرئني؟ لا أشك أن هذا الذي روى لك هذه القضية مكيفاً إياها على مزاجه هو بيديفول لأنه غمام. لا يروي لك إلا كل ما هو سيء. ما كان عليك في هذا الموقف هو أن تدعوني فلا تسمحي له أن يروي تلك الترهات أمام الناس. أرى أنك تظنيني أكذب عليك. أنت قدمت لي الكثير، وعلى دين كبير لك. وما في قلبي لك من الإخلاص لا أغrieve الدهر. وأشهد على حبي الكبير لك واحترامي بأن أقول إنني راضية عنك. وأعاهدك أني لن أسمح لأيّ إنسان أن ينقض الثقة المتبادلة بيننا.

وشفالييه يدرك ويحترمك جداً. وأنت تعرفي موقفه من كل الذين حاولوا تشويه صورتي عنده. وهو يكره الناس ذوي النفوس القدرة. – إن عقله كبير. وكل يوم يزداد تعلقاً بي. وكانت الكونتيسة ماري – أنجيليك سألتني يوماً كيف حملت معني حبه الكبير. وكنت أجبها "ها اثنان: أنا أعمل على ترتيب حبه، وإسعاد حياته". ولأنها كانت سألتني هذا السؤال من باب الغيرة كنت أجبها في شيء من السخرية.

تسألين عن بون دو فيل: ليست صحته جيدة. وقلبي ينقبض إذ أكتب لك هذا. إن فيه كل السجایا التي يجب أن تكون في المرء. عاقل، ويستطيع أن يحترم نفسه. وفي علاقته معني هو ملاك حقيقي.

ما سأقوله لك الآن ستستغربينه. أنا وأرجنتال بحافينا – من ساعة ما أبصر النور بيذر منه أول مرة مثل هذا. ها نحن من أربعة أيام لا يكلم أحدهنا الآخر. وسبب الخصم هو رفضه أن يتعشى مع أمه. والكونتيسة لا تعرف شيئاً عن الجفوة التي بيننا. ولو عرفت لفرحت! وإن سألي عن السبب فحين كانت

تعنّف أرجنتال لم تقبل أن أقف إلى جانب ابنها فشغبت عليّ عدة أيام؛ أكيد تفهمين الموقف الذي وجدت نفسي فيه. أ يكون ساراً أن تفقد صداقه عمرها سبعة وعشرون عاماً؟ وأظن أن أرجنتال ندم على ما جرى. وكالعادة ففي الصالح بينما قام من هو على حق بالخطوة الأولى. رفعت كاساً على الغداء من أجل صحته، وفي اليوم التالي قبلته فجأة بلا مقدمات. ومن ساعتها رجعت علاقتنا كما كانت.

ماري - أنجلييك تنتزع مني القلم

"إن لم أتدخل فلن تقطع أيسيه كتابتها أبداً. - لم أستطع الانتظار إلى أن تنتهي، فأخذت القلم منها لأكمل بعض الكلمات. لا فرق الله أن تنسيني! من جهتي أنت دائماً على بالي. ويخزني بعُد إحدانا عن الأخرى. ولم يستطع مرضي وبحوالي في فترة تباعدنا أن ينسيني هذه الخواطر. والآن أيضاً أما مريضي وبحوالي في إحداها سأتي إلى بون دو فيل. ووقتها سنتقى إن شاء الله. وسأحمل معي هذا الأمل. وسيعنيني هذا الأمل على تسهيل تحملني للبعاد. وإلى حينها آمل أن تُطلعيني على بعض أخبارك. أرجوك ألا تشكي في أني سأحكي علاقتنا الحلوة ما عشت"

"أضيف إلى ما كتبت يا نوري: أخصص وقتاً للصيد. وهذا يفديني كثيراً. ولأن تعني الجسمي دواء ينسيني آلامي النفسية أكل وأنام بعد رحلة الصيد جيداً لأن الصيد يتطلب تحوالاً طويلاً، والعرق الغزير الذي يرشح مني يريحني. هذه يا عزيزتي أجوبة بعض ما سألت عنه. قلبي مفتوح لك، وأنت لي سند عظيم. لا أستطيع أن أكتب أكثر. وبالنسبة إلى إنسان ضعيف البنية مثلني فما كتبته كثير جداً".

خلال أشهر الصيف الثلاثة كانت عائشة تزور باريس كل أسبوع تقريباً. ولم تكن تقيم كثيراً فيها: يوماً وليلة أو يومين إلى ثلاثة. ومن بين المقيمين في أبولون كانت صوفى وحدها تعرف أين تذهب عائشة، وتجد للكونتيسة ماري - أنجيليك التي ت يريد أن تخصى على عائشة كل خطوة تخطوها أعداراً مختلفة فترتاح لهذا. وكل مرة تلوم الكونتيسة التي تشك في كل شيء صوفى:

- أنتما تخفيان عنى أمراً ما!

- لا، لا شيء من هذا. لا تختفي لشيء!

- نعم، أنا من يجدها الجميع جديرة بالخداع. لولا أن أيسىه تعالج مشكلتها لما سافرت إلى باريس في هذا الجو الحار كل هذه المرات. قولي لي ماذا تفعل! أى قضية تلاحق؟ - "أتكون خدعتي بمحنوى الورقة التي أحرقتها دون أن تُقرئني إياها؟!" تقول هذا وتسأل نفسها في شأن القضية المنتهية. - ما ستكتشفين لي عنه أعدك أن يبقى سراً بيننا، وإن لم تصدقني حلفت لك.

- وأنا واثقة منك يا كونتيسة. وأنت ثقى بي! ولكن كيف أروي لك ما ليس لي علم به؟ ألا تعرفين المشكلة التي تعيش فيها شارلوت - إليزابيت أيسىه؟ ثم أضيف إليها مرضها وأدويتها...

- أليس يصيّبني الصداع - أهنت ماري - أنجيليك كلامها بصوت ناعم بعدما لاحظت عُنف نبرتها. - وهي تأتبني بأدوية جيدة لأمراضي. ومع ذلك لا يطمئن قلبي؛ يحدثني بأشياء غريبة. أ يكون شفالبيه فعل عائشة ما فعل ثم تنصل من التزاماته؟! أ تكون أيسىه تتذلل له؟ أ تكون تحوم حوله؟ لن أقبل منها هذا. وذلك المتمارض إن كان يتذعر بمرضه فسألقلع عينه. أقول هذا ولكن ألا

تعرفين طبيعتها نحن النساء! أنت تكون تلاحق قضية تضرّ بالفيريول؟ لا أعرف حينها...

ـ يا كونتيسة! كيف تسمحين لهذه الأفكار أن ترد على بالك بشأن أيسية؟
ـ ... ارتفع صوت صوفي الحاد غير قادرة على تحمل المزيد من كلامها. ثم أدركت خطأها فأنحنت بصوت ناعم عاتب: ـ لو كنت تعلمين ما تلاحق شارلوتـ إيليزابيث أيسية! ـ "أقول لها أم لا أقول؟" سألت نفسها، ولكنها أصرّت أن تختفظ بسرها.

ـ ألسنُ أجادلُك لأنني لا أعرف؟ ـ نهرت ماريـ أنجلييك الآن صوفي. ـ ليس تفسير كلامي من مهامك؛ تذكري مكانك!

ـ استعجلت يا كونتيسة فاغفرني لي، لم أقل ما قلت عن سوء نيةـ مع أن صوت صوفي انحصار لشعورها بالإهانة فقد تحملت ولم تغير موقفها: ـ ولكنني أشهد على أن شارلوتـ إيليزابيث أيسية لن تسيء إلى آل فيريول.

ـ إن كنت ترين هذا فلا بأسـ تراجعت الكونتيسةـ ما هذا؟ أكلما سمعتـ كلمة نابية توّرّت؟... أكيد أن أيسية لن تفعل ما يسيء إلى آل فيريول. ولكن أقول مع ذلك: من يعرف...

كان أضيف إلى آلام عائشة التي ليست موضع ثقة مرض الجدري الذي كان يفتك بأرجنتال، ومرض حبيبته الممثلة الكبيرة ليكوفير أدرلين.

وحين يأتي بون دو فيل لزيارة أمه مرة في الأسبوع أو مرتين كانت ماريـ أنجلييك بدلاً من أن تعرف أخبار أرجنتال مهتمة بمعرفة أخبار حبيبته أدرلين لوکوفير. وبون دو فيل، بالتواطؤ مع عائشة، كان يجib أمه بحيث لا يشك في مرض أرجنتال.

وفي أحد الأيام، فيما هما في طريقهما إلى المشفى، صرّح بون دو فيل لعائشة بما يشغل باله:

- لا أعرف يا أيسيه إن كان تصرّفنا نحو ماما صحيحاً. نكتم عنها الجدري الذي أصاب أخانا.

- يا بون دو فيل، يا أخي الصغير، وأنا مهتمة بهذا، ولكن لا تعرف أمّكما؛ ضعيفة ومريضة. حتى نحن يُسمح لنا ببرؤية أرجنتال بصعوبة. أما هي فستحاول الاقتراب منه، ولن تتحمل أن لا يسمحوا لها.

- وهذا صحيح. - نظر بون دو فيل بعينٍ ودودٍ إلى عائشة: - ولكن لا أعرف ماذا فعلتِ أنت بالأطباء حتى يسمحوا لك بمجالسته وإطعامه.

- أقول لك ما فعلت: - ابتسمت عائشة وهي تفعل الخُبُث: - كتبت للأطباء تعهداً بعدم مقاضاتهم إن أُصبتُ أنا بالمرض.

- كنت شككت في هذا. إذن أنت مثل امرأة قومك التي وجدت دواء للجدري¹؟

- شكرأ يا أخي على مقارنتك لي بتلك المرأة الجبارة. - كانت عائشة مسروبة لما سمعت غير أنها تظاهرت بالزاح: - ولكن لن أصبح مثلها أبداً. لا شيء تحجبه عن الإنسان الذي تحبه ولا سيما إذا كان أخاك الأصغر. وصحيح ما يقولون من أنك تضحي بحياتك من أجله. أخونا الأصغر أرجنتال المسكين

¹ يكتب ك. غيلفيسى: ما أعظم الدين علينا نحن البشر نحو المرأة الشركيسية التي اخترعت هذا الدواء للمحافظة على جمالها أو جمال بناتها! ما أكثر الأطفال الذين انتزعتهم من براثن الموت. ربما لم يكن بين من افتتح مراكز النساء العاملات في خدمة الدين امرأة بهذه العظمة. المؤلف.

أصغر مني بكثير. يجب أن يعيش بصحة جيدة. وأنت ترى ما يحدث له من حبيبيه أذريين لوكوفير؛ وأنا ماذا؟ قطفوني تفاحة نصف ناضجة ثم رموني تحت الشجرة لا أحد يريديني.

- أيسيه، شارلوت - إليزابيت أيسيه - صاح بون دو فيل فجأة على غير عادته - كفى لا تقولي ما لا فائدة فيه! أنتِ أختنا نحن، وكل آل فيريول يحبونك. ونجد فيك سندًا، وندللك. نتذذك مقياساً بحبك النظيف وإنسانيتك الصادقة. سأسمعك ما لم تسمعيه إلى الآن ما دمنا بدأنا الحديث: لا نلومك على ما حدث لك لا أنا ولا أرجنتال. نحن شهود على أنك دُفعت إلى الخطأ وأنتِ تحمين نفسك. وبالقياس إلى ما يحدث في فرنسا التي نحبها من حوادث لا أخلاقية فما فعلت ليس شيئاً ذا بال. ولا أريد أن أحكم عليك سلباً أو إيجاباً من هذه الناحية. أنتِ مثل من يكتب لها مسرحية جميلة، كتاب عجيب، أوبا جميلة.

- يا بون دو فيل - رجته والحياة يعلبها - كفى، توقف عن هذا الحديث. وأنت لا تقل أموراً لا فائدة فيها ولا تتطبق علىي.

- لست وحدي، فولتير ومونتسكيو والكاتب بريفو، وديدرو الناشيء، وكل من يعرف حياتك له هذه النظرة إليك. وبدلاً من أن تعيشي مرفوعة الرأس ترثين نفسك، تدفينهم إلى أن يحضرّوا نعشك. لا تعرفين، لستِ معتدّة بنفسك، وإلا ففرنسا كلها لا تشبع من تأمل جمالك.

- حسناً يا بون دو فيل، فهمت. - قالت له دون أي أثر ابتسامة، ثم مزحت معه: - الأفضل من أن تتأملني فرنسا كلها - ساحّني على عدم حيائي منك - أن يتبعوا لنا أنا ودو إيدي أن نلم شملنا ونري ابنتنا وكلانا في صحة جيدة.

- وهذه، سترين يا أيسيه قريباً، ستتحل على نحو إيجابي. – أنهى بون دو فيل الحديث بمثل هذه الكلمات الباعثة على التفاؤل.

حين خرجت عائشة من المشفى تطير من الفرح فهم بون دو فيل أن أرجنتال في تحسُّن.

- كل شيء حسن يا بون دو فيل. أخونا الأصغر متحسن جداً. أطعنته، وكلّمني، وسأل عنك، وأخبرته أنك معي. وحملني سلامه إلى الجميع من فيهم الخدم. ولأن بثوره تجف عن جلده فقد وعدني الأطباء أن يخرجوه من المشفى خلال أسبوعين تقريباً. المسكين سأله عن أدربين لوكوفير غير عابئ بنفسه. ورجاني ألا أخبره بحاله وبأن الجدرى شوّه وجهه.^١

- وجهه ليس مشكلة إذا عاد إلينا سليماً. – ارتعب بون دو فيل قليلاً – وكما قلت لك فلن تقع عينه ثانية على أدربين المسكينة... هذه في وضع

سيء.

^١ لم أكن أطلعك على أخبار أرجنتال كي لا أُقلفك – تقول عائشة في رسالتها إلى كالاندرین – والآن بما أنه شفي، سأطلعك على وضعه: لحسن حظنا نحن وأصدقاؤه نجا من الجدرى اللعين. وقد أكل المرض وجهه ولا سيما أنفه، ولوّنه. ويخيل إليك أن حجمه انكمش. لا يمكن أن يقال إنه شخص جميل. ولكنه لا يزال حلو الطباع. والجميع يحبونه ويحترمونه ويقدّرونها. ومهما امتدحه و دلّته فهو إنسان لا يمكن أن يتغير للأسوأ". المؤلف.

في اليوم الذي أخرج فيه أرجنتال من المشفى توفيت لوکوفير التي لم تعيش إلا ثمانية وثلاثين عاماً. وسمع بون دو فيل وعائشة الخبر¹.

لم تملك عائشة دموعها. وقال بون دو فيل دون ترّوٍ: "فارقتنا ممثلة فرنسا الكبيرة قبل أوانها... وربما لن تظهر في فرنسا خلال السنوات الخمسين القادمة موهبة عظيمة كموهبتها"

- حين أخرجوا أرجنتال من المشفى لم يأخذوه إلى البيت، ولم يخبروه بوفاة أدرلين لوکوفير، بل انطلقا به إلى أمّه في أبلون.

لم يكن أرجنتال يجهل ما فعل به الجدري ولكنه استسلم لصورته المشوهة وهو يقول: "من أين أتيت يا مصيبة، وماذا يمكن أن أغير فيها". وما كان يقلقه في هذه اللحظة هو كيف ستكون ردة فعل أمّه ماري – أنجلييك وحبيبتها أدرلين لوکوفير. الأم بصفتها أمّا دائماً لاشيء تحجبه عن ابنتها ولا شيء لا تتحمله منه. وتقدم له روحها وقت الحاجة، وفي حال الضرورة تقنع بالواقع، وتعيش معه لا هم لديها إلا تخفيف الحزن عنه. وما ردة فعل المرأة التي يحبها إذن؟ يعرف أرجنتال أن الجواب صعب ولذا فهو مهموم دون علم أحد.

¹ في خلال المشهد ساءت حالة لوکوفير فجأة فأوقف العرض – وتكب عائشة إلى كالاندرلين – وقبل العرض كانت هذه أصبيت بإيهال دموي. وكانت ضعيفة إلى درجة تدعوا للرثاء. وذابت المسكينة في أربعة أيام. ويقال إنهم قتلوها. وحين كتبت وصيتها قبل الموت بأربعة أشهر كان أرجنتال هو من رجته أن ينفذها.

بعد وفاة لوکوفير طلب فولتير تشريح جثتها فثبت أنها لم تمت بالسم، بل ماتت لتأكل جوفها. ودفع رفض رجال الدين دفنهما في أي مقبرة في باريس فولتير إلى كتابة أغنية بعنوان "ميتهة الممثلة الكبيرة لوکوفير". المؤلف.

لم يجد من المناسب إخبار أهله بالضيق الذي سببه له الجدري. ومع أنه لا يعرف بخبر موت أدربيين إلا أنه كمن يتوجس الأمر، فخاف أن يسأل عنها.

همس بون دو فيل لعائشة مشفقاً على أخيه الأصغر:

– دعينا نخبره بوفاة أدربيين خيرٌ من أن يخبره غيرنا.

– لا، فيما بعد – لم تقبل عائشة.

– ولماذا "فيما بعد" يا أيسبيه؟ – جعل المهاجم الذي طرق رأس أرجنتال يوجه السؤال وإن لم يكن عنده شك.

– لا شيء يا جان – لاحظ بون دوفيل الموقف فغير بسرعة الموضوع: – كانت أيسبيه قالت إنها ستأتي بشيء نسيته في البيت فذكرها. إن كان هذا رأيك فسنعود يا أيسبيه.

– لا تعطلا عملكم من أجلي؛ ألا تريان كيف أمثال للشفاء!

– يا لتعاستي يا ولدي الجميل، ماذا جرى لك؟ – كانت ماري – أنجيليك تصرخ وهي تنتزع رأسها من حضن ابنها لتحدق في وجهه. – كيف لم أعرف بمرضك؟! لو لم أرك حياً ملت... دعوني أجلس هنا، لا أعرف ماذا يحدث لي.

– لاروش أين أنت؟ أعط لأمي دواءها. – قالت عائشة وأجلست الكونتيسة وهي تمسح على ظهرها: يا ماما انتبهي لنفسك، لا تُغْنِي نفسك، افرحي بعوده الكونت أرجنتال سليماً معاف. وادعى إلى الله.

– أكيد سأفح، وسأصللي من أجله – نضت الكونتيسة من نفسها وكأنها غير تلك التي أغمي عليها قبل قليل: – الله أرسل لي معكم ابني الوسيم. كنت ألومك بيبي وبين نفسي على انقطاعك عني ولكنني فهمت الآن. زيارتك المتكررة يا أيسبيه إلى باريس خلقت في قلبي وساوس كثيرة باطلة. فسامحيني. وأنت أيضاً يا بون دو فيل كان يخيل إليك نسيتي، والحق أنت مع أختك

كنتما تتبعان مرض أخيكما. وأنا مشغولة أيضاً بأخبار المسكين الكونت أوغستين – أنطوان الذي حبس نفسه في أرضنا البعيدة ولا يعرف شيئاً مما يجري لنا. أفك في أن أقوم بزيارة مفاجئة له.

– يا ماما، وأنتِ تكادين تنهضين بأمورك – لم يقبل بون دو فيل – كيف ت safarين إلى هذه المسافة البعيدة؟

– صحيح، صحيح – وافق أرجنتال أخاه.

– أتسمعين يا أيسبيه ما يقولانه لي؟ بدلأً من أن يُفرحاني بخفيد صغير يحكمان عليّ بالشيخوخة والعجز. سأنتظركم طويلاً إذن!

– لا يا ماما، لم يخطر لنا مثل هذا – أصلح أرجنتال من كلامه وهو يتأمل أمه بوجهه المجدور – بل لأني كنت أتمنى زيارة بابا بعد مدة.

– لن تسافر إليه! ليشنغل باله علينا مرة كما نحن! هيا جهزوا مائدة عامرة ولنجلس إليها بمناسبة عودة أرجنتال سليمان. وهاتوا شيئاً من الشمبانيا. ولنصل إلى الله من أجل آل فيريول. وأبوكم الكونت، أين سذهب به؟ أبوكم على كل حال.

كان الجو صحوًّا فتناول آل فيريول الطعام في أرض الدار. ألقت ماري – أنجليك الكونتيسة أول كلمة نخب. وأدت بلطف على ذكر أوغستين – أنطوان الكونت الذي كانت تهاجمه أحياناً. وهي لم تستطع إلا أن تدح نفسها:

– لا يظنّن أحد أني أفخر بنفسي. ربيت ولدي جيداً، وأنتِ أيضاً أيسبيه. أنا راضية عليكم ثلاثةكم. وأحبكم ثلاثةكم بالتساوي ولو عاتبت أحدكم أحياناً. ولكنك يا أيسبيه تروين كلمة بخصوص الولد الأصغر، هل يمكن أن تذكريني بها؟

- "الأصغر أخْبُهُم" – نطق أرجنتال الكلمة قبل أن تستجمع المسؤولة ذهنها.
- نعم، نعم. ذَكَرْتَني جيداً – أكملت الكونتيسة كلمتها: – ولكن لا تظن يا أرجنتال أننا ندللك لأنك الأصغر، بل لأن الله فهم طبيتك الإنسانية وأنقذك من براشن المرض الذي يفتلك بكثير من الناس. ولهذا أرفع هذه الكأس على شرفك. متمنية أن تنسى الأزمة التي مررت بها، وأن يأتي يوم تنسى فيه ما تركه على وجهك – هذه تزين وجه الرجل لا تقبّحه! – وأن تسلم من أي مرض، وتعيش طويلاً طويلاً، وتكون من تحبها من نصبيك. وأن لا تنساني أنا ووالدك وأختك وشقيقك وكل آل فيريول، وآل غيرين دو تانسين أهلك، وتكون محظوظاً في كل نواحي حياتك، أرفع هذه الكأس يا ولدي!
وبعدها تكلم بون دو فيل وعائشة ولاروش وصوفي بالمناسبة. ومهما قالوا فالختام كان مدحياً لأمه الكونتيسة، ولذلك ضاقت المائدة عن أن تتسع لها، فجلست تتطاير من الفرح.

وأخيراً حين لَيْن الشراب ماري – أنجيليك أعطت الكلمة للسائس العجوز جاك الذي كان وجهه خالياً من أي تعبير سرور:
– ماذا جرى لك يا جاك، كأنك جالس على مائدة مأتم. ألا تقاسينا فرحتنا أم عندك من تُحُّدُّ عليه؟ أفي هذا اليوم فحسب تعرف الكونت أرجنتال؟ هات أنت أيضاً كلمة حلوة!

– سأتكلم يا كونتيسة، سأتكلم – وما نحضر خلافاً للآخرين طلبوا منه الجلوس فرفض – لا، الأفضل أن أتكلم واقفاً. – دو أرجنتال الكونت إنسان طيب، وابن صالح مريّ، ويستحق ما قلتم بشأن اخسار مرضه. أوقفكم. وأدعوا الله أن يعوضه كل ما عانى، ولكن.. – تنهى العجوز جاك، وشرب كأسه وجلس.

تبادل الجالسون إلى المائدة الذين سمعوا هذه الـ "لكن"، وسألت الكونتيسة متوددة إليه:

- ما الذي لا تستطيع قوله؟ - وأضافت بصوت أخشن: - ليست المائدة التي دُعيت إليها مائدة أسرار!

- أفهم يا كونتيسة، أفهم - قال العجوز الذي فكت الكأس عقدة لسانه: - قلت "لكن" لأنني أشفق على دو أرجنتال الكونت... إذن أنتم لا تعرفون الخبر... أدرلين لوكوفير توفيت...

- سأل أرجنتال ووجهه يُمْتَّنَعُ:
- كيف ماتت؟

تبادل الشخصان المطلعان على الخبر النظرات، وقالت عائشة لأرجنتال وهي تضغط على يده:

- نعم يا أرجنتال، صحيح، توفيت.

- على الذهاب إلى باريس! - نحضر أرجنتال.

- يا لمصيبي لم تكدر تقف على رجليك! قلقت ماري - أنجيليك.

- يجب أن أذهب حالاً يا ماما - ولم يُخفِ السبب: - أنا من كلفته أدرلين بوصيتها.

- أكنت تعرف أنها مريضة وقريبة من الموت؟ - سأل بون دو فيل أخاه لا يعرف تفسير ما يسمع.

- لا يا بون دو فيل. أنت وأيسيله تعرفان أنه لم يكن بيني وبينها شيء.

- لن أدعك تذهب إلى باريس وحدك - نحضر بون دو فيل، وحين همت عائشة أن تفعل مثل أخيها رجاها: - أنت فيما بعد يا أيسيله، أنتما، ماما وأنت، لاحقاً، يوم دفنتها.

حين ماتت أدرلين لوكوفير تسبب دفُّنها في إشكالات كثيرة. ولولا أن فولتير وقف في وجه الكنيسة ورجالها المحتجين على السلوك الالبيرالي للممثلة الكبيرة، وعلى ما كانت توجهه من انتقادات ضدّهم على المسرح، ولولا أرجنتال وغيره من المثقفين المعروفين لما طلوا ليس أسبوعاً ولا اثنين في دفُّنها. ولكن أنجز كل شيء كما أراد فولتير وأرجنتال لأن الصواب يتصرّ غالباً على غير الصواب.

نفذ أرجنتال للممثلة الكبيرة التي كفّت عن حبه منذ أكثر من سنة كل وصيتها لم يُسقط منها شيئاً. ولكنه وإن تخفف قلبه من جهتها، فإنه لم يكن يستطيع نسيانها. وساهم كثيرون في دفُّنها، من ماري – أنجيليك وعائشة وبون دو فيل وكلودين – ألكسندرین وباريير دو ديفان وجانيت – نيكول وصوفي ولاروش، وكثيرون غيرهم من عامة الناس، بالإضافة إلى من جاؤوا من مدن أخرى غير بعيدة. وكان بيير المطران هو من غاب عن المناسبة لأن هُمّ الآن هو الارتفاع إلى منصب الكاردينال فعليه مجارة رجال الدين.

في صباح أحد الأيام وهم على مائدة الشاي، وفيما ماري – أنجيليك وعائشة تتحدثان في موضوع أدرلين لوكوفير: حياًّها وسلوكها وإشكالات دفُّنها، سُألت الكونتيسة عما كان يشغل بالها:

– لماذا يا ترى صدت أدرلين لوكوفير ابنتنا الوسيم أرجنتال عنها؟ كل من أسأله ينكر أي معرفة بالسبب. هذا حديث لم يعد فيهفائدة الآن ولكن ألسُّث أمّا، وهو أليس ابني؟ أريد أن أعرف لأن أرجنتال يضمّ أذنيه عن أي سؤال.

– وأنا يا ماما لا عِلم لي – تنهدت عائشة وهي تضمّ حبها المأساوي إلى موضوع أرجنتال – ولكن، إن كنت تتذكرين، حين كانت أدرلين تُدفن، لا أنسى خاتمة الكلمة التي ألقاها فولتير: "الحب لا يستشير أحداً".

- نعم، نعم. كانت كلمته عظيمة. انظري كم ثمن فولتير الحب لأنه إنسان حكيم. أنت وأنا فهمنا هذا جيداً وإن كنت لا أدرى إن أثر في الآخرين. نغفر للمرأة التي أثارت كل هذه الضجة مهما فعلت. وأرجتثال الذي نجا من المرض الفاتك تخلّى بالرجلولة فنفّذ كل ما رجته منه. وألقي على قبرها كلمة ليست أقل شأناً من كلمات غيره. أنسى دائماً أن أسألك يا أيسية. غاب المطران بيير بذرية خاصة به؛ ولكن لماذا لم أر شفاليه بين المشيعين؟

- لو لم يكن إيدي مريضاً لحضر يا ماما.

- ونحن لسنا مرضى؟! - غمغمت الكونتيسة - لا أعرف من أين جئت بهذا الوحيد الذي يمرض دائماً وبسهولة؟ أكنتِ مجرّبة؟

- يا ماما!

- حسناً حسناً، "الحب لا يستثير أحداً" - كررت ماري - أنجيليك الجملة في وجه عائشة، وجعلها ما رأته لأول مرة تقول فجأة: - مهلاً، مهلاً. إلى أين تجهزين نفسك؟ وما هذه البندقية في الزاوية؟ أتستعددين للخروج إلى الصيد؟ لن تذهبي! أنسى أنك متوعكة؟

- لا تعترضيني اليوم فحسب لأن هذا اليوم هو أول يوم صيد في الخريف يا ماما، لن أذهب بعيداً، ولن أغيب طويلاً.

- ستكونين وحدك؟ سألت الكونتيسة وغضبتها - اعتراضها ينحسر شيئاً شيئاً.

- سيكون الله معك يا ماما - ابتسمت ابتسامة رباء للكونتيسة التي كانت تعطيها الموافقة - سأصاحب باتي.

بعد ما مضت قرابة ساعة على خروج عائشة لصيد البط البري استنفر آل فيريول صوت الكلب الذي دخل الفناء يعوي.

- جرى لأيسية حادث! – قالت الكونتيسة قبل أن تجد الوقت لتضع جانباً الكتاب الذي كانت تقرأ فيه، ولحقت بيتي الذي لم يكن يكف عن العواء. واستقبلت عائشة التي كانت عائدة بصعوبة وماء البركة يقطر منها: – أى مصيبة جرت لك يا أيسية؟ حضروا ماء دافئاً... وأنت يا لاروش حضر دواءك المضاد للبرد. كدتِ تفجعينا يا ابنتي بعدما نجوت من كل ما مرّ بك. – خلعت ماري – أنجيليك فرّوها وغطّت به ظهر عائشة. – سأجعلك من اليوم تُقلعين عن الصيد، مهنة الرجال. وسأكسر بندقيتك!

- كفى يا ماما، انتبهي لنفسك! – مع أن الكونتيسة كانت تناصر عائشة فإن الأخيرة كانت تناصر نفسها وقد شجب لونها: – أظنني سأعيش طويلاً بعد ما نجوت بفضل الله من هذا المستنقع اللعين.

VI

حين خطرت لعائشة الحكمة الشركسيّة "المرض يأتي من عين الفأس، ويرحل من خرم الإبرة" ارتعبت وكأنها تسمع صوت جدتها "شابة" التي تخطر لها هذه السنة أكثر من السنوات القليلة الماضية، فنظرت في كل اتجاه. لم يكن يُسمع في الغرفة إلا صوت تنفسها وهسيس احتراق الشمعة. ومن أرض الدار يُسمع صوت مطر خريف أبلون الناعم يقع النافذة، فيثبت الخريف حضوره، ويتعمق في المدينة يوماً بعد يوم. والمرتعب يستوي عنده النهار غير الم الشمس والليل غير المقرن.

"إن لم أمرض من ماء المستنقع البارد فسنقضي هذه الليلة هنا بأي طريقة يا باتي. — واست عائشة نفسها وهي تحدث الكلب الأبيض الصغير النائم على مخدتها. — سيعود غداً إلى باريس، ولأنني أرسلت إلى شفاليه وكالاندرين إلا ترسلا إلى هنا فستنتظرنا رسائلهما في باريس. وبون دو فيل وأرجنتال كالاهما في باريس أيضاً. وربما يكون عمي أوغست رجع وينتظرا أيضاً. واشترت للمسارح. ماذا يُعرض يا ترى من أعمال جديدة فيها؟ أوّد مقابلة فولتير، لم يتسرّ لنا في يوم الدفن أن نتحادث كما نريد. وسيلين رجعت من إنجلترا حديثاً. — حين اعتصر الألم قلب عائشة ودموعها على خديها أندرها آلام عظامها. وباتي الذي لاحظ هذا قذف برأسه إلى الأعلى. — أنا المسؤولة عن حياة سيلين بلا أم. لم يكف أني وضعّتها سراً فأرسلتها إلى بلاد غريبة. كان الأفضل أن أزورها في سانس فنتاديني "تانت". وأنا أعيش وحيدة كابنني أفرح لرسالة من آل بولينغبروك، ولرؤية شفاليه مرة كل شهرين أو ثلاثة. وبدلاً من سيلين ينام باتي معي على مخدتي. ولا أفهم تدابير دو إيدي في السنة الأخيرة. أنبتعد أحدهما عن الآخر بحجة أنها مريضان؟ صحيح ما كانت تقوله نانا لا"

يجوز أن يقال للرجل باستمرار: أنا مريضة". ومن هو لي؟ أزوج أم عشيق؟ على ما يبدو أنا عشيقته. لنقل إني لا أهمه البتة، لماذا ينسى ابنته؟ بقيت أقول: لن تقبل منك فرقتك أن تؤسس أسرة، ولا أن يكون لك أولاد، وستمحوك من الوجود فأبعدته عن ابنته، ولم أترك له فرصة ليعرف حلاوة الأبوة. ولكن ما أتعجب منه هو ألا يفكر في الذهاب إلى إنجلترا لرؤيه سيلين ومعرفة أخبارها. هو يحبني ولكنه لا يهتم بحياة الصبية التي تعيش في أسرة طيبة ولكنها غريبة" - كفى يا باتي لا تحدّق فيّ بهذا الإصرار - عبست عائشة في وجه باتي ثم لاطفته: - لست من أعتبر عليه، ليت الآخرين كانوا مثلّك!... - "لا، لا. لا يجوز أن نحطّ قصة حبنا التي لا بداية ولا نهاية لها. سأضع خاتمة لهذه القصة وأسأضمّ إلىّ ابنتي الحبيبة. أيّ حياة بلا معنى أحياناً: أعيش وأنا أحارّل نسيان المصائب التي داهنتني منذ طفولتي، وإذا قيل لي أنتِ جميلة اعتبرت الكلام إطراً؟"

فرحت عائشة التي قطعت سلسلة أفكارها لرؤيه صوفي داخلة إلى الغرفة:

- ما أحسن مجيك إلّي يا صوفي. هجمت علىّ الأفكار؛ لا أعرف إن كان السبب هو أني سأغادر غداً إلى باريس.
- لا تقليكي كل شيء يتغير إلى الأفضل. جهزت كل ما تحتاجه.
- ولم تنسِ شيئاً؟! - ابتسمت عائشة. - والبندقية التي هددت ماما ماري - أنجيليك بتحطيمها؟
- دعك من هذه القبيحة؛ لتصدأ في المستنقع!
- هذه بندقية ممتازة.
- ألا تسخو بها نفسك؟

- لا، لأنها من وسائل التنفيذ يعني. ربما كان الله قدّر الأمر هكذا. أتعرفين من أعطانيها؟
- نعم أعرف. ألم يكن شفاليه يعرف أن إعطاء أحدٍ سلاحاً أمنّ غير مستحب؟ كدت تدفعين حياتك بسببها.
- "هذا الذي ذكرت اسمه شفاليه دفعت حياتي بسببها يا صوفي منذ زمان بعيد... - لم تبرئ عائشة نفسها وحدها وهي تُشهد أفكارها على حبها ولو أنها تنهدت حزناً على حالها - وهذا المسكين لم ينفع بسببي من مثل ما جرى لي."
- لماذا تتخذين هذا الموقف الظالم من شفاليه يا صوفي؟ - سألت عائشة صوفي التي كان ما تقوله هو الصدق.
- يا أيسية، لا أريد أن أظلم أحداً. وإن كنت ظالمة فالله لن يسامحني. ولكن جواب سؤالك تعرفينه أنت أيضاً. وإن كان الأمر هكذا، فاغفر لي، كنت قلت لك قبل وأقولها الآن: أُشفقُ على سيلين البريئة التي لا تعرف إلا الله، والتي تربى في الغربة أكثر مما أُشفق عليكم.
- إذن سأقول لك الآن ما في قلبي حقيقةً: قررت حملأاً أصل إلى باريس أن أكتب لشفاليه رسالة أُنحي فيها قصة حبنا.
- حقاً؟! - تأملت صوفي عائشة حزينةً وسألتها: - أقررت هذا الأمر بعينيه؟
- ثم أكملت بصوت ساخر: - تقولين هذا ولكنك لن تستطعي أن تقولي هذا لمن عشقته. - حين نبع باتي على صوفي وكأنه فهم الكلام الموجه إلى من كان نائماً على صدرها نهرته: - ابتعد عني، تحظى بعينيك لي، لست من كان يجب أن ينام على هذه الوسادة!

- صوفي! - حين ارفع صوت عائشة مستغربة ما تسمع تَشَجَّعَ الكلب فنهرته: - كفى يا باتي، اهدأ! لم تقل صوفي ما ليس صحيحاً. حقاً يا صوفي حقاً. وسترين أني سأنفذ قراري. لا ألومنك. ما قلت لباتي معنفة إياه، والحق أن الكلام موجه إليّ، ذكرني بكلام مأثور كانت جدتي ترويه "أقول لك تني، وأفهم ضرّتي".

- لا أعرف بِمَ أعلق على هذا.

- ولم لا تعرفين؟ ما كتبت تریدین قوله قلّته وانتهی. والآن سأروي لك حكمة تمسني أنا "بيت بلا أطفال بيت بلا حظ" فإذا لم أكتسب الحكمة من هذه الأقوال وغيرها فلماذا أعتبر عليك، وأحمل عليك في نفسي؟ يا صوفي ألا تشعرين بالبرد؟

- لا، لماذا؟

- كأن نوبة البرد تعود إليّ، أطراقي يحدث فيها شيء غريب. وفي صدري نخزة.

- لأنك تفتحين مواضع مغمة... الآن سأشعل نار الموقد وأدفئ الغرفة. وألْسِك جوارب صوفية دافئة. وأسقيك دواءك.

رغم اهتمام صوفي بعائشة: دقّأت لها الغرفة، وكسّتها ملابس دافئة، وسقتها دواءها، فقد حدث ما كانت تخشاه إذ أيقظها صوت سعالها في منتصف الليل. ولم تكن صوفي وحدها بل استدعت ماري - أنجيليك ولاروش يخدمان حتى منتصف الليل عائشة التي تجد صعوبة في التنفس. حتى خلدت إلى النوم.

وحين خرجوا من الغرفة سألت ماري - أنجيليك الطبيب لاروش:

- كيف ترى أيسبيه؟

- سعالها ليس مهمّاً لولا أنها تبصق دماً.

- يا مصيبي! - عادت ماري - أنجلييك تبكي إلى غرفتها. ثم غرفت في النوم لا تدري كيف وهي تصغي إلى غرفة عائشة.

نامت عائشة ساعتين أو ثلاثة دون حركة. وحين أفاق نظرت بوجه بشوش إلى صوفى وكأنها غير تلك التي كانت تسعى ولا تجد هواء تنفسه، وسألتها:

- أما تزالين صاحبة يا صوفى؟ أما نمت؟

- نمت قليلاً، وأنت ما حالك يا أيسية؟ أما نمت؟

- حتى أنا لم أعد أفهم طبيعة مرضي. يا صوفى. هل تعرفيوني اليوم فحسب؟ أين باتى، لا أراه؟

- كانت الكوتيسية أخذته إليها الليلة كي لا يزعجك.

صدر نباح الكلب من وراء الباب، ر بما لأنه سمع صوت عائشة. وحالما دخلت ماري - أنجلييك الغرفة انتزع نفسه منها وقفز إلى الأريكة. وسألت الكوتيسية التي لم تشبع نوماً عائشة دون الالتفات إلى سلوك باتى:

- كيف حالك يا أيسية؟ أرعبتنا الليلة!

- لا أعرف يا ماما، أغفروا ما حدث لي؛ ما رأى لاروش؟

- وماذا سيقول؟ ستشفين.

- إن كان هذا رأى الطبيب، فهو رأى أيضاً. اليوم سنعود إلى باريس.

- لا أحد يتظمنا في باريس! لا ضير أن نقيم يوماً آخر هنا.

- يا ماما، ها أنت ترين أني لم أعد مريضة. أرجوك لا بد من أن أعود إلى باريس.

- حسناً، ما الذي تريدينه ولا تجعليني أفعله؟! ولكن بعد أن نشرب الشاي... سترين إن لم أطلب أفضل أطباء باريس لعيادتك.

مع أن عائشة كانت راضية باستدعاء الأطباء لها بعد وصولها إلى باريس كما وعدت ماري - أنجليك فحين تذكرت أيام مرض شارل دو فيريول الطبيب الذي استدعي عن طريق أورليان فغازلها الأخير ابتسمت قائلة لنفسها "وهؤلاء إذا كانوا مثل طبيب أورليان لا أريدهم ولو متّ". ولكن ما قالته الكونتيسة بحسن نية ذكرته مرة أخرى من لم تعد تثق فيه بليز - ماري دو إيدي شفاليه: "أقول لا رجولة عند شفاليه، ولكن كيف جاءه أورليان؟! ففرنسا كلها كانت تتحدث في الموضوع. - وبعد قليل غضبت عائشة على من كانت تمدحه: - والآن؟ الآن لا يستطيع حماية حبه خائفاً مما سيقول والداه... ماذا كان قال لي؟ يريد أن يعيش معي سراً دون زواج. ولأنه غير راضٍ عن أهله يريد أن يسجل نصف ما يملك على اسمه. وأبان لي بوضوح أن من يتأخر عن الآخر في الموت سيقى له الملك كاملاً. وأغرب ما في سلوكه هو أنه لا يأبى على ذكر ابنته الصغيرة! كيف يمكن أن تفهم هذا؟ أنا أعرف ماذا سأكتب له!"

قد يكون قوله إنك إن لم تتكلم كثيراً على أمنيتك لم تتحقق أو صعب تحقيقها، صحيحاً. ماطلت عائشة في كتابة الرسالة المزمع إرسالها قرابة الشهر؛ لا لأنها ندمت، بل لأن المرض الذي أصابها في أبلون نتيجة البرد انتفض من جديد، وأثار الأمراض الأخرى التي توطنت في أطرافها فلزالت الفراش عاجزة عن النهوض. ثم إن الإسهال الذي فاجأها واستمر أسبوعاً أجهز على قوتها. اختلف على عائشة كثير من العواد. كانوا يمنونها بالشفاء ويعدونها أن تقف من جديد على رجليها. وحين يذهب بون دو فييل وأرجنتال إلى العمل أو يعودان منه لا يتركان بابها؛ دعك من صوفي التي لم تكن عائشة تغيب لحظة عن عينيها. وماري - أنجليك تطل عليها في النهار بضع مرات فلا تخرج من الغرفة دون أن تمسح على رأسها، وتحنّجها الأمل وتنصحها وتروي لها بعض ما في باريس

من أخبار، وتسألاها عما تشتلهي اللحظة من طعام. ولم يكن أوغستين - أنطوان الكونت يطيل زيارته كي لا يخرج المرأة الراقدة في الفراش. وحين تغلبه دموعه يغادرها وهو يقول "لا داعي لليس، الله معنا، سينظر إلينا بعين الرحمة" وتأتي دو باراير دو ديفان بأطعمة لم تتناولها منذ زمن بعيد، تدفعان أثمان الأدوية الغالية التي يصفها الأطباء. وترجان لها أدوية تقنعها بالشفاء.

في أحد الأيام، حين حُيل لعائشة أنها تحسنت، اختارت وقت استراحة الظهيرة، وبدأت وهي في الفراش بكتابية الرسالة التي لم تنسها. وحين رأتها صوفى تبكي بعدما كتبت بضع كلمات، قالت لها:

- يا أيسى، تعرفين موقفي من شفاليله في السنوات الأخيرة، ورغم ذلك فلو سمعت نصيحتي لما سمحت لك أن تكتبي ما تنوين كتابته. ستعرفين كيف تتصرفين بعد أن تتقابلا وتحادثا.

- كنت فكرت في هذا غير أني لا أحب أن يراني في هذا الوضع... ما الأمر يا صوفى، لماذا تبتسمين؟ - سألت عائشة.

- لأنني أعرف أنك تحبين شفاليله يا أيسى.

- نعم، أحب شفاليله؛ ليس سراً عليك ولا غيرك. - مسحت عائشة دموعها وتنهدت - ولكن حتى لو سألتني لا أعرف سبب حبي. أعرف ما تفكرين به، ولكن انزععي هذه الفكرة من ذهنك؛ ليس لأنه والد سيلين... هو حبي الأول والأخير. وحبه لي ليس أقل من حبي له. - مرة أخرى انحمرت دموع عائشة وغطت خديها الغائرتين. جلست قليلاً وعادت فامسكت القلم: - يكفي ما رأى غيرنا ابنتنا الصغيرة. يجب إنحاء هذا الوضع. سأفهمه هذا الأمر فحسب، ولن أكتب له ما يحرّ في قلبه.

إذا لم يكن مرض عائشة يشتد يوماً بعد يوم فإنه لم يكن ينوي أن يخف. ومع أن كل معارف أسرة فيريول كانوا يساندونها لغلا تفقد أملها وتسسلم لللماض فقد كانت تستنزف عمرها، دون أن تبدو عليها علامات الضعف، بل وتمارح جلساتها أحياناً، مدركة هي وغيرها أن مرض الحنجرة الذي تعانيه لا دواء له. ولم تكن تكف عن مراسلة جولي كالاندرین، وهاهي رسالتها اليوم إليها: "كلمات قليلة أكتبها لك يا نور عيني لأنني فقدت قوتي. الآن أنا ملزمة الفراش دائماً. أبصق دماً سميكاً، وأنام حين أتناول مهدئاً. وكل يوم أزداد وھنا ونحافة. المأساة الأزمة التي يعيشها شفالبيه لا يمكن وصفها بالكلمات، حالته تدعو للشفقة. والجميع يعملون على إراحتة. وبسبب اعتقاده أنه إن قدم هدايا ثمينة فسيحافظ على حياتي يشرع في إعطاء كل فرد في الأسرة شيئاً. وبإضافة إلى كل هذا اشتري للبقرة حشيشاً. وأعطي نقوداً من أجل أن يتعلم ابن أحدهم مهنة، ولكي يشتري لباساً لامرأة. وأي شخص يقابله يقدم له شيئاً مجانياً. كأنه ليس في عقله. وحين سأله عن السبب أجابني: "من أجل أن يعتني الجميع بك".

أنا في ضيق شديد داخلياً. يُفجّريني ما حصل لي. وأملّي الوحيد هو الله. — إنه يعطيه القوة، يرى كل شيء، ويعرف ما فعلتُ قصداً وما يغلي في قلبي، وسيعييني. وباختصار: هذه المرة قراري متين: سأمثل أمام الله مع ذنبي التي اقترفها. وفي هذا الشأن كلامي دو إيدي قبل أيام كلاماً فيه صدقة وحكمة. أخبرني عن تفاصيل الخير لي، وعن نوایا الطيبة، وعن موقع مناسب للصبية في الحياة، وتفكيره في مستقبلها.

انقطاع خجلي منذ زمن بعيد لا يريحني. لم يحدث أن التهاب حبي لشفاليه كما الآن. والأمر نفسه ينطبق عليه. وكل من يرى لفته وخوفه على دون تصنع أو رباء لا يملك دموعه.

أجده كي لا أسمح لحبي المزوج بإشفاقي أن يغلبني، وأحاول التكثير عن خطأي. لا أخاف كثيراً من الموت المرتقب سريعاً. وأرى نفسي محظوظة جداً لأن الله رحمني. ولذا سأشغل الوقت المتبقى لي منذ الآن بعمل مفيد. وبصراحة تامة: ما الفرق بين الموت المبكر والموت المتأخر؟ ما هو أصل عمرنا؟ كان يجب أن أكون حسنة الحظ أكثر من أي إنسان آخر ولكن لم أجده. استغلواني دمية لشهواثم. وعاملوني كما يشاؤون. عشت لا أنتهي من مأساة الحب والخجل، وجهود الأصدقاء أشعر أنها تبتعد عنني. ما أبأس أن تعيش حياتك مريضاً دائماً!

تسأليني هل تغير مظهري: لن تعرفيوني! عيناي انطفأتا، فقدتا اللون. وخداي غاراً وشحباً. ومن جهة القوام بقيت جلداً على عظم فحسب. والجسم الذي فقد قوته لا تسألي عنه. ومن جهة قلبي وروحني أتوقع أن يصبحا في الأسبوع القادم نظيفين تماماً. وسأنقل كل ذنوبي إلى حضرة الله.

ما حدث معنا أمس أمر عجيب: أرسل إليك صورة عن وصيتي الأخيرة التي كتبتها لإيدي وجوابه عليها. ولأنه أعطاني رسالته بيده لم يُتع لي أن أفرأها في لحظتها. وقد تكلمنا في هذا الموضوع، ولو كنت حاضرة وقتها لبكى مثلكنا. وستتعجبين جداً إذا عرفتِ كيف ستساعدني صديقتي دو باراير ودو ديفان في تحقيق أمنية حبي. يوم السبت سُتخرج دو باراير الكونتيسة ماري - أنجيليك من البيت بحجة ما، وتستدعي الأب بورسو الذي سأعترف أمامه

فأطهر من ذنوبي. وأنا واثقة منه فهو يعرف طبيعة قلب الإنسان. وطريقه طريق الفطنة والعقل، ومخلص للدين.

ربما تستغربين اختياري نساءً عازبات مثل دوباراير ودو ديفان. من بداية مرضي هاتان هما من ترعاني، وخصوصاً المركبة دوباراير، لا تتركي وحدي في أي وقت. صداقتها لي قوية. تقلق عليّ، تغمرني بالهدايا. ووضعت تحت تصري نفسها وخدمتها، وكلّ ما تملك، فيإمكانني الاستفادة من كلّ هذا كما لو كان لي. تأثيري لتفضلي عندي النهار كله. ومن أجلي قد لا تلتقي بأصدقائها. وداعاً يا نوري. صحيح أني أجد متعة في تراسلنا، ولكن هذا سينتهي قريباً. ما العمل؟!"

وهذه هي الرسالة التي بعثها بليز - ماري دو إيدи شفاليه إلى شارلوت - إيزابيت أيسية، والتي أرسلت عائشة نسخة عنها إلى كالاندرین في جنيف: "رسالتك يا أيسية الحبيبة آلتني أكثر مما حرت في نفسي. وليس فيها إلا الصدق. لا تضوع منها إلا رائحة آمالى الحلوة الطيبة التي لا تقاوم، إن كنت تعدينني أن تخبني دائماً، فليس لي الحق في الشكوى. لا أكتنك أن معالجتك للأمور ونظرتك إليها تختلف عما عندي. ولكن والفضل لله أنا بعيد عن أن أطلع على نواياي أحداً للضرورة. وأعتبر أن سلوك كلّ منا الذي يعود إلى ما ي عليه عليه حياؤه هو الأفضل. اريحي نفسك، ليعطوك الله حظاً سعيداً يا أيسية العزيزة. وفي كل الأحوال يكفيني أن أجد لي مكاناً في قلبك.

أؤكد لك بكل طباعي وتصرفاً أني جدير بأن تفتحي لي قلبك. وقبل كل شيء لماذا تتعتب علي إذا كانت إنسانيتك وصدق نواياك وطهارتك فتنتي؟ هذا موضوع تكلمت فيه بحضورك مئات المرات، وأثبت لك صحة كلامي.

و قبل أن تصدقني كلامي هل أنا جدير أن تنتظري مني التحليل بالتصورات التي تشهد على أقوالي؟ ألا تثقين بي؟

صدقيني يا عزيزتي أيسيله أن عندي لك أحلى حب وأصدقه. وصدقني أني أبعد عن أن أحب غيرك أكثر من بعده عن أن تحب غيري. وأنا سعيد مadam عندي أمل في أن أراك، وأمل في أن تعتبريني أصدق إنسان.

سأسلمك هذه الرسالة بيدي وفضلت الكتابة لك لأنني لا أثق أن أستطيع الكلام معك براحة. ولأن الوقت ما يزال مبكراً على التمام الجرح فما أريده الآن هو أن أمثل أمامك تحييناً لرغبتك في أن تربني. ولكن لأنني أخاف أن تدمع عيني أمامك أقول لك إنما خارج سيطرتي. وليس السبب في أن أصدق الأمل الذي تتحيني إياه في شفقة الصدقة يا أيسلي العزيزة، هو معرفتي بإخلاص قلبك فحسبي، بل لأنني واثق أن قلبك يستطيع التجاوب مع حبي الصادق"

VII

حل شهر كانون الثاني من عام 1733 الذي كانت تنتظره وتخشاه عائشة بشلوخه المتناثرة. وخلال بضعة أيام استطاعت الريح الجنوبيه أن تنشر الدفء في باريس، وجففها حتى صار الغبار يرتفع في أرجائها. ولكن ريح الشمال لم تدع فرحة الناس بالدفء تطول. وظللت الطبيعة والناس أسرى الثلوج والمطر الباردرين نصف شهر كامل. والعجيب أنه إن لم تحب الريح نهاراً هبت مساءً وعربدت حتى الفجر، أو تتغير فتغطي بالثلوج النهار الذي كانت أراحته من عنفها وهي تبتسم له.

في مثل هذه الأيام، وبخاصة في ليالي الأرق، تتبعثر أفكار عائشة الملاطمة كالريح التي تضحك في هبوبها، وتصفر، وتعوي، وتبكي. وما فكرت فيه البارحة يعود إليها اليوم. وتعيد التفكير في ما مضت عليه سنتون كثيرة. تقلق كيف ستنجز إجراءات الموت المحتوم القريب، وكيف ستعيش ابنتها. وحتى لو كانت تفك في الحياة القصيرة التي عاشتها، والتي كانت ثقيلة من جهة، ومن الجهة الأخرى عيداً أنيقاً، وتساءل، فلم تكن تجد جواباً لما يُريخها ويُطمئن بالها، ويجعلها تقف أمام الله آمنة.

ليس الأمر أن عائشة كانت تحمل مسؤولية ما جرى لها، ولا تفهم غيرها. "من أتهم بما جرى لي؛ إنه مكتوب على جنبي؟" عشت حياتي كما رسمها الله لي. أخلصت لشرف أمي وأبي وجدتي، ولاحترامي لأنوثتي، ولآل فيريول الذين ربّوني. ولأنه لا أحد معصوم من الخطأ فإني أدعو الله أن يغفر لي خطئتي. وقبل أن أقف أمامه سأعترف لرسوله الأَب بورسو بما في قلبي" وسألت صوفى التي نظرت إليها لم تفهم سبب رسماها المفاجئ إشارة الصليب:

- ما الأمر يا صوفي، أظنتني: "أدفع الماء راكبة على الماء" كما كانت تقول لي جدي التي تنتظري هناك؟ من ينجو من مرضي قليلون ولذا دعنا نقتنع أنني لن أنجو منه. وحلم الليلة الفائتة أفهمني مرة ثانية بالأمر.. أعرف أنك لا تولين أهمية للأحلام، وأنا كتبت ذلك ولكنني أظن أنهم حشروني هذه المرة في الزاوية. رأيتني مع أبي أسلح جلد بقرة مذبوحة... وأمي كانت راضية بعملي. وجدني كانت حريصة على ألا نخಡش جلدها.

- لا أعرف يا حسرتي، ماذا أعلق عليه – نظرت صوفي ساهمة في وجه عائشة.

- سترين أنك ستشفين، أكيد جاؤوك بدواء. لا تيأسى، ستشفين.

- وأنا يا صوفي – كانت صوفي تخيلت خدي عائشة الشاحبين قد احمرا حين ابتسمت قليلاً، وأن الوعي عاد إلى عينيها المنطغتين. ولكن عائشة داهمها المرض، وبعدما سعلت حتى بصقت دماً، أنهت الحديث بنفسها: -

كانت جدي تقول "البرد الذي لا تصحبه الريح ليس بردًا"، فكذلك المرض الذي لا يصحبه السعال ليس مرضًا. تمنين لي الشفاء ولكن كما ترين حالى. وسأقول لك شيئاً آخر يتعلق بمرضى: حين كنت أفرم لحم البقرة كان الدم الخاثر الذي أستخلصه من اللحم بطرف السكين كالذى يخرج من فمي متجمعاً حولي، وكنت أرميه للكلاب الصغيرة.

- كفى يا أيسى ما أبشع ما تروين! لتكلم في موضوع آخر ساز؛ ألم أقل لك إنك ستشفين.

- إن كان في ذهنك موضوع ساز فهاته. أنا لا أعرف – تنهدت عائشة عميقاً حتى ليؤثر فيها تنهدها – ما حدث لي بشأن ابنتي جلبه لي حظي التعيس وبؤسي، وهو الآن بعيد عنى، ولكن أبعدتم عنى من كان يسرى عنى، باتى، بحجة أنه ينبع ويعوي ويسبب لي الضيق حين أسعل...

- نعم يا أيسيه، في الليل فقط، في النهار عندك.
- نعم، نعم. - وافت عائشة صوفي في شأن كلبها ثم رجتها وهي توشك أن تبكي: - احرصوا على باتي يا صوفي، أعطيه لسيلين مع باقي الأشياء التي أتركها لها للذكرى.

لم تكن صوفي أول مرة تسمع فيها أخبار باتي، غير أن الحديث الدائر حول الموت جعلها تضطرب من جديد. وفكرت في ما سيكون عليه موقف آل فيريول حين تبقى وحدها دون عائشة. ولكن في اللحظة نفسها علا مرض عائشة التي عاشت معها كأختها سنوات عدة ووصيّتها فوق كل أفكارها. "لا أحد صنعوا له مهدأً لم يخروا له قيراً" ولكن طريقة قドوم الموت وطريقة انصرافه مختلفتان. كل إنسان، كما يأتي إلى الدنيا مع أشد العذاب يفارقها بالطريقة نفسها. صحيح أن الناس كلهم يفرحون بالملوود، ولكن حين يموت أيستطيع من هنؤوه بقدومه أن يبكيوا عليه؟ من كان سيدري أن عائشة التي ولدت والجهد ستنهي حياتها القصيرة على هذا النحو؟

رشفت عائشة من الحليب الذي قدمته لها صوفي ووضعت الكأس من يدها. نظرت متأملة نحو النافذة التي عشت عندها شمس ظهيرة الربع ثم قالت لنفسها:

- الربع جاء، والطبيعة تغير لباسها، وستدفأ الأرض التي بردها الشتاء المتقلب. ثم تنهدت عائشة وقالت لصوفي مصطينة ابتسامة: - أتعرفين ماذا تذكرت في هذه اللحظة؟ ما كانت جدي تدعوه إلى الله من أجلها. "لما لم يكن من الموت بدأ أعطني يا ربي ميّة سهلة في يوم صاح" وحين هاجمنا قطاع الطرق هناك في بيتنا كان الوقت ليلة صيفية حارة. ولكنهم جاؤونا بنوبة البرد الأبديّة

البائسة... متى جرى هذا؟ قبل أكثر من ثلاثين سنة. لا، البارحة،اليوم، لن أنسى هذا أبداً. سأحمل الذكرى إلى حيث أغادر.

- أتسمعين يا أيسية - غيرت صوفي ما كان يُروى لها - فرخ الطيور بالربيع؟
وها أنت، بفضل الله، توقفت عن السعال منذ البارحة. وأراك تتحسنين.

- لا أسعُ لأنه لم يبق عندي من القوة ما أسعُ بها... - قالت عائشة وهي تنصلت إلى صوت العربية: - العربية التي وقفت على باب دارنا ليست عربية شفالية.

- ومن أين تعرفين؟ - نظرت صوفي من النافذة - عرفت، ها هي كلودين -
الكسندرین تخرج منها وبيدها باقة زهر كبيرة.
- وحدها؟

- أنتظرين أحداً معها؟ - قالت صوفي بصوت يفهم منه أنها لا تريد أن تقع عينها على القادر، وغمضت: وماذا ستفعلين بهذه الباقة الكبيرة؟

- ربما ظنتي مت... لا، لا يا صوفي، أمزح فحسب. إذا حدث بيتنا أنا وكلودين، بعض الجفاء، وأنت تعلمين، فليست علاقتنا بهذا السوء. رُيتنا في أسرة واحدة. وفي صالونها الأدبي تعلمت أموراً كثيرة ما كنت أعلمها. وأحببت الكتاب والمسرح. كل يعيش حياته الخاصة. كل يعيش بقدر ما تسمح به ظروفه. لولا أنها يؤلف الكتب لكان سيدة الحظ مثلني.

- كم مرة يا أيسية قلنا إنه لا يجوز أن تقارني نفسك بمن ليس مثلك! أتعجب إن كانت كلودين تسوّد الأوراق؟ ومن في باريس الآن لا يكتب؟ من حسن حظنا أن جاك العجوز لا يحسن الكتابة، وإلا كان غالب مولير الذي تعزّز

. به

- ولماذا لا؟ - سرت ابتسامة صفراء رقيقة على شفتي عائشة. - كما أن مولير لي فهو لك أيضاً يا صوفي. إنه ليس مُلك فرنسا وحدها بل مُلك العالم كله. - صمتت بعض الوقت عن حديث مولير، ثم اختتمت بال موضوع الذي بدأنا به الحديث: - ومع ذلك يا صوفي سنعامل كلودين معاملة حسنة. وسننهنها باختتامها الإقامة الإجبارية في أبلون.¹

- نعم، كنا هنأنا ماري - أنجيليك في هذا الشأن. ولكن لو كان الأمر بيدي لنصحتها ألا تدّس أنفها الجميل في ما لا شأن لها به. ثم تقولين إنها تعيسة الحظ وتشفقين عليها! الحق أنك بالقياس إليها محظوظة. إن لزم الأمر فقد جربت حلاوة الحب ومارته.

- لو كانت ابنتي تقيم معي لكنت محظوظة... في الوقت الذي كانت عائشة وصوفي تتحادثان كانت ماري - أنجيليك وكلودين - ألكسندرین تستعلمان عن حالة المريضة التي ستطمئنان عليها وما سيجري لها.

- كفى يا كلودين انتظارنا - قلقت ماري - أنجيليك حين انتهتا من نقاشهما - ستنتظروننا أيسية المسكينة، سُذنِب بحقها. ولكن، كما قلت لك، أتِدينني حين أبدأ بسيرة التوبة. ولا يهم أيسية في حضرة من ستقوم بهذه الشعيرة ما دامت قررت القيام بها. خير لها أن تقوم بها أمام رجل دين من المؤليين الذين

¹ في الأيام التي كان يعقد فيها اجتماع رؤساء رجال الدين في باريس، لم تقبل السلطات انفراد بعض رجال الدين بالاجتماع في بيت كلودين سراً، فحكموا عليها بالإقامة الإجبارية في أبلون عدة أشهر. ولكن عدم اتفاق رجال السلطة أدى إلى اختصار العقوبة إلى شهر واحد. المؤلف.

أنتي إليهم¹ من أن تقوم بها أمام أحد الجنسيين². ألسن من رباهما، ومن يقاسمها مصيتها إلى الآن؟ ألا يجب أن أعرف أسرارها قبل أن تموت؟!

- كلامك صحيح. ولكن أيسه لن تكشفها لك.
- ولماذا؟

- لو كنت مكانها - لا قدر الله! - ما كشفت أسراري إلا للأب الوحيد الذي أعترف له.

- تباً لك يا كلودين! تقارنين نفسك بمن ستسلم روحها بين اليوم والغد! - نهرت ماري - أنجليك أختها الصغرى وسألتها وهي تنظر إليها واجهة: - وهل كنت ستكتميها عن أختك أيضاً؟

- لا يقى أخ ولا أخت ولا أم... في هذا الموقف يا ماري. السر والعلن ليس لهما سرّ معلن. لو أنا، أنت وأنا، تكاشفنا قصص حبنا لتقاتل الأحياء، والأموات مثل سلفك الكونت شارل دو فيريول والدوخ أورليان كانوا تقبّلوا في نعوشهم.

- سُحقاً! - زفت ماري - أنجليك وهي تطبق جفونها. - على رأيك لم يبق حبّ صادق في فرنسا.

¹ نسبة إلى الإسباني لويس دو مولينا (1535-1600) طائفه دينية تحاول التوفيق بين القدرة وحرية الإرادة. المترجم.

² نسبة إلى الأسقف كورنيليوس جانسن، حركة دينية سياسية نشأت في فرنسا خصوصاً كردة فعل على الاستبداد الديني والملكي. وتبحث في موضوع النعمة الإلهية والعلاقة بين الإيمان والحياة المسيحية. المترجم.

- ما تكذب به إحدانا على الأخرى يشهد على هذا... تعالى يا ماري —
مدت كلودين — ألكسندرин يدها إلى الباقة التي جلبتها فارتدىت يدها عفويًا
كأنها أحرقتها. — وهذه كذبة مؤقتة جئت بها عبثًا؛ لتبقى في البيت!

- لتبقى! — وافتقت ماري — أنجلييك على مضض، ثم غمغمت: - يجب أن
تعرفي إلى من هُلدى الزهور، ولماذا... إذن يا كلودين ليس من نوب على
أيديهم جديرين بالثقة تماماً!

- وهؤلاء يعتبرون أنفسهم مقربين جداً إلى الله، ولكنهم بشرٌ مثلنا... لست
جاهلة بهؤلاء. وأخونا بيير المطران أليس واحداً منهم؟ في خريف العام الماضي
حين كان رجال الدين هؤلاء مجتمعين في بيتي، حملوني أنا كل المسؤولية، ثم أنت
عارفة بما فعلوه بي واتهموني به.

- لا تعدي بيير بين هؤلاء، لا ذنب له.

- بيير أخونا ولكنها ليس مستقيماً تماماً. لا يقوم بأي عمل إلا لنفسه. حين
عرفوا أن هدفهم خائب، وأنهم لن يستطيعوا انتزاع المنصب من الكاردينال
إركيول — أندريه دو فريلي كان بيير من أوائل الذين تنصّلوا من المؤامرة.

- كلودين! — انفجرت ماري — أنجلييك التي كانت تتوقف كالمجر — لا تتقوّل
مثل هذا على أخيك الذي وصل إلى منصب الكاردينال!

- ولماذا لا أقول هذا على رجل الدين الذي يتصرف بهذه الطريقة؟! — لم
تتراجع كلودين — ألكسندرин أمام أختها — من لم يهتم بي لن يهتم بك. لماذا
يكذب على جانيت — نيكول وهو يعرف أنه منوع من الزواج؟!

- أسمعي ماذا تقول هذه! — اختتمت ماري وقد ندمت على خروجهما من
موضوع مرض عائشة، ثم ألا تعرفان علام تتكلمان، بشيء من المزاح البريء
من الخبر: — إن سمع رجال الدين كلامنا فلن يؤيّنونا حين موتنا.

- لا تقلقي متى وصل الأمر إلى هنا. لن يدعوك بلا قبر. — مزحت كلودين —
 ألكسندرین مع أختها — إن كان هذا رأيك توقفنا عن اغتيالهم. ولكن لو لم يكن عندك مطعم في رجل الدين الذي تحضرنيه لما اختerteه لتوية عائشة.
 — حسناً يا ماري حسناً، لا أخسر شيئاً في هذه العملية. في أسوأ الأحوال نكتشف سراً من أسرارها...
- نعم هكذا. الآن فهمت. ولكن إياك بهذه الحجة أن تتوددي إلى عائشة الثرثرة... نحن مجربون، أما أنت فأمامك حياة كاملة.
- أكانت أيسية مجبرة أن ترعى أرجنتال يوم أصيب بالجلدري؟ جابت كلودين — ألكسندرین أختها وهي تنھض.
- صحيح. يا كلودين يا للحسرة! — تبعت ماري — أنجيليك أختها وهي تقول — وأنا لا أستطيع إلى الآن أن أنسى. لهذا أحب أيسية التعيسة الحظ. وأنت، أيتها الخبيثة الصغيرة، لا تظني أني أحبك أقل منها.
- لم تكن أيسية تحب أن تراها كلودين — ألكسندرین في الفراش ولذا نھضت متحاملة على نفسها مكابرة مرضها، واستقبلتها جالسة على الكرسي الوثير.
- نھضت يا ابتي؟! — عانقت ماري — أنجيليك عائشة مستغربةً ما ترى، ناسية ما قالته لأختها بشأن مرض عائشة. ومسحت على جسدها. — ألم أقل لك يا كلودين إن أيسية ستتحسن، وإنما ستنھض أخيراً من المرض؟
- تعانقت كلودين — ألكسندرین وعائشة، وبعدما جلستا متقاربتين، بكتا كلتاھما.
- أنا في حال حسنة يا كلودين، سعيدة برؤيتك، اشتقت إليك. — قالت عائشة بصوت مرتاح.
- وأنا كنت أود رؤيتك يا أيسية، ربما تعرفيين السبب...

- أعرف يا كلودين. فرحت لما سمعت بإعفائك من العقوبة. ماذا تكتفين في هذه الأيام؟

- لا نعدم موضوعاً نكتب فيه. ستتصدر رواية لي موضوعها الحب والإنسانية والدين. ستتجدين فيها حين تقرئينها أشياء كثيرة تدعو إلى التأمل في شخصي وفي غيري.

- ومتى ستتصدر؟ - لا أظنني أحق بها.

- يا أيسية، يا أختي الصغيرة - مدت كلودين - ألكسندرин يدها ومسحت على يد عائشة. - لا تيأسى، بالقياس إلى حالك قبل الآن، وقبل إرسالي إلى أبلون، فأنت أحسن بكثير. لونك يعود إلى أصله؛ أليس كذلك يا ماري؟ - نعم، طبعاً. بفضل الله، أحسن بكثير. ومرضها حررها، ووقفت على قد미ها.

- شكرأً، ولك في هذا فضل يا ماما.

- بديهي أن يكون لي فضل فيه - لم تدعها ماري - أنجيليك تنتظر، مرتاحه لسماعها عائشة تتكلم عليها. - ولكنني لست وحدي، صوفي والأطباء كذلك.

- شكرأً يا ماما على أنك لم تنسني هؤلاء. - ولكن من جهتي أنا أريد أن أقول للكلودين - ألكسندرین من قلبي إني راضية عنها. وأنت، مثل ماما، علّمتني أموراً كثيرة. وأفهمتني الكثير. وبعد ما قدمه لي الدير الذي تعلمت فيه التربية والمعرفة، والعلمون، وجانيت - نيكول، يمكن القول إني تخرّجت في صالونك الأدبي. وأقول شكرأً لفولتير ومونتسكيو وبوون دو فيل وأرجنتال. أنا راضية عنك يا كلودين ولو تهاترنا أحياناً لأسباب تعود إلى الغيرة النسائية؛ فلننسامح بشأنها. وعشنا كأختين في أسرة واحدة رغم اختلافنا في الأفكار.

وعلمنا معاً. يا صوفي هاتي لي ذاك الصندوق الصغير. هذا ليس له قيمة كبيرة سوى أنه مطلبي بالذهب. ومع ذلك أقدم لك هذه القطعة الصغيرة ذكرى.

- لن أستطيع الرفض يا أيسبيه إذا كان هذا رأيك، شكرأ. وأنا إذن، بمناسبة تحسُّن وضعك، ولِيَهِيك عن مرضك، أقدم هذه - خلعت كلودين - ألكسندرین أسوارتها الذهبية ووضعتها في راحة عائشة.

- تَحَادِيْتَمَا جِيداً - قالت ماري - أنجيليك بطريقة لا تعرف أهي تحسدهما أم تغبطهما، وكشفت لهما قليلاً عما في ذهنها: - لا، لا، أهنتكم، أفرح لأجلكم ولا أحسدكم. وأنا كان هذا الصندوق الصغير يعجبني... ولكن حسناً فعلت بإعطائهما لكلاودين. يكفي أنك أهديتني صورة من الصور التسع التي صوروك فيها تذكاراً، وكذلك أهديت جولي. وهذه أغلى هدية. سأحتفظ بها في غرفتي ما حييت. وحين أجد نفسي في موقع أورث فيه، أعرف من أورثها، ولكن لن أقول الاسم الآن... - اختتمت ماري - أنجيليك كلماتها بخاتمة مفاجئة، وواست نفسها "ما فائدة أن أعيد سيرة التوبة لهاتين؟" ووُجِدَتْ عذراً لاختها: - أجهدنا عائشة، دعيها تستريح لأنها تحسنت. وأنت ما دمت صرت حرة فأمامكما أيام أخرى تتحادثان فيها. كنت نسيت أحسن خبر جئت به إليك حين رأيتكم جالسة: أمس التقى بفولتير في المسرح فسأل عن صحتك وأبدى رغبته في زيارتك، لا أقول اليوم أو غداً، ولكنه سيأتي إليك. استريح يا ابنتي. بإذن الله تجاوزنا مرحلة اليأس. وأحلامي تحدّثني أنك ستشفين.

في أثناء خروج الأختين من الغرفة، وحين أغلقت كلودين - ألكسندرین الباب وهي تودعها بقبلات ترسلها من شفتيها بأصابعها، انفجرت عائشة باكية.

VIII

تحقق لعائشة ما أرادت بشأن التوبة: اختلقت المركبة دو بارابير ذريعة ماري — أنجيليك الكونتيسة ^{تُخرجها من البيت}، وفي هذا اليوم جاءتها بواعظ الملك آدم — كريزوفتون بورسو¹.

لم تغمض عائشة جفونها طوال الليل. ظلت تنظر من خلال الظلام، ولم يتأخر الموعد الذي تنتظره إلى الفجر. وطوال هذه الساعات مر أمام وجهها الكثير: جبال أرضها التي أجبروها على هجرها، وغاباتها المتعددة الألوان، وسهولها المرققة. وأمواج البحر الأسود الماءة، ورماله الناعمة، تظهر لعينيها وتختفي. وذكريات العمر القصير الذي عاشته فيها كانت ترهقها هذه الليلة أكثر من أي وقت مضى. وحين تعيد التفكير في السنوات الثلاثين التي عاشتها في فرنسا تغلبها الأحزان أكثر من الأفراح، فتعصر قلبها.

"مهلاً، مهلاً يا عائشة — لامت عائشة نفسها بـ ^{بلغتها الأم} لأول مرة لها في فرنسا — ماذا جرى لك؟ لم أعرف أن قلبك هشٌ إلى هذا الحد. ماذا كانت جدي تقول "لا أحد يعرف متى يموت كما لا يعرف متى يولد"؟ أعرف أن ما بقي لي قليل ولو أني لا أعرف يوم مماتي. لماذا أنتظر الوعظ بورسو هذا اليوم؟ ألمست هكذا عاتبة على آل فيريول الذين ربوني حين كنت في وضع صعب، عاتبة على موطن حبي الأول، على الوطن الذي وضعت فيه طفلي، على فرنسا التي انتسبت إليها؟ ألمست هكذا أنساني ما قدموه لي كما كانت جدي

¹ آدم — كريزوفتون بورسو واعظ الملك لودفيغ الخامس عشر، وعضو في منظمة التياتينسيين. المؤلف. وسيأتي الكلام على هذه المنظمة لاحقاً. المترجم.

تقول "الطعام الذي لا يجعلك تشرب الماء لا ينمو معه جسده" ولكن أسألك هل يمكن لفعل الخير أن يتحول إلى التباب؟ هذا رأي فولتير ومونتسكيو وديدرو، ولكن لا أستطيع موافقتهم، وأؤيدهم في أنه "حتى لو بيسست الشجرة لا يجوز نسيان الجذر الحامل لها". وأنا أعد نفسي عشت إلى الآن بفضل هذا الجذر. وهل أكون بريئة من الذنب إن قلت هكذا؟ لا أظن أحداً في الدنيا بريئاً منها. ولما كنت واحداً من هؤلاء فليس عندي ذنب أخجل أن أعترف به أمام واعظ الملك. ماذا تشبه هذه؟ ليست سرّاً على الله وعلىّ وعلى أحد. سأعترف لبورسو الذي آمل أن يفهمني بكل ما في قلبي. وحين أمثل أمام الله أتطهّر بروحه وبجسمي. وإن استطعت غفرت لكل من أساء إليّ".

نظرت عائشة نحو الشمعتين المضاءتين أمام صورة الرب. ومع أنها كانت تتألم فقد ذهبت إليها وجثت على ركبتيها وهي ترسم الصليب. ودعت لنفسها أن يكون خارها مريحاً، وأن لا تخطئ مع واعظ الملك في ما تخطط له، ولا تنسى سرها وعندها، ويتحقق ما تخاف منه دائماً: أن تعود بسهولة بريئة من الخطية. حين دخلت الكونتيسة ماري - أنجلييك إلى الغرفة في كامل أناقتها مع الدكتور لاروش فهمت عائشة أنها ذاهبان إلى حديقة الغزلان.

- لو استطعت أن أصحبك إلى المستراح الذي أذهب إليه ما كنت أفضل عليه شيئاً. - قالت ماري - أنجلييك وسألتها: - كيف حالك يا ابنتي؟ أربعتنا في الأسبوع الماضي. أما البارحة واليوم فلا بأس، رجع وجهك إلى لونه. أليس حقاً يا لاروش؟ استريحي. أكّدث على صوفي أن تختتم بكل ما تحتاجينه. وتناولوا أدوية لاروش. نحن لن نغيب طويلاً. لولا أن المركبة دو باراير أخت على فأنا سريعة العطب أيضاً ما كنت ذهبت إلى مكان.

- اليوم يوم جليل يا ماما. - قالت عائشة في إثرها مرتابة لخروج الكونتيسة من البيت. - لا تقلقي، وارتاحي، وتخبئي الركوب في العجلة الكبيرة كي لا تذوخي. ولكن سلمي لي عليها.

في الموعد المتفق عليه أدخلت المركبة دو ديفان واعظ الملك آدم - كريزوس توم بورسو إلى غرفة عائشة. وعائشة التي كانت مستعدة للقاء قبّلت يد الأب مع إيماءة احترام، ودعنته إلى الكرسي الوثير.

حين كان بورسو الرجل الأشقر ذو العينين الواسعتين الذي تجاوز الستين يضع الإنجيل والصلب الفضي على الطاولة التي سيجري عليها الاعتراف تبادلت دو ديفان وصوفي النظارات وخرجتا من الغرفة. وحين بقيت عائشة وحيدة خطف لونها حزنٌ غزا الجسم الذي بقي مجرد هيكل عظمي. ولكن نظرات رجل الدين الهدائة التي تمنحها الراحة والثقة أعادتها إلى وعيها:

- دعوتي إليك يا ابنتي وأنت تعرفين أنك في عداد الكاثوليك المؤمنين بالله. ارتحا، وليكن في نفسك حبُّ الله الذي تتوكلين عليه. واطمئني إليه. إنه وكيل الجميع. يكافئ المحسن، ويعاقب المسيء. ويدين الكاذب. لا حدود لفضل الله ورحمته. وأنت وأنا من عباده ومن أمته. فإن اعتبرتني اليوم رسوله، و كنت جاهزة يا ابنتي فأنا جاهز للإصغاء إليك ومساعدتك.

- نعم يا أبانا، جاهزة.

- إذن يا ابنتي قبل الاعتراف حبي الإنجيل والصلب.

قالت عائشة بصوت خفيض وهي تقبل الإنجيل والصلب كلاً على حدة، وتنس بحما جبينها:

- جاهزة يا أبانا.

- باسم الله أسمعك يا ابنتي.

- لا أعرف **يَمَّا** أبدأ يا أبانا.
- ابديّي بأول ذنبٍ اقترفته يا ابني.
- كما احمر وجه عائشة التي وقعت في الضيق عاد وشحب من جديد. وحين بدأ تنقض أصابعها النحيفة بين كفيها نصحها الواعظ بورسو:
- ما يعرفه الله الذي يعرف كل شيء ولا تستطعين قوله **خَيْرٌ** لك أن تكشفي عنه من أن **تُبْقِيَ** في قلبك **يُفْنِيَ**.
- المكان الذي حدث فيه هذا ليس هنا يا أبانا. ليس فرنسا، بل هناك في بلادي البعيدة شركيسيا.
- ما تسمينها "بلاد الشركس البعيدة" أما تزالين تعتبرينها بلادك؟
- لأن جذري هناك ولو أن أهلي ماتوا. يعيش أبناء قومي فيها. أقول هذا يا أبانا لأنها لا تزال في قلبي.
- لأنك لا تكتفين ما في قلبك، وهو يُؤْمِنُك يا ابني ندعوا الله، وهو يفهمك، ولن يقول لك الله "انسي قومك لأنك اهتدت إلى الدين الكاثوليكي" – توقف بورسو قليلاً عن الكلام، ثم سأله عائشة: – أنسىت لعنة الشركسية أم أنسوك إياها؟
- تعلمت لغة فرنسا التي وصلت إليها صغيرة برضائي أو بدونها. الدين الذي أُكِرِّهْتُ في ليون على اعتنائه تقبّلته من نفسي فيما بعد. ولكنني أتذكرة أحياناً دين جدتي المرحومة. حين أفرغ أقول بلغتي الأم "يا الله" وأدعوه بما لني في.
- هذا – وجود دينين في قلبك – أتعتبرينه ذنباً بحق دينك الكاثوليكي؟
- أعتبره يا أبانا.
- خالق الكون وقيمها والمتصرف فيها إله واحد. لا إله إلا الله. – حسم الواعظ بورسو الموضوع بصوت خفيض. ثم أضاف: – إن كنت تؤمنين بالإله

الواحد للكون فلن يدعك تخطئي. ومرة أخرى إن كان هناك هم يُفنيك لا تستطعين البُوْح به فأخربيني، أسمعك يا ابنتي!

- عندي، غير أنه ليس سرًا على ولا عليك ولا على أي إنسان. تكلمت عليه باريس كلها. وإلى الآن لا ينتهون منه.

- لا تُعْدِي كل ما يتناقله الناس ولم يحدث حقيقة لك، أو فعلته بنفسك، حَقًا لا يقبل الله الافتراء، يحاسبه يوم القيمة.

- ما سأقوله لك يا أبانا فيه الصدق وفيه الكذب. ولكن لأنهم يقولون: الصدق كذب والكذب صدق لا أعرف لماذا يدينني الناس.

- الصدق والكذب يتعايشان في الدنيا الفانية. أسمعك يا ابنتي.

- حقيقة أن شارل دو فيريول اشتراكي من سوق النخاسة، وأنه صار لي أباً، واشتهاءه لي كزوجة، ومحاولته إجباري على ذلك، كله صحيح. وأنا واثقة لو أن رأسه كان سليمًا لما حاول. ولكن الناس تناقلوا أني ولدت طفلاً لباباً. وهذا غير صحيح. وسأروي لك حقيقة ما جرى لي بسبب بابا المريض حين قال لي "سأكون أنا زوجك، وإن لم تقبلني فسأجعلهم يأتون بك الليلة إلى فراشي" وهدد شرفي الأنثوي، ارتكبنا دون زواج، أنا وبليز - ماري دو إيدري شفاليه الفاحشة التي يعرفها كل الناس.

- هل كنت تعرفين أن شفاليه ليس له الحق في الزواج؟

- كنت أعرف، غير أنه خيل إليّ في ذلك الوقت أن لا مخرج لي سواه.

- لا يضع الله الإنسان في مأزق لا مخرج منه. استعجلت جداً يا ابنتي.

- غلبني صغر سني وهشاشةي الأنثوية يا أبانا.

- حميت نفسك من جهة، واقترفت ذنباً من جهة أخرى.

- أعتبر توريط دو إيدي شفاليه الرجل النظيف في الخطيئة وتوريط نفسي ذنبي أنا.
- لا تحملني نفسك ذنبيما أنتما الاثنين يا ابنتي. الله يعلم كل شيء ويرى. أدعوا إليه يتفهمكم. وكيف تصرف معك من كان السبب في ارتكابك الخطيئة؟
- توفي بابا ناسيماً ما قال، وما هم بفعله. وأنا لن أنسى فضله علىي أبداً. سأصلي من أجله في القليل المتبقى من عمري. وأنا أحمل نفسي ذنبي.
- لا يدعنا الله ننسى أن كل إنسان مسؤول عن ذنبه، وعليه دفع ثمنها. أسمعك يا ابنتي.
- أعرف أن الله لن يقبل مني أن أدع ابنتي الوحيدة تعيش وحدها، وترى في بيت غريب، وأعرف أنه سيحاسبني. ولكن أصللي إليه أن يجعل ابنتي التعيسة سعيدة، وأنتحمل أنا الذنب كله.
- وهل تعرف ابنتك أئك أمها؟
- لا، تنهدت عائشة - تnadify "تانت" لأنني أفهمتها أني خالتها.
- ولماذا؟
- لم نصارحها أنا ووالدها خوفاً من أن نتسبب في إينداء دو إيدي شفاليه. حتى إن أباها لم يرها إلى الآن.
- هذا ذنبيما كليكم. ولكن ذنب بلizer - ماري دو إيدي شفاليه أكبر.
- لا يا أباها، افهمني. وارحمني. شفاليه لا ذنب له البتة. الذنب كله ذنبي.
- هذا من شأن الله، لا من شأننا.
- لا أعرف شيئاً آخر أقوله لك يا أباها. رويت لك ما يهمني ويفعني. لا أعرف إن كانت ذنوباً غير أن عندي عيوباً لا أستطيع التخلص منها. مهمما

حاولت أن أكون هادئة ولا أسيء إلى أحد غلبتني حمّيّتي أحياناً. وجعلتني أقول وأفعل ما لا يليق.

- أتندمين على ما تفعلين؟

- لا أبدّل رأيي إذا كنت على حق، ولكن أتراجع إن كنت مخطئة. وأعتذر منك أسمات إليه. حين يشرع الذين لا تعجبهم حمّيّتي لشرفي يسخرون مني أثأّم، ويحدث كثيراً أن أهاهات معهم.

- هذه عادات ومسالك حسنة يا ابنتي، ما أزال أسمعك.

- هذا ما كنت أريد أن أقوله يا أبانا. سأدعو ربنا ليلاً ونهاراً أن يغفر لي ذنوبي ما دمت فتحت لك قلبي. أريد أن أمثل أمّامه طاهرة.

- تقبل الله دعاءك يا ابنتي. وليخفف الله عنك مرضك. إنه رحيم علام. - آدم - كريزوس ستون بولاسو قدم الصليب لعائشة كي تقبله. ثم الإنجيل. ثم رسم هو أيضاً الصليب ومناها: - بما أنك يا ابنتي عرّفتني إنسانيتك النقية وما سيك سأصلي أنا أيضاً من أجل أن يخفف عنك ذنوبك. ليكن الله في قلبك دائماً ولتصلّي إليه. يقول لي قلبي إنه سيفهمك وسيحسن إليك. الله رحيم. قال لنا "كل ما في الدنيا لي".

حين خرج آدم - كريزوس ستون بورسو من الغرفة نحضت شارلوت - إليزابيت أيسبيه وقد غدت خفيفة بقلبها وبحسدها وجلست على ركبتيها أمام صورة الرب. وظلت تدعوا إلى الله دون أن تلاحظ دخول دو ديفان وصوفي إلى الغرفة، وخصرها النحيل وقامتها الرشيقه يُسّيـانـك أـنـها مـريـضـةـ.

IX

حين اعترفت عائشة بكل ذنوبها لوعظ الملك بورسو خضت من الفراش غير مصدقة نفسها، شاعرةً بالخفة مع أن حالها تشبه من يُقال فيها "الأمل الكاذب خداع للنفس": تتمشى في أرض الغرفة دون أن تقترب من المرأة. وفي الصباح وفي المساء تقف وراء النافذة فتحبّي شجرة البطم الكبيرة التي شرعت أوراقها تتفتح. وتدعوا الله أن تُعمّر مزيداً من الوقت. وحين تجلس على الأريكة تمسك بالكتاب لتنسى أفكارها المشتتة. وتفضّل أن تتصفح كتابات فولتير ومولير على نحو خاص. وتمر أمام عينيها مجريات حياتها. ويعود إلى مخيلتها بيير وجانيت — نيكول وهما يتراهانها في حديقة الغزلان، ويدوران بها في العجلة الكبيرة. وكيف سألتهما عن المكان الذي يعيش فيه الأديغة. وتعود إلى أذنها صرختها في هذا الاتجاه لتعلّم أهلها وتسمعهم أنها ما زالت حية... وكيف كانت تلتقط الحصى الملونة من شاطئ البحر الأسود... وكابوس قطاع الطرق... وسوق النخاسة في إسطنبول... ومارسيليا وباريس وسان — كول، وفيرساي، وتريانون، وأمسيات الملكين لودفيغ الرابع عشر والخامس عشر... وتعُرّفها إلى دو إيدري شفالبيه... وباليه روياں... وأورليان... وأبلون... وجنيف... وسانس...

متى جرت هذه الأحداث؟ تتذكّرها كأنها اليوم ولو مضت عليها سنوات. من أين لها أن تنسى كيف عبروا بها البحر الأسود سبيّة، وباعوها في سوق النخاسة بإسطنبول إلى فرنسا. وكيف ستغفر لنفسها ذنب الفتاة التي لم تستطع مصارحتها بأنّها ابنتها، والتي هي في عمر اختطافها من بلادها.

قفز إلى ذهنها، حين خرجت من أفكارها الكابوسية كيف أن ماري – أنجلييك تجاهلت قدوم واعظ الملك بورسو، غير أنها نصحت نفسها بسرعة: "ربما لم تكن تزيد أن تخرج قلبي. أو لا تعرف الموضوع الذي أخفيته".

– إن لم تكن ماري – أنجلييك الكوتيسية غضبت حين عرفت ما أخفيت عنها فهذا أمر حسن يا صوفي. وسيغفر الله لي لأنني أعدّ نفسي على حق في إخفائه. ولأني راضية عن أمي إذ أن معرفتها معي أكثر من إساءاتها لي. سأدعو لها الله أن يغفر لها وينظر إليها بعين الرحمة. ولكني لست راضية عنك بشأن باتي لأنك لا تخبريني عن سر اختفائه – مساحت عائشة الدموع التي تسارعت إلى عينيها. – ربما كان الله قدّر هذا أيضًا... لو وقع باتي بأيدي أناس طيبين مثل آل بولينغبروك الذين يرثون سيلين لارتفاع بالي. لا يا صوفي لا تظني أني أقارن ابنتي بالكلب. هذه وعدي دو إيدي أن يسترجعها من آل بولينغبروك. لو تحقق هذا في حياتي لست قريرة العين.

– لا أحد يفلت من الموت يا أيسية. فلا تستعجليه – واست صوفي عائشة مع أنها تعرف أن لا أمل في شفائها – وهذا الأسبوع، وبحمد الله، وفقت على رجليك. وفي الصباح أفطرت فسررتني. سترين حين يعودون إليك سيلين إن لم تناذك "ماما" بدلاً من "تانت"， وتناد شفاليليه "بابا" فتنسي متابعيك.

– بارك الله في فمك الذي يخرج منه هذا الكلام يا صوفي! بدا من عيني عائشة اللتين تنطفئان، وخدتها الشاحبين رضاها بما سمعت. – لو حدث هذا يا صوفي...

– سيحدث يا أيسية، قلبي ينبعني. دعني أرتب شعرك. ربما يأتيكاليوم فولتير الذي يناديك "الملاك الأديغية". – لم تدع صوفي نفسها تنسى ما قيل لها بشأن ضياع باتي: – عاتبتي عيشاً في موضوع باتي يا أيسية. هذا خرج مساء

أمس من الدار وانقطعت أخباره. والخدم ما يزالون يبحثون عنه. ومشطوا القرية كلها، وسألوا الصبيان، وزاروا سوق الكلاب. ومع ذلك لا تقطعني الأمل، سيعود من نفسه أو يجده الباحثون عنه.

ما سمعته عائشة جعلها ترسم شبه ابتسامة على شفتيها:
- الأمل كبير. والنية غالبة، والفرح أغلى وأغلى. ولكن جدي كانت تقول إذا ضاع كلب المريض من داره فهذا نذير شؤم ، وهذا لم أكتم أنه عالمة يأس...
أرجوك أن تنفذني ما أوصيتك به في شأن باتي.

- عفواً يا أيسية - تظاهرت صوفى أنها لم تسمع ما قيل لها في موضوع الكلب، وقدمت المرأة الصغيرة لعائشة لترى نفسها - انظري كم تناسبك تسرىحة شعرك ! وإذا غطيتِ كتفيك بهذا الشال المخمر ، وتحلىت بمجوهراتك، فستترئبُ إليك عيون رواد أمسية الملك !

- أبعديها عنى يا صوفى، كما يقول فولتير في إحدى مسرحياته "وليمة في زمن الطاعون" - قالت عائشة باستخفاف لصوفى ، ثم نظرت إليها بعين الأمل. وفي هذه اللحظة لفتت نظرها الأصوات الصادرة من جهة الممر. ومن هذا الممر خرجت جانبية - نيكول وماري - أنجلييك. وعلى عادة الكونتيسة الدائمة امتدحت دون رباء أو خبث:

- أما قلت لك يا جانبية - نيكول، وترى بنفسك، عائشة تتحسن؟ لأجل هذا أقول إن كل إنسان يفيده أن يعترف أمام الكاهن مرة في السنة. لا يجوز لأحد أن يُفني نفسه من أجل ذنبه. لو عرفت يا ابنتي أن آدم - كريزوس том رجل الدين الكبير سيأتي إليك لما خرجت من البيت في ذلك اليوم. ولا عرفت له بذنبه الصغيرة المترفرفة، وطلبت منه الموعضة.

حين عانقت جانيت – نيكول عائشة قالت لها، وهي تمسح على كتفيها، كاباتةً لها:

– أنت جميلة اليوم يا أيسية كما في كل وقت. أصلى إلى الله من أجل أن تعود إليك صحتك. صادفت أمس في الكنيسة آدم – كريزوس том فامتدحك. وحملني سلامه. وأبلغني أنه يصلى من أجلك.

– شكرًا يا جانيت – نيكول. يخيل إلى أني تحسنت بعد الاعتراف. قلبي، وأطراقي خفيفة. وتوقفت عن السعال.

– طبعي ألا تسعلي، وأن تتحسني – لم تحرم ماري – أنجيليك نفسها من المشاركة في ما سمعت. – فهم بورسو الرجل الحكيم أن عائشة امرأة صادقة طيبة فامتدحها. وإلا ما كان واعظ الملك! هذا رجل تعرفه فرنسا بأسرها، ومحبوب في جنيف. ولكن هذا الرجل العظيم، ولو امتدحه الكاردينال أندريله دو فليري، لن أكتم عنك الوحيد عليه: لو كان بين الجانسينيين ولم يكن في "التياتينيين"¹ لكتت راضية عنه أكثر. أكنت أدفع أيسية للمرض لو جرى كل شيء في الدنيا كما أريد؟ ما العمل، ليس من شأننا تفسير الأحكام الإلهية. اجلسا أنتما إذن وتتكلما؛ لاشك أن عندكما كثيراً ما تتكلمان عليه. وأنت يا صوفي تستريحين قليلاً. وستنفك معًا في ما سيجهز لنا طباخونا لأجل العشاء. أتعرفن فيما رجاني أمس أوغستين – أنطوان، زوجي المسكين؟ يشتهي كوسا مسلوقة مرسوشاً عليها السكر.

¹ مر التعريف بالجانسينية، أما التياتانية فنسبة إلى التيتان أنصار الألهة في الأسطورة اليونانية المشهورين بالقوة الخارقة. حركة ضد التقليد السائد والسلطة المجتمعية. المترجم.

حين خرجت ماري - أنجيليك وصوفي من الغرفة جلست جانيت - نيكول وعائشة بعض الوقت تتأمل إحداهمَا الأخرى بعيون دامعة.

- لا تيأسِي يا أيسِيه، ضعي أملك في الله لأنَّه المهيمن على الجميع. نصحت جانيت نيكول عائشة - سيفهمك مادمت فتحت له قلبك.

ابتسمت عائشة كما لم يحدث في الأشهر الماضية بعينين مضيئتين وخددين متوردين:

- شكرًا يا عزيزتي. لا أريد أن أخدع نفسي بالأمال الكاذبة. ولكن الدموع التي ترينها في عيني ليست من اليأس، بل دموع فرحي برؤيتك. أريد أن أشكرك اليوم شكرًا خاصًا مختلِفًا عن شكر الأعوام والأيام السابقة.

- ماذا يا أيسِيه؟ - قاطعت جانيت - نيكول كلام عائشة وقد تصورته وصيَّةً: - لماذا ترکزِين على "شكراً" كأني لم أدرِّس غيرك في سان - كول؟
- لا يا جانيت - نيكول. - استعجلت عائشة - ليس من أجل تعليمك لي فقط بل أيضًا لأنك لم تُنسني قومي الشراكسة.

- هذا ما تقصدينه؟ - ابتسمت جانيت - نيكول ومزحت: - كنت أحاول ألا تذوبين بين الفرنسيين الذين جاؤوا بك إليهم. ولم تخجليني. أنا راضية عنك في فرنسيتك وشركسيتك.

- ولكنني كان يُحِبِّيل إلَيَّ أني أعيش حائرة بين الاتنماءين، لا من هنا، ولا من هناك. وربما كان هذا هو السبب في ما جرى لي. ولكن، كما تقولين، لا داعي لليلأس. كل شيء سيتحسن. دو إيدِي المُسْكِن لا هُمْ له غيري وغير سيلين.

- سأَلْت عائشة جانيت نيكول وهي تختتم شؤونها: - أَمْلَلْتُكُمْ من مشكلاتي التي لا نهاية لها. سمعت أنه حدثت بعض المشكلات الصغيرة بينك وبين بيير، ما وضعكما يا جانيت - نيكول؟

- صحيح يا أيسيه، حين كنا كلامنا عاملين عاديين في الدين كانت أمورنا
جيدة، ولكن حين صار بيير مطراناً، وأنت تعرفين، كنا نكتم حبنا. لماذا نجني
على أنفسنا بما لا يرضاه الله؟ وهنا أخينا قصتنا. لا تلومي بيير، وأنا أعرف
ذنبي - ولأن جانيت - نيكول لم تكن تزيد المزيد من الحديث في موضوع
حبهما سألت عائشة عما لاحظته في أثناء جلوسها: - أنتظرين شيئاً يا أيسيه
أم يصعب عليك الجلوس؟ إن كنت تعبت فلا تخجلي مني، سأضجعك أو
أضع الوسادة وراء ظهرك. وإذا حان موعد دوائك أعطيتك إيه.

- شكرأ يا جانيت - نيكول، لم يمض وقت طويل على جلوسي، ولست
متعبة. - نظرت عائشة إلى معلمتها، كما دائماً، بعين مرتاحه، وكشفت
مستغرية ملاحظتها ما كانت تنتظره. - كما انتظرتك اليوم يا عزيزي، أنتظر
شخصين - واختتمت بابتسامة لا تخلو من التصنع: - والاثنان رجال.

- لم أعد أعرفك يا أيسيه! - مازحت جانيت - نيكول عائشة.

- إن كان هذا رأيك أخبرتك باسميهما: فولتير ودو إيدي. تعرفين العلاقة بيني
وبين فولتير، وهو معلمي كما أنت. وأنا مهمومة بالخبر الذي ننتظره كلامنا
والذي سيحمله إلينا.

- الآن فهمت يا أيسيه لماذا تأنقت - مزحت معها مرة أخرى وهي تحاول بث
الأمل في نفسها.

- وليس هذا وحده. لم أكن أريد أن يراني فرانسوا ماري أروا فولتير المفكر الكبير
وأنا في الفراش. - ما كادت عائشة تنهي كلامها حتى جعلها صوت العربية
ال الصادر من جهة الدار ترفع رأسها. أصلحت ناسية مرضها قبة قميصها
وشعرها: - عربية من هنما يا ثُرى؟ ليست عربة دو إيدي شفاليه.

قالت جانيت نيكول من على النافذة:

- لا يخرج منها شخص واحد فحسب... بون دو فيل فولتير دو إيدي،
ومعهمما شاب لا أعرفه.

دعت ماري - أنجليك تطير من الفرح ناسية أن في البيت مريضة، الرجال
الأربعة. وخرج من بينهم فولتير، وقرأ القصيدة التي كتبها لأيسية:
لتكن في دمك النار المتقدة،
وليدب جليدك في الصدر،
ولتبق نار روحي في قلبي،
ولتغلبك دفؤها!

حين انتهى فولتير من قراءة القصيدة، وصفقوا له، مد الورقة التي كتبت عليها
إلى عائشة وقال فخوراً بها:

- يا أيسية، شارلوت - إليزابيت أيسية، يا ملاكي الشركسي، أنت جميلة في
كل زمان. وحلوة الطابع. ولكن ما أعزه أكثر من أي شيء آخر، في غمرة
تحمتي، هو حكمتك الأنثوية، واحترامك لنفسك. أعطيك قصيدي المكتوبة. لا
تمرضي! نحن بحاجة إليك. ولستنا وحدنا بل الفن الذي تعرفيه يقول لي قلبي إنه
بحاجة إليك. سأعرفك على الرجل الذي لا تعرفيه من بين رفافي: ديني لأنغير
ديدرو الذي نتوقع منه أن يكون فيلسوف المستقبل. - خرج ديدرو الذي لم
يتجاوز الحادية والعشرين من بين رفاقه خطوة إلى الأمام، وحيا عائشة وجانيت
- نيكول، ثم تراجع. وأكمل فولتير كلامه: - الآن نهشكمما: شارلوت إليزابيت
أيسية دو فيريول الكونتيسة وبليز - ماري دو إيدي شفاليه: وقع الملك لودفيغ
الخامس عشر على الأمر الملكي القاضي بتسجيل ابنتكم سيلين على
اسميكما؛ أرِهم يا دو إيدي الأمر!

حين سمعت عائشة الخبر الذي كانت تنتظره، ورأت الوثيقة التي تشهد عليه، تفجر فرحتها – حزنها. ووافقتها ماري – أنجليك. وذرفت جانيت – نيكول دموع الفرح. و كان بون دو فيل هو من يهدى النساء :

– يا ماما، ويا جانيت – نيكول كان الأفضل أن تهدى أيسيه من أن تبكيا. فرنسوا فولتير هو من حلّ هذه المعضلة كلها. وأقنع الملك. ولم يكن بليز – ماري دو إيدي شفاليه بعيداً عن الموضوع. وأنت يا شارلوت – إليزابيت أيسيه لا يجهلك الملك. وقد أثبتت أختي وصهري أنه لا شيء أقوى من الحب في عادات وتقالييد فرنسانا. ويستحق الحب النقى بين هذين أن تكتب عنهما مسرحية وكتاباً وأبرا.

– إن كان هذا رأيكم – قفزت الكونتيسة ماري – أنجليك – لن نترك فرحتنا صامتة. وسنُنُجح الكونت أوغستين – أنطوان، نحن جاهزون وسنستدعيكم بعد قليل.

– حسناً يا ماما، لن نحرم أنفسنا من فرحتنا. – وعدت عائشة الكونتيسة بعدما نظرت إلى جانيت – نيكول بطرف عينها. وقالت لفولتير: – شكرأ لك يا فولتير، لن ننسى معرفتك أبداً. – ومع أن عائشة كانت فرحة بلـ شمل أسرتها فقد تنهدت عارفة أن فرحتها لن تطول. – أخشى أن تكون متابعتك لموضوعنا أثرت على كتاباتك.

– لا يا أيسيه. لم يؤثر في شيء؛ وبعد مسرحية "بروت" التي تعرفينها كتبت مسرحية جديدة اسمها "زايرا"، والآن أعمل في "موت القيصر" وأكاد أنتهي منها. ولذا يا أختي الصغيرة حين يتم إخراجها على المسرح ستشاهديها. وامدحيني إن أردتِ أو ذميسي فسأسمع ملاحظاتك عليهما. أنت لا تعرفين

نفسك يا أيسى العزيزة، ستتصبحين ناقدة مسرحية ممتازة؛ أليس كذلك يا بون
دو فيل؟

X

"نجا من المصيبة لتأخذه الفرحة" ربما جاء هذا القول المأثور من إنسان تعيس الحظ مثل عائشة. — الخبر الذي انتظرته من أجل ابنتها والذي صار دواء لضيق تنفسها وسعالها، رجع في اليوم التالي نوبةً حادة. وفهمت عائشة أنها لن تنجو هذه المرة: لا تندكر أين سمعت أن المريض الخطير يتحسن قُبَيل الموت، غير أنه لا يغيب عن ذهنها أمس واليوم. ولم تجعل أحداً حولها يحس بمشاعرها. وفي الوقت القصير الذي وقته على قدميها أعادت ترتيب ملابسها.

— الملابس التي أشرت لك إليها من بين ملابسي أعطيها لك يا صوفي. تصرفي فيها كما تريدين؛ البسيها إن شئت دون أن تخرب أحداً أنها كانت لي. أو بيعيها، — قالت عائشة وهي تقرأ في الكتاب.

— ماذا تقولين يا أيسية؟! — خارت قدمها صوفي فجلست وبكت — لا تتوقعني هذه الأمور السيئة لنفسك ولو كرمى لسيلين.

— نعم يا صوفي، نعم. — عانقت عائشة صوفي دون أن تُبدي على نفسها ضعفاً رغم أنها كانت تنفس بصعوبة. وأكملت بعد استراحة: — تفهم الله سبب خططي فأعاد لي ابني الصغيرة. وعوضني عن معاناتي. الآن أعدُّ نفسي محظوظة. ولكن هذه آخر فرحة في حياتي. تبقى البارحة يوم أمس، واليوم هو اليوم، ولكن لا يمكن تغيير شيء. ما الفائدة من أن أرتوi بكاء بعد أن حدث ما حدث؟ قلي يخدثني أن نهايتي هي اليوم أو غداً، وأنت لست بعيدة عن هذا التوقع. أتوسل إليك أن تساندي صلابتي وإنسانيني، وتودّعني بحما إلى حيث أرحل. وهذه الكتب المتعلقة بالشراكسة بدأت معني جانيت — نيكول وأنا صبية في مدرسة دير سان — كول فحملتني على قراءتها. وقد شكرتها، وما أزال أشكرها؛ أرجو منك إيصالها إلى ابني سيلين. وأوصلي إليها الزيّ الذي خاطته

لي جانيت - نيكول في حفل استقبال زوجة الملك لودفيغ الرابع عشر في سان - كول، والقبعة التي سُبِّيْثُ فيها، والنطاق الذي أعاده إلى فخري. وألْحَقَ بِها مِقْصِّي وَكُشْتُبَانِي وَالْإِبْرَةِ.

- وهذه، وغيرها أنا مستعدة لها يا أيسبيه - قالت صوفى وشفتها الصغيرتان ترتجفان - ولكن لا تفكري في هذه الأمور، ها أنت سترين سيلين في يوم كهذا اليوم، وقد عادوا بِها من إنجلترا لتفرحي بِها، وتجدي سعادتك معها.

- وأنا أَتَنْتَنِي هذا يا صوفى... - قالت عائشة، واختتمت بصوت منكسر: - لا أَتَذَكَّرُ أَنَّهُ تَحْقَقَ لِي مَا أَتَنْتَنِي فِي هَذِهِ الدُّنْيَا إِلَّا حَيِّ الْوَحِيدِ... وَأَنْتَ تَعْرِفُنِي لَمْ أَهْنَأْ بِهَا الْحُبَّ. مَاذَا كُنْتَ آمِلُ، الْعَالَمُ الَّذِي عَشْتَ فِيهِ وَالَّذِي دُمِّرَ فِيهِ حَيَايِّي كَانَ عَالَمًا لَا يَحْمِي شَرْفَ الْمَرْأَةِ. وَلَكِنِي لَا أَنْدِمُ عَلَى احْتِفَاظِي بِجَنِينِي. صَحِّيْحٌ أَنَّهَا وَضَعْتِي فِي مَوْقِعِ مُخِّرٍ فَأَنَا أَخْتَارُ دَنَسًا وَحِيدًا أَعْيَشُ بِهِ عَلَى أَنْ تَكُونَ الْحَيَاةُ كُلُّهَا دَنَسًا... - هاجمت نوبة السعال عائشة فقطعت كلامها. ولكنها تخلصت من ضيق التنفس حين تناولت دوائهما. وأكملت وهي تضع من يدها المنديل الصغير الذي تلوّن بلون الدم: - هذه حالى يا صوفى وأنت تعدينى أن أرى سيلين التي تقيل في إنجلترا البعيدة...

- أما قال لك دو إيدى شفالىيه إنه ما إن يعود اليوم من سانس حتى يغادر إلى إنجلترا؟!

- هذا غداً، واليوم هو اليوم يا صوفى - ارتسمت ابتسامة على شفتي عائشة ولو أَنَّهَا تَعْرِفُ مَا قِيلَ لَهَا - كان من المقرر أن يأتي إيدى إلى قبل أن يسافر لِتَكَلَّمُ فِي مَوْضِعَاتِنَا أَكْثَرَ، وَالآن لَأَنِّي مُدِينَ بِجَوابِ مَا كَتَبَهُ إِلَيَّ الْمَرْكِيْزَةَ جولي كالاندرلين، لا أَعْرِفُ إِنْ كُنْتُ أَسْتَطِعُ، سأَحْاولُ الْكِتَابَةِ:

"اليوم لا أستطيع مكالمتك طويلاً يا جولي العزيزة. — بدأت عائشة كتابتها — ولكنني متلهفة على أن أكتب إليك ما أحب أن تعرفه أكثر من أي شيء آخر. فبفضل الله ارتأحت نفسي لأنني حفقت ما كنت كتبته إليك. وواجبي الآن أن أعيش القليل الباقى من حياتي وأنا أكفر عن ذنبي. وقد مضت ثمانية أيام على اعتراضي بها أمام بورسو واعظ الملك. وقد أراح هذا الاعتراف قلبي، ولو احتفظت بأسرارى لرحلت إلى العالم الآخر تعيسة وهي تعصف بي ساعة رحيلي. والسبب لأنني الآن في الفراش خائرة القوى جداً.

صوفى المسكينة تحرص على وترعاني. وحين أرى لفتها على أحابول أن أتحسن؛ سواء استطعت أم لم أستطع. سيطر الحزن الشديد عليها. سيرعاها بعد وفاتها أصدقائي لأنهم يحبونها جداً. وبغض النظر عن كل هذا يُريحني أنني سأترك لها ما يكفيها لقمة عيشها.

لا ضرورة أن أضيف شيئاً في ما يتعلق بشفاليه. من الصعب أن تجدي إنساناً في قوة حبه وصدقه ونقاءه، وفي جمال إنسانيته. وبالنسبة إلى الصبية، فكما قلت لك قبيل أيام، لم أعد قلقة عليها فلها من يرعاها ويتابع شؤونها ويحبها. وداعاً يا حبيبي. لن يبقى عندي مزيدٌ من القوة أكتب بها. ما عشته كان عبأً حقيقياً. لم أجده في حياتي ما يجلب لي فرحاً حقيقياً ولو غمضة عين. عشت حياتي منذ أن فتحت عيني على الدنيا في الأفكار والهواجس. وبدأت أعي أخطائي من ذلك الوقت. ولما كنت واثقة أن الله سيشمني برحمته فإن كان سيأتبني حظًّا من الدقيقة التي أفارق فيها الجسد الفاني، فلماذا أخاف صعود روحي؟ ليمد الله في عمرك أنت يا جولي الغالية، هذه آخر كتابة لي!"

حين انتهت عائشة الجالسة في سريرها تسندها وسادتها، جلست بعض الوقت ساهمةً. ثم اضطجعت واستدارت نحو الجدار، ثم بدأت بعينين مغمضتين تعيد

التفكير في ما ستكون عليه حال ابنتها وعيشتها: "لا، لا، أنا لن أشهد هذا... المواعيد التي كنت أنتظرها بالأيام في الماضي تحولت إلى الساعات. لن يُحيجها إيدي، وهي ابنتنا الوحيدة حين يستعيدها، إلى شيء عندما عذبناها كل هذا العذاب. ولكن كيف أفارق الدنيا قبل أن أعرفها أين أمها؟ طبعي أن يعرفها والدها ولكن إن لم أفعل هذا بنفسي فلست إنساناً، وأستحق كل هذه المعاناة" — جلست عائشة من جديد في الفراش وقد استمدت قوة من غضبها، وبدأت تكتب الرسالة التي ستتركها لابنتها: "يا روحى، يا سيلين الوحيدة التي كسبتها في حياتي القصيرة. من تكتب لك هذه الرسالة هي من كنت تنادينها "تانت"، ولكنى لست خالتك بل أمك الحقيقية. اسمى شارلوت — إليزابيت أيسى. وأصلى من شراكسة القفقاس. سيروى لك والدك بليز — ماريوب إيدي شفالىيه ما جرى لي في حياتي. أنا أحب والدك، إنه أحد رجال فرنسا التي صرث منها. وهو يحبك. اطمئنى إليه واستمدى منه الثقة. واحترمىه. ولا أشك في أنه سيقابلك بالمثل. من الممكن ألا أعيش إلى أن تصلك رسالتي ولذا أدعو إلى الله أن تعيش أنت ووالدك في سعادة. وداعاً أيتها الصبية التي حرمتها من حلاوة الأم. ليصلك دفهي مع قبلي التي سيوصلها إليك والدك باسمى. وأنا بقىت أحافظ بالقبلة وفي قلبي أفارق دنياى العارية كما كانت تقول جدي. إن استطعت فاغفرى لي ذنبي نحوك. أمك شارلوت — إليزابيت أيسى. وبالشركسية: آيشت. في السادس والعشرين من آذار عام 1733 باريس" في الظهيرة ساءت حالة عائشة: بدأت، خلافاً للأيام الماضية، تبصق دماً مع كل سعلة، حتى هرع إليها كل من في البيت وفي الدار.

— لا تبكوا يا ماما! — توسلت إليهم عائشة في غفلة من ساعتها، مخصصة ماري — أنجليك. — كل إنسان سيلاقى ما كتبه الله على جيئه. ولا مفر منه

ولذا أقول لكم إنني راضية عنكم جميعاً: ماما، وعمي أوغستين - أنطوان، وأخوي بون و فيل وأرجنتال، وصوفي، ولاروش، وديستان وغيرهم. اغفروا لي إن أساءت إليكم. وبلغوا الأمر نفسه إلى جولي كالاندرین وآل بولينغبروك وكلودين - ألكسندرین وبير وجانيت - نيكول. ومن لا أراه بينكم دو إيدی، كان ذهب إلى سانس من أجل وثائق سيلين. ربما لم يعد إلى الآن...

شفالیه العائد من السفر لم يتوجه إلى بيته بل إلى بيت آل فيريول. دخل الغرفة عارفاً في قلبه ماذا يحدث فيه. ولم تتوقف عيناه على شيء قبل أن يتوجه إلى

قائمة سرير عائشة. جثا على ركبتيه وهمس لها وهو يقبل يديها:

- ما الأمر يا عائشة، يا حبي المنير، دون أن تنتظري ابنتنا سيلين وتودعها...
جهزت كل أوراقها و كنت عاقداً العزم على التوجه غداً إلى إنجلترا...

- أنا راضية عنك يا إيدی. انتظري اليوم فحسب لأجمع بينك وبين سيلين الصغيرة. - مدت عائشة الورقة المطوية التي سحبتها من قميصها: - أعطى هذه لابنتنا الصغيرة. أُنهي حياتي بهذا. يا ماري - أنجيليك يا ماما، كما أوصيتك، إن كنت تريدين رضاي، شُدّي ذقني إلى أعلى رأسي بغضاء رقيق...
وسجّي يدي إلى جانبي. أنتقل إلى عالم آخر. ثم أنتم ادفنوني كما تشاوون...
أريدك يا إيدی أن تمسك بيدي إلى أن ألفظ روحني.

حين سمعت عائشة الدقات الحزينة لجرس الكنيسة الواقعة على شارع سان - أوغستين كأنما عرفت بانتقال شارلوت - إليزابيث أيسبيه دو فيريول الكونتيسة إلى العالم الآخر، قالت دون أن تفتح جفنيها: "من أجلي أنا تقع هذه الأجراس" وغابت إلى الأبد.

خاتمة

هذه قصة حياة ابنة الأمير بولت عائشة شارلوت - إليزابيت أيسبيه دو فيريول الكونتيسة. أكتبها إلى قراء الكتاب دون أن أضيف أو أنقص من أحداث حياتها شيئاً مهماً إلا رأيي، عسى أن يصدقوني.

آلمني قلبي طوال استغرافي في تأليف الكتاب. وأجهشت بالبكاء، ولكن ما العمل؟ هذه هي ضرورة الكتابة. كان من الممكن أن أكتب أي شيء، كأي خبر يُروى، أو بتعبير آخر: من أطراف أصابعي دون أن أحرق نفسي في الدم الذي يغلي في عروقي، وأفنيها في التاريخ، لولا أن قلبي يتأنم للماسي التي مر بها قومي. ولكنني، وأنا أُبَيِّنُ صدق ما كتبت، قررت أن أضيف ما جرى لأبطال الرواية الذين كانوا أحياء حين انتهت أحداثها بموت عائشة.

ذهبت إلى كنيسة "روك" التي ذكرتها قبل أن أحدث عن المقبرة التي ترقد فيها عائشة في باريس. وفي أحد الكتب القديمة المحفوظة فيها ما يلي: "دُفنت شارلوت - إليزابيت - أيسبيه دو فيريول الكونتيسة في هذه المقبرة. يشهد على هذا بون دو فيل وأرجنتال دو فيريول. 28 آذار عام 1733"

وسأبدأ بأخبار بليز - ماري دو إيدري شفاليليه وسيلين. ضم دو إيدري ابنته إليه، وعاشا معاً حتى رباهما وزوجها. ولم يتزوج البتة، ومات عام 1761 عن عمر يناهز الستين عاماً. وتزوجت سيلين عام 1740 من الفيكونت بيير دو جوبيروم دو نانتيا، وحين تزوجت ابنتها ماري - دونيز حملت الأخيرة اسم الكونتيسة دو بونيفال. أما سيلين دو نانتيا فلا نعرف تاريخ وفاتها.

تأخرت ماري - أنجيليك عن عائشة ثلاث سنوات فماتت عام 1736 قبل أن يلحق بها أوغستين - أنطوان بعام واحد عام 1737 عن عمر يناهز الرابعة والسبعين. ومات بون دو فيل عام 1774 بعد ما كتب مسرحيات كثيرة. وأخوه

الأصغر أرجنتال توفي عن 88 عاماً. وقد عمل في قصر الملك سفيراً لدوقيه بارميسك، ومستشاراً للدولة في باريس. وبقي في القصة فولتير المعروف في العالم كله، ومونتسكيو وديدرو في أعمالهم.

وتوفيت كلودين - ألكسندرین غيرين دو تانسين التي كان ديدرو يسميهها "جيلاة مُشينة" عام 1749 بعدما أصبحت كاتبة معروفة. وتوفي بيير غيرين دو تانسين عام 1758 عن 78 عاماً وقد أصبح كاردينالاً عام 1739. وعملت جانيت - نيكول بعدما قطعت علاقتها بيير دو تانسين، سعيدة - تعيسة، معلمة وتوفيت عام 1746. عن 73 عاماً. ودفنت في المقبرة التي ترقد فيها عائشة. وأقامت صوفى قبل مُضيّ أسبوع على وفاة عائشة في الدير الخاص بالنساء في شارع سان - نيف أوغستين. بعدما عاشت هناك خمسة عشر عاماً تدعى إلى الله من أجل عائشة ومن أجلها انتقلت إلى رحمته.

فارق الدكتور لاروش آل فيريول حين توفيت ماري - أنجيليك، وضمّ إليه إحدى عشيقاته "لولو"، وبعدما عاشا معاً تسعة أعوام ماتا في العام نفسه. وحين أصبحت مهام دستان ثقيلة عليه عاد إلى قريته مسقط رأسه وعاش فيها ولكن لا أحد يعرف ما جرى له بعدها.

وتوفيت الكونتيسة باراير منفصلة عن زوجها عن اثنين وستين عاماً عام 1755. وعاشت المركبة دو ديفان التي كانت تملك الصالون الأدبي - الفلسفي المعروف في باريس كلها، والذي كان يرتاده فولتير ومونتسكيو وديدرو وبون دو فيل وأرجنتال وجولي بولي ثمانية وثمانين عاماً، وتوفيت عام 1780. واللورد بولينغبروك غيرين سان - جون (1678 - 1751) عمل في العلاقات الخارجية البريطانية. وكان رئيس حزب "توربيه"، سكرتيراً للدولة عدة سنوات. وكانت زوجته ديشان دو مارسيل ماري - كلير المركبة (1675 - 1750)

وابنتهما إيزابيل - لويس دو بالي دو باليت (1696 - 1777) عملت مديرة مليتم سانس محلصة لعملها، وحين توفيت دُفنت حيث كانت تعمل في الدير. وعاشت جولي كالاندرین (1668 - 1754) التي كتبت لها عائشة شارلوت - إيزابيل أيسبيه دو فيريول الكونتيسة ستةً وثلاثين رسالة بقيت جزءاً من تراث فرنسا الأدبي الكلاسيكي ستة وثمانين عاماً. وإيريكول - أندريه فريلي الذي كان ملخصاً لعائشة عمل من عام 1726 إلى مماته (1653 - 1743) كاردينالاً أعلى لفرنسا.

والفنانون الذين كانت تجدهم عائشة؟ عاش بارون ميشيل 76 عاماً. وعملت ليمور طويلاً على المسرح. وعاشت أكثر من 82 عاماً. وماتت عام 1786. ولم تعيش بيليس أكثر من 42 عاماً فماتت عام 1749. ولا يزال أمامي ثلاثة أسماء: ابن مادلين وقد أصبحت سعيدة إلى جانبه عاش 78 عاماً. وفخري الذي صار رب أسرة كبيرة عاش 93 عاماً. وأورخان مات في اشتباك مع بوليس تركيا عن 47 عاماً.

لست وحدى من كتب عن عائشة شارلوت - إيزابيل أيسبيه الكونتيسة. فقد كُتب عن تاريخ حياتها أو ما يتعلق بها روايات ومسرحيات وأبحاث وأشعار: "أيسبيه أو الفتاة الشركسيّة" بقلم (ج. ج. إ روا) و"قصة فتاة شركسية"، و"الأنسة أيسبيه" بقلم (لوي بوبيه). و"أيسبيه" بقلم (كامبل بريد) و"الأنسة أيسبيه والفارس اللطيف شفالليه" (كلود فيفال) و"المصير المدهش للأنسة أيسبيه" (جان دو إيفر) "رسائل مدموازيل أيسبيه إلى كالاندرین" و"أيسبيه رسائل وتاريخ" (آ. ل. أندريه و ب. ر. زابوروف) و"شارلوت - أيسشت" (حشبلوقوه عيسى) و"فولتير و الحورية الشركسيّة" (حشخوج راي) و"أيشيه الحورية عيسى)

الشركسيّة (جمعها وكتب المقدمة حفازة محمد) و"أسيرة القفقاس" (سيريغي ماكييف). وفي أزمان مختلفة نظمت أشعار وأبحاث لجان جاك. وكتب فيرن، وبون دو سان - فيكتور، وجول سوري، وإدمون بيلون، وإميل اندره، وأندريه موراينا، وغيرهم.

وسيقول لي بعضهم: عائشة شارلوت - إليزابيت أيسيل التي كتب عنها هذا الكّم من الكتب، ما الذي شجعك على أن تكتب عنها أنت أيضاً رواية؟ ولكن حين قرأت هذه الكتب فحسب قال لي قلبي الأديعي أن أكتب عنها. والآن أنت من سيحكمون عليها، وأنا راضٍ مهما حكمتم عليها.